

صلاح الأمة في علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم | الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود | الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الرابع

مؤسسة الرسالة



□ السَّيِّدُ الوَلِيُّ .. العلاءُ بن الحَضْرميّ الصَّحَابيّ ، □ فاتِحُ « البَحْرين » وجزيرة « دارين »

خالُ طلحةَ بن عبيد الله أحدِ العَشرة .

يذكر التاريخُ للعلاء سِفارتَه بَيْنَ النبي ﷺ وَمَلِك « البحرين » المنذر ابن ساوَى ، وإسلام مَلِك « البحرَيْن » وأهلِ « البحرَيْن » على يديْه . ويذكر له انتصاراته الحاسمة على أهل الرِّدَّة في « البحرين » ، على الرغْمِ من رَصَانة قوَّتِهم ، ومعاونة الفُرْس لهم .. ولهذا قصةٌ سنذكرها .. وفتح العلاءُ أيضًا « أسيافا » مِن « فارِس » .

ويذكر التاريخ للعلاء أنَّه كان أولَ قائدٍ مسلمٍ بعَث قائدًا مسلمًا في البحرِ للفتْح ، وهو « عَرْفَجَة بن هَرْثمَة » الذي فتح بعض جُزُر الخليج العربي ، وبعض مناطق « خوزستان » .

أمَّا قصةُ « دارين » ، واستنقاذ ونجدة العلاء للجارود بن المعلى ، ومَن ثبَتَ على إسلامه من البحرين ، فهذه:إنّ أهلَ « البحرين » لمّا ارتدُّوا عقَد الصِّدِّيقُ لواءَ « البحرين » للعلاء ، فسار إليها على طريق « الدَّهْناء » ، وهي صحراء مخوفة ، خاليةٌ مِنَ الماء والمَرْعَى ، فلاقَى العلاءُ ورجالهُ مَشَقَّاتٍ كثيرةً عند قطْعها ، حتى أصبحتْ حياتُهم في خطرٍ عظيمٍ[1] ، ولكنَّ العلاءَ وَصَحْبَه تحمَّلوا تلك المشقّاتِ بإيمانٍ وَصبْرٍ عجيبيْن .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦ / ٢٣٢ - ٣٣٤) : « قد كان العلاءُ من ساداتِ الصحابة العلماءِ العُبَّاد مُجَابي الدعوة ، اتَّفق له في

---

(١) الطبري ٢ / ٥١٩ .

هذه الغزوة أنه نزل مَنْزِلًا ، فلم يستقرَّ الناسُ على الأرض حتى نَفَرتِ الإبلُ بما عليها : من زَادِ الجيش وخيامهم وشَرابِهم ، وبقوا على الأرض ليس معهم شيءٌ ، سِوَىٰ ثيابهم - وذلك ليلًا - ولم يقدروا منها على بعيرٍ واحدٍ ، فركِب الناسَ من الهَمِّ والغَمِّ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَف ، وجعل بعضُهُم يُوصي إلى بعضٍ ، فنادىٰ مُنادي العلاء ، فاجتمعَ الناسُ إليه ، فقال : أيُّهَا الناسُ ، ألستم المسلمين ؟! ألستمْ في سبيل الله ؟! ألستم أنصارَ الله ؟! قالوا : بلى . قال : فأبشِروا ، فواللهِ لا يَخذلُ اللهُ مَن كان في مِثْلِ حالكم ، ونُودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلَّى بالناس ، فلمَّا قَضَىٰ الصلاة جَثَا على ركبتَيْه وجثا الناسُ ، ونَصَبَ في الدعاء ورفع يديْه ، وفعل الناس مثلَه ، حتى طلعتِ الشمس ، وجعل الناسُ ينظرون إلى سراب الشمس يلمَعُ مرةً بعد أخرى ، وهو يجتهد في الدعاء ، فلمّا بلغ الثالثةَ إذا قد خلَق اللهُ إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القَرَاح ، فمشى ومشى الناسُ إليه ، فشرِبوا واغتسلوا ، فما تعالى النهارُ حتى أقبلتِ الإبلِ من كلّ فجٍّ بما عليها ، لم يفقدِ الناسُ من أمتعتهم شيئًا ، فسقوا الإبل عَلَلًا بعد نَهَلٍ ، فكان هذا ممّا عايَنَ الناسُ مِن آياتِ الله بهـذه السَّرِيَّة ، ثم لمّا اقترب من جيوش المـرتدَّةِ - وقد حشـدُوا وجمعُوا خلقًا عظيمًا - نزلَ ونزلوا[1]. وباتوا مُتجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل ، إذْ سمِع العلاءُ أصواتًا عاليةً في جيش المرتدين ، فقال : مَنْ رجلٌ يكشفُ لنا خبرَ هؤلاء ؟ فقام عبد الله بن حـذفٍ ، فدخل فيهم فوجدهم سُكَارىٰ لا يعقلون من الشراب ، فرجع إليه فأخبره ، فركِب العلاء مِن فوْرِه والجيشُ معه ، فكبسوا أولئك فقتلوهم قتْلًا عظيمًا ، وقلّ مَن هرب منهم ، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم ، فكانت غنيمةً عظيمةً جسيمةً ، وكان الحطم بن

(١) أيْ : خندق على قواته ، وخندق الكفارُ على أنفسهم ، في حصارٍ استمرّ شهرًا .

ضبيعة – أخو بني قَيْسِ بن ثعلبة ، مِن سادات القوم – نائمًا ، فقام دَهِشًا حين اقتحم المسلمـون عليهم ، فركب جوادَه ، فانقطع رِكابُه ، فجعـل يقول : مَن يصلحُ لي ركابي ، فجاء رجلٌ من المسلمين في الليل ، فقال : أنا أُصلحها لك ، ارفع رِجْلَك . فلما رفعها ضربه بالسيف ، فقطعها مع قدمه ، فقال له : أجْهِزْ عليَّ . فقال : لا أفعل . ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين ، يقتلونهم بكلِّ مَرْصَدٍ وطريق ، وذهب مَن فرّ منهم – أو أكثرهم – في البحر إلى « دارين » ، ركبوا إليها السُّفنَ ، ثم شرع العلاء في قسْم الغنيمة ونقْل الأثقال ، وَفَرَغَ مِن ذلك ، وقال للمسلمين : اذهبوا بنا إلى « دارين » لِنغزوَ مَن بها من الأعداء ، فأجابوا إلى ذلك سريعًا ، فسار بهم حتى أَتى ساحلَ البحر لِيركبوا في السفن ، فرأى أنَّ الشُّقةَ بعيدة ، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداءُ الله ، فاقتحمَ البحرَ بفرسه وهو يقول : يا أرحمَ الراحمين ، يا حكيمُ يا كريمُ ، يا أحَدُ يا صَمَدُ ، يا حيُّ يا مُحيي ، يا قيُّومُ ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلٰه إلا أنت يا ربّنا . وأمر الجيشَ أن يقـولوا ذلك ويقتحموا ، ففعلوا ، فأجاز بهم الخليجَ – بإذن الله – يمشون على مِثْلِ رمْلٍ دَمِثَةٍ ، فوقها ماءٌ لا يَغمِرُ أخفافَ الإبل ، ولا يصل إلى رُكَبِ الخيل ، ومسيرته للسفن يومٌ وليلة ، فقطعه إلى الساحل الآخر ، فقـاتَل عَـدوَّه وقهرهم ، واحتاز غنائمهم ، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر ، فعاد إلى موضعه الأول ، وذلك كلُّه في يومٍ ، ولم يتركْ من العدوِّ مخْبِرًا ، واستاقَ الذراريَ والأنعامَ والأموال ، ولم يفقدِ المسلمون في البحر شيئًا ، سوى عليقةَ فرسٍ لرجلٍ من المسلمين ، ومع هذا رجعَ العلاءُ فجاءه بها ، ثم قسّم غنائمَ المسلمين فيهم ، فأصاب الفارسُ ألفَيْن ، والراجلُ ألفًا ، مع كثرة الجيش ، وكتب إلى الصِّدِّيق فأعلمَه بذلك ، فبعث الصديقُ يشكره على ما صنع ، وقد قال رجلٌ من المسلمين في مرورهم

في البحر - وهو عفيفُ بنُ المنذر - :

ألَمْ تَـرَ أنَّ اللهَ ذلّلَ بَحْـرَهُ وأنزلَ بالكفار إحدىٰ الجلائلِ
دَعَوْنَا إلى شَقِّ البحارِ فجاءَنا بأعجبَ من فَلْقِ البحارِ الأَوَائلِ »

وذكَرَ العلّامةُ ابنُ كثيرٍ جلائلَ معجزاتِ الأنبياء ، فقال : « فمنها نجاةُ نوحٍ في السفينة بالمؤمنين ، ولا شكَّ أنَّ حمْلَ الماءِ للناس مِن غير سفينةٍ أعظمُ مِنَ السُّلوك عليه في السفينة ، وقد مشى كثيرٌ من الأولياء على مَتْنِ الماء ؛ وفي قصَّةِ العلاء - صاحبِ رسول الله ﷺ - ما يدلُّ على ذلك : روى منجابٌ ، قال : غَزَوْنَا مع العلاء بن الحضرمي « دارين » ، فدعا بثلاثِ دَعَوات ، فاستُجيبَتْ له ، فنزلنا منزلًا فطلب الماءَ فلم يجدْه ، فقام فصلَّى ركعتيْن وقال : اللهمَّ إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك ، اللهمَّ اسقِنا غَيْثًا نتوضأ به ونشرب ، ولا يكون لأحدٍ فيه نصيبٌ غيرنا . فسرنا قليلًا ، فإذا نحنُ بماءٍ حين أقلعتِ السماء عنه ، فتوضأنا منه وتزوَّدنا ، وملأتُ إداوتي وتركتها مكانها حتى أنظر : هل استُجيبَ له أم لا . فسرنا قليلًا ثم قلتُ لأصحابي : نسيتُ إداوتي . فرجعتُ إلى ذلك المكان ، فكأنه لم يصبْه ماءٌ قطُّ ، ثم سِرْنا حتى أتيْنا « دارين » ، والبحرُ بيننا وبينهم ، فقال : يا عليُّ يا حكيم ، إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك ، اللهمَّ فاجعلْ لنا إليهم سبيلًا . فدخلنا البحرَ فلم يبلغ الماء لُبودَنا ، ومشيْنا على مَتْنِ الماء ولم يبتلَّ لنا شيءٌ ... وذكر بقيّةَ القصة . فهذا أبلغُ من ركوب السفينة ؛ فإنَّ حمْل الماء للسفينة معتادٌ ، وأبلغُ من فَلْق البحرِ لِمُوسىٰ ، فإن هناك انحسرَ الماءُ حتى مَشَوْا على الأرض ، فالمُعْجِزُ : انحسارُ الماء ، وهاهنا صار الماء جسَدًا يمشون عليه كالأرض ، وإنما هذا منسوبٌ إلى النبي ﷺ وبَركتهِ . انتهىٰ ما ذكره بحروفه فيما يتعلق بنوحٍ عليه السلام . وهذه القصة التي ساقها شيخنا ذكَرَها الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه

« الدلائل » ، مِن طريق أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي كُريبٍ ، عن محمد ابن فُضيل ، عن الصَّلت بن مَطر العَجَليّ ، عن عبد الملك ابن أخت سهمٍ ، عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء بن الحضرمي ... فذكره . وقد ذكرها البخاري في التاريخ الكبير من وجهٍ آخر . ورواها البيهقي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان مع العلاء وشاهد ذلك . وساقها البيهقي من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله ، عن عَوْنٍ ، عن أنس بن مالك قال : أدركتُ في هذه الأُمَّة ثلاثًا ، لو كانت في بني إسرائيل لَمَا تقاسَمها الأمم . قلنا : ما هُنَّ يا أبا حمزة ؟ قال : كنا في الصفة عند رسول الله ﷺ ، فأتته امرأةٌ مهاجِرةٌ ومعها ابنٌ لها قد بلغ ، فأضاف المرأة إلى النساء ، وأضافَ ابنها إلينا ، فلم يلبث أنْ أصابه وباءُ المدينة ، فمرِض أيَّامًا ثم قُبِضَ ، فغمَّضه النبيُّ ﷺ ، وأمَر بجهازه ، فلما أردنا أن نُغسِّله قال : « يا أنسُ ، ائت أمَّه ، فأعْلمها » . فأعلمتُها . قال : فجاءتْ حتى جلست عند قدميْه ، فأخذت بهما ثم قالت : اللهمَّ إني أسلمت لك طوْعًا ، وَخَلَعْتُ الأوثان ، فلا تُحمِّلني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله . قال : فوالله ما انقضى كلامُها حتى حرَّك قدميْه ، وألقى الثوبَ عن وجهه ، وعاش حتى قبَضَ اللهُ رسولَه ﷺ ، وحتى هَلَكَتْ أُمُّه . قال أنس : ثم جهَّز عمر بن الخطاب جيشًا ، واستعمل عليهم العلاءَ بن الحضرمي . قال أنس : وكنت في غَزاته ، فأتينا مغازينا ، فوجدنا القوم قد بدروا بنا فعفوا آثار الماء ، والحرُّ شديد ، فجَهَدنا العطشُ ودوابَّنا ، وذلك يوم الجمعة ، فلمّا مالتِ الشمس لغروبها صلى بنا ركعتيْن ، ثم مدَّ يده إلى السماء ، وما نرى في السماء شيئًا . قال : فواللهِ ما حطَّ يده حتى بعث الله ريحًا ، وأنشأ سحابًا وأفرغتْ ، حتى ملأتِ الغدر والشِّعاب ، فشربنا وسقينا ركابنا واستَقَيْنا . قال : ثم أتينا عدوَّنا وقد جاوَزَ خليجًا في البحر إلى جزيرة ،

فوقف على الخليج وقال : يا عليُّ يا عظيمُ ، يا حليمُ يا كريمُ . ثم قال : أجيزوا بسمِ الله . قال : فأجَزْنا ، ما يبلُّ الماءُ حوافِرَ دوابِّنا ، فلم نلبث إلا يسيرًا فأصبنا العدوَّ عليه ، فقتلْنا وأسرنا وسبيْنا ، ثم أتينا الخليجَ ، فقال مِثلَ مقالتِهِ ، فأجزنا ما يبلُّ الماء حوافر دوابنا . ثم ذَكَر موتَ العلاء ودَفْنَهم إيّاه في أرضٍ لا تقبل الموتى ، ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى غيرها ، فلم يجدوه ثَمَّ ، وإذا اللحدُ يتلألأ نورًا ، فأعادوا الترابَ عليه ثم ارتحلوا . فهذا السياق أتم »[1] .

لله دَرُّكَ أيُّهَا القائد الوليّ ... مُجابَ الدعوةِ عالي الهمة ! لله دَرُّكَ يا علاء .. تحثُّ السيرَ لنجدة إخوانك ممّن ثبتوا على إسلامهم في « جواثا » ، أول قرية أقامت الجمعة مِن أهل الرِّدَّة .. القرية التي حاصرها المرتدُّون وضيَّقوا عليها ، حتى منعُوا المسلمين من الأقْوات وجاعُوا جُوعًا شديدًا ، وقال عبد الله بن حذف - وقد اشتدَّ به الجوع - :

ألا أبْلِغْ أبا بكـرٍ رسـولًا ... وَفِتْـيانَ المـدينة أجْمعينـا
فهـلْ لكم إلى قومٍ كِرامٍ ... قُعود في « جوَاثا » مُحصَرينا
كأنَّ دماءَهم في كلِّ فـجٍّ ... شعاعُ الشمس يغشىٰ الناظرينا
توكَّلْنـا على الرحمـٰن إنَّا ... وَجَـدْنَا الصـبرَ للمتوكِّلينـا

لله دَرُّكَ مِن قائدٍ وليٍّ ! يذلل الله له البحرَ كما ذلَّله لنوح النبيِّ .. ويُفاجئ أهلَ الشرك السُّكَارىٰ ، ويُبيِّتهم بتكبيره قبل سيفه ..

كم أشرقتْ في سماءِ المَجْدِ راياتُ ... ورُتِّلَتْ في رِحَابِ الخير آياتُ
وكان رَائِدنَا يحـدُو مسيرتنـا ... اللهُ غايتُنـا الرحمـٰنُ لا اللَّاتُ
ودولةُ الحقِّ بالإسلام تحكُمُنا ... والـيومَ تحكُمُنـا ظلمًا دُوَيْلاتُ

(١) البداية والنهاية ٦ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

تقــودُ أمَّتَنَــا للحــربِ غــانيةٌ ... والجيشُ في الزَّحْفِ قد أَلْهَتْهُ مغْنَاةُ
وكمْ لَعُوبٍ تهاوَوْا عند أرجلِها ... كما تهاوتْ على نارٍ فراشاتُ
الزِّقُّ والرِّقُّ والمِزْمَارُ عُدَّتُنا ... والخَصـمُ عُـدَّتُه عِـلْمٌ وآلات
وَشِرْعَةُ اللهِ في القرآن نهجُرها ... وَشِرْعَةُ الخَصْمِ تلْمُودٌ وتوْراةُ
وَعُدَّةُ الخَصمِ صاروخٌ وطائرةٌ ... ونحـنُ عُدَّتُنَـا الكـبرىٰ قراراتُ
سفينةُ الناسِ ضلَّتْ لا شراعَ لها ... والشَّعْبُ حار وما للشعبِ مَنجاةُ
وَجِيلُنَـا ضـاعَ في تيهٍ يُمـزِّقُهُ ... وَدَرْبُـهُ ضَـلَّ قـد دَكَّتْهُ مأساة
الجهلُ والفقرُ والطغيانُ يَسْحَقُهُ ... والكأسُ والجنسُ مَسْلاةٌ وَمَلْهَاةُ
وباطـنُ الشعـبِ آلامٌ مُبَرِّحـةٌ ... وظـاهرُ الشعـب أفراح وزينات
قد هدّهُ الجوعُ وانهارتْ عزائمُهُ ... وقـادةُ الشَّعْـبِ بالأكباد تقتاتُ
كم بدّدوا المال هَدْرًا في مباذِلِهِمْ ... وفي ليالي الخنَا ضاعتْ مُروءاتُ
في السلم كأسٌ وسيجارٌ وغانيةٌ ... وساحةُ الحربِ في الهَيْجَا إذاعاتُ
وقادةُ الشَّعْبِ أمواتٌ بِلا كَفَنٍ ... فَهَلْ يُحَرِّرُ أرضَ القدسِ أمواتُ
يا سوْأَةَ العمرِ في تاريخ أمَّتِنا ... لقدْ بدَتْ منكمْ للعينِ سَوْءَاتُ
مَنْ يزرع اليومَ شرًّا فالحصادُ غدًا ... وَقُـدرةُ اللهِ للطغيانِ مِذْراةُ[١]

الصحابيُّ الزاهدُ : عتبةُ بنُ غزْوان ، فاتحُ جنوبِ العراق والأهوازِ ، وأوّلُ مَن مَصَّرَ البصرة :

كان رضي الله عنه أحَدَ السابقين إلى الإسلام ، وكان مِن فرسان المهاجرين وفدائيِّيهم ، وقاتَلَ عتبةُ تحت لواء النبي في كل غزواته . ويذكر التاريخُ لعُتبة أثرَه الكبير في إعادة المرتدين من أهل « عُمان » و« مهرة » إلى

(١) من قصيدة « باسم الشعب .. ولا يدري » ، من ديوان : « في رحاب الأقصىٰ » ليوسف العظم .

الإسلام ، وقاتل رضي الله عنه تحت لواء سعدٍ في القادسية وفي المعارك الأُخرى ، حتى تمَّ للمسلمين فَتْحُ « المدائن » .

عندما أخذ سعدٌ يجهّز لاحتلال المدائن ، قدّر الخليفة عمرُ أنَّ الفُرْس سيستميتُون في الدفاع عنها ، فقرّر أنْ يعمل على تشتيت طاقاتهم ، ومَنْع وصول الإمدادات ، المتوقع أن يصلهم أكثر من « الأهواز » وناحِية شرقي « شطِّ العرب » . فكلّف عمر سعدًا أن يبعث عتبة بن غزوان إلى المكان الذي أُنشِئَت عليه مدينة البصرة ، وكانوا يسمّونه « أرض الهند » ، وقال عمر عن عتبة : « فإنَّ له مِن الإسلام مكانًا ؛ فقد شَهِدَ بدرًا ، وقد رجوتُ جزءَه من المسلمين »[1] .

القـائدُ الفـاتِحُ :

« وحين وجّه عمرُ عُتبةَ إلى منطقة البصرة ، أوصاه : « يا عتبة ، إني قد استعملتُك على أرض الهند ، وهي حوْمَةٌ من حَوْمة العدوّ ، أرجو أنْ يكفيَك الله ما حولها ويُعينك عليها ، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدَّك بعَرْفَجةَ بن هَرْثمة ، وهو ذو مجاهدةٍ ومكايدة للعدو ، فإذا قَدِمَ عليك فاستشرْه ، وادعُ إلى الله ، فَمَنْ أجابك : فاقبلْ منه ، وَمَنْ أبى : فالجزية ، وإلَّا : فالسيف »[2] ، وفوْر وصول عُتبة إلى المكان الذي حدّده عمر ، بَلَغَه تواجد قواتٍ للفرْس تبلغ أربعة آلاف مقاتِلٍ ، ووصل صاحبَ الفـرات خـبرُ عُتبة ، وقال له جُنـده : إنّ هاهنا قـومًا معهم راية ، وهم يريدونك . فأقبَلَ في أربعة أساورٍ ، فقال : ما هم إلا ما أرى[3] ، اجعلوا

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٦ .
(٢) الطبري ٣ / ٩٢ ، وابن الأثير ٢ / ١٨٨ ، والاستيعاب ٣ / ٢٧ - ١ .
(٣) وكان عددُ المسلمين ثمانمائة رجلٍ .

في أعناقهم الحبالَ وائْتوني بهم . هكذا بكل صَلَفٍ وغرورٍ ! فجعل عتبةُ يزجل ، وقال : إني شهدتُ الحربَ مع النبي ﷺ ، حتى إذا زالتِ الشمس قال : احملوا . فحملوا عليهم ، فقتلوهم أجمعين ، فلم يبقَ أحدٌ إلا صاحِبُ الفراتِ ، أخذوه أسيرًا .

هكذا الرجولةُ والفروسيةُ يا عتبة .

وقام الزاهدُ الناسك عتبةُ يخطب في جنده : « إنَّ الدنيا قد تصرّمتْ وولّت حذّاءَ ، ولم يبقَ منها إلا صبابةٌ كصبابةِ الإناء ، ألَا وإنكم منتقِلون منها إلى دار القرار ، فانتقلوا بخير ما بحضْرتكم ، وقد ذُكر لي : لو أنَّ صخرةً أُلقيتْ مِن شفير جهنمَ هوتْ سبعين خريفًا ، ولَتملأنَّه ، أوَ عجبتم ؟! ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعيْنِ مِن مصاريعِ الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وَلَيَأْتِيَنَّ عليه يومٌ كظيظ بزحام ، ولقد رأيتُني وأنا سابعُ سبعةٍ مع النبي ﷺ ، ما لنا طعامٌ إلا وَرَق السَّمر ، حتى تقرّحتْ أشداقُنا ، والتقطتُ بُرْدَةً فشققتُها بيني وبين سعدٍ ، فما منّا - من أولئك السبعة - مِن أحدٍ إلّا وهو أميرُ مِصرٍ ، وسيُجرِّبون الناس بعدنا » .

نعم ، حَفِظ عتبة وصِيَّة عمر له : « قد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فعزَزْتَ به بعد الذّلة ، وقويتَ به بعد الضعف ، حتى صرتَ أميرًا مسلّطًا وَمَلِكًا مطاعًا ، تقول فيُسمع منك ، وتأمر فيطاعُ أمرُك ، فيا لها نعمةً ! إنْ لم ترفعْك فوق قدْرك ، وتبطِّرك على مَنْ دونك ، احتفظْ من النعمة احتفاظَك من المعصية ، وَلَهِيَ أخوفهما - عندي - عليك أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطةً تصير بها إلى جهنم ، أعيذُك بالله ونفسي من ذلك ، إن الناس أسرعوا حين رُفعتْ لهم الدنيا فأرادوها ، فأرِدِ اللهَ ولا تُرِدِ الدنيا ، واتّقِ مَصَارِعَ الظالمين » . ولقد حفظ عُتبة وصية الخليفة ،

ووعاها ورعاها ، فَهَا هو يختطُّ البصرة ، ولكنه لم يختطَّ لنفسه فيمن اختطَّ من المهاجرين ، فمات رضي الله عنه وهو لا يملك دينارًا ولا دارًا .. ها هو فاتح « الأهواز » يستعفي عمرَ من منصبه ، فيأبى عمر أن يعفيه .

قِتالٌ آخرُ مِقدارَ جَزْرِ جَزُورٍ :

« استمرَّ تصيُّد المتواجدين من الفرس عند مصبِّ دِجلة وحوْل شطِّ العرب ، حتى لا يدعموا الفرْس ويمدُّوا « المدائن » التي يريد سعد الانقضاضَ عليها . وَبَلَغَ أبا غزوان عتبة أنّ في « الأبلة » خمسمائة مقاتل من سادات الفرس وخيرة محاربيهم وزعمائهم ، وهم الذين يطلق عليهم : « أساورة » ، ففرض عليها عتبةُ الحصار شهرًا ، بعده خرج الأساورة وهاجموا المسلمين ، فناهضهم عتبةُ ، وجعل قطبةَ بن قتادة السدوسي وقسامة بن زهير المازني في عشرة فوارس ، قال لهما : كونا في ظهرنا ، فترُدّانِ المنهزم وتمنعانِ مَنْ أرادنا مِن ورائنا . ثمَّ اقتَتلوا مقدارَ جزْرِ جزورٍ ، وقسمها ، حتى منحهم اللهُ أكتافهم ، وولَّوْا منهزمين حتى دخلوا المدينة ، ورجع عتبة إلى عسْكره »[1] .

كانت « الأبلة » أعظمَ مَسَالح الفرْس البحرية عند مصبِّ النهرَيْن ، بالإضافة إلى كونها المرفأً الوحيد لكلّ السفن الوافدة من الهند والصين ، وكلّ أقطار الشرق الأقصى ، وبعد أنْ عاد المنهزمون - من الأساورة - إلى مدينة « الأبلة » ، فرض عليها عتبةُ حصارًا شديدًا ، وانتاب حاميةَ « الأبلة » الرعبُ من العرب المحاصِرين لها ، فتسلّلوا منها هَرَبًا ، بعد أن حملوا معهم ما خفّ مِنَ الأموال ، فدخل المسلمون المدينة . ويروي الطبريُّ أن نافع بن الحارث قَتَل يوم « الأبلة » تسعةً مِنَ الفُرْس ، وَقَتَلَ أبو بكرةَ ستةً ، فعادتِ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٩٤ .

« الأبلة » إلى المسلمين سنة أربع عشرة من الهجرة ، والمسلمون على أبواب « المدائن » .

وذكر المؤرّخون أنَّ جيش عتبة صار لا يعلمُ بقوةٍ حربيةٍ للفرْسِ في الجنوب ، إلَّا وقتلها وفرّق جمعها ؛ فَمِن ذلك أن عُتبة بلغَه أنَّ مرزبان - « دست ميسانَ » ، القريبةِ من الأبلة - لديه جموعٌ من المحاربين الفرْس ، فخشي أن يوجِّههم نحو « المدائن » ، فسارع إليه وهاجمه ، ثم قتله بعد أن دمّر جيشه .

هذا هو عُتبة الزاهد .. وهكذا فليكنِ القادة ... فما أبعدَ الفرْقَ بين أمسِ واليوم !!

اليومَ يقول الفارغون : « كنتُ لي ذنب سألت الله ألا يغفره » ... « الدنيا سيجارة وكأس » .

ويقول ناصرُهم - في رسالة لحسين ، التقطتها الإذاعة الإسرائيلية - : « دمّرنا ثلثي طائراتِ العدو .. طائراتنا فوق تلّ أبيب » ، التوقيع : « سلمي » ...

ويقول مذيعهم أحمد سعيد : « بشرىٰ يا عربُ ، الطائراتُ تتساقطُ كالذباب » . وطائراتُنا مدمرةٌ في المطارات !!

قالت بنت « ديّان » في كتابها « جندي مِن إسرائيل » - الذي طُبع بأكثر من لغة - : « كانت أنباء الجبهة الجنوبية - مصر - تملؤنا رُعبًا ... فلمّا أتانا الحاخام - ومعه نسخة مِنَ التوراة - استحال خوفنا أمنًا ، بينما كانت إذاعة العدو - تعني الإذاعة المصرية - تقول : قَاتِلْ مِن أجل الربيع ... من أجل الحياة ... قاتلْ وأم كلثوم معك في المعركة ... قاتلْ وعبد الحليم معك في المعركة ...!!

كان « لحنُ » الحياةِ فينا أذانًا ... يتغنّى به الأباةُ الصِّيدُ
يملئون الوجودَ برًّا ونورًا ... حينَ يصحُو على الأذانِ الوجودُ
وإذا اللَّحنُ صيحةٌ مِن رقيعٍ ... وإذا الترسُ في المعامِعِ « عُودُ »
فَغَدَتْ أمتي معَ « اللَحن » سَكْرَى ... يُرسِلُ « اللحنَ » فاجرٌ عربيدُ
كان أمسُ الأباة مَشْرِقَ مجدٍ ... وإذا اليومَ في حِمانا اليهودُ
سادَنا قادةُ الهزيمةِ زُورًا ... كيفَ نرضَى وا ذلّتا أن يسودوا ؟!
ليسَ فيهمْ « قتيبةٌ » أو « صلاحٌ » ... أو « هشامٌ » وليسَ فيهم « رشيدُ »
هجروا المصحفَ الطهورَ وحارُوا ... و« ابنُ دايانَ » قادةُ التلمودُ
فأَذلّ العدوُّ مِنّا جِباهًا ... وتلاشَى مِن راحتَيْنا الحديدُ
واستُبيحتْ ديارُنا لعدوٍّ ... وسلاحُ الحُكّامِ فينا وُعودُ
مسخُوا الحقَّ والحقيقةَ لمّا ... صارَ صوتُ الإعلامِ فيهمْ « سعيدُ »[(١)]
يزرعُ البحرَ والهواءَ وُعودًا ... لا يبالي أن لا يكونَ حصيدُ
شِرْعَةُ الزورِ والضلال « مُذيعًا » ... أنَّ يومَ الهوانِ والذلِ عيدُ
ووجوهُ الطغاةِ بالشرِّ بيضٌ ... ووجوهُ الهداةِ بالحقِّ سُودُ
ذَلَّ مَن يزعمُ الهزيمةَ نصرًا ... تتهاوَى مِن راحتيْهِ البنودُ[(٢)]

عَاصِمُ بنُ عمرٍو التميمّي فاتِحُ « سجسْتانَ » ، وقائِدُ كتيبةِ الأهوال ، ومُسَمِّلُ الأفيال :

تُريقُ سُيوفُه مُهَجَ الأعادي ... وكلّ دمٍ أراقَتْهُ جُبَارُ[(٣)]

قاتل عاصمٌ تحتَ لواءِ خالدٍ في حروب الردة ، وأبلَى فيها بلاءً حسنًا ،

---

(١) إشارة إلى أحمد سعيد ومَدرسته الغوغائية .
(٢) « أمس واليوم » ليوسف العظم .
(٣) الجُبار : الذي لا يُطالب به .

ووجّهه خالد أمام قواته ، على رأس قوةٍ من المسلمين إلى العراق ، وقاتل رضي الله عنه بقيادةِ خالد في العراق ، وَقَتَلَ في معركة المذار « الأنوشجان » ، الساعِدَ الأيمن لقارن ، قائد قوات فارس . وفي معركة دَوْمة الجَنْدل بعثه خالد على رأس مفرزة من الفرسان لأسْر أكيدر بن عبد الملك ، أمير دومة الجندل ، فنجح عاصم في أسره ، وسلّمه إلى خالد ، فقتله جزاءَ غدْره بالمسلمين .

وقاتل عاصم تحت لواءِ أبي عبيد الثقفي وكان قائدًا لقوْمه بني تميم ، وبعد معركة كسكر وجّهه أبو عُبيد إلى نهر « جور » فهزم الفرس[١] .

وفي معركة الجسر حمىٰ المثنَّى وعاصم – مع أشجع أبطال المسلمين – الانسحاب ، حتى عقدوا جسرًا فعبر المسلمون عليه ، وعبر المثنَّى وعاصم وأصحابُهم في آثارهم ، وبذلك أنقذ المثنى وعاصم ورجالُهما أرواح الآلاف من المسلمين .

وتحت لواءِ المثنى ، وفي معركة « البويب » كان عاصم يقود المجرّدة[٢] ، وهو واجب لا يُعهد به إلا لفارسٍ مقدام ، ولمّا انهزم الفرس ، كان عاصم أحد القادة الذين قاموا بالمطاردة ، فكان أول مَن دخل حصن الفرس في « ساباط » هُو عاصم[٣] ، وكان لِتغلْغُله العميق في أرض الفرس أثرٌ بالغ على تحطيم معنويات الفرس ، ورفْع معنويات العرب .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٤٥ .
(٣) الطبري ٢ / ٦٥٣ .

في القادسية :

أثناء المسير إلى القادسية كان عاصم قائدًا للساقة ، وكان المسلمون في أشدِّ الحاجة إلى الموادِّ الغذائية ، لذلك أرسل سعد عاصمًا إلى « مَيْسان » في غارةٍ غَنَم فيها بعض الماشية ، فأتى بها إلى سعد ، فقسّمها على الناس ، فأخصبوا أيامًا(١) .

وقُبيل معركة القادسية جرتْ مفاوضات بين رجالاتِ سعد وبين كسرى يزدجرد ، وفي نهاية المفاوضات غَضِبَ كسرىٰ على المفاوضين العرب ، فقال لرجاله : « ائتوني بِوِقْرٍ من ترابٍ ، واحملوه على أشرف هؤلاء » . فتقدم عاصم ليحمل على أصحابه التراب قائلًا : « أنا أشرفهم .. أنا سيّدُ هؤلاء » . ثم حمل التراب على عنقه ، وخرج إلى راحلته فركبها ، وأخذ التراب معه ، وقال لسعد : « أبشرْ ، فوالله لقد أعطانا الله أقاليدَ مُلْكِهم »(٢) . وكانت نتيجة تلك المفاوضات نصرًا معنويًّا للمسلمين على الفرْس ؛ إذْ قال كسرى : « ما كنتُ أرى أنّ في العرب مثلَ رجال رأيتهم دخلوا عليّ !! ما أنتم بأعقلَ منهم ولا أحسنَ جوابًا منهم »(٣) .

وعندما نشب القتال بين المسلمين والفرس في القادسية ، برزَ عاصمٌ في اليوم الأول من أيامها بروزًا جعله سيدَ الموقف بدون منازِع ؛ كان أحدَ ذوي الرأي والنجدة ، الذين أرسلهم سعد لتحريض الناس على القتال ، فقام عاصم في « المجردة » ورجالها أوَّلَ مَن يلاقي العدو ؛ وقال يخاطبهم : « إنَّ هذه البلاد قد أحلَّ الله لكم أهلَها ، وأنتم تنالون منهم منذُ ثلاث سنين ما

---

(١) الطبري ٣ / ١٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٧٦ .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٩ .

لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلَوْن ، والله معكم إن صبرتم ، وصدقتموه الضربَ والطعنَ »[١]. ووقف خطيبًا في آخرين ، وقال : « يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العَجَم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوطَ منكم على آخرتكم ، ولا تُحدثوا اليوم أمرًا تكونون فيه شيْنًا على العرب غدًا »[٢].

وكان ممّا قال : « اللهَ اللهَ ... اذكروا الأيامَ وما منحكم اللهُ فيها ... أَوَلا ترون أن الأرض وراءَكم بسابسُ قِفار ، ليس فيها خمرٌ[٣] ولا وزرٌ يُعقل إليه ولا يمتنع به ؟! اجعلوا الآخرة همَّكم » . وخرج عاصم أمامَ مواقع بني تميم وهو يقول :

قد عَلِمَتْ بيضاءُ صفراءُ اللَّبَبْ ... مِثْلُ اللُّجَيْنِ إذْ تغشّاهُ الذَّهَبْ

أني امرؤٌ لا مَنْ يُعينُه السَّبَبْ ... مِثْلي على مِثْلِكِ يُغريهِ العَتَبْ[٤]

فطارد رجلًا من العجم فهرب منه ، وتبعه عاصم حتى خالط صفَّهم ، فالتقى بفارسٍ معه بغلٌ ، فترك الفارسُ البغلَ ، واعتصم بأصحابه فاحتمى بهم ، واستاقَ عاصم البغل والرحْلَ ، وكشَف عن الغنيمة ، فإذا ذلك الرجل كان طبّاخَ رستم ، وإذا ذلك الذي كان معه : طعامُه من الأخبصة والعسل المعقود ، فتغدّى عاصم وَمَنْ معه - يومها - بغداء رستم . وزحف المسلمون ، فحملتِ الفِيَلة على الميمنة والميسرة ، وأحجمتْ خيول المسلمين ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٦ .
(٣) غِطاء .
(٤) بيضاء : يقصد بها فرسه ، ومعنى البيت : ثقتُه بنفسه أنه يدخل بدون وسيلةٍ للقتال ، كلّما عتبوا عليّ في شدتي عليك يُغريني ذلك بكِ .

وبقي المشاة يقاتلون وحدهم ... في ذلك الموقف العصيب أرسل سعد إلى عاصم ، وقال له : يا معشرَ بني تميم ، ألستم أصحاب الخيل والإبل ؟! أما عندكم لهذه الفيلة مِن حيلة ؟! فقال عاصم : بلىٰ والله . ثم نادىٰ عاصم في قومه ، فجمَعَ أفضل مَن في بني تميم من الرماة ، وآخرينَ لهم خفّة ومهارة في القتال ، ووضع خطته على أساس مُشاغَلة ركبانِ الفيلة ، ثم مهاجمتها من الخلف في غفلة منهم . قال لهم : « يا معشر الرماة ، ذُبُّوا ركبانَ الفيلةِ عنهم بالنبل » . وقال : « يا معشرَ أهل الثقافة ، استدبروا الفيلة فقطِّعوا وُضُنَهَا »[١] . وخرج معهم يحميهم ويقودهم ، فَشَقُّوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أَسَد ، وأقبل رجاله على الفيلة ، فأخذوا بأذنابها وقطّعُوا وضنَهَا ، فارتفع عُـواؤها ، وألقـتْ بركبانها ، وكان كلما سقط صندوقٌ بمن فيه ، هجم عليهم المسلمون فقتلوهم ، فنفسَ عن بني أسد وبجيلة ، وَرَدّتْ تميم هجوم العجم إلى مواقفهم الأولى ، وكان عاصم بن عمرو في ذلك اليوم – بحقٍّ – عادية الناس وحاميهم[٢] .

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية – لما أعادت فيَلة الفرس هجومها الكاسح ، يقودها الفيل الأبيض – حمل عاصم والقعقاع ، فوضعا رمحيْهما معًا في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان وطرحَ سائسه ودلّى مِشْفَره ، فضربه القعقاع بالسيف فرمى بمشفره ، ووقع الفيل لجنبه ، فقتلاً مَن معه مِن الفرْس[٣] .

فللَّهِ دَرُّ عاصم مُسمل عينِ الفيل !! أيّ شجاعةٍ تفوق هذه الشجاعة ؟!

---

(١) الأحزمة .

(٢) الطبري ٣ / ٥٠ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٨٥ .

ولما هربتِ الفيلة أخذ أبطال المسلمين يضيِّقون الخناق على الفرس ، وكان أبرز هؤلاء الأبطال : عاصم . وفي ليلة « الهرير » : هزم عاصمٌ قائد الفرس الذي كان بإزائه ، وسحَق قواته[1].

ولله دَرُّ مَن قال عن عاصم : كانت له في القادسية مقاماتٌ محمودة وبلاء حسن[2].

في فتح المدائن :

لما قرَّر سعد أن يعبر النهر بقواته على ظهور الخيل سباحةً ، كان لا بُدَّ له من قوةٍ كافية تعبر النهر أولًا ، لاحتلال رأس جِسْرٍ في الجانب الثاني من النهر ، وبذلك تحمي عبور قوات القسْم الأكبر من قوات المسلمين ، فقال سعد : « مَنْ يبدأ ويحمي لنا « الفِراضَ »[3] ، حتى نلاحق به الناس ، لكي لا يمنعوهم من الخروج ؟ » . فتطوّع عاصم ، وتطوَّع معه ستمائةٌ من أهل النجدة ، فأمّر سعد عاصمًا عليهم ، فساروا ، حتى إذا بلغوا شاطئَ دجلة ، قال عاصم لأصحابه : « مَنْ ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولًا في هذا البحر ، فنحمي الفراض من الجانب الآخر ؟ » فانتدب له ستون فارسًا ، وهم الذين أُطلق عليهم اسم « كتيبة الأهوال » ، فجعلهم نصفَيْن على خيولٍ إناثٍ وذكورٍ ليكون أساس العوْمِ على الخيل ، ثم تقدّمهم هو إلى حافّة النهر ، وهو يقول للذين تردّدوا : « أتخافون مِن هذه النطفة ؟! » ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَموتَ إِلَّا بإذنِ اللهِ كتابًا مؤجَّلًا** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، ثم دفع فرسه واقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه ، فلما

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٦ .

(٢) الإصابة ٤ / ٦ ، والاستيعاب ٢ / ٧٨٤ .

(٣) الفراض : جمع فرضة ، وهي موضع في الجهة المقابلة مِن النهر .

رآهم الفرس بعثوا فرسانهم ، فاقتحموا النهر أيضًا ، فلقُوا عاصمًا ورجاله في وسط النهر ، فقال عاصم : « الرماحَ الرماح ، اشرعُوها وتوخوا العيون » فالتقوا ، فاطَّعنوا . فولّى الفرْسُ . وَلَحِقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ، ومَن نجا منهم صار أعورَ من الطعن[1] .

لله دَرُّكَ يا عاصم .. هنا يقف التاريخ ، وبأحْرُفٍ من نور يسجّل لعاصم معجزة عسكرية ، يقف العقل والقلب معًا أمامها وقفةَ إكْبار وإعجاب .

هِمَمٌ بلّغَتْكُم رُتَبَاتٍ ... قَصُرَتْ عن بُلوغِهَا الأوْهَامُ
ونفوسٌ إذا انبرتْ لقتالٍ ... نَفِدَتْ قبل أن ينفدَ الإقدامُ
وقلوبٌ مُوَطَّناتٌ على الرَّوْ ... عِ كأنَّ اقتحامَهَا استسلامُ
طال غِشيانُك الكريهةَ حتى ... قال فيك الذي أقول الحسامُ
فارسٌ يشتري بِرازَك للْـ ... ـفخرِ بقتلٍ مُعجَّلٍ لا يُلامُ

لله دَرُّكَ يا عاصم ، بطولة نادرة ، مِقدامٌ لا يَهمُّك أوقعْتَ على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليك .

فتًى لا يضمُّ القلبُ همَّات قلبِهِ ... ولو ضمّها قلبٌ لمَا ضمَّه صَدْرُ

لله دَركَ يا عاصم من فارس قومه .. أعلم الناس بالخيلِ .. كأنك والقعقاع وقومك وُلدتم على صهواتها .. عَرَفُوا الخيلَ وعَرَفتْهم .

الثابتينِ فروسةً كجُلودها ... في ظهرها والطعنُ في لَبّاتِهَا
العارفين بِهَا كما عَرَفَتْهُمُ ... والرّاكبين جدودهم أُمّاتها
فكأنها نُتِجَتْ قيامًا تَحْتَهُمْ ... وكأنهمْ وُلِدُوا على صَهَواتها
إن الكرامَ بلا كرامٍ مِنْهُمُ ... مثلُ القلوبِ بلا سُوَيْدَاوَاتها

---

(١) الطبري ٣ / ١٢٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ .

تلكَ النفوسُ الغالباتُ على العُلىٰ والمجدُ يغلبها على شَهوَاتها

لله دَرُّكَ يا عاصم ! لَكأنك تصيح بدنيء الهمة مِنْ أمثال من يشتكي منهم عصرُنا .

ولا تحسبَنَّ المجدَ زِقًّا وقَيْنة فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأنْ تُرَىٰ لكَ الهَبَوات السّودُ والعسْكَرُ المَجْرُ[1]
وَتَرْكُك في الدنيا دَويًّا كأنّما تَداولَ سَمْعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ
وكمْ مِن جبالٍ جُبْتُ تشهدُ أنني الْـ ـجِبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

لله دَرُّكَ يا عاصمٍ ! كم كان عميقًا إيمانُك بالقضاء والقدَر وَسِرِّ اللهِ فيه !

في « البصرة » و« فارس » :

سار عاصم في جيشِ عتبة بن غزوان الذي بعث به عتبة ، لإنقاذ جيش العلاء بن الحضرمي ، وَشَهِدَ عاصم كافَّة معارك عتبة بن غزوان في جنوبيّ العراق .

عاصم الفاتح :

بعد فتْح « نهاوند » ، عقد عمر – بنفسه – سبعة ألْوية لسبعةِ قادة ، عَهِدَ إليهم بالانسياح في أرض فارس كلها ، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواءُ « سجستان » ، دفعه إلى عاصم ، وأمّره على رأس قوةٍ من أهل البصرة ، وأمدّه برجال من الكوفة ، منهم عبد الله بن عمير ؛ فعسكر عاصم قريبًا من البصرة ، ثم تحرّك إلى « سجستان » ، وهي أعظم من خراسان وأبعد فروجًا ، يقاتل أهلُها « القندهار » وأُممًا ....

(١) الهَبَوات : الغَبَرات . المَجْر : الكثير .

كثيرة[1] ، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة ، كلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم ، وأن اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلًا على الثقة البالغة بقيادته . والتقى عاصم بحُماةِ « سجستان » على تُخُوم بلادهم ، فلم يثبتُوا للمسلمين ، بل انسحبوا إلى « زَرنج » عاصمةِ ولاية « سجستان » ، فحاصرهم المسلمون فيها ، وبثُّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة بأسْرها ، ولمّا أيقن المحاصَرون أن طول الحصار لا يُجدِيهم نفعًا ، طلبوا الصُّلح ، على أن تكون مزارع « سجستان » حمًى لا يطؤُها المسلمون[2]، وبذلك فُتحت ولايةُ « سجستان » .

للهِ دَرُّكَ يا عاصم !!

ولا تزال منائر « سجستان » رافعةً رؤوسها شامخةً ، تذكر فاتحها عاصمًا التميمي الصحابي الجليل رضي الله عنه .

الأَحنفُ بن قَيْسٍ التميمي فاتحُ « قاشان » و« خراسان » ، أبو بحر ، سيِّدُ أهل المشرق ، المسمَّى بغيْر اسمِهِ :

سيِّدٌ من سادات التابعين ، لمّا وفد على عمر بن الخطاب احتبسه عنده حَوْلًا كاملًا ، ثم قال له : « هل تدري لِمَ حبستُك ؟ إنّ رسول الله ﷺ خوّفنا كلَّ منافقٍ عليم ، ولستَ منهم إن شاء الله » . وقال له : « يا أحنف ، قد بلوتُك وخبّرتك ، فلم أرَ إلّا خيرًا ، ورأيتُ علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مِثْلَ علانيتك » ..

كان الأحنف سيدَ قومه ؛ قال فيه معاوية : « هذا الذي إذا غَضِبَ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ ، وابن الأثير ٣ / ٧ .

غَضِبَ لغضبه مائةُ ألفٍ من بني تميمٍ ، لا يدرون فيمَ غَضِبَ »[١].

قال فيه الشاعر :

إذَا الأبصارُ أبصَرَتِ ابنَ قيسٍ ظَلَلْنَ مهابةً منْهُ خُشُوعا

ضُرِبَ بحلمه المثلُ ، وكان رحمه الله من دهاةِ العرب ، وكان رحمه الله عاليَ الهمّة ؛ فقد سمع الأحنفُ رجلًا يقول : ما أبالي أمُدحتُ أمْ ذُمِمْتُ ، فقال له : « لقد استرحتَ مِن حيثُ تَعِبَ الكرامُ »[٢]..

لله دَرُّكَ من سيدٍ ينطق بالحكمة !

أشار الأحنفُ على عُمر ، ورغّب إليه الانسياح في بلاد فارسٍ ، فقال الأحنف : « يا أمير المؤمنين ، إنك نهيْتَنَا عن الانسياح في البلاد ، وإنّ مَلِكَ فارس بين أظهرهم ، ولا يزالون يقاتلون ما دام مَلِكُهم فيهم ، ولم يجتمع مَلِكانِ مُتَّفقان حتى يُخرج أحدُهما صاحبَه ، وقد رأيتُ أنَّا لم نُؤْخذ شيئًا بعد شيءٍ إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وإنّ ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأْبهم حتى تأذن لنا بالانسياح ، فنسيح في بلادهم ونُزيل ملكهم ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس » . فقال عمر : « صدقتني والله » . وَأَذِن في الانسياح في بلاد فارس[٣].

الفـاتح :

عَرَفَ عُمرُ الأحنفَ معرفةً شخصيةً ، فرأى منه عقلًا ودينًا ، كما برز مجاهدًا في الحروب ، فدفع إليه لواءَ « خراسان » حين أذِنَ في الانسياح في

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٨٦ - ١٨٧ ، وشذرات الذهب ١ / ٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان (٢ / ١٨٨) .
(٣) الطبري ٣ / ١٨٤ - ١٨٥ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٣ .

بلاد فارس سنة سبع عشرة من الهجرة ، وقبل أن يتوجّه إلى خراسان شهد مع أبي موسى فتْح « قم » ، ووجّهه أبو موسى إلى « قاشان » ، ففتحها عَنوةً ، ثم لَحِق بأبي موسى الأشعري . وسار إلى خراسان ، وكان « يزدجرد » قد قصد خراسان ، فأتى « مرو » فنزلها وبنى بيتًا للنار ، فدانَ له مَن فيها من الفرس ، فكاتَب الهرمزانَ ، وأثار أهل فارس والجبال ، فسار الأحنف حتى دخل خراسانَ من « الطَبسَين » ، فافتتح « هراة » عَنوة ، وسار نحو « مرو الشاهجان » ، فكتب « يزدجرد » - وهو في « مرْو الرّوذ » - إلى خاقان ملك الترك ، وإلى ملك « الصغد » ، وإلى ملك الصين ، يستمدهم . وخرج الأحنف من مرو الشاهجان ، بعد أن وصلته إمداداتُ أهل الكوفة ، فسار نحو « مرو الروذ » ، فلما سَمِعَ « يزدجرد » سار عنها إلى « بلخ » ، وَقَدِمَ أهل الكوفة إلى « بلخ » وأتبعهم الأحنف ، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في « بلخ » فهزموه ، فما لَحِقَ الأحنف بأهل الكوفة إلا وقد فَتَحَ الله عليهم . وتتابع أهل « خراسان » - ممن شذّ أو تحصّن - على الصلح ، فيما بين « نيسابور » إلى « طخارستان » ، ممن كان في مملكة كسرى ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بن الخطاب بفتح خراسان ، فقال عمر عن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق ، المسمّى بغير اسمه » . وخشي عمر أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، فكتب إلى الأحنف : « أما بعد ، فلا تَجُوزَنَّ النهر ، واقتصرْ على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيءٍ دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يدمْ لكم النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضّوا » . وقد كان عمرُ رضي الله عنه حصيفَ الرأي ، بعيدَ النظر ، فقد سار خاقان الترك في جنده ، ويزدجرد معه ، فعبروا النهر إلى « بلخ » ، واضطر جند الكوفة أنْ يتراجعوا منها إلى « مرْو الرّوذ » ، ومِن « بلخ » تقدمتْ قوات « خاقان » وحلفائه باتجاه الأحنف في « مرو الروذ » ، وكان الأحنف قد خرج بقواته ليلًا من المدينة

وعسكر خارجها ، وفي الصباح جمع الناسَ وقال لهم : « إنكم قليل ، وإن عدوَّكم كثير ، فلا يَهُولنَّكم ؛ فكم من فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين . ارتحِلُوا من مكانكم هذا ، فاسندوا إلى هذا الجبل ، فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوِّكم ، وقاتِلوهم مِن وجهٍ واحد » .

وهذه الفكرة أخذها الأحنف من فَمِ جنوده ليلًا وهو يتسمَّع ، فعمل بها ، فللّه دَرُّه من قائدٍ ! وكانت قوة الأحنف تُقدَّر بعشرين ألفًا : عشرة آلافٍ من الكوفة ، وعشرة آلافٍ من البصرة . وأقبل الترك ، فكانوا يُناوشون المسلمين نهارًا ويتنحَّوْن عنهم ليلًا ، فخرج الأحنف بنفسه - ليلةً - طليعةً لأصحابه حتى كان قريبًا من معسكر « خاقان » الترك ، فلمّا تنفّس الصبحُ ، خرج فارسٌ من الترك بطوْقه ، وضرب بطبله ، فَحَمَلَ عليه الأحنف ، فاختلفا ضربَتَيْن ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إنَّ علـى كلِّ رئيـسٍ حقّـا ... أنْ يَخضُبَ الصَّعْدَةَ أوْ تَنْدقّا[1]

إنّ لنـا شيخًـا بهـا مُلَقَّـى ... سيفُ أبي حفصٍ الذي تبقَّى

وخرج فارسٌ تركيٌّ ثانٍ ، فأورده الأحنف حَتْفَهُ بطعنة نجلاءَ ، وهوَ يرتجزُ :

إنّ الرئيـسَ يَرْتـبي ويَطْـلعُ ... ويمنَعُ الخـلّاء إمَّا أربعُوا[2]

---

(١) الصعدة : الرمح ، والمعنى : واجب كل أمير أن يقاتل حتى يُدمي رمحه أو يتحطمَ من شدَّة القتال .

(٢) يرتبي : يصعد الرابية . الخلّاء : جمع خليّ ، وتميم تقول : خلّا فلان على اللبن واللحم ، إذا لم يأكل معه شيئًا ولا خلط به . رَبَعَ المكانَ : أقام ، يريد : أن واجب الرئيس أن يتحمل عِبْءَ الدفاع عن رجاله وحمايتهم .

وخرج فارس تركيٌّ ثالث ، فأورده الأحنف مَوْرد صاحبيْه وهو يرتجز :

جرىٰ الشَّمُوسُ ناجزًا بِنَاجِزْ مُتحفلًا في جرْيِهِ مُشارِزْ[1]

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، وأعدّ رجاله للقتال ، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم ؛ لأنّ مقامهم لا جَدْوَىٰ فيه ، ولأنّهم تكبّدُوا خسائرَ فادحةً بالأرواح ، وعَبَر « يزدجرد » معهم إلى بلاد الترك ، وثار عليه الفُرْس لما أراد أنْ يمضي بخزائن فارس إلى أرض الترك ، وفرّ « يزدجرد » إلى « فرغانة » عاصمة الترك ، وأقبل أهل فارس على الأحنف ، فصالحوه وعاهَدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، فسار الأحنف بجنْد الكوفة من « مرو الروذ » إلى « بلخ » ، فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مَقرِّ قيادته في « مرو الروذ » ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بالفتح ، فجمع عُمرُ الناسَ وخطبهم ، وقرأ عليهم كتاب الفتح ، وقال في خطبته : « ألَا إنّ الله قد أهلك مُلك المجوسية ، وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضرُّ بمسلم ، ألَا وإنّ الله قد أورثكم أرضَهم وديارهم ، وأموالهم وأبناءَهم لينظر كيف تعملون ، واللهُ بالغٌ أمرَه ، ومنجزٌ وَعْدَه ومُتْبعٌ آخِرَ ذلك أوَّلَه ... » . وكان فتْح الأحنف لخراسان النذيرَ الصادق لانتهاءِ دولة الأكاسرة مِن بني « ساسان » ، ونشْر راياتِ الإسلام في تلك البلاد .

استِعادة فتح خراسان :

ولمّا نكث أهلُ فارس العهد بعد عمر ، استعادَ عبد الله بن عامر فتح بعض أرض فارس ، في أيام عثمان بن عفان ، وغزا خراسان وعلى مقدمته

---

(١) الشموس : الفرس التي تمنع ظهرها ، مشارز : الشدة والقوة . يعني أنه يزجُّ نفسَه في الحرب بقوة واندفاع كما تندفع الشموس ، لا تلوي على شيءٍ في جريها الشديد .

الأحنف ، فأتى « الطبسَين » ، وهما حِصْنا وبابا « خراسـان » ، فصالحه أهلها ، فسار إلى « قهستان » فلقيه أهلها ، وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فَقَدِمَ عليها عبدُ الله بن عامر وصالَحَ أهلَها . ووجّه ابن عامر الأحنف إلى « طخارستان » ، فأتى إلى حصن « مرو الروذ » ، وله رستاقٌ[1] عظيم يُعرف برستاق الأحنف ، فحصر الأحنف أهله ، فصالحوه على ثلاثمائة ألفِ درهم . ومضى الأحنف إلى « مرو الروذ » ، فصالَحَ أهلها بعد قتالٍ شديد ، وسيّر الأحنف سريةً ، فاستولت على رستاق « بغ » ، وصالَحت أهله . وجمع له أهل « طخارستان » ، فاجتمع أهل « الجوزجان » و« الطالقان » و« الفارياب » ، ومَن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفًا ، وجاءهم أهل « الصغانيان » ، وهم من الجانب الشرقي من نهر « جيحون » ، فالتقوا ، وقاتل قتالًا شديدًا ، فانهزمَ الفرس وحلفاؤهم ، فطاردهم المسلمون ، وألحقوا بهم خسائرَ فادحةً بالأرواح[2] .

وسيّر الأقرعَ بن حابس إلى « الجوزجان » فهزَم عدوّه ، وفتحوا الجوزجان عَنوةً ، واستعاد الأحنف فتْح « الطالقان » صلحًا ، وفتح « الفارياب » ، ثم سار إلى « بلخ » فصالحه أهلُها . وهكذا استعاد الأحنف فتْح خراسان مرةً ثانيةً .

رضي الله عن الأحنف ؛ فقد كان إمامًا في الحِلم ، إمامًا في الدهاء ، إمامًا في رَجَاحة عقلِهِ ، إمامًا في وَرَعه ، إمامًا في عبقرية قيادته .. لقد كان رجلًا في أُمَّة ، وأُمَّة في رجل .. إنه سيدُ أهل المشرق ، المسمَّى بغير اسمه ، كما يقول الفاروق رضي الله عنه .

---

(١) مجموعة القرى .

(٢) الطبري ٣ / ٢٥٦ ، والبلاذري ٣٩٧ .

عبدُ الله بنُ سعْد بنِ أبي سَرْحٍ ، الصحابيُّ ، فاتحُ إفريقيَّة (تونس) :

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قائدًا لميمنة عَمرو ، منذ توجّه من « قيسارية » إلى أن فرغ من حروبه في مصر ، وكان عَمرو يبعثه إلى أطراف إفريقية غازيًا ، ويمدُّه بالجنود ، فيعود من غزواته ظافرًا غانمًا .

وولّاه عمر بن الخطاب صعيدَ مصر بعد فتْحها ، ولمَّا تولَّى عثمانُ رضي الله عنه الخلافة ، عزلَ عَمْرًا وولّى عبد الله مكانَه على مصر والصعيد .

فتحُ إفريقية :

يذكر التاريخ لعبدِ الله بن سعد فتْحه لإفريقية ؛ فلقد سار إليها في جيش تعداده عشرون ألفًا ، سنة ستٍ وعشرين هجرية ، والتقى مع جيش « جرجير » - البالغ عددُه مائة ألفٍ وعشرون ألفًا - بـ « عقوبة » ، ونشبتْ معركة حامية بين الطرفين .. ذكرنا خبرها في ترجمة عبد الله بن الزبير ، وقتل فيها ابنُ الزبير « جرجيرَ » وأخذ ابنته سَبِيَّةً .

فللَّه درُّ جيش العبادلة : ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمرو ، وابن عمر ، وابن جعفر .

وحاصر ابن سعد « سُبَيْطلة » ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلافِ دينارٍ ، وسهْمُ الراجل ألف دينار ، وبعث عبد الله جيوشه في البلاد ، فبَلغت « قفصة » ، فسبُوا وغنِموا ، كما سيّر جيشًا إلى حصن « الأجم » ، وقد احتمى به أهل تلك البلاد ، فحصروه ، وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألفٍ وخمسمائةِ ألفِ دينار ، وهذا ما يساوي ثلاثمائة قنطارٍ من ذهب ، وأرسل عبدُ الله بن الزبير إلى عثمانَ بالبشارة بفتح إفريقية .

فرضي الله عن عبد الله بن سعد فاتح إفريقية سَهْلِهَا ....

وجَبلِها[١] ؛ فلقد فتح الله على يديْه فتحًا عظيمًا[٢] ، وأذلَّت تلك الواقعةُ الرُّومَ بإفريقية ، وأصابهم رعبٌ شديد[٣]. وكان فتحه لها فتحًا مستدامًا .

فأين الرجال ؟! تولَّوْا ، وبقي « زَيْنُ العابدين » ،واسمه منه بريءٌ.

ألقابُ مملكةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا كالهِرِّ يَحكي انْتفاخًا صَوْلَةَ الأسدِ

إي والله ... هذا اسمُهُ ؛ « زين العابدين » :

واستبدَّ البُغاثُ في ذِروة النَّسْرِ وقادَ الأُسودَ سِربُ النعامِ
في الجبالِ الشَّمَّاءِ مِن أرضِ تونس في البوادي مِن مَوْطني المترامي
عربداتٌ مِن الطِّلَى ورؤوس غارقاتٌ في سَكْرة الأحلامِ
وضلالٌ عنِ الهدىٰ وضياعٌ وانحرافٌ عن دَرْبِهِ المتسامي
نامَ فيكَ الرعاةُ حتَّىٰ استكانُوا فهنيئًا لِعُصْبَةِ النُّوَّامِ
وأقامُوا علىٰ الفجورِ وذُلُّوا يا لقومي مِن ضَيْعَةِ الحُكَّامِ
أُمَّةُ الذُّلِّ في ظلامِ الليالي ترشُفُ العارَ مِن كئوسِ مدامِ
قسّموها قطعانَ ذلٍّ مَهينٍ وَرَمَوْا جَمعَها بِشَرِّ سِهَامِ
فقطيعُ « ميترانَ » يحمي حِمَاهُ وقطيعٌ يعتزّ بالعمِّ سامِ
وقطيعٌ باتَ الرغيفُ هَواهُ شاردُ اللُّبِّ حائِرُ الأفهامِ
ليسَ يدري مِنْ أمرِهِ غيرَ دُنيا مُلِئَتْ بالغِنَاءِ والآثامِ
أمة الفسقِ والمهانةِ قومي وعلى الذلِّ والمهانةِ نامي

* * *

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٧٩ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ .

(٣) البيان المُغرب ١/٨ .

غَـزْوُه للنُّـوبة :

غزا عبد الله النوبة سنةَ إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالًا شديدًا ، فأصيبتْ عيونُ كثيرٍ من المسلمين ؛ قال الشاعر :

لَمْ تَرَ عيني مثلَ يومِ « دُنْقُلَهْ »[1] والخيـلُ تعـدُو بالدُّروعِ مُثْقَلَهْ

وسـأل أهـل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فصالحهم على رقيقٍ يُؤدُّونه ، وبعد دخول جيش المسلمين « دنقلة » و« مقرة » ، بنى على باب مدينة مِلكهم مسجدًا ، وشرط عليهم حفْظه أبدًا ، ثم أسلمتْ النوبة والبجّة كلهم .

في قُبْرُص :

كان لعبد الله فضْل كبيرٌ في فتحها مع فاتحها معاوية بن أبي سفيان ، سنةَ ثمانٍ وعشرين .

في غزوةِ ذاتِ الصَّوَارِي :

في سنة أربع وثلاثين هجريةً : غزا عبد الله غزوةَ : « ذات الصواري » في البحر ، من ناحية الإسكندرية ، فلقيَه قسطنطين بن هِرَقل في جمْع لم تجمعِ الرومُ مثلَه مُذْ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائةِ مركبٍ أو ستمائة ، والمسلمون في مائتي مركبٍ ، وكان في كلّ مركبٍ نصفُ شحنته ، إذْ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أُخرىٰ ، وَقَدِمَ أهل الشام وعليهم معاويةُ بن أبي سفيان ، وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لمّا شاهدوا الروم ؛ فأرسى المسلمون والروم وَسَكَنَتِ الريحُ ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم . فباتوا ليلتهم ، والمسلمون يقرءون

---

(١) مدينة كبيرة في بلاد النوبة .

القرآن ويصلّون ، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقرّبُوا سفنهم ، وقرّب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها إلى بعض ، وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن ، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصَّبر ، واقتتل الطرفانِ بالسيوف والخناجر ، فَقُتِلَ مِن الروم بَشَرٌ كثير ، وقُتِلَ من الروم ما لا يُحصىٰ ؛ وصبر المسلمون يومئذٍ صبْرًا لمْ يصبروا مثلَه في مَوْطن قطُّ ، فجُرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة ، فانهزموا ولم يَنْجُ منهم إلا الشَّريدُ . وفي هذه المعركة تعرضت حياة عبد الله لخطرٍ داهمٍ ؛ فقد قَرَنَ مركبَه بمركبٍ مِن مراكبِ الروم ، فكاد مركب العدو يجرُّ مركبَ عبد الله إليهم ، إلا أنّ أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبَيْن بالسيف فقطعها ، وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر . لقد أظهر عبد الله في معركة « ذات الصواري »[1] بطولةً فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم ، بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام . ومات القائد ، الذي قضىٰ سبعَ سنواتٍ من مدة حكمه مصر غازيًا ، وثلاث سنوات بين أهله ..

ودعا ابن أبي السرح : « اللهمّ اجعلْ خاتمتي على صلاة الصبح » . فلما طلع الفجر - من يوم وفاته - توضأ ، ثم صلّى الصبح ؛ فقرأ في الركعة الأولىٰ بفاتحة الكتاب و« العاديات » ، والثانية بأم القرآن وسورةٍ ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب ليُسلِّم عن يساره ، فقبض اللهُ رُوحه ، سنةَ ستٍ وثلاثين[2]. فرضي الله عنه ، وما أطيب خاتمته من خاتمةٍ !!

---

(١) سُمِّيت بذلك لكثرة صواري المراكب واجتماعها .

(٢) الروْض الأنُف ٢ / ٢٧٤ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ ، والإصابة ٤ / ١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ١١٤ .

القائد الصالح مجابُ الدعوة : عقبةُ بنُ نافعٍ ، فاتحُ « زويلة » و« غدامس » ، وبعض كُور السودان ، و« فزّان » ، وعامّة بلاد البربر و« باغاية » ، وبلاد « الزاب » و« طنجة » ، و« السوس الأدنىٰ » و« السوس الأقصىٰ » ومُختَطُّ « القَيْروان » :

١ - في مصر وليبيا :

شهد عقبةُ فتح مصر تحت لواء عمرو ، وبرزت مواهبُه القياديّة بصورةٍ مبكِّرة حينذاك ؛ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش إلى « زَويلة » ، فافتتحها صُلْحًا وصار ما بين « برقة » و« زويلة » - سلمًا - للمسلمين(١) .

ولقد كان عقبة على رأس حاميةِ برقة ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، وحافَظَ عقبة على تلك المنطقة ، حتى في أخطر الظروف والأحوال ، وحَمَاها من الروم ، وأصبحت قاعدةً متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها إلى فتْح إفريقية .

٢ - مِن ليبيا إلى القيْروان :

في سنة إحدى وأربعين هجرية استعمل عمرو بن العاص عقبة على إفريقية ، فانتهىٰ إلى « لُوَاته »(٢) وكانوا قد صُولِحوا ، فنقضُوا عهدَهم زمنَ معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبةُ ، فتنحَّوْا ناحيةَ « أطرابلس » ، فقاتلهم عقبةُ حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبىٰ عليهم وقال : « إنه ليس لمشركٍ عهدٌ عندنا ؛ إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ **كيفَ يكونُ للمُشركينَ عهدٌ** ﴾ [التوبة : ٧] ، ولكنْ أبايعكم على أنكم تُوفوني ذمّتي ، إنْ شئنا أقررناكم ، وإنْ شئنا بعناكم » .

---

(١) المغرب في حُلىٰ المغرب ١ / ٤٥ ، والطبري ٣ / ٢٢٧ .

(٢) من أشهر قبائل البربر .

وعقـد عمرو لعقبة على « هَـوّارة »[١] ، فأطاعـوهُم و« لواته » ثم كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته ، فَقَتَل وسَبىٰ .

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة « غدامس » ، وقتل وسبى ، وفي سنة ثلاث وأربعين افتتح كور[٢] من السودان ، وافتتح « ودان » ثانية ، وهي من برقة ، وذلك سنة ستٍ وأربعين ، فقد خرج عقبة إلى « ودان » في أربعمائة فارس ، وأربعمائة جمل ، وثمانمائة قِرْبةِ ماءٍ ، على كلِّ جملٍ قربتان ، فلما وصلها ، أبىٰ أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلدًا بلدًا ، وقبض على ملكهم فجدَع أُذُنَه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » فقال عقبة : « فعلتُ هذا بك أدبًا لك ، إذا مَسَسْتَ أذنَك ذكرته فلا تحارب العرب !! »

لله دَرُّكَ يا عقبة ! فهذه عِزّة القائد المسلم .

واستخرج منهم ما كان بُسْر بن أبي أرطاة فرضَه عليهم سنة ثلاثٍ وعشرين هجرية ، ثلاثمائة رأسٍ وستين رأسًا من العبيد ، ولمّا استتبَّ الأمرُ لعقبة في بلاد « ودّان » ، سأل عقبةُ أهلها : « هل من ورائكم مِن أحدٍ ؟ » . فقيل : « جرمة »[٣]. فسار إليها ثمانيَ ليالٍ من « ودّان » ، فلمّا دنا منها دعا أهلها إلى الإسـلام ، فأجابوا ، فنزل منها على ستة أميالٍ ، وخرج مِلكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلًا ، فحالت بين ملكهم وبين موْكبه ، فأمشَوْه راجلًا ، حتىٰ أتىٰ عقبة وقد لَغِبَ - وكان ناعمًا - فجعل يبصُق الدم ، فقال له : « لِمَ فعلتَ هذا بي ؛ وقد أتيتك طائعًا ؟! » . فقال عُقبة :

---

(١) من أشهر قبائل البربر .

(٢) الكورة تطلق على مجموعة من القرىٰ .

(٣) عاصمة بلاد « فزّان » أيام الفتح الإسلامي .

« أدبًا لك ، إذا ذكرته لمْ تحاربِ العرب » . وفرض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا ، ومضىٰ عقبة في فتْحه حتى فتح بلاد « فزّان » ، حتىٰ أتىٰ على آخرها ، ونشر الإسلام في رُبوعها . وهذه أول مرةٍ دخل فيها العرب بلادَ « فزان » فاتِحِينَ . وسأل عقبة أهل فزّان : « هل مِن ورائكم أحد ؟ » . فقالوا : أهل « خاور » . وهو قصرٌ عظيمٌ على رأس المفازة ، في وُعورةٍ على ظهر جبل ، وهو قصبة « كاوار » ، فسار إليه خمسَ عشرةَ ليلةً ، فلما وصل إليه دعا أهلَه إلى الإسلام فأَبَوْا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصْنهم ، فحاربهم ، وأقام على حصارهم شهرًا ، وتقدّم بجيشه جنوبًا لفتح بقية بلاد « كاوار » ، ففتحها حتىٰ أتىٰ على آخرها ، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » . فقال عقبة : « أدبًا لك ، إذا أنتَ نظرتَ إلى أصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فرَض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا[1].

وأراد عقبة أن يمضي قُدُمًا في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل « كاوار » : « هل من ورائكم أحد ؟ » . فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » . فانصرف عقبة راجعًا ، فمرّ بقصر « خاور » فلم يعرِض له ، ولم ينزل بهم ، ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكانٍ اسمُه اليوم « ماء فَرَس » ، ولم يكن به ماءٌ فأصابهم عطشٌ شديد ، أشفىٰ منه عقبةُ وأصحابُه على الموت ، فصلّى عقبةُ ركعتيْن ودعا الله ، وجعل فرسُ عقبة يبحث بيديه في الأرض ، حتى كشف عن صَفَاةٍ ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرسُ يمصُّ ذلك الماء ، وأبصره عُقبةُ ، فنادىٰ في الناس « أنِ احتفرُوا » . فحفروا سبعين حسْيًا[2] ، وشربوا

(١) فتوح مصر والمغرب صـ ٢٦٣ .

(٢) الحسيُ : الحفرة القريبة العُمق .

واستقوا فسُمّي ذلك المكان لذلك : « ماء فرس » . ورجع عقبة إلى « خاور » من غير طريقه التي أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلًا ، فوجدهم مطمئنِّين قد تمهَّدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة مِن ذُريّاتهم وأموالهم ، وقتل مُقَاتِلَتَهم .

فللَّهِ درُّه ! وما أبرع حركته هذه ، وما أحلىٰ مباغتته ! فقد أطبق على « خاور » في وقتٍ لم يتوقعه أهلها . وانصرف عُقبة بعد فتح « خاور » ، حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل ، حتى قدِم على عسكره بعد خمسةِ أشهر ، وقد جمّت خيولُهم وظهورُهم . وسار عقبة بجيشه إلى المغرب ، وجانَب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها ، ومضىٰ إلى « صفر » ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلًا إلى « غدامس » فاستعاد فتحها ، وتوجّه إلى « قفصة » فافتتحها ، ثم افتتح « قَسْطِيلية » ، ثم انصرف إلى القيروان .

لقد طهّر عقبة بهذا الفتح كلَّ المقاومات المعادية ، بين « برقة » و« القيروان » ، فأصبحت هذه المنطقة خالصةً للمسلمين ، حَرِيّةً أن تكون قاعدةً رصينة ، تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي .

بِنَاءُ عقبة للقيْروان[1]، وما كان فيه من الكَرامات :

« قال عقبة لرجاله : « إنَّ إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع مَن أجابَ منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخّذوا مدينة تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدَّهر » . فركب إلى موضع « القيروان » ، اليوم ، وكان غيْضةً ، كثيرَ الأشجار ، مأوىٰ

(١) معنى القيروان : المدينة أو المعسكر أو المسلحة ، وموضع اجتماع الناس والجيش .

الوحوش والحيّات ، فقال له رجاله : « إنك أمَرتنا بالبناء في شعارٍ وغِياض لا تُرام ، ونحن نخاف من السباع والحيّات ، وغير ذلك من دوابِّ الأرض » .
وكان في عَسْكَرِهِ خمسة عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائِه ، ومضى إلى «السنجة» وواديها ونادى : « أيَّتُهَا الحيّات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، فارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدْناه بعد ذلك قتلناه » .
ونظر الناس بعد ذلك إلى أمرٍ مُعجب ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمِل أشبالها ، والذئب يحمل جَرْوَه ، والحيّاتُ تحمل أولادها ، ونادىٰ في الناس : « كُفُّوا عنهم حتىٰ يرتحلوا عنا » . فلمّا خرج ما فيها من الوحوش والهوامّ - وهم ينظرون إليها - نزل عقبة الوادي ، وأمرهم أن يقطعوا الشجر »[1].

وفي السِّيَر : « كان الموضعُ غيْضةً لا يُرام من السباع والأفاعي ، فدعا عليها ، فلم يبقَ فيها شيءٌ ، وهربوا ، حتى إن الوحوش لتحملُ أولادها » .

وعن موسىٰ بن محمد ، عن أبيه قال : نادىٰ : « إنا نازلون فاظعنوا » . فخرجْنَ من جِحَرَتِهن هوارب .

وروى نحوه يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، قال : لمّا افتتح عُقبة إفريقية ، قال : « يا أهلَ الوادي ، إنا حالُّون إنْ شاء الله ، فاظعنوا » . ثلاثَ مراتٍ ، فما رأينا جُحْرًا ولا شجرًا إلا يخرج من تحته دابَّةٌ ، حتى هبطْنَ بطنَ الوادي ، ثم قال للناس : « انزلوا بسم الله » .

---

(١) رياض النفوس ١ / ٦ - ٧ ، والبيان المغرب ١ / ١٣ - ١٤ .

قال مفضل بن فضالة : « كان عقبة بن نافعٍ مجابَ الدعوة »[١].

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة خمسين ، وأنجز بناءَها سنة خمسٍ وخمسين ، وكان عقبة في أثناء عِمَارة المدينة يغزو ويُرسل السرايا ، فتغيرُ وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، ورسخ الدين ، وصارت القيروان عاصمةَ الإسلام في المغرب ، والقاعدة الأمينة للمسلمين في شمال إفريقية .

مِن القيروان إلى المحيط :

وفي ولايته الثانية خرج عقبة بن نافع من القيروان ، بعد أن استخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا عقبة بأولاده قبل مغادرته القيروان ، وقال لهم : « إني قد بعتُ نفسي مِن الله عز وجلّ ، فلا أزال أجاهد مَن كفر بالله »[٢]. ثم وعظهم ووصَّاهم ، ثم قال : « عليكم سلامُ الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » . ثم قال : « اللهمَّ تقبّل نفسي في رضاك ، واجعلِ الجهادَ رحمتي ، ودار كرامتي عندك »[٣].

سار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة « باغاية » ، لا يُدافعه أحدٌ ، والرومُ يهربون في طريقه يمينًا وشمالًا ، فحاصرها ، وقد اجتمعوا بها ، وقاتلهم قتالًا شديدًا ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلًا ذريعًا ، وغنَم منهم مغانم كثيرة ، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكَرِهَ المُقام عليهم[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٤٠ ، وتاريخ ابن عساكر ، وطبقات علماء إفريقية ٨ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٢ - ٢٣ .
(٤) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

ورحل عقبة إلى « تلمسان » ، وهي من أعظم مدائنهم ، فانضمَّ إليها مَنْ حَوْلَهَا من الروم والبربر ، فخرجوا إليه في جيشٍ ضخم لَجِبٍ ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظنَّ المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هُجُومًا عنيفًا ، حتى ألجئوهم إلى حصونهم ، فقاتلوهم إلى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

وسار عقبة إلى بلاد « الزاب » ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقيل له : « أَرَبة » ، وهي دار مِلكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية ، كلّها عامرة ، فامتنع بها مَن هناك من الروم والنصارىٰ ، وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون وَمَنْ بالمدينة من النصارىٰ ، ثم انهزم النصارى ، وقُتل كثير من فرسانهم[1] .

ورحل عقبة إلى « تاهرت » ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيبًا ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، وقال : « أيُّها الناس ، إنَّ أشرافكم وخياركم - الذين رضي الله تعالىٰ عنهم ، وأنزل فيهم كتابه - بايعوا رسول الله ﷺ بيعةَ الرضْوان على مَن كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعُوا أنفسَهم من رب العالمين بجنَّته بيعةً رابحةً ، وأنتم اليوم في دار غُربة ، وإنما بايعتم ربَّ العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه ، فأبشروا ؛ فكلّما كثر العدوّ كان أخزىٰ لهم وأذلَّ ، إن شاء الله تعالى ، وربُّكم عزّ وجلّ لا يُسْلِمُكم ، فالقُوهم بقلوبٍ صادقة ؛ فإنّ الله عز وجل جعلكم بأسَهُ الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين » . فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدوّ ، ولكنهم انتصروا أخيرًا ، فانهزمَت الروم

---

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

والبربر ، وأخذهم السيف ، وكثُر فيهم القتْل ، وغَنِمَ المسلمون أموالهم وسلاحهم[١] .

وسار عقبة حتىٰ نزل طنجة ، فلقيه بِطْرِيقٌ من الروم اسمُه « يليان » ، فنزل على حُكْمه ، وأراد عُقبة فتح الأندلس ، فقال له « يليانُ » : « أتترك كُفّار البربر وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بيْنك وبين المدد ؟! » . فقال عقبة : « وأين كفار البربر ؟ » . فقال : « في بلاد « السوس » ، وهم أهل نجدة وبأس » . فقال عقبة : « وما دينهم ؟ » . فقال : « ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حقٌّ ، وإنما هُم كالبهائم » . وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ . فتوجّه عقبة ، فنزل على مدينة « وَلِيْلى » بإزاء جبل « زرهون » ، وهي يومئذٍ من أكبر مُدن المغرب ، وهي المسمَّاة اليوم : « قصر فرعون » ، فافتتحها عقبة وغَنِمَ وَسَبَىٰ .

وانتهىٰ عقبةُ إلى « السوس الأدنىٰ » ، وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموعَ البربر الكثيرة ، وقتل منهم قتْلًا ذريعًا ، وبعث خيله في كل مكانٍ هربوا إليه ، ثم سار حتى وصل إلى « السوس الأقصىٰ » ، وقد اجتمعَ له البربر في عالم لا يُحصىٰ ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وسار عقبة حتىٰ وصل إلى « مالبان » - أقصىٰ بلاد المغرب - ورأى البحر المحيطَ ، فقال : « يا رب ، لولا هذا البحر لمضيْتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك »[٢] . ثم قال : « اللهمَّ اشهدْ ؛ إني قد بلغتُ المجهود ، ولولا هذا البحرُ لمضيْتُ في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد أحدٌ دونك »[٣] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير (٣ / ٤٢ - ٤٣) .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٥ .

لله دَرُّ عُقبة وهو يتنقَّل مِن نصرٍ إلى نصرٍ ناشرًا الإسلام ، حتى وصل إلى بلاد « أسَفى »[(١)] على المحيط الأطلسي ، وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعةً ، ثم قال لأصحابه : « ارفعُوا أيديَكم » . ففعلوا ، فقال : « اللهمَّ إني لم أخرجْ بطرًا ولا أشرًا ، وإنك لَتعلمُ أنّما نطلب السببَ الذي طلبه عبدُك ذو القرنَيْن ، وهو أنْ تُعْبَدَ ولا يُشرك بك شيءٌ ، اللهمَّ إنا معاندون لدينِ الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكنْ لنا ولا تكن علينا ، يا ذَا الجلال والإكرام » . ثم انصرف راجعًا[(٢)]. وبعد ذلك سقط البطل شهيدًا في « تهوذة » ، على يد البربر .

لله دَرُّك يا عقبة !! كانت فتوحاتك مَدْعاة للفخر والاعتزاز ، وهي من الناحية العسكرية تستحقُّ كلّ التقدير والإكْبار ؛ لقد انطلق عقبة بكلّ حماسةٍ لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية ، من القيروان حتى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقتٍ قد لا يصدِّقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحْتة ، ولكنّ هذا هو الذي حدَث فعلًا .

تُرىٰ ، هل يذكر التاريخ عقبة الفاتح الذي أذلَّ ملوك « ودان » و« جرمة » و« فزان » وأدّبهم ؟! أمْ سيذكر التاريخ مَأْفُون الصحراء صاحبَ « الكتاب الأخضر » ؟! وأيُّ ذلٍّ لم نعرفه علىٰ أيدي هؤلاء العبيد ؟!

مُطَأْطَأَ الرأسِ ظلَّ السيفُ يسبقني ... وطعنةُ الغدْرِ .. يا للموتِ .. تُلهينا
وأنَّةُ الأرضِ تَبكي في سلاسِلِهَا ... والقُدسُ في كَرْبِهِ يدعو المُعزِّينَا
وطارقُ البطْشِ يغدُو في منازِلنا ... وفزْعَةُ الموتِ لمْ تَستَبْقِ لي دِينا
والمئذناتُ التي كمْ هبّ ثائِرُهَا ... غَابَ الأذانُ بِهَا يا وَيحَ نَادِينَا

---

(١) بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصىٰ المغرب .
(٢) الاستقصا (١ / ٧٤) .

وأمَّـةُ البَعْـثِ بالأعتـابِ جاثِيَةٌ ... تُقَبِّلُ الأرضَ والأحلامُ تَطْوينا
وصوّحَ العُشبُ والمرعىٰ غَدَا لَهَبًا ... نمشي على جَمْرَةٍ ذلًّا وَتَهْوينا
« اللهُ أكبرُ » كانَ الكونُ يَسمعُهَا ... فيتَّقي بأسَ مَـن قـالوا ويُعْلينا
كَانَ الضُّحَىٰ ماجدًا والأرضُ مَرْحَمَة ... والمُنْتَدَىٰ والنّدىٰ يبكي رَيَاحِينَا
نتلُو على الدهرِ ما تُمْلِيهِ عِزَّتُنَا ... ويسمعُ الكونُ ما يتلُوه رَاوِينَا
« الرعْدُ » في بعْثِنا و« النصرُ » مَوْعِدُنَا ... و« الفجرُ » و« الشمسُ » و« الإسراءُ » حَادِينَا
حَتَّى كَبَتْ خيلُنَا في الشوْطِ وانطفأَتْ ... مَشَاعِلُ القومِ وانكبّتْ نواصِينا
والمسلمونَ انطوَوْا في الأرضِ وانكسرُوا ... واتَّخمُوا بِطنةً واستطعموا طينا
وبَاحَةُ البيتِ ناحتْ عَلَّ فَارِسَهَا ... لهُ عيونٌ ترىٰ مَنْ جاءَ يُفْنِينا
لكنَّهُ الليلُ أغفىٰ في كَلاكِلِهِ ... وومضَةُ النَّجمِ أَغفتْ من غَواشِينا
وغصَّةُ الحزْنِ في الأحشاءِ واحدةٌ ... إنَّ المصائبَ يَجمَعْن المُصَابينا
نَمـدُّ كفًّا بِهَـا للذلِّ مَسْغَبَـةٌ ... وَنُغْمِضُ العَيْنَ شُحًّا مِن تَدَنِّينا
وَنَعْلُكُ البُؤْسَ ممَّا شاءَ راجِمُنَا ... ونشربُ اليأسَ من إبْريقِ سَاقِينَا
وَنُرْسِلُ السَّهْمَ مِن أَفياءِ راقصةٍ ... ونُمطرُ العينَ دَمعًا مِن تشاكِينا
ونشربُ الموتَ صَابًا مِن عَلالَتِهِ ... بِئْسَ الشرابُ الذي قد ساءَ غِسْلِينَا
وَنَقْرَعُ الكأسَ تِلوَ الكأسِ في سَفَهٍ ... ونَفتحُ الأرضَ وَهْمًا صارَ يَطْوِينَا
ورَايةُ الحقِّ تَبكي أهلَ نُصْرَتِهَا ... فليسَ في أرضِنَا مَن يَرتجي حِينَا
وأصبحَ القِرْدُ والخنزيرُ يَحكُمُنا ... وارْتجَّ في حَلْقِهِ دَمْعُ المُواسِينا
غُبَارُ خَيْلِ الوَغَىٰ تشتاقهُ رِئتي ... ومقْبَضُ السيفِ يَبكي مِن تجافينا
هـلْ ينـبري فـارسٌ للهِ يَبْعَثُـهُ ... يُحْيي قلوبًا عَتَتْ عَنْ أمْرِ بارِينا
وَيَبْعَثُ الطُّهْرَ نُورًا في أجنَّتِهَا ... ويقتفـي راشـدًا دَرْبَ النَّبِيِّينـا

❊ ❊ ❊

موسىٰ بنُ نُصير فاتحُ المغرب الأقصىٰ والأندلس :

« أَمَا واللهِ لو انقادُوا إلَيَّ لَقُدْتُهم إلى رُوميَّة » ... [موسىٰ بن نصير]

الأمير الكبير أبو عبد الرحمٰن فاتح الأندلس .

استعاد موسى فتح المغرب الأوسط ، وبدأ باستعادة جبل « زغوان » وما حوله ، واستعاد فتح زغوان وسبَىٰ منهم ، ووجّه ابنَه عبد الله بن موسىٰ إلى نواحي إفريقية ، فأتى بمائة ألفٍ من السَّبْي ، ثم وجَّه ابنه مروان فأتىٰ بمثلها ، وبعث ابن أخيه فسبىٰ أيضًا مائة ألفٍ ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفًا ، واستطاع موسىٰ القضاء علىٰ جيُوب المقاومة في إفريقية ، واستطاع إخضاع قبائل البربر .

أرسل موسىٰ ألف فارس إلى « هوارة » و« زناتة » ، من قبائل البربر ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا ، وصالحهم المسلمون ، وصالحتْه أيضًا قبيلةُ « كتامة » .

وأغار موسىٰ بأربعة آلافٍ من أهل الديوان ، وألفين من المتطوِّعة ومن قبائل البربر ، على « صنهاجة » من البربر ، وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتْل الفناء في وادي « مَلْوِية » .

وغزا موسىٰ « سجومة » - في المغرب الأوسط - في عشرة آلافٍ ، واقتتلوا اقتتالًا شديدًا في جبل شديد ، لا يصل إليهم إلا من أبواب معلومة ، واستمر القتالُ ثلاثة أيامٍ ، وانهزم أهل سجومة ، ففتح المدينة وقتل ملوكها ، وأمر أولاد عُقبة بن نافع أن يأخذوا حقَّهم من قاتِل أبيهم ، فقتلوا مِن أهل « سجومة » ستمائة من كبارهم ، ثم قال لهم موسىٰ : « كُفُّوا » . وتتبع موسىٰ قبائل البربر فتبدَّدتِ القبائل أمامه ، فتتبَّعها عبْر « السوس الأدنىٰ » حتىٰ بلاد « سجلماسة » ووادي « درعة » . وسيّر ابنه مروان إلى « السوس

الأقصىٰ » وسيّر قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر « مصمودة » ، في أطلس العليا ، ونجحت الحملتانِ ، وتأكَّد انتشار الإسلام في بلاد المَصَامِدة ، الذين دخلوا فيه طَوْعًا . واستعاد موسىٰ فتح مدينة « مجانة » التي فتحها من قَبْلُ بُسْر بن أبي أرطاة .

فَتْح طنْجَة :

خرج موسىٰ من القيروان لفتح طنجة ، وجعل على مقدِّمته مولاه طارق ابن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة « طنجة » ، وهي قصبة الولاية وأُمُّ مدائنهم ، فلما دنا من طنجة بثَّ السرايا ، وانتهتْ خيلهُ إلى السوس الأدنىٰ ، فوطئهم وسباهم ، وحاصر طنجة حتىٰ افتتحها ونزلها ، وهو أولُ مَن نزلها ، واختطَّ فيها للمسلمين ، فأسلم أهلها ، واستعمل موسىٰ على أهلها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفًا من البربر الذين حَسُنَ إسلامهم بالأسلحة والعُدَّة الكاملة ، وترك موسىٰ عندهم خَلْقًا من العرب ، ليُعلِّموا البربر القرآن . وبهذا تم فتْح ولاية طنجة التي كانت تتَّسع في القديم لمسيرة شهرٍ ، وليس المدينة فقط .

وبعد قتالٍ شديد ترك موسىٰ بن نصير « سبتة » ، ثم بعد ذلك عَرَض عليه أميرُها « يوليان » تسليم سبتة ، ودعاه إلى فتح أسبانيا .

لقد فتح موسىٰ بلاد المغرب ، وغنم منها أموالًا لا تعدُّ ولا تُوصف ، وله بها مقاماتٌ مشهورة هائلة[١] ، وأسلم على يديْه أهل المغرب ، وبثَّ فيهم الدينَ والقرآن .

❊ ❊ ❊

(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧١ .

جهادُه في البحر :

ولي غزو البحر لمعاوية ، وعقد موسىٰ لابنه عبد الله بن موسىٰ لواءَ غزوة الأشراف ، وسار عبد الله في المراكب إلى صقليّة ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غُزِيت في بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » ، وافتتح عبد الله مدينة في صقلية ، وبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبًا ، وكان عدد المسلمين ما بين الألف إلى التسعمائة .

وبعث موسىٰ عيَّاش بن أخيل على مراكب فَشتَا في البحر ، وأصاب مدينة « سرقوسة » .

وبعث موسىٰ عبد الله بن مرّة إلى « سردانية » في بحر إفريقية فأصابها ، وافتتح مدائنها ، وبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأسٍ ، سوىٰ الذهب والفضة .

وجهَّز موسىٰ ولده عبد الله ، فافتتح جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » .

فتْح الأندلس :

كان موسىٰ يتُوق إلى فتح الأندلس ، وبعث موسىٰ رجلًا من البربر - يسمَّىٰ « طريفًا » - في مائة فارسٍ وأربعمائة راجلٍ ، فجاز في أربعة مراكب ، حتىٰ نزل ساحل الأندلس في جزيرة « طريف » وأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سَبْيًا ومالًا كثيرًا ورجع سالمًا في سنة إحدىٰ وتسعين هجرية .

وبادَرَ طارق بن زياد مولىٰ موسىٰ بن نصير ، فافتتح الأندلس ، ولحقه موسىٰ لمّا استغاث به طارق ، ولقيه في « طلبيرة » ، على مقربةٍ من « طُليطلة » ؛ عبرَ موسىٰ إلىٰ الأندلس على رأس جيشٍ قوامُه : ثمانية عشر ألفًا ، من قريشٍ والعرب ووجوه الناس ، ودخل الجزيرة الخضراء ، فلما عزم على المسير ،

جمع حوله راياتِ العرب ووجوه الكتائب ، وعددُها يزيد على عشرين راية ، وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف تكون الخطة للفتح ، فأجمعوا على السير إلى « إشبيلية » ، وغزْو ما بقي من غرب الأندلس حتى « أكشونية ».

زحف موسىٰ إلى « شذونة » فافتتحها عَنوةً ، ثم سار إلى « قرمونة » ، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ، فدخلها المسلمون عَنوة ، وسار إلى « رعواق » – المعروفة بقلعة « جابو » – فافتتحها . وبهذا أُمِّنَتْ خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى « قرطبة » .

لقد كان ترصينُ قواعد الفتح المتقدمة ، وتأمينُ خطوط مواصلات الفتح ، وحمايةُ الجانب الغربي لمنطقة فَتْح طارق – الأهدافَ الحيويةَ الأولى التي حقّقها موسىٰ بعد إنزال قواته الأندلس .

وفتح موسىٰ أشبيلية – وكانت من أعظم قواعد الأندلس – بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد أن امتنعتْ عليه أشهرًا .

وفتح « ماردة » بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد كثرة قتْلٍ في المسلمين ، على أن تكون أموال القتلىٰ ، وأموالُ الهاربين ، وأموال الكنائس ، وحُليُّها للمسلمين . ولما ثار عَجَمُ إشبيلية على الحامية التي بها ، وجّه موسىٰ ابنه عبد العزيز فاستردَّها ثانيةً ، بعد أن فتحها وقتلَ أهلها ، ونهضَ إلى « لبلة » ففتحها أيضًا .

التقىٰ موسىٰ بطارق بن زياد في موضعٍ يقال له : « تايد » أو « تاتير » ، وخرج طارق مُعظِّمًا له ، ونزل بين يديْه ، فعاتبه موسىٰ على مخالفته لرأيه في تسرُّعه باقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق ، وقال : « إنما أنا مولاك ، وقائدٌ من قوّادك ، ما فتحته وأصبته إنما هو منسوب إليك » . والتقىٰ موسىٰ وطارق بـ « لذريق » ، عند بلدة « تمامس » ،

وهزم القُوط هزيمة نكْرَاءَ ، ولقي لذريقُ ملك الأندلس حتفَه على يد مروان ابن نصير .

وفُتحت طليطلة ثانيةً على يد موسىٰ ، بعد نقْضهم طاعة المسلمين ، ودخلها موسىٰ دخول المظفّر ، وسلّم طارق إلى موسىٰ الكنوزَ التي غنمَها من الكنائس .

وبعث موسىٰ برسولَيْن إلى الوليد بن عبدالملك يُنْهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختيارُه على التابعيّ الجليل عليّ بن رباح ومغيث الرومي ، فقال علي بن رباح للوليد : « يا أمير المؤمنين ، تركت موسىٰ ابن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتَح على يديه ما لم يُفتح على يد أحد » . ثم دفع الكتاب إلى الوليد ، فقرأه الوليد ، فلمّا أتىٰ علىٰ آخره خرّ ساجدًا .

نعم .. لقد غَنِمَ المسلمون مِن كنوز « طليطلة » الزاخرة التي وجدوها في قصور « القُوط » - في كنيسة « طليطلة » الكبيرة بوجهٍ خاص - ما لا يخطر على بالٍ ، وأسْهبُوا في وصفها ، وسمّوها مائدة سليمان بن داود ، وهي التي حقَّق ابنُ حبان أنها كانت المذبحَ الكنسي ، وكان دُرَّةً من الدُّرر ، مُحلًّى بأثمنِ ما لدىٰ القوط من الذهب الخالص ، وطار الذكرُ مَطارَه عنها ، وكانت مرصَّعةً بفاخر الدُّر والياقوت والزُّمُرد ، لم تَرَ الأعين مثلَها .

فتْح شمالِ الأندلس :

عزم موسىٰ علىٰ متابعة الفتح شمالًا ، لإكمال فتح شبْه جزيرة الأندلس ، ففتح المدينة البيضاء « سرقسطة » ، بعد رعب أهلها منه ، وبعدها فتح « وشقة » و« لاردة » و« طركونة » ، وحين أوْغل موسىٰ وجاوز « سرقسطة » اشتدَّ

ذلك على الناس ، وقالوا : « أين تذهب بنا ؟! حَسْبُنَا ما في أيدينا » . وقال التابعي الجليل « حنش بن عبد الله الصنعاني » : « أيها الأمير ، أين تذهب ؟! تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أَوَتلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل ، وأَعْرَضَ ممّا فتح الله عليك ودوّخ لك ؟! إني سمعتُ من الناس ما لم تسمع ، وقد مَلئوا أيديَهم وأحبُّوا الدَّعَة » . فقال موسىٰ : « أما والله لو انقادوا إلَيَّ لقدتُهم إلى روميّة - روما - ثم يفتحها الله علىٰ يديَّ ، إن شاء الله » . واستطاع موسىٰ بعد ذلك أن يُعيد إلى الجنود نشاطَهم وحماستهم للفتح ، وفتحَ « سرقسطة » ، و« قشتالة » ، وحصن « بارو » ، واخترق باب « تارنا » ، وسار متابعًا مجرىٰ نُهَيْر « النالون » ، ثم حَطَّ رِحاله عند قلعة « لُك بأشتوريش » غيرَ بعيدٍ عن « أبيط » ، وما زال بها حتىٰ فتحها ، ثم سار بنفسه حتىٰ بلغ « خيخون » ، وبعث سرية من فرسانه ، أدركت البحر عند صخرة « بلاي » على البحر الأخضر ، فطاعتِ الأعاجم ، ولاذوا بالسَّلْم وبذْل الجزية . وهكذا وصلتْ جيوش موسىٰ حتىٰ البحر المحيط ، واطمأنَّ إلى أنه فتَحَ شبهَ الجزيرة كلها .

وهناك بعض المؤرِّخين يذكرون أنّ موسىٰ بن نصير بعث سراياه إلى « قطالونة » ، فَفَتَحَتْ « برشلونة » ، ومِن هناك اخترقتْ جبال البرتات « البرانس » ، وتوغّلتْ في بلاد « غالة » فاستولت على « أربونة »[1] ، وحصن « لودون » بوادي « نهر الرون » ، ووصلت إلى « قرقشونة » بجنوب فرنسا ، كما ذكر المَقَّري[2]. وفتح عبد العزيز بن موسىٰ ما بقي من مدائن الأندلس ، واستكمل فتْح غرب الأندلس « البرتغال » حاليًا .

---

(١) مدينة في الساحل الفرنسي الجنوبي .
(٢) في كتابه : « نَفْحُ الطِّيب » ١ / ٢٦٠ .

لله دَرُّ فاتحنا العظيم !! سيسجِّل التاريخ بكلِّ الإكبار فتوحاتِ موسىٰ ابن نصير ، التي وصفها هو نفسه وهَالَتْه ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك : « إنها ليست الفتوح ، ولكنَّها الحشر »[1].

رجع موسىٰ إلى المغرب وهو راكب على بغله « كوكب » وهو يجرُّ الدنيا بين يديْه ، أمر بالعَجَلِ تجرّ أوْقارَ الذهب والحرير ، وأخذ معه مائة من كُبَراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدِم مصر في هيئة ما سمع به .. ووصل إلى دمشق ، وأهانه سليمان الخليفة ، وآثَرَ البطلُ رضا اللهِ ولم يَرَ الخروج ؛ قال رحمه الله : « واللهِ لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفًا ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نَرَ الخروج عن الطاعة والجماعة » .

لله دَرُّه مِن عظيم .. يُظهر حلْمَه وعظمته وقد أدخلوه على الخليفة سليمان ، ورأْس ابنه عبد العزيز بن موسىٰ بين يديْه ، فقال له : « أتعرف هذا الرأس يا موسىٰ ؟ » قال : « نعم ، هذا رأْس عبد العزيز بن موسىٰ بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمةُ الله تعالى عليه ؛ فَلَعَمْرُ اللهِ ما علمتُه نهارَه إلَّا صوّامًا ، وليلَه إلَّا قوّامًا ، شديدَ الرأفة بمن وليه من المسلمين ... هنيئًا له بالشهادة ، قتلتم - واللهِ - صوّامًا قوّامًا »[2].

وهذا موقفٌ بطوليٌّ آخر لموسىٰ لا يقلُّ روعةً عن مواقفه الأخرىٰ في الفتوح ، وهو موقف الصابر المحتسب ، الذي يصدَعُ بالحقّ غيرَ وَجلٍ ولا هيَّابٍ . قال له الخليفة سليمانُ : « ما الذي كنتَ تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوِّك ؟ » . قال : « التوكُّل والدعاء إلى الله ، يا أمير

---

(١) نفْح الطيب ١ / ٢٦٦ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ٣٢ .

المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنتَ تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنتَ تخندق حولك ؟ » . قال : « كلّ هذا لم أفعلْه » . قال : « فما كنت تفعل ؟ » قال : « كنت أنزل السَّهْل ، واستشعر الخوف والصبر ، وأتحصَّن بالسيف والمِغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه في النصر » . قال له سليمان : « أيُّ الأمم أشدُّ قتالًا ؟ » . قال : « هم أكثر من أن أصف » . قال : « فأخبرني عن الروم » . قال : « أُسدٌ في حصونهم ، عِقبان علىٰ خيولهم ، نساءٌ في مراكبهم ، إنْ رأوا فرصةً انتهزوها ، وإنْ رأوْا غَلَبَةً ، فأوعالٌ تذهب في الجبال ، لا يَرَوْنَ الهزيمة عارًا » .

وقال رحمه الله : « والله ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قطُّ ، ولا بُدِّد لي جمع ، ولا نُكِبَ المسلمون معي ، منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغت الثمانين ، ولقد بعثتُ إلى الوليد بتورٍ[1] زبرجد ، كان يجعل فيه اللبن حتى تُرىٰ فيه الشَّعرة البيضاء ... ». ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد ، حتىٰ تحيّر سليمانُ .

وقال مرةً : « يا أمير المؤمنين ، لقد كانت الألفُ شاةٍ تباع بمائة درهم ، وتباع الناقةُ بعشرة دراهم ، وتمرُّ الناسُ بالبقر ، فلا يلتفتون إليها ، ولقد رأيت العِلْجَ الشاطر وزوجتَه وأولادَه يُباعون بخمسين درهمًا »[2].

لله دَرُّ موسىٰ :

النصـرُ يقـدُمُهُ والحَـزْمُ سائِقُهُ   عفُّ الخلائِقِ ماضٍ غيرُ وسنانِ
الحـقُّ نِسْـبَتُهُ والعـدلُ سِـيرتُهُ   جَزْلُ المواهبِ مُعْطٍ غيرُ منّانِ

دخـل مرةً على الخليفة سليمان ، فلمّا رآه سليمان قال : « ذهـبَ

---

(١) إناء .
(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٩ - ٥٠٠ .

سلطان الشيخ » . فقال له موسىٰ : « أما واللهِ لَئِنْ ذَهَبَ سلطانُ الشيخ ، لقد أثّر الله به في دينه أثرًا حسنًا ، ولقد كنتُ طويلَ الجهاد في الله ، حريصًا على إظهار دين الله حتىٰ أظهره الله ، وكنتُ ممَّن أتمّ الله به موعده لنبيّه ، ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضرَ الغصن ميمونَ الطائر » .

نعم واللهِ ؛ لقد نشر الإسلام ، وكان طويل الجهاد ، فتكلّل جهادُهُ بثمرات يانعة من الفتح الضخم ، الذي يضعه في مصافِّ أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين ، ولا غروَ أنْ قال له سليمان بعد ذلك – لما أراد غزو الروم – : « أَشِرْ عليّ يا موسىٰ ؛ فلم تزلْ مُبارَكَ الغزوة في سبيل الله ، بعيدَ الأثر ، طويلَ الجهاد » .

رحم الله موسىٰ بن نصير ، فكمْ كان وَرِعًا تقيًّا ، يحبُّه عمر بن عبد العزيز كلَّ الحُبِّ ، لتقواه وعطائه .

قال جعفر بن الأشتر : « كنتُ فيمن غزا الأندلس مع موسىٰ ، فحاصرْنا حِصنًا من حصونها عظيمًا ، بضعًا وعشرين ليلةً ، ثم لمْ نقدر عليه ، فلمّا طال ذلك عليه ، نادىٰ فينا : « أن أصبحوا على تعْبئةٍ ». وظننَّا أنه قد بلغَه مادّةٌ من العدو ، وقد دَنَتْ مِنّا ، وأنه يريد التحوُّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئةٍ ، فقام فحمِد الله ، ثم قال : « أيُّها الناس ، إني متقدِّم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبّرتُ وحملت ، فكبّروا واحمِلُوا » . فقال الناس : « سبحان الله ! أتُرىٰ فقد عقله ، أم عزبَ عنه رأيُه ؟ يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيلَ إليه ؟! » . فتقدم بين يدَي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن رُكُوب ، منتظرون تكبيرَه ، فاستعددنا ، ثم إنّ موسىٰ كبّر وكبّر الناسُ ، وحمَل وحمل الناسُ »[1].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢ / ٧٩ .

قال الذهبي في السير (٤ / ٤٩٧) : « عمل مع الروم مُصافًا مشهودًا ، ولمّا هَمَّ المسلمون بالهزيمة ، كشف موسىٰ سرادقه عن بناته وحُرَمِه ، وبرز ورفع يديْه بالدعاء والتضرُّع والبكاء ، فكُسرت بين يديه جفونُ السيوف ، وصدقوا اللقاء ، ونزل النصر ، وغَنِموا ما لا يُعبّر عنه » .

« ولما دخل موسىٰ إفريقية ، وجد غَالِبَ مدائنها خالية ، لاختلاف أيدي البربر ، وكان فأمر الناس بالصلاة والصوم والصلاح ، وبرز بهم إلىٰ الصحراء ، ومعه سائر الحيوانات ، ففرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والضجيج ، وبقي إلى الظُّهر ، ثم صلّى وخطب ، فما ذَكَرَ الوليدَ ، فقيل له : « ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ ». فقالوا : « هذا مقامٌ لا يُدعىٰ فيه إلا الله » . فسُقُوا وأُغِيثوا »[1].

لله دَرُّه من قائدٍ تقيٍّ وليٍّ ! بمثله تنتصر الجيوش .. لا كغيره من قواد الهزيمة :

وَشِسْعُ النَّعْلِ مِن موسىٰ الوليِّ   يفـوقُ الهَـامَ منهمْ والجَبِينـا

لله دَرُّ القائد موسىٰ بن نصير !! أيّ همةٍ همتُه ؟!

إني أراكَ من المكارمِ عَسْكرًا   في عسْكرٍ وَمِنَ المعالي مَعَادِنَا

نعم يا سيدي :

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ المفَاخِرَ وانثَنَتْ   عَنْ شأْوِهِنَّ مَطِيُّ وَصْفي ظُلَّعَا[2]
وَجَرَيْنَ جَرْيَ الشمسِ في أفلاكِهَا   فقطعْنَ مغربَهَا وجُزْنَ المَطْلَعَا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٨ ، ابن الأثير ٤ / ٢٠٦ ، وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٣ .

(٢) الشأو : الغاية ، وظُلّعًا : تمشي كأنَّ بها عَرجًا .

لَوْ نِيطَتِ الدنيا بأخرىٰ مِثْلِهَا لَعَمَمْنَهَا وخشيْنَ أنْ لا تَقْنَعَا

نعم يا سيدي :

لوِ استفرغْتَ جُهْدَكَ في قتالٍ أتيتَ بهِ على الدنيا جَميعَا
قَدِ استقصَيْتَ في سَلَبِ الأعادي فُردّ لهمْ من السلَبِ الهجُوعَا
إذا ما لمْ تُسِرْ جيشًا إليهمْ أسَرْتَ إلى قلوبهمُ الهُلُوعَا
سَمَوْتَ بهمَّةٍ تسمو فتسمُو فما تُلْفَىٰ بمرتبةٍ قَنُوعَا
وَهَبْكَ سمَحْتَ حتىٰ لا جوادٌ فكيفَ عَلَوتَ حتىٰ لا رفيعَا

لله دَرُّه ! كيف كان طموحه أنْ يقود رجاله إلى « روميّة » ليفتحها ؟! وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدًى أبعد من ذلك ، فيقود رجالَه مخترقًا ما بين الأندلس والقسطنطينية ، فاتحًا ما بينهما من أوربا ؟ فقد « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبَه ودروبَ الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أُمَم الأعاجم النصرانية ، مجاهدًا فيهم ، مُستلحمًا لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، فنمىٰ الخبرُ إلىٰ الوليد بن عبد الملك ، فاشتدَّ قلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنَّ ما هَمَّ به موسىٰ غرر بالمسلمين ، فبعث إليه بالانصراف ، ففتّ ذلك في عزْم موسىٰ ، وقفل عن الأندلس »[1].

ومات القائد موسىٰ وأغمض البطلُ عينيْه إلى الأبد ، ولكنّ التاريخ لم يُغمض عينيْه عن مآثره الخالدة ؛ ذلك لأنه « كان قد جمع من خِلالِ الخير ما أعانه الله سبحانه به ، على ما بنىٰ له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلَّد ، الذي لا يُبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديدَه بِلَىٰ الأعصار »[2].

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٨ .

(٢) نفح الطيب ١ / ٢٦٨ .

وفي واقعنا : رَحَل موسىٰ وبقي مَن يَدّعي إمْرَةَ المؤمنين .. وأنه قُرشيٌّ ، مَن جمع حوْله أهلَ الغناءِ .. يُرسل بالطائرة الخاصة تحملُ مطربًا يُحيي له عيدَ موْلده !! ويساهم في إنشاء كازينو الليل ... يا أمير المؤمنين .. ما أنت بالحسَن ، يا قُرشيُّ .. ذهبتْ قريشُ التي نعرفها عطرًا وضياءً ومجدًا ، وخالدًا وعمرًا وعقبة .. وأتتْ قريشُ الأردن وقريشُ المغرب ...!! لسانُ حالِكم يقول :

قُريشيُّون لَكِنّا بغير اللهِ نعتصمُ ... ونسْتذْني كلابَ الأرض في المحرابِ تنتظمُ

فبئرُ النِّفْطِ بدّلنا أعاريبًا مُشَرذَمَةً ... وقبلتُه لَهَا نسعىٰ .. وما بِسِوَاهُ نلْتزمُ

قريشيُّون لكِنّا بنا نَسَبٌ يُدَنِّسُنَا ... « مُسَيلمةٌ » جرىٰ فينا ومِن سبأٍ أتىٰ صنمُ

غَدَا الإسلامُ في يدِنَا بَراميلًا ندحْرِجها ... وظلَّ البيتُ يلعَنُنَا لأنّا أُمّةٌ غَنَمُ

عبدْنا اللهَ لَكِنَّا ... نُحبُّ اللاتَ والعُزّىٰ ... وأصغَيْنَا لِقَوْلِ اللهِ يعلُو سمْعَنَا الصَّمَمُ

حملْنَا الإثمَ والعُدوانَ فوقَ البرِّ والتَّقْوىٰ ... تواصيْنا بغيرِ الحقِّ ليسَ يضمُّنَا رَحِمُ

وخاصمْنَا كتابَ اللهِ ألقيْناه ظِهْريّا ... وأصبحْنا وأمسيْنا معَ الظُّلماتِ نرتَطِمُ

ونُذْبَحُ دونما ثمنٍ وَنَفْنَىٰ دونما أثرٍ ... ويلعَنُنَا ترابُ الأرضِ يَحْيَا بيننا العَدَم

تبعثرْنا علىٰ الأيام لا ندري لنا شرفًا ... تلاصقْنَا بِوَحْلِ الأرضِ لا يعلو لنا قَدَمُ

وشاهتْ كلُّ باسمةٍ تُلوِّثُ طُهْرَهَا يَدُنَا ... وكأسُ عذابِنَا المنكودُ فوقَ الرأسِ ينْحَطِمُ

خرْجنا من فِجاجِ الأرضِ في حَمَأٍ بِهِ نَتَنٌ ... ودينُ اللهِ في الأنحاءِ لا تسمُو به رِمَمُ

وعدْنا مِن غثاءِ السَّيْلِ يأبىٰ الكلُّ قَصْعَتَنَا ... فليسَ جِفَانُنَا المملوءُ بالأقذارِ يُلتهمُ

يا أمير المؤمنين بالاستسلام لليهود ، وبفتح مُدن المملكة لهم ... يا مَرء القيس في أيامنا :

لجميعِ عَبيد رءوسِ العُرْبِ يُشرّفنا هذا الإعلانْ

« سيقومُ سيادةُ مَرءِ القيسِ تُرافقه زُمْرةُ فرسانْ

سيُيَمِّمُ شطرَ البيتِ الأسودِ يقرعُ أبوابَ الرومانْ
سيُعَرِّج مَرْءُ القيس على صنمٍ يطلبُ منهُ استئذانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ ليحملَ شِرعةَ جُوستنيانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ يُعَبِّئُ جُعْبَتَهُ الإيمانْ
إيمانٌ بسلامٍ عدلٍ وشمولٍ يملأُ كلَّ مكانْ
بسلامٍ يقطع ثدْيَ الثَّكلىٰ كي تنسىٰ أَلَمَ التَّمْنانْ
بسلامٍ ينشرُ كأسَ الخمرِ ويفتحُ حانًا للسكران
بسلامٍ يعزفُ للتلمودِ ليخنقَ ترتيلَ القرآنْ »[١]

فاتح الأندلس : طارق بن زياد :

مَوْلىٰ موسىٰ بن نصير ، ولكنْ يعْجز السادةُ عن أن يأتُوا بمعشار فتْحه .

جهّز موسىٰ جيشًا من البربر والعرب ، يبلغ سبعة آلاف مقاتل ، بقيادة طارق بن زياد الليثي ، فعبَر البحر من « سبتة » بجيشه تِباعًا ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة ، التي تسمَّىٰ بجبل طارق .

« وفي « تاريخ ابن بشكوال » أنه لمّا ركب البحر رأى - طارق - وهو نائمٌ النبيَّ ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوفَ وتنكّبوا القِسِيّ ، فيقول له رسول الله ﷺ : « يا طارق ، تقدَّمْ لشأنك » . ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه ، فهبّ من نوْمه مستبْشِرًا ، وبشّر أصحابه ، وثابتْ نفسُه بِبُشْراه ، ولم يشكَّ في الظفر »[٢] .

---

(١) قصيدة : « امرؤ القيس » مِن ديوان : « كيف السبيل » لخالد عبد القادر - طبع : مكتبة المنار .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٣١ .

قال طارق :

رَكبْنَا سفينًا بالمجازِ مُقَيَّرا عسىٰ أنْ يكونَ اللهُ مِنَّا قدِ اشترىٰ
نفوسًا وأموالًا وأهلًا بجنَّةٍ إذا ما اشتهيْنا الشيءَ فيها تيسَّرا
وَلَسْنَا نبالي كيفَ سالتْ نفوسُنا إذا نحنُ أدركْنا الذي كانَ أجْدَرَا[1]

وتوالت انتصارات طارق ؛ ففتح مدينة « قرطاجنة الجزيرة » ، ثم زحف غربًا واستولىٰ على المنطقة المحيطة بها ، وبعد معاركَ مَحليَّةٍ أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء ، وكتب عاملُ « لذريق » - « تُدْميرُ » - إليه : « إنه قد نزل بأرضنا قومٌ ، لا ندري أمِنَ السماء هُم أم مِن الأرض » . فزحف « لذريق » لصدِّ المسلمين في نحو مائةِ ألفٍ ذوي عددٍ وقوةٍ ، وكتب طارق إلى موسىٰ بأنه قد زحف إليه « لذريق » بما لا طاقة له به ، فجهّز له وأمدَّه بخمسة آلاف ، فكملوا بمن تقدَّم اثني عشر ألفًا ، وقام طارق في أصحابه ، فحثَّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه ، قائلًا : « أيُّهَا الناس ، أين المفرُّ ؟! البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم واللهِ إلَّا الصدق والصبر » . والتقىٰ الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنةَ اثنتين وتسعين الهجرية على وادي « برباط » أو وادي « لكة » ، واستمرّت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمةً ساحقة ، وأقامت عظامهم بعد ذلك بدهرٍ طويل مُلْبِسةً لتلك الأرض ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين ، وأحدث انتصار طارق في وادي « لكة » دويًّا هائلًا في المشرق والمغرب ، وتسامَع الناسُ من أهل « برّ العدوة » بالفتح على طارق بالأندلس ، وسَعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه مِن كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٥ .

ما قدروا عليه من مركب وقشر[١] ، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يَجني ثمارَ جهاده وانتصاره في وادي لكة ، ففتح « شذونة » عَنوة ، ثم مضى إلى « المُدُور » ثم عطف على « قرمونة » ، ثم إشبيلية ، فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى « إستجة » وكانت تؤلّف المركز الأول للمقاومة ؛ إذ كانت فلول القوط قد تجمّعتْ هناك ، فظفر طارق بصاحب المدينة ، وأرغمه على الصلح ، وفرَض عليهم الجزية ، وعبَرَ طارقُ الوادي الكبير ، فدخل طليطلة سنة ثلاث وتسعين ، دون مقاومة تُذكر ، وتغلغل طارق تغلغلًا عميقًا في أنحاء الأندلس ، ولم تقفْ هزيمة القوط على موضعٍ ، بل كانوا يُسلّمون ، بلدًا بلدًا ومَعقلًا مَعْقلًا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب مِن طارقٍ ، لمّا رأوْه يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغبًا في المَغْنمِ ، عاملًا على القُفُول ، فَسُقِطَ في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل .

وعبر موسىٰ إلى مولاه طارق ، ولمّا التقيا قال موسىٰ لطارق : « يا طارق، إنه لن يُجازيَك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثَر من أن يمنحَك الأندلس ، فاستبحْه هنيئًا مريئًا » . فقال له طارق : « أيُّهَا الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي » . يعني : البحر الشمالي ، ولم يزل طارق يفتح وموسىٰ معه إلى أن بلغ « جلّيقية » ، وهي على ساحل البحر المحيط[٢]. اهـ .

يا شَذَا ذكْرِ طارقِ بن زيادٍ ... ضوّعتْ مِن عبيرِه العَرَصَاتُ
أنتَ فوقَ الأمواجِ تقدُم جيشًا ... أولًا عيب تستغير الفلاةُ

(١) يُراد به : الزَّوْرق الصغير .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٤٢ .

كُلّمـا دقّ للفتـوح بطَبْـلٍ مجّـدَتْ وافـدَ الكمـيّ لُغاتُ
جاءَ أسبانيا بِمَقْدِمِ صِدْقٍ نُشـرتْ في مسـيرهِ هَبَـواتُ
وإذا ما سمِعتَ للسيفِ قوْلًا فهـوَ حـقٌّ وهـلْ يخونُ الثِّقاتُ
والقنـاةُ التي بكفِّ شُجـاعٍ صُـوِّبتْ مِن زنادهـا الطَّلَقـاتُ
وإذَا الكفُّ بالقنـاةِ جبـانٌ فَمِنَ العَجْز أنْ تُصيبَ القَناةُ[1]

ونحن يا طارق ، يا قابض الجزية من القوط :

صار ميراثُنا بيد الغرباء
نستقي بعد خيل الأجانب من ماء آبارنا
صُوفَ حِمْلاننا
ليس يلتفُّ إلا على مغْزَلِ الجزية
النار لا تتوهّج بين مضاربنا
بالعيون الخفيضة نستقبل الضيف
أبكارنا ثيّبات .. وأولادنا للفِرَاش
فمَن سيروّضُ مُهْرَ الخِيالْ
ومن سيضمّدُ في آخرِ الصيد جُرْحَ الغزالْ
ومن للرجالْ ؟!
إذا قيلَ : ما نَسَبُ القوم ؟
فانسكبتْ في خدود الرمالْ
دموعُ السؤالْ
أبي ظَامِىءٌ يا رجالْ

(١) مِن قصيدة : « سيرة الأبطال » للشيخ عائض القرني صـ ٢٠ - طبع : دار جرش للنشر والتوزيع .

أريقوا له الدمَ كي يرتوي
وصبّوا له جَرعةً في الفؤاد الذي يكتوي
عسىٰ دمه المتسرِّب بين عروقِ النباتات ... بين الرمالْ
يعود له قطرةً قطرةً
فيعود له الزمن المنطوي

يا مـدريد :

يا مـدريد ... قـد جاءك طارق وجئناك ، وعندك الخبر اليقين .. فحدّثي :

أرقتُ وليلي مُذ فُجعتُ طويلُ ... أَيُلامُ في حِفْظِ الهـوىٰ مَتْبـولُ
ما زلتُ أرقُبُ في شذاك أحبّتي ... فمتى سَيَشفىٰ يا نسيمُ عَليلُ
أشقـانيَ المحرابُ يسـأَل عنهُمُ ... مُـذْ فارقُـوا والمنـبرُ المثكـول
والمصحفُ المطوِيُّ يسأَل عنهُمُ ... قـدْ شاقـهُ الترتـيلُ والتـأويلُ
مَنْ هؤلاءِ القادمونَ ؟ أعقبةٌ ؟؟ ... المجـدُ في عزَمَـاتِهِ مَوْصـولُ
أمْ طارقٌ تشكُو القواربُ مجدَهُ ... والفتحُ فـوقَ رِكابهِ مَحمـولُ
مَـنْ هـؤلاءِ القادمـونَ جلودُهُمْ ... سُمْرٌ ولكنْ في القلوبِ شهُولُ
لمْ يستقلُّـوا الصافنـاتِ وإنَّمـا ... رَكِبُـوا بغـالًا سَعْيُهُـنَّ ثقـيلُ
وتجرَّدُوا مِن كلِّ أبيضَ صارمٍ ... للمجـدِ فـيهِ تلألُؤٌ وصَلِـيلُ
جاءُوا يَسوقهُمُ الأعادي عَنوةً ... فهُمُـو لهُمْ بينَ الأنـامِ ذُيـولُ
جاءُوا إلى مدريدَ بئسَ مَجيئهُمْ ... لا السعـيُ محمـودٌ ولا مأمُـولُ
جـاءُوا ويا بئـسَ المجيء مجيئُهم ... حُمُرٌ تُساقُ إلى الردىٰ وعُجولُ
جاءُوا وخلْفَهمُ الكرامةُ تشتكي ... أسَفًا وجنْـبُ المسلمـين ذليلُ

يَـٰأَيُّهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد عَلا   فوْقَ المـآذنِ غاصِبٌ ودَخِيلُ
يَـٰأَيُّهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد جَثَا   فَـوْقَ المنـابرِ خـائنٌ وعميلُ

قُتَيْبَةُ بنُ مسلمٍ الباهِليّ ، فاتح خوارزم وبُخارىٰ وسمرقند :

قال الذهبي في السير (٤ / ٥٠١ ، ٤١٠) : « كان لقتيبة بن مسلم بالمشرق فتوحات لم يُسمع بمثلها » .

الأمير أبو حفص ، أحدُ الأبطال والشجعان ، ومِن ذوي الحزْم والدهاءِ ، والرأي والغناء ، وهو الذي فتح خوارزم ، وبخارىٰ ، وسمرقند ، وكانوا قد نقضوا وارتدُّوا ، ثم إنه فتح « فرغانة » وبلاد الترك ، في سنة خمسٍ وتسعين .

أرسل عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف : « انظر لي رجلًا صارمًا ، ماضيًا لأمرك » . فسمَّى قتيبةَ بن مسلم ، فكتب إليه : « وَلِّهِ » . فأسند إليه إمارة خراسان ، فتسلّمها سنة خمسٍ وثمانين هجرية .

ولمّا قدِمَ قتيبة خراسان ، جمع الناسَ وحضَّهم على الجهاد ، وقال : « أمّا بعد .. إنّ اللهَ أحلّكم هذا المحلّ لِيعزّ دينه ، ويَذبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المالَ استفاضةً ، والعدوَّ وَقَمًا[1] ، ووعد نبيَّه ﷺ النصرَ ، بحديث صادق ، وكتابٍ ناطق ، فقال : ﴿ **هُوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدَىٰ وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ علىٰ الدِّين كلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشْركونَ** ﴾ [الصف : ٩] ، ووعدَ المجاهدين في سبيلِهِ أحسنَ الثواب ، وأعظم الذُّخْر عنده ، فقال : ﴿ **ذٰلِكَ بأنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يطئونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفارَ ولا يَنالُونَ مِنْ عَدوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللهَ**

(١) ذُلًّا .

لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعونَ واديًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجزيَهم اللهُ أحسنَ ما كانُوا يعملونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ - ١٢١] ، ثم أخبرَ عمَّن قُتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوقٌ ، فقال : ﴿ **ولا تَحسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بَلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، فتنجّزوا موعودَ ربِّكم ، ووطِّنوا أنفسَكم علىٰ أقصىٰ أثرٍ وأمضىٰ ألمٍ ، وإيايَ والهُوَيْنَىٰ »[1] .

لقد اشتُهر في فتح المشرق كثيرٌ من القادة ، كانوا شُهُبًا أضاءت سماءَ المشرق ، وانفتحت أمام عزيمتِهم أبوابُ الدنيا ، وسقطت دولة بني ساسانَ تحت سنابك جندهم ، وعندما جاء قتيبة ، وجد طابورًا خامسًا ممَّن تمرَّسوا قتالَ المسلمين ، وعرفوا أساليبَ حربهم ، ومع هذا أذلّ أنوفَهم ، وهنا يظهر عُلوُّ همّةِ هذا القائد الذي لا يُبارَىٰ ، ولقد فتح رحمه الله أقاليمَ واسعةً ، تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم ، ويزيد الأمرَ أهميةً طبيعةُ الأقاليم الصعبة ، ومناخها القاسي ، وطبيعةُ سكّانها المقاتلين الأشدَّاء ، كما عرَفهم تاريخ الحروب منذ زمنٍ بعيدٍ ، ويَكفي شرفًا لقُتيبة شهادةُ « الأصبهبذ » - ملك الترك - له ، عندما علم بِمَصْرَعه ؛ فقد قال لرجالٍ كانوا عنده : « يا معشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد[2] ، وهما سيدا العرب ! » . فقيل له : « فأيُّهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟ » . قال : « لو كان قتيبة بالمغرب ، بأقصىٰ جحر به في الأرض ، مكبّلًا بالحديد ، ويزيدُ معنا في بلادنا والٍ علينا ، لَكَانَ قتيبةُ أهيبَ في صدورنا وأعظم مِن يزيد »[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٤٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ١٠٥ .
(٢) يزيد بن المهَلّب بن أبي صفرة ، وكان واليًا على خراسان قبل قتيبة .
(٣) « قتيبة بن مسلم الباهلي » لبسّام العسلي صـ ٧٣ - ٧٤ - دار النفائس .

الفتــوح :

لمّا قَدِمَ قتيبة خراسان سنة خمسٍ وثمانين هجرية ، عَرَضَ الجند في السلاح والكُرّاع ، فكان جميعُ ما أحصَوْا مِن الدروع في جند خُراسـان ثلاثمائة وخمسين درعًا ، وبعد أن أتمّ تنظيمه غادر مرو ، واستخلف على حرْبها إياس بن عبد الله بن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدي ، وعندما وصل الجيش إلى نهر «جيحون»- المعروف حاليًا باسم «أموداريا»- توقّف في بلخ[1] ؛ لأن بعضَها كان منتقضًا عليه ، وقد ناصَب المسلمين ، فحارَب أهلَها ، ثم إنّ أهل بلخ صالحوا مِن غدِ اليوم الذي حاربهم قتيبة ، فأمر قتيبة بردِّ السَّبْي ، ثم مضى إلى « الطالقان »[2] بعد أن استقبل دهاقين بلخ ، وبعض عظمائهم الذين ساروا معه ، فلما قطع نهر جيحون تلقّاه ملك « الصغانيان »[3] بهدايا ومفتاحٍ مِن ذهب ، فدعاه إلى بلاده فأتاه ، وأتى « كفتان » بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده ، فمضى إلى الصغانيان ، وكان ملك « أخْرون » و« شومان » - وهما من طخارستان - قد أساء جوار ملك الصغانيان ، فغزا قتيبةُ أخرون وشومان ، فجاءه ملكُها « غيسلشنان » ، فصالحه على فديةٍ أدّاها إليه ، فقبِلها قتيبة ، ثم قفَل فركِب السفن ، فانحدر إلى بلدة « آمل » ، وخلّف الجند بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، وتقدّم قتيبة جندَه فسبقهم إلى مرو ، وفتح صالحُ - وهو في طريقه - مدينة « باسارا » ، ثم تابع طريقه إلى بلخ ، فمرو ، وعندما بلَغ الحجاجَ ذلك ، كتب إلى قتيبة يلُومه ، ويُعجّز رأيَه في تخليف الجند ، وكتب إليه : « إذا غزوتَ فكنْ في مقدمِ الناس ،

---

(١) مدينة بخراسان .

(٢) بلد بخراسان بين « مرو الروذ » و« بلخ » .

(٣) ولاية عظيمة فيما وراء نهر « جيحون » متصلة الأعمال بـ« ترمذ » .

وإذا قفلت فكنْ في أُخْرياتهم وساقتهم » .

أمضىٰ قتيبة عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م في تنفيذ هذه العمليات ، التي كانت بمثابة استطلاعٍ مَيْداني للموقف أكثرَ منها عمليات قتالية ، وعندما رجع إلى مقرِّ عملياته ، ومركزِ إدارته لإقليم خراسان ، انصرف إلى إدارة ولايته ، استعدادًا للمرحلة القتالية التالية ، في سنته القادمة .

غَزْو « بيكند »[(١)] :

علم قتيبة بوجودِ أسرىٰ للمسلمين في قبضة « نيزك » ملك طرخان ، فكتب إليه طالبًا إطلاق سراح الأسرىٰ ، وتهدّده في كتابه ، فخاف نيزك ، فأطلق الأسرىٰ وبعث بهم إلى قتيبة . فوجّه إليه قتيبةُ مَن يدعوه إلى الصلح ، وإلى أن يُؤَمِّنه ، وكتب إليه كتابًا يحلِفُ فيه بالله لئن لم يقدم عليه لَيغزونَّه ، ثم لَيطلبنَّه حيث كان ، لا يقلع عنه حتى يَظفر به ، أو يموت قبل ذلك ، وتوجَّه سفير قتيبة إلى نيزك والكتاب بيده ، وكان يستنصحه ، فقال نيزك للسفير : « ما أظنُّ عند صاحبك خيرًا ، كتب إليّ كتابًا لا يُكْتَبُ إلىٰ مثلي ! » . فقال له السفير : « يا أبا الهياج ، إنَّ هذا رجلٌ شديد في سلطانه ، سهل إذا سُوهل ، صعبٌ إذا عُوسر ، فلا يمنعك مِن غلظة كتابه إليك ، فما أحسنَ حالَك عنده وعند جميع مضر » . فقدِم نيزك مع السفير على قتيبة ، فصالحه أهل « باذغبس » في سنة ٨٧ هـ = ٧٠٦ م على ألا يدخل باذغبس . وبعد أنْ أمِن قتيبة شرَّ نيزك وصالحه ، أقام إلى وقتِ الغزو ، ثم سارَ من مرو وأتىٰ مرو الروذ ، ثم أتىٰ « زم » ، ثم مضىٰ إلى « آمل » ، فقطع نهر جيحون وسار إلى بيكند ، وعندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة ، استنصروا

---

(١) بيكند : أدنىٰ مدائن بُخارىٰ إلى نهر جيحون ، يُقال لها : مدينة التجار ، علىٰ رأس المفازة من بُخارىٰ . « تاريخ الطبري » ٦ / ٤٣٠ .

الصغد ، واستمدّوا مَن حولهم ، فأتوْهُم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق - قطعوا عليهم محاور اتصالهم بالخليفة - فلم ينفَذْ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يجر له خبرٌ شهرين ، وأبطأ خبرُه على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاءِ لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلىٰ الأمصار ، وهم يقتتلون كلَّ يوم .

كان لقتيبة جاسوس - عين - يقال له : « تنذر » ، من الفرس العجم ، فأعطاه أهل بخارىٰ الأعلىٰ مالًا على أن يصرف عنهم قتيبة ، فأتىٰ تنذر إلى قتيبة ، وطلب الاجتماع به على انفرادٍ ، فنهض الناسُ وانصرفوا ، واحتبسَ قتيبةُ ضرارَ بن حصين الضَّبِّي حتى يحضر المقابلة ، فقال تنذر : « هذا عامل يقدم عليك ، وقد عُزل الحجاج ، فلو انصرفتَ بالناسَ إلىٰ مرو ! » . فدعا قتيبة « سياه » مولاه ، فقال : « اضرب عنقَ تنذر » . فقتله ، ثم قال لضرار : « لم يبقَ أحدٌ يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أُعطي اللهَ عهدًا : إنْ ظهر هذا الحديثُ مِن أحدٍ حتىٰ تنقضي حربنا هذه لألحقنَّك به ، فاملُكْ لسانك ، فإنَّ انتشارَ هذا الحديث يفتُّ في أعضادِ الناس » . ثم أذِن قتيبة للناس بالدخول عليه ، وعندما دخلوا راعَهم قتلُ تنذر ، فوجموا وأطرقوا ، فقال قتيبة : « ما يروعكم مِن قتل عبدٍ أحانه الله ؟! » . قالوا : « إنا كُنَّا نظنُّه ناصِحًا للمسلمين » . قال : « بل كان غاشًّا ، فأحانه الله بذنبه ، فقد مضىٰ لسبيله ، فاغدُوا على قتالِ عدوِّكم ، والقوهم بغير ما كنتم تلقوْنهم به » . فغدا الناس متأهِّبين ، وأخذوا مصافَّهم ، ومشىٰ قتيبة ، فَحَضَّ أهل الزايات ؛ فكان بين الناس قتالٌ بالرماح ، ثم تزاحفوا والتقَوْا ، وأخذتِ السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبرَ ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتَّبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ، فتفرَّقوا ، وركبهم المسلمون

قتلًا وأسرًا كيف شاءوا ، واعتصم مَن دخل المدينةَ بالمدينة ، وهم قليلٌ ، فوضع قتيبة الفَعَلة - المهندسين - للعمل في أصلها لِيهدمها ، فسألوه الصلح ، فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلًا من بني قتيبة ، ثم ارتحلَ عنهم يريد الرجوع ، فلمّا سار مرحلة أو اثنتين - وكان منهم على خمسة فراسخ (خمسة عشر ميلًا) - نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامِلَ وأصحابَه ، وجدَعُوا أنوفَهم وآذانهم ، وبلغ قتيبةَ الخبرُ ، فرجع إليهم وقد تحصنوا ، فقاتلهم شهرًا ، ثم وضع الفَعَلة في أصل المدينة ، فعلّقوها بالخشب ، وهو يريد - إذا فرغ من تعليقها - أن يحرِق الخشب فتنهدم ، فسقط الحائطُ وهم يعلّقونه ، فقتل أربعين مِن الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبىٰ ، وقاتلهم حتىٰ ظفر بهم عَنوة ، فقتل مَن كان فيها مِن المقاتِلة ، وكان فيمن أخذوا في المدينة رجلٌ أعور ، كان هو الذي استجاش (استثار) الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : « أنا أفدي نفسي » . وسألوه : « ما تبذل ؟ » . قال : « خمسة آلافِ حريرةٍ صينية ، قيمتُها ألفُ ألفٍ » . فقال قتيبة : « ما ترون ؟ » . قالوا : « نرىٰ أنّ فداءَه زيادةٌ في غنائم المسلمين ، وما عسىٰ أن يبلغ مِن كيْد هـذا ؟! » . قال : « لا والله لا تُرَوَّعُ - لا تُخاف - بك مسلمةٌ أبدًا » . وأمر به فَقُتِلَ .

لما فتح قتيبة « بيكند » ، أصاب المسلمون فيها مِن آنية الذهب والفضة ما لا يُحصىٰ ، وصار في أيدي المسلمين شيءٌ لم يصيبوا مثله بخراسان ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوي المسلمون فاشترَوْا السلاح والخيل ، وجُلبت إليهم الدوابُّ ، وتنافسوا في حُسْن الهيئة والعدّة ، وغالوا بالسلاح ، حتى بلغ الرمح سبعين دينارًا[١] . وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة ،

---

(١) ولّى قتيبة لقسمة الغنائم عبدَ الله بن وَأْلان العدوي - أحد بني مَلَكَان ، =

فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفْع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن مِن عُدّة الحرب وآلة السفر ، فقسمه في الناس ، فاستعدُّوا ، فلما كان أيام الربيع ، ندب الناسَ وقال : « إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد ، وأنتقلكم قبل أنْ تحتاجوا إلى الإدفاء - من البرد - فسار في عُدّة حسنة من الدوابّ والسلاح ، فأتى « آمل » ، ثم عبر مِن « زم » إلى « بخارىٰ » ، فأتىٰ « نومشكت » - وهي من بخارىٰ - وذلك بعد أن استخلف على مرو بشار بن مسلم .

كان التحرك المبكّر لقتيبة غير مُتوقَّع ، فبُوغت أهل نومُشَكَت ، مما حملهم على استقبال قتيبة ، وعقد الصلح معه في عام ٨٨ هـ = ٧٠٧ م ، ثم سار قتيبة إلى « راميثنه » ، فصالَحه أهلها أيضًا ، فانصرف عنهم ، وزحف إليه الترْك ، ومعهم « السغد » وأهل « فرغانة » ، فاعترضوا المسلمين

= وكان قتيبة يسميه : الأمين ابنَ الأمين - ومعه إياسَ بن بيْهس الباهلي ، فأَذَابا الآنية والأصنام ، فرفعاه إلى قتيبة ، ورفعا إليه خَبَثَ ما أذابا - من بقية الذهب غير النقي والأوشاب - فوهبه لهما ، فأُعطيا به أربعين ألفًا ، فأعلماه ، فَرَجَعَ فيه وأمرهما أن يذيباه ، فأذاباه ، فخرج منه خمسون ألف مثقال . وفي كثرة غنائم هذا اليوم قال الشاعر الكُمَيْت :

ويومَ بِيكَنْدَ لا تُحصَىٰ عجائبهُ ... وما بُخـارَاءُ ممّا أخطأَ العَـدَدُ

ساعدت وفرة الغنائم قتيبة على شراء اثني عشر ألفًا من جياد الخيل ، واثني عشر ألفَ هجينٍ . ودفع ثمن كل راحِلة أربعة آلاف درهم ، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء ، وعندما أخذ في الاستعداد لغزْو نومشكت وراميثنه ، قيّد الخيولَ وأضْمرها ، حتى تذوبَ شحومُها وتصبح أكثر خفّةً ، لتجاوز الأنهار ، وقفْزِ الحواجز ، والسيْر في المسالك الوعرة . ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان الذين يدفعهم في الطلائع (المقدمات) .

في طريقهم ، فلحِقوا عبدَ الرحمـٰن بن مسلم الباهلي ، وهو على الساقة « المؤخرة » ، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميلٌ واحد ، فلما قربوا منه أرسل رسولًا إلى قتيبة يخبره ، وغَشيهُ الترك ، فقاتلوه ، وأتى الرسول قتيبة فرجع بالناس ، فانتهى إلى عبد الرحمـٰن وهو يقاتلهم ، وقد كاد الترك يُلحقون بهم الهزيمة ، فلمّا رأى الناسُ قتيبة ، ارتفعتْ رُوحهم المعنوية ، وصبروا ، واستمرّ القتال حتى الظهر ، وأبلى يومئذ نيزك - وهو مع قتيبة - بلاءً حسنًا ، فهـزم اللهُ التركَ وفضَّ جمعَهم . ورجع قتيبـة إلى قاعدته (مرو) ، وقطع النهر مِن الترمذ إلى بلخ ثم إلى مرو . وقال الباهليُّون : لقي التركُ المسلمـين - عليهم « كوربفانون » التركي ، ابن أخت ملك الصين - في مائتي ألف ، فأظهر الله المسلمين عليهم .

بدأ قتيبة عملياته في السنة التالية : ٨٩ هـ = ٧٠٨ م ، مع إطْلالة الربيع ، وعبَر نهر جيحون عند « زم » ، وتجمّع بقوات الصُغْد[١] و« كش » و« نسف » ، عند بداية المفازة الصحراوية ، وبعد معركة ضاريةٍ ، انتصر المسلمون على الترك . ومضى قتيبة بالمسلمين حتى نزل بخرقانة السفلى ، عن يمين وردان ، فلقُوه بجمع كبير ، فقاتلهم يومَيْن وليلتين ، حتى ظَفِرَ عليهم ، ثمّ إنَّ قتيبةَ غزا « وردان خذاه » ملك بخارى ، فلم يتمكّن من حسْم الصراع معه ، ولم يظفر مِن البلد بشيءٍ ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجَّاج بذلك ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن صَوِّرْهَا لي » . فبعث إليه بصُورتها (مخططها) ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن كِسَّ بـ« كش » ، وانسفْ « نسّف » ، وَرِدْ « وَرْدان » ، وإيَّاكَ والتحويط ، ودعني مِن بنيات الطريق ، وارجعْ إلى مراغتك ، فتبْ إلى الله مِمّا كان منك ، وأْتِها مِن مكانِ

---

(١) ولاية عظيمة ، عاصمتُها : سمرقند ، وهي وعِرة المسالك ، اشتُهر أهلُها بالبطولة والبسالة .

كذا وكذا »[١].

فتح بُخارىٰ (٩٠ هـ = ٧٠٩ م) :

لم تكن أعمالُ السنوات السابقة في حياة قتيبة بن مسلم ، أكثر من غزوات استطلاعية ، ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية ، وأساليب القتال الملائمة .

وجاءت رسالة الحجاج ، وفيها انتقاص مِن كفاءة قتيبة ، وتحذيره له من نِقاط ضعْفٍ ، لا يجوز لقائد كقتيبة الوقوع فيها ، فخرج قتيبة لغزاته في عام تسعين هجرية ، وهو أكثر تصميمًا على بلوغ هَدَفِه .

وكان « وردان » ملك بخارىٰ قد استعد لمجابهة احتمال هجوم قتيبة ، فأرسلَ في طلب الدَّعْم من الصغد والترك ومَن حولهم ، وسَبَق قتيبةُ وصولَ الدعم ، فحصر بخارىٰ ، وطوّق قواتِ وردان .

عندما وصلت قوات الدعم ، خرجت قوّة من المسلمين لقتالها ، فقالت قبيلة الأزد – وقد أرادتْ شَرَفَ مجابهة قوات الدَّعم وحدَها – : « اجعلونا على حِدَة – ناحية – وخلُّوا بيننا وبين قتالِهم » . فوافق قتيبة ،

(١) انسفْ : نسف : بمعنى : دَمّرْ بلدة نَسف . وإياك والتحويط : بمعنى : احذرْ من التردُّد أو اللُّجوءِ إلى الأهداف الثانوية ، وركزْ على المواقع الهامّة . وحوِّطْ : بمعنى : طَوِّقْ ، أو ابنِ حوْله حائطًا . وإياك وبنيات الطريق : أي : اسلكِ الطريق المستقيم الذي لا تعريج فيه ، وابتعدْ عن الطرق الفرعية . وارجعْ إلى مراغتك : أي : ارجعْ إلى بخارىٰ واجعلْها هدفًا لك . والمراغة في الأصل : مُتمرغ الدابة . وأراد الحجاج من قتيبة أنْ يفتح بخارىٰ ويجعلَها قاعدةً له ، ويتقلّب فيها كما تتقلّب الدابة في مراغتها . (الطبري ، وابن الأثير – أحداث سنة ٨٩ هـ) .

وتقدّمت قبيلة الأزدْ للقتال - وقتيبة جالسٌ ، عليه رداء أصفر فوق سلاحه - فصبروا جميعًا في معركة طاحنةٍ كان التفوُّق فيها لصالح قوات الدعم ، ولم تلبث هذه القوات أن حطَّموا صمود الأزد ، واندفعوا في تقدّمهم حتى دخلوا معسكر قتيبة ، وجاوزوه إلى منطقة الشئون الإدارية ، ومعسكر النساء ، فخرجتِ النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو ، حتى ضرب النساء وجوهَ الخيل ، وعندئذٍ تدخّل قتيبة ، فأمر المَجْنبتين بتطويق قوات الترك وإبادتها ، وأسرع هؤلاءِ بالانسحاب إلى منطقة مرتفعة ، فقال قتيبة : « من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ » . فلم يقدُم عليهم أحد ، والأحياء من العرب كلهم وُقُوفٌ ، فمشى قتيبة إلى بني تميم ، وحضَّهم على القتال ، بقوله : « يومٌ كأيامِكم » . وتقدّم وكيعٌ - من تميم - فحمل الراية ، واستثار قومه ، وسلّم الراية لقائد فرسان تميم : هريم بن أبي طلحة المجاشعي ، في حين تولّى وكيع قيادة قوّة المشاة ، ووصلتْ قبيلة تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهرٍ واسع ، وتقدّم الفرسان بقيادة هريم ، حتى خاضُوا النهر وعبروه إلى الضفة المقابلة ، فيما كان وكيع يجمع الخشب ، حتى أقام جسرًا على النهر ، وقال لأصحابه : « مَنْ وطَّن نفسه على الموت فلْيعبر ، ومَنْ لا ، فليثبت مكانه هنا » . وعبَرَ الجسر ثمانمائة مقاتل ، وسار بالقوة بعد ذلك ، حتى اقترب من العدو ، فأعطى جنده المشاة فترةَ استراحة قصيرة ، ومضى لتنظيم قواته ، فجعل الخيلَ على مجنبتيْه لحمايتهما ، ثم قال لهريم : « إني مُطاعِنٌ القوم ، فاشغلْهم عنّا بالخيل » . وقال للناس : « شدُّوا » . فحملوا ، فما انثنَوْا حتى خالطوهم ، وحمل هريم خيلَه عليهم ، فطاعنوهم بالرماح ، فما كفُّوا عنهم حتى حَدَرُوهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : « أمَا تَرَوْن العدوَّ منهزمين ؟ » . فأَتْبعهم الناسُ ، ونادى قتيبة : « مَن جاء برأسٍ فلهُ مائة » . وانطلق الجند يعبرون النهر ، وأسرعتْ قوات الخَصم

بإخلاء ميدان المعركة ، والانسحاب بسرعةٍ قبل أن تصلَهم قوات المسلمين .

كان من نتيجة الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيشَي الصغد وبخارىٰ ، وإصابة خاقان الترك وابنه في المعركة ، أن تقدّم ملك السّند « طرخون » ، حتى وصل الضفة المقابلة مِن نهر جيْحون ، وعرض على قتيبة الصلح ، فوافقه قتيبة ، ووقّعا اتفاقية الصلح ، وعندما رجع « طرخون » إلى بلاده ، رفض أهل مملكته قبول الصلح ، وخلعُوه عن الملْك ونَصبُوا ابن أخيه مكانه ، وشعر « طرخون » بالألم لهذا الموقف المتمرّد ، فاتّكأ على سيْفه وانتحَر .

وأرسل الملك الجديد رسولًا يعلن رفضَه لاتفاقية الصلح المعقودة مع عمّه ، وفي الوقت ذاته ، كان قتيبة ينظّم أمور بخارىٰ ، حتىٰ إذا فرغ منها ، رجع إلى مرو ومعه نيزك ، وقد أذهله ما شهِده من فتوح ، وأصبح يخاف بَأْسَ قتيبة . فقال لأصحابه وخاصته : « ... مُتّهَمٌ أنا مع هذا ، ولست آمَنه ، وهو شديد السطوة فاجرٌ ، فلو استأذنتُه ورجعتُ ، كان الرأي » . قالوا : « استأذنْه » . فلما كان قتيبة بآمل ، استأذنه في الرجوع إلى تخارستان ، فأذِن له ، فلما فارق عسْكره متوجّهًا إلى بلخ ، قال لأصحابه : « أغذوا السير » . فساروا سيْرًا شديدًا ، حتى أتوْا النوبهار ، حيث قال لأصحابه : « إني لا أشكّ أن قتيبة قد ندِم حين فارقْنا عسكره على إذنه لي ، وسيقْدم الساعةَ رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبْسي ، فأقيموا ربيئةً – نقطة مراقبة – للنظر ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة ، وخرج من الباب ، فإنه لا يبلغ « البروقان » ، حتى نبلغ تخارستان ، فيبعث المغيرة رجلًا ، فلا يدركنا حتى ندخل شعب (خُلُم) » . ففعلوا . ولم تمضِ سوى فترة قصيرة ، حتى أقبل رسولٌ مِن قبل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبْس نيزك ؛ فلمَّا مرّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان – ومدينة بلخ يومئذ

خراب - ركب نيزك وأصحابه فمضَوا ، وقدِم الرسولُ على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوجده قد دخل شِعب « خُلُم » ، فانصرف المغيرة ، وأظهر نيزك الخلْع ، وكتب إلى « إصبهبذ » بلخ ، وإلى « باذام » ملك « مرو الروذ » ، وإلى « سهرب » - أو سهرك - ملك الطالقان ، يدعوهم إلى خلْع قتيبة فأجابوه ، وواعدهم الربيع أنْ يجتمعوا ويغزوا قتيبة .

كان ملك تخارستان - واسمه : جبغويه - ضعيفًا ، فأخذه نيزك ، فقيّده بقيدٍ من ذهبٍ ، مخافة أن يشغب عليه - وجبغويه ملك تخارستان ، ونيزك مِن عبيده ، جعله قائدًا لقواته - فلمّا استوثق منه ، وضع عليه حراسة قوية ، وأخرج عاملَ قتيبة من تخارستان ، وبلَغَ قتيبةَ خلْعُه قبل الشتاء ، وقد تفرّق الجند ، فلم يبقَ مع قتيبة إلا أهل مرو ، فبعث عبد الرحمٰن أخاه إلى بَلْخ في اثني عشر ألفِ مقاتل ، وكلّفه بالتوجُّه إلى البروقان ، وقال له : « أقمْ بها ، ولا تُحدِث شيئًا ، فإذا حسرَ الشتاء ، فعَسْكِرْ وسِرْ نحو تخارستان ، واعلمْ أني قريبٌ منك » . فسار عبد الرحمٰن فنزل البروقان ؛ وأمهَلَ قتيبة ، حتى إذا كان آخر الشتاء ، كتب إلى « أبرشهر » ، و« بيورد » ، و« سرخس » ، وأهل « هراة » ، لِيقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يَقْدمون عليه فيه للغزو والحرْب .

كان أول من استجابَ لنيزك : طرخان ملك الطالقان ، واتّفق معه على حرب قتيبة ، فلمّا هرَبَ نيزك من قتيبة ودخل شِعبَ خُلم الذي يصل إلى طخارستان ، علم أنه لا طاقة له بقتيبة ، فهرب ، وسار قتيبة إلى الطالقان ، فأوقع بأهلها ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة ، وصلَب منهم على امتدادِ أربعة فراسخ - اثني عشر ميلًا - في نظامٍ واحدٍ .

مضىٰ فصل الشتاء ، وجاء العام الجديد (٩١ هـ = ٧١٠ م) ، وقدِم أهل « أبرشهر » ، و « بيورد » ، و« سرخس » ، و« هراة » ، بجيوشهم

على قتيبة ، فسار بالناس إلى « مرو الروذ » ، واستخلف على الحرب حمّاد بن مسلم ، وعلى الخَراج عبد الله بن الأهتم ، وبلغ « مرزبان » مرو الروذ إقبالُه إلى بلاده ، فهرب إلى بلاد الفرس ، وقدِمَ قتيبة مرو الروذ ، فأخذ ابنيْن له فقتلهما وصلبهما ، ثم سار إلى الطالقان ، فقام صاحبُها ولم يحاربه ، فكفَّ عنه ، وفيها لصوصٌ ، فقتلهم قتيبة وصلبهم واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم ، ومضى إلى الغارياب ، فخرج إليه ملكها مُذعِنًا مُقرًّا بالطاعة ، فرضي عنه ولم يقتل بها أحدًا ، واستعمل عليها رجلًا من « باهلة » ، وبلغ صاحب « الجوزجان » خبرهم ، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هاربًا ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين ، فقبل منهم ، فلم يقتل فيها أحدًا ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني ، ثم أتى « بلخ » ، فلقيه الأصبهبذ في أهل بلخ ، فدخلها فلم يُقِمْ بها إلَّا يومًا واحدًا ، ثم مضىٰ قتيبة وهو يتبع أخاه عبد الرحمٰن ، حتى أتى شعب خُلم ، وقد مضى نيزك فعسكر ببغلان ، بعد أن ترك مجموعةً من المقاتلين لحماية مضيق الوادي - فم الشِّعب - وللدفاع عن مداخله وحراستها ، كما وضع نيزك حاميةً من المقاتلين في قلعة حصينة من وراء مضيق الوادي ، فأقام قتيبة أيامًا يقاتلهم عند مدخل الوادي ، دون أنْ ينال منهم أو ينتصر عليهم ، ولم تكن المعلومات المتوافرة لقتيبة تشير إلى وجود محاور للاقتراب سوى طريق الوادي ، وسوى مفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاختراقها ، فوقف في موقعه ، محاولًا إيجاد مخرج من هذا المأزق ، وفي تلك الفترة ، قدم عليه ملك « الروب » و« سمنجان » ، فاستأمنه على أن يدلَّه على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب ، فآمنه - أعطاه الأمان - وبعث معه رجالًا في الليل ، فانتهى بهم إلى القلعة التي مِن وراء مدخل الوادي ، فباغتوهم بالهجوم وأبادوا حامية القلعة ، وهربَ مَن بقي منهم ، ومن كان في الشِّعب -

مدخل الوادي - فدخل قتيبة والناس الوادي ، وأتى القلعة ، ثم مضى إلى سمنجان ، و« نيزك » ببغلان ، عند نَبْعٍ يُعرف باسم : « فنج جاه » ، ولم تكن المفازة بين سمنجان وقرية بَغلان شديدة الوعورة أو صعبة المسالك .

أقام قتيبةُ بسمنجان أيّامًا ، ثم سار إلى نيزك ، وقدَّم أخاه عبد الرحمـٰن ، وبلغ نيزك ذلك ، فارتحل مِن منزله حتى قطع وادي « فرغانه » ، ووجّه ثِقَلَه وأمواله إلى ملك كابول ، ومضى حتى نزل الكرز ، وعبد الرحمـٰن ابن مسلم يتبعه ، فنزل عبد الرحمـٰن وأخذ بمضائق « الكرز » ونزل قتيبة « أسكيمشست » ، بينه وبين عبد الرحمـٰن فرسخان ، فتحصّن نيزك في الكرز ، وليس إليه مسلك إلا مِن وجهٍ واحد ، وكان ذلك الوجه صعبًا لا يمكن للفرسان الوصول إليه ، فحاصره قتيبة مدة شهرين كاملين ، حتى نفد التموين عند نيزك ، وأصاب جندَه الجدري ، وخاف قتيبة الشتاء ، فدعا « سُليمًا الناصح » ، وقال له : « انطلق إلى نيزك ، واحْتَلْ لأن تأتيني به بغير أمان ، فإنْ أعياك وأبىٰ فآمنْهُ ، واعلم أنّي إنْ عاينتُك وليس هو معك صلبتُك ، فاعملْ لنفسك » . فقال سُليم الناصح : « فاكتب لي إلى عبد الرحمـٰن ، لا يخالفني » . قال قتيبة : « نعم » . وكتب إلى عبد الرحمـٰن بذلك ، وعندما وصـل سُليم إلى عبد الرحمـٰن ، طلب إليه إرسـال مجموعة من الفرسان للتمرْكُز عند مدخل الوادي ، وقال له : « إنّ على هؤلاء الفرسان إعاقَتَنا عن الوصول إلى مدخل الوادي ، إذا ما خرجنا أنا ونيزك » . وبعث عبد الرحمـٰن قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سُليم ، ومضى سُليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفي أيّامًا ، حتى أتى نيزكًا ، ونصحه بتسليم نفسه إلى قتيبة ومحاولة إزالة غضبه ، وأنّ قتيبة لن يبرح موضعه ، وقد صمّم على قضاء الشتاء في موقعه ، هلَك أو سلِم . وبعد مناقشة طويلة ، استطاع سُليم إقناع نيزك بالتسليم ، لا سيما بعد أن برهن له عن مدى حاجة جنده

للطعام ، عندما عرض ما يحمله عليهم ، وقبل نيزك في النهاية مرافقة سُليم . وتدخّلت قوة الفرسان ، فحالوا بين الأتراك والخروج ، ورافقوا نيزكًا ، حتى قدِموا به إلى عبد الرحمن بن مسلم ، فأرسل رسولًا إلى قتيبة يُعْلِمه ، فأرسل قتيبة بطلبهم ، فقدِم بهم عبد الرحمن عليه ، فحَبَس أصحاب نيزك ، ودفع نيزكًا إلى ابن بسّام الليثي ، وكتب إلى الحَجّاج يستأذنه في قتل نيزك ، وفي انتظار ذلك جعل ابنُ بسّام نيزكًا في قبّتِهِ - خيمته - وحفَر حول القبة خندقًا ، ووضع عليه حراسة قوية ، وجاء كتاب الحجَّاج بعد أربعين يومًا ، يأمر بقتل نيزك . عندما جاء أمر الحجاج ، استدعى قتيبة نيزكًا للمثول بين يديه ، وقال له : « هل لك عندي عقْد أو عند عبد الرحمن أو عند سليم ؟ » . قال : « لي عند سليم » . قال : « كذبت » . وقام ، وردّ نيزكًا إلى حبْسه ، ومكث قتيبة ثلاثة أيام لا يظهر للناس ، وقام المهلّب ابن إياس العدوي ، وتكلّم في أمر نيزك ، فقال بعضهم : « ما يحلّ له أنْ يقتله » . وقال بعضهم : « ما يحلُّ له تركه » . وخرج قتيبة في اليوم الرابع ، فجلس وأذن للناس ، فقال : « ما ترون في قتْل نيزك ؟ » . فاختلفوا ، فقال قائل : « اقتلْه » . وقال قائل : « أعطيتَه عهدًا فلا تقتلْه » . وقال قائل : « ما نأمنهُ على المسلمين » . ودخل ضرار بن حصين الضّبّي ، فقال : « ما تقول يا ضرار ؟ » . قال : « إني سمعتُك تقول : أعطيتَ الله عهدًا إنْ أمكنَكَ منه أن تقتله ، فإنْ لم تفعل ، لا ينصرنّك اللهُ عليه أبدًا » . فأطرق قتيبة طويلًا ، ثم قال : « والله لو لم يبقَ من أجَلي إلا ثلاث كلمات ، لقلتُ : اقتلوه ، اقتلوه ، اقتلوه » . وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وقتل أصحابه ، فقال المغيرة بن حبناء كلمة طويلة في مديح عمل قتيبة ، مطلعها :

لَعَمْري لَنِعْمَتْ غَزْوةُ الجندِ غزوةً ... قَضَتْ نَحْبها مِن نيزكٍ وتعلّتِ

عمل قتيبة بعد ذلك على إعادة تنظيم الإدارة في تخارستان ، وأطلق

سراح ملكها جغبويه ، وأرسله إلى الوليد ، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد ، ورجع قتيبة إلى مرو ، واستعمل أخاه عبد الرحمٰن على بلخ ، وأرسل إلى الحجاج بالخراج وبأخبار الفتح ، فكان ما يردّده الحجاج دائمًا : « بعثتُ قتيبةَ فتًى غِرًّا ، فما زدته ذِراعًا إلا زادني باعًا » .

ما إن استقرّ قتيبة في مرو ، حتى وصله طلب أمان من ملك الجوزجان ، وكان قد هرب عن بلاده تأييدًا لنيزك ، ثم تراجع عن موقفه عندما عَلِمَ بمصرعه ، فآمنه قتيبة على أن يأتيه فيصالحه ، فطلب رهنًا يكونون في يديه ويعطي رهائنَ مقابل ذلك ، فأعطى قتيبةُ حبيبَ بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلي ، وأعطى ملكُ الجوزجان رهائن من أهل بيته ، فخلَّف ملك الجوزجان حبيبًا بالجوزجان في بعض حصونه ، وقدم على قتيبة فصالحه ، ثم رجع فمات بالطالقان مسمومًا ، وقتل أهل الطالقان حبيبًا ، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرُّهُن الذين كانوا عنده ، وفي ذلك قال نهار بن توسعة :

أراكَ اللهُ في الأتـراكِ حكمًا ... كحُكْمٍ في قُرَيْظـةَ والنّضيرِ
قضـاءً مـن قتيبـةَ غَـيْرُ جـوْرٍ ... بهِ يُشْفَى الغليلُ مِـنَ الصـدورِ
فـإنْ يَـرَ نـيزكٌ خِـزْيًا وَذُلًّا ... فكمْ في الحربِ حُمقٌ مِنْ أميرِ

غزْو شُومان و « كَسّ » و « نَسَف » سنة إحدىٰ وتسعين هجرية :

أفاد ملك شومان « قيسلشتان » مِنَ الاضطراب الذي أثاره غدْرُ نيزك ، فطرد عامل قتيبة ، ومنع الفدية التي كان قد صالح عليها قتيبة ، فبعث إليه قتيبة رسولًا - وهو : « عيّاش الغَنَوي » - ومعه رجلٌ من نُسّاك أهل خُراسان ، يدعوانِ ملك شومان إلى أنْ يؤدِّي الفِدية على ما صالح عليه قتيبة ، فقدِما البلد ، فخرجوا إليهما فرمَوْهما ، فانصرف الرجل ، وأقام عيّاش الغَنَوي . فقال : « أمَا هاهنا مسلمٌ ؟! » . فخرج إليه رجلٌ من المدينة فقال : « أنا

مسلم ، فما تريد ؟ » . قال : « تعينني على جهادهم » . قال : « نعم » . فقال له عيّاش : « كن خَلْفي لتمنعَ لي ظهري » . فقام خلفه ، وكان اسم الرجل : المهلّب ، فقاتلهم عيّاش ، فحمل عليهم ، فتفرّقوا عنه ، وحمل المهلبُ على عياش من خلفه فقتله ، فوجدوا به ستين جراحة ، فغمّهم قتلُه ، وقالوا : « قتلنا رجلًا شجاعًا » . بلغ قتيبةَ ما فعله أهل شومان بسفيرَيْه ، فسار إليهم بنفسه ، ولمّا تكدْ قواته تأخذ قِسْطها من الراحة بعد قتال نيزك ، وأخذ طريقَ بلخ ، بعد أن دفع أخاه عبد الرحمٰن لقيادة مقدمته ، وكان ملك شومان صديقًا لصالح - أخو قتيبة - فأرسل إليه صالح رجلًا يأمره بالطاعة ، ويضمن له رضا قتيبة إنْ رجع إلى الصلح ، فأبى وقال : « ما تُخوّفني به من قتيبة ، وأنا أمنع الملوك حصنًا ؟! أرْمي أعلاه ، وأنا أشدُّ الناس قوْسًا ، وأشدُّ الناس رميًا ، فلا تبلغ نُشّابتُه نصفَ حصني ، فما أخاف من قتيبة » . فمضى قتيبة من بلخ ، فعبر النهر ، ثم أتى شومان وقد تحصّن ملكها ، فوضع عليه المجانيق ، ووضع منجنيقًا كان يسمّيها « الفحجاء » ، فرمى بأول حجر ، فأصاب الحائط ، ورمى بآخر فوقع في المدينة ، ثم تتابعتِ الحجارة ، حتى دمّر الحصن ، وخاف ملك شومان من الوقوع في قبضة قتيبة ، ورأى ما نزل به ، فجمع ما كان عنده من مال وجوهر ، فرمىٰ به في عيْنٍ في وسط القلعة لا يُدرَك قَعْرها ، ثم جمع قواته ، وفتح أبواب القلعة ، وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قتل ، ودخل قتيبة القلعة بعد أن فتحها عَنوة ، فقتَل المقاتِلة ، وسَبىٰ الذرية ، ثم رجع إلى « كِس » و« نسف » ، ثم مضى إلى بُخارىٰ ، ثم سار إلى طرخون بالصغد ، ليقبض منه ما كان صالَحه عليه ، فلما أشرف على وادي الصغد ، توقّف هناك ، وقبض من طرخون صلْحه ، وعاد مُتَّبِعًا محور : بُخارىٰ ، آمل ، مرو .

كانت عمليات السنة التالية سهلة هيّنة ؛ فقد غزا قتيبة سجستان ، يريد « رُبتيل الأعظم والزابل » ، فلما نزل سجستان ، استقبلتْهُ رُسل رُبتيل بالصلح ، فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم ربّة بن عبد الله بن عمير الليثي ، وعاد إلى مرو .

صلح قتيبة مع ملك خُوارزم شاه ، وفتْح « خام جرد » سنة ثلاث وتسعين هجرية :

كان ملك خوارزم – الآرال حاليًّا – ضعيفًا ، فغلبه أخوه « خرذاذ » على أمره – وخرذاذ أصغر منه – فكان إذا بلغه أنّ عند أحد مِن مواطني مملكته جاريةً أو دابةً أو متاعًا فاخرًا ، أرسل فأَخَذَه ، أو بلغَه أنّ لأحدهم منهم بنتًا أو أختًا أو امرأة جميلةً ، أرسل إليه فغصبَه ، وأخذ ما شاء ، وحبس ما شاء ، لا يمتنع عليه أحد ، ولا يستطيع الملكُ منعَه أو تأديبه ، وكثيرًا ما رفع الناس ظلاماتهم للملك ، فكان يقول : « لا أقوى عليه » . وزاد الأمر على الملك حتى ملأه غيظًا ، فلما طال الأمر عليه ، كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه حتى يسلّمها له ، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خُوارزم ، وهي ثلاثة مفاتيح من ذهب ، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه ، وكلَّ مَن يضادُّه أو يقاومه ، ليحكم فيه بما يرى ، وبعث في ذلك رُسلًا ، ولم يُطلع أحدًا من معاونيه ومستشاريه – مرازبته ودهاقينه – على ما كتب به إلى قتيبة ، فقدمتْ رسله على قتيبة في آخر الشتاء ووقْت الغزو ، وقد تهيّأ للحرب واستعدّ لها ، فأظهر قتيبة أنه يريد التوجُّه إلى الصغد ، ورجع سفراءُ خوارزم شاه إليه بما يحبُّ مِن قِبَل قتيبة ، وسار بعد أن استخلف على مرو ثابتًا الأعور مولى مسلم ، وجمع ملك خوارزم ملوكَه ، وأحْباره – كهنته – ومستشاريه ، وخدعهم بقوله « أن المعلومات المتوافرة له تؤكّد أنّ قتيبة يريد الصغد ، ولا يريد الهجوم على خوارزم شاه » ، فانصرف أهل خوارزم عن الاستعداد

للحرب ، ولم يشعروا باقتراب الخطر منهم ، إلَّا عندما نزلتْ قوات المسلمين في « هزارسب » ، دون النهر ، واجتمع أصحابُ الملك لمناقشة الموقف ، وطالبوا بالتعرُّض لقتال قتيبة ، ولكنّ الملك قاوم هذا الاتجاه ، عندما قال لهم : « إني لا أرى ذلك ؛ فقد عجز عنه مَن هو أقوىٰ منّا ، وأشد شوكة ، ولكنني أرى أنْ نَصرفه بشيءٍ نؤدّيه إليه ، فنصرفه عامنَا هذا ، ونرى رأينا » . فوافقوه على رأيه ، فأقبل خُوارزم شاه ، فنزل في مدينة الفيل ، من وراء النهر ، « وكانت مدائن خوارزم الرئيسية ثلاثة ، لكنّ « فيل » كانت أكثرَهن منعة وقوةً وتحصينًا » وبقي نهرُ بلخ هو الفاصل بين مواقع قوات قتيبة في هزارسب ، ومكان نزول ملك خوارزم في « فيل » ، وتمّ الصلح على عشرة آلافِ رأسٍ وعيْن ومتاع ، بشرط أن يساعده على مَلِك خام جرد ، وأن يفي له بما كتب إليه ، فقبل ذلك منه قتيبة ، ووفّى له ، إذْ بعث قتيبةُ أخاه إلى ملك خام جرد - الذي كان يُناصب خوارزم شاه العداء - فقاتله ، فقتله عبد الرحمٰن ، واجتاح حدود بلاده ، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير ، فقتلهم . ودفع قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومَن كان يخالفه ، فقتلهم وصادرَ أموالهم ، وبعث بها إلى قتيبة . ودخل قتيبة مدينة « فيل » ، فقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ، ثم رجع إلى هزارسب .

يومُ سمرقند سنة ثلاث وتسعين هجرية :

ما إنْ أمضى قتيبة الصلح مع حاكم خوارزم - ملكها - حتى تقدّم إليه المجشر بن مزاحم السُّلمي ، وطلب التحدُّث إليه على انفراد ، وعندما تمّ له ذلك ، قال المجشر لقتيبة : « إن أردت السغد يومًا من الدهر ، فالآن ؛ فإنهم آمنون مِن أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام » . وسأله قتيبة : « هل أشار بهذا عليك أحد ؟ » . وأجابه المجشر بالنفي ، وعاد يسأله : « وهل أعلمتَه أحدًا ؟ » . فأجاب المجشرُ بالنفي أيضًا ، وعندها قال

له قتيبة : « والله لئن تكلّم به أحد لأضربنّ عنقك » . ثم إنّ قتيبة أقام يومه ، فلمّا أصبح من الغدِ ، دعا عبد الرحمٰن فقال : « سِرْ في الفرسان والمُرامية ، وقَدِّمِ الأثقال إلى مَرْو » . ومضى عبدُ الرحمٰن يَتْبعُ الأثقال ، يريد مَرْو يومَه كله ، فلمّا أمسى كتب إليه : « إذا أصبحتَ فوجِّهِ الأثقال إلى مَرْو ، وَسِرْ في الفُرسان والمُرامية نحو السغد ، واكتم الأخبار ، فإني بالأثر أتْبعك » . ولمّا وصلتِ الرسالة ، أمر عبد الرحمٰن أصحاب الأثقال أنْ يمضُوا إلى مَرْوَ ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : « إن الله قد فَتَحَ لكم هذه البلدة في وقتٍ الغَزْوُ فيه ممكن ، وهذه السغدُ شاغرةٌ برجلها – رجالها – قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنّا صالَحْنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله : ﴿ **فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ** ﴾ [الفتح : ١٠] ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة . وقال الله : ﴿ **وأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِروا عَلَيهَا قد أحَاطَ اللهُ بِهَا** ﴾ [الفتح : ٢١] . ووصل قتيبة إلى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمٰن بن مسلم في عشرين ألفًا ، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبُخارىٰ ، بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمٰن بهم ، فقال : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ **فَسَاءَ صَبَاحُ المُنـذَرينَ** ﴾ » . [الصافات : ١٧٧] . وبدأت مرحلة حصار السغد التي استمرّت شهرًا ، حدثت خلاله مجموعةٌ من المعارك والاشتباكات في قطاع واحد .

اشتدّ الحصار على أهل السغد ، وخافوا طول الحصار ، فكتب « غَوْزَك » ملك السغد رسائل إلى ملك الشاش ، وإخشاذ فرغانه وخاقان الترك ، جاء فيها : « إنا نحن دونكم ، فيما بينكم وبين العرب ، إنْ ظفروا بنا عادوا ، فأغاروا عليكم بمثل ما أتونا به ، وأصبحتم أضعف وأذل ؛ فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها » . واستجاب الملوك لدعوة « غوزك »

ملك السغد ، وطلبوا إليه مقاومة العرب وخِداعهم ، حتى يباغتوا العرب ، واجتمع هؤلاء الملوك ، فقالوا : « إنما نُؤتَى من سفَلتِنا ، وإنهم لا يجدون لِوَجْدنا ، ونحن معشر الملوك المعنيُّون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة مِن فتيان مُلوكِكم ، فلْيخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة مُباغتةً ؛ فإنه مشغول بحصار السغد » . وانتخبوا فرسانًا من أبناء المرازبة ، والأساورة الأشداء الأبطال ، وولَّوْا عليهم ابنًا لخاقان ملك الترك ، وأمروهم أن يباغتوا قتيبة بهجومٍ ليليٍّ . وبلغ قتيبة ذلك ، فانتخب أهل النجدة والبأس ، حتى بلغ عددهم أربعمائة ، ثم جمعهم وقال لهم : « إن عدوَّكم قد رأوا بلاء الله عندكم ، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومُكاثرتكم ، كلُّ ذلك يَفلُجكم لِينصركم الله عليهم . فأجمَعُوا على أن يحتالوا عزّتكم وبَياتكم ، ليباغتوكم بهجوم ليلي ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد فضّلكم الله بدينه ، فأبلُوا اللهَ بلاءً حسنًا تستوجبون به الثواب ، مع الذَّبِّ عن أحسابكم » . ووضع قتيبة عيونًا – جواسيس – على العدو ، حتى إذا قربوا منه قدْر ما يصلون إلى عسكره من الليل ، دفع الذين انتخبهم ، بعد أن حضّهم على القتال ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من المعسكر عند المغرب ، فساروا ونزلوا على فرسخيْن من العسكر ، عن طريق القوم الذين وصفوا لهم ، ففرّق صالِح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه ، وكمينًا عن يساره ، وأقام مع مجموعة من الفرسان على قارعة الطريق ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه ، جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وهم آمِنون في أنفسهم من أنْ يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة ، ولم يعلموا بمكان صالح حتى اصطدموا به ، حتى إذا اختلفت الرماح ، واشتدّتِ المعركة ، خرج الكمينان عن يمينٍ وشمالٍ ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، حتى قال أحد الذين اشتركوا في قوة الكمين : « حصرناهم ، فما رأيتُ

قَطُّ قومًا كانوا أشدّ قتالًا مِن أبناء أولئك الملوك ، ولا أصبر ، فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا نفرٌ يسير ، وحَوَينا سلاحهم ، واحتززنا رءوسهم ، وأسَرْنا منهم أسرى ، فسألناهم عمَّن قتلنا ، فقالوا : ما قتلتم إلا ابن مَلِك ، أو عظيمًا من العظماء ، أو بطلًا من الأبطال ، ولقد قتلتم رجالًا إنْ كان الرجل لَيعدِل بمائة رجل » . وقال مقاتِلٌ آخر : « إنّا لَنختلفُ عليهم بالطعن والضرب ، إذْ تبيّنت تحت الليل قتيبةَ ، وقد ضربتُ ضربة أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة ، فقلت : كيف ترى ، بأبي أنت وأمي ؟! قال : اسكت ، دقَّ اللهُ فاك . قال : فقتلناهم ، وأقمنا نحوي - نجمع - الأسلابَ ، ونحتزّ الرءوسَ حتى أصبحنا . ثم أقبلنا على المعسكر ، فلم أرَ جماعة قَطّ جاءوا بمثل ما جئْنا به ، ما منا رجل إلا معلّقٌ رأسًا معروفًا باسمه ، وأسير في وثاقه ، مع ما سلبْنا من جيّد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودوابَّ فُرَّهَةٍ ، فنفلَنَا قتيبة ذلك كله . وقال : جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرًا . وأكرمني قتيبةُ ، من غير أن يكون باحَ لي بشيء ، وقَرن بي - في الصلة والإكرام - حيانَ العدوي وحُليًا الشيباني ، فظننتُ أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهلَ السغد ، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم طَرْخون ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

استمرت الحرب ، وأخلص أهل بخارىٰ وأهل خوارزم القتالَ إلى جانب قتيبة ، فأرسل « غوزك » ملك السغد إلى قتيبة ، يقول له : « إنما تقاتلني بإخوتي ، وأهل بيتي من العَجَم ، فأخْرِجْ إليَّ العرب » . فغضب قتيبة ودعا الجدلي ، فقال : « اعرض الناس ومَيِّز أهل البأس » . فجمعهم ، ثم جلس قتيبة يعرضهم بنفسه ، ودعا العُرفاءَ ، فجعل يدعو برجلٍ رجلٍ ، فيقول : « ما عندك ؟ » . فيقول : « العريف شجاع » . ويقول : « ما

هذا ؟ » . فيقول : « مختصر » . ويقول : « ما هذا ؟ » فيقول : « جبان » . فسمّى قتيبة الجبناء : الأنتان ، وترك لهم رثّ السلاح ، ثم زحف بهم فقاتلهم بهم فرسانًا ورجالًا ، واستمرّ الصراع بين الفرسان ، في حين برز قتيبة بسريره ، وقعد عليه ليتابع المعركة ، وحمل السغد على المسلمين حملة حطّموهم حتى جازوا عسكرهم ، وقتيبة محتبٍ بسيفه ما حَلَّ حَبْوته ، وانطوت مُجنِّبتا المسلمين على الذين هزَموا القلب ، فهزموهم حتى ردُّوهم إلى عسكرهم ، وقُتل من المشركين عددٌ كبير ، ودخلوا مدينة سمرقند وتحصَّنوا بها ، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق ، فثَلَم ثلْمةً ، فسدّوها بغرائز الدَّخن ، وأطال قتيبة المقام ، واستمرّ في رمْي سمرقند بالمنجنيق ، فثلم فيها ثلمة . وقال قتيبة : « أَلِحُّوا عليها حتى تعبُروا الثلمة » . فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة ، ورماهم السغدُ بالنشاب ، فوضعوا تُرسَهم ، فكان الرجل يضع ترْسَه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : « انصرفْ عنا اليوم حتى نصالحك غدًا » . وأجاب قتيبة : « لا نصالحهم إلا ورجالُنا على الثلمة ، ومجانيقنا تخطر على رءوسهم ومدينتهم » . وفشل اقتحام الثغرة (الثلمة) ووقف عليها رجل وهو يشتم قتيبة بالعربية الفصحى ، وأسرع المسلمون نحو الرجل وهو مُلِحٌّ بالشتم ، في حين كان قتيبة مُحتبيًا بشملة ، وهو يردّد - كالمناجي لنفسه -: « حتى متى يا سمرقند يُعشش فيك الشيطان ؟! أمَا واللهِ لئنْ أصبحتُ لأحاولنَّ من أهلك أقصى غاية » . وسمعه أحد القادة ، فانصرف عن قتيبة ، وانضمّ إلى أصحابه ليقول لهم : « كم مِن نفس أبيّة ستموت غدًا منا ومنهم ! » . ثم إنَّ قتيبة الْتفتَ إلى مَن حوله وقال لهم : « اختاروا منكم رجلَيْن » . فاختاروا ، فقال : « أَيُّكما يَرمي هذا الرجل ، فإنْ أصابه فله عشرة آلاف ، وإنْ أخطأه قطعت يده ؟ » . فتلكّأ أحدهما ، وتقدم الآخر ،

فرماه ، فلم يخطئْ عينَه ، وقال هذا الرامي - وهو خالد بن باب مَوْلَى مُسلم بن عمرو - : « كنت في رُماة قتيبة ، فلمّا افتتحنا المدينة صَعِدتُ السُّور ، فأتيت مُقام ذلك الرجل الذي كان فيه ، فوجدتُه ميّتًا على الحائط ، ما أخطأتِ النُّشابة عينَه حتى خرجتْ من قفاه » . ثم أصبح المسلمون مِن غدٍ فرموا المدينة ، فثَلَموا فيها . وقال قتيبة : « ألحوا عليها حتى تعبروا الثلْمَة (الثغرة) » .

وحمل المسلمون بقوة ، فدخلوا مدينة سمرقند ، فصالحهم أهلها ، واشترط قتيبة أنْ يسلّمه أهلُ سمرقند ثلاثين ألفًا ، كرهينةٍ في قبضته ، ليس فيهم صبيٌّ ولا شيخ ولا عيب ، كما اشترط إخلاء المدينة مِن كلّ مقاتِل ، وأنّ يُبنَى له فيها مسجدٌ ، فيدخل ويصلي ، ويُوضع له فيها منبرٌ فيخطب ، ويتغدى ويخرج ، ونفَّذ أهل سمرقند شروط قتيبة ، فقال : « الآن ذلُّوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم » . ودخل قتيبة سمرقند ، فصلّى وخطب ثم تغدَّى ، وأرسل إلى أهل السغد : « مَن أراد منكم أنْ يأخذ متاعَه فلْيأخذه ، فإني لست خارجًا منها ، وإنما صنعتُ هذا لكم ، ولستُ آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، غير أنّ الجندَ يُقيمون فيها » . وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحِليةَ الأصنام ، فكانت كالقصر العظيم حين جُمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالتِ الأعاجم : « إنّ فيها أصنامًا مَن حَرَقَهَا هلك » ، فقال قتيبة : « أنا أحرقها بيدي » . ودعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعْلةً بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناسُ ، فاضطرمتْ ، فوجدوا مِن بقايا ما كان فيها - مِنْ مسامير الذهب والفِضَّة - خمسين ألفِ مثقال ، وتلا قتيبة ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾ [النجم : ٥٠ - ٥١] .

ارتحل قتيبةُ راجعًا إلى مرو ، واستخلف على سمرقند عبدَ الله بنَ مسلم ، وخلّف عنده جندًا كثيفًا ، وآلةً من آلات الحرب كثيرة ، وقال : « لا تَدَعنَّ مشركًا يدخل بابًا من أبواب سمرقند إلا مختومَ اليدِ ، وإنْ جَفَّتِ الطينةُ قبل أن يخرج فاقتلْه . وإنْ وجدتَ معه حديدةً أو سكّينًا - فما سواه - فاقتلْه . وإنْ أغلقتَ البابَ ليلًا ، فوجدتَ فيها أحدًا منهم فاقتلْه » .

لله دَرُّكَ يا قتيبة !

ولمّا فتح قتيبة سمرقند ، وقفَ على جبلها ، فنظر إلى الناس متفرّقين في مروج السغد ، فتمثّل قول طَرفة بن العبد :

وَأَرْتَعَ أقــوام ولولا مَحَلُّنَـــا بمخشيةٍ رَدُّوا الجِمَال فَقَوَّضُوا

ودعا قتيبة « نهارَ بن توسعة » حين صالح أهلَ السغد ، فقال : « يا نهار ، أين قولك :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقرِّبُ للغِنَى وماتَ النَّدى وَالجودُ بعد المهلّبِ
أقامَا بِمَرو الرُّوذِ رهنَ ضريحِهِ وقدْ غُيِّبَا عَنْ كلّ شرقٍ ومَغربِ

أفغزوٌ هذا يا نهار ؟ » . قال : « لا ، هذا أحسن ؛ إنّ الذي أنت فيه ليس بالغزو ولكنه الحرب ، وأنا الذي أقول :

وَمَا كَانَ مُذْ كُنَّا وَلَا كَانَ قَبْلَنَا ولا هُوَ فِيمَا بعدَنَا كابنِ مُسلمِ
أَعَمَّ لأهلِ التركِ قَتْلًا بسيفِهِ وَأَكْثَرَ فينا مَقْسِمًا بعدَ مَقْسِمِ »

وقال الشاعر :

كلَّ يومٍ يَحــوي قتيبــةُ نَهْبًا ويزيدُ الأمــوال مــالًا جديدَا
باهِـلِيٌّ قَــدْ أُلْبِسَ التــاجَ حَتَّى شــابَ منهُ مَفــارقٌ كُنّ سُودَا
دَوّخ الصَّغْــدَ بالكتــائبِ حَتَّى تركَ الصغــدَ بالعــراءِ قُعــودَا
فَــوليدٌ يبكــي لِفَقْــدِ أبــيه وأبٌ مُــوجَعٌ يُبَكّــي الــوليدَا

كُلّمَا حَلّ بلدةً أوْ أتاهَا ... تركتْ خيلُهُ بِهَا أُخْدودَا[1]

غَزْو الشَّاش وفرغانة سنتَي أربعٍ وتسعين وخمسٍ وتسعين هجرية[2] :

انطلق قتيبة لمتابعة فتوحاته في بداية فصل الربيع - كعادته - عامَ أربعٍ وتسعين هجرية ، ولمّا أنْ عبر نهر سمرقند ، فرض على أهل بخارىٰ و« كس » و« نسف » وخوارزم ، تقديمَ عشرين ألفِ مقاتلٍ ، ثم سار بهم إلى السغد ودفعهم إلى الشاش ، في حين تابع تقدُّمه بقواته إلى فرغانة ، وعندما وصل « خجندة » ، اصطدم بمقاومةٍ قويةٍ نظّمها أهل « خجندة » ؛ ودارت معارك مستمرة ، كانت قوات المسلمين تخرج كلَّ يومٍ منها بانتصاراتٍ جزئية ، دون الوصول إلى نصر حاسم ، وفرغ الناس من قتالهم ذات يوم ، فركبوا خيولهم وانتشروا في كلّ مكان ، فوصل منهم رجل إلى موقعٍ مرتفع يُشْرف على السهل ، ونظر فيما حوله ، فقال لصاحب له : « تاللهِ ما رأيتُ كاليوم غرّة ، لو كان هيجٌ - قتال - اليوم ونحن على ما أرى مِن الانتشار لكانت الفضيحة » . فقال له صاحبه : « كلا ، نحن كما قال عوفُ بن الجزع :

نَـؤُمُّ البـلادَ لِحُـبِّ اللّقَـا ... وَلَا نَتّقي طائرًا حيثُ طَارا
سَنيحًا ولا جـاريًا بَـارِحًا ... علىٰ كلِّ حالٍ نلاقي النّسارا »

ثم أتى قتيبةُ « كاشان » - مدينة تابعة لفرغانة - وأتاه الجنود الذين وجّههم إلى الشاش ، وقد فتحوها وحرّقوا أكثرها ، وانصرف قتيبة إلى مرو .

كان والي العراق ، الحَجّاج بن يوسف الثقفي يتابع عمليات قادته في أقصىٰ الشرق ، حيث كان محمد بن القاسم الثقفي قد فتح السند -

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٩١ .

(٢) إقليم الشاش : هو الإقليم الذي يقع شمال نهر سيحون ، وأمّا فرغانة : فهو الإقليم الذي يمتدُّ فيما وراء نهر سيحون ، ويُتاخم التركستان .

باكستان - وأخذ في فتح الهند ، وقد عرف الحجّاح أنّ قتيبة في حاجة لمزيد من الدعم ، حتى يستطيع متابعة فتوحاته ، فأرسل الحجاج إلى محمد بن القاسم أمْرًا ، جاء فيه : « وَجِّهْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أهل العراق إلى قتيبة ، ووجّهْ عليهم جَهْم بن زَحْر بن قيس ؛ فإنه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام » . ومضى جهم بن زَحْر إلى قتيبة ، وأصبحت فتوح قتيبة مِن نصيب أهل العراق ، فيما بقيتْ فتوح السند والهند من نصيب أهل الشام .

وصل جيش العراق بقيادة زَحْر إلى مرو في عام خمسٍ وتسعين هجرية ، وقتيبة يستعدّ لهجومه السنويّ ، وانطلق قتيبة حتى وصل الشاش - أو بكشُمَاهن - وهناك بلَغه موتُ الحجاج ، فَغَمَّهُ ذلك وَقَفَلَ راجعًا ، ووزّع قواتِهِ ، فترك قوةً في بخارىٰ ، ووجَّه قوةً أُخرىٰ إلى كس ونسف ، ثم أتى مرو فأقام بها ، ومكث ينتظر تعليماتِ أمير المؤمنين ، ولم تمضِ سوىٰ فترة قصيرة ، حتى جاءه كتاب الوليد بن عبد الملك ، يحضُّه على متابعة الجهاد ، وفيه : « قد عرَف أميرُ المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعُك وصانعٌ بك كالذي يجب لك ، فالْمُمْ مغازيَك ، وانتظرْ ثواب ربّك ، ولا تُغيِّبْ عن أمير المؤمنين كتُبك ، حتى كأني أنظر إلى بلادِك والثغرِ الذي أنت فيه » .

وهكذا أقرّ الوليدُ العمالَ الذين كان الحجاج قد عينهم ، وكان ذلك حافِزًا لقتيبة حتى يتابع فتوحَه .

نهايةُ فُتوحِ قُتيبةَ : فتح « كاشغر » ، وغزوُ الصِّين ، سنة ستٍّ وتسعين هجرية :

غادر قُتيبة بجيشه قاعدةَ عمليّاته في مرو ، وعندما وصل إلى فرغانة ، بلغه مـوت أمير المـؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وانتقال الإمـارة إلى أخيه

سليمان ، فتوجَّس قتيبة شرًّا لوجود بغضاء بينهما ، وقرّر اتخاذ ما هو ضروريّ من تَدَابير لتأمين عائلته ، خوفًا من البطش بهم ، فنقلهم إلى سمرقند ، ووضع على نهر جيحون رجلًا من مواليه ، يقال له : الخوارزمي ، وكلّفه بإقامة مركز مراقبةٍ عند مقطع النهر ، ومنع المرور إلّا لمن يحمل إذنًا بالعبور مِن قِبل قُتيبة ، ثم إنّه أرسل قوة استطلاع ، لارتياد شِعب عصام ، وتمهيد الطريق للتقدُّم نحو كاشغر ، وهي أدنى مدائن الصين ، ومضى قتيبة بعد ذلك فأوغل في تقدُّمه حتى قرب من الصين . فكتب إليه ملك الصين : « أنِ ابعث إلينا رجلًا من أشراف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ، ونُسائله عن دينكم » . فانتخب قتيبةُ من عسكره اثني عشر رجلًا من أبناء القبائل ، لهم جمالٌ وأجسام وألْسُن وشعور وبأس ، بعد ما سأل عنهم ، فوجدهم من أفضل الرجال الذين يمكن اعتمادهم ، وتحدّث إليهم ، فتأكّد مِن صحة انتقائهم ، رجولةً ورجاحةَ عقلٍ ، فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح ، والمتاع الجيّد ، من الخزّ والوَشْي ، واللّين من البياض والرقيق ، والنعال والعطر ، وحمَلهم على خيول مُطَهّمةٍ تُقاد معهم ، ودوابَّ يركبونها ، وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مُفَوّهًا ، زَلِق اللسان ، فقال : « يا هبيرة ، كيف أنت صانع ؟ » . قال : « أصلح اللهُ الأمير ! قد كُفيتَ الأدبَ ، وقلْ ما شئتَ أقلْه ، وآخُذ به » . قال : « سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائمَ عنكم حتى تقْدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه ، فأعلموه أني قد حلفتُ ألا أنصرِف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكَهم ، وأجبي خراجَهم » .

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة بن المشمرج ، فلمّا قدِموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمَّام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضاء تحتها الغلائل ، وتطيّبوا بالبخور والعطور وَلَبِسوا النعال الرقيقة . وارتدَوْا الأرْدِيَة ،

ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم يكلّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا ، فقال الملك لمن حضر المجلس : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » . قالوا : « رأينا قومًا ما هم إلا نِسَاء » . فلما كان الغد أرسَلَ إليهم فَلَبِسوا الوَشْي وعمائم الخز والمطارف ، وغَدَوْا عليه ، فلما دخلوا عليه ، قيل لهم : « ارجعوا » ، فقال لأصحابه : « كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ » . قالوا : « هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال مِن تلك الأولى . وهم أولئك » . فلمّا كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدّوا عليهم سلاحهم ، ولَبسوا البيض والمغافِرَ ، وتقلّدوا السيوف ، وأخذوا الرماح وتنكّبوا القِسِيّ ، وركبوا خيولَهم ، وغَدَوْا ، فنظر إليهم صاحب الصِّين ، فرأى أمثال الجبال ، فلما دَنَوْا ركزوا رماحَهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين وقد أثاروا الفزع ، مما حمَل الصّينييّن على منعهم والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس المَلِك ، فانصرفوا . وركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم ، فقال الملك لأصحابه : « كيف ترونهم ؟ » . قالوا : « ما رأينا مثلَ هؤلاء قطُّ » . فلمّا أمسىٰ ، أرسل إليهم الملك أنِ ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلَكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له - حين دخل عليه - : « قد رأيتم عِظَم مُلكي ، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضة في كفِّي ، وأنا سائلك عن أمرٍ ، فإنْ لم تصدقني قتلتُكم » . قال : « سَلْ » . قال ملك الصين : « لِمَ صنعتم من الزّيّ في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ » . قال هبيرة : « أمّا زِيُّنا الأول ، فلباسنا في أهلنا وريحنا عندهم ، وأمّا يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لِعدوّنا ، فإذا هاجنا هَيْجٌ أو فَزَع ، كنا هكذا ... » . قال الملك : « ما أحسن ما دبّرتم دهركم ! فانصرِفوا إلى صاحبكم ، فقُولوا له ينصرف ؛ فإني عرَفتُ حرْصَه وقلّة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم

مَنْ يُهلِككُم ويُهلكه » . قال له هبيرة : « كيف يكون قليلَ الأصحاب من أوّلُ خيلهِ في بلادك وآخرها في منابت الزَّيتون ؟! وكيف يكون حريصًا مَن خلّف الدنيا قادِرًا عليها وغزاك ؟! وأمّا تخويفُك إيّانا بالقتل ، فإنّ لنا آجالًا إذا حضرتْ فأكرمُها القتل ، فلسنا نكرهُهُ ولا نخافُه » . قال : « فما الذي يُرضي صاحبَك ؟ » . قال : « إنه قد حلف ألا ينصرفَ حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوكَكم ، ويُعطىٰ الجزية » . قال : « فإنا نُخرجه مِن يمينه ، نبعث إليه بترابٍ مِن تُراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها » . ثم دعا ملك الصين بصِحافٍ مِن ذهبٍ فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمانٍ من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسنَ جوائزهم ، فساروا ، فقدِموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختَم الغلمة وردَّهم ، ووطِئَ الترابَ . وأوفد قتيبة هُبيرة للاتصال بأمير المؤمنين في دمشق ، فمات بقريةٍ مِن فارس .

وهل في الهِمَم فوقَ هذا ؟! وهل العزُّ إلّا هذا .. تَعجزُ كلماتُ الدنيا أمام هذا الأرِيجِ الفوّاح الذي لا يُوصَف بلسان .. وفي هذا قال سوادة ابن عبد الله السّلولي :

لا عيبَ في الوفدِ الذين بَعَثْتَهُمْ … للصينِ إنْ سَلَكُوا طريقَ المنهَجِ
كَسَرُوا الجفونَ على القَذَىٰ خوفَ الرَّدَىٰ … حَاشَا الكريمَ هبيرةَ بنَ مُشَمْرَجِ
لمْ يرضَ غَيْرَ الخَتْمِ في أعناقِهِمْ … ورهائِنٍ دُفِعَتْ بِحَملِ سَمْرَجِ
أدَّىٰ رِسالتَكَ التي اسْتَرعيْتَهُ … وأتاكَ من حِنْثِ اليمينِ بمخْرَجِ

لله دَرُّ قتيبةَ ! وأيُّ شأنهِ لم يكنْ عَجَبًا ؟

كان قتيبة إذا رجع من غزاته كلَّ سنة ، اشترى اثني عشر فرسًا من جياد الخيل ، واثني عشر هجينًا ، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى

موعد الحرب ، فإذا تأهب لذلك ، وأقام معسكره ، قُيّدَتِ الخيولُ وأُضْمِرَتْ ، فلا يقطع نهرًا بخيلٍ حتى تَخِفَّ لحومُها ، فيحمل عليها مَن يحمله في الطلائع ، وكان يبعث في الطلائع الفرسانَ من الأشراف ، ويبعث معهم رجالًا من العجم ، ممّن يُستنْصَح على تلك الهُجُن - كأدِلَّاء - وكان إذا أمر بطليعةٍ ، أمر بلَوْحٍ فنُقش ، ثم يَشقُّه شَقَّتيْن ، فيعطي شقّةً إلى قائد الطليعة ، ويحتفظُ بالشّقِّ الآخر ، ويأمره أنْ يدفِن الشّقَّ في موضعٍ يحدّده له ، من مخاضة معروفة ، أو تحت شجرة معلومة ، أو خَرِبة مُميّزة ، ثم يبعث بعده مَن يسترجعها ليتأكّد مِن صحّة تنفيذ الطليعة لواجبها الاستطلاعي[1] .

فرحم الله قتيبة وغفرَ له ، مضىٰ إلى ربِّه ، وبقيتْ فتوحاتُه وأيّامُه مناراتٍ تُضيءُ أعماق التاريخ ، وتُرسل بظلالها إلى نهاية التاريخ .

يقول الحافظ ابن كثير - عَن قتيبة - في « البداية والنهاية » (٩ / ١٤٩) : « يُقال : إنه ما كسرت له رايةٌ . وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له مِن العساكر ما لم يجتمع لغيره » .

ويقول أيضًا في « البداية والنهاية » (٩ / ١٧٥ - ١٧٦) : « كان قتيبة بن مسلم أبو حفص الباهلي مِن ساداتِ الأمراء وخيارهم ، وكان مِن القادة النُّجباء الكُبَراء والشجعان ، وذوي الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدىٰ الله على يديْه خلقًا لا يحصيهم إلَّا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، وفتَح مِن البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئًا كثيرًا ، واللهُ سبحانه لا يُضيّع سَعْيَهُ ، ولا يخيّب تعبَه وجهادَه .

ولكن زلَّ زلَّةً كان فيها حَتْفُهُ ، وفعل فِعْلةً رَغِمَ فيها أنفُه ، وخلَع

---

(١) قتيبة بن مسلم لبسّام العسليّ ، من صـ ٢٥ - ٢٨ ، مختصرًا .

الطاعة فبادرتِ المنية إليه ، لكِنْ سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفّر الله بها سيئاته ، ويضاعف بها حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبّل منه ما كان يكابده مِنْ مُناجَزة الأعداء » ، فرحمه الله رحمةً واسعة .

كأنّ أبا حفصٍ قتيبةَ لَمْ يَسِرْ بجيشٍ إلى جيشٍ ولمْ يَعْلُ مِنْبَرا
ولمْ تَخْفِق الراياتُ والقومُ حَوْلَهُ وُقوفٌ وَلَمْ يشهدْ لَهُ الناسُ عَسْكَرَا

رحمة الله على البطل الذي أذلّ ملوكَ الكُفر .

مضَىٰ ابنُ سعيدٍ حيثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ولا مغـربٌ إلّا لَهُ فيهِ مَـادِحُ
كأنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَـلَىٰ أحـدٍ إلّا عَلَيْكَ النَّوائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ المَرَاثي وذكْرُهَا لقدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فيكَ المَدَائِحُ

الأَميرُ الضِّرْغامُ ، قائدُ الجيوش ، الجَرَادَةُ الصَّفراءُ ، أبو سعيدٍ مَسْلمةُ بنُ عبدِ المَلِك :

هكذا نعتَه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥ / ٢٤١) ، وقال أيضًا : « له مواقف مشهودةٌ مع الروم ، وهو الذي غزا القسطنطينيّة ، وكان ميمونَ النقيبةِ .

قال اللَّيْث : وفي سنةِ تسعٍ ومائة غزا مَسْلمة التُّركَ والسند » .

وقال الذهبي أيضًا (٥ / ٢٤١) : « قلت : كان أَوْلَىٰ بالخلافة من سائر إخوتهِ ، وفيه يقول أبو نُخَيْلَةَ :

أمسلمُ إني يا ابنَ خيرِ خليفةٍ ويا فارسَ الهَيْجَاءِ يا جَبَلَ الأرضِ
شكرتُكَ إنَّ الشّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التُّقَىٰ وما كلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نعمةً يُغْضِي »

في سنة ستٍ وثمانين : غزا مسلمةُ بلاد الروم ، فقتل وَسَبَىٰ وغنِمَ وَسَلِمَ ، وافتتح حصن « بولق » ، وحصن « الأخرم » ، من أرض الروم .

وفي سنة سبْعٍ وثمانين : غزا مسلمة بلاد الروم ، فقتل منهم خلقًا كثيرًا ، وفتح حصونًا كثيرةً ، وَغَنِمَ غنائمَ جَمَّةً .

وفي سنة ثمانٍ وثمانين : « غزا الصائفةَ مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حِصنَ « طوانة » ، في جمادى من هذه السنة - وكان حصنًا منيعًا - اقتتل الناسُ عنده قتالًا عظيمًا ، ثم حمل المسلمون على النصارىٰ ، فهزمُوهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجتِ النصارىٰ فحملوا على المسلمين ، فانهزم المسلمون ، ولم يبقَ أحد منهم في موقفه ، إلَّا العباس بن الوليد ومعه ابن مُحَيْريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قُرَّاء القرآن الذين يريدونَ وجهَ الله عز وجل ؟ فقال : نادِهِمْ يأتوك . فنادىٰ : يا أهل القرآن . فتراجع الناسُ فحملوا على النصارىٰ ، فكسروهم ولجئوا إلى الحصن ، فحاصروهم حتى فتحوه »[١] .

وفي سنة تسعٍ وثمانين : « غزا مسلمة وابن أخيه العباس بلادَ الروم ، فقتلا خلقًا كثيرًا ، وفتحا حصونًا كثيرة ، منها حصن « سورية » و« عَمورية » و« هرقلة » و« قمورية » ، وغَنِمَا شيئًا كثيرًا وأَسَرَا جَمًّا غفيرًا »[٢] .

وفي سنة تسعين من الهجرة : غزا مَسْلَمَة والعباس بلاد الروم ، ففتحا حصونًا ، وقتلا خلقًا من الروم وَغَنِمَا ، وأسرا خلقًا كثيرًا .

وفي سنة إحدى وتسعين : « غزا الصائفةَ مسلمةُ بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلادَ الترك ، حتى بلغ البابَ

(١) البداية والنهاية ٩ / ٧٩ .
(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨١ .

مِن ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونًا كثيرةً أيضًا »[١].

وفي سنة اثنتين وتسعين : « غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصونًا كثيرةً وَغَنِمَا شيئًا كثيرًا ، وهربتْ منهم الرومُ إلى أقصى بلادهم »[٢].

وفي سنة أربع وتسعين : افتتح مسلمة « سندرة » ، مِن أرض الروم .

وفي سنة خمس وتسعين : فتح مسلمة بن عبد الملك مدينةً في بلاد الروم ، ثم حرّقها ، ثم بناها بعد ذلك بعشرِ سنين .

وفي سنة سبعٍ وتسعين : غزا مسلمة بن عبد الملك أرضَ « الوضاحية » ، ففتح الحصن الذي بناه « الوضاح » صاحب الوضاحية ، وفيها غزا مسلمة أيضًا « برجمة » ففتح حصونًا و« برجمة » وحصن « الحديد » و« سررا » ، وشتّى بأرض الروم .

قال ابن كثير : « قال الزبير بن بكّار : كان مَسلمةُ مِن رجال بني أُميّة ، وكان يُلقَّب بالجرادة الصفراء ، وله آثارٌ كثيرة ، وحروبٌ ونِكاية في العدو ، من الروم وغيرهم . قلتُ : وقد فتح حصونًا كثيرة من بلاد الروم . ولمّا وُلّي غزْوِ « أرمينية » ، غزا الترك ، فبلغ بابَ الأبواب ، فهدم المدينة التي عنده ، ثم أعاد بناءَها بعد تسع سنين .

وفي سنة ثمانٍ وتسعين : غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصَّقَالِبَة ، وكَسَرَ ملكهم « البرجان » ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية ، وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدَّةً عظيمة ، وجاع المسلمون

(١) البداية والنهاية ٩ / ٨٦ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨٨ .

عندها جُوعًا شديدًا ، فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز ، أرسل إليهم البريدَ يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أنْ لا يقلع عنهم حتى يَبْنُوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية ، فَبَنَوْا له جامعًا ومنارةً ، فهو بها إلى الآن ، يصلّي فيه المسلمون الجمعة والجماعة . وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومَسَاعٍ مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونًا وقلاعًا ، وأحْيَا بعزمه قصورًا وبقاعًا ، وكان في زمانه في الغزوات نظيرَ خالدِ بن الوليد في أيّامه ؛ في كثرة مغازيه ، وكثرة فُتوحه ، وقوّةِ عزْمه ، وشدَّةِ بأسه ، وجوْدة تصرُّفه في نقْضه وإبْرامه . وقد رثاه بعضهم - وهو ابن أخيه : الوليد بن يزيد بن عبد الملك - فقال :

أقـولُ ومَـا البُعْـدُ إلّا الرَّدَىٰ ... أمَسْـلمُ لا تبعِدَنْ مَسْلمةْ
فقدْ كنتَ نورًا لنا في البـلا ... دِ مُضيئًا فقد أصبَحَتْ مُظلِمةْ
ونكتُمُ موْتَكَ نَخْشَىٰ اليقيـ ... ـنَ فأبدىٰ اليقينُ لنا الجمجُمَهْ »[1]

صَلاحُ الدِّين : سيّدُ المجاهدين ، بَطَلُ حِطِّين ، ومُحَرِّر القُدْس من أَيْدِي الصَّلِيبِيِّين :

سلامًا صلاحَ الدينِ يا خير قائِدٍ ... بأمجـادِهِ تاجُ الفـتوحِ تَزَيَّنَـا
سلامًا صلاحَ الدينِ إنَّا بحاجةٍ ... لِمثلِكَ مَن يُعْلي علىٰ الحقِّ صَرْحَنا
بِهِ نُدرِكُ الغـاياتِ طُـرًّا وَإنَّنا ... على موعِدِ الفجرِ الذي قدْ تَأَذَّنَا[2]

قال العلّامة أبو شامة في كتابه « عيون الرَّوْضتيْن في أخبار الدَّوْلَتيْن »: « قال أبو طيّ حميد النجار : كنتُ بالمَوْصل في سنةِ خمسٍ وخمسين وخمسمائة ،

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ - ٣٤٢ .
(٢) « سلامًا صلاحَ الدين » ، من ديوان : « نداء الحق » ، لأحمد محمد الصديق صـ ٢١٠ - ٢١١ - دار الضياء .

فزرتُ الشيخ عمرَ الملّاء ، فدخل إليه رجل ، فقال : أيُّها الشيخ ، رأيتُ البارحةَ في النوم كأنّي بأرضٍ غريبة لا أعرفها ، وكأنّها مملوءةٌ بالخنازير ، وكأنَّ رجلًا في يده سيفٌ ، وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون إليه ! فقلتُ للرجل : هذا عيسىٰ بن مريم ، هذا المهدِي . قال : لا . فقلتُ : مَن هذا ؟ قال : هذا يوسف . ما زادني على ذلك . قال : فتعجَّبتِ الجماعةُ من هذه الرؤيا ، وقالوا : إنه سيقْتُل النصارىٰ رجلٌ يُقال له : يوسف . وحَدَسَتِ الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، وكان المُسْتَنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة ، واسمُه يوسف ، فحَدَس بعض الجماعة عليه . قال : وأُنسِيتُ أنا هذه الواقعة ، فلمّا كانت كسرة « حِطِّين » ذكرتها ، فكان يوسفُ « الملكَ الناصِرَ » ، رحمه الله . قال : وحدّثتني ظِئْرٌ لي من نساء الحَلَبِيِّين ، كانت تداخِل أختَ السلطان الملك الناصر ، قالت : كانت والدة السلطَان تُخبر أنَّها أُتيتْ في نوْمها - وهي حامِلٌ - بالسلطان . فقيل لها : إنّ في بطنك سيفًا من سيوف الله . رحمة الله عليه ».

استقرّ الأمرُ لصلاح الدين في مصر والشام وكثيرٍ من مدن إقليم الجزيرة ، وقد مرض في إحدىٰ حملاته على إقليم الجزيرة ، فنذَر لَئن شفاه الله ليصرفنَّ كلَّ همّه لقتالِ الفرنجة وفتْح بيت المقدس ، ولَيقتلنَّ صاحبَ الكرك الصليبيَّ بيده ، وكان هذا النذر بإشارةٍ من وزيره القاضي الفاضل : عبد الرحيم البَيْسَاني .

بعد هذا بدأ بحملاتٍ مركَّزةٍ على المدن القريبة ، قبل أن يُظفره الله بالفتح الأعظم ، وهو استرجاعُ بيت المقدس ، فقدِ انتصر على الفرنجة في موقعة « مرج عيون » ، سنة ٥٧٥ هـ ، وموقعة « بانياس » ، وأَسر رؤساءهم ، ودمّر حصن « الأحزان » في صفد ، وما زال يناوش الفرنجة حصنًا بعد حصن حتى تجمّع عنده جيش كبير في سهل حطِّين ، حيث كانت الموقعة

الكبرىٰ التي كَسَرت عِظامَ الصَّليبيّين ، ومهَّدتْ لفتح بيت المقدس .

حِطِّينُ مَجْزرة للصّليبيّين :

قال أبو شامة في « عيون الروضتيْن » عن سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « وهي سنة كسرة حطين ، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين ؛ برز السلطان - صلاح الدين - مِن دمشق أوَّلَ المحَرَّم في العسكر العَرَمْرَم ، ومضىٰ بأهل الجنة لجهاد أهل جَهَنم ، والتقوا واقتتلُوا إلى الليل ، وقد حيل بين الفرنج وبين الماء ، فباتوا حَيَارىٰ ، ومن العطش سُكارىٰ ، وأصبح يومُ السبت الخامس والعشرين مِن ربيعٍ الآخر ، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة ، وقد برّح بالفرنج العطشُ ، وكان النسيم في وجوههم ، والحشيش تحت أقدامهم ، فرمىٰ بعضُ متطوِّعة المجاهدين النارَ في الحشيش ، وهو هشيمٌ ، فتأجّج عليهم استعارها ، وتوهّج أوارها ، فأوَوْا إلى جبل حطّين ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطّين بوارقُ البوار ، ولمّا أحسّ القومص بالكسرة ، هرب بطلبهِ ، وثبت الباقون ، واستقبلوا ، فحطُّوا خيامهم على غارب حطّين ، حين رأوا المسلمين بهم مُحيطين ، فأُعْجِلوا عن ضَرْب الخيام بضرب الهام ، وأُحيط بهم مِن حَوالِيهم ، ودارت الدوائر عليهم ، وترجَّوْا خيرًا ، فترجّلوا عن الخيل ، وجرفهم السيف جرْف السيل ، ومُلِكَ عليهم الصليب الأعظم ، وهو صليب الصلبوت ، فأيقنوا بالهلاك ، فما برِحُوا يُؤسَرُون ويُقْتلون ، ووصل إلى مقدّمهم و« إبرنسهم » وملكهم ، فتمَّ أسْر الملك[1] وإبرنس الكرك[2] ، وأخي الملك جفرىٰ ، و «أوك» صاحب جُبيل ، و « هنفرىٰ بن هنفرىٰ »، وابن صاحب إسكندرونة صاحب مَرَقية ، وأُسِر مَن نجا من القتل ، من

---

(١) الملك جفرىٰ .

(٢) البرنس : أرناط صاحب الشوبك والكرك .

الداويّة ومقدّمها ، والأسبتاريّة ومعظَّمها ، ومِن البارونية مَن أخطأ البوار ، فأصابه الإسار ، وأُسر الشيطانُ وجنوده ، وملك الملك وكنوده ، وجبَر الله الإسلام بأسرهم ، وقُتلوا وأُسروا بأسرهم ، فَمَن شاهَد القَتْلىٰ ، قال : ما هناك أسير . وَمَن عاين الأسرىٰ ، قال : ما هناك قتيل . ومُذِ استولىٰ الفرنج على ساحل الشام ، ما شُفِي للمسلمين كيوم حطّين غليلٌ ، فما أفْلَتَ مِن تلك الآلاف إلَّا آحاد ، وما نجا مِن أولئك الأعداء إلَّا أعداد ، وامتلأ المَلأُ بالأسرىٰ والقتلىٰ »[1] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٢) : « جاءتِ العساكرُ المصرية وتوافتِ الجيوش المشرقيّة ، وسار السلطان قاصدًا بلاد الساحل ، وكان جملةُ مَن معه مِن المقاتلة اثني عشر ألفًا ، غيرَ المتطوِّعة ، فتسامعتِ الفرنج بقدومه ، فاجتمعوا كلُّهم وتصالحوا فيما بينهم ، وصالَح « قومس » طرابلس ، و« برنس » الكرك الفاجر ، وجاءُوا بحدّهم وحديدهم ، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت ، يحمله منهم عبّاد الطاغوت ، وضُلّال الناسُوت ، في خلقٍ لا يَعلم عدّتهم إلا الله عز وجل ، يُقال : كانوا خمسين ألفًا ، وقيل : ثلاثًا وستين ألفًا ، وقد خوّفهم صاحبُ طرابلس من المسلمين ، فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك ، فقال له : لا أشكُّ أنَّك تحبُّ المسلمين وتخوّفنا كثْرتَهم ، وسترى غِبَّ ما أقول لك . فتقدّموا نحو المسلمين ، وأقبل السلطان ففتح « طبريّة » ، وحاز البحيرة في حوْزته ، ومنع اللهُ الكفرة أنْ يصلوا منها إلى قَطْرة ، حتى صاروا في عطش عظيم ، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربي مِن طبريّة ، عند قرية يُقال لها : « حطّين » ، التي

---

(١) « عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لأبي شامة صـ ١٣٥ - ١٣٦ - طبع : وزارة الثقافة السورية .

يُقال : إنّ فيها قبر شُعيب عليه الصلاة والسلام ، وجاء العدو المخذول ، وكان فيهم صاحب عَكَّا ، و« كفرنكا » ، وصاحب الناصرة ، وصاحب « صُور » ، وغير ذلك من جميع ملوكهم ، فتواجه الفريقان ، وتقابل الجيشان ، وأسْفَرَ وَجْهُ الإيمان ، واغْبَرَّ وأقْتَمَ وأظلم وجهُ الكفر والطغيان ، ودارت دائرة السَّوْءْ على عبدة الصُّلبان ، وذلك عشية يوم الجمعة ، فبات الناس على مَصافِّهم ، وأصبح صباح يوم السبت ، الذي كان يومًا عسيرًا على أهل الأحد[1] ، وذلك لخمس بَقِينَ من ربيع الآخر ، فطلعتِ الشمس على وجوه الفرنج ، واشتدّ الحرُّ ، وقوي بهم العطش ، وكان تحت أقدام خيولهم حشيشٌ قد صار هشيمًا ، وكان ذلك عليهم مشئومًا ، فأمر السلطان النّفّاطةَ أنْ يرموه بالنِّفْط ، فرمَوْه ، فتأجج نارًا تحت سنابك خيولهم ، فاجتمع عليهم حَرُّ الشمس وحرُّ العطش ، وحرّ النار وحرّ السلاح ، وحرُّ رشْق النّبال ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فحملوا ، وكان النصر من الله عز وجلّ ، فمنحهم اللهُ أكتافهم ، فقُتل منهم ثلاثون ألفًا في ذلك اليوم ، وأُسِرَ ثلاثون ألفًا مِن شجعانهم وفرسانهم ، وكان في جملة مَن أُسِر جميعُ ملوكِهم ، سوىٰ « قومس » طرابلس ؛ فإنّه انهزم في أول المعركة ، واستلبهم السلطانُ صليبَهم الأعظم ، وهو الذي يزعمون أنه صُلب عليه المصلوب ، وقد غلّفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة ، ولم يُسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله ، ودَمْغِ الباطل وأهله ، حتى ذُكِر أنَّ بعضَ الفلاحين رآهُ بعضهم يقود نيِّفًا وثلاثين أسيرًا من الفرنج ، وقد ربطهم بطُنُبِ خيمةٍ ، وباعَ بعضُهم أسيرًا بنعْلٍ لِيَلْبَسَهَا في رِجلِهِ ، وجرَتْ أمورٌ لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين ، فللّهِ الحمد دائمًا كثيرًا ، طيّبًا مباركًا » .

---

(١) أي : النصارىٰ .

قال أبو شامة في « عيون الروضتين » (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) :
« وامتلأ الملأ بالأسرىٰ والقتلىٰ . قال العماد : وعبرتُ بها فألفيْتُها محلّ الاعتبار ، وشاهدتُ ما فَعَلَ أهلُ الإقبال بأهل الإدْبار ، فمن قُتِلَ حَصَرَتِ الألسنة عن حصْره وعدِّه ، ومَن أُسر لم يَكْفِ أطْنَابُ الخِيَم لقيْدِه وشدِّه ، ولقد رأيتُ في الحبل الواحدِ ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعةٍ واحدة مائةً ومائتيْنِ يَحميهم حارس . قال القاضي بهاء الدين بن شدّاد : كان الواحدُ منهم العظيم يخلد إلى الأسْر خَوْفًا على نفسه ، ولقد حكىٰ لي مَن أثِقُ به أنه لقي بـ« حوران » شخصًا واحدًا ومعه طُنُبُ خيمةٍ ، فيه نَيِّفٌ وثلاثون أسيرًا يجرّهم وحده ، لِخُذلانٍ وقع عليهم .

وأمّا مقـدّمو الداويّة والأسبتارية ، فإنَّ السلطان اختار قتْلهم فقُتِلوا كلُّهم ، وأمَّا « البرنس أرناط » صاحب الكرك ، فكان السلطان قد نذر دَمَه إنْ ظفِر به ، وسبب ذلك : أنه كان عبرَ به بـ« الشوبك » قَفَلٌ مِن الدّيار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه اللهَ والصلحَ الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفافَ بالنبي ﷺ ، وقال : قولوا لمحمّد : لِمَ لمْ يُخلّصكم ؟! وبَلغ ذلك السلطانَ رحمه الله ، فحمَلَه الدينُ والحميّةُ على أنه نذَر إنْ ظفر به قتلَه ، فلمّا فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس في دِهْليز الخيمـة ؛ فإنها لم تكنْ نُصبتْ بعـد ، والناس يتقرّبون إليه بالأسارىٰ وبمَن وجدوه مِن المقدّمين ، ونُصبتِ الخيمة وجلس فرِحًا مسرورًا ، شاكرًا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفرىٰ وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك شربةً مِن حُلابٍ مبردٍ بثلجٍ ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حالٍ من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس ، فقال السلطان للترجمان : قُل للملِك : أنت الذي سُقيتَه وإلّا أنا ما سقيتُه ، وكان على جميل عادة العرب وكريمِ أخلاقهم أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب مِن

مال مَن أسَرَه أَمِن ، فقصد السلطان بذلك : الجرْي على مكارم الأخلاق[١] ، وأقْعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس ، وواقفه على ما قال ، ثم قال له : ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ[٢] . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فقام إليه وسلّ المجناةَ وضربه بها ، فحلّ كَتِفه ، وتمّم عليه مَن حضر ، ثم رُمي على باب الخيمة » .

وورد إلى بغداد كتابٌ مِن بعض مَن حضر الوقعة ، يقول فيه : « بلغ ثمنُ الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، ويباع الرجلُ وزوجته وأولاده في النداء بيْعةً واحدةً ، ولقد بيعَ بحضوري رجلٌ وامرأته وخمسة أولادٍ لهما - ثلاثة بنين وابنتان - بثمانين دينارًا ، وأُخذ صليب الصلبوت ، وعُلِّق على قنطاريّة منكّسًا ، ودُخل به إلى دمشق ، وكلّ يوم نرىٰ من رءوس الفرنج مثلَ البطيخ ، وأُخذ من البقر والغنم والخيل والبغال والحمير ، ما لم يجئْ مَن يشتريه ؛ من كثرة السَّبْي والغنائم . قال : وبلغني أنّ بعض فقراءِ العسْكر باعَ أسيرًا بزربول[٣] ، فقيل له في ذلك : فقال : أردتُ أنْ يُقال : بلَغَ مِن كثرتهم وهوانهم أنْ بِيع واحدٌ منهم بزرْبول » .

لله دَرُّكَ يا صلاح !

---

(١) والشرع خلاف ذلك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ما كان لِنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أسْرَىٰ حتَّى يُثْخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] ، فإنّ مَن أطلقهم كانوا أشدّ الناس عليه بعد ذلك في حصاره لعكّا .

(٢) وفي البداية والنهاية ١٢ / : « نعم أنا أنوبُ عن رسول الله ﷺ في الانتصار لأُمّته » .

(٣) الزربول : الحذاء ، وهي لا تزال تُطلق على ما يُلبَس في القدم بين البدو في سورية .

حَطَطْتَ على حطّينَ قَدْرَ مُلوكِهِمْ ... ولَمْ تُبقِ مِن أجناسِ كُفرهِمُ جِنْسَا
سَبَايا بلاد اللهِ مملوءة بِهَا ... وقدْ شُرِيتْ بَخْسًا وقد عُرِضَتْ نَخْسَا
يُطافُ بِهَا الأسواقَ لا راغبٌ لَهَا ... لِكثرتِهَا كَمْ كثرةٍ تُوجِبُ الوَكْسَا
شَكَا يَبَسًا رَأْسُ البرنسِ الذي بِهِ ... تندّى حُسامٌ حاسِمٌ ذلك اليبْسَا

وقال الجليّاني :

يا وقعةَ التَّلِّ ما أبقيتِ مِن عَجَبٍ ... جحافلٌ لمْ يَفُتْ مِن جمْعِها بَشَرُ
ويا ضُحىٰ السَّبتِ ما للقومِ قد سَبَتُوا ... تهوّدُوا أمْ بكأسِ الطعنِ قدْ سَكِرُوا
حطّوا بحطّين مُلّاكًا فيَا عجبًا ... في ساعةٍ زالَ ذاكَ المُلْك والقدَرُ
أهوىٰ إليهمْ صلاحُ الدين مُفترِسًا ... وهوَ الغَضَنْفَرُ أعدىٰ ظُفْرَهُ الظفرُ
أملىٰ عليهمْ فصاروا وسْطَ كِفّتِهِ ... كَسِرْبِ طيرٍ حَوَاهَا القانِصُ الذَّكرُ
وأنجزَ اللهُ للسلطانِ موْعِدَهُ ... ونذْرَهُ في كَفُورٍ دينُهُ البَطرُ
وعايَنَ الملكُ الأبرنسَ في دمِهِ ... فماتَ حيًّا وحيي وهو يعتذر
ما لي أرىٰ ملك الإفرنجِ في قفصٍ ... أينَ القواضِبُ والعسّالةُ[1] السُّمُرُ
والأسبتارُ إلى الدَّيْويّةِ الْتأمُوا ... كأنَّهم سدُّ يأجوجٍ إذا اشْتجرُوا
يتلُوهُمُ صلبوتٌ سِيق منتكِسًا ... وحوْلَهُ كلُّ قسِّيسٍ لهُ دبرُ

وقال أبو الحسن الساعاتي لصلاح الدين :

أدْرتَ على الفرنجِ وقدْ تلاقَتْ ... جموعُهُمُ عليكَ رَحًى طحُونا
ففي بَيْسَانَ ذَاقُوا منْكَ بُؤْسًا ... وفي صفدٍ أتوْكَ مُصَفَّدِينَا
لقدْ جرَّدتَ عَزْمًا ناصِريًّا ... يحدِّث عنْ سنَاهُ طُور سينا
فكنتَ كَيُوسفَ الصِّديق حقًّا ... لهُ هَوَتِ الكواكبُ سَاجدينا
لقدْ أتعبتَ مَنْ طلبَ المعالي ... وحاولَ أنْ يَسوسَ المُسْلمينا

---

(١) رمح عسال وعسول : لَدِن مضطرب .

وإنْ تكُ آخِــرًا فخـــلاكَ ذمٌّ   فــإنَّ محمــدًا في الآخِرينــا

« وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان يهنِّئه بهذه الكسرة ؛ فإنّه كان غائبًا بدمشق ، مِن جملة الكِتاب : لِيَهْنِ المولىٰ أنّ الله قد أقام به الدين القيّم ، وأنه كما قيل : أصبحتَ مولاي ومولىٰ كلِّ مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتيْن الباطنة والظاهرة ، وأورثه المُلْكَين : مُلْك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ، والرؤوسُ إلى الآن لم تُرفع من سجودها ، والدموعُ لم تُمسح مِن خدودها ، وكلّما فكّر الخادم في أنَّ البِيَع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يُقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ، يُقال فيه : إنه هو الواحد ، جدّد لله شكرًا ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنهِ ، وجزىٰ يوسفَ خيرًا على إخراجه الحقَّ من سجنه ، والمماليك ينتظرون أمْر المولىٰ ، فكلُّ مَن أراد أنْ يدخل الحمّام بدمشق ، قد عوَّل على دخول حمّام طبرية .

تلكَ المكارمُ لا قِعْبانَ مِن لَبَنٍ   وذلكَ الفتحُ لا سيفَ بنِ ذي يزَنِ

وللألسنة بعدُ في هذا الفتح سبْحٌ طويل ، وقولٌ جليل » .

ولقد فتح صلاح الدين بعد كسرة حطين ، وقبل فتح بيت المقدس ، أكثرَ من خمسين بلدة ومدينة ، ففتح طبرية ثاني يوم الكسرة . « قال القاضي بهاء الدين بن شداد : ثم رحل السلطان طالبًا عكّا فقاتلها بكرةَ الخميس مستهلّ جمادى الأول ، فأخذها واستنقذ مَن كان بها من الأُسارىٰ ، وكانوا زهَاءَ أربعة آلاف نفس ، واستولىٰ على ما فيها من الذخائر والأموال ، والتجاير والبضائع ؛ فإنها كانت مظنّة التجار ، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحل ، يأخذون الحصون والقِلاع والأماكن المنيعة ، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية ، وصفورية والناصرة ، وكان ذلك لخُلوّ الرجال بالقتل والأسر .

وقال العماد : خرج أهل البلد - يعني عكّا - يطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم فقط ، وفتحوا البلد يوم الجمعة ، فجئنا إلى كنيستها العظمىٰ ، فرتّب بها المنبر والقبلة ، وهي أول جمعة أُقيمتْ بالساحل بعد يوم الفتح[١] ، وفتح العادل حصن « مجدل يابا » ، ومدينة « يافَا » عَنوة . وفُتحت « الفولة » ، وهي قلعة للداويّة حصينة ، وفيها ذخائرهم وأموالهم ، وفتحت « دبوريّة » ، و« جنين » و« زرعين » و« الطور » و« اللّجون » و« بيْسان » و« القيمون » و« مالعكا » و« طبرية » من الولايات ، و« الزيب » و « معليا » و « البعنة » و « إسكندرونة » و « منواث » و « أرسوف » ، واستولى على تلك الشموس والأقمار ، الكُسوف والخُسوف ، وفتح المسلمون « سبسطية » ، وفيها مشهد زكريا عليه السلام ، وقد اتخذه « الأقسا » كنيسةً ، وقد حجبوه وحلّوْه ، ففتح للمسلمين أبوابه ، وأظهر للمصلّين محرابه .

وأرسل السلطان إلى « تبنين » ابنَ أخيه تقيَّ الدين فضايقها ، فراسلوا السلطان وسألوه الأمان ، واستمهلوا خمسة أيام ، فأُمْهِلوا ، وأَطلقوا أُسارىٰ المسلمين ، وهذا دأْبه في كلّ بلدٍ يفتحه ، أنه يبدأ بالأُسارى فيفكُّ قيودَها ، ويُعيد بعد عدَمها وجودَها ، فخلّص - تلك السنةَ - من الأسر أكثرَ مِن عشرين ألفِ أسير ، ووقع في أسْره من الكفار مائةُ ألف ، ثم تسلّم السلطان بعد « تبنين » : « صيدا » ، و« صرفند » ، و« بيروت » و« جبيل » ، وكان صاحب جُبيل في الأسر فسلّمها وسَلِم ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل ونابلس مسلمين ، فذاقوا العزَّة بعد الذِّلة ، ورفع المسلمون رءوسهم ، وعرَفوا نفوسهم ، وكان كلّ مَن استأمن من الكفار يمضي إلى

---

(١) بعد غياب اثنتين وسبعين سنة .

صُور مَحْمِيَّ الذّمار .

ونزل السلطان على عسقلان فحصرها ، وتردّدتْ مراسلاتٌ بين أهلها والملك ، ثم سلَّموها يوم السبت سلْخ جمادى الآخرة ، وخرجوا بنسائهم وأموالهم ، وكان السلطان أخذ في طريقه إليها « الرملة » و« تُبنين » و« بيت لحم » و« الخليل » ، وأقام بها حتى تسلّم حصون : الداوية ، غزة ، والنطرون ، وبيت جبريل ، ولدّ ، والداروم ، ولم يبق في الساحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور . وكان السلطان رحمه الله ، قد استدعى بالأساطيل من مصر ، فجاءت مع مقدّمها الحاجب لؤلؤ فطفِق يكسر ويكسب ، ويسلّ ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه »[١] .

فتْحُ بيْتِ المقدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة هجرية :

أرسل شابٌّ من أهل دمشق - كان مأسورًا ببيت المقدس - رقعة إلى صلاح الدين ، فيها هذه الأبيات :

يَـٰأَيُّهَـا المـلكُ الذي ... لمعـالمِ الصُّلبـانِ نَكَّسْ
جَـاءَتْ إليكَ ظُلامـةٌ ... تسعىٰ مِنَ البيت المقدَّسْ
كلُّ المسـاجدِ طُهِّـرَتْ ... وأنا علىٰ شرفي مُنجَّسْ

« قال القاضي شدّاد : لما تسلّم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساقِ الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرّقة ، فنزل عليه يوم الأحد ، خامس عشر رجب ، وكان مشحونًا بالمقاتِلة مِن الخيّالة والرّجالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عِدّة مَن كان

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ١٤٨ - ١٥٢ .

فيه من المقاتِلة بما يزيد على ستين ألفًا ، ما عدا النسوان والصبيان .

قال العماد : وكان به مِن مقـدّمي الإفرنج « باليان بن بارزان » والبطرك الأعظم ، والذين أغفلتهم حياطة الفرسان الداويّة والأسبتاريّة ، والبارونية ، وقد حشـروا وحشـدوا ، فكانوا ستين ألفِ مقاتلٍ من فارس وراجل ، من أتباع الشيطان وعبَدة الصُّلبان ، فأقام السلطان بمنزلِهِ - غربيِّ القدس - خمسة أيام ، وسلّم إلى كلّ طائفةٍ من الجيش ناحية من السّور وأبراجه ، ثم تحوّل السلطان إلى ناحية الشام ؛ لأنه رآها أوسع للمجال ، والجلاد والنّزال ، وقاتل الفـرنج دون البلد قتالًا هَائِلًا ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم وقمامتهم ، واستُشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين ، فحنق عند ذلك كثيرٌ من الأمراء والصالحين ، واجتهدوا في القتال ونصْب المجانيق والعرادات على البلد ، وغنّتِ السيوف والرماح الخطيّات ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، وفوق قُبّة الصخرة صليب كبير ، فزاد ذلك أهل الإيمان حَنقًا وشدَّةً للتشمير ، وكان ذلك يومًا عسيرًا على الكافرين غيرَ يسير ، فبادر السلطان إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور ، فنقبها وعلقها ، وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب ، وخرَّ البرج برُمَّته ، فإذا هو واجِبٌ ، فلما شاهَد الفرنجُ ذلك الحادث الفظيع ، والخطْب المؤلم الوجيع ، قصد أكابرُهم السلطانَ ، وطلب صاحبها باليان الأمانَ ، ليحضر عند السلطان فأمّنه ، فلمّا حضر ترقّق للسلطان ، وذلّ ذُلًّا عظيمًا ، وتشفّع إليه بكلّ ما أمكنه ، فَلَمْ يُجِبْه إلى الأمان لهم ، وكانوا من قَبْلُ يقولون : كلّ واحدٍ منا بعشرين ، وكلُّ عشرة بمائتين ، ودون قمامة تقوم القيامة . فأبىٰ السلطان أن يجيبهم إلى الأمان ، وقال : ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدىٰ وتسعين سنة ، فإنّهم حينئذ استباحوا القتل ، فأنا أُفني رجالهم قتلًا ، وأحوي نساءَهم سَبْيًا . فقالوا :

إذا أيسْنا من أمانكم ، قاتلْنا قتالَ الدم ، فلا يُجرَح واحدٌ منا حتى يجرح عَشرة ، وأنّا نحرّق الدور ونخرّب القبة ، ونقلع الصخرة ، ونُعمي عيْن سلوان[١] ، ونخسف المصانع[٢] ، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ، فنبدأ بقتلهم ، ثم نُهلك الأموال ، ونُعدم النساء والأطفال ، فلا يحصل لكم سبي ولا مال . فشاوَر السلطانُ أصحابه ، فقالوا : الصواب أنْ نُبيعهم نفوسهم ، ونُعمِّم بِصَغَار الجزية رءوسَهم ، ونُدخِل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم . واستقرّ بعد مراودات ومعاوداتٍ عن كلّ رجلٍ عشرةُ دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ صغير أو صغيرة ديناران ، ومَن عجز بعد أربعين يومًا عمَّا لَزِمه ، أو امتنع منه ، وما سَلّمَهُ ، ضُرب عليه الرِّقُ . ودخل ابن بارزان والبطرق ومقدّمو الداويّة والأسبتار في هذا الضّمان ، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء ، وسلّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين مِن رجب ، وكان في القدس أكثر من مائة ألف إنسان ، من رجال ونساء وصبيان ، وأُغلقت دونهم الأبواب ، ورُتّب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النوّاب ، ووكّل بكلّ باب أمير ومقدّم كبير ، وحصّل لبيت المال ما يقارب مائتي ألف دينار ، وبقي مَن بقي تحت رِقّ وإسار »[٣] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٥ - ٣٤٦) : « كان جملة مَنْ أُسر بهذا الشرط ستةَ عشرَ ألفِ أسيرٍ ، من رجال ونساء وولْدان » .

« ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ ، ولكن نظّفوا المسجد

---

(١) وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء بيت المقدس . وكانت في ربض مدينة القدس .
(٢) المصانع : الأبنية . في « لسان العرب » .
(٣) عيون الروضتين ٢ / ١٥٣ - ١٥٥ .

الأقصى مما كان فيه مِن الصلبان والرُّهبان والخنازير ، وخُرّبت دُور الداوية ، وكانوا قد بَنَوْهَا غرب المحراب الكبير ، واتخذوا المحراب مَشْتًى - لعنهم الله - فنُظِّف ذلك كلّه ، وأُعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية ، وغُسلت الصخرة بالماء الطاهر ، وأعيد غسلها بماء الوَرْد والمسك الفاخر ، وأُبرزت للناظرين ، وقد كانت مستورة مخبوءةً عن الزائرين ، ووضع الصَّليب عن قُبَّتها ، وعادت إلى حُرْمتها . ولمّا تطهّر بيت المقدس ممّا كان فيه من الصلبان ، والنواقيس والرهبان والقساقس ، ودخله أهل الإيمان ، ونُودي بالأذان ، وقرئ القرآن ، ووُحِّد الرحمان - كان أول جمعة أقيمت في الرابع من شعبان ، بعد يوم الفتح بثمان ، فنصب المنبر[1] إلى جانب المحراب ، وبُسطت البُسُط ، وعُلّقت القناديل ، وتُلي التنزيل ، وجاء الحقُّ وبطلت الأباطيل ، وصُفّت السجادات وكثرت السَّجدات ، وتنوّعتِ العبادات ، وارتفعتِ الدعوات ، ونزلتِ البركات ، وانجلتِ الكُربات ، وأُقيمت الصلوات ، وأذنَّ المؤذّنون ، وخرس القسّيسون ، وزال البوس ، وطابت النفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس ، وعُبد الله الأحد الصمد الذي ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص : ٣ - ٤] ، وكبّره الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، وامتلأ الجامع ، وسالت لِرقّة القلب المدامع ، ولمّا أذّن المؤذنون للصلاة قبل الزوال ، كادتِ القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال »[2] .

وجلس الفقهاء في مجالس الرهبان ، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله

---

(١) الذي أعده نور الدين محمود زنكي ، فقد كان يرجو أنْ تُفتح القدس على يديْه ، فعاجله الموت ، عامَلَه الله بحسن نيّته .

(٢) تحت الطبع كتاب لي في فضل القدس وشرفها ، وكتاب آخر في حوادث رجب ، وفيه نصّ خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي ، التي قالها في ذلك اليوم .

المقدس أبواب الجِنان ، وتزاحم الخارجون من البلد - من الفرنج والنصارىٰ - في دخول أبواب النيران ، وصَلّى محارب الدين في المحراب ، ورفع الملائكة ما كان تكاثَف بأنفاس الكفر من الحجاب ، وغُسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض كغزارة الأمواه ، وقُبِّلت بالشفاه ، وبُوشرت بالأفواه ، وطُهِّرت بأهل العلم والحلم مِن أدناس الجهل والسِّفاه :

جندُ السماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ ... مَن شكَّ فيهِ فهذا الفتحُ بُرْهَانُ

هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وَمَا ... لها سِوىٰ الشكْر بالأفعالِ أثمانُ

تسعونَ عامًا بلاد اللهِ تصرخُ والْـ ... إسْـلامُ نُصّـاره صُمٌّ وعُميانُ

فالآنَ لبّىٰ صلاحُ الدينِ دعْوتَهُمْ ... بأمْرِ مَنْ هـو للمعـوانِ مِعْوانُ

في نصفِ شهرٍ غدا للشركِ مُصْطَلِمًا ... فطُهِّـرَتْ منهُ أقطـارٌ وبلـدانُ

وقال الجليّاني عن صلاح الدين :

فلوْ رآكَ وقد حُزْتَ العلا عمرُ ... في قُلّةِ التَّلِّ قَضَّى كُنْه عَبْرتِهِ

ولوْ رآكَ وأهلُ القدسِ في وَلَهٍ ... أبو عبيدةَ فـدّىٰ مِن مَســرَّتِهِ

غداةَ جَزُّوا النواصي في قمامتِهِ ... وأعْوَلُوا بالتّباكي حوْلَ صخْرتِهِ

دارتْ بكَ المِلَّةُ الحسْنَىٰ فَنحنُ علىٰ ... عَهْدِ الصحابةِ في استمرارِ مرّتِهِ

فُتوحاتٌ بعد فتْح القدس :

كان الجهاد قد غلب على السلطان ، فلم يستقرّ في القدس إلا قليلا ، ثم بدأ جولةً أُخرىٰ من الفتوحات ، فأتمّ فتح صيدا وبيروت ، وجبلة ، واللاذقية ، وحصـن صهيون ، وحصن بغراس ، ورجع بعدها إلى صفـد والكرك ففتحها ، ثم قلعة الشقيف . وفي ردة فعْلٍ صليبيةٍ شديدة حاولوا استرجاع عكا ، فحاصروها من جهة البحر ، فأسرع السلطان إليها ووقف بإزائهم ، فكانت الإمدادات تأتي الصليبيين من جهة البحر بشكلٍ دائم ،

فاضطُرّ السلطان والمسلمون لمصابرتهم ستةً وثلاثين شهرًا (رجب ٥٨٥ – شعبان ٥٨٨) ، وفي هذا الحصار ظهرت شخصية صلاح الدين العظيمة ، ثلاث سنوات وهو في حالة قتالٍ وتأهُّب واستعداد .

قال ابن شداد : « كان السلطان يُعاني هذه الأمور بنفسه ، ويصافحها بذاته ، لا يتخلّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شِدّة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثَّكْلَى . ولقد أخبرني بعض أطبّائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلَّا شيئًا يسيرًا لفرْطِ اهتمامه »[1].

فانظرْ إلى الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة شيءٌ .

ولله دَرُّ صلاح الدين وهو في مصافِّه الأعظم على عكا ، وهو يأمر « الجاويش أنْ ينادِيَ في الناس : « يا للإسلام ، وعساكر موحّدين » ، فركب الناس ، وقد باعوا أنفسهم بالجنة »[2].

ويُورد أبو شامة من عُلوّ همّته : « قال القاضي : وكان لا بد له من أن يطوف حوْل العدو كلَّ يوم مرةً أو مرتين ، إذا كنا قريبًا منهم ، وكان إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفَّيْن ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، يُرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم ، والوقوف في مواضع يراها ، وكان يُشارف العدوَّ ويجاوره ، ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفّين ، وذلك أني قلتُ له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، وما نُقِل أنه سمع بين الصفّين ، فإنْ رأى المولى أنْ يُؤْثَر عنه ذلك ، كان حسنًا ، فأذِنَ في ذلك ، فأحضر جزءًا هناك من له بسماع ، فقُرئ عليه ، ونحن على ظهور الدّوابّ بين الصفَّيْن ، يمشي تارة ويقف

---

(١) « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » للقاضي بهاء الدين بن شداد صـ ١٠٧ .

(٢) النوادر السلطانية صـ ١٠٩ .

أُخرىٰ ، وما رأيتُهُ استكثر العدو أصلًا ، ولا استعظم أمْرهم قطّ ، وكان مع ذلك يذكر بين يديْه الأقسام كلها في حال الفكر والتدبير ، ويُرتِّب على كل قسمٍ مقتضاه ، من غير حِدَّةٍ ولا غضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا ، حتى القلْب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعَلَم ، وهو ثابت القدَم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجّلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى عكر المسلمون على العدو في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهَاء سبعة آلاف ، ما بين راجل وفارس »[١] .

قال ابن شداد : « وكان رحمه الله من عظماء الشجعان ، قوي النفس شديد البأس ، لا يَهُوله أمر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الإفرنج نيِّف وسبعون مركبًا على عكا ، وأنا أَعُدّها مِن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلَّا قوة نفس » . وخلال هذا الحصار الطويل جرت وقعاتٌ كبيرة بينه وبين الفرنجة ، وانتصر فيها ، ولكنّ الإمدادات كانت تتوالى مِن أوربّا عن طريق البحر ، وصابَر الفريقان مصابرة عجيبة ، وكان القتال يتمّ يوميًّا أحيانًا وفي البرّ والبحر ، وفي هذا الحصار استنجد صلاح الدين بملك المغرب أمير دولة الموحِّدين فرفض المساعدة ؛ لأنه لم يذكر في رسالته : « أمير المؤمنين » !! وفي نهاية هذه المعاناة مرض السلطان ، واضطُرّ للصلح مع الإفرنج ، وأخذوا عكا مرة ثانية ، وحاولوا أَخْذ يافا ولكنهم لم يفلحوا ، وعاد السلطان إلى القدس يرتّب أمورها ، ويصلح مِن سورها ، « وكان رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته . من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر »[٢] .

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١٢ / ٧٤ .

شَغَفُهُ بالجهاد :

« قال القاضي ابن شداد : كان رحمه الله شديدَ المواظبة على الجهاد ، عظيمَ الاهتمام به ، ولو حلف حالِف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلَّا في الجهاد أو في الإرفاد ، لَصَدَقَ وبرّ في يمينه ، ولقد كان الجهاد وحبُّه والشغَفُ به قد استولى على قلبه ، وسائِرِ جوانحه استيلاءً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلَّا فيه ، ولا نظر إلَّا آلَتَهُ ، ولا اهتمام إلَّا برجاله ، ولا ميل إلَّا إلى مَن يذكره ويحثُّ عليه ، ولقد هجر في محبَّة الجهادِ في سبيل الله أهلَه وأولادَه ووطنه ، وسكنَه وسائرَ مَلَاذّه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظلّ خيمة ، تهبّ بها الرياح يمنةً ويسرةً ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ ريّحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في المرج ، وإلَّا قتلتْهُ ، ولم يزده ذلك إلَّا رغبةً ومصابرة واهتمامًا ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثُّه على الجهاد ، أو يذكر له شيئًا من أخبار الجهادِ ، ولقد أُلِّفَ له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممّن جمع له فيه كتابًا ، ولأَحكينَّ عنه ما سمعتُ منه في ذلك : في سنة أربع وثمانين - لمّا ودّع أخاه وعسْكَرَ مصر بعسقلان - سرنا على الساحل طالبينَ عكّا ، وكان الزمان شتاءً عظيمًا ، والبحر هائجًا هيجانًا عظيمًا ، وموجُه كالجبال كما قال الله ، وكنت حديثَ عهدٍ برؤية البحر ، فعظُم أمْرُ البحر عندي ، حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر : لوْ جُزْتَ في البحر ميْلًا واحدًا ملّكتُك الدنيا ، لَمَا كنت أفعل ، واستخففتُ رأْي من يركب البحر رجاءَ كسْب دينار أو درهم ، هذا كلّه خطر لي ، لعِظَمِ الهوْل الذي شاهدتُه من حركة البحر وتموُّجِهِ ، فبينا أنا في ذلك ، إذ التفتَ إليّ ، وقال : في نفسي أنّه متى يسّر اللهُ تعالى فتْح بقية الساحل ، قسّمتُ البلاد ، وأوصيتُ وودّعتُ ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره أَتبعهم فيها ، حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله ، أو أموت . قال :

فعظم وقْع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان يَخطر لي ، وقلتُ له : ليس في الأرض أشجع نفسًا من المولى ، ولا أقوىٰ نيّة منه في نصرة دين الله ، وحكيتُ له ما خطر لي ، ثم قلتُ له : ما هذه إلا نيّة جميلة ، ولكنّ المولى يُسيّر في البحر العساكر وهو سور الإسلام ، ولا ينبغي أنْ يخاطر بنفسه . فقال : أنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله . فقال : « غاية ما في الباب أنْ أموت أشرفَ الميتات » . قال : فانظرْ إلى هذه الطويّة ، ما أطهرها ! وإلى هذه النفس ، ما أشجعها وأجسرها ! اللهمّ إنّك تعلم أنّه بذل جهده في نصرة دينك رجاءَ رحمتك ، فارحمْه »[1] .

ويكتب للخليفة العباسي : « وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكفُّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة للخليفة : هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ، واللهُ العالمُ أنَّه لا يقاتل لعيْشٍ ألْيَنَ من عيشٍ ولا لِغَضبٍ يملأ العيان »[2] . وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس ، « ولو رأيتَه وهو يحمل حجرًا في حِجْره ، لعلمت أنّ له قلبًا قد حمل جبلًا في فكْره »[3] . وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنىٰ له دارًا ، فغضب عليه ، وقال : إنّا لم نُخلَق للمقام في دمشق ولا بغيرها ، وإنما خُلِقنا للجهاد .

كتب إليه الأنكتار الملعون صاحب عكا : « إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخُربتِ البلاد ، وخرجتْ من يد الفريقَيْن بالكليَّة ، وقد تلفتِ

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١١ .
(٢) الروضتين ٢ / ٤٨ .
(٣) الروضتين ٢ / ١٩٦ .

الأموال والأرواح من الطائفتَيْن ، وقد أخذ هذا الأمر حقّه ، وليس هناك حديث سوىٰ القدس والصليب والبلاد ، والقدس فمُتعبّدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبقَ منَّا واحدٌ ، وأمّا البلاد فيُعاد إلينا منها ما هو قاطِع الأردن ، وأمّا الصليب فهو خشبة ، لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ، ونصْطَلِح ونستريح من هذا العَناء الدائم » . ووقف السلطان رحمة الله عليه على هذه الرسالة ، واستدعى أرباب المشُورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك ، والذي رآه السلطان رحمه الله في جواب ذلك أنْ قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ممّا هو عندكم ؛ فإنه مَسْرىٰ نبيِّنا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أنْ ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفُّظ بذلك بين المسلمين ، وأمّا البلاد فهي لنا أيضًا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئًا عليها ، لضعف مَن كان بها مِن المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حَجَر منها ما دام الحرب قائمًا ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأمّا الصليب فهلاكُه عندنا قربَةٌ عظيمة ، ولا يجوز لنا أنْ نفرّط فيها ، إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام ، هي أوْفىٰ منها »[1].

وكلمات صلاح .. يوسف أحلامنا ، نهديها للأقزام الذين سقطوا في الوَحْل :

بيروتُ في اليمّ ماتَتْ قُدسُنَا انتحرتْ ... ونحنُ في العارِ نسقي وحْلَنا طِينا
أيُّ الحكايا ستُروىٰ عارُنا جَلَلٌ ... نحنُ الهوانُ وذُلُّ القُدْسِ يَكْفينا
القدسُ في القيْدِ تَبكي مِن فوارِسِهَا ... دمعُ المنـابرِ يشكُـو للمُصلِّينَا
حُكّامُنا ضيّعونا حينما فَسَقُوا ... باعُوا المآذنَ والقرآنَ والدِّينا

---

(١) النوادر السلطانية صـ ١٩٤ .

أعداؤُنا مَن أضاعوا السَّيفَ مِن يَدِنَا وأوْدَعونا سُجونَ اللَّيلِ تطوينا
أقزامُنَا مَن توارَىٰ صوتُهم فزعًا والأرضُ تُسْبَىٰ وبيروتٌ تُناديِنا
قُمْ مِن ترابِكَ يا ابنَ العاص في دَمِنا ثأْرٌ طويلٌ لهيبُ العار يكْوينا
قُمْ يا بلالُ وأذِّنْ صَمْتُنَا عَدَمٌ كلُّ الذي كانَ طُهرًا لم يَعُدْ فينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُعيدُ السيفَ في يَدِنَا أو تبْتُروها فقدْ شُلَّتْ أَيادينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُداوي جرْحَ أمَّتِهِ ويُطلِعُ الصبحَ نارًا مِنْ ليالينا
هَلْ مِن صَلاحٍ لِشَعْبٍ هدّهُ أَمَلٌ ما زالَ رَغْمَ عنادِ الجرْحِ يَشفينا
جرحي عنيدٌ وجرحي أنتَ يا وطني جئْنا نُداويك تأبَىٰ أنْ تدَاوينا
إنّي أرَىٰ القدْسَ في عينَيْكَ ساجِدةً تبكي عليْكَ وأنتَ الآنَ تَبكينا
ما زالَ في العَيْنِ طَيْفُ القْدسِ يَجْمَعُنَا لا الحلمُ ماتَ ولا الأحزان تُنسينا

صبْرُه واحتسابُه في الجهاد :

يقول القاضي ابنُ شدّاد : « لقد رأيتُه رحمه الله بمرج عكّا ، وهو على غايةٍ مِن مرضٍ اعتراه ، بسبب كثْرة دماميل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيْه ؛ بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنّما يكون مُتّكِئًا على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع مِن مدّ الطعام بين يديْه لعجْزه عن الجلوس ، وكان يأمر أنْ يُفرَّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبًا من العدو ، وقد رتّب الناسَ ميمنةً وميسرةً وقلبًا؛تعبيةً للقتال ، وكان مع ذلك كلِّه ، يركب من بكْرةِ النهار إلى صلاةِ الظهر يطوف على الأطلاب[1] ، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابرٌ على شدة الألم وقوّة ضربان

(١) جمع طلب ، وهو لفظٌ فارسي ، معناه : الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويُطلَق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام ، أيّامَ صلاح الدين .

الدّمامل ، وأنا أتعجّب من ذلك ، فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمُها حتى أنزل ، وهذه عناية ربّانيّة .

ولقد مَرِض - رحمه الله - ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن « تلّ الحجل » بسبب مرضه ، فبلغ الإفرنجَ ذلك ، فخرجوا طمعًا في أنْ ينالوا شيئًا من المسلمين بسبب مرضه ، وهي نوْبة النهر ، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ ، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا ، فركِب رحمه الله على مَضَضٍ ، ورتّب العسْكر ، وجعل أولاده في القلب ، ونزل هو وراءَ القوم بطلبه ، وكلّما سار العدو يطلب رأس النهر ، سار هو يَستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعةً ثم ينزل يستريح ، ويُظَلّل على رأسه بمِنْديلٍ من شدّة وقعْ الشمس ، ولا يَنصبُ له خيمة حتى لا يُري العدوَّ ضعفًا ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قُبالتهم على تلٍّ مُطِلّ عليهم ، إلى أن دخل الليل ثم أمر العسكر أن تعود إلى مَحِلّ المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخّر هو إلى قمّة الجبل ، وضُربت له خيمة لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرّضه ونُشاغله ، وهو ينام تارةً ويستيقظ أُخرىٰ ، حتى لاحَ الصباح ، ثم ضرب البُوق ، وركِب رحمه الله ، ورَكِبَتِ العساكر ، وفي ذلك اليوم قدّم أولادَه بين يديْه احتسابًا ، الملك الظاهر والمَلِك الظافر وجميع مَن حضره منهم ، ولم يزل يبعث مَن عنده ، حتى لم يبقَ عنده إلّا أنا والطبيب ، وعارِض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلامُ والبَيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بُعد أنّ تحتها خَلْقًا كثيرًا ، وليس تحتها إلا واحد ، بخُلُقٍ عظيمٍ ، رحمه الله .

فانظرْ إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أيِّ غاية بلغ هذا الرجل ، اللهمّ إنّك ألهمْتَه الصبر والاحتساب ووفّقتَه له ، فلا تحرمْه ثوابَه ، يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيتُه ليلةً على صفد ، وهو يحاصرها ، وقال : لا ننام الليلة حتى تُنصبَ لنا خمسةُ مجانيقَ . ورتّب لكلِّ منجنيق قومًا يتولَّوْن نصْبه ، والرسل تتواصل مُخبرةً بأنه نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن الآخر كذا ، حتى أتى الصباحُ وقد فرَغ منها ، وكانت مِن أطول الليالي ، وأشدِّها بَرْدًا ومطرًا .

وكان رحمه الله شديدَ الشَّغَف والشَّفَقة بأولاده الصغار ، وهو صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابرًا على مرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامَّة على غير ذلك ، احتسابًا لله تعالى . اللهمّ إنّه ترك ذلك كلَّه ابتغاءَ مرضاتك ، فارضَ عنه وارحمه »[1].

قال ابن شدّاد : « ولم يُخلّف السلطان أموالًا ولا أملاكًا ؛ لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه ، ولم يُخلِّفْ في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا ، وكان مُتقلِّلًا في ملْبسه ومأكله ومركبه » .

مات صلاحُ الدين ، « وما مُكِّنوا أنْ يُدخلوا في تجهيزه ما قيمتُه حبةٌ واحدة إلَّا بالقَرْض ، حتى في ثمن التبن الذي يُلَتُّ به الطين » ، وعظُم بكاءُ الناس ، حتى إنّ العاقل يتخيّل أنَّ الدنيا كلها تصيح صوتًا واحدًا ، وغَشيَ الناسَ من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة .

قال القاضي ابن شدّاد عن يَوْم موت صلاح الدين : « كان يومًا لم يُصَبِ المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقِدَ الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلَّا الله ، وباللهِ لقد كنتُ أسمع من

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤ - ٢٧ .

بعض الناس أنّهم يتمنَّوْن فداءَ مَن يعزّ عليهم بنفوسهم ، وما سمعتُ هذا الحديث إلّا على ضرب من التجوُّز والترخُّص إلا ذلك اليوم ؛ فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبل « الفِدَاءُ » ، لَفُدِي بالنفس »[1].

قال ابن شداد : « وَذُكِرَ أنه دُفن معه سيفُه الذي كان معه في الجهاد ، وكان ذلك برأي القاضي الفاضل . قال : هذا يتوكَّأُ عليه في الجنَّة »[2].

فأينَ صلاح ... « واقدساهُ .. ولا صلاحَ لها » :

أينَ الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأْسِهِ ... ذُلًّا ومنها أُدرِكَتْ ثاراتُهُ
مَنْ في الجهادِ صفاحُهُ ما أُغمِدَتْ ... بالنصرِ حتَّى أُغمِدَتْ صَفَحَاتُه
لَذَّ المتاعبَ في الجهادِ ولم تكنْ ... مُذْ عاشَ قطُّ لِذَاتِهِ لَذّاتُهُ
مسعُودَةٌ غَدَواتُهُ محمودةٌ ... رَوْحاتُهُ مَيْمونةٌ ضحواتُه
في نُصْرَةِ الإسلامِ يسْهَر دائبًا ... لِيطول في رَوْضِ الجنانِ سُباتُهُ[3]
لا تحسبُوهُ ماتَ شخصٌ واحدٌ ... فمماتُ كلِّ العالَمين مماتُهُ
مَن لليتامىٰ والأرامِلِ راحِمٌ ... متعطِّفٌ مَفْضُوضَةٌ صَدَقاتُهُ
وكعادةِ البيتِ المقدَّسِ يَحْزَنُ الْـ ... ـبيْتُ الحرامُ عليهِ بلْ عَرَفَاتُهُ
بكتِ الصَّوَارِمُ والصواهِلُ إذْ خَلتْ ... مِنْ سَلِّهَا ورُكُوبِها غَزَوَاتُهُ
والقدسُ طامحةٌ إليك عُيُونُهُ ... عَجِّلْ فقد طمحتْ إليه عِداتُهُ

المدنُ والحصونُ التي فتَحها صلاحُ الدينِ من ديار الفرنج :

لَممتْ طيوفُ الذكرياتِ بخاطري ... من الدارِ .. منْ أهلٍ .. مِنَ الزَّهَراتِ

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) عيون الروضتين ٢ / ٢٩٠ .
(٣) أي راحته ، فلَا نوم في الجنة .

مِنَ الصدقِ موْصولًا مع الدهرِ لُؤْلُؤًا ... حُلّي صلاحٍ أو حلّي كماةِ
نقيًا بأعطافِ الجهادِ مباركًا ... على السَّاحِ مِن نورٍ ومن نَفَحاتِ
جمعتْ بها التاريخَ قَبْلَ جَفافِهِ ... وَقَبْلَ ذبولِ العُودِ والغرساتِ
جمعتْ بها التاريخَ ساحًا ومنزِلًا ... وأزمنةً موصولةَ الحَلَقاتِ
فواعجبًا للدّارِ كيفَ تقطَّعتْ ... حدودًا ومادتْ في أسًى وشَتاتِ
أَمُرُّ بها ذكرىٰ فلا الدارُ دارُهَا ... ولا حُجُراتُ العِزِّ بالحُجُراتِ
فيا وقفةَ التاريخ يَسكبُ دمعَهُ ... يُودّعِ مِن ساحاتِهِ الخَضِراتِ
فيا قدسُ هلْ أبقيْتِ دمعًا لنائحٍ ... حَنانَيْكِ مِن شوْقٍ ومِن عَبَراتِ

قال القاضي ابن شدّاد : « ذكْر المدنِ والحصون التي يسّر اللهُ فتْحها على يديه - رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - خَذَلَهم الله - من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ستٍ وثمانين :

(١) طبريّة : على بحر الأردن ، بالسيف (٢) عكا : على البحر الكبير ، بالأمان (٣) حيْفا : على البحر ، بالأمان (٤) الناصرة : التي تنسب إليها النصارىٰ (٥) الرملة (٦) قيسارية : بالسيف (٧) أرسوف : بالأمان (٨) يافا : بالسيف (مدينتها) (٩) عسقلان : بالأمان (١٠) غزّة : بالأمان (١١) الداروم (١٢) صيدا : على البحر (١٣) بيروت : بالأمان (١٤) جُبيل (١٥) هونين (١٦) جبليّة (١٧) تبنين (١٨) أنطرسوس: (دون أخذ بُرْجها) بالسيف (١٩) جبلة: مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢٠) اللّاذقية : مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢١) السرفند (٢٢) مدينة القدس الشريف ، خلّصه الله تعالى (٢٣) نابلس (٢٤) البيرة : بأرض القدس (٢٥) صفورية (٢٦) الطور (٢٧) حصن دُبُوريّة (٢٨) الفُوله (٢٩) حصن عقربلا (٣٠) حصن جينين (٣١) سفسطية (٣٢) كوكب (٣٣) حصن عفري : شماليّ القدس (٣٤) بيت لحم . (٣٥) حصن العازرية : بأرض القدس (٣٦) البرج الأحمر (٣٧) حصن

الخليل عليه السَّلام (٣٨) بيت جبرين (٣٩) تلّ الصافية (٤٠) حصن مجدل (٤١) يابا (٤٢) قلعة الحبيب الفوقاني (٤٣) الحبيب التحتاني (٤٤) النطرون (٤٥) الحصن الأحمر (٤٦) لُدّ : بأرض الرملة (٤٧) قلنوسة (٤٨) يُبنى (٤٩) القاقون (٥٠) القيمون (٥١) قلعة الكرك : بعد حصارٍ سنة ونصف (٥٢) قلعة الشوبك : بعد حصار سنتين (٥٣) قلعة السلع (٥٤) حصن يازور (٥٥) شقيف أرنوف (٥٦) حصن إسكندرونة : بين صُور وعكّا (٥٧) الوعيرة (٥٨) قلعة الجمع (٥٩) قلعة الطفيلة (٦٠) قلعة الهرمز (٦١) قلعة صفد (٦٢) قلعة أبي الحسن : بأرض صيدا (٦٣) صيدا : أيضًا (حصْن) (٦٤) المرقية (٦٥) حصن يحمور : بأرض عكا (٦٦) بلنياس : بين جبلة والمرقب (٦٧) صهيون (٦٨) بلاطنس (٦٩) حصن الجماهرية (٧٠) قلعة العيذد (٧١) بكّاس (٧٢) الشُّغر (٧٣) بكسرائيل (٧٤) السُّرمانية (٧٥) قلعة بُرزيّة (٧٦) درباك (٧٧) بُغراس : قريبًا من أنطاكية (٧٨) الدانور : بأرض بيروت (٧٩) السوفند : قريبًا من صيدا »[1].

فهلْ دَريْتَ الآنَ حُرْقةَ اللّنبي ... وقد أكلَ صلاحٌ كبدَهُ ؟ وهل دريتَ لِمَ انتشى اللّنبي ، وقال : الآنَ انتهتِ الحروبُ الصليبية ؟ وهل دريتَ لِمَ وقف « غورو » أمامَ قبرِ صلاح ، وركله بقدمه قائلًا : « ها قد عُدْنَا يا صلاحَ الدين » ؟

تكلَّمْ ... كأنَّ الغدرَ يهدرُ مِنْ فمٍ ... وتنطلقُ الأحقادُ مِن كلماتِ
فدوّى هنا يُنهي الصليبُ حروبَهُ ... ويُمضي فُنونَ الموتِ والفَتكاتِ
ويُمضي معَ الأيامِ نهْجَ إبادةٍ ... وخطةَ تمزيقٍ ووَأْدَ حياةِ
وهذي دمشقٌ والليالي تمدُّها ... مآتمُ أجيالٍ ونَعْيُ كُماةِ

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٨ .

أَعيدي صَدَىٰ « غورو » ووقفةَ فاجرٍ ... جَبانٍ وزيفَ المجدِ والدَّعَوَاتِ
وقفتَ على قبرٍ يضمُّ جدارُهُ ... جلالَ حياةٍ في جلالِ مماتِ
أَراعَكَ هذا القبرُ أَمْ راعَكَ الذي ... يضمُّ مِن الأحداثِ والوَقَعاتِ
حَسِبتَ الذي في القبرِ مَيْتًا .. وإنَّهُ ... شهيدٌ مضىٰ للهِ في وَثَباتِ
فهذا شهيدُ البِرِّ والحقِّ والهُدَىٰ ... على جَوْلةٍ للهِ أوْ خَطَراتِ
صدوقٌ .. إلى الرحمٰنِ صحّ وِثابُهُ ... وصحَّ يقينُ القلبِ والعَزَمَاتِ
يُرَوِّي الثرىٰ .. يمضي ويُسْكِب رَيَّهُ ... مِنَ الصدقِ عطْرًا .. ذَابَ في الخَلَجَاتِ
فخانَكَ مِن عزمِ الرجالِ عزيمةٌ ... ورُحْتَ ذليلَ الصوتِ والخُطُوَاتِ[1]
تُنادي صلاحَ الدينِ مهلًا فإنَّهُ ... يُدَوّي دَوِيّ السَّاحِ والحَلَبَاتِ
دَوِيًّا يَهُزُّ الأرضَ تحتَكَ هِزَّةً ... وينزعُ مِنْ جنبيْكَ أَيَّ ثَبَاتِ
نداؤُكَ كَيْدُ الظالمين وكِبْرُهُمْ ... وزَيْفُ حضاراتٍ وزَيْفُ دُعَاةِ
نداءُ جبانٍ جَاوَزَ الكبرُ جُبْنَهُ ... فخرَّ صريعَ الكِبْرِ والسَّكَرَاتِ
هُزِمتَ أمامَ القبرِ شرَّ هزيمةٍ ... كما هُزِمَ الأجدادُ في غَزَوَاتِ
نداءُ « صلاحَ الدين » مِلْءُ حواضرٍ ... ومِلءُ زمانٍ زاهرٍ بشُدَاةِ
أولئكَ إنْ شئْتَ الجدودُ فَسَلْهُمُ ... لعلَّكَ تلقىٰ الصِّدْقَ بَيْنَ رُفاتِ
جدودُكَ طوّاهُمْ ترابٌ وغيْهَبٌ ... وواراهُمُ التاريخُ في حُفُرَاتِ
أولئكَ سَلْهُم عن شِعَارٍ ورايةٍ ... وما زيَّفوا مِنْ جَوْهَرٍ وَسِمَاتِ
أحريَّةُ الإنسانِ خنقُ حَنَاجرٍ ... وزيفُ إخاءٍ في لهيبِ تِراتِ
وزيفُ مساواةٍ على جاهليَّةٍ ... مُؤَجَّجَةِ الأهواءِ والنَّزَوَاتِ
وَهذَا صلاحُ الدينِ مجدٌ مُؤَثَّلٌ ... على الصدقِ منشورٌ على صَفَحَاتِ

(١) يعني : « غورو » .

حسامُ الدين لُؤْلُؤ العادِلي ، الأسدُ الضّرْغام : يسير بالقيود إلى الفرنجة قبل لقائهم :

قال عنه الذهبي : « لؤلؤ العادلي الحاجب من أبطال الإسلام ، وهو كان المندوب لحرب فرنج الكرك الذين ساروا لأَخْذ طيبة ، أو فرنج سواهم ساروا في البحر المالح ، فلم يَسِرْ لؤلؤ إلّا ومعه قيودٌ بعددهم ، فأدركهم عند الفحلتيْن ، فأحاط بهم ، فسلّموا نفوسهم ، فقيّدهم ، وكانوا أكثر من ثلاثمائة مقاتِل ، وأقبل بهم إلى القاهرة ، فكان يومًا مشهودًا »[١].

لله دَرُّك مِن بطل ومن أمير ... تسير إلى أعدائك بقيودك بعددهم ، وأنت على يقين بأسرهم جميعًا !! هذه واللهِ البطولة والرجولة .

قال الذهبي : « خدم مع صلاح الدين ، وعُرِفَ بالشجاعة والإقدام ، وفي آخر أيامه أقبل على الخير والإنفاق في زمن قَحْط مصر ، وكان يتصدّق في كلّ يومٍ باثني عشرَ ألفِ رغيف ، مع عِدَّة قدورٍ من الطعام . وقيل : إن الملاعين التجئوا منه إلى جبل ، فترجَّل ، وصعِد إليهم في تسعة أجناد ، فأُلقي في قلوبهم الرعب ، وطلبوا منه الأمان ، وَقُتِلوا بمصر ، تولّى قتلهم العلماءُ والصالحون »[٢]. بل يُرسل منهم مَن يُذبح في مِنًى ... إي والله .

وللأقزام نقول : هذا حال من خدم مع صلاح الدين ... ومن كان أمير بحْرِه ... أصابته عدوىٰ الشجاعة والإقدام . من سيّده وموْلاه ... فهل تتطامن منكم الرؤوس الجوْفاء وكبْرها الزائف .. أمامَ خادِم صلاح الدين .

يقول العلّامة أبو شامة المقدسي في « عيون الروضتين » (٢ / ٩١ -

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٢) السير ٢١ / ٣٨٥ .

٩٥) ، في أحداث سنة ٥٧٩ هـ : « في شوّال مِن هذه السنة : كانت نصرة الأسطول[١] المتوجّه إلى بحر القلزم[٢] لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز ، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك ، لمّا صعُب عليه ما توالى عليه من نِكاية أصحابه المقيمين بقلعة أيلة - وهي في وسط البحر ، لا سبيل عليها لأهل الكفر - أفكر في أسباب احتياله له ، وفتح أبواب اغتياله ، فبنىٰ سُفنًا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثمّ ركّب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، ووقف منها مركبًا على جزيرة القلعة ، فمنع أهلها من استقاء الماء ومضىٰ الباقون في مراكب نحو « عيذاب » ، فقطعوا طريق التجّار ، وشرعوا في القتل والنهب والإسار ، ثم توجّهوا إلى أرض الحجاز ، وتعذّر على الناس وجه الاحتراز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبويّة منهم على خطر ، ووصل الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ، فأمر الحاجبَ حسام الدين لؤلؤًا ، فعمّر في بحر القلزم مراكبَ بالرجال البحريّة ذوي التجرِبة ، من أهل النخوة للدّين والحميّة ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجي عندها ، فحرق السفينة وأسر جندها ، ثمّ عدا إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ، ودُلّ على مراكب العدوّ ، فتبعها فوقع بها بعد أيّام ، فأوقع بها وواقعها ، وأطلق المأسورين من التجّار ، وردّ عليهم كل ما أُخذ منهم ، ثمّ صعِد إلى البرّ فوجد أعرابًا ، فركب خيلهم وراء الهاربين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك في أشهر الحجّ ، فساق منهم أسيرين إلى مِنًىٰ كما يُساق الهدْي ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارىٰ ، فكتب السلطان إليه بضرْب رقابهم ، وقطْع أسبابهم ، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ،

---

(١) بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، انظر الروضتين ٢ / ٣٥ .

(٢) أي : البحر الأحمر .

ولا أحد يَخبر طريق ذلك البحر أو يعرف . ومن كتابٍ عن السلطان إلى أخيه العادل بالإنشاء الفاضلي[١] :

« وصل كتابه المؤرّخ بخامس ذي القعدة ، المسفر عن المسفر من الأخبار ، المتبسّم عن المتبسّم[٢] من الآثار ، وهي نعمة تضمّنت نعمًا ، ونصرة جعلت الحرم حرمًا ، وكفاية ما كان الله ليؤخّر معجزة نبيّه ﷺ بتأخيرها ، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تُحُدِّث عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجب لؤلؤٌ فيها إلّا سهمًا أصاب ، وحُمد مُسدِّدهُ ، وسيفًا قطع وشُكر مجرِّدُهُ ، ورسولًا عليه البلاغ ، وإن لم يُجهل ما أثرته يده ، وقد غَبْطناه بأجر جهاده ، ونجْح اجتهاده ، ركب السبيلْين برًّا وبحرًا ، وامتطى السابقيْن مركبًا وظهرًا ، وخطا أوسعَ الخطْوَ وغزا ، فأنجح الغزو ، وحبّذا العنان الّذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكسرة أنفق » . ومن كتابٍ آخر إلى بغداد[٣] : « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرًا ، وافتضّوا من البحر بِكرًا ، وعمّروا مراكب حربية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١ / ٤٩٠ - ٤٩١ ، والروضتين ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

(٢) تبسّم : هو أقلّ الضّحك وأحسنُه .

(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٣٧ . ولا بدّ لنا من لَفْتِ نظر القارئ إلى أن القاضي الفاضل في كتابه هذا إلى بغداد ، قد عقد مقارنة بين محاولة أبرهة الحبشي الاستيلاءَ على مكة وتدمير الكعبة الشريفة ، وإلى ما أصابه وجيشَه مِن غضب الله تعالى ، وذلك في القرن السادس الميلادي - وبين ما يحصل في القرن الثاني عشر للميلاد ، ومحاولة الصليبيين الاستيلاء على البحر الأحمر والموانئ الهامّة للسيطرة على الموانئ الهامّة على سواحل اليمن والحجاز ، واستباحة الأماكن المقدسة والسيطرة على تجارتها .

في البلاد ، واشتدّت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة ، لمّا أومض إليهم من خلل العواقب ، وما ظنّ المسلمون إلّا أنّها الساعة ، وقد نُشر مطويُّ أشراطها ، والدنيا قد طُوي منشور بِساطِهَا ، وانتُظِرَ غضب الله لغناء بيته المحرّم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيّه الأعظم ﷺ ، ورجوا أن تشحذ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت ، إذْ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبَهم ونعمَ الوكيل ، وكان للفرنج مقصدانِ : أحدهما : قلعة أيلة الّتي هي على فوّهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر : الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين ، فأمّا الفريق الّذي قصد قلعة أيلة فإنّه قدّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الّذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، وأمّا الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن ، فقدّر أن يمنع طريق الحاجّ عن حجّه ، ويحول بينه وبين فَجّه ، ويأخذ تجّار اليمن ، وكارم عدن ، ويلمّ بسواحل الحجاز ، فيستبيح - والعياذ بالله - المحارم ، ويُهيّج جزيرة العرب لعظيمة دونها العظائم ، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمّر مراكب وفرّقها على الفرقتين ، وأمرهم بأنْ تطوي وراءهم الشقتين ، فأمّا السائرة إلى قلعة أيلة ، فإنّها انقضّت على مُرابطي الماء انقضاضَ الجوارح على بناتِ الماء ، وقذفتها قذفَ شُهُبِ السماء مُسْتَرِقِي سمعَ الظَّلْمَاء ، فأخذت مراكب العدوّ برُمتها ، وقتلت أكثر مُقاتِلتها ، إلّا من تعلّق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإنّ العربان اقتصّوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ، فلم ينجُ منهم إلّا مَن ينهي عن المعاودة ، ومَن قد علم أنّ أمر الساعة واحدة ، وأمّا السائرة إلى بحر الحجاز ، فتمادتْ في البحر الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء ، فأخذت تجّارًا وأخافت رفاقًا ، ودلّها على عورات البلاد - مِن الأعراب - مَن هو

أشدّ كفرًا ونفاقًا ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأُخذت المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ، ومقاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شلًّا ، ويقتنصونهم أسرًا وقتلًا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلًا ورجلًا نهارًا وليلًا ، حتى لم يتركوا عنهم مخبرًا ، ولم يُبقوا لهم أثرًا ، ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا** ﴾ [الزمر : ٧١] ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسرى » . اهـ .

السُّلطانُ محمد بن مراد الفاتحُ .. فاتحُ القسطنطينيّة :

أنْعِم به من فاتح ! المجاهد العظيم محمد بن مراد بن محمد جلبي بن بايزيد ، الذي رفع راية الإسلام فوق أسوار القسطنطينية ، ولمّا يُكْمل الثالثة والعشرين مِن عمره .

مواقفُ بطولةٍ تدكُّ بعزَمَاتِهَا صُروح الجاهلية الصليبية ، تنكِّس راياتهم ، وتهدِّم ناقوسَهم وأحلامهم ، وتزلزلُ الأرض من تحت أقدامهم ...

مَن كان يظنُّ أنَّ هذا الغلام المبارك ، الذي وُلِدَ في ليلة السابع والعشرين مِن رجب عام ٨٣٥ هـ سيفتح القسطنطينية في الثلاثاء الموافِق العشرين من جمادى الأول عام ٨٥٧ هـ .

لقد كان فتح القسطنطينية أملًا يملك على السلطان محمد الفاتح كلَّ مشاعِره منذ كان فتًى ، ولَشدُّ ما كان يُمضي مع أستاذه ومربِّيه العالم الجليل الشيخ أق شمس الدين ساعاتٍ طوالًا ، يذاكره في الحديث الشريف : « لَتُفْتحنَّ القسطنطينية ، فلَنِعم الأمير أميرها ، ولَنعم الجيش جيشها »[1] .

---

(١) رواه البخاري في تاريخه والحاكم في المستدرك عن بشر الغنوي ، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم ٨٨٢ ، وضعيف الجامع رقم (٤٦٥٨) .

وكان التفكير بفتح القسطنطينية يكبر في نفس الفتى يومًا بيوم ، وأصبح فتْحُ القسطنطينية قمةَ طموحِ الفتى المؤمن ، وفي هذا الصدد يروي إسماعيل حامي « دنشمند » أنّ الفاتح كان يُمضي ساعاتٍ طويلة في كلّ ليلة – منذ أول يوم اعتلى فيه عرش السلطنة – في دراسة خريطة للقسطنطينية توضّح جميع نقاط الدفاع الإستراتيجية للبيزنطيين ، ونقاط الضعف في أسوارها .

وكان السلطان رحمه الله يُحيط جميع خُططِه ونواياه بالسِّرِّيَّة المطلقة ، وتراءىٰ للسلطان البَدْءُ في بناء قلعة ضخمة على الشاطئ الأوربيّ من البوسفور ، وقام بنفسه باختيار موْقعها ، وشارك بنفسه في أعمال البناء وأطلق عليها اسم « روملي حصار » ، أي : قلعة الروم ، وسيطر بها على مدخلي البوسفور من شاطئيْه : الأسيويّ والأوربي ، وضمن العثمانيون منع وصول أية إمدادات إلى القسطنطينية ، وخاصّةً مِن مملكة ترابزون النصرانية ، وأصبح على كلّ سفينة تريد العبور من البوسفور أن تخضع لتفتيشٍ دقيق ، وأن تدفع رسْمًا مقابل السماح لها بالعبور .

وأَقَضَّ الهَلَعُ مضاجع الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر إمبراطور القسطنطينية ، فبعث يستنجد ببابا روما ودُول أوربا النصرانية ، وبعث برسالةٍ إلى بابا روما يُنْذره فيها بأنه إذا سقطت القسطنطينية في يد المسلمين ، فإنّ هدفهم التالي سيكون روما مركز البابوية . وأبدىٰ الإمبراطور قُسطنطين استعداده للموافقة على توحيد كنيسته الأرثوذكسية بالكنيسة الكاثوليكية تحت زعامة البابا ، مقابل تعهُّد البابا بنجدته ، وبلغ الذُّعر به أنْ جَثَمَ بين يدي الكاردينال « ايزيذور » الكاثوليكي ، طالبًا بركته في القسطنطينية ، مركز الكنيسة الأرثوذكسية .

وأعلن السلطان محمد الفاتح في أحد أيام شهر جمادى الأول سنة ٨٥٦ هـ الحرب على الدولة البيزنطية ، ومنذ ذلك اليوم بدأ السلطان محمد

الفاتح في تشديد حصاره حول القسطنطينية ، وحين تيقّن أنّ الحصار أصبح مُحْكَمًا ، عاد إلى « أدرنة » لِيمضي فيها موسم الشتاء ، وفي تلك الأثناء كان السلطان يُشرف بنفسه على صنْع مدفع ضخمٍ لم يسبق لأحد أنْ صنع شبيهًا له .

ووضع البيزنطيون السلاسل الحديدية في خليج « إستنبول » ، لمنع السفن الحربية العثمانية من الاقتراب من أسوار القسطنطينية من تلك الجهة .

وفي الخامس والعشرين من شهر ربيعٍ الأول عام ٨٥٧ بدأت طلائع الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الفاتح في الوصول إلى مشارف القسطنطينية ، وكان عدد أفراد ذلك الجيش بين مائةٍ وخمسين ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أدنى ، ومائتي ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أعلى . وبدأ الجيش زحْفه ، وسيطرت على رجاله فكرة الجهاد في سبيل الله والشهادة ، وألهب مشاعرَ الجنود تكبيرُ المئات من العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ أق شمس الدين والشيخ القوراني ، والشيخ خسروي . وكان على الميمنة : إسحاق باشا ، حيث يقع الباب العسكري ، وعلى الميسرة : « دايي كراجا » باشا ، حيث يقع باب أدرنة ، وعلى القلب : السلطان محمد الفاتح باتجاه باب المدفع ، وتمركز « زاغنوس » باشا على رأس قوةٍ فوق المرتفعات المشرِفة على منطقة « قلطة » ، لضمان عدم قيام الجنْويين بنجدة القسطنطينية .

وفي اليوم الثاني من ربيع الآخر ، بدأتِ المدافع العثمانية في دكّ أسوار القسطنطينية ، واستمرّت في ذلك بدون انقطاع لمدة ثمانيةٍ وأربعين يومًا ، ولم تتوقّف إلَّا عندما أزف موعد الهجوم الأخير .

وبدأت السفن الحربية العثمانية بقيادة « بالطا أوغلو سليمان » بك عملياتها العسكرية ، فسيطرت على جزيرة « برينكيبوس » الحصينة .

وفي الثالث عشر من ربيع الآخر فُوجِئ المدافعون عن القسطنطينية بأمرٍ لم يكن يخطر لهم على بالٍ أبدًا ؛ فقد كانت حوالي ثمانين سفينة حربية عثمانية تتمركز داخل مياه خليج القسطنطينية ، وظَنَّ قسطنطين وقادته أنّ العثمانيين قد نجحوا في تحطيم السلاسل الحديدية ، التي كانوا قد أغلقوا بواسطتها مدخل الخليج لمنع أيِّ سفينة عثمانية مِن العبور ، ولكنْ سرعان ما جاءتهم الأنباء تؤكّد سلامة السلاسل ، فتملّكتْهم الدهشة ، وانعقدتْ ألسنتهُم من العجب ، ولئن كان الخوف والهَلَع قد عقد ألسنة نصارىٰ القسطنطينية ، وشلّ تفكيرهم ، فجعلهم ينسبون وجود السفن العثمانية داخل الخليج إلى معجزة وهمية - فإنّ حماس السلطان الفاتح ، وصِدْقَ جهاده ، وعلوّ همّته ، قد كشفا عن بصيرته ، وفجّرا كَوَامِن عبقريته ، فابتدع طريقةً لإيصال السفن إلى داخل الخليج ، لا تكاد تخطر على بال ؛ وهل يخطر على بالِ أحد أنَّ السفن يمكن أنْ تمخر عُبَاب « الأرض » مثلما تمخر عباب الماء ؟! ذلك أنَّ السلطان محمد الفاتح - أنعِم به مِن فاتح - قد حطَّم ما ألفه الناس ، وأصرَّ على أنْ تمخر سفُنه عبابَ الأرض لمسافةٍ تزيد على ستة أو ثمانية أميال .

وكانت الطريقة التي اتُّبِعَتْ في تنفيذ تلك الفكرة العبقرية ، تعتمد على رصِّ الآلاف من جذوع الأشجار الضخمة في صفوف منتظمة على طول الطريق ، وسَكْب أطنان من الدهن والزيت فوقها ، لتسهيل عملية انزلاق السفن فوق هذا الجسر الخشبي ، وشارَك بضعةُ آلاف جنديٍّ مسلم في عمليات سَحْبِ السفن فوق الجسر ، وأُوكل إلى مجموعات أُخرىٰ مهمةُ رَبْطِ السفن من جميع جوانبها بحبال متينة ، لضمان توازنها أثناء سحبها ، فإذا مالت أثناء الطريق إلى جهة ، سارع المُمْسكون بالحبال من الجهة المعاكسة بشدِّ حبالهم ، فتستوي السفينة من جديد . وتمكّن المسلمون

في ليلة واحدة من نَقْلِ ثمانين سفينةً ، حتى إذا وصلوا إلى هدفهم ، أنزلوها في مياه الخليجِ ، وامتطَوْها بينما أصواتهم تهدر بالتكبير .

وقام السلطان طوَال يومي ١١ ، ١٢ ربيع الآخر بقصف السفن الحربية البيزنطية المتواجدة في الخليج ، بغية جعلها في حالة من الخراب ، لا تستطيع معه التصدّي للسفن العثمانية عندما يتمّ إنزالها إلى مياه الخليج ، كما قام في نفس الوقت بقصْف أسوار القسطنطينية بكثافة ، وذلك بغية إشغال البيزنطيين طوال الوقت الذي يقوم في أثنائه بسحب السفن ، عبر الطريق البرِّي إلى مياه الخليج ، وأمر السلطان باستعمال مدفعٍ من اختراعه - أطلق عليه اسم « مدفع الهاون » - في قَصْف السفن .

واخترع السلطان بُرْجًا متحرّكًا ، يزيدُ ارتفاعه عن ارتفاع أسوار المدينة ، ويتألَّف مِن عدّة طبقات لدكّ أبراج باب المدفع .

وَصَحَتْ أوربا النصرانية من غفلتها ، وأرسل « هونياد » ملك المجر إلى محمد الفاتح أنّ نصارىٰ المجر سيكونون إلى جانب أبناء دينهم (نصارىٰ القسطنطينية) ، فلم يردَّ السلطان محمد الفاتح إلَّا بأنْ أخذ موفدَهُ إلى مواقع المدافع العثمانية ، وأشار إليها قائلًا : قل لسيدكَ : هذا هو جوابي .

وفي يوم التاسع عشر من جمادى الأول ، بعث السلطان بعشَرات المُنادين ليجُوبوا صفوف الجند ، مُعلنين أنّ السلطان قد أمر بالاستعداد لشنّ الهجوم الفاصل ضدَّ أعداء الإسلام ، وأنه قد أمر برفْع مقام جميع الذين يسبقون إلى اختراق أبواب المدينة إلى داخلها قبل غيرهم ، وأن تسجل أسماءُ هؤلاء السبّاقين إلى اختراقِ المدينة لمنْحهم أُعطياتٍ مُجزية ، تُجْرىٰ على نَسْلهم ما بقي للدولة العثمانية سلطان .

وأصدر السلطان أمره بعد الغروب بإيقاد نيران المشاعل في البر والبحر ، بينما كانت أصوات عشرات الآلاف تتصاعد في السماء ، بالتكبير والتهليل والدعاء والابتهال إلى الله .

وبدأ السلطان في صباح اليوم السابق لدخول القسطنطينية ، فنوىٰ الصيام وندب جنده إلى الصيام ، وبعد الإفطار دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه إلى الاجتماع ، وقال لهم : « إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية ، فسيتحقّقُ فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حظِّنا ما تضمّنه حديث رسول الله ﷺ من التقدير والتشريف ، فأبلغوا أبناءَنا العساكر فردًا فردًا أنَّ الظفر العظيم الذي سننجزه ، سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا . ويجب على كلّ جنديٍّ أنْ يجعل تعاليم شريعتنا الغرّاء نصْب عينيْه ، فلا يصدر عن أيّ واحدٍ منهم ما يُنافي هذه التعاليم ، وليتجنَّبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسُّوها بأذًى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون .

وفي صباح اليوم التالي ، زحف الجيش الإسلامي يسبقه هديرُ التكبير والتهليل ، وفي مقدِّمته السلطان محمد الفاتح ، ونصب المجاهدون ألفي سُلَّمٍ خشبي ، ليصعدوا إلى أعالي الأسوار والأبراج ، وقذفوا بأكثر من ثلاثين ألف مُجدّلٍ ، لتثبيتها بواسطة الخطاطيف والكلاليب فوق الأسوار ، ليصعدوا بواسطتها لملاقاة جنود النصارىٰ في أعالي الأسوار والأبراج ، وكان تكبير معسكر الترك يتردّد وكأنّه زلزال الحشر ، وكأنّ القوات التركية تريد أن تكسب الدنيا والآخرة في آنٍ واحد . واحتدم القتال ، وبذل المدافعون عن المدينة بقيادة « جوستنيان » الجنويّ غاية جهدهم في صدّ الهجوم الإسلامي ، وانهالت السِّهَامُ والسيوف وقوارير الزَّيْت المغليّ على المسلمين . وطفق القساوسة والرهبان يؤكِّدون للناس أن الملاك الأزرق

لن يسمح للمسلمين بدخول القسطنطينية .

وأمر السلطان بتركيز الهجوم على ثلاث جهات معيَّنة من الأسوار ، كَثُرتْ فيها الفجوات والثغرات التي أحدثها القصْف المدفعي .

وفي يوم الثلاثاء ، العشرين من جمادى الأول من عام ٨٥٧ هـ - وهو يوم فتح القسطنطينية - خطب السلطان فيمن حوله من المجاهدين خطبة ، لم تزد على بضع كلمات ، كما يروي « إسماعيل دنشمند » في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، قال فيها : « يا أبنائي ، ها أنا ذا مستعدٌ للموت في سبيل الله فَمَن رغِب في الشهادة فلْيلحق بي » ، لله دَرُّكَ من فاتح !

وتدافع المجاهدون وراء قائدهم العظيم ، كأنهم السيل العَرم ، وما هي إلَّا سُويعات حتى كانت حدّة المقاومة الصليبية تتلاشىٰ شيئًا فشيئًا ، واندفع السلطان بجنوده إلى داخل المدينة ، من ثغرةٍ في جهة باب المدفع ، وتمكّن القائد المسلم « قراجا بك » مِن اختراق فجوة في أسوار المدينة من جهة الشمال ، وانهمر المجاهدون من ورائه ، وتمكّن جنديٌّ مسلم من قتل قائد النصارىٰ في تلك الجهة ، فانهارت مقاومة المدافعين وولَّوْا هاربين .

وفي تلك الأثناء تمكّن قائد الأسطول العثماني « حمزة باشا » من إزالة السلاسل الحديدية والدخول بسُفنه ، وانضمَّ بها إلى السفن العثمانية المتواجدة في خليج القرن الذهبي ، واقترب من أسوار المدينة التي تهدّمت بفعل القصف المدفعيّ ، واندفع بجنوده من فوق أنقاضِ الأسوار إلى داخل المدينة من تلك الجهة .

وقُتل « جوستنيان » قائد المدافعين عن المدينة ، وأجهز أحد المجاهدين

على الإمبراطور قسطنطين في المعركة ، ووثب العديد من المجاهدين إلى أعالي الأسوار ، يُزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويضعون مكانها الرايات العثمانية ، وقام العشرات برفع أصواتهم بالأذان من فوق أسوار المدينة ، وحين رأى السلطان الفاتح رايات الإسلام تتهادىٰ بِخُيَلاء وشموخ فوق أسوار المدينة ، وعندما سمع صوت الأذان الهادر - خرّ ساجدًا على الأرض شكرًا لله .

ومضىٰ المسلمون في تقدُّمهم من ثلاث جهات إلى مركز المدينة ، حيث تقع كنيسة أياصوفيا ، ولم يواجهوا مقاومة ذات بالٍ ، وكانت شوارع القسطنطينية وأزقّتها شبهَ خالية من الناس ، فقد الْتجأ معظمهم إلى كنيسة أياصوفيا .

ودخل السلطان العثماني المدينة من باب المدفع « توب كابي » ، واتجه مباشرة إلى كنيسة أياصوفيا ، فوجد بها أعدادًا كبيرة من النصارىٰ ، فطمْأنهم وأمّنهم على أرواحهم ، وكان وصول السلطان وقتَ الظُّهر ، فأمر المؤذّن فأذّن لصلاة الظهر ، فصلّى المسلمون الصلاة جماعةً في داخل الكنيسة ، بعد أن أُخليت ممّن كان فيها ، وبعد أن تمّ إزالة ما كان بداخلها من تماثيل ، ومنذ ذلك الوقت تحوّلت كنيسة أياصوفيا إلى مسجد « أياصوفيا » ، وأُقيمت أول صلاةِ جمعةٍ في مسجد أياصوفيا في اليوم الثالث والعشرين من جمادىٰ الأول ، عام ٨٥٧ هـ وفق الأول من حُزيران عام ١٤٥٣ م ، وكان خطيب الجمعة وإمامها العالم المجاهد أق شمس الدين . وهناك رِواية تقول بأنَّ السلطان الفاتح هو الذي ألقىٰ خطبة الجمعة ، وأنّ الشيخ أق شمس الدين أَمَّ الناسَ في الصلاة .

وكان عدد قتلىٰ النصارىٰ أكثر منْ أربعة آلاف قتيل ، بينما بلغ عدد الأسرىٰ أكثر من خمسين ألف مقاتلٍ ، كان أحدهم إذا رأى جنديًّا مسلمًا ،

يركع على الأرض رافِعًا يديه ، فلا يهدأ روعُه إلَّا بعد أنْ يرىٰ الجنديّ المسلم يكتفي بأسره .

وقبل وصول الفاتح إلى كنيسة أياصوفيا ، وعند بلوغه منتصف المدينة ، توقّف عن المسيرة ، وخطب فيمن حوله ، وقرأ عليهم بلغةٍ عربية فُصْحَىٰ البشارةَ النبوية الكريمة ، وعند وصوله إلى الكنيسة ، سجَدَ لله شكرًا .

هَٰذِي الدِّيَارُ «بَني عُثْمَانَ» كَمْ رَفعَتْ ... للهِ مِــنْ رَايَـةٍ خَفَّاقَــةِ العَــذَبِ
وَكَمْ تُرَىٰ دَفَعَتْ للهِ مِن عُصَبٍ ... تَمْضِي عَلَىٰ سَاحِهَا مَوْصُولَةَ العُصَبِ
هُنَا السَّلَاطِيْنُ كَانَتْ فِي مَجَالِسِهَا ... نُورًا مِنَ الحَقِّ أَوْ بَرْقًا مِنَ القُضُبِ
هُنَا الوُفُودُ الَّتِي جَاءَتْ مُسَلِّمَةً ... فَأَسْلَمَتْ أَوْ تَلَقَّتْ عِزَّة الأَدَبِ
أَحْلَىٰ الأَمَانِي لَدَيْهَا أَنْ تَرَىٰ رَجُلًا ... شَقَّ المَيَادِينَ شَقَّ الفَارِسِ الضَّرِبِ
وَجَمَّعَ النَّصْرَ مِنْ وَادٍ وَمِنْ جَبَلٍ ... وَمِنْ بِحَارٍ وَمِنْ نَهْرٍ وَمِنْ شُعَبِ
حَتَّىٰ أَتَىٰ لِمَضِيقٍ غَيْرِ مُنْفَرِجٍ ... وَزَحْمَةٍ مِنْ عَظِيمِ الهَمِّ والنَّصَبِ
ضَاقَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَىٰ مِنْ جَحَافِلِهِ ... جَحَافِلًا وَرَمَىٰ بِالنَّـارِ بالشُهُـبِ
حَتَّى إِذَا اسْتَغْلَقَ اللَّيْلُ البَهِيمُ وَمَا ... رَأَى بِهِ فُرْجَةً تُنْجِيهِ مِنْ كُرَبِ
تَدَفَّقَ النُّـورُ شَـلَّالًا يُضِيءُ لَهُ ... بُشْرَى مِنَ اللهِ لَمْ تَكْذِب وَلَمْ تَرِبِ
لَتُفْتَحَــنَّ بِلَاد الرُّومِ فَاتِحُهَــا ... نِعْمَ الأَمِيرُ وَنِعْمَ الجَيْشُ فَاقْتَرِبِ
بُشْرَىٰ الرَّسُولِ[١] أَضَاءتْ كُلَّ نَاحِيَةٍ ... وأَشْعَلَـتْ هِمَّـةً مِنْ فِتْيَةٍ نُجُـبِ
وَفَتَّحَتْ سُبُلًا لَانَتْ مَسَالِكُهَا ... لِصَـابِرٍ فِي سَبِيلِ اللهِ مُحْتَسِـبِ
وَأَحْكَمَ الأَمْرَ فَانْسَابَتْ بَوارِجُهُ ... مَا بَيْنَ مُخْتَبِيءٍ مِنْهَا وَمُنْسَرِبِ
حَتَّىٰ أَحَاطَ بِهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ... وَأَحْكَمَ الطَّوْقَ مِنْ بَابٍ وَمِنْ سَرَبِ

---

(١) حديث : « نعم الجيش جيشها ، ونعمْ الأمير أميرها » : « ضعيف » .

فَرُجَّتِ الأَرْضُ مِنْ زَحْفٍ تَمُوجُ بِهِ ... دُنْيَا البُطُولَاتِ إِعْصَارًا بِكُلِّ أَبِي
كَأَنَّمَا الأَرْضُ شُقَّتْ عَنْهُمُ فَعلَوْا ... أَكْتَافَهَا وَرَمَوْهَا رَمْيَةَ العَجَبِ
وَأَشْرَقَ الفَجْرُ وَالدُّنْيَا تُطِلُّ عَلَىٰ ... بُشْرَىٰ وَآيَةِ نَصْرٍ أَوْ حَدِيثِ نَبِي
بُشْرَىٰ مَعَ الدَّهْرِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ مِنْ جُنْدٍ وَمِنْ عُصَبِ
جَالُوا بِهَا فَكَأَنَّ النُّورَ يَغْمُرُهَا ... يَرْوِي وَيَغْسِلُ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ شُعَبِ
وَأَطْلَقُوا دَعْوَةً للهِ صَادِقَةً ... تُزِيحُ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والحُجُبِ
كَأَنَّمَا فَتَّحُوا غُلْفَ القُلُوبِ بِهَا ... فَتْحًا مِنَ اللهِ لَا فَتْحًا مِنَ القُضُبِ
قُسْطَنْطِينِيَّةُ هٰذَا النُّورُ فَانْتَفِضِي ... وَكَبِّرِي وَاسْجُدِي لِلهِ وَاقْتَرِبِي
وَهَلِّلِي يَا رُبَىٰ اسْتَنْبُول وَائْتَلِقِي ... وَزَيِّنِي الدَّارَ مِنْ حلْيٍ وَمِنْ قُشُبِ
وَرَفْرِفِي بِالهُدَىٰ مِنْ كُلِّ رَابِيَةٍ ... مَآذِنًا خَشَعَتْ بالآيِ وَالرَّهَبِ
لَوْلَا فُتُوحُ رَسُولِ اللهِ قُلْتُ هُنَا ... فَتْحُ الفُتُوحِ وَهٰذِي زَهْوَةُ الغَلَبِ
تَسَابَقَ الخُلَفَاءُ المُسْلِمُونَ لَهَا ... عَلَىٰ الزَّمَانِ سِبَاقَ الصَّادِقِ الأَرِبِ
فَلَمْ يَنَلْهَا سِوَىٰ هٰذَا الفَتَىٰ قَدَرًا ... للهِ يُمْضِيهِ فِي تُرْكٍ وَفِي عَرَبِ
مُحَمَّدٌ فَاتِحُ الدُّنْيَا وَمَا طَمِعَتْ ... نَفْسٌ لَهُ بِرَخِيصِ الفَتْحِ وَالسَّلَبِ
يَمْضِي إِلَىٰ اللهِ وَالفِرْدَوْسُ غَايَتُهُ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ تُنْجِيهِ مِنَ الرِّيَبِ
كَأَنَّ وَثْبَتَهُ للهِ دَفْقُ هُدَىٰ ... يُفَجِّرُ النُورَ في وَادٍ وَفِي هِضَبِ
كَأَنَّمَا أَنْبَتَتْ أَسْيَافُهُ وَرَوَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَىٰ الأَشْوَاكِ وَالغَرَبِ
وَصَارَتِ الأَرْضُ رَوْضًا مِنْ أَزَاهِرِهِ ... طَلَائِعُ الحَقِّ مِنْ صِيدٍ وَمِنْ نُجُبِ
فَتْحٌ مِنَ اللهِ مَا أَحْلَاهُ مِنْ أَمَلٍ ... بَلَغْتَهُ وَكَرِيمِ السَّعْيِ وَالطَّلَبِ[1]

للهِ درُّ محمد الفاتح مِن فاتح صادق الحبِّ لله ورسوله ، عالي الهمّة في الجهاد والبذْل ...

---

(١) « فتح القسطنطينية » من « ملحمة القسطنطينية » لعدنان النحوي .

كتب رحمه الله إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة في مصر « إنيال شاه » : « إنَّ مِن أحسن سنَنِ أسلافنا ، أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لوْمة لائم ، ونحن على تلك السُّنة قائمون ، وعلى تلك الأمنية دائمون ، متمثِّلين بقوله تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنونَ باللهِ** ﴾ [التوبة : ٢٩] ، ومستمسكِين بقوله عليه السلام : « مَن اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله ، حرَّمه الله على النار » . ولهذا ، فقد هممنا هذا العام ، مُعْتَصمين بحبلِ اللهِ ذِي الجلال والإكرام ، ومستمسكين بفضل الملك العلَّام ، إلى أداء فرض الغزاء (الغزو) الذي فرضه علينا الإسلام ، مُؤْتمرين بأمره تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الذين يَلُونَكُمْ من الكفار** ﴾ ، وجهّزنا عساكر الغزاة المجاهـدين من البر والبحر ، لفتْح مدينةٍ مُلِئَتْ فجورًا وكفرًا ، والتي بقيتْ وسط الممالك الإسلامية تُباهي بكفرها فخرًا » .

لله دَرُّ الفاتح من سلطانٍ بلغت الجزية في عصره حوالي ستة وثلاثين ألف دوقية ذهبية ، وهو مبلغ كبيرٌ جدًّا في وقته !! وجُبِيَتْ هذه الجزية على النحو التالي :

مملكة ترابزون : (٢٠٠٠) دوقية ، ومملكة الصِّرب : (١٢٠٠٠) دوقية ، وجمهورية دوبروفنك : (٣٠٠٠) دوقية ، وبلاد المورة : (١٠٠٠٠) دوقية ، ومستعمرة ساكين الجنوية : (٦٠٠٠) دوقية ، ودوقية ميدللي الجنوبية : (٣٠٠٠) دوقية .

ودفع البنادِقَةُ جزيةً سنويةً مقدارها مائتا ألفِ دوقية ذهبية .

لله دَرُّ الفاتح وهو يواجه الحِلْف الصليبيّ الذي عقده ملك المجر « لاديسلاس » ، وملك الصرب « جورج برانكوفيتش » ، فاندفعت قوات المجر بقيادة « هونياد » ، وجيشُ الصرب سنة ٨٥٩ هـ . وانتصر السلطان

محمد الفاتح على هذا التحالف ، واضطُرّ « هونياد » المجَري إلى الفرار داخل المجر ، واضطُرّ « برانكوفيتش » إلى دَفْعِ جزية سنوية ، مقدارها ثلاثون ألف دوقية ذهبية .

ولله دَرُّ الفاتح حين يواجه تحالفًا صليبيًّا آخر من جيش ألبانيا (بلاد الأرناؤوط) ، بقيادة ملكها « إسكندر بك » ، وقوات نابولي الإيطالية بقيادة ملكها ، وتمكّن الفاتح من هزيمة التحالف « الإيطالي الأرناؤوطي » في معركة « بيرات » . واضطُرّ « إسكندر بك » إلى الفرار بعد قَتْل وأسر معظم أفراد جيش التحالف .

ولله دَرُّه وهو يلقِّن الأدبَ فرسانَ القدِّيس « يوحنَّا » ، وكانوا خليطًا من الفرنسيِّين والطَلْيَان والألمان ، ويُوقع خسائرَ كبيرةً في عديد من جُزُرهم !!

ولله دَرُّه وهو يحاصر بلغراد في التاسع من رجب عام ٨٦٠ هـ ، بل ويدخلها في الثامن عشر من شعبان ، ثم يتراجع عنها ثانية ، وتمكّن مَغَاويرُ الإسلام مِن قَتْل القائد المجري هونياد ، وقائد المتطوعين الصليبيين الراهب « كابيسترانو » !!

ولله دَرُّ الفاتح وهو يفتح « أثينا » وبلاد اليونان عام ٨٦٢ هـ ، واستمرّت سيطرة العثمانيين على أثينا ومعظم بلاد اليونان حوالي ٣٧١ عامًا من غير انقطاع !!

ولله دَرُّه حين يكمل السيطرة على جنوب شبه جزيرة المورة عام ٨٦٣ هـ !!

ولله دَرُّه وهو يفتح « سمِندرة » عاصمة مملكة الصِّرب ، ويعلن ضمَّ بلاد الصرب بشكلٍ نهائيٍ ، وجعلِهَا إحدى ولايات الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح مَحْمِيَّة « أماسرا » التي كان يسيطر عليها الجِنْوِيُّون ،

ثم مقاطعة « سينوب » !!

ولله دَرُّه وهو يُنهي آخر معقل نصراني في بلاد الأناضول ، وهو مملكة « طرابزون » عام ٨٦٥ هـ ، فقد حصّنها النصارىٰ من جميع الجهات ، إلَّا من الجهة المحاذِيَة لسلسلة جبال البلغار ، فلم يكنْ يخطر ببالهم أنْ يستطيع أيُّ جيشٍ اختراقَ تلك الجبال الوَعِرة التي تغطِّيها الغابات العشوائية ، وتكتنِفُهَا الثلوج .

وأصرّ السلطان الفاتح على القيام بتلك المغامرة ، التي لا تقلُّ خطورةً ومشقَّةً عن عملية نقلهِ ثمانين سفينةً حربيةً ، عبر ثمانيةِ أميال فوق الأرض اليابسة . وفوجئ نصارىٰ « طرابزون » ذات ليلةٍ بهديرِ التكبير والتهليل ينطلق من تلك الجهة التي حسبوها في مأْمَن ، وكان وَقْعُ سقوط مملكة طرابزون النصراينة كوقع الصاعقة على نصارىٰ أوربا ، ففاضتْ بالأحزان نفوسُهم بعد نهاية آخر بَصِيصِ أملٍ لهم .

لله دَرُّه حين يُيَمِّم وجهَه شَطْرَ بلاد الأفلاق (رومانيا) ، وينتصر على أمير الأفلاق « داكول » الملقَّب بالشيطان ، ويفرُّ « داكول » الشيطان إلى المَجَر الذي خشي ملكها من غضب الفاتح ، فيسجن داكول ، ويضمُّ الفاتح رومانيا عام ٨٦٦ هـ إلى الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح جزيرة « ميديللي » ، ويعدم جميع الجنود البيزنطيين والمرتَزِقَة الصليبيين ، جزاءَ ما اقترفوه من جرائم السَّلْبِ ضد السفن العثمانية !!

لله دَرُّه وهو يؤدِّب ملك البوسنة النصرانية « ستيفان توماشوفش » ، ويقتله ويستولي على مملكته عام ٨٦٧ ، ويضمُّها لملك المسلمين !!

ولله دَرُّه حين يضمُّ « قونية » عاصمة سلطنة « قرمان » السلجوقية إلى الدولة ، عام ٨٧١ هـ لتصبح ولاية عثمانية .

ولله دَرُّ الفاتح وهو يؤدّب ستيفان الرابع (فارس المسيح) ، ويُلحق الهزيمة بالجيش البغداني في ربيع الآخر عام ٨٨١ هـ .

ولله دَرُّه حين تُسلّم له مدينة « إشكودرا » آخر معاقل البنادقة في بلاد الأرناؤوط ، لتستمر سيطرة العثمانيين على جميع بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) ، حوالي ٤٣٣ عامًا .

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الكونت « كينيس » ويُوقعه في الأسر هو وبضعة آلاف من جيشه ، من بينهم أكثر من خمسمائة راهب كانوا في عداد المقاتِلين !!

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الإيطاليِّين ، ويضع أول قدمٍ له في إيطاليا في العشرين من جمادى الأولى عام ٨٨٥ هـ ، ويستولي على ميناء ومدينة « أوترانتو » في جنوب إيطاليا ، بعد حصار دام أربعة عشر يومًا ، ويفرّ أهل نابولي من مدينتهم ، ويدبُّ الرعب في قلب بابا روما ، بعد علْمه بأنّ السلطان يُعِدُّ للاستيلاء على نابولي ، ليصل إلى هدفه الرئيسيّ : روما (التفاحة الحمراء) ، لولا موت محمد الفاتح ، « وفي الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَد البدرُ » .

وَوَصَّىٰ الفاتح ولدَه « بايزيد » : « يا بُنيّ ، ها أنا ذَا أموت ، تاركًا ورائي كلَّ النِّعم الجليلة التي أكرمني بها الله ، إلى نِعَمٍ أكبر وأبقىٰ ، فإنْ رَغِبْتَ في اللّحاق بي إلى رحاب الله ، فالزمْ طريقي ، واسلك السبيل الذي سلكتهُ مجاهدًا في سبيل الله . يا بُنيّ ، إنّ نشرَ الإسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعتَ » .

ونختم بقصة رواها المؤرخ التركيُّ إسماعيل حامي « دنشمند » ، في كتابه : « موسوعة التاريخ العثماني » : أن « سارّة خاتون » شاهدتِ السلطان بحالة من الإنهاك والتعب الشديد ، اضطرته إلى الاضطجاع إلى جذْعِ شجرة ، بعد أن بذل جهدًا كبيرًا في مشاركة جنوده في تقطيع الأشجار ، وإزالة

الثلوج لتمهيد الطريق أمام الجيوش ، فاقتربت منه ، وجرى بينهما الحوار التالي :

قالت سارة خاتون : يا بنيَّ ، ما الذي يُجبرك على تَحمُّل هذا العَناء ، من أجل مدينة صغيرة ؟ فأجابها السلطان الفاتح : يا أُمَّاهُ ، هذا العناء كلُّه في سبيل الإسلام ، وهل تَظنِّين أنّنا نكون أهلًا لنُسمَّى بالمجاهدين ، إذا لم نتحمَّل هذا العناء في سبيل الله ! يا أمَّاه ، إنَّ هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتَّباهِي ، وإنما لِنقاتِل بها في سبيل الله[1] .

○ القَبْـوُ الزُّجَـاجِيُّ ○

أيُّهَا الفَاتِحُ .. ضَيَّعْنَا مَفَاتِيحَ المدائنْ !!
ونسِينا البحرَ .. والموجَ وتهليلَ السفائنْ !!
ونسينا الخَيْلَ والرمحَ .. وأَسرارَ الكمائنْ
سورةُ الفتحِ هَجَرْناها .. وبدَّدْنَا صَدَاها
وتراءَتْ في حنايانا أنينًا وحنينَا
كلّ أشجار الفتوحاتِ أَرَاهَا
عارياتٍ من رُؤَاها
مِن ثمارِ المجدِ ..
في أوراقها جفَّتْ دماءٌ
كنتَ تُسقِيها شَذَاها
أيُّهَا الفاتحُ أَقْبِلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتَاها

(١) انتهى ملخصًا من كتاب : « السلطان المجاهد محمد الفاتح فاتح القسطنطينية » لزياد أبو غنيمة - دار الفرقان .

انْزَعِ السيفَ مِن الغمْدِ فقد تهْنَا وتَاها !!
لم يزلْ سيفُكَ في القَبْو الزجاجيّ سَجينَا
نائمًا في غِمْدِهِ يحرسُ أسيافَ الخلافَهْ !!
وإلىٰ جانبهِ سِيفُ عليٍّ « ذو الفقارْ »
ذلكَ الباتِرُ في كلِّ غزاةٍ : سيرةَ الكفرِ .. صداهُ وشغافُه
انظرِ الآنَ إليهْ ...
ليسَ إلَّا أثرًا يشهدُه « السُّيَّاحُ » من كلّ القِفَارْ !!
وضعوهُ حِلْيةً للزَّهْوِ .. واللّهوِ بأزمانِ الفتوحاتِ الكبارْ !!!
أيُّهَا الفاتحُ .. ضيَّعْنَا مفاتيحَ المدائنْ !!
.. خالدٌ .. في عصرنا يُسْجَن في قبرٍ زجاجي ...
وللفاروقِ والصِّدِّيق ذياكَ المصيرْ !!
... هذه أسيافُهُمْ مَثْلُومَةٌ تَنعىٰ إلينا
حَدَّهَا المغتال في جَوْفِ القبورْ !!
أيُّهَا الفَاتِحُ أمْسَىٰ السيفُ ظِلًّا
ووشاحًا ساكنًا فوقَ الصدورْ !!
إنَّهُ أضحىٰ بقصرِ الحُكْمِ مرسومَ ضيافَهْ
إنَّهُ أصبحَ نَقْشًا فوقَ جُدرانِ الطُّلُولْ
كلُّ مَن يشهدهُ ..
يقرأ في جبهتِهِ عصرَ رواياتِ الأُفولْ
وأنا جئْتُ إلى قصرِكَ ضَيْفًا ما معي إلا الهَوِيَّهْ
إنَّهَا « اللهُ ولا ربَّ سواهْ »
إنَّها « لا إلٰهَ إلا الله .. محمدٌ رسولُ اللهْ »
جِئْتُ والقلبُ بأبواب الفتوحات مُعلَّقْ

جئتُ .. لكنْ
بابُ « إسلامبولَ » في وجهيَ مُغْلقْ !!
صَدَّني عن بابِكَ العالي
انْكِشاريٌّ بلا أيِّ هَوِيَّهْ
جاءَ مِنْ أرضِ الشَّتَاتِ الهَمَجِيَّهْ
جاءَ والصربُ تغذِّيهِ .. ويسقي من كُئُوسِ الروسِ نخْبَ البربريهْ !!
... قلتُ إنِّي ..
مِنْ جنودِ الفاتِح القائدِ حامي أرضِ كلِّ المسلمينْ
قال في القاعةِ لا يُوجدُ إلَّا بعضُ أشلاءَ مِن العهدِ الطعينْ
إنَّهَا رائحةٌ مِن زَمَنٍ
كَانَ .. صُعودًا .. وانحدارًا .. وانكسارًا بين أيدي الخائنينْ !!
إنَّهَا أطلالُ تاريخٍ .. وأشباحُ رجالٍ ...
... سكنُوا القبوَ الرخاميَّ السجينْ !!
رحلَتْ ذاكرتي في مُدُنِ الشعرِ .....
وأصغتْ لأميرِ الشعراءِ في شرودٍ وعَياءْ
« اللهُ أكبرُ كمْ في الفتحِ مِن عَجَبِ
يا خالدَ التركِ جدِّدْ خالدَ العربِ »
أيُّ فتحٍ .. يا أميرَ الشعرِ في عصرِ الفتوحاتِ العقيمهْ ؟
أيُّ فتحٍ ؟ خالدَ التركِ .. أتاتوركُ ..
... لقدْ ألقىٰ بماءِ النارِ في وجهِ الخلافهْ !!
شوّه الوجهَ السماويَّ الجميلْ
جعَل البسفورَ ملهًى ...
والعرايَا ... فيهِ يسبحْنَ ويعبرْنَ مضيقَ الدردنيلْ !!

سفنُ الفتحِ ...
ويا للفتحِ أحالُوها مواخيرَ السُّكَارَىٰ العابثينْ
والمحاريبُ
فضاءاتُ نحيبٍ .. حوَّمتْ فيها طيورٌ مِن عويلْ
يَنْعِقُ البومُ بأحشاءِ الثُّريَّات المطفأهْ
آهِ قدْ كانتْ لآلافِ المصلِّين مَنَاراتٍ ...
وللمقرورِ كانتْ مِدْفَأَهْ
وهي كانت بقايا من قناديلِ الفتوحِ المرْجَأَهْ ..

* * *

أَيُّهَا الفاتحُ ... « إنّا .. قدْ فتحْنا لك فتحَا ..
كانَ - بالحقِّ - مبينًا » ..
وأبو أَيُّوبَ فوقَ السُّور ما زالَ يكبِّر
اللّهُ أكبرُ ... اللّهُ أكبرُ ... اللّهُ أكبرْ
غَلَبَ الرومَ ... وأشجارُ الفتوحاتِ تُهَلِّلْ
والنواقيسُ تلاشتْ
والجيادُ الصافِناتُ المؤمناتُ
في ميادينِ الوَغَىٰ تَصْهَلْ .. بالفتحِ تُحمحمْ
وَعَلَىٰ الشاطئ تختالُ المآذنْ ...
وتصلِّي وتسلِّمْ
إنَّهُ الماءُ يسبِّحْ
والنُّجَيْمَاتُ تسبِّحْ
وَالفَنَارَاتُ تُسَبِّحْ

والمجاديفُ تسبّحْ
إنَّهُ اللهُ ... فسبِّحْ باسمِ رَبِّكْ
إنَّهُ حامي الحِمَى حارسُ دَرْبِكْ
أيُّهَا الفاتحْ .....
في ظلِّكَ ظَلَّ السَّيْفُ مِصْباحًا مُضيئًا
حارسًا شرعةَ ربِّكْ ..
هل أعودُ الآنَ مِن وَهْمِي ..؟ أعودْ .....!!
وأعودُ حامِلًا في القلبِ مشكاةً حزينهْ !!
ضوءها الدُّرِّيُّ مِنْ نيرانِ أشلائيَ يمتاحُ الوقودْ !!!
نَقْشُهَا الساكنُ في القلبِ تواريخُ لأمجادٍ طَعينَهْ
وفضاءَاتُ غماماتٍ وأسرابُ بروقٍ ورعودْ
أيُّهَا الفاتِحُ « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ
وجهُهَا الأبيضُ أَلْقَوْا فوْقَهُ قارَ الفَسَادْ
سَلَبُوها العِرْضَ ... والأرضَ وباعُوها جِهارًا في المزادْ
جاءَها من كلِّ فَجٍّ أزرقُ النَّابِ ..
وَمَصَّاصُ الدماءْ
أحمرَ الرغبةِ في عينيْهِ أمواجُ الدهاءْ
أصفرَ البسمةِ في خطوَتِهِ ريحُ الفناءْ
أطلقَ الريحَ ... العقيمْ
أياصوفيا في مهبِّ الريحِ شيخُ جذرٍ في الأرضِ موصولٌ بأسبابِ السماءْ
صُورةُ العذراءِ في محرابِهِ تَغْشَى وجوهَ العابدينْ
مُتْحفًا صارَ لأجسادٍ عُرَاهْ ...
يصلبونَ العمرَ إثْمًا في مساءاتِ الجُنونْ

خطفتْني الريحُ ألقتْني « بوَادٍ غيرِ ذي زرعٍ » ..
سَرَاييفو ...
جبَالٌ من جليدٍ ودماءْ ...
وتلالٌ من عِظامٍ وفَناءْ ...
... أيُّهَا الفاتح « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ .
في سراييفو وبيهاتشَ وفي الشيشان في القِرْم
وُحوشُ الصربِ تغتالُ الطفولهْ ...!!
في دماءِ التائبينَ الراكعينَ الساجدينَ الشهداءْ
هُمْ يخوضُونَ ويَلْهونَ بأجسادِ النساءْ
ويُبيدون الرجولهْ !!
يزرعونَ الرَّحِمَ المؤمنَ كُفرًا .. وشياطينَ عذابْ
في خلايا الطُّهْرِ يُلقونَ المنايا ... شكّلتْها نُطَفٌ
تقذِفها في الرَّحِم المؤمنِ أصلابُ الكلابْ !!
والصناديدُ الصِّلابْ
حُرِّقوا في دارِهم .. لا جُرْمَ إلَّا أَنْ يقولوا : ربُّنَا اللهْ ..
حمَلُوا القبرَ على أكتافِهِمْ ..
لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
أَكَلُوا المَيْتَةَ والعُشْبَ وماتَتْ شَمسُهُمْ
لا جرمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
شهدوا أعضاءَهم تسقُطُ مِن أجسادِهِم لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
بالمناشيرِ يُشَقُّون
ويقولونَ ربُّنَا اللهْ
بالوحوشِ الطائراتِ القاصِفاتِ

يُمْطَرون ويقولون رَبُّنا اللهْ ..
بالنُّجُوم المرْسَلاتِ العاصفاتِ يُصْعَقُون وينادُون رَبُّنَا اللهْ
بالجواري الذارياتِ الحامِلاتْ
نُذُرَ التِّيهِ وإشعاعَ المَواتْ
يُنْسَفُون وَيَصيحُونَ رَبُّنَا اللهْ
إنّهم يَحْيَوْنَ في الموتِ الشهادهْ
لهُمُ الحُسْنٰى خلودًا وزيادهْ

* * *

أَيُّهَا الفاتِحُ إنِّي طالعٌ مِن هؤلاءْ
إنَّهم مِن شجرِ النارِ يجيئُون ومِنْ شمسِ الهدٰى والكبرياءْ
إنَّهم ضوْءُ التجلِّي
... والخيولُ العادياتُ المُورياتْ ..
إنْ أَتٰى الطوفانُ واجتاحَ النهاراتِ وإيقاعَ البقاءْ
إنَّهم أحفادُكَ الغُرُّ الميامِينْ ...
يقودونَ سِباقَ الشهداءْ
أَيُّهَا الفاتِحُ إنّي ... جَمْرةٌ مِن هؤلاءْ ..
ماتَ فيَّ الشجرُ اليابِسُ
واستيقظَ فيَّ الفارسُ ... والواحدُ بالأَلْف ...
... وأَلفيتُ ظِلالَ الوَحْي ..... والتوحيدِ تَمتدُّ وتُلْقي
شُهُبَ الحقِّ وأقمارَ الإباءْ

* * *

أيُّهَا الفاتحُ .. هلْ ضاعتْ مفاتيحُ المدائنْ ؟!

... المحاريبُ فراغاتٌ وأشلاءُ مآذنْ !!

والمصلُّونَ .. يُغَلُّون .. ويَصْلَوْن سعيرًا !!

أتُرَانا

نفتَحُ الآنَ كتابَ الماءِ .. نغتالُ الهَجِيرَا

أتُرَانَا

... نعلنُ الآنَ اكتشافاتِ الفتوحْ

نقبضُ الآنَ علىٰ الجَمْرِ ونغتالُ السُّفُوحْ

أمْ تُرانا ...

لمْ نزلْ نغدُو خِمَاصًا .. وكمَا كُنا نروحْ !!

ومفاتيحُ المدائِنِ

لمْ نزلْ نبكِي عليها ونَنُوحْ

سورةُ الفتْحِ هجرْناهَا ..

ومزّقنْا صدَاها ..

وتراءَتْ في مآقينا دماءٌ وقُروحْ

كلُّ أشجارِ الفتوحاتِ أراها

عارياتٍ مِن رُؤَاهَا

من ثمارِ الفتحِ ...

... في أوراقِهَا جَفّتْ دماءٌ

كنتَ تسقيها شَذاها

أيُّهَا الفاتحُ أقبلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتَاهَا

انزعِ السيفَ مِن القَبْو الزجاجيّ

فقد تُهْنا وتَاها ......!![1]
وإلى قوّاد جيلنا وفجرنا الآتي مع خَفْقِ البنودْ
وأقولُ للجيل الجديدْ
أقولُ للجيلِ المحصَّنِ بالعقيدةِ والمتَوَّجِ بالصَّباحْ
.. وأقولُ يا جيلَ الكِفاحْ
إنَّا بلَوْنا الليلَ والأشْبَاهَ والموتَ الموجَّلَ والجِراحْ
.. وأقولُ يا جيلَ المصاحِفِ
.. يا خميرَ الأرضِ .. يا طلْقَ الولادهْ
ها أنتَ كاليُنْبُوعِ تَدفَّقُ في صَحَارِينا ..
.. وتمنحُنا الوثيقةَ والشَّهادَهْ ...

* * *

أنتَ الذي سيُبَدِّلُ الأوزانَ والأحزان
.. يزرعُ في العُيونِ نَخيلَها
فلَكَمْ تباطأَ في الرَّحِيلِ عنِ القُرىٰ عامُ الرَّمَادَهْ

* * *

وأقولُ حَيّ علىٰ الفلاحْ
.. أقولُ حيّ علىٰ السلاحْ
فإنَّ فيكَ النبضَ يُورِقُ بينَ ترتيلِ الظَّهيرة والمساءْ

---

(١) « القبو الزجاجي » : رسالة إلى « محمد الفاتح » قائد الفتوح الإسلامية في البلقان ، للدكتور : صابر عبد الدايم - جامعة أمّ القرىٰ .

.. وأقولُ يا جيلَ الفداءْ
.. أكلتْ مواسِمَنا الجنادبُ
.. واستبدَّ بنا الحُواةُ
وغَادَرَتْنَا آخِرُ السُّحبِ الحميمةِ في السماءْ

* * *

أنتَ الذي يقتاتُ جَمْرَ المرحلهْ
ها إنَّ أحبارَ اليهودِ تجمَّعُوا .. ها إنّهم حشدُوا لنا
.. فاقرأْ علىٰ تلكَ الرُّؤوسِ « الزلزلهْ »

* * *

اقرأْ علينا باسمِ رَبِّكَ ما تيسَّرَ يا بلالْ
.. الشمسُ في كَبِدِ السماءِ
ونحنُ في وَقَدِ الظهيرهْ
.. كمْ نتوق إلىٰ الظلالْ
اقرأْ علينا « المؤمنونَ » وشُدَّ قوْسَكَ ..
.. إنَّ قَوْسَكَ لا تَطِيشُ بها النِّبالْ
كمْ ذَا سألْتَ فلمْ يُجيبوا
.. كمْ سألْتَ فلمْ يُجيبوا
أنتَ وحدَكَ مَن يُجيبُ عنِ السُّؤالْ ...

* * *

يَـٰأَيُّهَا الجيلُ الجديدُ .. ويا سليلَ الطُّهْرِ ... يا بَرْدَ اليقينْ

كُنْ باسمِ رَبِّكَ قلعةً للخائفينْ .. ومنهلًا للظَّامئينْ
.. وكنْ رَصاصًا .. كُنْ قِصاصًا ..
.. كُنْ جُذورًا .. كُنْ طيورًا
كُنْ كما شاءَتْ لكَ « الأعْرافُ » في الزمنِ العَجِينْ[١]

* * *

يَٰأَيُّهَا الجيلُ الجديدُ
وقفتُ مُنْدَهِشًا علىٰ عَتَبَاتِ خُطْوَتِكَ الجديدَهْ
.. وقرأتُ نَبْضَكَ وانطلقتُ بلا عِنانْ
مِن سورة « الإسْراءِ » جئتَ .. وَمِنْ نقاءِ الفَجْرِ
.. والسبعِ المثاني
ورأيتَ مِن خلفِ الدُّخانِ وجوهَهُمْ
.. وَبَلَوْتَ عربدةَ الدُّخَانْ
وحملتَ جَرحكَ والهجيرَ
وحملتَ جرحك والعبيرَ
فما الذي حملَتْهُ أغْرِبَةُ الزمانْ[٢] ؟!

* * *

(١) عَجَنَ فلان يَعْجِنُ عَجْنًا : ينهض معتمدًا بيديْه على الأرض كِبَرًا ، أَعْجَنَ : شاخ وأسَنَّ ، العَجِينُ : المُسِنُّ ، والمُخنث ، والأحمق .
(٢) ديوان : « إنها الصحوة .. إنها الصحوة » شعر : محمود مفلح الطبعة الأولىٰ ، القصيدة التاسعة : « جيل الصحوة » ، صـ ٣٧ - ٣٩ .

الفصْلُ الأَوَّل

عُلُوُّ الهـمَّةِ

في حِفْظِ الوقـتِ

« الفوْتُ أشدُّ مِنَ الموْتِ ؛ لأَنَّ الفوْتَ انقطـاعٌ عن الحقِّ ، والموْتَ انقطاعٌ عن الخلْقِ »
يحيىٰ بنُ معاذ الـرازي



□ عُلوُّ الهمَّةِ في حفْظِ الوقْتِ □

اعلم أنّ « الناس في هذا العالم سفر ، وأوّل منازلهم المهد ، وآخرها اللَّحد ، والوطن هو الجنة أو النار ، والعمر مسافة السَّفر ، فسنوه مراحله ، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطّاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم ، وخسرانُه البعد عن الله مع الأنكال والأغلال ، والعذاب الأليم في دركات الجحيم ، فالغافل في نَفَس مِن أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقرّبه إلى الله زلفى،متعرضٌ في يوم التغابن لغبينةٍ وحسرة ما لها منتهى ، ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل ؛ شمَّر الموفَّقون عن ساق الجدّ، وودّعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقايا العمر »[١].

يقول ابن القيم : « العبدُ مِن حين استقرت قدمُه في هذا الدار فهو مسافر فيها إلى ربّه ، ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له ، فالعمر هو مدةُ سفرِ الإنسان في هذه الدار إلى ربّه ، ثم قد جُعلتِ الأيام والليالي مراحلَ لسفره ، فكلُّ يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر ، فالكيِّسُ الفَطِنُ هو الذي يجعل كلَّ مرحلة نُصبَ عينيه ، فيهتمّ بقطْعها سالمًا غانمًا ، فإذا قطعها جعل الأخرى نُصبَ عينيْه ، ولا يطول عليه الأمَد فيقسو قلبُه ويمتد أملُه ، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمطْل ، بل يعدّ عمرَه تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ؛ فإنه إذا تيقن قِصَرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل ،

(١) الإحياء ٣٩١/١ .

فطوّعت له نفسه الانقياد إلى التزوُّد ، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك ، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها فيحمد سعيَه ، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذٍ يَحْمَد سرَاهُ ، وينجابُ عنه كَرَاه ، فما أحسنَ ما يستقبلُ يومَه وقد لاح صباحُه واستبان فلاحُه ! »[١] .

قال تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر** ﴾ .

قال ابن عباس : العصر هو الزمن .

قال الرازي : « أقسمَ الله بالعصر لما فيه من الأعاجيب ؛ ولأن العمر لا يُقوَّم بشيء نفاسةً وغلاءً » .

والزمان من جملة أصول النعم ؛ عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»[٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[٣] .

« فالزمن نعمة جُلَّى ومنحة كبرى ، لا يَدريها ويستفيد منها كلَّ الفائدة إلا الموفقون الأفذاذ ، كما أشار إلى ذلك لفظُ الحديث الشريف ، فقال : « مغبون فيهما كثير من الناس » ، فأفاد أن المستفيدين من ذلك قِلّةٌ ، وأن الكثير مُفرطٌ مغبون »[٤] .

قالت حفصة بنت سيرين : « يا معشر الشباب ، اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب » .

---

(١) طريق الهجرتين ١٨٥ - ١٨٦ .
(٢) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي والنسائي .
(٣) رواه البخاري والترمذي ، وابن ماجه .
(٤) « قيمة الزمن عند العلماء » لعبد الفتاح أبي غدة ص٢٣ .

قال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجةٌ ، فنعوذ بالله أن نُعيَّر بطول العمر ﴿ **أو لَمْ نعمرْكم ما يتذكَّرُ فيهِ مَنْ تذكَّر وجاءكم النَّذير فذوقوا فما للظالمينَ مِن نصير** ﴾ [فاطر : ٣٧].

أخي :

ما مضى فات والمؤمَّل غيبٌ ولك الساعةُ التي أنتَ فيهَا

قال يحيى بن معاذ الرازي : « الفوت - وهو ضياع الوقت - أشدُّ من الموت ؛ لأن الفوت انقطاعٌ عن الحقِّ ، والموتَ انقطاعٌ عن الخلْقِ » . فالموت يقطعك عن الدنيا وأهلها ، أما الفوت فإنه يقطعك عن الله وعن الدار الآخرة .

يا هذا ، الأيام ثلاثة : أمسٌ قد مضى بما فيه ، وغدًا لعلك لا تدركه ، وإنما هو يومك هذا فاجتهدْ فيه . فـلله درُّ مَن تنبّه لنفسه ، وتزوّد لرمسه ، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه .

قال رجل لداود الطائي : أوصني . فدمعتْ عيناه ، وقال : يا أخي ، إنما الليل والنهار مراحل ، ينزلها الناس مرحلةً بعد مرحلة ، حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعتَ أن تقدم كل يومٍ زادًا لما بيْن يديْك فافعل ؛ فإنَّ انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزوّد لنفسك ، واقضِ ما أنت قاضٍ ، فكأنك بالأمر قد بغتَكَ ، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدًا أشدَّ تقصيرًا مني . ثم قام وتركه .

لمّا علم الصالحون قصر العمر ، وحثّهم حادي ﴿ **وسارِعُوا** ﴾ طَوَوْا مراحل الليل مع النهار انتهابًا للأوْقات .

قال ابن القيم : « إذا أراد الله بالعبد خيرًا : أعانه بالوقت ، وجعل وقته مساعدًا له ، وإذا أراد به شرًّا جعل وقته عليه ، وناكده وقتَه ، فكلما أراد التأهُّب للمسير لم يساعده الوقت ، والأول : كلما همتّ نفسُه بالقعود

أقامه الوقت وساعده »[١] .

وإن كان قوم يقولون : إن الفقير ابن وقته . فنحن نقول : عالي الهمة ابن وقته .

يقول ابن القيم : « يريدون أن همته لا تتعدى وظيفة عمارته بما هو أولى الأشياء به وأنفعها له ، فهو قائم بما هو مطالبٌ به في الحين والساعة الراهنة ، فهو لا يهتم بماضي وقته وآتيه ، بل يهتم بوقته الذي هو فيه ؛ فإنَّ الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الوقت الحاضر ، وكلما حضر وقتٌ اشتغل عنه بالطرفيْن ، فتصير أوقاته كلها فواتًا .

قال الشافعي رضي الله عنه : صحبتُ الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتيْن ، سمعتُهم يقولون : الوقت سيفٌ ، فإنْ قطعتَه ، وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغلْها بالحق ، وإلَّا شغلتك بالباطل .

قلت : يا لهما من كلمتيْن ، ما أنفعهما وأجمعهما ، وأدلهما على علوّ همة قائلهما ويقظته ! »[٢] .

الغيرة القاتلة على الوقت عند العابد :

قال الإمام ابن القيم وهو يتحدث عن درجات الغيرة شارحًا لكلام شيخ الإسلام الهروي ، قال : « الدرجة الثانية : غيرة المريد ، وهي غيرةٌ على وقتٍ فات ، وهي غيرة قاتلة ؛ فإن الوقت وَحِيُّ التقضي ، أبيُّ الجانب ، بطيُّ الرجوع .

و « المريـدون » هم أرباب الأحوال ، و « العباد » أرباب الأوراد والعبادات ، وكلُّ مريد عابد ، وكلّ عابد مريد ، لكن القوم خصوا أهلَ المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم « المريد » ، وخصّوا أصحاب العمل المجرد باسم « العابد » ، وكل مريد لا يكون عابدًا فزنديق ، وكل عابد لا يكون

(١) مدارج السالكين ١٢٩/٣ - ١٣٠ .
(٢) مدارج السالكين ١٢٨/٣ - ١٢٩ .

مريدًا فمُراءٍ . والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد ، وعند المريد هو وقت الإقبال على الله ، والجمعية عليه والعكوف عليه بالقلب كلّه .

و « الوقت » أعز شيء يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك ، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألبتة ؛ لأنَّ الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاصّ ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تدارُكه .

وقوله : « وهي غيرة قاتلة » يعني مضرة ضررًا شديدًا بيّنًا يشبه القتل ؛ لأنّ حسرة الفوت قاتلة ، ولا سيما إذا علم المتحسِّر أنه لا سبيل له إلى الاستدراك .

وأيضًا : فالغيرة على التفويت تفويت آخر ، كما يقال : الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر . ولذلك يقال : الوقت سيف ، إن لم تقطعه وإلا قطعك .

ثم بيّن الشيخ السبب في كوْن هذا الغيرة قاتلةً ، فقال : « فإن الوقت وَحِيّ التقضي » أي : سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : « الوحا الوحا ، العَجل العجل » ، والوَحْيُ:الإعلام في خفاء وسرعة ، ويقال : جاء فلان وَحيًّا . أي : مَجيئًا مسرعًا ، فالوقت منقضٍ بذاته ، منصرمٌ بنفسه .

فمَن غفل عن نفسه تصـرَّمتْ أوقاته ، وعظم فواته ، واشتدت حسراته ، فكيف حاله إذا علم عند تحقُّقِ الفوت مقدار ما أضاع ، وطلب الرُّجعَىٰ فحيل بينه وبين الاسترجاع ، وطلَب تناولَ الفائت ، وكيفَ يرد الأمس في اليوم الجديد ؟! ﴿ **وأنّى لهُمُ التّناوُشُ مِن مكانٍ بعيد** ﴾ ومُنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه .

فيا حسراتٍ ما إلى ردِّ مثلها ... سبيلٌ ولو رُدّتْ لهانَ التحسُّرُ
هي الشهواتُ اللاءِ كانت تحوَّلتْ ... إلى حسراتٍ حين عزَّ التصبُّرُ
فلو أنها ردّتْ بصبرٍ وقوةٍ ... تَحَوَّلْنَ لذّاتٍ وذو اللُّب يُبْصرُ

ويقال : إن أصعب الأحوال المنقطعة انقطاع الأنفاس ؛ فإن أربابها إذا صعِد النَّفس الواحد صعّدوه إلى نحو محبوبهم ، صاعدًا إليه ، متلبسًا بمحبته والشَّوْق إليه ، فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتىٰ يُتبعوه نفَسًا آخرَ مثله ، فكل أنفاسهم بالله ، وإلى الله ، متلبّسة بمحبته ، والشوق إليه والأنس به ، فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم ، وكثير منهم يرى في نومه أنه كذلك ، لالتباس روحه وقلبه ، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ، ولا تستنكر هذه الحال ؛ فإنّ المحبة إذا غلبتْ على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة .

والمقصود أن الواردات سريعة الزوال ، تمرُّ أسرع من السحاب ، وينقضي الوقت بما فيه ، فلا يعود عليك منه إلا أثره ، وحكمه ، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ؛ فإنه عائد عليك لا محالة . لهذا يقال للسعداء : ﴿ **كلوا واشربُوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيّامِ الخالية** ﴾ ويقال للأشقياء: ﴿ **ذلكَ بما كنتمْ تفرحونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كنْتُمْ تمرحون** ﴾ »[١] .

ويقول ابن القيم في الإشفاق ودرجاته : « (الدرجة الثانية : إشفاقٌ على الوقت أنْ يشوبه تفرُّق) . أي يحْذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل »[٢] .

قالوا : مِن علامة المقت ، إضاعة الوقت

وكنْ صارمًا كالوقت فالمَقْتُ في عسى وإيـاك علَّ فهي أخطر علَّـةِ[٣]

جميع المصالح تنشأ مِن الوقت :

يقول ابن القيم : « أعلى الفِكَر وأجلّها وأنفعها ما كان لله والدار

---

(١) مدارج السالكين ٣/٤٩ - ٥٠ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥١٩ .

(٣) قيمة الزمن عند العلماء ص٢٤ .

الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع، ....،....،...، النوع الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته ، وجمع الهمِّ[1] كلّه عليه ، فالعارف ابنُ وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحُه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ مِن الوقت ، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا »[2].

الناكِصُون على أعقابهم وإضاعة الوقت :

يقول ابن الجوزي : « رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا : إن طال الليل فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتابٍ فيه غزاةٌ وسمر . وإن طال النهار فبالنوم ، وهم على أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق ، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر ، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في تعبئة الزاد والتأهُّب للرحيل ؛ إلا أنهم يتفاوتون ، وسبب تفاوتهم قلةُ العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة ، فالغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لا مع خفير . فكمْ ممن قد قُطعت عليه الطريق فبقي مفلسًا !.

فاللهَ اللَّهَ في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل الفوات ، واستشهِدُوا العلم، واستدلُّوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد . فكأنْ قد حدا الحادي فلم يفهمْ صوته مِنْ وقْع الندم .

وأيُّ دناءة للهمة أسفل مما نراه في عصرنا من شباب هذه الأمة ، اللّاهين الشاردين وراء كلّ ناعق وناعقة ، يضيّعون الأوقات في المسارح وأمام التلفاز وفي الملاهي أو دُور الخيّالة « السينما » ، أو في مشاهدة مباريات كرة القدم التي أصبحت عبادة قلّ مَن ينجو مِن أسرها ..

---

(١) الهمّة والعزم .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي .

إني لأعجب مِن حاضر أمةٍ شبابُها يجلس أمام التلفاز بثماني ساعاتٍ لمشاهدة كأس العالم في كرة القدم .. وربما طال اللَّعب إلى الفجر .. ويجعلون قدوتهم رِجْلَ « مارادونا » السِّكِّير المقامر الكافر الذي يلبَس طاقية الحاخام ويبكي أمام حائط المبكى قبل ذهابه إلى كأس العالم سنة ١٩٩٠ و سنة ١٩٩٤ ، أَعَلى هذا السكِّير الكافر تُنفق الأعمارُ ؟! .

سبحان من حَبس الناس عن طاعتهم .. وجعل هذا السكِّير يأسرهم بضياع عمرهم في لَعِبِهِ ومحبّته !! هؤلاء ما عاملوا مولاهم ولو بركعتيْن في ظلمات الليالي .

فالناكصون على أعقابهم مِن شباب الأمة أضعافُ أضعافِ مِنَ اقتحم العقبة !

خُذ من الألف واحدًا واتْرُكِ الكلَّ مِن بعده[1]

رجلٌ بألف ... وألفٌ بخفٍّ !!

واعجبا... تضيع منك حبة فتبكي، وقد ضاع عمرك وأنت تضحك ، تستوفي مكيال هواك وتطفِّفُ في مكيال صلاتك ﴿ **ألا بُعدًا لمدينَ** ... ﴾ غدًا تُوبَّخُ وقتَ عَرْض ألواح ﴿ **أوَ لمْ نعمركم** ... ﴾، بضاعتك أيامُ عمرك وبقية عمر المؤمن لا قيمة له .

يقول ابن رجب الحنبلي : « السعيد مَن اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات وتقرّب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات ، فعسى أن تصيبه نفحةٌ من تلك النفحات ، فيسعد بها سعادةً يأمن بعدها مِن النار وما فيها من اللّفحات » .

وقد خرّج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما مِن حديث أبي هريرة مرفوعًا : « اطلبوا الخير دهرَكم ، وتعرّضوا لنفحات رحمة ربكم ؛ فإن لله

---

(١) مدارج السالكين ٣/١٣١ .

نفحاتٍ من رحمته يصيب بها مَن يشاء من عباده » .

وفي روايةٍ للطبراني مِن حديث محمد بن مسلمة مرفوعًا : « إن لله في أيام الدهر نفحاتٍ ، فتعرضوا لها ، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحةٌ فلا يشقى بعدها أبدًا » .

وعن مجاهد قال : ما من يوم إلا يقول : ابنَ آدم ، قد دخلتُ عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم ، فانظر ماذا تعمل فيّ . فإذا انقضى طواه ، ثم يختم عليه فلا يُفكُّ حتى يكون الله هو الذي يفضُّ ذلك الخاتم يوم القيامة .

وعن مالك بن دينار قال : كان عيسى عليه السلام يقول : إن هذا الليل والنهار خزانتانِ ، فانظروا ما تضعون فيهما . وكان يقول : اعملوا الليل لما خُلق له ، واعملوا النهار لما خُلق له .

وعن الحسن قال : ليس يوم يأتي مِن أيام الدنيا إلا يتكلم يقول : يا أيها الناس ، إني يوم جديد ، وإني على ما يُعمل فيّ شهيد ، وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة .

وعنه أنه كان يقول : يا ابن آدم ، اليوم ضيفُك ، والضيف مرتحلٌ يحمدك أو يذمُّك ، وكذلك ليلتُك .

وعن بكر المزني أنه قال : ما من يوم أخرجه اللهُ إلى أهل الدنيا إلا ينادي : ابن آدم ، اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي ، ولا ليلة إلّا تنادي : ابن آدم ، اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي .

وعن عمر بن ذَرٍّ أنه كان يقول : « اعملوا لأنفسكم - رحمكم الله - في هذا الليل وسواه ؛ فإن المغبونَ مَن غبن خيرَ الليل والنهار ، والمحروم مَن حُرم خيرَهما ، إنما جُعلا سبيلًا للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، ووبالًا على الآخرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيُوا لله أنفسَكم بذكره ، فإنما « تحيا القلوب بذكر الله عز وجل » .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربّه مَثَل الحيّ والميت » .

كم مِن قائمٍ لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته ، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله عز وجل للعابدين غدًا ، فاغتنموا ممرّ الساعات والليالي والأيام رحمكم الله .

قال ابن أبي الدنيا : أنشدنا محمود بن الحسين :

مضي أمسُك الماضي شهيدًا مُعدّلَا ... وأعقبَه يـومٌ عـليـكَ جـديـدُ

فيـومُـكَ إنْ أغـنيتَـهُ عـادَ نفعُـهُ ... عليكَ وماضي الأمسِ ليسَ يعودُ

فإنْ كنتَ بالأمسِ اقترفتَ إساءَةً ... فثَـنِّ بإحسانٍ وأنـت حميـدُ

فلا تُرجِ فعْل الخير يومًا إلى غدٍ ... لعلّ غـدًا يـأتي وأنـتَ فقيـدُ

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً لمَنْ أراد أنْ يذّكّر أوْ أراد شكورا** ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

قال قتادة : « فأدُّوا إلى الله مِن أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار ، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم ، يقرّبان كل بعيدٍ ، ويبليان كل جديد ، ويجيئان بكلّ موعودٍ إلى يوم القيامة »(١) .

يقول ابن الجوزي : « ينبغي للإنسان أن يعرف شرفَ زمانه ، وقدْر وقته ، فلا يضيّع منه لحظةً في غير قُرْبةٍ ، ويقدم الأفضل فالأفضل مِن القوْل والعمل. ولتكُنْ نيتُه في الخير قائمةً – من غير فتورٍ – بما يعجز عنه البدن من العمل .

وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات :

فنُقل عن عامر بن عبد قيس أن رجلًا قال له : كلِّمني . فقال له :

(١) لطائف المعارف ١١ – ١٣ .

أمسك الشمس .

وقال ابن ثابت البناني : ذهبت أُلَقِّنُ أبي ، فقال : يا بني ، دعني ؛ فإني في وِرْدي السادس .

وَدخلوا على بعض السلف عند موته وهو يصلي ، فقيل له ، فقال : الآن تُطوىٰ صحيفتي .

فإذا علم - وإنْ بالغ في الجد - أن الموت يقطعه عن العمل ، عَمِل في حياته ما يدوم له أجره بعد موْته . فإن كان له شيءٌ من الدنيا وقف وقْفًا ، وغرس غرسًا ، وأجرى نهرًا ، ويسعى في تحصيل ذريةٍ تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له . أو أن يصنف كتابًا من العلم ، فإنَّ تصنيفَ العالم ولدُه المُخلَّد ، وأن يكون عاملًا بالخير ، عالمًا فيه ، فينقل مِن فعْله ما يقتدي الغيرُ به ، فذلك الذي لم يمت .

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ »[1]

قال ﷺ : « سَبعٌ يجري للعبد أجرُهنَّ وهو في قبره بعد موْته : من علّم علمًا ، أوْ أجرىٰ نهرًا ، أو حفـر بئرًا ، أو غرس نخلًا ، أو بنى مسجدًا ، أو ورّث مصحفًا ، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موْته » . فهذا من علوّ الهمة في حفْظ الوقت حتى بعد الممات .

ويقول ابن الجوزي رحمه الله : « رأيتُ العاداتِ قد غلبت الناس في تضييع الزمان ، وكان القدماء يحذرون من ذلك :

قال الفضيل : أَعرفُ مَن يُعد كلامه مِن الجمعة إلى الجمعة .

ودخلوا على رجلٍ من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك. فقال: أصدقكم؟ كنت أقرأ فتركتُ القراءة لأجلكم .

---

(١) صيد الخاطر ٢٠ - ٢١ .

وجاءَ « سرِيّ السّقطيّ » إلى رجلٍ من المتعبدين فرأى عنده جماعةً فقال : صرتَ مناخَ البطّالين ! ثم مضى ولم يجلس .

ومتى لانَ المَزُورُ طمِعَ فيه الزائرُ فأطال الجلوس فلم يسْلَم من الأذى .

وقد كان جماعة قعودًا عند معروف فأطالوا . فقال : إن مَلَك الشمس لا يفتر في سوقها ، أفما تريدون القيام ؟!.

وقيل لكُرْز بن وبرة : لو خرجتَ إلى الصحراء . فقال : يبطل الزوجار .

وكان داود الطائي يستفُّ الفتيت ويقول : بين سفِّ الفتيت وأكْل الخبز قراءة خمسين آية .

وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى ، فقال : إني وقت الإفطار أُحسُّ بروحي كأنها تخرج ؛ لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر .

وأوْصى بعضُ السلف أصحابه فقال : إذا خرجتم من عندي فتفرّقوا ، لعلَّ أحدكم يقرأ القرآن في طريقه ، ومتى اجتمعتم تحدثتم .

واعلم أن الزمان أشرفُ من أن يضيّع منه لحظةٌ ؛ فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَن قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرست له نخلةٌ في الجنة » . فكم يضيّع الآدمي من ساعاتٍ يفوته فيها الثواب الجزيل !

والذي يعين على اغتنام الزمان : الانفراد والعزلة مهما أمكن ، والاختصار على السلام أو حاجة مُهمَّةٍ لمن يلقى ، وقلة الأكل ، فإن كثرته سببُ النوم الطويل وضياع الليل ، ومَن نظر في سِيَر السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرتُه[1] .

---

(١) صيد الخاطر ٤٧٩ - ٤٨٠ .

واعجبا مِنْ مضيّع لحظةٍ :

يقول ابن الجوزي : « والله إني لأتخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرضٍ ولا بُصاقٍ ولا نومٍ ولا آفةٍ تطرأ ، بل صحةٌ دائمةٌ وأغراضٌ متصلةٌ لا يعتورها مُنغِّصٌ ، في نعيم متجدد في كلّ لحظة إلى زيادةٍ لا تتناهى - فأطيش ، ويكاد الطَّبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أنَّ الشرع قد ضمنه . ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدْر الاجتهاد هاهنا . **فواعجبا من مضيع لحظةٍ يقع فيها !!** فتسبيحةٌ تُغرس له في الجنة نخلةً أُكُلُها دائمٌ وظلُّها . فكل الآفات والمخافات في نهار الأجل ، وقد اصفرَّت شمسُ العمر ؛ فالبدارَ البدارَ قبل الغروب ، ولا معينَ يرافق على تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب ، فإذا فرغ المجلس فالنظر في سير المجِدِّين ، فإنه يعود مستجلبًا للفكر منها شتَّى الفضائل ، والتوفيق مِن وراء ذلك ، ومتى أرادك لشيءٍ هيَّأك له . فأما مخالطةُ الذين ليس عندهم خبر إلا العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل . والعزلة عن الشرّ حميةٌ والحمية سببُ العافية »[1] .

إياك وقطَّاع الطريق إلى الآخرة :

مخالطة أهل الدنيا مضيِّعةٌ للوقت قاطعةٌ طريق الآخرة . فالواحد منهم قبرٌ يسعى إلى قبرٍ مثله ، زَمِنٌ يقوده زَمْنَى مثله .. فيا شَرِهُ ، هذا سمٌّ والقرب منه هلاكٌ .. فإن ابتليتَ به فأعطه ظاهرك وترحَّل عنه بقلبك .

وشغلتُ عن فهْم الحديث سوى ... ما كان عنك فإنه شغْلي
وأديم نحو مُحدثي وجهي ليرى ... أنْ قدْ عقلتُ وعندكم عقلي

ويقول الآخر :

واللهِ ما طلعتْ شمسٌ ولا غربتْ ... إلا وحبُّكَ مقرونٌ بأنفاسي

---

(١) صيد الخاطر ص٣٢٩ .

ولا جلستُ إلى قوم أحدِّثهم ... إلا وأنت حديثي بين جُلّاسي

الخلطة مضيِّعةٌ للوقت مُفسدةٌ للقلب :

يقول ابن القيم : « فأما ما تؤثّره كثرةُ الخلطة : فامتلاء القلب مِن دُخان أنفاس ابن آدم حتى يسودَّ ويوجب له تشتُّتًا وتفرُّقًا ، وهمًّا وغمًّا وضَعْفًا ، وحمْلًا لما يعجز عن حمْله من مُؤْنة قرناء السوء ، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم ، وتَقَسّم فكرُهُ في أوديةِ مطالبهم وإراداتهم ، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة ؟!

هذا ، وكمْ جلبتْ خلطةُ الناس من نقمةٍ ، ودفعتْ من نعمةٍ ، وأنزلتْ من محنةٍ ، وعطّلتْ من منحة ، وأحلَّتْ من رزيّة ، وأوقعتْ في بليّة ! وهل آفةُ الناس إلا الناس ؟!

وهل كان على أبي طالب - عند الوفاة - أضرّ من قرناء السوء ؟! لم يزالوا به حتى حالوا بينَه وبيْن كلمةٍ واحدةٍ تجلِب له سعادة الأبد .

والضابط النافع في أمْر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلُّم العلم، والجهاد، والنصيحة، ويعتزلهم في الشرِّ وفضول المباحات ، وإنْ دعتِ الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهدْ أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إنْ أمكنه ، ويشجع نفسه ويُقوِّي قلبَه ، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك ، بأنَّ هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار علمْك وحالك ، ونحو ذلك،فليحاربْه وليستعن بالله ، ويُؤثّر فيهم من الخير ما يمكنه ، فإنْ أعجزته المقادير عن ذلك فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كَسَلِّ الشعرة من العجين ، ولْيكنْ فيهم حاضرًا غائبًا ، قريبًا بعيدًا ، نائمًا يقظانَ، ينظر إليهم ولا يبصرهم ، ويسمع كلامهم ولا يعيه ؛ لأنه قد أخذ قلبه مِن بينهم ، ورقَى به إلى الملأ الأعلى ، يسبح حوْل العرش مع الأرواح العُلْوية الزكيّة ، وما أصعب هذا وأشقَّهُ على النفوس ، وإنه ليسيرٌ

على مَن يسَّرهُ الله عليه ، فبين العبد وبيْنه أن يَصدُق الله تباركَ وتعالى ، ويُديم اللُّجأ إليه ، ويُلقي نفسَه على بابه طريحًا ذليلًا ، ولا يعين على هذا إلا محبةٌ صادقةٌ ، والذكر الدائم بالقلب »[١].

تَعَوُّذ ابن الجوزي مِن صحبة البطَّالين :

قال ابن الجوزي : « أعوذ بالله من صحبة البطَّالين ؛ لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما اعتاده الناس مِن كثْرةِ الزيارة ، ويسمُّون ذلك التَّردُّدَ خدمةً ، ويُطيلون الجلوس ، ويُجرون فيه أحاديث الناس وما لا يُغني ، ويتخلَّله غِيبةٌ ، وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس ، وربما طلبه المَزور ، وتشوَّق إليه واستوحش مِن الوحدة ، وخُصوصًا في أيَّام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعضٍ ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرتُه مِن تضييع الزمان ، فلما رأيت أنَّ الزمان أشرفُ شيءٍ ، والواجب انتهابُه بفعْلِ الخير؛ كرهْتُ ذلك وبقيتُ معهم بين أمريْن : إنْ أنكرتُ عليهم وقعتْ وحشةٌ لمَوْضع قطْع المألوف ، وإنْ تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان ! فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غُلبت قصّرت في الكلام لأتعجل الفراق ، ثم أعددتُ أعمالًا لا تمنع مِن المحادثة لأوقات لقائهم ، لئلا يمضي الزمان فارغًا ، فجعلتُ من الاستعداد للقائهم قطْع الكاغد[٢] ، وبرْي الأقلام ، وحزْم الدفاتر ؛ فإن هذه الأشياء لا بد منها ولا تحتاج إلى فكرٍ وحضور قلبٍ ، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتهم لئَلَّا يضيعَ شيءٌ مِن وقتي »[٣].

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥٤ - ٤٥٦ .
(٢) قصُّ الورق .
(٣) صيد الخاطر .

« قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غربتْ شمسُه ، نقص فيه أجَلي ، ولم يزد فيه عملي .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعملْ فيهما .

وقال الحسن البصري رحمه الله : يا ابن آدم ، إنما أنت أيامٌ ، فإذا ذهب يومٌ ذهبَ بعضُك . وقال أيضًا : أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدّ منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم .

وانظْر إلى سادات الرجال وحفْظهم لأوقاتهم :

فهذا حماد بن سلمة ، يقول عنه تلميذه عبد الرحمن بن مهدي :

« لو قيل لحمّاد بن سلمة : إنك تموت غدًا،ما قدَر أن يزيد في العمل شيئًا .

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي : لو قلت لكم : إني ما رأيتُ حماد بن سلمة ضاحكًا،لَصدقتُ ؛ كان مشغولًا : إما أن يحدّث ، أو يقرأ ، أو يسبّح ، أو يصلي ، وقد قسّم النهار على ذلك .

قال يونس المؤدِّب : مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة رحمة الله عليه »[1] .

« كان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول : أثقل الساعات عليّ : ساعةٌ آكُلُ فيها »[2] .

وانظر - يرحمك الله - إلى الإمام أبي يوسف القاضي صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، يباحث - وهو في النَّزع والذّماء - بعض عُوّاده في مسألةٍ فقهيةٍ : « قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري : مرض أبو يوسف فأتيته أعوده فوجدتُه مغمًى عليه ، فلما أفاق قال لي : يا إبراهيم ،

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢٠٢/١ ، وسير أعلام النبلاء ٤٤٧/٧ .

(٢) الحثُّ على طلب العلم - لأبي هلال العسكري ص٨٧ .

ما تقول في مسألة ؟ قلت : في مثل هذه الحالة ؟! قال : ولا بأس بذلك ، ندرس لعلّه ينجو به ناجٍ . ثم قال : يا إبراهيم ، أيّما أفضل في رمْي الجمار ، أن يرميها ماشيًا أوْ راكبًا ؟ قلت : راكبًا . قال : أخطأت . قلت : ماشيًا . قال : أخطأت . قلتُ : قُلْ فيها ، يرضى الله عنك . قال : أمّا ما كان يُوقف عنده للدعاء فالأفضل أن يرميه ماشيًا ، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكبًا . ثم قمت مِن عنده ، فما بلغت باب داره حتى سمعتُ الصراخ عليه ، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه »[1] .

رحمة الله على أبي حنيفة وتلاميذه ، فهذا محمد بن الحسن الشيباني الإمام ، التلميذ الثاني لأبي حنيفة ، « كان لا ينام الليل وكان يضع عنده دفاتر - يعني كتبًا - فإذا ملّ مِن نوعٍ نظر في آخر ، وكان يزيل نوْمه بالماء ويقول : إن النوم من الحرارة »[2] .

العجب العجابُ عند عُبيد بن يَعيش :

وهذا الإمام الحافظ عُبيد بن يعيش شيخ البخاري ومسلم ، روى عنه عمّار بن رجاء قال : « سمعت عبيد بن يعيش يقول : أقمت ثلاثين سَنةً ما أكلتُ بيدي بالليل ، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث »[3] .

ابن جرير الطبري آية من الآيات في حفْظِ الوقت :

قال القاضي أبو بكر أحمد بن كامل الشجري تلميذ ابن جرير وصاحبه : « كان إذا أكل نام في قميصٍ قصير الأكمام ، ثم يقوم فيصلي الظهر في بيته ، ويكتب في تصنيفه إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ويجلس للناس يُقرىء ويُقرأ عليه إلى المغرب ، ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء ص٢٨ ، ٢٩ نقلًا عن الجواهر المضيّة ١/٧٦ .
(٢) قيمة الزمن ص٣١ نقلًا عن مفتاح السعادة - لطاشكبري زادة ١/٣٦ .
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - للخطيب ٢/١٧٨ .

إلى العشاء الآخرة ، ثم يدخل منزله ، وقد قسّم ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه والخلق كما وفّقه الله عز وجل » .

« وقال الخطيب البغدادي : سمعت السِّمسمي يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنةً ، يكتب في كلّ يوم منها أربعين ورقةً .

وحدّث تلميذه الفرْغاني في كتابه - المعروف بكتاب « الصلة » ، وهو كتاب وصل به « تاريخ ابن جرير » - أن قومًا من تلاميذ ابن جرير ، حصَّلوا أيَّامَ حياته - منذ بلغ الحُلُم إلى أن تُوفِّي وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة - ثم قسَّموا عليها أوراق مُصنَّفاته ، فصار منها على كلّ يوم أربع عشرة ورقةً ، وهذا شيءٌ لا يتهيَّأ لمخلوق إلا بحسْنِ عنايةِ الخالق .

إذا حَسَبْنا أيام الاثنين والسبعين سنةً وجعلنا لكلِّ يوم منها أربعَ عشرةَ ورقة تصنيفًا ، كان مجموع ما صنفه الإمام ابن جرير نحو ثماني وخمسين وثلاثمائة ألفِ ورقةٍ .

تبارك الله ... ماذا تبلغُ الهمم !! فهو في كثرة تآليفه بمثابة دارٍ للنشر ، وهو فردٌ واحدٌ بنفسه ، يكتب بقلمه لنفسه ويؤلف على ورقه بنفسه ، ويُخرج للناس فكره وعلمه عسلًا مُصفًّى وزبدًا شهيًّا ، وما كان يكون له كل ذلك ، لولا أنه كان يكسب وقته »(١) .

وهذا الإمام ابن الخياط النحوي ، « يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق ، وكان ربما سقط في جُرْفٍ أوْ خبطته دابَّة »(٢) .

وانظر - يرحمك الله - إلى الحاكم الشهيد أبي الفضل محمد بن محمد المروزي القاضي الوزير إمام أصحاب أبي حنيفة ، يقول عنه الحاكم صاحب

---

(١) قيمة الزمن ص٤٣ - ٤٤ .

(٢) قيمة الزمن ص٤٥ - ٤٦ .

« المستدرك » : « لقد حضرتُ عشية الجمعة مجلسَ الإملاء للحاكم أبي الفضل ، ودخل أبو علي بن أبي بكر بن المظفر الأمير ، فقام له قائمًا ولم يتحرَّك من مكانه ، وردّه من باب الصُّفَّة ، وقال : انصرف أيها الأمير ، فليس هذا يومك »[١].

وهذا شيخ المحدّثين الخطيب البغدادي ، « كان يمشي وفي يده جزءٌ يطالعه » ، وما ذلك إلا للحفاظ على الوقت ، وكسْب الزمن أن يذهب فارغًا أثناء المشي دون استفادةٍ به في جنب العلم .

وهذا الإمام سُليم الرازي أحد أئمة الشافعية المُتوفَّى سنة ٤٤٧هـ ، قال عنه التاج السُّبكي : « كان - رحمه الله - مِن الورع على جانبٍ قويٍّ ، يحاسب نفسه على الأوقات ، لا يدع وقتًا يمضي بغير فائدة ، إما ينسخ أوْ يدرس أوْ يقرأ ، وينسخ شيئًا كثيرًا ، قال ابن عساكر : « ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني أنه نزل يومًا إلى داره ورجع ، فقال : قد قرأت جزءًا في طريقي . قال أبو الفرج : وحدثني المؤمّل بن الحسن أنه رأى سُلَيمًا حَفِي عليه القلم ، فإلى أن قَطّه جعل يحرك شَفَتَيْه ، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم ؛ لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ » .

أيْ لما شغلتْ يداه حرّك شفتيْه بذكر الله؛لئلا يذهب الزمان فارغًا ، فللّهِ درُّه .. ما أَعرفَهُ بالغنائم ! »[٢].

ابن عقيل وابن الجوزي ... غاية الغايات في حفْظ الوقت :

انظر - رحمك الله - إلى الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي وحفظه لوقته ، ومعرفته بنفاسته ، يقول : « إني لا يحل لي أن أضيّع ساعة مِن عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرةٍ أو مناظرة ، وبصري عن

---

(١) قيمة الزمن ص٤٦ .
(٢) قيمة الزمن ص٥٠ ، ٥١ .

مطالعة ، أَعملتُ فكري في حالِ راحتي وأنا منطرحٌ ، فلا أنهضُ إلا وقد خطر لي ما أسطّره ، وإني لأجد مِن حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنةً . وأنا أُقصّر بغاية جهدي أوقاتِ أَكْلي ، حتى أختار سَفَّ الكَعْكِ ، وتحسِّيهِ بالماء على الخبز ؛ لأجل ما بينهما من تفاوُتِ المضْغ ، توفُّرًا على مطالعةٍ ، أو تسطيرِ فائدةٍ لم أدركها فيه ، وإنَّ أجَلَّ تحصيلٍ عند العقلاء - بإجماع العلماء - هو الوقت ، فهو غنيمةٌ تُنتهَزُ فيها الفُرَصُ ، فالتكاليف كثيرةٌ والأوقات خاطفةٌ » .

هذا الإمام العظيم الذي يقول عنه ابن الجوزي : « كان الإمام ابن عقيل دائم الاشتغال بالعلم ، وكان له الخاطر العاطر ، والبحث عن الغوامض والدقائق ، وجعل كتابه المسمَّى بـ « الفنون » مناطًا لخواطره وواقعاته ، وله تصانيف كثيرةٌ في أنواع العلوم ، وأكبر تصانيفه : « الفنون » ، وهو كتاب كبيرٌ جدًّا ، فيه فوائد كثيرةُ جليلةٌ في الوعظ ، والتفسير ، والفقه وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والنحو ، واللغة والشعر ، والتاريخ » .

قال الذهبي : « لم يُصنَّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب ، حدثني مَن رأى منه المجلَّدَ الفلاني بعد الأربعمائة . قال ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثمانمائة مجلدة » .

فانظر - رحمك الله - كيف يُثمر حفظ الوقت ودأب النفس في الخير والعلم « ثمانمائة مجلدة » ، أكبر كتاب في الدنيا ، إلى جانب تآليف كثيرةٍ غيره .

يقول ابن عقيل في فاتحة كتابِهِ « الفنون » : « أما بعد ، فإنَّ خير ما قُطِع به الوقت وشُغلت به النفس ، فتُقرِّب به إلى الربِّ ، جلَّت عظمته - طلبُ علمٍ أَخرج من ظُلمةِ الجهل إلى نور الشرع ، وذلك الذي شَغلتُ به نفسي ، وقطعت به وقتي ، فما أزال أعلق ما أستفيده من ألفاظ العلماء ،

ومن بطون الصحائف ، ومن صَيْد الخواطر التي تنثرها المناظرات والمقابَسات في مجالس العلماء ، ومجامع الفضلاء طمعًا في أن يعْلق فيَّ طرفٌ من الفضْل ، أبعد به عن الجهل ، لعلِّي أصل إلى بعض ما وصل إليه الرجال قبلي ، ولو لم يكن مِن فائدته عاجلًا إلَّا تنظيف الوقت من الاشتغال برُعُونات الطباع التي تنقطع بها أوقاتُ الرِّعَاع لكفَى ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبي ونِعم الوكيل » .

وانظر إلى الإمام العظيم ابن الجوزي في دُرَرِهِ التي ينصح بها ولده – المسماة بـ « لفتة الكبد في نصيحة الولد » –: « اعلم يا بنيَّ أنَّ الأيام تُبسَطُ ساعاتٍ ، والساعاتُ تُبْسَط أنفاسًا ، وكلُّ نفَس خِزانةٌ ، فاحذرْ أن يذهب نَفَسٌ بغير شيءٍ ، فترى في القيامة خِزانةً فارغةً فتندم ، وانظر كلَّ ساعةٍ مِن ساعاتك بماذا تذهب ، فلا تُودِعْها إلا إلى أشرف ما يمكن ، ولا تهملْ نفسك ، وعَوِّدْها أشرف ما يكون من العمل وأحسنه ، وابعث إلى صُندوقِ القبر ما يسرُّك يوم الوصول إليه » .

فماذا بعث ابن الجوزي إلى صندوق قبره ؟ وكيف كانت همته في حِفْظ وقْتِهِ ؟

فاتني أنْ أرىٰ الديـار بطـرفي ... فلعلّي أرىٰ الديار بسَمعي

لقد كانت همة ابن الجوزي في حفظ وقته عَلِيَّة ، تدل عليها تصانيفهُ التي هي زبدة عمره :

قال ابن رجب في ترجمة ابن الجوزي : « لم يترك فنًّا من الفنون إلا وله فيه مصنَّف ، وسئل عن عدد تآليفه ، فقال : زيادة على ثلاثمائة وأربعين مُصنَّفًا ، منها ما هو عشرون مجلّدًا ، ومنها ما هو كرّاسٌ واحد .

وقال الموفَّق عبد اللطيف : كان ابن الجوزي لا يُضيّع مِن زمانه شيئًا ، يكتب في اليوم أربعة كراريسٍ ، ويرتفع له كلُّ سنةٍ من كتابته ما

بين خمسين مجلدًا إلى ستِّين »[١].

« قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : سمعت جدي يقول على المنبر في آخر عُمرِه : كتبت بإصبعَيّ هاتيْن ألفيْ مجلدٍ »[٢] .

قال ابن الوردي في « تتمة المختصر في أخبار البشر » : « قيل : إنه جُمعت الكراريسُ التي كتبها أبو الفرج ابن الجوزي وحُسبت مدة عُمُره ، فقسِّمتْ على المدة ، فكان ما خصّ كلَّ يوم منها تسعةُ كراريس » .

ذكر ابن رجب الحنبلي في « ذيل طبقات الحنابلة »[٣] أن الإمام ابن تيمية قال في أجوبته المصرية : كان الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي كثير التصنيف والتأليف ، وله مصنفات في أمور كثيرة ، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألفِ مصنفٍ ، ورأيت بعد ذلك ما لم أرَه .

وقال الذهبي : وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل .

ونقل القمي في « الكُنىٰ والألقاب » « أن بُراية أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديث جُمعتْ فحصُل منها شيءٌ كثيرٌ ، وأوْصىٰ أنْ يُسَخَّن بها الماء الذي يُغسل به بعد موْته ، ففُعل ذلك فكَفَت وفضل منها »[٤] .

فرحمةُ الله على شيخ الإسلام ابن الجوزي .

لا تقعدنَّ لذكرنا في ذكْرِهِمْ ليْسَ الصحيح إذا مشىٰ كالمُقْعَدِ

شيخ الإسلام ابن تيمية :

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، كان لا يُفَوِّت ساعةً مِن وقته دون

---

(١) ذيْل طبقات الحنابلة ٤٠١/١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١٣٤٤/٤ ، وذيل طبقات الحنابلة ٤٠١/١ .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٤١٥/١ .

(٤) فوات الوفيات ٣٨/١ ، ٤٢ .

تعليم أو تأليفٍ أو عبادة ، حتى بلغتْ مؤلفاته المئات، بل لم يمكن حصْرها للمتتبعين ، حتى ولا للشيخ نفسه ، رحمه الله .

قال ابن شاكر الكتبي : « إن تصانيفه تبلغ ثلاثمائة مجلدٍ . قال الذهبي : وما يبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدٍ »[١] .

قال ابن القيم : « وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه ، وكلامه ، وإقدامه ، وكتابته ، أمرًا عجيبًا فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة أو أكثر »[٢] .

وقال العلامة ابن رجب الحنبلي : « وأما تصانيفه فقد امتلأت بها الأمصار ، وجاوزت حدَّ الكثرة ، فلا يمكن لأحدٍ حصْرها »[٣].

الفخر الرازي :

قال الفخر الرازي : « والله إنني أتأسَّف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل ؛ فإن الوقت والزمان عزيز » .

الحافظ الأثري : عبد الغني المقدسي :

قال عنه تلميذه الضياء المقدسي : « كان لا يضيع شيئًا من زمانه ، كان يصلي الفجر ، ويلقن القرآن ، وربما لقّن الحديث ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قُبَيْل الظهر ، فينام نومة فيصلي الظهر ، ويشتغل بالتسميع أو النسخ إلى المغرب ، فيفطر إن كان صائمًا ، ويصلي العشاء ، ثم ينام إلى نصف الليل أو بعده ، ثم يتوضأ ويصلي إلى قريب الفجر ، وربما توضأ سبع مراتٍ أو أكثر ، ويقول : تَطِيبُ لي الصلاة ما

---

(١) فوات الوفيات ١/٣٨ ، ٤٢ .
(٢) الوابل الصيب ص١٠٨ .
(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٠٣ .

دامت أعضائي رطبة . ثم ينام نومةً يسيرةً قبل الفجر ، وهذا دأبه »[١] .

ابن سُكَيْنة واختصار السلام :

وانظر - يرحمك الله - إلى شيخ الإسلام عبد الوهاب بن علي بن سُكَيْنة البغدادي الشافعي ، « كانت أوقاته محفوظة ، وكلماته معدودة ، فلم تمضِ له ساعةٌ إلا في قراءةِ قرآن ، أو ذكْرٍ ، أو تهجدٍ ، أو قراءةِ الناس عليه ، وكان يمنع الناس من التحديث في مجلسه بلغوٍ أو غيبةِ إنسانٍ ، أو ما لا فائدة فيه . لا يخرج من بيته إلا لحضور جمعةٍ أو عيد أو جنازة ، ولا يحضر دور أبناء الدنيا في هناءٍ ولا عزاء .

قال يحيى بن القاسم مدرس النظامية : كان ابن سُكَيْنة عالمًا عاملًا ، لا يضيّع شيئًا مِن وقتهِ ، وكنا إذا دخلنا عليه يقول : لا تزيدوا على « سلامٌ عليكم ، مسألة » ؛ لكثرة حرصه على المباحثة وتقرير الأحكام »[٢] .

وهذا والله شيءٌ عجيبٌ إذْ يدعوهم إلى اختصار السلام « سلامٌ عليكم » ، ويمنعهم من التجمُّل بالمجاملات المعتادة ، ويأمرهم أن يدخلوا في المباحثة والمدارسة فوْر سلامهم ، كسبًا للوقت .

شيخ الإسلام مجْد الدين ، أبو البركات ، ابن تيمية :

وعند آل تيمية الدُّرَرُ الغوالي :

فهذا شيخ الإسلام مجْد الدين أبو البركات ، عبد السلام بن عبد الله بن تيمية ، يروي أعجوبةً عنه ابن رجب الحنبلي فيقول : « قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم : حدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن عبد الحليم بن تيمية ، عن أبيه ، قال : كان الجد - مجد الدين - إذا دخل الخلاء يقول

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٥ - ٣٤ .

(٢) ذيل تاريخ بغداد ١/٣٥٤ - ٣٦٨ .

لي : اقرأ في هذا الكتاب ، وارفعْ صوتك حتى أسمع . قلت - ابن رجب -: يشير بذلك إلى قوة حرْصه على العلم ، وحفْظه لأوقاته »[1].

المنذري يَبْلُغ النهاية في حفْظ وقته :

قال التاج السُّبكي عن المنذري : « وقد درّس بالآخرة في دار الحديث الكاملية ، وكان لا يخرج منها إلا لصلاةِ الجمعة ، حتى إنه كان له ولد نجيبٌ محدّث فاضلٌ ، هو رشيد الدين أبو بكر محمد ، تُوفِّي سنة ٦٤٣هـ ، توفَّاه الله تعالى في حياته ليضاعف له في حسناته ، فصلى عليه الشيخ داخل المدرسة ، وشيّعه إلى بابها ، ثم دمعتْ عيناه ، وقال : أودعتُك يا ولدي الله تعالى ، وفارقه »[2]. ولم يخرج من المدرسة .

النَّوويّ :

قال ابن العطار تلميذ النووي : « ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيّع له وقتًا ، لا في ليل ولا في نهار ، إلا في الاشتغال بالعلم حتى في الطريق يكرّر أو يطالع ، وأنه دام على هذا ست سنين ، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق ، وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكْلة بعد عشاء الآخرة ، ويشرب شربة واحدة عند السَّحر ، ويمتنع عن أكْل الفواكه والخيار ، ويقول : أخاف أن يرطب جسمي ويجلب لي النوم .

أعاذلتي على إتْعابِ نفسي ... ورعْيي في الدّجى روْضَ السُّهادِ
إذا شام الفتى بَرْقَ المَعالي ... فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقادِ[3]

وقال غيره :

يَهْوَىٰ الدياجي إذا المغرورُ أغْفَلَها ... كأنَّ شُهْبَ الدياجي أعْينٌ نُجْلُ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٢٤٩ ، ٢٥٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٨/٢٦٠ .
(٣) البيتانِ لابن نباتة السعدي .

ابن النفيس ونفاسةُ وقته :

أمّا الإمام الفقيه مكتشفُ الدورة الدموية ابن النفيس ، فقال عنه الإمام برهان الدين إبراهيم الرشيدي : « كان العلاء بن النفيس إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مَبريَّةً ، ويدير وجهه إلى الحائط ، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره ، ويكتب مثل السَّيْل إذا انحدر ، فإذا كَلَّ القلم وحَفِيَ رمى به وتناول غيره ، لئلَّا يضيع عليه الزمان في بري القلم »(١) .

الإمام : الشمس الأصبهاني ... إمامٌ في حفْظ الوقت :

شمس الدين أبو الثناء الأصبهاني محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الشافعي .

قال عنه ابن حجر في « الدرر الكامنة » ، والشوكاني في « البدر الطالع » : « اشتغل في بلاده ، ومهر وتقدَّم في الفنون ، وقدِم دمشق بعد زيارة القدس في صفر سنة ٧٢٥هـ ، فبهرت أهلها فضائِلُه ، وسمع كلامه الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فبالغ في تعظيمه ، قال مرة : اسكتوا حتى نسمع كلام هذا الفاضل الذي ما دخل البلاد مثله . ثم انتقل إلى القاهرة وفيها توفي .

وممَّا يُحكىٰ عنه مِن حرصه على العلم وشحِّه بضياع أوقاته ، أن بعض أصحابه كان يذكر أنه كان يمتنع كثيرًا من الأكْل ، لئلا يحتاج إلى الشُّرب ، فيحتاج إلى دخول الخلاء ، فيضيع عليه الزمان »(٢) .

مَثَلُه مَثَلُ مَن يقول : وددتُ لو أن رزقي نواة أمصُّها ، لقد سئمت مِن كثرة ترددادي إلى الخلاء .

---

(١) الدرر الكامنة ٨٥/٦ .
(٢) البدر الطالع ٢٩٨/٢ .

ابن عساكر حافظ الدنيا :

والإمام مطلقًا ، الحافظ ابن عساكر ، قال عنه ولده المحدّث بهاء الدين القاسم : « كان أبي رحمه الله مواظبًا على الجماعة والتلاوة ، يختم كلّ جمعة ، ويختم في رمضان كلَّ يوم ، ويعتكف في المنارة الشرقية (من جامع دمشق) ، وكان كثير النوافل والأذكار ، يُحيي ليلة النصف والعيدين بالصلاة والذكر ، وكان يحاسب نفسَه على لحظة تذهب ، لم يشتغل منذ أربعين سنةً - أي منذ أذن له شيوخه بالرواية والتحديث - إلا بالجمع والتسميع حتى في نزهته وخلواته »[١] .

ألّف « تاريخ دمشق » الذي قال عنه ابن خلّكان : « قال لي شيخنا الحافظ العلّامة زكيّ الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري حافظ مصر - وقد جرى ذكْر هذا التاريخ ، وأخرج لي منه مجلدًا ، وطال الحديث في أمْره واستعظامه -: ما أظنُّ هذا الرجل إلا عزَم على وضْع هذا التاريخ مِن يوْم عقل على نفسه ، وشرع في الجمع مِن ذلك الوقت ، وإلا فالعمر يقصُر عن أنْ يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبُّه .

ولقد قال الحق ، ومَنْ وقف عليه عرَف حقيقة هذا القول ، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله ؟! وهذا الذي ظهر - ثمانون مجلدًا - هو الذي اختاره ، وما صحّ له هذا إلا بعد مُسوَّداتٍ ، ما كاد ينضبط حصرها ، وله - غيره - تواليفُ حسنةٌ ، وأجزاء ممتعة »[٢] .

أولئكَ قومٌ شيَّد اللهُ فخرهُم   فما فوْقه فخرٌ وإنْ عَظُم الفْخرُ

« هذه لمعاتٌ من سيرة الإمام الفذ الحافظ ابن عساكر الدمشقي ، وفيها ما رأيت من العجائب الغرائب ، والمدهشات المطربات ، ولولا محافظتُه

---

(١) تذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ .
(٢) وفيات الأعيان ٣٣٥/١ .

على الأوقات ، واغتنامُهُ الدقائق واللحظات ، ما كانت تتأتّى له تلك التآليف الضخمة الجامعة المانعة ، التي تعجز المجامع العلمية اليوم عن طبْعها فضلًا عن تأليف مثلها . فالحِفَاظَ الحِفَاظَ على الأوقات واللحظات ؛ فهي كَنْزُ البركات والخيرات »[١] .

قالت رابعة لسفيان : « إنما أنت أيّامٌ معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلُّ ، وأنت تعلم فاعملْ »[٢] .

حياتــك أنفــاسٌ فكلمـــا مضى نفسٌ منها انتقُصْتَ به جزءَا

قال الحجاج بن عنبسة : « اجتمع بنو مروان ، فقالوا : لو دخلنا على أمير المؤمنين فعطفناه علينا بالمزاح . فدخلوا ، فتكلم رجلٌ منهم فمزح ، فنظر إليه عمر ، فوصل له رجل كلامه بالمزاح ، فقال : ألهذا اجتمعتم ؟! لِأَخسِّ الحديث ، ولِمَا يُورث الضغائن ؟! إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله ؛ فإنْ تعديتم ذلك ففي السُّنَّة عن رسول الله ﷺ ، فإنْ تعدَّيتم ذلك فعليكم بمعالي الحديث »[٣] .

أنشد أبو الوليد الباجي :

إذا كنـت أعلـمُ علمًا يقينًا بأنَّ جميعَ حياتي كَسَاعهْ
فلِمْ لا أكـونُ ضنينًا بهـا وأجعلها في صلاحٍ وطاعهْ[٤]

قال الخطيب البغدادي : « والعلم كالبحار المتعذر كيلها ، والمعادن التي لا ينقطع نيْلها ، فاشتغل بالمهمِّ منه ؛ فإنه من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم » .

---

(١) قيمة الزمن ص١٠٠ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/٢٨٦ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٣٩ .
(٤) وفيات الأعيان ٢/٤٠٨ - ٤٠٩ .

قال العباس بن الحسن العلوي[١]: « اعلمْ أن رأيك لا يتسع لكل شيءٍ ففرّغْه للمهم ، وأنَّ مالك لا يغني الناس كلهم ، فخصّ به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تُطبّق[٢] العامة فتوخّ بها أهل الفضل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإنْ دأبت فيهما ، فأحسنْ قسمتهما بين عملك ودَعَتك من ذلك . فإنَّ ما شغلك مِن رأيك في غير المهمِّ إزراء بالمهم ، وما صرفت من مالك في الباطل ، فقدتَه حين تريده للحقِّ ، وما عمدتَ من كرامتك إلى أهل النقص ، أضـرَّ بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلتَ من ليْلك ونهارك في غير الحاجة أزرىٰ بك في الحاجة »[٣] .

قال السيوطي في كسْب طالب العلم لوقته :

حـدّثنا شـيخنا الكنـاني عن أبِهِ صاحبِ الخطابهْ
أسـرعْ أخا العلمِ في ثلاثٍ الأَكل والمشي والكتابهْ[٤]

لفتـة الكبـد :

قال ابن الجوزي في « لفتة الكبد في نصيحة الولد » : « الكسل عن الفضائل بئسَ الرفيق ، وحبُّ الراحة يورث من الندم ما يربو على كلِّ لذة ، فانتبه واتعبْ لنفسك ، واندمْ على ما مضى من تفريطك ، واجتهدْ في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سَعة ، واسقِ غُصنَك ما دامت فيه رطوبة ، واذكرْ ساعتك التي ضاعت ، فكفى بها عِظة ، ذهبت لذة الكسل فيها ، وفاتت مراتب الفضائل ، وإنما تُقصِّر الهمم في بعض الأوقات ، فإذا حُثَّتْ سارت ،

(١) ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/١٢٦ ، أقام في صحبة هارون الرشيد ، وكان عالمًا شاعرًا .
(٢) أي : لا تعمُّهم وتتسع لهم .
(٣) تاريخ بغداد ١٢/١٢٦ .
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي ١/٢٢٩ .

وما تقف همة إلا لخساستها ، وإلا فمتى علتِ الهمة فلا تقنع بالدُّون .

إذا ما عـلا المـرءُ رام العُلا ويقنع بالدُّونِ منْ كان دُونَا

يقول الشيخ حسن البنا رحمه الله : « يقال : الوقت من ذهب !! وهذا صحيح من حيث القيم المادية للَّذِين لا يقيسون الوجود إلا بها ، ولكن الوقت هو الحياة للذين ينظرون إلى أبعد من ذلك »[١].

إذا كانَ رأسُ المالِ عمركَ فاحترزْ عليهِ منَ الإنفاقِ في غير واجبِ
فبين اختلافِ الليل والصبح مَعْرَكٌ يكرُّ علينا جيشُه بالعَجـائبِ[٢]

لا عملَ إلا في الشباب :

قال النووي : « ينبغي للمتعلم أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط ، وحالَ الشبابِ وقوةِ البدن ، ونباهة الخاطر ، وقلَّة الشواغل قبل عوارض البطالة »[٣].

أترجو أن تكونَ وأنت شيخٌ كما قد كنـت أيـام الشـبابِ
لقدْ كذَبَتْك نفسُك ليسَ ثوبٌ دريـسٌ كالجـديـد من الثيـابِ

أخي : «بادرْ ساعات العمر وهي سانحة ، ولا تتعلق بالغائب المجهول؛ فكل ظرفٍ مملوءٌ بشواغله وأعماله ومفاجآته :

يقولون إنَّ الدهر يومانِ كلُّه فيومُ مَسرَّاتٍ ويومُ مكـارهِ
وَمَا صدقوا والدهر يوم مسرّةٍ وأيامُ مكروهٍ كثير البَدائهِ »[٤]

---

(١) منبر الجمعة للشيخ حسن البنا ، إعداد وتقديم : محمد عبد الحكيم خيال ، مقالة : « الوقت هو الحياة » ص٥٣ .

(٢) للشاعر عمارة اليمني – انظر « وفيات الأعيان » ١/٣٧٧ .

(٣) المجموع للنووي ١/٦٩ .

(٤) قيمة الزمن ص١١٧ .

حوائجُ لم تقض ، وآمال لم تُنَلْ ، وأنفسٌ ماتت بحسراتها[١] .

ولم يَتَّفقْ حتَّى مضىٰ لسبيلِهِ   وكَمْ حسراتٍ في بطونِ المقابرِ

قال الإمام أحمد : «ما شَبَّهتُ الشباب إلا بشيءٍ كان في كُمِّي فسقط»[٢] .

أذانُ المرءِ حينَ الطفلُ يأتي   وتأخيرُ الصَّلاةِ إلى المماتِ

دليلٌ أنَّ محياهُ يسيرٌ   كما بيْنَ الأذان إلى الصلاةِ

وقال آخر :

وما بينَ ميلادِ الفتىٰ ووفاتِهِ   إذا نصح الأقوامُ أنفسَهُم عُمْرُ

لأنَّ الذي يأتي شبيهُ الذي مضى   وما هو إلا وقتُكَ الضيّقُ النَّزْرُ

شبابٌ سبهلل :

قال عمر بن الخطاب : إني لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْللًا - أي فارغًا - لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة .

فيالَضياع أمةٍ أعمارُ شبابها عبثٌ ولهوٌ ولغوٌ ، لا يطلبون إلا قتْل الوقت ، كأن الوقت عدوٌّ من أعدائهم .

ويرحم الله الوزير الصالح يحيى بن هبيرة شيخ ابن الجوزي ، إذ يقول :

والوقتُ أنفسُ ما عنيتَ بحفظِهِ   وأراهُ أسهلَ ما عليكَ يضيعُ

الناصحُ لنفسه مقصوده من زمانه كله ربُّه ، ووسيلته إلى الله علمه ، عرف طريقه ودربه .

إذا كان يُؤذيك حَرُّ المصيفِ   ويُبْسُ الخريفِ وبرْدُ الشِّتا

ويُلهيك حسنُ زمان الربيعِ   فأخذُكَ للعلم قل لي متى[٣]؟!

---

(١) قولٌ للشريف المحدِّث جعفر بن محمد العباس البغدادي المتوفى سنة ٥٩٨هـ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص١٩٨ .

(٣) للإمام أحمد بن فارس الرازي .

قال شوقي رحمه الله :

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لهُ إنَّ الحياةَ دقائق وثوانِ
فارفعْ لنفسِكَ بعدَ موْتِكَ ذكرَها فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثاني

قال الغزالي : « ويحك يا نفس ، ما لك إلا أيامٌ معدودة ، هي بضاعتك إن اتَّجرتِ فيها ، وقد ضيعتِ أكثرها ، فلو بكيتِ بقيةَ عمرك على ما ضيعتِ منها لكنتِ مقصِّرة في حقِّ نفسك ، فكيف إذا ضيعتِ البقية وأصررتِ على عادتِكِ . ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطتِ من بطن أمك ، فابني على وجه الأرض قصرَك ، فإن بطنها عن قليلٍ يكون قبرك . تفرحين كلَّ يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مالٌ يزيدُ وعمرٌ ينقُصُ . كم من مستقبِلٍ يومًا لا يستكمله ، وكم من مُؤَمِّل لغدٍ لا يبلغه ! اعملي بقية عمرك في أيامٍ قصارٍ لأيام طوالٍ . ومن كانت مطيتُهُ الليل والنهار ، فإنه يُسار به وإن لم يَسرْ »[١] .

«قيل لداود الطائي: لو سرّحتَ لحيتك. فقال: إني إذًا لفارغٌ»[٢] .

« كان سفيان الثوري يقول : عند الصباح يحمد القوم السُّرَى ، وعند الممات يحمد القوم التُّقى .

وقال أحمد بن حرب : يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزيَّن فوقه وأن النار تُسعَّر تحته ، كيف ينام بينهما »[٣] .

أخي ، إن النهار لن يرجع ، والعمر لا يعود ، والطالب حثيثٌ .

أخي ، « إن كل نفَسٍ من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسة ، لا عوض

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٤٥ - ٤٤٦ .
(٢) الإحياء ٤/٤٣٥ .
(٣) الإحياء ٤/٤٣٥ .

لها ، يمكن أن يُشترى بها كنزٌ من الكنوز ، لا يتناهى نعيمُه أبدَ الآباد . فانقباضُ هذه الأنفاس ضائعةً أو مصروفةً إلى ما يجلب الهلاكَ خُسرانٌ عظيمٌ هائلٌ لا تسمح به نفس عاقلٍ ، فإذا أصبح فليفرِّغ قلبه لمشارطة النفس .

يا نفس ، ما لي بضاعةٌ إلا العمر ، ومهما فني فقد فني رأسُ المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الرِّبْح . وهذا اليوم الجديد قد أمهلَني الله فيه ، وأنسأ في أجلي ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لكنت أتمنّى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا ، فاحسبي أنك قد تُوفِّيت ثم رددتِ ، فإياك أن تضيِّعي هذا اليوم ؛ فإنّ كل نفَسٍ جوهرة لا قيمة لها . اجتهدي اليوم في أنْ تعمري خزانتك ، ولا تدعيها فارغةً عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تميلي إلى الكسل والدّعَة ، فيفوتك من درجاتِ عِلِّيِّين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألمُ الغَبَن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : هبْ أن المسيءَ قد عُفي عنه ، أليس قد فاته ثوابُ المحسنين ؟! »[1] .

أشار به إلى الغبن والحسرة ، وقال الله تعالى : ﴿ **يوم يجمعكم ليَوْم الجمعِ ذلكَ يومُ التغابن** ﴾ الآية. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته .

أخي ، وأخيرًا « سنعرض إحصائيةً دقيقةً تبيِّن أهمية العمر والحرص عليه ، بما يثير الغيرة لدى المسلم عالي الهمة .

فلنفرض أن الإنسان يعيش عمرًا افتراضيًّا مدَّته سبعون سنةً ، فإذا ضيّع الإنسان خمس دقائق يوميًّا فإنَّ هذا يعني أنه أضاع مِن مجموع العمر كلِّه ثلاثة أشهر تقريبًا (٨٨ يومًا) ؛ وهذا الجدول يوضِّح المسألة أكثر وأكثر .

---

(١) الإحياء ٤/٤١٨ - ٤١٩ .

الوقت من اليوم	مجموع الوقت من العمر الافتراضي	النِّسبة المئويَّة
خمس دقائق	ثلاثة أشهرٍ	٪٠,٣٥
عشر دقائق	ستة أشهرٍ	٪٠,٧١
عشرون دقيقة	سنة كاملة	٪١,٤٢
ساعة كاملة	ثلاث سنواتٍ	٪٤,٢٨
عشر ساعاتٍ	ثلاثون سنة	٪٤٢,٨٥

ثم إذا نظرت إلى مجموع الأنشطة التي تستهلك الوقت تجد أنها كثيرة جدًّا ، وهي – وإن كان بعضها ضروريًّا – لكنَّ بعضها الآخر غير مفيد ، وغيرُ فعَّال ؛ وهذا يتضح من الجدول الآتي :

نوْع النشاط	ما يستغرقه بالسنوات	النسبة المئوية من العمر كله
النوم (بمعدل ثمان ساعات يوميًّا)	٢٣	٪٣٢
العمل (من (٧) إلى (٢,٥) يوميًّا)	٢١,٥	٪٣٠,٧

الأكْل والشرب (بمعدل ساعةٍ ونصف يوميًّا)	٤,٥	٦,٤٪
الأعمال المعتادة والمراجعات الحكومية (بمعدل نصف ساعة) .	١,٥	٢,١٤٪
الأعمال المنزلية والرحلات والتنزه (بمعدل ساعة واحدة يوميًّا) .	٣	٤,٢٨٪
اللقاءات الاجتماعية والوُدية بين الأصدقاء (بمعدل نصف ساعة يوميًّا) .	١,٥	٢,١٤٪
التنقل من مكان لآخر (بمعدل نصف ساعة يوميًّا).	١,٥	٢,١٤٪
الاتصالات الهاتفية (بمعدل نصف ساعة يوميًّا) .	١,٥	٢,١٤٪
المجموع	٦١ سنة	٨٧٪
الباقي	٩ سنوات	١٢,٨٥٪

فإذا حذفتَ من ذلك فترة المراهقة وزمن الطفولة ، فكم يا تُرى يبقى من الوقت للمشاريع الطَّمُوحة والأعمال الكبيرة ، والأهداف النبيلة ؟ »[1] .

فاللهَ اللهَ في عمرك ووقتك ... آخر العدد : فراق أهلك ، آخر العدد : دخول قبرك ، آخر العدد : لقاء ربّك .

* * *

(١) مقالة « فن إدارة الوقت » لعبد الله آل سيف ص١١٠ - ١١٢ - مجلة البيان ، العدد ٨٦ ، شوال ١٤١٥هـ .

الفَصْلُ الثَّاني

عُلوُّ الهِمَّةِ

في الخَوْفِ والرَّجاءِ

نزفَ البكاءُ دموعَ عينِكَ فاسْتَعِرْ عينًا لغيـركَ دَمْعُها مِـدْرارُ
مَن ذا يُعيرُك عينَهُ تبكـي بهـا أرأيـتَ عينًا للدمـوعِ تُعَـارُ ؟

«إنْ كان صَغُر في جنْبِ عطائك عملي، فقد كَبُرَ في حُسْن رجائك أملي».

يحيىٰ بن معاذ الرازي



□ علوُّ الهمة في الخوْف والرَّجاء □

إن الرجاء والخوف جَناحانِ بهما يطير المقربون إلى كلّ مقامٍ محمود ، ومطيَّتانِ بهما يقطع من طَرق الآخرة كلَّ عقبةٍ كَئُود ، فلا يقود إلى قرْبِ الرحمٰن وروْح الجنان – مع كونه بعيدَ الأرجاء ، ثقيلَ الأعباء ، محفوفًا بمكاره القلوب ، ومشاقِّ الجوارح والأعضاء – إلّا أزمّة الرجاء ، ولا يصدّ عن نارِ الجحيم والعذاب الأليم– مع كونه محفوفًا بلطائفِ الشهواتِ، وعجائب اللَّذات– إلا سِياطُ التخويف ، وسطْواتُ التعنيف(١) .

والخوْف – كما قال أبو القاسم الجنيد –: توقُّع العقوبة على مجاري الأنفاس .

والخوف سوْطُ اللهِ ، يُقوّم به الشاردين عن بابه . والخوف سراجٌ في القلب ، به يُبصر ما فيه من الخير والشرّ .

قال حاتم الأصم : لكلّ شيءٍ زينةٌ ، وزينةُ العبادة : الخوف .

وقال الفضيل : « من خاف الله دلّه الخوفُ على كلّ خير » .

وما فارق الخوف قلبًا إلا خرِب . والناس على الطريق ما لم يزُل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطريق . وإذا سكن الخوفُ القلوب أحرق مواضع الشهواتِ منها ، وطرد الدنيا عنها .

فلا يغترّ أحدٌ بمكانٍ صالحٍ ، فلا مكان أصلحُ من الجنة ، ولقي فيها آدم ما لقي . ولا يغترّ أحدٌ بلقاء الصالحين ورؤيتهم ، فلا شخص أصلحُ من النبي ﷺ ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون .

---

(١) تحت الطبع مُؤَلَّف لي، وجُمع بعنوان: «عيْشُ السعداء بيْن الخوْفِ والرجاء».

فإن استطعت يا أخي أن تكون بمنزلة رجلٍ قد احتَوَشتْه السِّباعُ والهوامُّ فهو خائفٌ حَذِرٌ ، يخاف أن يغفل فتفترسه السِّباع ، أو يسهو فتنهشه الهوامُّ ، فهو مذعورُ القلبِ وَجِلٌ ، فهو في المخافة ليلهُ ، وإنْ أَمِنَ المغترّون ، وفي الحزْنِ نهارَه وإن فرح البطّالون ، والظمآن يجزيه من الماء أيسرُه ، والقلب الجامد تنبو عنه كلُّ المواعظِ .

قال أُوَيْسُ القرني : « كُنْ في أمر الله كأنك قتلتَ الناس كلهم » .
وفي رواية : « لا تنال هذا الأمر حتى تكون كأنك قتلتَ الناسَ أجمعين »[١] .

وما أنصبَ العبادَ وأضناهم إلا ذكر المقام ، وخوْفُ الحساب ، وروْعةُ النداء بالعرْض على الله ، ولِمَ لا تذوب أبدان العبَّاد والزُّهَّاد والخدّام فزعًا والقيامة أمامهم ، وفي العَرَصَاتِ مقامُهم ، وعلى الصراط جوازهم ، ولهم في يومٍ ما قد عملوا ؟! فمن لك في ذلك الموقف ، ومَن لتحيُّرك وتَلدُّدك ، ولجوعك وعطشك ؟! فوا طول وقفتاه ؟ وا تحيُّراه ! وا ثِقَلَ ظهراه من حمْل الذنوب والمظالم والخطايا وأوساخ العيوب ، أوه من حَمْلها ! أوه مِن ذكْرها ! أوه مِن ثقلها ! أوه مِن إقراري بها !!

نزف البكاءُ دموعَ عينكَ فاستعِرْ ... عينًا لغيرِكَ دمعها مدرارُ
مَن ذا يُعيرُك عينَهُ تبكي بها ... أرأيتَ عينًا للدُّموع تُعَارُ

والخشية أخصُّ مِن الخوف ؛ فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشَى الله مِن عبادِه العلماءُ** ... ﴾.

والوجل : رجفان القلب وانصداعه لذكْر مَن يخاف سلطانه وعقوبته .

---

(١) شُعَب الإيمان للبيهقي .

والهيبة : خوفٌ مقارنٌ للتعظيمِ والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة .

والإجلال: تعظيمٌ مقرونٌ بالحبّ .

«فالخوف لعامّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبّين، والإجلال للمقرّبين »[١].

والخوف على درجاتٍ وأنواع :

الدرجة الأولى : الخوف من العقوبة : وهو الخوف الذي يصحُّ به الإيمان ، وهو خوف العامة ، وهو يتولَّد من تصديق الوعيد ، وذكْر الجناية ، ومراقبة العاقبة . وهذا الخوف علامةُ صحة الإيمان ، وترحُّله من القلب علامة ترحُّل الإيمان منه .

والدرجة الثانية : خوْف المَكْر : فكمْ مِن مغبوطٍ بحاله انعكس عليه الحال ، ورجع من حُسْن المعاملة إلى قبيح الأعمال ، فأصبح يُقلّب كفَّيْه ويضرب باليمين على الشمال ! بينما بدْرُ أحواله مستنير في ليالي التمام ، إذ أصابه الكسوف ، فدخل في الظلام ، فبُدِّل بالأُنْس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضا ، وبالتقريب إبعادا ، كما قيل :

أحسنتَ ظنَّك بالأيامِ إذْ حسُنَتْ ... ولم تخفْ سوء ما يأتي بِهِ القدَرُ
وسالمتْكَ الليالي فاغتررتَ بهَا ... وعند صَفْوِ الليالي يحدثُ الكَدَرُ[٢]

أخي ، لقد قطّع قلوب الخائفين طول الخلودَيْنِ : إمَّا في الجنة أو في النار .

وأغلبُ المخاوف خوف الخاتمة :

قال سهل : خوف الصدِّيقين مِن سوءِ الخاتمة عند كلِّ خطْرةٍ وعند

---

(١) مدارج السالكين ١/٥١٣ .
(٢) مدارج السالكين ١/٥١٥ - ٥١٦ .

كل حركةٍ، وهم الذين وصفهم الله تعالى؛ إذْ قال: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

لما احتضر سفيانُ الثوري جعل يبكي ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، عليك بالرجاء ؛ فإنّ عفو الله أعظم مِن ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟! لو علمتُ أني أموت على التوحيد لم أبالِ بأنْ ألقى الله بأمثال الجبال مِنَ الخطايا .

وأعلى الأقسام وأدلُّها على كمال المعرفة خوف السَّابقة وما سبق به القضاء في أمِّ الكتاب وعلم الله فينا :

والخوف من عذابه وأخْذه ؛ فإنَّ أخذه أليمٌ شديدٌ .

والخوف منه ؛ أعني أن يخافَ العبدُ الحجابَ عنهُ ، ويرجو القربَ منه .

قال ذو النون : خوف النار عند خوف الفراق كقطرةٍ قُطِرتْ في بحرٍ لجِّيٍّ .

سيدُ الخائفينَ رسـول الله ﷺ :

عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ، قد شِبْتَ ! قال : « شيبتني هودٌ وأخواتُها »[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شبتَ ! قال : « شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كورت »[٢] .

وعن عبد الله بن الشخير بن عوف رضي الله عنه : « رأيت رسول الله

---

(١) صحيح : رواه الترمذي.

(٢) صحيح .

ﷺ يصلي وفي صدْره أزيزٌ كأزيزِ الرَّحى مِن البكاء »[١].

بأبي وأمي مَن كان إذا تغيّر الريحُ دخل وخرج ، وعُرِف ذلك في وجهه ... بأبي وأمي مَن كان يبكي حتى يبلّ ثوبه ويبلّ الثرى بدموعه ... بأبي وأمي مَن مرّ بإخوانه وهم حوْل قبر يدفنون رجلًا فبدر مِن بين أيديهم ، ثم واجه القبر حتى بلّ الثرى من دموعه ، وقال : « أيْ إخواني ، لِمثل هذا اليوم فأعِدُّوا »[٢].

خليلُ الرَّحمٰن إبراهيمُ عليه السلام :

قال كعب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إبراهِيمَ لَحلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود : ٧٥] : كان إذا ذكر النار قال : أوه .

قال الشوكاني في « فتح القدير » (٢/٤١١) : « والمطابِق لمعنى الأوّاه – لغةً – أنْ يُقال : إنه الذي يُكثر التأوّهَ مِن ذنوبه .

آدمُ ودوادُ عليهما السلام :

قال علقمة بن مرثد : « لو عدل بكاءُ أهل الأرض ببكاءِ داود ما عدَله ، ولو عُدل بكاءُ أهل الأرض ببكاء آدم حين أُهبط إلى الأرض ما عدله » .

وقال ثابت البناني : ما شرِب داود شرابًا بعد المغفرة إلا ونصفُه ممزوجٌ بدموعِ عينَيْه .

وعن مجاهد أن داود نبي الله عليه السلام بكى من خطيئتِهِ حتى هاجَ ما حولَه .

---

(١) إسناده حسن ، أخرجه أبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، وأبو نعيم ، وابن المبارك في الزهد ، والترمذي في الشمائل ، والحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم وأقرّه الذهبي .

(٢) حسن : رواه أحمد في مسنده ، وابن ماجه عن البراء ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٥٩ .

جبريلُ ومِيكائيلُ عليهما السلام :

قال رسول الله ﷺ : « مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بالملأ الأعلى ، وجبريل كالحلس البالي مِن خشية الله تعالى »[١] .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل : « ما لي لا أرى ميكائيلَ يضحك ؟ » قال : ما ضحك ميكائيل منذ خُلقتِ النار[٢] .

وهذا (**عمر بن الخطاب**) رضي الله عنه ، حفرت الدموع خطَّيْنِ أسوَدَيْن في وجهه .

فقل لي بربك : كيف تحفر الدموع مجرىٰ في اللحم .

مَن لمْ يَبِتْ والخوْفُ حشو فؤادِه ... لم يدرِ كيفَ تُفَتِّتُ الأَكْبَادُ

وكان يمرُّ بالآية من وِرْده بالليل فيمرض حتى يعودَه الصحابة شهرًا .

و (**أبو عبيدة بن الجراح**) رضي الله عنه :

قال قتادة : قال أبو عبيدة بن الجراح : وددتُ أني كنت كبْشًا ، فيذبحني أهلي ، فيأكلون لحمي ويحسون مرقي[٣] .

وكان تحت عيني (**ابن عباس**) رضي الله عنهما مثلُ الشِّراك البالي من كثرة الدموع .

وهذا الصحابي الجليل (**عبد الله بن مسعود**) رضي الله عنه ، يقول : « لوددتُ أن الله عز وجل غفر لي ذنبًا مِن ذنوبي وأني سُمِّيتُ عبدَ الله

---

(١) حسن رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٤ .

(٢) إسناده جيد ، رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين . وقال العراقي في تخريج الإحياء : إسناده جيد .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨/١ ، وطبقات ابن سعد ٣٠٠/١/٣ .

ابن روثة »[١].

وقال أيضًا : « والذي لا إله غيره لوددتُ أني أنقلب روثةً ، وأني دعيتُ عبد الله بن روثة ، وأن الله غفر لي ذنبًا واحدًا »[٢].

وكان يقول : إن هاهنا رجلًا ودَّ لو أنها قامت ألا يُبْعَثَ . يعني القيامة .

وهذا الصحابي الجليل (**عبد الله بن عمرو بن العاص**) يقول : « لَأَن أدمع دَمعة مِن خشيةِ الله أحبُّ إليَّ من أنْ أتصدَّقَ بألف دينارٍ »[٣].

و (**شدّاد بن أوس**) صاحب الحذَر والوَرع ، والبكاء والضَّرَع رضي الله عنه ، كان إذا دخل الفراش يتقلّب على فراشه بمنزلةِ القمْحَة في المقلاة على النار ، ويقول : اللهم إنّ النار قد أذهبتْ مني النوم . فيقوم يصلي حتى يُصبح .

يقول عليُّ بن أبي طالب عن الصحابة – وقد علَتْه كآبةٌ –: لقد رأيتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ ، فلمْ أرَ اليوم شيئًا يُشْبِهم ، لقد كانوا يُصبحون شُعثًا غُبْرًا ، بين أعينهم أمثالُ رُكَبِ المعزى ، قد باتوا لله سُجّدًا وقيامًا ، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يَميد الشجر في يومِ الريح ، وهمَلَتْ أعينهم حتى تبلّ ثيابهم ، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين . فما رُئيَ بعد ذلك ضاحكًا حتى ضربه ابنُ مُلجم .

---

(١) إسناده صحيح ؛ أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ، وابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشُّعَب .

(٢) إسناده حسن ، أخرجه البيهقي في الشُّعَب ، ونحوه أحمد في الزهد .

(٣) إسناده حسن ، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة .

وقالت ابنة (**الربيع بن خُثَيْم**) : « كنت أقول لأبي : يا أبتاه ، ألا تنام ؟! فيقول : يا بُنيّة ، كيف ينام مَن يخاف البيات ؟! .

وعن مالك بن دينار قال : قالت ابنة الربيع بن خُثَيْم : يا أبتاه ، إني أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ قال : يا بنية ، إن أباك يخاف البيات »[١].

ولما رأت أم الربيع بن خُثَيْم ما يلقى الربيع مِن البكاء والسَّهَر نادته فقالت : يا بني لعلك قتلتَ قتيلًا ؟ فقال : نعم يا والدة ، قتلتُ قتيلًا . فقالت : ومَن هذا القتيل يا بني ، نتحمل على أهله فيعفوك ، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسَّهر لقد رحموك ؟ فيقول : يا والدتي ، هي نفسي .

« وآلى[٢] (**ربيع بن خراش**) ألا تفترّ أسنانُه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره ، فما ضحك إلّا بعد موته ، وآلى أخوه ربعي بن خراش بعده ألا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أو في النار .

قال الحارث الغنوي : فلقد أخبرني غاسِلُه أنه لم يزل مبتسمًا على سريره - وكنا نغسِّله - حتى فرغنا منه »[٣].

وعن الحسن البصري ، قال : قال (**غزوان الرّقّاشِيّ**) : لله عليّ أن لا يراني ضاحكًا حتى أعلم أيّ الدارَيْن داري .

قال الحسن : فعزم والله ما رُئِيَ ضاحكًا حتى لحقَ بالله عز وجل[٤].

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢/٥٧٠ ، والحلية ٢/١١٤ .

(٢) أقسم .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان . وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ، والذهبي في السير ٤/٣٦٠ ، ولم يذكر فيه خبر ربيع .

(٤) شعب الإيمان ، الزهد لأحمد ص٢٥٥ ، صفة الصفوة ٣/٢٥١ .

وسيد البكّائين (**الحسن البصري**) كان إذا تكلّم كأنه يُعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، كان إذا بكى فكأن النار لم تُخلق إلا له ، وإذا قدم فكأنما قدِم من دفْن حميمٍ له ، وإذا جلس فكأنما هو أسيرٌ يستعد لضرْب عُنُقه .

قال يونس بن عُبيد : ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن ، كان يقول : نضحك ولعلّ الله قد اطَّلع على أعمالنا فقال : لا أقبلُ منكم شيئًا .

قال الحسن : إن المؤمن يُصبح حزينًا ويُمسي حزينًا ، ولا يسعه غير ذلك ؛ لأنه بين مخافتَيْن : بين ذنبٍ قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه ، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك .

وقال رحمه الله : إن المؤمن يصبح حزينًا ويُمسي حزينًا ، وينقلب باليقين في الحزن ، ويكفيه ما يكفي العنيزة : الكَفُّ من التمر ، والشربةُ من الماء .

وقال : والله لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن إلا حزِنَ وذَبُلَ ، وإلا نصبَ ، وإلّا ذاب ، وإلا تعِبَ .

أُتي - رحمه الله - بكوزٍ من ماءٍ ليفطر عليه ، فلما أدناه إلى فيهِ بكى ، وقال : ذكرتُ أمنية أهل النار ، وقولهم : ﴿ **أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ...** ﴾ [الأعراف : ٥٠] ، وذكرتُ ما أُجيبُوا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ...** ﴾ [الأعراف : ٥٠] .

وقال الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمِنَه إلا منافق .

قال رجلٌ للحسن : يا أبا سعيد ، كيف أصبحتَ ؟ قال : بخيرٍ . قال : كيف حالك ؟ فتبسَّم الحسن ، وقال تسألني عن حالي ؟! ما ظنُّك بناسٍ ركبوا سفينة حتى توسَّطوا البحر فانكسرتْ سفينتُهم ، فتعلق كل إنسان منهم بخشبةٍ ، على أيّ حال يكون ؟ قال الرجل : على حالةٍ شديدةٍ .

قال الحسن : حالي أشدّ من حالهم .

وقال الحسن رحمه الله : يحقّ لمن يعلم أن الموت مورده ، وأن الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده أن يطول حزنه .

قال الحسن : « المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال ، والمؤمن أحسن الناس عملًا ، وأشدُّ الناس وجلًا ، فلو أنفق جبلًا من مالٍ ما أَمِن دون أن يعاين ، لا يزداد صلاحًا وبرًّا إلا ازداد فَرَقًا ، والمنافق يقول : سواد الناس كثير ، وسيُغفر لي ، ولا بأس عليّ ، فيسيء العمل ويتمنَّى على الله »[(١)] .

عوتب الحسن في شدّة حزنه وخوفه ، فقال : ما يؤمّنني أن يكون الله تعالى قد اطّلع فيّ على بعض ما يكره فمقتني ، فقال : اذهبْ فلا غفرتُ لك . فأنا أعمل في غير معتمل .

وكان (**طاووس**) يُفرَش له الفرشُ فيضطجع ويتقلّى كما تتقلّى الحبّة في المقلى ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ، ويقول : « طيّر ذكْر جهنم نومَ الخائفين »[(٢)] .

« قال الحرّ بن أبي الحصين العنبري : مرّ طاووس بروَّاسٍ قد أخرج رأسًا فغُشيَ عليه .

وقال عبد الله بن بشر الرقي : كان طاووس إذا رأى تلك الرؤوس المشويَّة لم يتعشَّ تلك الليلة »[(٣)] .

سفيانُ الثوري :

« قال يوسف بن أسباط : كان سفيان إذا أخذ في ذكْر الآخرة يبول

---

(١) السير ٥٨٦/٤ ، والحلية ١٥٣/٢ .

(٢) الإحياء ١٩٨/٤ .

(٣) السير ٤٠/٥ .

الدم »[١].

وقال ابن مهدي : كنتُ أرمُق سفيان في الليلة بعد الليلة ينهض مرعوبًا ، يُنادي : النارَ النارَ ، شغلني ذكْر النار عن النوم والشهوات[٢].

وعن أبي نعيم قال : كان سفيان الثوري إذا ذكر الموت لا يُنتفَع به أيَّامًا ، فإذا سُئِل عن الشيءِ ، قال : لا أدري ، لا أدري .

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال : مات سفيان الثوري عندي ، فلما اشتد به جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، أراك كثير الذنوب ؟ فرفع شيئًا من الأرض ، فقال : والله لذنوبي أهونُ عندي من ذا ، إني أخاف أن أُسْلب الإيمان قبل أن أموت .

وعن أسامة قال : كان مَن يرىٰ الثوري يراهُ كأنه في سفِينةٍ يخاف الغرَق ، أكثر ما تسمعه يقول : يا رب ، سلِّمْ ، سلِّمْ .

وعن عطاء الخفاف قال : ما لقيتُ الثوري إلا باكيًا ، فقلت : ما شأنك ؟ قال : أخاف أن أكون في أمِّ الكتاب شقيًّا .

وعن يحيىٰ بن يمان قال : سمعت سفيان الثوري يقول : لقد خفت الله خوفًا وددت أنه خفّف عني[٣] .

وعن يحيى قال : قال الثوري : خفتُ الله خوفًا عجبتُ أني كيف ما متّ ، إلا أنّ لي أجلًا أنا بالغُهُ .

وعن زيد بن أبي الزرقاء قال : حُمل ماءُ سفيانَ إلى طبيبٍ في عِلَّته ،

---

(١) السير ٢٤٢/٧ .

(٢) السير ٢٧٦/٧ ، والحلية ٦٠/٧ .

(٣) « ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان » ٢٥٣/١ تحقيق : د . عبد الإله الأحمدي – طبع : دار طيبة .

فلما نظر قال : هذا ماء رجلٍ قد أحرق الخوفُ جوْفه[١].

مسعر بن كِدام :

قال حفص بن عبد الرحمن : أتيتُ مسعر بن كدام ليحدثني ، فكأنه رجل أُقيم على شفيرِ قبرٍ . قال مرة أخرى : على شفيرِ جهنَّمَ لِيُلْقَى فيها[٢] .

وعن يحيى بن آدم قال : لما حضرتْ مسعرًا الوفاة دخل عليه سفيان الثوري فوجده جزِعًا ، فقال له : لِمَ تجزع ؟ فوالله لوددتُ أني متُّ الساعة . فقال مسعر : أقعدوني . فأعاد عليه سفيان الكلامَ ، فقال : إنك إذًا لواثقٌ بعملك يا سفيان ، لكني - واللَّهِ - لكأني على شاهقِ جبل ، لا أدري أين أهبط . فبكى سفيان ، فقال : أنت أخوف لله عزّ وجلّ مني[٣].

مالك بن مغول :

عن ابن زحم قال : جلسَ سفيان الثوري ومالك بن مغول ، فتذاكرا حتى رقَّا ، فقال سفيان : وددتُ أني لا أقوم من مجلسي حتى أموت . فقال مالك : لكني لا أحب ذلك ، معاينة الرسل ! معاينة الرسل ! ثم قام يبكي يخطّ الأرض برجليْه[٤].

مُطرف بن عبد الله الشّخير :

قال رحمه الله : لو أتاني آتٍ مِن ربي فخيرني بين أن يخبرني أفي الجنة أنا أم في النار ، وبين أن أصير ترابًا ، لاخترتُ أن أصير ترابًا .

وقال رحمه الله : لقد كاد خوْفُ النار أن يحولَ بيني وبين أن أسأل

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٥٤ ، والسير ٧/٢٧٠ .

(٢) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٥٢ .

(٣) روضة الزاهدين لعبد الملك علي الكليب . طبع : مكتبة ابن تيمية .

(٤) روضة الزاهدين ص٣٢ .

ربي الجنة[١] .

يزيد بن مرثد :

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : قلت ليزيد بن مرثد : ما لي أرىٰ عينك لا تجفّ ؟ قال : وما مسألتك ؟! قلت : لعلّ الله أن ينفع به . قال : إن الله عز وجلّ توعّدني إنْ أنا عصيتُه أنْ يسجنني في النار ، والله لو توعّدني أن يسجنني في الحمّام كنت حريًّا أن لا يجف لي دمعٌ . فقلت : هكذا في خلْوتك ؟ قال : واللهِ إنه لَتُوضع القصعة بين أيدينا فيعرِض لي فأبكي ، ويبكي أهلي ، ويبكي صبيانُنا ، لا يدرون ما أبكانا . واللهِ إني لأسكُن إلى أهلي ، فيعرض لي ، فيحول بيني وبين ما أريد ، فيقول أهلي : يا ويحها ما خصّت به معك من طول الحزن ، ما تقرُّ لي معك عينٌ[٢] !

مالك بن دينار :

قال مالك : الحزن تلقيح العمل الصالح[٣] .

وقال رحمه الله : لولا أن يقول الناس : جُنّ مالك ، لَلَبستُ المَسُوح ، ووضعتُ الرَّماد على رأسي ، أنادي في الناس : مَن رآني فلا يَعْصِ ربَّه[٤] .

وقال رحمه الله : لو استطعت أن لا أنام لم أنمْ ؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم ، ولو وجدتُ أعوانًا لفرّقتُهم ينادون في سائر الدنيا كلها : أيها الناس ، النارَ النارَ .

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ٢٢٥/١ ، ٢٥٨ .

(٢) الزهد لابن المبارك ص١٦٦ ، والزهد لأحمد ص٢٥٨ ، والفسوي في المعرفة ٣٧٨/٢ ، والحلية ١٦٤/٥ .

(٣) الهم والحزن لابن أبي الدنيا ص٤/ب ، وثلاث شعب ٢١٣/١ ، وصفة الصفوة ٢٧٧/٣ .

(٤) الزهد لأحمد ص٣٩١ ، وأبو نعيم في الحلية ٣٧١/٢ ، وشعب الإيمان .

وقال مالك : لقد هممتُ إذا أنا متُّ آمرهم أن يقيّدوني ويُغلّوني ، ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما يُنطَلَق بالعبد الآبق إلى سيده(١) .

وقال رحمه الله : « بينما أنا أطوف بالبيت إذْ أنا بجويرية متعبِّدة ، متعلِّقة بأستار الكعبة وهي تقول : يا ربِّ ، كمْ شهوةٍ ذهبتْ لذَّتُها وبقيتْ تبعاتها ! يا رب ، أما كان لك أدبٌ وعقوبة إلا النار ؟! وتبكي ، فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر . قال مالك : فلما رأيتُ ذلك وضعتُ يدي على رأسي صارخًا أقول : ثكلتْ مالكًا أمُّه »(٢).

عطاء السّليمي رحمه الله :

قال عطاء : وجدوا بين يديه نُدُوّةً قدْر ما يتوضأ الرجل ، فأخبروه أن ذلك مِن دموعه .

وكان عطاء السليمي يبكي حتى خشي على عيْنَيْه ، فأُتي بطبيبٍ يداوي عينه ، قال : أداوي ، بشرط أن لا تبكي ثلاثة أيام . فاستكره ذلك ، وقال : لا حاجة لنا فيك .

وقال رحمه الله : بكيتُ على ذنبٍ أربعين سنةً ؛ صِدتُ حمامةً ، وإني أحمد الله إليكم ، تصدقت بثمنها على المساكين ؟ قال البيهقي رحمه الله : وكأنه ارتاب بها ، هل هي مملوكة أو غير مملوكة .

وكان رحمه الله يضرب بيده فزعًا إلى أعضائه ، يحسها؛مخافة أن تكون قد غُيِّرتْ خلقته .

وعن جعفر بن سليمان قال : التقى ثابت البناني وعطاء ثم تفرقا ، فلما كان عند الهاجرة ، جاء عطاء فخرجت الجارية إليه ، ثم دخلت وهو

(١) الإحياء ٤/١٩٥ .
(٢) الإحياء ٤/١٩٤ .

يريد القائلة ، فقالت : أخوك عطاء . فخرج إليه ، فقال : يا أخي ، في هذا الحرِّ ؟! قال : ظللتُ صائمًا فاشتد عليّ الحرُّ ، فذكرت حرَّ جهنم ، فأحببتُ أن تعينني على البكاء . فبكيا حتى سَقطا .

وعن أبي سليمان قال : كان عطاء قد اشتد خوفه ، وكان لا يسأل أبدًا الجنة ، فإذا ذُكِرت عنده الجنة قال : نسأل اللهَ العفوَ .

وقيل له في مرضه : ألا تشتهي شيئًا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعًا للشهوة .

قال نعيم بن مورّع : أتينا عطاء السليمي ، فجعل يقول : ليت عطاء لم تلده أمُّه ، وكرّر ذلك حتى اصفرتِ الشمس .

وقال صالح المري : قلت له : يا شيخ ، قد خدعك إبليسُ ، فلو شربتَ ما تقوى به على صلاتك ووضوئك.فأعطاني ثلاثة دراهم وقال : تعاهدْني كلَّ يوم بشربة سُويقٍ . فشرب يومين وترك ، وقال : يا صالح ، إذا ذكرتُ جهنم ، ما يسعني طعامٌ ولا شرابٌ[1] .

بكى رحمه الله حتى عَمِش ، وربما غُشِي عليه عند الموعظة .

هشـام الدّسْتوائي :

« قال عبيد الله العيشي : كان هشام الدستوائي إذا فقد السراج من بيته يتململ على فراشه ، فكانت امرأته تأتيه بالسراج ، فقالت له في ذلك ، فقال : إني إذا فقدتُ السراجَ ذكرتُ ظلمة القبر » .

« قال شاذ بن فيّاض : بكى هشام الدستوائي حتى فسدتْ عينه ، فكانت مفتوحةً وهو لا يكاد يبصر بها »[2].

---

(١) السِّير ٦/٨٧ .

(٢) السير ٧/١٥٢ .

عبد الله بن المبارك :

قال نعيم بن حمّاد : « كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق تغيّر ، كأنه ثور منحور - أو بقرةٌ منحورةٌ - من البكاء ، لا يجترىء أحدٌ منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيءٍ إلا دفعه »[١] .

قال الفضيل يومًا - وذكر عبد الله -: أما إني لأحبه ؛ لأنه يخشى الله عز وجل .

وقال أبو إسحاق : قيل لابن المبارك : رجلانِ : أحدهما أخوف ، والآخر قُتل في سبيل الله ؟ قال : أحبّهُما إلّي أخوَفُهُما[٢] .

وكان رحمه الله يتقلّب على فراشه من الغمِّ ويقول : مَن يصبر على أخْذ الله ؛ إن أخذه أليمٌ شديدٌ ؟!

وقال رحمه الله : مِن أعظم المصائب للرجل أن يعلم مِن نفسه تقصيرًا ، ثم لا يبالي ولا يحزن عليه[٣] .

وقال رحمه الله : « إن البُصراء لا يأْمنون مِن أربع خصالٍ : ذنب قد مضى لا يدري ما يصنع الربُّ فيه ، وعمر قد بقي لا يدري ماذا فيه من الهلكات ، وفضل قد أعطي لعلةٍ واستدراج ، وضلالةٍ وقد زُيِّنتْ له فيراها هدًى ، ومن زيْغ القلب ساعةً ساعةً ، أسرع من طرْفة عينٍ قد يُسلب دينه وهو لا يشعر »[٤] .

« خرج ابن المبارك يومًا على أصحابه ، فقال : إني اجترأتُ البارحة

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١٦٦/١٠ ، وصفة الصفوة ١٣٧/٤ ، وشعب الإيمان .
(٢) الجامع لشعب الإيمان .
(٣) الجامع لشعب الإيمان .
(٤) الجامع لشعب الإيمان .

على الله ، سألتُه الجنة »[١].

يا لله ! أئمة ولا يرون أنفسهم أهلًا لسؤال الجنة ! لقد استولى عليهم الخوف من النار ، كحالِ آخر رجلٍ يخرج من النار حَبْوًا ... يقول لربه عز وجل : اصرفْ وجهي عن النار ، لا أسألك شيئًا غير ذلك . وعلى هذا يتنزل كلام السادة أئمة الإسلام .

الفُضَيْل بنُ عِياض :

قال هارون الرشيد : ما رأت عيناي مثل الفضيل بن عياض ؛ قال لي وقد دخلتُ عليه : يا أمير المؤمنين ، فرِّغ قلبك للحزن والخوف حتى يسكناه ، فيقطعاك عن معاصي الله، ويباعداك من عذاب النار[٢] .

قال يحيى بن أيوب : « دخلتُ مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض بالكوفة ، فإذا الفضيل وشيخٌ معه ، قال : فدخل زافرٌ وأقعدني على الباب . قال زافر : فجعل الفضيل ينظر إليّ ، ثم قال : يا أبا سليمان ، هؤلاء أصحاب الحديث ، ليس شيءٌ أحبّ إليهم من قرْب الإسناد ، ألا أخبرك بإسنادٍ لا شكَّ فيه ، رسول الله ﷺ ، عن جبريل عليه السلام ، عن الله تعالى : ﴿**نارًا وَقُودُها الناسُ والحجارةُ عليهَا مَلائكةٌ غِلَاظٌ شِدادٌ...**﴾ - قرأ الآية - فأنا وأنت يا أبا سليمان[٣] من الناس . قال : ثم غشي عليه وعلى الشيخ ، وجعل زافر ينظر إليهما . قال : ثم تحرّك الفضيل ، فخرج زافر وخرجتُ معه ، والشيخ مغشيٌّ عليه »[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين ١٩٥/٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٣٨/٨ ، والجامع لشعب الإيمان .

(٣) يعني : زافر بن سليمان .

(٤) « ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان » ٢٦٠/١ .

وعن إبراهيم بن الأشعث قال : كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة ، لا يزال يعظ ويذكّر ويبكي ، حتى لكأنه يودّع أصحابه ، ذاهب إلى الآخرة ، حتى يبلغ المقابر فيجلس ، فكأنه بين الموتى جلسَ ، من الحزن والبكاء ، حتى يقوم ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها(١) .

وعن إسحاق بن إبراهيم : ما رأيتُ أحدًا أخوف على نفسه ، ولا أرجى للناس من الفُضيل .

وقال الفضيل رحمه الله : ما أَغْبِطُ مَلَكًا مقرّبًا ، ولا نبيًّا مرسلًا يعاين القيامة وأهوالها ، ما أغبِطُ إلا مَن لم يكُنْ شيئًا .

وقال رحمه الله : طوبىٰ لمن استوحش مِن الناس ، وكان الله أنيسَه ، وبكىٰ على خطيئته .

عليُّ بن الفضيل .. قتيلُ القرآن :

قال محمد بن بشر المكِّي : كنا يومًا ماضينَ مع علي بن الفضيل ، فمررنا بمجلسِ بني الحارث المخزومي ومعلِّمٌ يعلم الصبيان ، قال : ويقرأ ﴿ **لِيَجْزِيَ الذينَ أساءُوا بِمَا عملُوا ويَجْزيَ الذينَ أحْسَنُوا بالحُسْنَىٰ** ﴾ [النجم : ٣١] ، فشهِق ابنُ الفضيل شهقةً خرّ مغشيًّا عليه ، فجاء الفضيل فقال : بأبي قتيلَ القرآن . ثم حُمِلَ ، فحدثني بعض من حَملَه أنَّ الفضيلَ أخبره أن عليًّا ابنه لم يُصلِّ ذلك اليوم الظهرَ ، ولا العصر ، ولا المغرب ، ولا العشاء ، فلما كان في جوف الليل أفاق(٢) .

« وقال أبو بكر بن عياش : صلَّيْتُ خلف فضيل بن عياض صلاة المغرب ، وإلى جانبي علِّي ابنه ، فقرأ الفضيل ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ ، فلما بلغ ﴿ **لَتَرونَّ الجَحِيمَ** ﴾ [التكاثر : ٦] ، سقط علِّي مغشيًّا عليه ، وبقي الفضيل

---

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب ص٣٨ .

(٢) الجامع لشعب الإيمان .

لا يقدر يجاوز الآية ، ثم صلى بنا صلاة خائفٍ ، قال : ثم رابطتُ عليًّا فما أفاق إلا في نصف الليل .

وكان عليٌّ يومًا عند ابن عيينة ، فحدّث سفيانُ بحديثٍ فيه ذكْر النار ، وفي يد عليٍّ قرطاس في شيءٍ مربوط ، فشهق شهْقةً ووقع ، ورمى بالقرطاس أو وقع مِن يده ، فالتفت إليه سفيانُ ، فقال : لو علمتُ أنك هاهنا ما حدّثتُ به . فما أفاق إلا بعد ما شاء الله »[١] .

وفي رواية : قال أبو بكر : « فقلت في نفسي : ويحك ، أما عندك من الخوف ما عند الفضيل وعليٍّ ؟! فلم أزل أنتظر عليًّا ، فما أفاق إلى ثلثٍ من الليل بقي » .

« قال الفضيل بن عياض : بكى عليٌّ ابني ، فقلت : يا بني ، ما يُبكيكَ ؟ قال : أخاف ألا تجمعَنا القيامةُ »[٢] .

وقال الفضيل : أشرفتُ ليلةً على عليٍّ ، وهو في صحْن الدار وهو يقول : النار ، ومتى الخلاص مِنَ النار ؟! وقال لي : يا أبَهْ ، سَلِ الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة . ثم قال : لم يزلْ منكسرَ القلبِ حزينًا . ثم بكى الفضيل ، ثم قال : كان يساعدني على الحزن والبكاء . يا ثمرة قلبي ، شَكَرَ الله لك ما قد علمه فيك[٣] .

قال الفضيل : قال لي ابن المبارك : يا أبا عليّ ، ما أحسنَ حالَ مَنِ انقطع إلى الله ! فسمِع ذلك عليٌّ ابني ، فسقط مغشيًّا عليه[٤] .

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ص٢١ لابن رجب الحنبلي – طبع : مكتبة الإيمان ، والسير ٨/٤٤٥ .
(٢) الحلية ٨/٢٩٧ ، وطبقات الأولياء ٢٧٠ ، والسير ٨/٤٤٤ .
(٣) الحلية ٨/٢٩٩ ، والسير ٨/٤٤٤ ، ٤٤٥ .
(٤) السير ٨/٤٤٤ .

قال محمد بن ناجية : صليتُ خلف الفضيل ، فقرأ ﴿ **الحاقة** ﴾ في الصبح ، فلما بلغ إلى قوله : ﴿ **خذُوهُ فغُلُّوهُ** ﴾ ، غلبه البكاءُ ، فسقط ابنُه عليٌّ مغشيًّا عليه[١] .

« قال الخطيب : مات قبل أبيه بمدَّةٍ ، من آيةٍ سمِعَها تُقْرأ ، فغُشي عليه وتُوفِّي في الحال »[٢] .

« وقال إبراهيم بن بشار : الآية التي مات فيها عليُّ بن الفضيل في الأنعام : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا على النارِ فقالوا يا لَيْتَنَا نُرَدُّ** .. ﴾ الآية [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنتُ فيمن صلى عليه، رحمه الله »[٣] .

الموتُ مِن خشية الله :

يالله .. ما أرق هذه الأفئـدة . لله درُّك يا ابن الفضيل .. يا مَن ضربتَ – سيدي – أروعَ الأمثلةِ في علو الهمة في الخوف .. يا ثمرة قلب الفضيل ، ويكفيك هذا النعت ، بل يا قتيل القرآن وقتيل جهنم ... وعلى دربك سار أناسٌ مِن قبلك ومِن بعدك !

« فعن يعلى بن حكيم قال : قال سعيد بن جبير : ما رأيتُ أرعى لحُرْمة هذا البيت ، ولا أحرص عليه مِن أهل البصرة ؛ لقد رأيتُ جاريةً ذات ليلةٍ ، تعلّقتْ بأستار الكعبة ، تدعو وتضرع وتبكي حتى ماتت »[٤] .

وانظر إلى أبي حاجب البصري (**زرارة بن أوفى**) قاضي البصرة :

« قال بهز بن حكيم : أمّنا زرارة بن أوفى في مسجد بني قشير ، فقرأ

---

(١) السير ٨/٤٤٤ .
(٢) السير ٨/٤٤٣ .
(٣) السير ٨/٤٤٦ ، وطبقات الصوفية ٢٧١ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٣٣٤ ، وقال الذهبي : إسنادها صحيح .

« المدثر » ، فلما انتهى إلى هذه الآية : ﴿ **فإذا نُقِر في الناقور** ﴾ [المدثر : ٨] ، خرّ ميتًا . قال بهز : فكنت فيمن حضره »[١] .

وعن إسماعيل بن نصر العبدي قال : نادىٰ مناد في مجلس صالح المرِّي : ليقُمْ الباكون والمشتاقون إلى الجنة. فقام أبو جهث[٢]، فقال : اقرأ يا صالح: ﴿ **وقَدِمْنَا إلى مَا عمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فجعلْنَاهُ هَباءً مَنْثُورًا أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا وأحسن مَقيلًا** ﴾ [الفرقان : ٢٣ ، ٢٤] ، فقال أبو جهث : ردّدْها يا صالح . فما فرغ من الآية حتى مات أبو جهث[٣] .

وقال أبو طارق : شهدتُ ثلاثة رجالٍ أوْ نحوهم ماتوا في مجلس الذكر يمشون بأرجلهم صحاحًا إلى المجالس ، وأجوافهم - والله - قرحة ، فإذا سمعوا الموعظة انصدعتْ قلوبهم فماتوا . قال يحيى بن بسطام : فقلت لابن طارق : مجتمعين ؟ قال : لا ، بل متفرِّقين في المجلس ؛ الرجل والرجلان ، ونحو ذلك[٤].

العمىٰ مِن كثرة البكاء :

والعمى كما قال عامر - لما قيل له : تعمى عينك -: تلك إذًا لها شهادة .

وممّن رزقهم الله أعينًا هطّالة بالبكاء حتى عميتْ :

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد عن أبي خباب القصّاب ، وابن سعد في الطبقات ، والحاكم في المستدرك ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٣/٢٣٠ ، والذهبي في السير ٤/٥١٦ ، وقال : صحّ ، وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين .

(٢) في صفة الصفوة : أبو جهير مسعود الضرير .

(٣) الجامع لشعب الإيمان ، وصفة الصفوة ٣/٣٣٣ .

(٤) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ١/٢٤٨ .

العلاء بن زياد :

وكان ربانيًّا تقيًّا قانتًا لله ، بكّاءً من خشية الله .

قال قتادة : كان العلاء قد بكى حتى غشي بصره . وكان إذا أراد أن يقرأ أو يتكلم جهشه البكاء ، وكان أبوه قد بكى حتى عمي(١) .

وعليٌّ بن بكار :

قال يوسف بن مسلم : بكى علي بن بكار حتى عمي ، وكان قد أثّرتِ الدموع في خدَّيْه(٢) .

« وعن أبي زكريا الحلقاني الهمداني : كنا عند علي بن بكار ، فمرّت سحابة ، فسألتُه عن شيءٍ ، فقال لي : اسكت ، حتى تَجوزَ هذه السحابة ، أما تخشىٰ أن يكون فيها حجارةٌ نرمىٰ بها ؟! »(٢) .

والترمذيّ :

« قال عمر بن عَلّك : مات البخاري فلم يخلّف بخُراسَان مثلَ أبي عيسى في العلم، والحفظ، والورع، والزهد. بكى حتى عَمِيَ، وبقي ضريرًا سنين »(٣) .

الغَشْيُ من كَثرة البُكَاء :

قال حوشب لمالك بن دينار : رأيت كأن مناديًا ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ، فما ارتحل إلا محمد بن واسع . فبكى مالكٌ وخرّ مغشيًّا عليه .

وعبد الله بن وهب إمام أهل مصر :

« قال خالد بن خداش : قُرِىء على عبد الله بن وهب كتابُ أهوالِ

---

(١) السير ٤/٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) السير ٩/٥٨٥ ، والسير ٩/٥٨٤ .

(٣) السير ١٣/٢٧٣ ، وتذكرة الحفاظ ٢/٦٣٤ ، وتهذيب التهذيب ٩/٣٨٩ ، وفيه : « عمران بن علان » بدلًا من : « عمر بن علك » .

يوم القيامة (تأليفه) ، فخرّ مغشيًّا عليه ، قال : فلم يتكلّم بكلمةٍ ، حتى مات بعد أيام ، رحمه الله تعالى »[١].

الشّافعيّ :

« قال سويد بن سعيد : كنتُ عند سفيان ، فجاء الشافعي فسلّم وجلس ، فروى ابن عيينة حديثًا رقيقًا ، فغُشي على الشافعي ، فقيل : يا أبا محمد ، مات محمد بن إدريس . فقال ابن عيينة : إن كان مات ، فقد مات أفضل أهل زمانه »[٢].

وسيمُ البلخيّ :

قال خالد بن خداش : كنتُ أقعدُ إلى وسيم البلخي عمِّ قتيبة – ابن سعيد – وكان أعمى ، وكان يحدّث ويقول : أوه ! القبر وظلمته ، واللحد وضيقه ، كيف أصنع ؟! ثم يُغمى عليه[٣].

سعيد بن عبد العزيز :

قال أبو النضر إسحاق بن إبراهيم : كنت أسمع وقْعَ دموعِ سعيد بن عبد العزيز على الحصير في الصلاة[٤].

وقال أبو عبد الرحمن الأسدي : قلت لسعيد بن عبد العزيز : ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة ؟ فقال : يا ابن أخي ، وما سؤالك عن ذلك ؟ قلت : لعلّ الله أن ينفعني به . فقال : ما قمتُ إلى صلاةٍ إلّا مُثِّلَتْ لي جهنم[٥].

---

(١) « السير » ٢٢٦/٩ ، و « الانتقاء » لابن عبد البر ص٤٩ .
(٢) السير ١٧/١٠ ، ١٨ ، وحلية الأولياء ٩٥/٩ ، وتاريخ ابن عساكر ، ومناقب الرازي ١٧ ، ١٨ .
(٣) الجامع لشعب الإيمان ، وثلاث شعب من الجامع ٢٥٦/١ .
(٤) (٥) السير ٣٤/٨ .

عمر بن عبد العزيز :

عن المغيرة بن حكيم قال : قالت لي فاطمة بنت عبد الملك ، امرأةُ عمر بن عبد العزيز : يا مغيرة ، إنه يكون في الناس مَن هو أكثر صلاةً وصيامًا من عمر ، وما رأيتُ أحدًا قطُّ أشدَّ فَرَقًا مِن ربِّه مِن عمر ؛ كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد ، ثم يرفع يديْه ، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه ، فلم يزل رافعًا يديْه يبكي حتى تغلبه عيناه[1] .

وقال النضر بن عربي : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز ، فكان ينتفض أبدًا ، كأنّ عليه حزن الخلق[2].

وعن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة قال : شهدتُ عمرَ بن عبد العزيز ومحمدُ بن قيس يحدثه ، فرأيت عمر يبكي حتى اختلفتْ أضلاعه[3].

وعن ميمون بن مهران أن عمر بن عبد العزيز أتي بسلْقٍ وأقراصٍ فأَكَلَ ، ثم اضطجع على فراشه ، وغطّى وجهه بطرف ردائه ، وجعل يبكي ويقول: عبدٌ بطيءٌ بطين[4] يتباطأ ، ويتمنّى على الله منازل الصالحين[5]؟!

قال المُفضّل بن غسّانَ الغلابي : كان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله لا يجفّ دمعه من هذا البيت :

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكنْ لَهُ مِنَ اللهِ في دارِ القرارِ نَصِيبُ[6]

---

(١) الزهد لأحمد ص٣٦٣ ، والمعرفة والتاريخ للفسوي ١/٥٧١ ، وأبو نعيم في الحلية ٥/٢٦٠ ، والسير للذهبي ٥/١٣٧ .

(٢) السير ٥/١٣٧ .

(٣) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ١/٥٨٤ .

(٤) البطين : العظيم البطن ، والأكول .

(٥) المعرفة والتاريخ ١/٥٨٥ ، وثلاث شعب من الجامع ١/٢٦٧ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٥/١٣٨ .

وعن عبد السلام ، مولى مسلمة بن عبد الملك قال : بكى عمر ابن عبد العزيز ، فبكتْ فاطمة ، فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما تجلَّى عنهم العَبْر ، قالت له فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين ، مم بكيتَ ؟ قال : ذكرتُ يا فاطمة مُنصَرف القوم مِن بين يدي الله عز وجل ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير . قال : ثم صرخ وغُشي عليه[١].

الأوزاعي :

قال العباس بن الوليد : كان الأوزاعي إذا أخَذ في ذكْر المعاد ، أقول في نفسي : أتُرى في المجلس قلبٌ لم يبكِ[٢].

وقال أبو مسهر : كان الأوزاعي يُحيي الليلَ صلاةً وقرآنًا وبكاءً ، وأخبرني بعضُ إخواني مِن أهل بيروت أن أمَّه كانت تدخل منزلَ الأوزاعي ، وتتفقَّد موضع مصلَّاه ، فتجدُه رَطبًا مِن دموعه من الليل[٣].

الحسن بن صالح بن حيّ :

قال يحيى بن أبي بكير : قلت للحسن بن صالح : صِفْ لنا غسلَ الميتِ . فما قدَر عليه من البكاء[٤].

وقال الصّلت بن مسعود : خرج الحسن بن صالح بن حي يومًا من بيتي ، فنظر إلى جرادٍ يطير ، فقال : ﴿ **يخْرجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ كأنَّهُمْ جَرادٌ مُنتَشِرٌ** ﴾ [القمر : ٧] ، ثم خرّ مغشيًّا عليه[٥].

---

(١) روضة الزاهدين ص٣٦ .
(٢) السير ٧/١١٠ .
(٣) السير ٧/١٢٠ .
(٤) السير ٧/٣٦٨ .
(٥) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٣٣ .

« وقال عبيد الله بن موسى : كنتُ أقرأ على عليٍّ بن صالح ، فلما بلغتُ إلى قوله : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ... ﴾[١]، سقط الحسن بن صالح يخور كما يخور الثور ، فقام إليه عليّ فرفعه ، ومسَح على وجهه ، ورشّ عليه الماء ، وأسنده إليه »[٢].

منصورُ بن المُعْتَمِر :

قال زائدة بن قدامة : كان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت : رجلٌ قد أُصيبَ بمصيبةٍ ، ولقد قالت له أمُّه : ما هذا الذي تصنع بنفسك ، تبكي الليل عامَّتَهُ ، لا تكاد أن تسكت ! لعلك يا بُنّي أَصبتَ نفسًا ، أقتلت قتيلًا ؟ فقال : يا أمَّهْ ، أنا أعلم بما صنعتْ نفسي[٣].

الجـــوني :

قال أبو عمران الجوني : أرتني أمِّي موضعًا من الدار قد انحفر ، فقالت : هذا موضعُ دموع أبيك .

إمامُ أهل السُّنَّة أحمدُ بن حنبل :

قال ابنه صالح : كنتُ أسمعُه كثيرًا يقول : اللهم سلِّمْ ، سلِّمْ .

« قال المروذي : كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقتْه العَبرة ، وكان يقول : الخوف يمنعني أَكْلَ الطعام والشراب ، وإذا ذكرتُ الموت هانَ عليّ كلُّ أمْر الدنيا ، إنما هو طعامٌ دون طعامٍ ، ولباسٌ دون لباسٍ ، وإنها أيام قلائل ، ما أعدلُ بالفقر شيئًا ، ولو وجدتُ السبيل لخرجتُ ، حتى لا يكون لي ذكرٌ »[٤].

---

(١) مريم : ٨٤ وتتمتها : ﴿ إنما نَعُدُّ لهمْ عدًّا ﴾ .
(٢) الكامل لابن عدي ٢/٧٢٤ ، والسير للذهبي ٧/٣٦٤ .
(٣) الهم والحزن لابن أبي الدنيا ، والحلية ٥/٤١ ، والذهبي في السير ٥/٤٠٦ .
(٤) السير ١١/٢١٥ ، ٢١٦ .

قال الإمام أحمد : « لقد رأيتُ قومًا صالحين ، رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جُبَّةٌ من لبودٍ قد أتتْ عليها سنون ، رأيت أبا داود الحفري وعليه جُبَّة مُخرَّقةٌ ، قد خرج منها القطن ، وهو يصلي فيترجح من الجوع ، ورأيت أيوب النجار وقد خرج مِن كلِّ ما يملكه ، وكان في المسجد شابٌّ مصفر ، يقال له : العوفي ، يقوم من أول الليل إلى الصباح ، يبكي »[(١)].

محمد بن كعب القرظي :

« قالت أمُّ محمد بن كعب القرظي له : يا بُنيَّ ، لولا أني أعرفك طيّبًا صغيرًا وكبيرًا ، لقلت : إنك أذنبتَ ذنبًا موبقًا ؛ لما أراك تصنع بنفسك . قال : يا أمَّاه ، وما يُؤمِّنُني أن يكون اللهُ قد اطّلع عليّ ، وأنا في بعض ذنوبي فمقتني ، وقال : اذهب ، لا أغفر لك »[(٢)].

الضَّحَّاك بنُ مُزَاحِم :

قال قيْس بن مسلم : « كان الضَّحّاك إذا أمسىٰ بكىٰ ، فيُقال له ، فيقول : لا أدري ما صعِدَ اليوم مِن عملي » .

محمد بن المُنكَدِر :

قال يحيى بن الفضل الأنيسي : سمعتُ بعضَ مَن يذكر عن محمد بن المنكدر ، أنه بينَا هو ذات ليلةٍ قائمٌ يصلي إذ استبكى ، فكثُر بكاؤه حتى فزع له أهله ، وسألوه فاستعجم عليهم ، وتمادى في البكاء ، فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء إليه ، فقال : ما الذي أبكاك ؟ قال : مرتْ بي آيةٌ . قال : وما هي؟ قال: ﴿... **وبَدَا لهم مِنَ اللَّهِ ما لم يكونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: ٤٧] . فبكى أبو حازم ، واشتد بكاؤهما[(٣)].

---

(١) المدهش لابن الجوزي ٣١٢ .
(٢) السير ٥/٦٥ - ٦٦ .
(٣) السير ٥/٣٥٥ .

هارونُ بنُ رِئاب :

« قال جعفر بن سليمان : عُدتُ هارون بنَ رئابٍ وهو يجود بنفسه ، فما فقدتُ وجْهَ رجلٍ فاضل إلا رأيتُه عنده ، فقال محمد بن واسع : كيف تجدك ؟ فقال : هو ذا أخوكم ، يُذهَب به إلى النار ، أو يعفو الله »(١).

يحيىٰ بنُ أبي كثير :

« قال ابن حبان : كان مِنَ العباد ، إذا حضر جنازةً لم يتعشَّ تلك الليلة ، ولا يكلِّمه أحدٌ »(٢).

يزيدُ بن هارون :

قال الحسن بن عرفة العبدي : رأيتُ يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينَيْن ، ثم رأيته بعينٍ واحدةٍ ، ثم رأيتُه وقد ذهبتْ عيناه ، فقلت له : يا أبا خالدٍ ، ما فعلتِ العينانِ الجميلتانِ ؟ قال : ذهب بهما بكاءُ الأسحار(٣).

حَمَّادُ بن عبد ربِّه :

« كان رحمه الله إذا جلس ، جلس مُستوفِزًا على قدمَيْه ، فيُقال له : لو اطمأننتَ ؟ فيقول : تلك جلسة الأمن ، وأنا غير آمنٍ ، إذْ عصيت الله تعالى »(٤).

حسَّانُ بن أبي سِنانَ :

قال حمّاد بن زيد : كنتُ إذا رأيت حسّان بن أبي سنان كأنه أبدًا

---

(١) السير ٢٦٤/٥ .

(٢) السير ٢٨/٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٤١/١٤ ، وصفة الصفوة ١٨/٣ .

(٤) الإحياء ١٩٤/٤ .

مريضٌ . قال أبو جعفر : فذكرتُ ذلك لمخلد بن حسين ، فقال : هكذا كان ؛ إذا رأيته كأنه أبدًا ناقةٌ[١] .

قال محمد بن سوقة : إنّ المؤمنَ الذي يخاف الله لا يسمن ، ولا يزداد لونه إلا تغيُّرا .

وعن أبي هارون موسى قال : كان عون يحدثنا ولحيتُه ترتشُّ بالدموع .

زيادُ بن جَرير :

عن حفص بن حميدٍ قال : قال لي زياد بن جرير : اقرأ عليَّ . فقرأتُ عليه ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَك ووضَعْنَا عنكَ وِزْرَكَ الذي أنقضَ ظَهْرَكَ** ﴾ ، فقال : يا ابن أمِّ زياد ، أنقض ظهر رسول الله ﷺ . فجعل يبكي كما يبكي الصبيُّ .

سهْلُ بن عليّ المروزي :

قال عنه أبو حاتم : روى عنه المراوزة كلامَه ، وتأدَّبُوا بِوَرَعِه .

قال حفص بن حميد : رأيتُ سهل بن علي في المسجد يجول كأنه أبْله ؛ من الخوف ، وهو يقول : النار ، النار . وترعد فرائصُه ، حتى أخذني البكاءُ[٢] .

عبد العزيز بنُ سُليمان :

كان رحمه الله إذا ذكَر القيامة صرخ كما تصرخ الثَّكْلى ، ويصرخ الخائفون مِن جوانب المسجد ، وربما رُفِع الميِّتُ والميِّتانِ مِن جوانب مجلسه[٣] .

---

(١) روض الزاهدين ص٣٥ .

(٢) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ١/٢٢٣ .

(٣) الحلية ٦/٢٤٣ ، وصفة الصفوة ٣/٣٧٧ .

عُتبةُ الغلامُ :

قال عنبسة الخوَّاص : كان عتبة الغلام يزورني ، فربَّما بات عندي . قال : فبات عندي ذاتَ ليلةٍ فبكىٰ في السحر بكاءً شديدًا ، فلما أصبح قلت : لقد فزَّعْتَ قلبي منذ الليلة ببكائك ، فيم ذاك يا أخي ؟ فقال : يا عنبسةُ ، واللهِ إني ذكرتُ يوم العرض على الله . ثم مالَ ليسقُط فاحتضنْتُه ، فجعلتُ أنظر إلى عينيْه يتقلبان ، قد اشتدت حمرتُهما ، وجعل يخور ، فناديته : عتبة ، عتبة ، أجبني . قال : فمكث ثلاثًا لا يجيبني . ثم هَذَى[١] ، فناديتُه : عتبة ، عتبة ، فأجابني بصوتٍ خفيٍّ : قطّع ذكْرُ العرض على الله أوصالَ المحبِّين . قال : ثم جعل يحشرج حشْرَجَة الموت ، ويقول : أتراك تعذِّب مُحِبِّيك وأنت الحيُّ الكريم ؟! قال : فلم يزل يردِّدها حتى - والله - أبكاني[٢] .

قال عتبة : لولا ما نُهينا عنه من تمنِّي الموت لتمنَّيتُه . فقال له رياح القيسي : ولِمَ تتمنَّىٰ الموت ؟ قال : لي فيه خُلَّتانِ حسَنتانِ . قلت : وما هما ؟ قال : الراحة من معاشرة الفُجَّار ، ورجاءٌ لمجاورة الأبرار . قال : ثم بكى وقال : أستغفرُ الله ؛ وما يُؤمنني أنْ يُقرن بيني وبين الشيطان في سلسلةٍ من حديدٍ ، ثم يُقذف بي في النار ؟! ثم غُشي عليه[٣] .

عبد العزيز بن أبي روّاد :

قال عبد الله بن مرزوق : قلت لعبد العزيز بن أبي روّاد : ما أفضلُ العبادة ؟ قال : طُول الحزن في الليل والنهار .

السَّريّ السقطيّ :

قال الجنيد بن محمد : سمعت السَّري يقول : إني لأنظر في أنفي كلَّ

---

(١) أي : تكلم بكلامٍ غيرِ مفهومٍ .

(٢) الحلية لأبي نعيم ٢٣٥/٦ ، وصفة الصفوة ٣٧٢/٣ .

(٣) روضة الزاهدين ص٣٧ ، ٣٨ .

يوْم مرارًا ؛ مخافةَ أن يكون وجهي قد اسْودَّ[١].

وقال الجنيد : سمعتُ السري يقول : ما أحبُّ أن أموت حيث أُعْرف ، فقيل له : ولِمَ ذاك يا أبا الحسن ؟ قال : أخاف أن لا يقبلني قبري فأُفْتضح[٢] .

قال السري رحمه الله : شيئانِ مفقودانِ : الخوف المُزْعج ، والشَّوْق المغلق[٣]. أو المُقلِق .

وقال رحمه الله : « قلوب الأبرار معلقةٌ بالخواتيم ، وقلوب المقرَّبين معلقة بالسَّوابق ؛ أولئك يقولون : ماذا مِنَ الله سَبق لنا ؟ وهؤلاء يقولون : بماذا يُختم لنا ؟ »[٤].

وكان (**يحيى بن معاذ الرازي**) يقول : يا مَن ذكْرُه أعزُّ عليّ مِنْ كلِّ شيءٍ ، لا تجعلني بين أعدائك غدًا أذلَّ مِن كلِّ شيءٍ .

وقال (**الجُنَيْد**) : ما كان العبد أعلم بالله كان له أشدَّ خوفًا ، والخائفون على طبقاتٍ : خائف من الإجرام ، وخائف من الحسناتِ أن لا تُقبل ، وخائف من العواقب ؛ قال الله تعالى : ﴿ **ولا يخافُ عُقْبَاهَا** ﴾[٥] [الشمس : ١٥].

وقال رحمه الله : مَن كان اللهُ هَمَّه طالَ حزْنُهُ ، فقال الشبلي : لا

---

(١) ، (٢) أبو نعيم في الحلية ١١٦/١٠ ، والذهبي في السير ١٨٧/١٢ ، وابن تغربردي في النجوم الزاهرة ٣٣٩/٢ .

(٣) المغلق : هو الذي يلازم صاحبه . من غلق الرهن : إذا بقي في يد المرتَهن لا يقدر راهنُه على تخليصه .

(٤) الحلية لأبي نعيم ١٢/١٠ ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٣٧٩/٢ .

(٥) ثلاث شعب من الجامع ١٨٥/١ - ١٨٦ .

يا أبا القاسم ، بل مَن كان الله همَّه زال حزنُه .

قال البيهقي رحمه الله : قوْلُ الجنيد محمولٌ على ذكر الدنيا ، وقوْل الشِّبلي محمولٌ على الآخرة ، وقوْل الجنيْدِ محمولٌ على حزنه عند رؤيةِ التقصير من نفسه في القيام بواجباته ، وقوْل الشبلي محمولٌ على سروره بما أُعطي من التوفيق في الوقت ، حتى جَعل الهمَّ همًّا واحدًا ، والله أعلم .

وقال الكتَّاني : روْعةُ ساعةٍ عند انتباه من غفلةٍ ، وانقطاعٌ من حظِّ النفسانية ، وارتعادٌ مِن خوفِ قطيعةٍ؛أفضلُ من عبادة الثَّقَليْن .

وقال أحمد بن أبي الحواري ، ريحانة الشام : « أفضلُ البكاءِ : بكاءُ العبدِ على ما فاته من أوْقاته على غيرِ الموافقةِ ، أوْ بكاءٌ على ما سبَق له مِنَ المخالفة .

عمرو بن قيْس الملائي :

قال حفص بن غياث : لما احتضر عمرو بن قيس الملائي بكى ، فقال له أصحابه : عَلامَ تبكي ؛ فوالله لقد كنت غضيضَ العيْشِ أيَّامَ حياتك ؟! فقال : والله ما أبكي على الدنيا ، وإنما أبكي خوْفًا مِن أن أُحْرم خيرَ الآخرة[١].

أخي ، قال إبراهيم بن أدهم : الهوىٰ يُردي ، وخوف الله يُشفي ، واعلمْ أنما يزيل عن قلبك هواك إذا خفتَ مَنْ تعْلمُ أنه يراكَ .

أخي ، قال رسول الله ﷺ : « مَن خاف أَدْلَجَ ، ومَن أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِل ، ألا وإنّ سِلْعَة اللَّهِ غاليةٌ ، ألا وإنَّ سلعة اللهِ الجنةُ »[٢].

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/١٩٧ - ١٩٨ ، وصفة الصفوة ٣/١٢٥ ، وفيها : « تبغض » بدلًا من : « غضيض » .

(٢) صحيح : رواه أبو هريرة، وأخرجه الترمذي، والعقيلي في الضعفاء، والحاكم وصححه وأقره الذهبي .

داود الطائي :

قال رحمه الله : إن للخوف حركاتٍ تعْرَفُ في الخائفين ، ومقاماتٍ تُعرَف في المحبِّين ، وإزعاجاتٍ يُعرَف بها المشتاقون ، وأين أولئك ؟! أولئك هم الفائزون[١] .

رأى - رحمه الله - امرأةً تبكي على رأسِ قبر والدها ، وهي تقول : يا أبتاه ، ليتَ شعري ! أيَّ خَدَّيْكَ بدأ به الدُّودُ أوَّلًا ؟! فصعِق داودُ ، وسقَطَ مكانَه[٢] .

« قال شقيق البلخي : ليسَ للعبدِ صاحبٌ خيرًا من الهمّ والخوف : همٍّ فيما مضى من ذنوبه ، وخوفٍ فيما لا يدري ما ينزل به .

وقال سهل بن عبد الله التستري : لا يبلغ حقيقة الخوف ، حتى يخاف مواقع علْم الله فيه ، ويحزن على ذلك »[٣].

فتحٌ المَوْصليّ يتقرَّب إلى الله بطول خوْفه وحُزْنه :

خرج فتح الموصلي إلى المصلَّى يوم الأضحى ، قال : فرجع فنظر إلى القتار[٤]، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: إلهي، تقرَّب المتقرِّبون إليك بقربانهم ، وإني متقرِّبٌ إليك بطول حزني يا محبوب . قال : ثم سقط مغشيًّا عليه ، فلما أفاق قال : إلى كمْ تردِّدني في أزِقَّة الدنيا محزونًا[٥]؟!

---

(١) الحلية ٣٣٦/٧ .

(٢) الإحياء ١٩٦/٤ .

(٣) ثلاث شعب من الجامع ٢١٥/١ .

(٤) القتار : دخان ذو رائحة خاصَّةٍ ، ينبعث من الطبخ أوْ الشواء ، أو العظم المحروق .

(٥) الهمُّ والحزن لابن أبي الدنيا ١٢/أ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ١٨٨/٤ .

عابِـدٌ :

قال ابن السّماك : دخلتُ على عابدٍ ، فقالت أمُّه : لا تذكروا لابني شيئًا من أمْر جنَّةٍ ولا نارٍ لتقتلوه عليَّ ؛ فليس لي غيره . قال : فلما دخلنا عليه ، فإذا هو مُنكّسُ الرأس ، طويلُ الصَّمت ، فرفع رأسه فنظر إلينا ، ثم قال : إن للناس موقفًا لا بد أن يقفوه . قال : قلت : بيْن يدَيْ مَن ، رحمك الله؟ قال: فشهِق شهْقةً فمات. قال ابن السماك : فجاءت العجوز ، فقالت : قتلتم ابني . قال : فكنتُ فيمن صلَّى عليه ، رحمه الله[1] .

« قال سهل بن عبد الله : المريدُ يخافُ أن يُبْتَلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يُبتَلى بالكفر .

وكان أبو يزيد البسطامي يقول : إذا توجهتُ إلى المسجد ، فكأن في وسطي زنارًا ، أخاف أن يُذهب بي إلى البيعة وبيت النار ، حتى أدخل المسجد ، فينقطع عني الزنار ، فهذا لي في كلّ يومٍ خمس مراتٍ »[2] .

وقال الثوري لما سألوه عن بكائه : بكينا على الذنوب زمانًا ، فالآن نبكي على الإسلام[3] .

محمد بن واسـع ... زيْنُ القرّاء :

قال جعفر : كنتُ إذا وجدتُ من قلبي قسوةً ، نظرت إلى وجه محمد ابن واسع نظرةً ، وكنت إذا رأيتُ وجه محمد بن واسع ، حَسِبْتُ أنّ وجهَهُ وجْهُ ثكْلَى .

---

(١) الحلية ٢٠٨/٨ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٨١/٤ .

(٣) الإحياء ١٨٨/٤ .

وكان محمد بن واسع ، رحمه الله يقول : يا إخوتاه ، أتدرون أين يُذهَب بي ؟ يُذهب بي - والله الذي لا إله إلا هو - إلى النار ، أو يعفوَ الله عني .

بِشْرُ بن منصور :

قال عبد الرحمن بن مهدي : قال بشر بن منصور : إني لأذكر الشيءَ مِن أمْر الدنيا ، أُلهي به نفسي عن ذكْر الآخرة ، أخاف على عقلي[(١)].

يحيىٰ البكّاءُ :

قُرىء عند يحيى البكاء ﴿ **ولوْ ترىٰ إذْ وُقِفُوا على رَبِّهم** ... ﴾ الآية [الأنعام: ٣٠]، فصاح صيحة مكث منها مريضًا أربعة أشهرٍ ، يُعادُ من أطرافِ البصرة[(٢)].

صالحُ المرّيُّ :

قال عبد الرحمن بن مهدي : جلستُ مع سفيان الثوري في مسجد صالح المريّ ، فتكلم صالحٌ ، فرأيت سفيان الثوري يبكي ، وقال : ليس هذا بقاصٍّ ، هذا نذيرُ قومٍ[(٣)].

قال صالح : قرأتُ على رجلٍ من المتعبدين ﴿ **يومَ تُقلّبُ وجُوهُهُمْ في النَّارِ يقولونَ يا ليْتَنا أطعْنَا اللَّهَ وأطعْنَا الرَّسُولَا** ﴾ [الأحزاب : ٦٦] ، فصعِق ثم أفاق ، فقال : زدني يا صالح ؛ فإني أجد غمًّا . فقرأتُ ﴿ **كُلَّما أرادُوا أنْ يخرُجُوا منهَا أُعيدوا فيها** ... ﴾ الآية [السجدة : ٢٠] فخرّ ميّتًا[(٤)].

---

(١) روضة الزاهدين ص٣٢ .
(٢) الإحياء ٤/١٩٤ .
(٣) روضة الزاهدين ص٣٧ .
(٤) الإحياء ٤/١٩٦ .

عابِـــدٌ :

قال عَطاء : خرجنا مع عُتْبة الغلام وفينا كُهُولٌ وشُبَّان ، يصلُّون صلاةَ الفجر بطهور العشاء ، قد تورّمتْ أقدامُهم مِن طول القيام ، وغارتْ أعينُهم في رؤوسهم ، ولصقَتْ جلودُهم على عِظامهم ، وبقَيتْ العروقُ كأنها الأوتار ، يُصبحون كأن جلودَهم قشور البطيخ ، وكأنهم قد خرجوا من القبور يُخبرون كيف أكرم اللهُ المطيعين وكيف أهان العاصين ، فبينما هم يمشون إذْ مرّ أحدهم بمكانٍ فخرّ مَغشيًّا عليه ، فجلس أصحابه يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا ، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق ، وسألوه عن أمْره ؟ فقال : إني ذكَرْتُ أني كنتُ عصيتُ اللَّهَ في ذلك المكان[1] .

قصَّة ابنِ السّمّاكِ معَ عابدٍ :

قال ابن السماك : « ذُكر لي رجلٌ بعبادانَ قد رفض الدنيا ، وأقبل على الآخرة جدًّا واجتهادًا ، فأتيتُ « عبادان » فسألت عنه فوصف لي دارُه ... فدخلتُ البيت ، فإذا أنا برجلٍ قد نحل من غير سقمٍ ، وقد احتفر قبرًا عند رجلَيْه ، وقد دلّى رجليْه فيه ، وفي يده خوص يشقُّهُ وهو يتلو هذه الآية ﴿ **أمْ حَسِبَ الذينَ اجترحُوا السَّيِّئاتِ أَن نجعلَهُم كالذينَ آمنوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ سواءً محياهُم ومَماتُهم ساءَ ما يحكُمونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] بصوتٍ حزينٍ ، فسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، وقال : مِن إخواني أنت ؟ قلت : نعم ، ولست من أهل البصرة ، ولا من أهل « عبادان » . قال : فمن أين أنت ؟ قلت : مِن أهل الكوفة . قال : فما اسمك ؟ قلت : محمد بن السماك . قال : لعلك الواعظ ؟ قلت : نعم . قال : فأخذ يديّ بيدَيْه جميعًا ، ثم قال لي : مرحبًا ، وحيّاكَ اللهُ يا أخي بالسَّلام ، ومتّعَنا وإيَّاك في الدنيا بالإخوان . يا أخي ، ما زالتْ نفسي متطلِّعة إلى لقائِك ، تحبُّ

(١) الإحياء ٤/١٩٥ - ١٩٦ .

أن تعرِضَ داءَها على دوائك . أُعلمك يا أخي أنَّ بي جرحًا قديمًا قد أعيَى المعالجين قَبْلَك ، فتأنّاه برفقك ، وألصق عليه ما تعلم أنه يلائمه مِن مراهمك . قال : فعلمت أن الرجل يريد أن أعِظَه ، فقلت : يا أخي ، وهل يداوي مثلي مثلَك ، وجرحي أنغلُ[١] مِن جرحك ، وذنبي أعظم من ذنبك ؟! فقال : سألتك بالله إلا ما وعظتني . فقلت له : يا أخي ، قد علمتَ أن ذنبك الذي أذنبتَ لم يُمْح ، وأن لذاذتك لم تبقَ ، وأنَّ الموت يطلبك صباحًا ومساءً ، وأنك تصير غدًا إلى ضيق اللُّحود ، وظلمة القبور ، ومساءَلِة منكر ونكير . فلما قلت له ذلك شهق شهقة خرّ في قبره ، يخور كما يخور الثور إذا وُجِيَ في منْحَره ، وأقبلتِ امرأته وابنته يبكيانِ من وراء الحجاب ويقولان : سألناك بالله لا تزدْه شيئًا فتقتلَه علينا . فأفاق ، فقال : يا أخي ، قد وافق دواؤك دائي ، ولصق مرهمك بجرحي . أخي ابن السماك ، زدني . فقلت له : يا أخي ، إن أهلك وولدَك قد حلّفوني أني لا أزيدك شيئًا . فأقبل عليهم وقال : اعلم يا أخي أنه ليس أحدٌ أشدّ عليّ وبالًا ، ولا أعظم جُرْمًا مني ، إذا وقفتُ بين يدي ربي من أهلي وولدي . فقلتُ : يا أخي ، ما بعد ظلمةِ القبور ، وضيقِ اللحود ، ومساءلة مُنكَر ونَكِير إلا الطَّامَّة . قال : وما هي يا ابن السماك ؟ فقلت له : إذا أخذ إسرافيل ، يعني في نفخ الصور ، وبُعثر ما في القبور ، وجئنا نحن بأثقالِنا تُحمَل على الظهور ، فكم يا أخي في ذلك اليوم من منادٍ ينادي بالويل والثبور ! وأعظمُ من ذلك أيضًا توبيخُ الرَّبِّ إيَّانا عند قراءة السِّيئات ، التي قد أحصىٰ عليّ وعليك فيه النقيرَ والفتيلَ والقطميرَ ، وملائكةٌ مُتَّزِرُون بإزار من نارٍ ، غِضَابٌ لغضبِ الرحمن ، ينتظرون ما يُقال لهم بالغضب : ﴿ **خذُوه فغُلُّوه** ﴾ [الحاقة : ٣٠]، قال : فشهِق شهْقة فخرّ في قبره ، كأنه ثور قد وُجِيَ في

---

(١) النغل : الفساد . النهاية ٥/٨٨ .

منحـره ، وبال ، فعرفتُ بالبول ذهابَ عقْلِه ، فأقبلت ابنته فاجتذبته ، وأسندتْه إلى صدرها ، ومسحتْ وجهه بكمها ، وهي تقول : بأبي وأمي عينيْنِ طال ما سهرتَا في طاعة الله ! بأبي وأمِّي عينيْن طال ما غضَّتَا عن محارم الله ! وأفاق ، فقال لي : عليك السلام يا ابن السماك ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . وشهق الثالثة ، فظننتُ مثل الأُولَيَيْنِ ، فحرّكتُه فإذا الرجل قد فارق الدنيا »[1] .

للهِ درُّهم ، ودرُّ مَن سبقهم ! فقد حفر الربيع بن خُثَيْم قبرًا كان ينزل إليه في اليوم مراتٍ ، ثم إذا خرج يقول : يا ربيع ، ها قد خرجت ، فاعملْ لقبر إنْ نزلتَ فيه تقول : ﴿ **ربّ ارْجعُون** ... ﴾ [المؤمنون : ٩٩]، إلى يوم القيامة ، ولا تُجاب .

وهاكَ قصةً أخرى نختم بها :

منصـور بن عمّار الواعظ ، وعابدٌ من واسـط :

قال منصور بن عمّار : « قال لي رجل بالشام : يا أبا السري ، عندنا رجلٌ من العُبّاد من أهل واسط العراق ، رجلٌ لا يأكل إلا مِن كَدِّ يديْه ، وقدْ دبرت مِن سفِّ الخُوص والاعتمال صفحةُ يديْه ، ولو رأيته لوقذك النظر إليه ، فهل لك أن تمضي بنا إليه ؟ قال : قلت : نعم ، فأتيناه فدققْنَا عليه بابه ، فخرج إلى الباب ، فسمعته يقول : اللهم إني أعوذ بك ممّن جاءَ ليشغلني عمّا أتلذّذ به من مناجاتك . ثم فتحنا الباب فدخلنا ، وإذا رجلٌ يُرىٰ به الآخرة ، وإذا قبرٌ محفور ، ووصيةٌ قد كتبها في الحائط ، وكساؤه قد أعدّتْ لكفنه ، فقلت : أيّ موقف لهذا الخلق ؟ قال : بين يدي مَن ؟ قال : فصاح ، وخرّ بوجهه ، ثم أفاق من غشْيتِهِ ، فقال له صاحبي : يا أبا عباد ، هذا أبو السريّ منصور بن عمار . فقال لي : مرحبًا يا أخي ،

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٣٨ - ٢٤٠ .

ما زلتُ إليك مشتاقًا . قال – وأراه صافحني –: أُعْلِمُك أنّ بي داء قد أعيى المتطبِّبين قبلك قديمًا ، فهل لك أن تتأتّى له برِفْقِكَ وتلصق عليه بعض مراهِمِك ، لعلّ الله أن ينفع بك ؟ قال : قلت : وكيف يَعالِجُ مثلي مثلَك ، وجرحي أثقل من جرحك ؟! قال : فقال : وإنْ كان ذاك كذلك ، فإني مشتاقٌ منك إلى ذلك . قال : قلت : أمَا إذْ أبيتَ ، فلئِنْ كنت تمسّكتَ باحتفار قبرك في بيتك ، وبوصيةٍ رسْمتَها بعد وفاتك ، وبكفن أعددتَه ليوم مَنيّتك ، فإنّ لله عبادًا اقتطعهم خوفُه عن النظر إلى قبورهم . قال : فصاح صيحةً ووقع في قبره ، وجعل يفحص برجليْه ، وبال . قال : فعرفتُ بالبولِ ذهاب عقله ، فخرجت إلى طحّان على بابه ، فقلت : ادخلْ ، فأعنّا على هذا الشيخ . فاستخرجناه من قبره وهو في غشْيته ، فقال لي الطحانُ : ويحك ! ما أردت إلى ما صنعتَ بهذا الشيخ ، واللهِ لا يغفر الله لك ما صنعت . فخرجتُ وتركتُه صريعَ فترته ، فلما كان الغد عُدت إليه ، فإذا بسلخٍ في وجهه ، وإذا بشريطٍ قد شدَّ به رأسه لصداعٍ وجده ، فلما رآني قال : يا أبا السرّي ، المعاودةَ ، يرحمك الله . فقلت : فأين بلغتَ أيُّها المتعبِّد مِن أحزانك ؟! وهل بلغ الخوف ليلة من منامك ؟! فتاللهِ ، لكأني أنظرُ إلى الصابر على خُبْز الشعير يأكل ما اشتهى ، وسُعِي عليه بلحم طيرٍ ، وسُقِي من الرحيق المختوم . قال : فشهق شهقةً ، فحرّكتُه ، فإذا هو قد فارق الدنيا »[١] .

لله درُّهم مِن أرواحٍ طاهرةٍ !!

بهِمْ مِن جَوىٰ الأحزانِ في الصَّدرِ لَوْعةٌ تكـادُ لها نفـسُ الشَّـفيقِ تـذُوبُ

فكيف بنفوسهم ؟!

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٧٧ - ٧٨ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أسرَفَ رجلٌ على نفسه ، فلما حضره الموتُ أوصىٰ بنيه ، فقال : إذا متُّ فأحرقوني ، ثم اسْحقُوني ، ثمَ ذروني في الريح في البحر ، فوالله ، لئِنْ يقدر عليّ ربي لَيُعذِّبنّي عذابًا ما عذَّبه أحدًا . ففعلوا به ، فقال الله عز وجل للأرض : أدِّي ما أخذتِ . فإذا هو قائمٌ ، فقال : ما حمَلك على ما فعلتَ ؟ قال : خشيتُك يا ربّ . أوْ قال : مَخَافَتك . فغفر له »(١) .

قال ابن حجر في الفتح (٦/٥٢٢ - ٥٢٣) : « وأظهر الأقوال : أنه قال ذلك في حال دهشتِه وغلبةِ الخوف عليه ، حتى ذهب بعقله ؛ لِمَا يقول ، ولم يقلْه قاصدًا لحقيقة معناه ؛ بل في حالةٍ كان فيها كالغافل ، والذاهل ، والناسي الذي لا يُؤاخذ بما يصدر منه » .

الرَّجـــاء :

« الرجاء من أجلّ منازل السائرين ، وأعلاها وأشرفها ، وعليه وعلى الحبِّ والخوف مدارُ السيْر إلى الله ، وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم ، فقال : ﴿ **لَقَدْ كانَ لكُمْ في رسولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كانَ يرجُو اللَّهَ واليومَ الآخر وذكَر اللَّهَ كثيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وفي الحديث الصحيح الإلهيّ ، عن النبي ﷺ - فيما يروي عن ربّه عز وجل -: « يا ابنَ آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ، على ما كان منك ، ولا أُبالي » .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه ؛ إذا ذكرني في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، وإنْ ذكرني في مَلإ ، ذكرته في مَلَإ خيرٍ منهم ، وإن اقترب إليّ شبرًا ، اقتربتُ إليه ذِراعًا ، وإن اقتربَ إليّ ذراعًا ، اقتربتُ إليه باعًا ، وإن أتاني

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجة ، والبيهقي في شعب الإيمان .

يمشي ، أتيته هَرْولةً »[١].

وقد أخبر تعالى عن خواصِّ عباده ، الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقرّبون بهم إلى الله تعالى ، أنهم كانوا راجين لهُ ، خائفين منه ؛ فقال تعالى : ﴿ **قُلِ ادعُوا الذينَ زعمْتُمْ مِن دُونِهِ فلَا يملكُونَ كشْفَ الضُّرِّ عنكُمْ وَلَا تحويلًا أولئكَ الذينَ يَدْعُون يبتغُون إلى ربِّهم الوسيلَةَ أيُّهم أقْرَبُ ويرجُونَ رحمَتَهُ ويخافونَ عذابَهُ إنَّ عذابَ ربِّك كانَ مَحذُورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٦ - ٥٧] .

وهو عبوديةٌ ، وتعلُّقٌ بالله من حيثُ اسمه : « المُحْسِنِ البَرُّ » فذلك التعلُّق والتعبُّد بهذا الاسم والمعرفة بالله ، هو الذي أوجب للعبد الرجاء ، من حيث يدري ومن حيث لا يدري ، فقوَّة الرجاء على حسب قوةِ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وغلبةِ رحمتهِ غضَبَه . ولولا رَوْحُ الرَّجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح ، وهُدِّمت صوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ، ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ اللهِ كثيرًا . بل لولا رَوْحُ الرجاء لما تحرّكتِ الجوارح بالطاعة ، ولولا ريحُه الطيبة لَمَا جرت سفُن الأعمال في بحر الإرادات .

ولي من الأبيات :

لولا التعلُّقُ بالرَّجاءِ تقطَّعتْ	نفسُ المُحبِّ تحسُّرًا وتمزُّقَا
وكذاكَ لولا بَرْدُهُ بحرارةِ الْـ	أكبادِ ذابتْ بالحجَابِ تحرُّقَا
أيكونُ قطُّ حليفُ حُبٍّ لا يُرَىٰ	برجائهِ لحبيبِهِ مُتَعَلِّقَا ؟!
أمْ كُلَّما قَوِيَتْ محبَّتُه لَهُ	قَوِيَ الرَّجاءُ فزادَ فيهِ تَشَوُّقَا
لَوَلا الرَّجا يَحدُو المطيَّ لَمَا سَرَتْ	بِحُمُولها لديارِهِمْ ترجو اللِّقَا

وعلى حَسَب المحبةِ وقوَّتها يكون الرجاء ، فكلُّ محبٍّ راجٍ خائفٌ

---

(١) رواه مسلم .

بالضرورة ، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحبُّ ما يكون إليه ، ورجاؤه ذاتيٌّ للمحبَّة ؛ فإنه يرجوه قبلَ لقائه والوصول إليه ، فإذا لقيَهُ ووصل إليه اشتدَّ الرجاءُ له ؛ لِمَا يحصُل لهُ به ، من حياةِ رُوحه ونعيم قلبه ، من ألطاف محبوبه وبرِّه وإقبالِهِ عليه ، ونَظَره إليه بعيْن الرِّضا ، وتأهيله في محبته ، وغير ذلك مما لا حياةَ للمحبِّ ولا نعيمَ ولا فوزَ إلا بوصوله إليه من محبوبه ، فرجاؤه أعظمُ رجاءٍ ، وأجلُّه ، وأتمُّه .

وبالجملة : فالرجاء ضروريٌّ للمريد السَّالك ، والعارف لو فارقَه لحظه لَتَلَفَ أو كاد ؛ فإنه دائرٌ بين ذنبٍ يرجو غفرانه ، وعيبٍ يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قَبولَه ، واستقامةٍ يرجو حصولَها ودوامَها ، وقربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصولَهُ إليها ، ولا ينفكُّ أحدٌ من السَّالكين عن هذه الأمور أوْ بعضها »[١] .

والرجاء حادٍ يحدُو القلوب ويُطيبُ لها السير إلى بلاد المحبوب ، وهو على درجاتٍ ، وعالي الهمة من تطلَّع إلى درجاتِه العُلى ، واشرأبَّتْ نفسُه إلى القمة .

قال شيخ الإسلام الهروي : « الرجاء على ثلاثِ درجاتٍ : **الدرجة الأولى** : رجاءٌ يبعث العامِلَ على الاجتهاد ، ويولِّد التلذُّذ بالخدمة ، ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي » .

قال ابن القيم : « أيْ : ينشِّطهُ لبذْلِ جهدِهِ لِمَا يرجُوه من ثوابِ ربِّه ؛ فإنَّ مَن عرَف قدْرَ مطلوبه هانَ عليه ما يبذُلُ فيه .

وأمَّا توليده للتلذُّذ بالخدمة : فإنه كُلَّما طالعَ قلبُه ثمرتَها ، وحُسْن عاقِبَتِها الْتذَّ بها ، وهذا كحالِ مَن يرجو الأرباح العظيمة في سفره ، ويُقاسي مشاقَّ السَّفر لأجلها ، فكلما صَوَّرَها لقلبه هانتْ عليه تلك المشاقُّ والتذّ بها . وكذلك المحبُّ الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقَّة عليه ، كلما

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤١ - ٤٣ .

تأمّل ثمرةَ رضاهُ عنه ، وقَبُوله سعْيَه ، وقربه منه تلذّذ بتلك المَسَاعي ، وكلّما قوي علْمُ العبد بإفضاء ذلك السَّببِ إلى المُسبَّبِ المطلوب ، وقوي علْمُه بقدْر المُسبَّبِ وقرْب السَّببِ منه ، ازداد التذاذًا بتعاطيهِ .

وأما إيقاظُ الطباعِ للسماحة بترك المناهي : فإنَّ الطباعَ لها معلومٌ ورسومٌ تتقاضاها من العبد ، ولا تسمحُ له بترْكها إلّا بعِوضٍ هو أحبّ إليها من معلومِها ورسومها ، وأجلُّ عندها منه وأنفعُ لها ، فإذا قويَ تعلُّقُ الرجاء بهذا العِوَضِ الأفضل الأشرف ، سمحتِ الطباعُ بتركِ تلك الرسوم وذلك المعلوم ؛ فإنَّ النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منه »[1] .

قال الهروي : « **الدرجة الثانية** : رجاءُ أربابِ الرِّياضاتِ : أنْ يبلغوا موقفًا تصفو فيه هِمَمُهُم ، برفض الملذوذاتِ ، ولزومِ شروط العلم ، واستقصاء حدود الحميَّة » .

قال ابن القيم : « أرباب الرياضات : هُمُ المجاهدون لأنفسهم بتركِ مألُوفاتها ، والاستبدال بها مألوفاتٍ هي خيرٌ منها وأكمل ، فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودَهم بصفاءِ الوقت والهمةِ من تعلُّقها بالملذوذاتِ ، وتجريد الهمِّ عن الالتفات إليها ، وذلك بلزوم شروط العلم ، وهو الوقوف عند حدودِ الأحكام الدِّينية ؛ فإنّ رجاءَهم متعلِّقٌ بحصولِ ذلك لهم . واستقصاءُ حدود الحميَّة بأمريْن : بذْلِ الجهد في معرفتها علمًا ، وأخْذِ النفس بالوقوف عندها طلبًا وقصدًا »[2] .

قال الهروي : « **الدرجة الثالثة** : رجاءُ أربابِ القلوبِ : وهو رجاءُ لقاءِ الخالقِ ، الباعث على الاشتياق ، المُبغِّض المنغِّص للعيش ، المزهِّد في الخلق » .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٢ - ٥٣ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٥٣ .

قال ابن القيم : « هذا الرجاء أفضلُ أنواع الرجاء وأعلاها ؛ قال الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ كانَ يرْجُو لقاءَ ربِّهِ فَلْيعَملْ عملًا صالحًا وَلا يُشرِك بعبادةِ ربِّهِ أحدًا** ﴾ [الكهف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ **مَنْ كَانَ يرجُو لِقاءَ اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ وهو السَّميعُ العليمُ** ﴾ [العنكبوت : ٥] ، وهذا الرجاء هو محضُ الإيمان وزُبْدته ، وإليه شَخصَتْ أبصار المشتاقين ، ولذلك سلّاهُمُ الله تعالى بإتيان أَجَلِ لقائهِ ، وضرَب لهم أجلًا يُسَكِّن نفوسَهم ويُطمئنُها، ولا ريبَ أنَّ عيْشَ المشتاق مُنغَّصٌ حتى يلقى محبوبَه ، فهناك تقرُّ عينُه ، ويزول عن عيْشهِ تنغيصُهُ ، وكذلك يَزهد في الخلْق غاية التزهيد ؛ لأنَّ صاحبه طالِبٌ للأُنس بالله والقرْب منه ، فهو أزهدُ شيءٍ في الخَلْق ، إلّا مَن أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه ، فهو أحبُّ خلْق اللهِ إليه ، ولا يأنس من الخلْق بغيره ، ولا يسكُن إلى سواه ، فعليكَ بطلب هذا الرفيق جهْدَك ، فإنْ لم تظفرْ به فاتخذِ اللَّهَ صاحبًا ، ودَع الناسَ كُلَّهم جانبًا .

مُتْ بداءِ الهوىٰ وإلّا فخاطرْ واطرقِ الحيَّ والعيونُ نواظِرْ
لا تخفْ وحشةَ الطريقِ إذا جِئْـ ـتَ وكُنْ في خِفَارةِ الحبِّ سائرْ
واصبرِ النفسَ ساعةً عن سِواهُم فإذا لَمْ تُجَبْ لِصبرٍ فصابرْ
وصُم اليوم واجعل الفطرَ يومًا فيهِ تَلقَى الحبيبَ بالبشرِ شاكِرْ
وافْطُمِ النفسَ عن سواهُ فكلُّ الْـ ـعَيشِ بعدَ الفِطامِ نحوكَ صَائرْ
وتأمّلْ سريرةَ القلبِ واستحـ ـي مِن الله يَوْمَ تُبلىٰ السرائرْ
واجعلِ الهمَّ واحدًا يَكفِكَ اللَّـ ـهُ همومًا شتَّى فربُّك قادِرْ
وانتظرْ يومَ دعوةِ الخلْق إلى اللَّـ ـهِ ربِّهمْ مِن بطونِ المقَابرْ
واستمعْ ما الذي به أنت تُدْعَى مِن صفاتٍ تلوحُ وسْطَ المحاضرْ
وسماتٍ تبدُو على أوْجهِ الخلْـ ـقِ عيانًا تُجلىٰ على كلِّ ناظرْ
يا أخا اللُّبِّ إنما السيْرُ عزْمٌ ثمَّ صَبْرٌ مؤَيَّدٌ بالبصائرْ
يا لهَا مِن ثلاثةٍ مَنْ يَنَلْها يرقَ يوم المزيد فوق المنابرْ

فاجتهدْ في الذي يُقالُ لك البُشْـ ـرَى بذَا يومَ ضـربِ البشـائرْ
عملٍ خالـصٍ بميـزانِ وحْـيٍ مَعَ سِرٍّ هناكَ في القلبِ حاضِرْ »[١]

قال ﷺ : « لو يعلم المؤمن بما عند الله من العقوبة ، ما طمع بجنتِه أحدٌ ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنَط من جنَّته أحدٌ »[٢].

قال حيّان أبو النضر : قال لي واثلة بنُ الأسْقع : قُدني إلى يزيد بن الأسود ، فإني قد بلغني أن ألمًا نزل به . قال : فقُدتُه ، فدخل عليه وهو ثقيلٌ ، وقد وُجِّه - يعني : نحو القبلة - وقد ذهب عقله ، قال : نادُوه . فنادَوْه ، فقلتُ : إنَّ هذا واثلة بن الأسقع أخوك . قال : فأبقى الله من عقله أن سمع أنَّ واثلة قد جاء ، فمدّ يده ، فجعل يلتمس بها ، فعلمتُ ما يريد ، فأخذتُ كَفَّ واثلةَ فجعلتها في كفِّه ، وإنما أراد أن يضع يدَه في يد واثلةَ ؛ ذلك لموضِعِ يدِ واثلةَ مِن يد رسول الله ﷺ ، وجعل يضعها مرّةً على صدره ، ومرةً على وجهه ، ومرة على فِيهِ ، فقال واثلة : ألا تخبرني عن شيءٍ أسـألك عنه ؛ كيف ظنك بالله ؟ قال : اعْتَرَتْني ذنوبٌ لي أشفيْتُ على هَلَكَةٍ ، ولكنْ أرجو رحمة الله . فكبّر واثلةُ ، وكبّر أهلُ البيت بتكبيره ، وقال : الله أكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاء »[٣] .

« قال معتمر بن سليمان التيمي : قال لي أبي حين حضرته الوفاة :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٤ - ٥٥ .
(٢) رواه أبو هريرة ، وأخرجه مسلم ، والبخاري ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .
(٣) إسناده حسن ؛ أخرجه أحمد ، وابن المبارك في الزهد ، وعنه الدارمي ، وابن حبان ، وابن أبي الدنيا في كتاب : « حُسْن الظن » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، وليس عند الجميع القصة المذكورة؛ بل الحديث واللفظ هنا للبيهقي في الشُّعَب .

يا معتمر ، حدِّثني بالرُّخَص ، لعلي ألقى الله وأنا أحسن الظنَّ به »[١].

« وعن سُرِّيَّة الربيع بن خثيم ، قالت : لما احتضر الربيع بكتْ ابنتُه ، فقال: يا بنية، لا تبكي، ولكن قولي : يا بشرَىٰ ، اليوم لقي أبي الخير »[٢].

« قال يحيى بن معاذ الرازي : مُسْتقَىٰ الخوْف من بحر عدْلِه ، ومُسْتقَىٰ الرَّجاءِ من بحر فضله ، وقد سبَق القضاءُ أنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه » .

وقال رحمه الله : « إن كان صغُر في جنب عطائك عملي ، فقد كبُر في حُسْن رجائك أملي .

وقال أيضًا : لقد رجوتُ ممَّن ألبسَني بين الأحياءِ ثوْبَ عافيته ، أن لا يعذبني بعد الممات ، وقد عرفتُ جُودَ رأفتِهِ .

إلٰهي ، إنْ كنتُ غيرَ مستأْهِلٍ لما أرجُو من رحمتك ، فأنت أهلٌ أن تجودَ على المذنبينَ بفضل سَعتك .

إلهي ، لولا ما عرفتُ مِن عدْلك ما خفتُ من عذابِك ، ولولا ما عرفتُ من فضلك ما رجوتُ ثوابَك .

إلهي، إن كنتَ لا تعفو إلا لأهل طاعتك، فإلى مَن يفزعُ المذنبون؟! وإن كنتَ لا ترحم إلا أهلَ تقواك ، فبِمَن يستغيثُ المُسيئون؟! »[٣]. اهـ.

لله درُّك يا يحيى من واعظٍ وطبيبِ قلوب !!

قال البيهقي في « الشُّعَب » : « قال بعضُ الحكماء في مناجاته :

---

(١) الحلية ٣/٣١ ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » ص٤٥ ، وابن الجوزي في « الثبات عند الممات » ص١٤٨ .

(٢) الحلية ٢/١١٤ ، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/٤٠٠ .

(٣) الجامع لشُعَبِ الإيمان .

إلٰهي ، لو أتاني الخبرُ أنَّك غيرُ قابلٍ دعائي ، ولا سامعٍ شكْواي ، ما تركتُ دعاءَك ما بلَّ ريقي لساني ، أين يذهب الفقيرُ إلا إلى الغنيِّ ، وأينَ يذهبُ الذليل إلّا إلى العزيز ، وأنت أغنى الأغنياء ، وأعزُّ الأعزَّاءِ يا رب ؟! »

« وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ أبا سليمان الداراني ، ووقفتُ عليه وهو لا يراني ، فسمعتُه يقول : لئِن طالبتني بذنوبي لَأُطالبنَّك بعفوك ، ولئنْ طالبتَني بتوبتي لأطالبنَّك بسخائك ، ولئنْ أدخلتني النار ، لأخبرنَّ أهل النار أنّي أحبُّك »[١] .

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه : « إنّ الله عزَّ وجلّ خلَق مائة رحمةٍ ، منها رحمةٌ يتراحم بها الخلق ، وتسعٌ وتسعون ليوم القيامة » رواه مسلم .

قال أيوب السختياني - لله درُّه -: « إنَّ رحمة قسمها في دار الدنيا ، وأصابني منها الإسلام ، إني لأرجو مِن تسْعٍ وتسعين رحمةً ما هو أكثرُ من ذلك » .

نعم يا سيّدَ شباب أهل البصرة .. هذه كلمةٌ تُكتب بمدادٍ من نورٍ .. فالإسلام أجلُّ النِّعَمِ كان نصيبَ السختياني من الرحمة المقسومة على الخلائق.. فما ظنُّك بما عند الخير من الخير في تسعٍ وتسعين رحمة ؟!

« وقال أبو بكر السهزراوي : كنتُ في مجلسِ أبي القاسم الجُنيد وابنُ عطاءٍ حاضرٌ ، ورجلٌ في المجلس قد غلبتْه شدَّةُ الخوْفِ وهو يرجُف ، فقال له أبو القاسم الجنيدُ : لا ترُعْ ، فما هو إلا أن تبدو عينٌ من عيون الرحمةِ ، فإذا المُسيء قد لحِقَ بالمحسن . قال ابن عطاء : حتى تبدو . فغضب الجنيد وقال : أما والله إنها لبادية ، أما علمتَ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يقول الله

---

(١) الحلية ٩/٢٥٤ ، وصفة الصفوة ٤/٢٢٦ ، وشعب الإيمان .

عز وجل : سبقت رحمتي غضبي » ؟! قال : فسكت ابن عطاء »[١] .

قال يحيى بن معاذ الرازي : « كيف أخافك وأنت كريم ، وكيف لا أرجوك وأنت عزيزٌ ؟! فأنا بين خوفٍ يقطعني ، ورجاءٍ يوصلني ، فلا رجائي يدعني أموتُ خوفًا ، ولا خوفي يتركني فأحيا فرحًا »[٢].

« وعن سليمان بن الحكم بن عوانة ، أن رجلًا دعا بعرفاتٍ ، فقال : لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنْتَ توحيدكَ قلوبَنا . قال : ثم بكى وقال : ما إخالُك تفعلُ بعفوك . ثم بكى وقال : لئن فعلتَ فبذنُوبِنَا لتجمعنَّ بيننا وبين قومٍ طالما عاديناهم فيك » .

اللهم ، لا تشمِّتْ مَن كان يشرك بك بمن كان لا يشركُ بك .

وكان عمر بن ذر رحمه الله إذا تلا ﴿ **وأقسَمُوا بالله جَهْد أيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ** ﴾ [النحل : ٣٨]، قال : ونحن نُقسم بالله جَهْد أيمانِنَا ليبعثنَّ اللهُ مَن يموتُ . أتُراك تَجمع بين القَسَمَيْن في دارٍ واحدة؟![٣].

« وعن يحيى بن يَمان قال : قال سفيان الثوريُّ رحمه الله : ما أُحبُّ أنَّ حسابي جُعل إلى والدي ؛ ربي خيرٌ لي مِن والدي »[٤].

لله ما أحلاها كلمةً يجودُ بها علينا الثوريُّ إمامُ البكّائين !!

وقال بعض العُبَّاد : لما علمت أن ربي عز وجل يلي محاسبتي ، زالَ عني حزني ؛ لأنّ الكريمَ إذا حاسَبَ عبدَه تفضَّل .

قال إدريس بن عبد الله المروزي : مرِض أعرابيٌّ فقيل له : إنك تموت . قال : وأين يُذهب بي ؟ قالوا : إلى الله عز وجل . قال : فما كراهتي

(١) أخرجه مسلم ، والبخاري ، وأحمد عن أبي هريرة . والقصة في شعب الإيمان .
(٢) شعب الإيمان ، وصفة الصفوة ٤/٩١ .
(٣) « حسن الظن بالله » لابن أبي الدنيا ص٢٧ .
(٤) حُسن الظن بالله ص٤٥ .

أنْ أذهب إلى مَنْ لا أرى الخيرَ إلا منه ؟!

وعن جُندب أن رسول الله ﷺ حدّث « أنَّ رجلًا قال : واللهِ ، لا يغفر الله لفلانٍ . وأنَّ الله قال : مَن ذا الذي تألَّى عليّ أن لا أغفر لفلانٍ ؛ فإني قد غفرتُ لفلانٍ ، وأحبطت عملَك »(١).

قال سعيد بن ثعلبة الوراق : بتنا ليلةً مع رجلٍ من العابدين على الساحل بسيراف ، فأخذ في البكاء ، فلم يزلْ يبكي حتى خِفْنا طلوعَ الفجر ، ولم يتكلم بشيءٍ ، ثم قال : جُرمي عظيمٌ ، وعفوك كبيرٌ ، فاجمعْ بين جرمي وعفوك يا كريم . قال : فتصارخ الناس مِن كلِّ ناحيةٍ .

وقال مسمع : قالت امرأةٌ من العرب ، ذاتُ عقل ودين : سبحانك إلهي ، إمهالُك المذنبينَ أطمعني لهم في حُسْن عفوك عنهم . سبحانك إلهي ، لم يزل قلبي يشهد برضاك لمن نالَ عفوك . سبحانك إلهي ، تفضُّلًا منك وامتنانًا على خلقك !

وعن ابن عونٍ قال : ما رأيتُ أحدًا كان أعظمَ رجاءً لهذه الأمَّة مِن محمد بن سيرين ، وأشدَّ خوفًا على نفسه منه

وقال ابن عون أيضًا : ما رأيت أحدًا كان أعظمَ رجاءً للموحِّدين من محمد ابن سيرين رحمه الله ، كان يتلو هذه الآيات ﴿ **إنَّهم كانُوا إذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ يستكبرُون** ﴾ [الصافات : ٣٥] ، ويتلو ﴿ **ما سَلَكَكُمْ في سَقَر قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّين وَلَم نَكُ نطعمُ المِسْكينَ وكُنَّا نخُوضُ مَعَ الخائضين وكُنّا نكذب بيوم الدِّينِ حتَّى أتَانا اليَقينُ** ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٧] ، ويتلو ﴿ **لا يَصْلاها إلّا الأَشْقَى الَّذي كذَّبَ وتَولَّى** ﴾(٢) [الليل : ١٥ - ١٦].

---

(١) الحديث إسناده صحيحٌ على شرط مسلم ، أخرجه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » ، وأخرجه مسلم بمثله ، والبغوي في « شرح السنة » ، والطبراني .

(٢) الحلية ٢/٢٧٠ ، وحسن الظن بالله ص٧٧ .

وعن داود بن أبي هندٍ قال : تَمَثَّلَ معاويةُ عند الموت :

هُوَ الموتُ لا منجا مِنَ الموتِ والذي ... نُحاذرُ بعدَ الموتِ أدهىٰ وأفظعُ

ثم قال : اللهمَّ فأقِلِ العثْرة ، وعافِ عن الزَّلَّةِ ، وجُدْ بحِلْمك على جهْل مَن لم يَرْجُ ولم يثق إلّا بك ؛ فإنك واسعُ المغفرة ، ليس لذي خطيئةٍ مهربٌ إلا أنت . فلما بلغ القولُ سعيدَ بن المسيِّب قال : لقد رغبَ إلى مَن لا مرغوبَ إليه مثلُه .

وعن أبي المنذر الكوفي ، أن معاويةَ جعل يقولُ وهو في الموت :

إنْ تُناقِشْ يَكُنْ نقاشُك يا ربِّ عذابًا ، لا طوْقَ لي بالعذاب ، أو تجاوِزْ فأنت ربٌّ رحيمٌ عن مُسيءٍ ذنوبُه كالتراب .

وقال الشَّعبي : لقدْ سمعتُ من عبد الملك بن مروان كلامًا على أعواده هذه حسدتُه عليه ؛ سمعتُه يقول : اللهمَّ ، إنَّ ذنوبي عظمتْ فجلّتْ عن الصِّفَة ، وإنها صغيرةٌ في جَنْبِ عفوك ، فاعفُ عني .

وقال أبو عمرانَ السّلميّ :

وإني لآتي الذنبَ أعرفُ قَدْرَهُ ... وأعلَمُ أنَّ اللهَ يعفو ويغفِرُ

لئنْ عظَّم الناسُ الذنوبَ فإنَّها ... وإنْ عَظُمَتْ في رحمةِ اللهِ تصغُرُ

قال عبد الله بن مسعود : إن أكبر آية في القرآن فَرَجًا آيةٌ في سورةِ الغُرَفِ ﴿ **قُلْ يا عباديَ الذينَ أسْرَفُوا علىٰ أنفُسِهِمْ** ... ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] ، فقال مسروق : صدقت[١].

وعن أنسِ بن مالكٍ أنَّ النبي ﷺ قال : « يخرجُ مِنَ النَّار أربعةٌ - قالهُ أبو عمران ، وقال ثابت : رجلان - فيعْرَضُون على ربِّهم ، فيأمُرُ بهم إلى النار فيلتفِتُ أحدهم ، فيقول : أيْ ربّ ، قد كنتُ أرجو إذْ أخرجتني منها أن لا تعيدَني فيها . قال : فينجِّيه الله منها »[٢].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ص٧٩ بإسنادٍ رجالُه كلهم ثقات .

(٢) صحيح بمجموع الطرق ، رواه أحمد ، وابن أبي عاصم ، وابن حبان ، =

وعن بكر بن سليمان الصَّوَّاف قال : دخلنا على مالِك بن أنس في العشيَّة التي قُبض فيها ، فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدُك ؟ قال : ما أدري ما أقول لكم ، إلّا أنَّكم ستُعاينُون غدًا من عفو الله ما لم يكن لكم في حسابٍ . قال : ثم ما برِحْنَا حتى أغمضناه[(١)] .

ولقي مالكُ بن دينار أبَان بن أبي عياش ، فقال مالكٌ : إلى كَم تُحدِّث الناس بالرُّخص ؟! فقال : يا أبا يحيىٰ ، إني لأرجو أن ترى من عفو الله عز وجل يومَ القيامة ما تخرقُ له كساءَك هذا من الفَرَح .

بعَيْنِ مولاهُم ما يتحمل المتحمِّلون من أجله ، وما يكابدون في طَلَب مرضاته ، أتراهُ ينسىٰ لهم عملًا ؟! كيف وهو الرحيم بخلقه ؟! لو كان معاجلًا بالعقوبة أحدًا ، أو كانت العقوبةُ مِن شأنه ، لَعاجَل بها القانطين من رحمته ، ولو يرى عبادُه المؤمنون كيف استوهبهم ممَّن ظلموه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم في جواره ، إذًا ما اتهموا فضلَه وكرَمَه .

لو يعلم المُدْبِرُون عنه كيف انتظارُه لهم ، ورحمته إيّاهم لتقطَّعتْ أوصالهم شوقًا إليه ، هذه إرادته في المدْبرين عنه ، فكيف بالمقبلين عليه ؟!

« عن يحيى بن عمر التيمي - مولًى لبني تيْم بن مرَّة - قال : قال لي سفيان بن عيينة ، وكنت طلبتُ الغزْوَ فأخفقتُ وأنفقتُ ما كان معي ، فأتاني حين بلغه خبري ، وقد كان عرفني قبل ذلك بطولِ مجالستِه ، فقال لي : لا تأْسَ على ما فاتك ، واعلم أنَّك لو رُزقتَ شيئًا لأَتاكَ . ثم قال لي : أبشرْ ؛ فإنَّك على خير ، تدري مَن دعا لك ؟ قال : قلت : ومَن دعا لي ؟ قال : دعا لـك حَمَلةُ العرش ، ودَعا لك نبيُّ اللهِ نوح ! قال : نعم ،

= وأبو نعيم في الحلية ، والبغوي في شرح السنة ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » ، واللفظ له ، وهو عند مسلم بلفظٍ آخر .

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ص٩٦ .

ودعا لك خليلُ الله إبراهيم عليه السلام . قال : قلت : دعا لي هؤلاءِ كلهم ؟! قال : نعم ، ودعا لك محمدٌ ﷺ . قال : قلت : فأينَ دعا لي هؤلاء ؟ قال : في كتاب الله عز وجل ؛ أمَا سمعتَ قوله : ﴿ **الذينَ يحملُونَ العرْشَ ومَنْ حَوْلهُ يسبِّحُون بحمدِ ربِّهم ويُؤْمنون بهِ ويستغفرونَ للذين آمنوا ...** ﴾ [غافر : ٧] قال : قلت : فأين دعا لي نبيُّ اللهِ نوحٌ ؟ قال : أما سمعتَ قوْلَه عز وجل : ﴿ **ربِّ اغفر لي ولوالدَيَّ ولِمَنْ دخل بيتي مُؤمنًا وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ...** ﴾ الآية [نوح : ٢٨] ؟! قال : قلت : فأين دعا لي خليل الله إبراهيم عليه السلام ؟ قلت : أمَا سمعتَ قوله : ﴿ **ربَّنا اغفرْ لي ولوالديَّ وللمؤمنينَ يوْمَ يقومُ الحسابُ** ﴾ [إبراهيم : ٤١] ؟! قال : قلت : فأين دعا لي محمد ﷺ ؟ قال : فهزّ رأسه ، ثم قال : أما سمعتَ إلى قوْلِ الله عز وجل : ﴿ **واستغفِرْ لذَنْبكَ وللمؤْمنينَ والمُؤْمِنَاتِ ...** ﴾ الآية [محمد : ١٩] ؟! فكان النبي ﷺ أطوعَ لله عز وجل ، وأبرَّ بأمَّته ، وأرأف لها ، وأرحم مِن أن يأمره اللهُ بشيءٍ فلا يفعله »[1] .

« قال ابن السماك : تباركْتَ يا عظيم ، لو كانت المعاصي التي عُصيتَها طاعةً أُطعْتَ فيها ، ما زادَ على النِّعَم التي تُنيلُها ، وإنك لتزيدُ في الإحسانِ إلينا حتى كأنَّ الذي أُتينا من الإساءة إحسانًا ، فلا أنت بكثرة الإساءة منا تدعُ الإحسان إلينا ، ولا نحنُ بكثرةِ الإحسان منك إلينا عن الإساءة نُقلع ، أبيْت إلا إحسانًا وإجمالًا ، وأبينا إلّا إساءةً واجترامًا ، فمَن الذي يُحصي نِعَمك ، ويقوم بأداء شكرك إلّا بتوفيقك ونِعَمِك ، ولقد فكّرتُ في طاعة المطيعين فوجدتُ رحمتَك متقدِّمَة لطاعتهم ، ولولا ذلك لَمَا وصلوا إليها ، فنسألُك بالرحمةِ المتقدمةِ للمطيعين قبل طاعتِهم لَمَا مَنَنْتَ بها على العاصِين بعد معصيتهم » .

---

(١) الحلية ٢٧٩/٧ ، وشعب الإيمان .

اللهم ، إنا لنسْتَحيي منك أن تعلمَ مِن قلوبنا أنَّا ظننَّا أنَّ رحمتك عَجَزتْ عنا .

لله درُّ أحمد بن العباس النمري حين قال :

وإني لأَرجـو اللهَ حتَّى كأنَّني ... أرَىٰ بجميل الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ

قال ابن المبارك : جئتُ إلى سفيان الثوري عشيَّةَ عرفة وهو جاثٍ على ركبتيْه ، وعيناه تهملانِ ، فقلت له : مَنْ أسوأُ هذا الجمعِ حالًا ؟ قال : الذي يظنُّ أنَّ الله لا يغفر لهم .

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيحِ الناس وبكائهم عشيَّةَ عرفة ، فقال : أرأيتم لو أنَّ هؤلاء صاروا إلى رجلٍ فسألوه دانقًا - يعني : سُدُس درهم - أكان يردّهم ؟ قالوا : لا . قال : واللهِ ، لَلْمغفرةُ عند الله أهونُ مِن إجابة رجلٍ لهم بدانِقٍ .

وإني لأدعو اللهَ أطلـبُ عفـوَهُ ... وأعلـمُ أنَّ اللهَ يعـفُو ويغـفرُ

لئِنْ أعظمَ الناسُ الذنوبَ فإنَّها ... وإنْ عظمتْ في رحمةِ اللهِ تصْغُرُ

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعتُ الفضيل بن عياض رحمه اللهُ يقول : لو أدخلني النارَ فصرتُ فيها ما أَيِستُه[1] .

وقال أبو حازم المديني : مِن أعظم خَصلة ترجى للمؤمن أن يكون أشدَّ الناسِ خوفًا على نفسه ، وأرجاه لكلِّ مسلمٍ .

وكان عمر بن ذر يقول : اللهمَّ ارحمْ قومًا أطاعوك في أحبِّ طاعتك إليك : الإيمانِ بك والتوكُّل عليك ، وارحمْ قومًا أطاعوك في ترْكِ أبْغضِ المعاصي إليك : الشِّركِ بك والافتراء عليك . قال : فكان بعضهم يقول : إنْ كان كلُّ ما عُصِيَ اللهُ به عظيمًا ، فإنه في سَعةِ رحمته صغيرٌ .

---

(١) حسن الظن بالله ص٩٥ .

وقال أبو شيبةَ الزّبيدي : خفتُ نفسي ورجوتُ ربِّي ، فأنا أُحبُّ أن أُفارق مَن أخافُ إلى مَن أرجوه .

وعن عبد الواحد بن زيدٍ قال : قلتُ لزياد النميريّ : ما منتهى الخوفِ ؟ قال : إجلالُ اللهِ عن مقامِ السَّوْءات . قال : قلت : فما منتهى الرجاء ؟ قال : تأْميلُ اللهِ عز وجلّ على كلِّ الحالات .

قال سليمان التيمي : قال لقمانُ لابنه : أيْ بُنيَّ ، عَوِّدْ لسانَك : « اللهمَّ اغفر لي » ، فإن للهِ ساعاتٍ لا يَردُّ فيهنَّ سائِلًا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عُتَقَاء مِن النار في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، ولكلِّ عبدٍ منهم دعوةٌ مستجابةٌ »[(١)] .

وعن عطاء بن السائب قال : دخلنا على أبي عبد الرحمن نعوده ، فذهب بعض القوم يُرَجِّيه ، فقال : إني لأرجو ربي ، وقد صمتُ له ثمانين رمضان[(٢)] .

« وقال عوْنُ بن عبد الله : إنّ مِن أغرّ الغُرَّة ؛ انتظار تمام الأماني ، وأنت أيُّها العبد مقيمٌ على المعاصي ، لقد خاب سعي المعرضين عن الله . وقال : ما نُؤَمِّل إلا عفوه . وغلبه البكاء ، فقام »[(٣)] .

قال زيد بن عليّ : إنما سمَّى نفسَه « المؤمن » ؛ لأنه آمَنَهُم من العذاب .

وقال الثوري في قوله تعالى : ﴿ **وأحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحبُّ المحسنينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، قال : أَحسِنُوا بالله الظَّن .

---

(١) صحيح بشواهده : رواه أحمد ، وأبو نعيم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، واللفظ له ، وأورده الألباني في صحيح الجامع ، وذكر له شاهدًا من حديث جابر ، وأشار إلى أن « سمويه » أخرجه في فوائده ٢٣٢/١٢ .

(٢) حسن الظن بالله ص١١٣ .

(٣) حسن الظن بالله ص١١٥ .

قال محمود الورّاق :

حُسْنُ ظنّي بحسْنِ عفوكَ يا ربِّ جميلٌ وأنتَ مالكُ أمري
صُنْتُ سرِّي عنِ القرابة والْـ أهلِ جميعًا وكنتَ موضعَ سِرّي
ثقة بالذي لديْكَ مِنَ السَّتْـ ـرِ فلا تُخْزِني يومَ نشْري
يومَ هتْكِ السُّتورِ عنْ حُجُبِ الغيـ ـبِ فلا تَهْتكنَّ للناس ستْرِي
لَقِّنِّي حُجَّتي وإنْ لمْ تكُنْ يا ربِّ لي حجّة ولا وجْه عُذرِ

وقال :

ما زلتُ أُغرقُ في الإساءَةِ دائبًا وتنالُني بالعفوِ والغفرانِ
لم تنتقصْني إذْ أسأتُ وزدْتَني حتَّى كأنَّ إساءَتي إحسانُ
تُولي الجميلَ عنِ القبيحِ كأنَّما يُرضيكَ مِنِّي الزُّورُ والبُهْتَانُ

تعاليْتَ مِن عظيمِ حِلْمك بعد علمك ، ورحمتِك قبل غضَبك ..

قال أبو حازم الأعرج لما حضره الموت : أجدني بخيرٍ ، أجدُني راجيًا لله عزَّ وجل حسنَ الظنِّ به ، إنه - واللهِ - لا يستوي مَن غدا وراح يعمرُ عقْدَ الآخرة لنفسهِ ، فيُقدمُها أمامَه قبل أن ينزل به الموتُ حتَّى يقدم عليها ، فيقوم لها وتقوم له ، ومَن غدا وراح في عقْد الدنيا يعمرها لغيره ، ويرجع إلى الآخرة ، لا حظَّ له فيها ولا نصيبَ .

ونختم بما قال فتح الموصلي : « كَبُرت عليّ خطاياي وكثرتْ ، حتى لقد آيَسَتْني من عظيمِ عفو الله . ثم قال : وأنَّى آيَسُ منكَ ، وأنت الذي جُدتَ على السَّحَرة بعد أنْ غَدَوْا كفرةً فجرةً ؟! وأنَّى آيَسُ منك ، وأنت ولِّي كلِّ نعمةٍ وخيرٍ ؟! وأنَّى آيسُ منك ، وأنت المغيثُ عند الكرب ؟! فلم يزلْ يقول : وأنَّى آيس منك . حتى سقط مغشيًّا عليه » .

نضّر الله هذه الأوجُهَ ... ورحِمَ غربتَها ، جزاءَ ما قدَّموا لدينهم ،

وربَّوْا أجيالًا وأجيالًا من بعدهم ، بعاطرِ وصادق مواعظِهم وكلماتِهم ، ورحمَ اللهُ مَن قال : « كلام السَّلفِ قليلٌ كثيرُ البَرَكَةِ ، وكلامُ الخَلَفِ كثيرٌ قليلُ البركةِ » . « وليستِ النائحةُ الثَّكْلى كالمُسْتَعَارَة » .

* * *

الفصْلُ الثَّالث

عُلوُّ الهِمَّةِ

في الزُّهْدِ

« صلاحُ أوَّلِ هٰذِه الأمَّةِ بالزُّهْدِ واليقِين »

(حَديثٌ شريف)



□ عُلوُّ الهـمَّةِ في الزُّهْـد □

اعلمْ يا أخي أنّ « الدنيا عدوّةٌ للهِ عز وجل ، بغُرورِها ضَلَّ مَن ضلّ ، وبمكْرِها زلّ مَن زلّ ، فحبُّها رأسُ الخطايا والسّيِّئاتِ ، وبُغْضها والزُّهدُ فيها أُمُّ الطاعاتِ ، وأُسُّ القُرُبات ، ورأْسُ المُنْجيَات »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ **اعْلَمُـوا أَنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بيْنَكُمْ وتَكَاثُرٌ في الأَموالِ والأَوْلادِ كَمَثَل غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فتَرَاهُ مُصْفَرا ثُمَّ يَكُونُ حُطامًا وفي الآخرةِ عَذابٌ شديدٌ وَمَغْفِرةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوانٌ وَمَا الحياةُ الدُّنيا إلّا مَتاعُ الغُرُورِ** ﴾ [الحديد : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَتاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقَىٰ ...** ﴾ [النساء : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا والآخرةُ خيرٌ وأبْقَى** ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ **ولَا تمُدَّنَّ عيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا لِنَفْتِنهُمْ فيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأَبْقَىٰ** ﴾ [طه : ٣١] .

« والقرآنُ مملوءٌ من التَّزهيد في الدنيا ، والإخبارِ بخِسَّتِها وقلَّتِهَا ، وانْقِطَاعِهَا وسُرْعَةِ فَنائها ، والترغيبِ في الآخرة ، والإخبارِ بشرَفِهَا ودَوامِها ، فإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا ، أقامَ في قلبه شاهدًا يُعاينُ به حقيقةَ الدنيا والآخرة ، ويُؤْثِر منهما ما هو أَوْلَى بالإيثار .

قال الإمامُ أحمد بن حنبل : الزهدُ على ثلاثةِ أوْجُهٍ :

الأول : تَرْكُ الحرامِ : وهو زهدُ العوامِّ .

---

(١) الإحياء .

والثاني : تركُ الفضولِ مِنَ الحلال : وهو زهْدُ الخواصِّ .
والثالث : تركُ ما يَشْغَلُ عَنِ اللهِ : وهو زهد العارفين .

وهذا الكلامُ من الإمام أحمد من أجمع الكلام ، وهو يدلُّ على أنّه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحلِّ الأعلىٰ ، وقد شهِدَ الشّافعيُّ رحمه الله بإمامتِه في ثمانيةِ أشياء ، أحدُها : الزهد . وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدّس الله روحه – يقول : الزهدُ : تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة ، والوَرَعُ تركُ ما تخاف ضرَرَه .

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في « الزهد والورع » ، وأجمعها .

والذي أجمع عليه العارفون : أنَّ الزهد سفَرُ القلب من وطنِ الدنيا ، وأخْذُه في منازِلِ الآخرة .

وقال ابن المبارك : هو الثِّقة بالله مع حبِّ الفقر . وهو قوْل شقيق ويوسف بن أسباط .

وقال أبو سليمان الداراني : هو ترْك ما يشغلُ عنِ الله .

وقال ذو النون : حقيقته هو الزهد في النفس »[1][2] .

« ومتعلَّقُ الزهدِ ستةُ أشياء ، لا يستحقُّ العبدُ اسمَ « الزهدِ » حتى يزْهَد فيها، وهي: المالُ، والصُّوَر، والرِّياسة، والناس، والنفس، وكلّ ما دون الله . وليس المرادُ رفضَها مِن الملك ، فقد كان سليمانُ وداودُ عليهما السلام من أزهدِ أهلِ زمانهما ، ولهما مِنَ المال والمُلْك والنِّساء ما لهما ، وكان نبُّينا ﷺ مِن أزهد البشر على الإطلاق ، وكان له تِسْعُ نسوةٍ ، وكان عليُّ بن أبي طالبٍ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزُّهّاد ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩ - ١٢ .

(٢) لي جمع تحت الطبع ، وهو : « رائِقُ الشَّهد منْ حديثِ الزهدِ » ، وفيه تكلّمنا بالتفصيل عن الزهد وفضله .

معَ ما كان لهم مِنَ الأموال ، وكان الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه من الزهاد ، مع أنَّه كان من أكثر الأمَّة محبةً للنِّساء ونكاحًا لهُنَّ ، وأغناهم . وكان عبد الله بن المبارك مِنَ الأئمة الزُّهادِ ، مع مالٍ كثير . وكذلك اللَّيْثُ ابن سَعدٍ من أئمة الزهاد ، وكان له رأسُ مالٍ ، يقول : لولا هو لَتَمَنْدَل بنا هؤلاءِ .

ومن أحسن ما قيل في الزهد : كلام الحسن البصري ، أوْ غيره : ليس الزهد في الدنيا بتحريمِ الحلال ، ولا إضاعة المال ؛ ولكن أن تكونَ بما في يد الله أوثقَ منكَ بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أُصِبْتَ بها - أرغبَ منك فيها لو لم تُصبْكَ . فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنِه »[١].

قال رسول الله ﷺ : « ازهدْ في الدنيا يُحبَّكَ الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يُحبكَ الناسُ »[٢] .

وقال ﷺ : « طوبى لمن هُدي للإسلام ، وكان عيشُه كَفَافًا ، وقَنَعَ به »[٣].

وقال ﷺ : « قد أفلحَ مَن أسْلَمَ ورُزِقَ كَفافًا ، وقنَّعهُ اللهُ بما آتاه »[٤].

وقال ﷺ : « البَذاذَةُ مِنَ الإيمان »[٥].

وقال ﷺ : « صلاحُ أوَّلِ هذه الأمَّةِ بالزهد واليقين ، ويَهْلَكُ آخرُها

---

(١) مدارج السالكين ١٢/٢ - ١٣ .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه ، والطبراني في الكبير ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سهل بن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٢٢ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم ، عن فضالة بن عبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩٣١ .

(٤) صحيح : رواه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن ابن عمرو .

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن أبي أُمامة الحارثي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٧٩ .

بالبخلِ والأمَلِ »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ كانت الآخرة همَّهُ ، جعل اللهُ غِنَاه في قلبه ، وجمع له شَمْلَه ، وأتته الدنيا وهي رَاغِمةٌ ، ومن كانت الدنيا همَّهُ ، جَعل اللهُ فقْرهُ بيْن عيْنَيْه ، وفرّق عليه شمْلَه ، ولم يأتِهِ مِنَ الدنيا إلّا ما قُدِّر له »[٢].

وقال ﷺ : « اللهمَّ أحْيني مِسْكِينًا ، وأَمِتْنِي مسكينًا ، واحشرني في زُمْرَةِ المساكين »[٣].

وقال ﷺ : « ربَّ ذي طِمْرَيْنِ لا يُـؤْبَهُ له ، لو أقْسَمَ على الله لَأَبرَّهُ ».

وقال ﷺ : « ربَّ أشْعثَ مدفوعٍ بالأبوابِ ، لو أقسمَ على الله لَأَبرَّهُ ».

وقال ﷺ : « يدخل فقراءُ المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصْفِ يوم ، وهو خمسمائة عامٍ »[٤].

وقال ﷺ : « مَنْ أصبَح منْكُمْ آمِنًا في سربه ، معافًى في جسده ، عنده قوتُ يومِهِ ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بِحَذَافِيرها »[٥].

وعالي الهمَّة ينظر إلى كلام الأئمة ، ولا يرضَى بالدُّونِ من درجاتِ الزهد :

قال الهروي عن الزهد : « وهو على ثلاثِ درجاتٍ :

---

(١) حسن : رواه الإمام أحمد في الزُّهْد ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٤٥ .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥١٠.

(٣) صحيح : رواه عبد بن حميد ، وابن ماجه ، عن أبي سعيد ، وrواه الطبراني في الكبير ، والضياء ، عن عبادة بن الصامت ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦١ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٠٧٦ .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن عبد الله بن محصن ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٤٢ .

الدرجة الأولى : الزهد في الشُّبهة ، بعد تَرْك الحرام ، بالحذَر من المَعْتَبَة ، والأَنَفَةِ من المَنْقَصَة ، وكراهة مشاركة الفُسَّاق » .

قال ابن القيم : « أمَّا الزهد في الشُّبهة : فهو تَرْكُ ما يَشْتبهُ على العبد : هل هو حلالٌ أمْ حرامٌ ؟ فالشُّبُهات برزخٌ بين الحلال والحرام . ولا يكون تركُ الشبهة إلّا بعد ترك الحرام ، وتركُهُ للشبهة حذرًا مِن توجُّه عَتْبِ الله عليه ، وأنفه لنفسه من نقْصِه عند ربه ، وسقوطه من عينه ، لا أَنَفتِهِ من نقصه عند الناس ، وسقوطه من أعينهم .

« وكراهة مشاركة الفسّاق » : يعني أن الفسَّاق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا ، ولتلك المواقف بهم كظيظٌ مِنَ الزِّحام ، فالزاهد يأنُف من مشاركتهم في تلك المواقف ، ويرفع نفسَه عنها ، لخِسَّةِ شركائه فيها ، كما قيل لبعضهم : ما الذي زهّدك في الدنيا ؟ قال : قِلَّةُ وفائها ، وكثرةُ جَفَائها ، وخِسَّةُ شركائها .

إذا لَمْ أترِكِ الماءَ اتِّقَاءً ... تركتُ لكثرةِ الشُّرَكَاءِ فيهِ
إذا وقعَ الذبابُ على طَعَامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتَنِبُ الأسودُ وُرُودَ ماءٍ ... إذَا كانَ الكلابُ يَلَغْنَ فيهِ »[1]

الدرجة الثانية : « الزهد في الفضول : وهو ما زاد على المُسْكة والبلاغ مِن القوت ، باغتنام التفرُّغ إلى عِمَارة الوقت ، وحسْمِ الجأْشِ ، والتحلِّي بحِلْيَة الأنبياء والصِّدِّيقين » .

قال ابن القيم: «(الفضول): ما يفضل عن قدْر الحاجة . و (المُسْكة): ما يُمسك الإنسان من القوت والشراب واللِّباس والمسكن والمَنْكَح ، إذا احتاج إليه . و (البلاغ) : هو البُلْغَةُ من ذلك الذي يَتَبَلَّغُ به المسافر في منازل السفر ، فيزهد فيما وراءَ ذلك ، اغتنامًا لتفرغه لعمارة وقته » .

---

(١) المدارج ٢/١٥ - ١٧ .

قال ﷺ : « إنَّ أمامكم عَقَبةً كئودًا ، لا يجوزُها المُثْقَلُونَ »[(١)].
وقال ﷺ : «إنما يكفي أحدَكُم ما كان في الدنيا مثل زادِ الراكب»[(٢)].
وقال ﷺ : « كُنْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ أوْ عابرُ سبيلٍ »[(٣)].

قال ابن القيم : « الزهدُ لأهلِ هذه الدرجة أعلى وأرفع ، وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله ؛ لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا ، فاتَهُ نصيبُه من انتهاز فرصة الوقت ، فالوقت سيفٌ إن لم تقطعْهُ وإلّا قطعك .

وأما حسْمُ الجأش : فهو قطْع اضطرابِ القلب ، المتعلّق بأسباب الدنيا ، رغبةً ورهبةً وحُبًّا وبغضًا وسعيًا ، فلا يصحُّ الزهد للعبد حتى يقطعَ هذا الاضطراب من قلبه ، بأنْ لا يلتفت إليها ، ولا يتعلَّق بها في حالتي مُباشَرَتِهِ لها وترْكِه ، فإنَّ الزهد زهدُ القلب ، لا زهد الترْك من اليد ، فهو تخلِّي القلب عنها ، لا خلوّ اليد منها .

وأمَّا التحلِّي بحلية الأنبياء والصدِّيقين : فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقًّا ؛ إذْ هُمْ مُشمِّرون إلى عَلَم قد رُفع لهم غيرها ، فهم زاهدون ، وإنْ كانوا لها مباشرين » .

والدرجة الثالثة : « الزهد في الزهد : وهو بثلاثة أشياء : استحقار ما زهدتَ فيه، واستواءُ الحالاتِ فيه عندك، والذهاب عن شهودِ الاكتساب ، ناظرًا إلى وادي الحقائق » .

قال ابن القيم : « وقد فسَّر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء : أحدها : احتقاره ما زهد فيه: فإنَّ مَنِ امتلأ قلبُه بمحبةِ الله وتعظيمه ، لا يرى أنَّ ما تركه لأجْلِهِ من الدنيا يستحقُّ أن يُجْعَلَ قربانًا ؛ لأنَّ الدنيا

(١) صحيح : رواه الحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي الدَّرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٠٠١ .
(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن خبّاب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٨٤ .
(٣) صحيح : رواه البخاري عن ابن عمر .

لا تساوي عند الله جَناحَ بعوضةٍ . فالعارف لا يَرى زهده فيها كبير أمرٍ يُعْتدُّ بهِ ويُحتَفَلُ له ، فيستحي مَنْ صَحّ له الزهدُ أن يجعل لما تركَهُ للهِ قدْرًا يلاحِظ زهْدَه فيه ، بلْ يفنىٰ عن زهْدِه فيهِ كما فَنِيَ عنه ، ويستحي مِن ذكْره بلسانه ، وشهوده بقلبه .

وأمَّا استواءُ الحالاتِ فيه عنده : فهو أنْ يرى ترْكَ ما زهِد فيه وأَخْذَهُ : متساويَيْن عنده ، إذْ ليس له عنده قدْرٌ ، وهذا مِن دقائق فقْهِ الزهد ، فيكون زاهدًا في حال أخْذِه ، كما هو زاهدٌ في حالِ ترْكه ، إذْ همتُه أعلى عن ملاحظته أخْذًا وتَرْكًا ، لصِغَرِه في عيْنه .

وأمّا الذهابُ عن شهود الاكتساب : فمعناه : أنَّ مَنِ استصغر الدنيا بقلبه ، واستوتْ الحالاتُ في أخْذها ، وتركها عنده ، لم يرَ أنه اكتسبَ بترْكها عند الله درجةً ألبتة ؛ لأنها أصغر مِنْ أن يَرَىٰ أنه اكتسب بترْكها الدرجات .

وفيه معنى آخر : وهو أنْ يشاهد تفرُّدَ الله عز وجل بالعطاء والمنْع ، فلا يرى أنه ترَكَ شيئًا ، ولا أَخَذَ شيئًا ، بل الله وحدَه هو المُعْطِي المانع ، فما أخذه فهو مَجْرًى لعطاءِ الله إيَّاه كمجرى الماء في النهر ، وما تركه لله ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي مَنَعَهُ منه ، فيذهب بمشاهدة الفَعَّال وحده عن شهود كَسْبه وترْكه ، فإذا نظر إلى الأشياء بعيْن الجمع ، وسلك في وادي الحقيقة ، غاب عن شهود اكْتِسَابه ، وهو معنى قولِهِ : « ناظرًا إلى وادي الحقائق » ، وهذا أَلْيَقُ المعنَيَيْنِ بكلامه ، فهذا زهْدُ الخاصَّة . قال الشاعر :

إذا زَهَّدَتْني في الهَوَىٰ خَشْيَةَ الرَّدَىٰ   جَلَتْ لي عن وجهٍ يُزَهِّد في الزُّهدِ »[١]

---

(١) مدارج السالكين ١٩/٢ - ٢٠ .

لله درُّ الغـزالي :

يقول الغزالي رحمه الله : « اعلمْ أن الزهد في نفسه يتفاوت بحَسَبِ تفاوُت قوَّتِه ، على درجاتٍ ثلاثٍ :

الدرجة الأولى ، وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا وهـو لها مُشْتَهٍ ، وقلبُه إليها مائِلٌ ، ونفسُه إليها مُلْتَفِتَةٌ ، ولكنه يجاهدُهَا ويكُفُّها ، وهذا يسمَّىٰ المُتَزَهِّد ، وهو مبدأ الزهد ، والمتزهِّد على خطرٍ ؛ فإنه رُبَّما تغلبُه نفسه وتجذبُه شهوتُه ، فيعود إلى الدنيا .

الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوْعًا لاستحقارِه إيَّاها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذي يترك درهمًا لأجْل درهمَيْن ؛ فإنه لا يشقُّ عليه ذلك . لكن هذا الزاهدَ يرى لا محالةَ زُهْدَه ويلتفتُ إليه ، فيكادُ يكون معجبًا بنفسه وبزهده ، ويظنُّ في نفسه أنه ترك شيئًا له قدْرٌ لِمَا هو أعظمُ قدرًا منه ، وهذا أيضًا نقصَانٌ .

والدرجة الثالثة ، وهي العليا : أن يزهَدَ طوْعًا ، ويزهد في زهْدِه فلا يرى زهدَه ، إذْ لا يرى أنه ترك شيئًا ، إذْ عرَف أنَّ الدنيا لا شيءَ ، فيكون كمن ترك خزفةً وأخَذ جوهرةً ، فلا يرى ذلك مُعَاوَضَةً ، ولا يرى نفسَه تاركًا شيئًا ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة ؛ أخَسُّ من خَزَفَةٍ بالإضافة إلى جوهرةٍ ، فهذا هو الكمال في الزهد .

وأمّا انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه ، فهو على ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجة السُّفْلى : أن يكون المرغوبُ فيه هو النجاة من النار ، ومن سائر الآلام ، كعذاب القبر ، ومناقشة الحساب ، وخَطَر الصراط ، فهذا زهدُ الخائفين ، وكأنهم رضُوا بالعَدَمِ ؛ فإنَّ الخَلَاصَ من الألم يحصل بمجرَّدِ العَدَمِ .

والدرجة الثانية : أنْ يزْهَدَ رغبةً في ثواب اللهِ ونعيمه ، واللذات الموعودة في جنته ، من الحور والقصور ، وهذا زهْدُ الرَّاجينَ ؛ فإنّ هؤلاءِ ما تركوا الدنيا قناعَةً بالعَدَمِ والخلاص مِنَ الأَلم ، بل طمِعُوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سرمدٍ لا آخِرَ له .

الدرجة الثالثة ، وهي العليا : أنْ لا يكون لهُ رغبةٌ إلا في الله وفي لقائه ، فهو مُستَغرِقُ الهمِّ بالله تعالى ، وهذا زهْدُ المُحِبِّين »[1].

سيِّدُ الزاهِدِين رسولُ اللهِ ﷺ :

عرَض الله سبحانه الدنيا ، وعرَض مفاتيحَ كُنوزها على أحبِّ الخلق إليه وأكرمِهم عليه ، عبدِه ورسوله محمدٍ ﷺ فلم يُردْهَا ولم يَخْتَرْهَا ، ولو آثرها وأرادها ، لكانَ أشكرَ الخلق بما أخذه منها ، بل اختارَ التقلُّلَ منها وصبر على شِدَّة العيش بها .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار ، فرأَتْ فِرَاشَ رسول الله ﷺ عَباءَة مثنيَّةً ، فرجعتْ إلى منزلها ، فبعثتْ إليّ بفراشٍ حَشْوُهُ الصوفُ ، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ » فقلتُ : فلانةٌ الأنصارية دخلتْ عليّ ، فرأتْ فراشَك ، فبعثتْ إليّ بهذا . فقال : « رُدّيهِ » فلم أردّه ، وأعجبني أنْ يكونَ في بيتي ، حتى قال ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ ، فقال : « يا عائشة ، رُدِّيه ، واللهِ لو شِئْت ، لأَجْرَىٰ اللهُ معي جبالَ الذهبِ والفضةِ »[2] .

وعرَض عليه مفاتيحَ كُنوزِ الدنيا فلم يأخذْها ، وقال : « بل أجوعُ يومًا ، وأشبَعُ يومًا » .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) صحيح : رواه الإمام أحمد .

وسأل ربّه أنْ يجعل رِزْقَ أهلِه قوتًا ، كما في الصحيحينِ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعلْ رزقَ آلِ محمَّدٍ قوتًا » .

وفيهما عنه ، قال : « والذي نفسُ أبي هريرة بيده ، ما شَبِعَ نبي الله وأهلُه ثلاثة أيَّام تِباعًا من خُبْزِ حِنْطَةٍ ، حتى فارق الدنيا » .

وفي صحيح البخاري ، عن أنسٍ رضي الله عنه : ما أعلم أنَّ رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مُرقّعًا ، ولا شاةً سميطًا قطُّ ، حتى لحِقَ بربِّه .

وفي صحيحه أيضًا عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ ، ولم يشبع من خبْز الشعير .

وفي الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها : « ما شبع آلُ محمدٍ منذُ قدِمَ المدينة من طعامِ البُرِّ ثلاثَ ليالٍ تباعًا ، حتى قُبض » .

وفي صحيح مسلمٍ ، عن عمر رضي الله عنه : « لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يظلّ اليومَ ما يجد دَقَلًا[1] يملأُ بطنَه » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ يبيتُ الليالَي المتتابعاتِ طاوِيًا ، وأهلُه لا يجدون عَشاء[2] .

وفي المسندِ ، عن عائشة رضي الله عنها : والذي بعث محمدًا بالحق ، ما رأى منْخَلًا ، ولا أكل خبزًا منخولًا ، منذ بعثه الله عز وجلّ إلى أن قُبِض . قال عروة : فقلت : فكيف كنتم تأكُلُون الشعير ؟ قالت : كُنَّا نقول : أُفْ - أيْ : تنفُخُه - فيطيرُ ما طار ، ونعجنُ الباقي .

وعن أنسٍ رضي الله عنه ، قال : لقد رهَنَ رسول الله ﷺ دِرْعَه بشعيرٍ ، ولقد سمعتُه يقول : « ما أصبح لآلِ محمدٍ صاعٌ ولا أمْسَىٰ ، وإنهم

---

(١) الدَّقل : هو رديء التمر .

(٢) صحيح : رواه أحمد والترمذي .

لَتِسْعَةُ أبياتٍ »[١].

« وعن جابر رضي الله عنه قال : لمّا حفر رسول الله ﷺ الخندقَ ، أصابهم جُهْدٌ شديدٌ ، حتى ربَطَ النبيُّ ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع »[٢].

ولقد توفَّاه اللهُ ، وإنَّ دِرْعَه مَرهونَةٌ عند يهوديّ على طعامٍ أخذه لأهله ، وقد فتح الله عليه بلادَ العرب ، وجُبيتِ الأموال ، ومات ولم يترك درهمًا واحدًا ، ولا دينارًا ، ولا شاةً ، ولا بعيرًا ، ولا عبدًا ، ولا أمَةً .

« وعن عروة أنه سمِعَ عائشة تقول : كان يمرُّ بنا هلالٌ وهلالٌ ما يوقد في بيتٍ من بُيوتِ رسول الله ﷺ نارٌ . قلت : يا خالة ، فعلى أيِّ شيءٍ كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودَيْن : التمر والماء » . رواه أحمد .

« ومن حديث مسروقٍ ، قال : دخلتُ على عائشة ، فَدَعتْ لي بطعام ، وقالت : ما أشْبَعُ من طعام ، فأشاء أن أبكي إلا بكيتُ . قال : قلت : لِمَ ؟ قالت : أذكر الحال التي فارق عليها رسولُ الله ﷺ الدنيا ، واللهِ ما أُشبِعَ في يومٍ مَرَّتين من خبزِ البُرِّ ، حتى قُبِض »[٣].

وفي المسنَد ، عنها : ما أُشبعَ رسول الله ﷺ من خبزِ شعيرٍ يوْمَيْن متتابعين ، حتى قُبِض[٤].

« وفي الصحيحين ، عن أبي هريرة : ما شبِعَ رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا أتباعًا مِن خُبْز البُرِّ ، حتى فارق الدنيا » .

وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال : شكوْنَا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري .
(٢) صحيح ، رواه أحمد في مسنده .
(٣) صحيح ، رواه أحمد .
(٤) صحيح ، أخرجه أحمد ، وصححه ابن القيم في « عُدَّة الصابرين » ص١٩٤ .

الجُوعَ ، ورفعنا عن بطوننا حَجَرًا حَجَرًا ، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حَجَرَيْن .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مُتَّكِيءٌ على رمْل حَصِيرٍ ، فرأيتُ أثَرَهُ في جنْبِه[1].

ورَاوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ   عـنْ نفسِهِ فأَرَاهَا أَيَّمـا شَمَمِ

مُوسَىٰ عليه السلام :

قال الحسن البصريُّ : « وأمَّا موسى عليه السلام ، فرُئي خضرة البَقْل مِنْ صِفَاقِ بطنه من هُزاله ، ما سأل الله تعالى يومَ أوَىٰ إلى الظِّلِّ إلّا طعامًا يأكله ، من جوعه ، ولقد جاءتِ الروايات عنه أن الله تعالى أوحى إليه ؛ أن يا موسى ، إذا رأيتَ الفقر مقبلًا ، فقُلْ : مرحبًا بشعار الصالحين ، وإذَا رأيتَ الغِنَىٰ قد أقبل ، فقلْ : ذَنْبٌ عجِّلَتْ عُقُوبَتُه »[2].

« وفي حديث مناجاةِ موسىٰ الذي رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد : ولا تُعجبْكُمَا زينتُه ولا ما مُتِّعَ به ، ولا تمدَّانِ إلى ذلك أعينَكما ؛ فإنها زهرةُ الحياةِ الدنيا ، وزينةُ المترفين ، وإني لو شِئْتُ أنْ أُزيِّنَكُما مِنَ الدنيا بزينة - يعلم فرعون حين ينظر إليها أنَّ مَقْدِرَتَه تعجز عن مِثْل ما أُوتيتما - فعلت ، ولكني أرغب بكما عن نعيمها ذلك ، وأزْوِيه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي ، وقديمًا ما خِرْتُ لهم في ذلك ؛ فإني لَأَذُودهم عن نعيمها ورخائها ، كما يَذُود الراعي الشفيقُ غَنَمَه عن مراعي الهلَكَةِ ، وإني لأَجْنُبُهم سَلْوَتَها وعيشَها كما يجْنُبُ الراعي الشفيقُ إبلَه عن مَبَارِك الغِرَّة ، وما ذلك لهَوَانِهم عليّ ، ولكن ليستكملوا نصيبَهم مِن كرامتي سَالِمًا مُوفَّرًا ، لم تَكْلَمْه الدنيا ولم يُطغِهِ الهَوَىٰ . واعلمْ أنه لمْ يتزيَّنْ لي العبادُ بزينةٍ هي أبلغ

---

(١) صحيح ، أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .
(٢) الحلية ٢/١٣٧ .

من الزهد في الدنيا ، فإنها زينةُ المتقين ، عليهم منها لباسٌ يُعرفون به من السَّكِينة والخشوع ، سِيماهُم في وجوههم مِن أثرِ السجود ، أولئك أوليائي حقًّا ، فإذا لقيتَهم فاخفضْ لهم جناحك وذلِّلْ لهم قلبَك ولسانَك »(١) .

عِيسى بنُ مريمَ عليه السَّلام :

عن ثابت البناني قال : قِيل لعيسىٰ بن مريم : يا رسولَ الله ، لو اتخذتَ حِمَارًا تركبُه لحاجتك ؟ قال : أنا أكْرَمُ على الله مِن أن يجعل لي شيئًا يَشغلُني به .

وقال : اجعلوا كنوزكَم في السماء ؛ فإنَّ قلب المرءِ عند كَنْزِه .

وقال : اتَّقُوا فضولَ الدنيا ، فإنَّ فضولَ الدنيا عند الله رِجْزٌ .

وقال : يا بني إسرائيلَ ، اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف ، فما لكم في العالم مِن مَنْزِلٍ ، إنْ أنتم إلّا عابري سبيل .

وقال : يا معشرَ الحواريِّين ، أيّكم يستطيع أن يبني على موجِ البحر دارًا ؟ قالوا : يا روُحَ الله ، مَن يقدر على ذلك ؟! قال : إيَّاكم والدنيا ، فلا تتخذوها قرارًا .

وقال : أَكْلُ الخبز البُرّ ، وشرْبُ ماءٍ عذبٍ ، ونومٌ على المَزابلِ مع الكلاب ، كثيرٌ لِمَن يريد أن يرث الفِرْدَوْس .

وقال : يا بني إسرائيل ، تهاونُوا بالدنيا تَهُنْ عليكم ، وأَهينوا الدنيا تَكْرُم عليكم الآخرةُ ، ولا تُكْرِمُوا الدنيا تَهُن عليكم الآخرة ؛ فإن الدنيا ليستْ بأهلِ الكرامة وكلّ يومٍ تدعُو إلى الفتنة والخسارة .

« وعن وهبٍ ، قال : قال الحواريُّون : يا عيسىٰ ، مَن أولياءُ الله الذين لا خوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون ؟ قال : الذين نظروا إلى باطِنِ الدنيا حين

---

(١) عُدَّة الصابرين ص٢١٣ .

نظر الناس إلى عاجِلها ، فأماتوا منها ما يخشَوْن أن يُمِيتَهم ، وتركوا ما علموا أنْ سيتركهم ، فصار استكثارُهم منها استقلالًا ، وذكْرهم إيَّاها فواتًا ، وفرحُهم بما أصابوا منها حزنًا ، فما عرضهم مِن نائلها رفضُوه ، وما عارضهم مِن رفعتها بغير الحقِّ وضعوه ، خَلِقَت الدنيا عندهم فليسوا يُجدِّدونها ، وخربت بينهم فليسوا يعمِّرُونها ، وماتتْ في صدورهم فليسوا يحيونها ، يهدمونها فيبنون بها آخرتَهم ، ويَبيعونها فيشترون بها ما بقي لهم ، رفضوها فكانوا بها هُمُ الفَرِحِين ، ونظروا إلى أهلها صرعىٰ قد حَلَّتْ بهم المَثُلات ، فأَحيَوْا ذِكْرَ الموت ، وأماتُوا ذكْر الحياة ، يُحبُّون اللهَ ويُحبُّون ذكرَه ، ويستضِيئُون بنوره ويُضيئون به ، لهم خبرٌ عجيبٌ ، وعندهم الخبرُ العجيبُ ، بهم قام الكتابُ وبه قامُوا ، وبهم نطَق الكتابُ وبه نطقُوا ، وبهم عُلِّم الكتابُ وبه عَمِلُوا ، ليسوا يَرون نائلًا مع ما نالوا ، ولا أمانًا دون ما يرجون ، ولا خوفًا دون ما يحذرون »[1].

« وقال في كتابه لعمر بن عبد العزيز - بعد حديثه عن رسول الله وموسى عليهما الصلاة والسلام -: « وإنْ شئْتَ ثلّثْته بصاحبِ الرُّوح والكلمة ؛ ففي أمره عجيبةٌ: كان يقول: أَدَمِي: الجوعُ، وشِعاري: الخوْف، ولباسي: الصوفُ، ودابَّتي: رجْلي، وسِراجي بالليل: القمرُ، وصلايتي في الشتاء: الشمس، وفاكهتي ورَيْحاني: ما أنبتتِ الأرضُ للسِّباع والأنعام، أَبِيتُ وليس لي شيءٌ ، وليس أحدٌ أغنىٰ منِّي »[2].

يحيىٰ بنُ زَكريَّا عليهما السلام :

قال مجاهدٌ : كان طعامُ يحيىٰ بن زكريَّا عليهما السلام العُشْبَ ، وإنْ كان لَيبكي مِن خشيةِ اللهِ ، ما لو كان القارُّ على عَيْنيْه لَخرقتْه دموعه ، ولقد

(١) « عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين » لابن قيم الجوزية ص٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) الحلية ١٣٧/٢ .

كانت الدموعُ اتخذتْ مَجْرًى في وجهِهِ[١].

سُلَيْمان بنُ داودَ عليهما السلام :

قال الحسن في كتابه لعمر بن عبد العزيز : « ولو شئْتُ ربّعتُ بسليمان بن داود عليهما السلام ، فليس دُونهم في العجب ؛ يأكل خُبْزَ الشعير في خاصَّته ، ويُطْعِم أهلَه الخشكار[٢] والناسَ الدّرمك ، فإذا جنَّه الليلُ لبِسَ المَسُوحَ ، وغَلَّ اليدَ إلى العنق ، وبات باكيًا حتى يُصبح ، يأكل الخشِنَ مِن الطعام » .

ومن قبله كان داودُ صاحبُ المزامير ، وقارىءُ أهل الجنة ، « يعمل سفائفَ الخُوص بيده ، ويقول لجُلَسائه : أيُّكم يكفيني بَيْعَها ؟ ويأكل قُرْص الشعيرِ مِن ثَمَنِها » .

عُثمانُ بنُ مَظعُون رضي الله عنه ، المتقشِّفُ المخْزُون :

كان إلى الاستجابة للهِ سابقًا ، وبمعالي الأحوالِ لاحقًا ، وفي العبادة ناسِكًا ، لم تنقِصْه الدنيا ، ولم تَحطّهُ عن العَلْيا . ويكفي في عُلوِّ زهدِه شهادةُ رسول الله ﷺ له بذلك : فعن أبي النضر ، قال : لما مُرَّ بجنازةِ عثمانَ بن مظعون ، قال رسول الله ﷺ : « ذَهَبْتَ ولم تَلَبَّسْ منها بشيءٍ »[٣].

نعم ، ما تلبَّسَ منها بشيءٍ ! ربما لِبس النَّمِرة قد تخلَّلتْ ، فرقَّعَها بقطعةٍ من فروة .. فرضي الله عنك أبا السائب صاحبَ الهِجْرتَيْن .

« عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قبّل عثمانَ بنَ مظعون وهو مَيِّتٌ ،

---

(١) الزهد والرقائق ص١٩٤ .

(٢) الخشكار : رديءُ الدقيق ، والدرمك : الدقيق الحواري .

(٣) أخرجه مالك في الجنائز مرسلًا ، وقال الزرقاني : وصلَه ابنُ عبد البرِّ من طريق يحيى بن سعيدٍ ، عن القاسم ، عن عائشة .

ودموعُهُ تسيلُ على خَدِّ عثمانَ بن مظعون »[١].

العابِدُ الزَّهيدُ ، والقانِتُ الوحيدُ،أبو ذَرٍّ الغِفَاري :

قال الذهبي عنه : « أحدُ السابقين الأوَّلين ، من نُجَبَاءِ أصحاب محمد ﷺ ... وكان رأْسًا في الزهد والصدق ، والعلم والعمل » .

قال أبو ذرٍّ الغفاري : « ما تُؤْيسُنِي رِقّةُ عَظْمي ، ولا بياضُ شَعْري ، أنْ ألقْىٰ عيسى بن مريم »[٢].

وعن ابن سيرين : سألتُ ابنَ أُخْتٍ لأبي ذرٍّ : ما ترك أبو ذرٍّ ؟ قال : ترك أَتانَيْن ، وحمارًا ، وأعنزًا ، وركائب .

قد كان رضي الله عنه من أهلِ الصُّفَّة ، وكان في بداية أمْره ينامُ في المسجد ، لم يكنْ له بيتٌ .

وأرسل إليه عثمانُ ، وقال له : إنما أرسلْنا إليك لِتُجَاوِرَنا في المدينة . قال : لا حاجة لي في ذلك ، ائْذَنْ لي إلى « الرَّبذة » . قال : نعم ، ونأمر لك بنعم من نَعَم الصدقة ، تغدو عليك وتروح . قال : لا حاجة لي في ذلك ، يكفي أبا ذرٍّ صُرَيمَتُه[٣]. فلما خرج قال : دونكم معاشر قريش ، دنياكم فاعْذِمُوها[٤]، ودعُونا وربَّنا .

وقال رضي الله عنه : « لَيَوَدَّنَّ صاحبُ هذا المال لو كان عقاربُ في الدنيا تلسعُ السويداءَ مِن قلبه »[٥].

---

(١) حسن بشاهده عند البزار ، أخرجه الترمذي وصححه ، وأبو داود ، وصححه الحاكم ، وسكت عنه الذهبي .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢٣٠ .

(٣) الصُّرَيمة : تصغير الصرمة : وهي القطيع من الإبل والغنم .

(٤) أي : خذوها ، والعذم : العضُّ والأكل بجفاء .

(٥) إسناده صحيح ، سير أعلام النبلاء ٢/٦٧ - ٦٨ ، وطبقات ابن سعد ٤/٢٣٢.

رضي الله عنه ؛ لقد تعلّق بالأمر الشديد .

« وعن أبي أسماء أنه دخل على أبي ذرٍّ بالربذة ، وعنده امرأة له سوداء مُشعثة ، ليس عليها أثر المجاسد والخَلوق ، فقال : ألا تنظرون ما تأمرني به ؟ تأمرني أن آتي العراق ، فإذا أتيتُها ، مالوا عليّ بدنياهم ، وإنَّ خليلي عهِدَ إليّ : « إنّ دون جسْر جهنم طريقًا ذا دحْضٍ ومزلة » . وإنا أنَّى نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار ، أحرىٰ أنْ ننجو مِن أنْ نأتي عليه ونحن مواقير »[١] .

« وقال ثابت البناني : بنى أبو الدرداء مسكنًا ، فمر عليه أبو ذرٍّ ، فقال : ما هذا ! تعمر دارًا أذن اللهُ بخرابها ؟! لأَن تكون رأيتُك تتمرّغ في عَذِرة ، أحبّ إليّ من أن أكون رأيتُك فيما رأيتُك فيه »[٢] .

وعن أمِّ طلقٍ ، قالت : « دخلتُ على أبي ذرٍّ فرأيتُه شعثًا شاحبًا ، بيده صوف ، قد جُعل عُودَيْن ، وهو يغزل بهما ، فلم أرَ في بيته شيئًا ، فناولتُه شيئًا مِن دقيق وسُوَيْق ، فقال لي : أمَّا ثوابك ، فعلى الله »[٣] .

وعندما مات بالربذة لم يكن عنده ثوبٌ يسعُه كفَنًا ، وكفّنه صحابة مَرُّوا به ، كفّنه فتى مِن الأنصار في عيبته مِن غزل أمِّه[٤] .

مُصْعَب بنُ عُمَير رضي الله عنه :

عن خباب رضي الله عنه قال : « هاجرْنا مع رسول الله ﷺ ، ونحن نبتغي وجه الله ، فوقع أجرُنا على الله ، فمنا مَن مضى لسبيله لم يأكل من أجره شيئًا ؛ منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أُحد ، ولم يترك إلا نَمِرة ، كُنَّا إذا غطَّينا رأسه بدتْ رجلاه ، وإذا غطينا رجلَيْه بدا رأسه ، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن سعد ورجاله ثقات .

(٢) ، (٣) السير ٢/٧٤ .

(٤) العيبة : ما تُجعل فيه الثياب ، السير ٢/٧٧ .

ﷺ : « غَطّوا رأسه ، واجعلوا على رجليه من الإذْخَر » . ومِنّا مَن أيْنعتْ له ثمرتُه ، فهو يُهَدِّبُها »[١] .

« وعن سعد بن إبراهيم ، سمع أباه يقول : أُتي عبد الرحمن بن عوف بطعامٍ ، جعل يبكي ، فقال : قتل حمزة ، فلم يُوجد ما يُكَفّن فيه إلّا ثوبًا واحدًا ، وقُتل مصعب بن عمير ، فلم يوجد ما يكفّن فيه إلا ثوبًا واحدًا ، لقد خشيتُ أن يكون عُجّلتْ لنا طيباتُنا في حياتنا الدنيا.وجعل يبكي »[٢] .

سَلْمانُ الفارسي :

عن مالك أنَّ سلمان كان يستظل بالفيءِ حيثما دار ، ولم يكن له بيت ، فقيل : ألا نبني لك بيتًا تسكن به ؟ قال : نعم . فلمّا أدْبر القائلُ سأله سلمان : كيف تبنيه ؟ قال : إنْ قمتَ فيه أصابَ رأسك ، وإنْ نِمتَ أصابَ رجلك[٣] .

« قال النعمان بن حُميد : دخلتُ مع خالي على سلمان بالمدائن - وهو أميرٌ عليها - فسمعته يقول : أشتري خُوصًا بدرهم ، فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأُعيد درهمًا فيه ، وأنفق درهمًا على عيالي ، وأتصدَّق بدرهم ، ولو أن عمر نهاني عنه ما انتهيت »[٤] .

وقال الحسن : كان عطاء سلمان خمسة آلاف ، وكان على ثلاثين ألفًا من الناس ، يخطب في عباءَة ، يفرش نصفَها ، ويلبَس نصفها ، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه ، ويأكل مِن سفيف يده ، رضي الله عنه[٥] .

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ؛ وابن سعد ، وأبو نعيم .

(٤) ابن سعد وأبو نعيم في الحلية ، والإصابة ٢٢٥/٤ ، وأسد الغابة ٤٢٠/٢ والاستيعاب .

(٥) الحلية ١٩٨/١ .

وإنْ تعجبْ لأميرِ المدائن سلمان فاعجبْ :

« قال جرير بن حازم : سمعت شيخًا من بني عبْس يذكر عن أبيه قال : أتيتُ السوق ، فاشتريت عَلفًا بدرهم ، فرأيتُ سلمان - ولا أعرفه - فسخّرتُه ، فحملتُ عليه العلف ، فمرّ بقوم فقالوا : نحمل عنك يا أبا عبد الله ؟ فقلت : مَنْ ذا ؟ قالوا : هذا سلمان صاحب رسول الله ﷺ . فقلت له : لم أعرفك ، ضعْه . فأبى حتى أتى المنزل »[1].

« وعن أنس رضي الله عنه قال : دخل سعد وابن مسعود على سلمان عند الموت ، فبكى فقيل له : ما يُبكيك ؟ قال : عهدٌ عهِدَه إلينا رسول الله ﷺ لم نحفظه : قال : « لِيكنْ بلاغُ أحدِكم من الدنيا كزاد الراكب » . وأمّا أنت يا سعدُ ، فاتَّقِ اللهَ في حكمك إذا حكمت ، وفي قَسْمك إذا قسَمتَ ، وعند همّك إذا هممت . قال ثابت : فبلغني أنه ما ترك إلّا بضعةً وعشرين درهمًا ، نُفَيْقةً كانت عنده »[2].

عثمانُ بنُ عفَّان ، رضي الله عنه :

« قال الحسن البصري : رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد ، حتى جاءَه المؤذِّن فقام ، فرأيتُ أثر الحَصَىٰ على جنبه »[3] .

وكان رضي الله عنه - وهو خليفة - يحمِل حِزْمة الحطب على عاتِقِه .

أهل الصُّفّة :

عن فضالة بن عُبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى بالناس ، يخرّ رجالٌ مِن قامتهم في الصلاة من الخصاصة ، وهمْ أصحابُ الصُّفة ، حتى تقول الأعراب : هؤلاء مجانينُ أو مجانون ، فإذا صَلّى - صلى الله عليه وسلم -

(١) ابن سعد ٦٣/١/٤ .
(٢) صحيح ؛ أخرجه ابن ماجه ، وأبو نعيم في الحلية والطبراني .
(٣) السير ٥٦٨/٤ .

انصرفَ إليهم ، فقال : « لو تعلمونَ ما لكم عند الله ، لأحببتُم أن تزدادوا فاقة وحاجة » . قال فضالة : أنا يومئذٍ مع رسول الله ﷺ(١) .

أبو هـريرة ، رضي الله عنه :

قال أبو هريرة : « لقد رأيتُني وإني لأخِرّ فيما بين منبرِ رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مَغْشيًّا عليّ ، فيجيءُ الجائي فيضعُ رجله على عنقي ، ويرى أنّي مجنون ، وما بي مِن جُنونٍ ، ما بي إلّا الجوع »(٢) .

عُمَير بنُ سعد ... نسيجُ وحدِه :

الحافظُ للعهد ، الوافي بالوعد ، اللَّقن الحفيظ ، الخَشن الغليظ ، جمال الوُلاة ، وحُجّة الله على الرعاة .

« قال الذهبي : استعمله عمرُ على حِمص ، وكان من الزُّهاد .

قال عبد الرحمن بن عمير بن سعد الأنصاري : قال لي ابن عمر : ما كان مِن المسلمين رجلٌ مِن الصحابة أفضل من أبيك .

وقال ابن سيرين : كان عُمر من عُجْبه بعُمير بن سعد يُسميه : « نسيج وحدِه » ، وبعثه مرّة على جيش .

وقال المفضل الغلابي : زهّادُ الأنصار ثلاثة : أبو الدرداء ، وشدّاد بن أوس ، وعمير بن سعد »(٣) .

« بعثه عمر بن الخطاب عاملًا على حمص ، فمكث حوْلًا لا يأتيه خبرُه ، فقال عمر لكاتبه : اكتب إلى عُمير ، فواللهِ ما أراه إلا قد خاننا : « إذا جاءك كتابي هذا فأقبلْ ، وأقبلْ بما جبيْتَ مِن فَيْء المسلمين ، حين

---

(١) إسناده حسن : رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٢) رواه البخاري والترمذي .

(٣) السير ٢/١٠٤ - ١٠٥ .

تنظر في كتابي هذا » . فأخذ عُمير جرابه ، فجعل فيه زادَه وقصعتَه ، وعلق إداوته ، وأخذ عنزته ، ثم أقبل يمشي من حمص حتى دخل المدينة . قال : فقدم وقد شحبَ لونُه واغبر وجهُه ، وطالت شعرته ، فدخل على عُمر وقال : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال عمر : ما شأنك ؟ فقال عمير : ما ترى من شأني ؟! ألستَ تراني صحيح البدن ، طاهرَ الدم ، معي الدنيا أجُرُّها بقرْنها ؟! قال : وما معك ؟ فظن عمر رضي الله عنه أنه قد جاء بمال ، فقال : معي جرابي ، أجعل فيه زادي ، وقَصْعتي آكُل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي ، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعَنزتي أتوكَّأ عليها ، وأجاهد بها عدوّا إن عَرَض ، فوالله ما الدنيا إلا تَبَعٌ لمتاعي . قال عمر : فجئتَ تمشي ؟ قال : نعم . قال : أما كان لك أحدٌ يتبرّع لك بدابّة تركبها ؟ قال : ما فعلوا ، وما سألتُهم ذلك . فقال عمر : بئْس المسلمون خرجت مِن عندهم . فقال له عُمير : اتق اللهَ يا عمر ، قد نهاك اللهُ عن الغيبة ، وقد رأيتُهم يصلّون صلاة الغداة . قال عمر : فأين بعثتُك ؟ وأي شيءٍ صنعتَ ؟ قال : وما سؤالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : سبحان الله ! فقال عمير : أما لولا أني أخشى أن أغمّك ما أخبرتك ، بعثتَني حتى أتيتُ البلد ، فجمعتُ صلحاءَ أهلها ، فولَّيْتُهم جباية فيْئهم ، حتى إذا جمعوه ، وضعتُه مواضعه ، ولو نالك منهُ شيءٌ لأتيتُك به . قال : فما جئتَنا بشيءٍ ؟ قال : لا . قال : جدِّدوا لعُمير عهدًا . قال : إنّ ذلك لشيءٌ لا عملتُ لك ، ولا لأحدٍ بعدك ، والله ما سلِمْتُ ، بل لم أسلم ، لقد قلتُ لنصراني : أي أخزاكَ الله ، فهذا ما عرّضتني له يا عمر ، وإنّ أشقىٰ أيامي يومَ خلفتُ معك . فاستأذنه فأذن له ، فرجع إلى منزله . قال : وبينه وبين المدينة أميالٌ ، فقال عمر - حين انصرف عُمير -: ما أراه إلا قد خاننا . فبعث رجلًا يُقال له : الحارث ، وأعطاه مائة دينار ، فقال له : انطلق إلى عمير ، حتى تنزل به كأنّك ضيف ، فإن رأيتَ أثر شيءٍ فأقْبل ،

وإن رأيت حالة شديدةً فادفع إليه هذه المائة الدينار . فانطلق الحارث ، فإذا هو بعمير جالس يفلّي قميصه إلى جانب الحائط ، فسلّم عليه الرجل ، فقال له عمير : انزل ، رحمك الله . فنزل ثم سأله ؛ فقال : من أين جئت ؟ قال : من المدينة . قال : فكيف تركتَ أمير المؤمنين ؟ قال : صالحًا . قال: فكيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين . قال: أليس يقيم الحدود ؟ قال : بلى ، ضرب ابنًا له أتى فاحشةً ، فمات من ضربه . فقال عمير : اللهمّ أعِنْ عمر ، فإني لا أعلمه إلا شديدًا حبُّه لك . قال : فنزل به ثلاثة أيام ، وليس لهم إلا قُرصَةٌ مِن شعير ، كانوا يَخصُّونه بها ويَطْوون ، حتى أتاهم الجهد ، فقال له عمير : إنك قد أجعْتَنا ، فإنْ رأيتَ أن تتحوَّل عنّا فافعلْ . قال : فأَخرج الدنانير ، فدفعها إليه ، فقال : بعَثَ بها إليك أمير المؤمنين ، فاستعن بها . قال : فصاح وقال : لا حاجة لي فيها ، رُدّها . فقالت له امرأته : إن احتجت إليها ، وإلّا فضعْها مواضعها. فقال عمير : واللهِ ما لي شيء أجعلها فيه . فشقّتِ امرأته أسفل دِرْعها ، فأعطته خِرْقة ، فجعلها فيها ، ثم خرج ، فقسّمها بين أبناءِ الشهداء والفقراء ، ثم رجع ، والرسول يظنُّ أنه يُعطيه منها شيئًا ، فقال له عمير : أقْرِئْ مني أميرَ المؤمنين السلامَ . فرجع الحارث إلى عمر ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيتُ يا أمير المؤمنين حالًا شديدًا . قال : فما صنع بالدنانير ؟ قال : لا أدري . قال : فكتب إليه عمر : « إذا جاءَك كتابي هذا ، فلا تضعْه من يدك حتى تُقبل » . فأقبل إلى عمر رضي الله تعالى عنه ، فدخل عليه ، فقال له عمر : ما صنعتَ بالدنانير ؟ قال : صنعتُ ما صنعتُ ، وما سؤالك عنها ؟! قال : أُنشد عليك ، لَتُخبرَنّي ما صنعت بها ؟ قال : قدّمتُها لنفسي . قال : رحمك الله . فأمر له بسُويقٍ من طعام وثوبين ، فقال : أما الطعام فلا حاجة لي فيه ، قد تركتُ في المنزل صاعينِ من شعيرٍ ، إلى أنْ آكلَ ذلك قد جاء الله تعالى بالرزق . ولم يأخذ الطعام ، وأمَّا الثوبانِ ، فقال : إنّ أمَّ فلانٍ

عارية . فأخذهما ورجع إلى منزله ، فلم يلبثْ أنْ هلَك رحمه الله ، فبلغ عمر ذلك ، فشقّ عليه وترحّم عليه ، فخرج يمشي - ومعه المشّاءُون - إلى بقيع الغرْقَد ، فقال لأصحابه : لِيَتَمَنَّ كُلُّ رجلٍ منكم أمنيةً . فقال رجل : وددتُ يا أمير المؤمنين أنّ عندي مالًا ، فأعتقُ لِوجه الله عز وجل كذا وكذا . وقال آخر : وددتُ يا أمير المؤمنين أنّ عندي مالًا ، فأنفق في سبيل الله . وقال آخر : وددتُ أنَّ لي قوةً ، فأمْتَحُ بدلْوي زمزمَ لحُجَّاج بيت الله . فقال عمر : وددتُ أنَّ لي رجلًا مثلَ عمير بن سعد ، أستعين به في أعمال المسلمين »[1] .

سعيدُ بن عامر الجُمَحي ، رضي الله عنه :

زهِد في الدنيا الفتّانة السحَّارة ، ونظر إلى طُلَّابها بعيْن الحَقارة ، وسلك منهج السابقين بالحثِّ والنِّذَارة ، ورغِب عن الدنيا ، مع تقلُّدِه الولايات ، وقيامه فيها برعايته العهود والأمانات .

قال حسّان بن عطية : لمّا عزَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه معاويةَ عن الشام ، بعث سعيد بن عامر بن جُذيم الجمحي . قال : فخرج معه بجارية من قريشٍ نضيرة الوجه ، فما لبث إلّا يسيرًا حتى أصابته حاجةٌ شديدة ، قال : فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بألف دينار . قال : فدخل بها على امرأته ، فقال : إنّ عمر بعث إلينا مما تَرَيْن . فقالت . لو أنك اشتريتَ لنا أَدَمًا وطعامًا ، وادّخرتَ سائرها . فقال لها : أو لا أدلُّك على أفضلَ من ذلك ؟ نعطي هذا المال من يتجر لنا فيه ، فنأكل مِن ربحها،وضمانها عليه . قالت : فنعم إذن . فاشترى أدمًا وطعامًا ، واشترى بعيريْن ، وغلاميْن يمتارانِ عليهما حوائجَهم ، وفرّقها في المساكين وأهل الحاجة . قال : فما لبث إلّا يسيرًا حتى قالت له امرأته : إنه قد نفد كذا وكذا ، فلو أتيتَ ذلك الرجل فأخذتَ

---

(١) الحلية ١/٢٤٧ - ٢٥٠ .

لنا من الربح فاشتريتَ لنا مكانه . قال : فسكت عنها . قال : ثم عاودتْه . قال : فسكت عنها حتى آذتْه ، ولم يكن يدخل بيته إلّا من ليلٍ إلى ليلٍ . قال : وكان رجل من أهل بيته ممن يدخل بدخوله ، فقال لها : ما تصنعين ، إنك قد آذيْتِيه ؟ وإنه قد تصدّق بذلك المال . قال : فبكتْ أسفًا على ذلك المال ، ثم إنه دخل عليها يومًا ، فقال : على رسلِك ، إنه كان لي أصحاب فارقوني منذ قريب ، ما أحبّ أني صددتُ عنهم وأنّ لي الدنيا وما فيها ، ولو أن خيرة من خيراتِ الحسان اطَّلعتْ من السماء ، لأضاءَت لأهل الأرض ، ولَقَهر ضوءُ وجهها الشمسَ والقمرَ ، ولَنصيفٌ تُكْسى خيرٌ من الدنيا وما فيها ، فلأنت أحرى في نفسي أنْ أدعكِ لهُنّ منْ أن أدعهن لك . قال : فسمحت ورضيت .

« قال خالد بن معدان : استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي ، فلمّا قدِم حمص ، قال : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملَكم ؟ فشكَوْه إليه . وكان يُقال لأهل حمص : الكُوَيْفة الصغرى ، لِشكايتهم العمال . قالوا : نشكو أربعًا ؛ لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار . قال : أعظِم بها . قال : وماذا ؟ قالوا : لا يجيب أحدًا بليلٍ . قال : وعظيمة . قال : وماذا ؟ قالوا : وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا . قال : عظيمة . قال : وماذا ؟ قالوا : يغنظ الغنظة بين الأيام . يعني : تأخذه موْتة . قال : فجمع عمر بينهم وبينه ، وقال : اللهمّ لا تُفيِّلْ[1] رأيي فيه اليوم ، ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار . قال : واللهِ إنْ كنتُ لأكره ذكره ، ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ، ثم أخرج

(١) لا تفيل : لا تُخَيِّبْ .

إليهم . فقال : ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يُجيب أحدًا بليلٍ . قال : ما تقول ؟ قال : إنْ كنتُ لأكرهُ ذكره ؛ إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل . قال : وما تشكون ؟ قالوا : إنّ له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه . قال : ما تقول ؟ قال : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثيابٌ أُبدِّلها ، فأجلس حتى تجفَّ ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم مِن آخر النهار . قال : ما تشكون منه ؟ قالوا : يَغْنظ الغَنْظة بين الأيام . قال : ما تقول ؟ قال : شهدت مصْرَعَ خبيب الأنصاري بمكة ؛ وقد بضعتْ قريش لحمَه ، ثم حملوه على جذْعَة ، فقالوا : أتحبُّ أنَّ محمدًا مكانك ؟ فقال : والله ما أحبُّ أني في أهلي وولدي ، وأنّ محمدًا ﷺ شيكَ بشوْكة . ثم نادى : يا محمد . فما ذكرتُ ذلك اليوم ، وتركي نُصْرته في تلك الحال - وأنا مشركٌ لا أؤمن بالله العظيم - إلا ظننتُ أنّ الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا . قال : فتصيبني تلك الغَنْظَة . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يُفَيِّلْ فراستي . فبعث إليه بألف دينار ، وقال : استعنْ بها على أمرك . فقالت امرأته : الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك . فقال لها : فهل لك في خير من ذلك : أدفعُها إلى من يأْتينا بها أحوجَ ما نكون إليها ؟ قالت : نعم . فدعا رجلًا من أهل بيته يثق به ، فصرّها صُرَرًا ، ثم قال : انطلقْ بهذه إلى أرملة آل فلان ، وإلى يتيم آل فلان ، وإلى مسكين آل فلان ، وإلى مُبتلَى آل فلان . فبقيتْ منها ذُهيْبَة ، فقال : أنفقي هذه . ثم عاد إلى عمله ، فقالت : ألَا تشتري لنا خادمًا ؟ ما فعل ذلك المال ؟ قال : سيأتيك أحوجَ ما تكونين »(١) .

سعد بن أبي وقَّاص :

عن عامر بن سعد ، أنّ أباه سعدًا كان في غَنَمٍ له ، فجاء ابنه عمر ،

---

(١) الحلية ١/٢٤٤ - ٢٤٦ .

فلما رآه قال : أعوذ بالله من شرّ هذا الراكب . فلما انتهى إليه قال : يا أبتِ ، أرضيتَ أنْ تكون أعرابيًّا في غَنَمِك ، والناس يتنازعون في المُلْك بالمدينة ؟! فضرب صدر عمر ، وقال : اسكت ؛ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الله عز وجل يحبُّ العبد التقيَّ الغَنيَّ الخَفِيَّ »[1].

عبد الرحمٰن بن عَوْف ، رضي الله عنه :

عن المِسْوَر قال : لمّا وُلِّي عبد الرحمن بن عوف الشورىٰ ، كان أحبّ الناس إليّ أنْ يَلِيَه ؛ فإنْ تركَ فسعدٌ ، فلحقني عمرو بن العاص فقال : ما ظنُّ خالِك عبد الرحمن بالله ، إنْ ولَّى هذا الأمر أحدًا ، وهو يعلم أنه خير منه ؟! فأتيتُ عبد الرحمن ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : واللهِ لَأَنْ تؤخَذْ مديةٌ فتوضع في حلقي ، ثـم ينفذ بها إلى الجانب الآخر ، أحب إليّ من ذلك[2] .

وعن عبد الرحمن بن أزهر أن عثمان اشتكى رُعافًا ، فدعا حُمران فقال : اكتبْ لعبد الرحمن العَهْد من بعدي . فكتب له ، وانطلق حمرانُ إلى عبد الرحمن ، فقال : البُشْرى . قال : وما ذاك ؟ قال : إنَّ عثمان قد كتب لك العهد من بعده . فقام بين القبر والمنبر ، فدعا ، فقال : اللهم إن كان مِن تولية عثمان إيّاي هذا الأمر ، فأمِتْني قبله . فلم يمكثْ إلا ستة أشهر حتى قبضه الله[3].

قال الذهبي : « مِن أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف : عزلُه نفسه من الأمر وقت الشورى ، واختياره للأمة مَن أشار به أهلُ الحَلِّ والعقْد ، فنهض في ذلك أتمَّ نهوضٍ على جمعِ الأمة على عثمان ، ولو كان محابيًا فيها ، لأخذها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٨٧ - ٨٨ ، وابن سعد في الطبقات ٣/١/٩٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/٨٨ .

لنفسه ، أوْ لَوَلّاها ابنَ عمّه وأقرب الجماعة إليه : سعد بن أبي وقاص »[١] .

قال أبو العُبَيْدَيْن لعبد الله بن مسعود : يا أصحابَ محمد ، لا تختلفوا فتشقُّوا علينا . فقال : يرحمك الله أبا العبيدين ، إنما أصحاب محمد ﷺ الذين دُفنوا معه في البُرُد[٢] .

عبد الله بن عمر :

قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيتُ أحدًا أشبَه بأصحاب النبي ﷺ – الذين دُفنوا في النّمار – من عبد الله بن عمر[٣] .

وعن عبد الله بن المبارك قال : حدثنا وهيب أن ابن عمر باع حمارًا ، فقيل له : لو أمسكْته . فقال : لقد كان لنا موافقًا ، ولكنه أذهب بشُعبةٍ من قلبي ، فكرهت أنْ أشغل قلبي بشيءٍ[٤] .

عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما :

قال عبد الله بن عمرو : مرّ عليّ رسول الله ﷺ ، ونحن نعالج خُصًّا لنا وهِيَ : فقال : « ما هذا ؟ » . فقلنا : خُصٌّ لنا وَهِيَ فنحن نصلحه . فقال رسول الله ﷺ : « ما أرى الأمر إلا أعجل مِن ذلك »[٥] .

وعنه رضي الله عنه قال : مرّ بي رسول الله ﷺ ، وأنا أُطيّنُ حائطًا

---

(١) السير ٨٦/١ .
(٢) يعني : دُفنوا في برودهم التي كانت على أجسامهم ، لم يجدوا لهم كفنًا لما كانوا فيه من ضيق العيش . انظر الزهد والرقائق ص١٨٤ .
(٣) الحلية ٣٠١/١ .
(٤) الزهد والرقائق ص١٩٤ .
(٥) رواه أبو داود ، وابن ماجه والترمذي ، وصححه الترمذي ، والألباني في صحيح أبي داود رقم ٤٣٦٢ .

لي ، أنا وأمي ، فقال :« ما هذا يا عبد الله ؟ » . فقلتُ : يا رسول الله ، شيء أصلحه . فقال : « الأمر أسرع مِن ذاك »[١].

فضالة بنُ عبيد ، والي مصر :

« رُئي فضالة بن عبيد - وهو والي مصر - أشعثَ حافيًا ، فقيل له : أنت الأمير ، وتفعل هذا ؟! فقال : نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحتفي أحيانًا »[٢].

عَمرُو بن الأسود العَنْسي :

قال رحمه الله : « لا ألبس مشهورًا أبدًا ، ولا أنام بليلٍ أبدًا على دِثار أبدًا ، ولا أركب على مأثور أبدًا ، ولا أملأ جوْفي من طعامٍ أبدًا » . فقال عمر : « مَن سرّه أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ ، فلينظر إلى عمرو بن الأسود »[٣].

سُويد بن غَفَلة بن عَوْسجة ، الإمام القدوة :

كان رحمه الله إذا قيل له : أُعطيَ فلانٌ ، ووُلِّي فلانٌ . قال : حسبي كسرتي ومِلْحي .

وعن علي بن المديني رحمه الله : دخلتُ منزلَ أحمد بن حنبل ، فما شبّهته إلّا بما وُصِف مِن بيت سُوَيد بن غَفَلة ؛ من زهدِه وتواضعِه،رحمه الله[٤].

أُوَيْس القرني: سيِّد التابعين، وشيخ الزُّهاد والعابدين، كبيرُ أولياء التابعين، الإمام القدوة :

« قال علقمة بن مَرْثد : انتهى الزهد إلى ثمانيةٍ من التابعين : عامر بن

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٤٣٦١ .
(٢) أخرجه أبو داود بإسناد جيد .
(٣) رواه أحمد بإسناد جيد - الإحياء ٤/٢٤٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٧١ - ٧٢ .

عبد الله، وأويس القرْني، وهرم بن حيّان، والربيع بن خُثيم، وأبو مسلم الخولاني، والأسود بن يزيد ، ومسروق بن الأجدع ، والحسن بن أبي الحسن »[١] .

قال علقمة بن مرثد : « وأمّا أويس القرني ، فإنّ أهلَه ظنُّوا أنه مجنون ، فبنَوْا له بيتًا على باب دارهم ، فكانت تأتي عليهم السَّنَة والسنون ، لا يرون له وجهًا ، وكان طعامه ممّا يُلتقَط من النوى ، فإذا أمسى باعه لإفطاره ، وإنْ أصاب حَشَفةً حَبسها لإفطاره ، فلما وُلّي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا أيُّها الناس ، قوموا بالمْوسم . فقاموا ، فقال : ألَا اجلسوا ، إلّا من كان من أهل الكوفة . فجلسوا ، فقال : ألَا اجلسوا ، إلّا مَن كان مِن أهل اليمن . فجلسوا ، فقال : ألا اجلسوا ، إلا مَن كان مِن مراد . فجلسوا ، فقال : ألا اجلسوا إلا مَن كان مِن قرن . فجلسوا إلا رجل ، وكان عَمّ أُويس بن أنيس ، فقال له عمر : أقَرنيٌّ أنت ؟ قال : نعم . قال : أتعرف أويْسًا ؟ قال : وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟! فوالله ما فينا أحمق منه ، ولا أجنّ منه ، ولا أحوج منه . فبكى عمر ، وقال : بكَ لا بهِ » .

« وعن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذا أتى عليه أمدادُ أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى عليه أُوَيْس ، فقال : أويسُ بن عامر ؟ قال : نعم . قال : مِن « مراد » ثم مِن « قرن » ؟ قال : نعم . قال : فكان بك بَرَصٌ فبرئْتَ منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم . قال : لك والدة ؟ قال : نعم . قال:رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويسُ بن عامر مع أمدادِ أهل اليمن مِن مراد ، ثم من قرن ،

(١) زهد الثمانية من التابعين لعلقمة بن مرثد ، رواية : ابن أبي حاتم ص٣٨ تحقيق : د . عبد الرحمن الفريوائي – مكتبة الدار ، بالمدينة المنورة .

كان به بَرَصٌ فبرئ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو برٌّ بها ، لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ ... فإنِ استطعتَ أنْ يستغفر لك ، فافعلْ » . فاستغفرْ لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة . قال : ألَا أكتب لك إلى عامِلها ؟ قال : أكون في غَبْراء الناسِ أَحَبُّ إليّ . فلما كان من العام المُقْبل ، حجَّ رجلٌ مِن أشرافهم ، فوافق عمرَ ، فسأله عن أُوَيْس ، قال : تركتُه رثَّ البيت ، قليلَ المتاع . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ... ثم ذكر الحديث الذي تقدّم ، فأتى أوَيْسًا ، فقال : استغفر لي . قال : أنت أحدثُ عهدًا بسَفَرٍ صالحٍ ، فاستغفر لي . قال : استغْفِرْ لي . قال : أنت أحدثُ عهدًا بسفرٍ صالحٍ ، فاستغفر لي . قال : لقيتَ عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفرَ له . ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أسير : وكسوتُه بُرْدة ، فكان كلّما رآه إنسانٌ قال : مِن أينَ لأويس هذه البُرْدة »[1] .

وعن أسير بن جابر قال : « كان بالكوفة رجلٌ يتكلم بكلامٍ لا أسمع أحدًا يتكلم به ، ففقدتُه ، فسألت عنه ، فقالوا : ذاك أويس . فاستدللْتُ عليه وأتيته ، فقلت : ما حبسك عنّا ؟ قال : العُرْيُ . قال : وكان أصحابه يسخرون به ويُؤْذُونه . قلت : هذا بُرْدٌ ، فخذْه . قال : لا تفعل ؛ فإنهم إذًا يؤذونني . فلم أزلْ به حتى لبِسَه ، فخرج عليهم ، فقالوا : مَن تروْن خدَع عن هذا البرد ؟ قال : فجاء فوضعه ، فأتيتُ فقلتُ : ما تريدون مِن هذا الرجل فقد آذيْتموه ؟ الرجل يَعْرَىٰ مرةً ، ويكتسي أخرى ، وآخذتهم بلساني أخذًا شديدًا » ... ثم نحوًا من رواية مسلم ، وفي نهايته : « فلما فشا الحديثُ ، هربَ فذهب »[2] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/٤ - ٢٤ ، وطبقات ابن سعد ٦١/٦ ، والحلية ٧٩/٢ .

« وعن مغيرة : إن كان أويسُ القرني ليتصدّق بثيابه ، حتى يجلس عُريانًا ، لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة »[١] .

« وعن سعيد بن المسيب قال : نادى عمر بـ « مِنى » ، على المنبر : يا أهل قرن . فقام مشايخ ، فقال : أفيكم مَن اسمه أويس ؟ فقال شيخ : يا أمير المؤمنين ، ذاك مجنون يسكن القِفار ، لا يألُف ولا يُؤْلَف . قال : ذاك الذي أعنيه ، فإذا عُدتم فاطلبوه ، وبلّغوه سلامي وسلام رسول الله ﷺ . قال : عرّفني أميرُ المؤمنين وشهّر باسمي ، اللهمّ صلّ على محمد وعلى آله ، السلام على رسول الله ثم هامَ على وجهه ، فلم يُوقَف له بعد ذلك على أثر دَهْرًا ، ثم عاد في أيام عليٍّ رضي الله عنه ، فاستُشهِد معه بـ « صِفين » ، فنظروا فإذا عليه نيِّف وأربعون جراحة »[٢] .

قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : « الزهدُ زهدُ أويس ، بلَغ مِن العُرْي أنْ جلس في قَوْصَرة »[٣].

أبو مسلم الخَوْلاني : « سيّدُ التابعين وزاهدُ العصر »[٤]:

قال عنه كعب : هذا حكيم هذه الأمة .

عن علقمة بن مَرثد قال : « انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم أبو مسلم الخوْلاني ، وكان لا يجالس أحدًا قطُّ ، ولا يتكلّم في شيءٍ من أمر الدنيا إلّا تحوّل عنه ، فدخل ذات يوم المسجد ، فنظر إلى نفرٍ قد اجتمعوا ، فرجا أنْ يكونوا على ذكْر خير ، فجلس إليهم ، فإذا بعضهم

---

(١) الحلية ٢/٨٤ .
(٢) السير ٢/٣٢ .
(٣) الإحياء ٤/٢٤٣ .
(٤) هذا قول الذهبي في السير ٤/٧ .

يقول : قدم غلامي فأصاب كذا وكذا . وقال آخر : جهّزتُ غلامي . فنظر إليهم فقال : سبحان الله ! أتدرون ما مَثَلي ومَثَلكم ؟ كرجلٍ أصابه مطرٌ غزيرٌ وابِلٌ . فالتفتَ فإذا هو بمصراعيْنِ عظيميْنِ ، فقال : لو دخلتُ هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر . فدخل ، فإذا البيتُ لا سقْفَ له ، جَلستُ إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكرٍ وخيرٍ ، فإذا أنتم أصحابُ الدنيا »[١].

وعن عطاء قال : « كان أبو مسلم الخوْلاني إذا انصرف إلى منزله من المسجد ، كبّر على باب منزله ، فتُكبّر امرأتُه ، فإذا كان في صحْن داره كبّر ، فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة فكبّر عند باب داره فلم يجبْه أحد ، وكان إذا دخل بيته ، أخذتِ امرأته رداءَه ونعلَيْه ، ثم أتتْه بطعامه . قال : فدخل البيت ، فإذا البيت ليس فيه سِراج ، وإذا امرأته جالسةٌ في البيت مُنكِسَةٌ تنكُتُ بعُود معها ، فقال لها : ما لكِ ؟ قالت : أنت لك منزلة من معاوية ، وليس لنا خادم ، فلو سألته ، فأخدَمَنا وأعطاك . فقال : اللهمّ مَن أفسد عليّ امرأتي فأَعْم بصره . قال : وقد جاءتها امرأةٌ قبل ذلك ، فقالت لها: زوجُك له منزلة من معاوية، فلو قلت له يسأَل معاوية، يخدمه ويعطيه ، عِشْتم . قال : فبينا تلك المرأة جالسةٌ في بيتها إذْ أنكرتْ بصَرَها ، فقالت : ما لِسِراجكم طُفِيءَ ؟ قالوا : لا ! فعرفت ذنبها ، فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي ، وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أنْ يردَّ عليها بصرها . قال : فرحمها أبو مسلم ، فدعا الله لها ، فردّ عليها بصرها »[٢].

صَفْوان بنُ مُحَيْرِيز :

قال الحسن : دخلْنا على صفوان بن محيريز وهو في بيتٍ من قَصَب ،

---

(١) الحلية ٢/١٢٣ .

(٢) الحلية ٢/١٣٠ .

قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحْتَه ؟ فقال : كَمْ مِن رجلٍ قد مات ، وهذا قائمٌ على حاله[١].

أبو حـازم :

قالت امرأةُ أبي حازم لأبي حازم : هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بدَّ لنا من الطعام والثياب والحطب . فقال لها أبو حازم : مِن هذا كلِّه بدٌّ ، ولكن لا بدَّ لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة ، أو النار[٢].

راهِبُ العرب : عامرُ بن عبدِ قيْس :

القدوة الولي الزاهد أبو عبد الله .

قال العجلي : كان ثقة من عباد التابعين ، رآه كعب الأحبار ، فقال : هذا راهب هذه الأُمّة .

عن الحسن ، أن عامرًا كان يقول : مَن أُقرىءُ ؟ فيأتيه ناسٌ ، فيُقرئهم القرآن ، ثم يقوم فيصلّي إلى الظهر ، ثم يصلّي إلى العصر ، ثم يُقرِىء الناس إلى المغرب ، ثم يصلّي ما بين العشاءَين ، ثم ينصرف إلى منزله ، فيأكل رغيفًا ، وينام نوْمةً خفيفةً ، ثم يقوم لصلاته ، ثم يتسحَّر رغيفًا ، ويخرج .

قال بلال بن سعد : « وشي بعامر بن عبد قيس إلى زياد ، فقالوا : ها هنا رجلٌ قيل له : ما إبراهيمُ عليه السلام خيرًا منك . فسكَتَ ، وقد ترك النساء . فكتب فيه إلى عثمان ، فكتب إليه : انفهِ إلى الشام على قَتب[٣]. فلمّا جاءه الكتاب ، أرسل إلى عامر ، فقال : أنت قيل لك : ما إبراهيم خيرًا منك فسَكَتَّ ؟! قال : أمَا واللهِ ما سكوتي إلا تعجُّبٌ ،

---

(١) الإحياء ٤/٢٥٠ .

(٢) الإحياء ٤/٢٣٩ .

(٣) الرَّحْل الصغير على قدْر سنام البعير .

ولَوَدِدتُ أني غبارُ قدميْه . قال : وتركتَ النساء ؟ قال : واللهِ ما تركتهنَّ إلّا أني قد علمتُ أنه يَجيءُ الولد ، وتَشَعَّبُ فيَّ الدنيا ، فأحببتُ التخلّي . فأجْلَاه على قَتَبٍ إلى الشام ، فأنزله معاويةُ معه في الخضراء[١] وبعث إليه بجارية ، وأمرها أنْ تُعلمَه ما حاله . فكان يخرج من السَّحَر ، فلا تراه إلّا بعد العَتَمة ، فيبعث معاوية إليه بطعام ، فلا يعرض له ، ويَجيءُ معه بكِسَرٍ ، فيَبلُّها ويأكل ، ثم يقوم إلى أن يسمع النداء فيخرج ، فكتب معاوية إلى عثمان يذكر حاله ، فكتب : اجعلْه أوَّلَ داخلٍ وآخِرَ خارجٍ ، ومُرْ له بعشرةٍ من الرَّقيق ، وعشرةٍ من الظهْر . فأحضَره وأخبَره ، فقال : إنَّ عليّ شيطانًا قد غلبني ، فكيف أجمع عليّ عشرة . وكانت له بغلة »[٢] .

« وعن ميمون بن مهران ، أن عامر بن عبد قيس بعث إليه أميرُ البصرة : ما لك لا تَزَوّجُ النساءِ ؟ قال : ما تركتُهنَّ ، وإني لدائبٌ في الخِطبة . قال : وما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ قال : إنَّ لدىٰ أبوابكم طُلَّاب الحاجات ، فادْعوهم واقضوا حاجاتِهم ، ودعُوا مَن لا حاجة له إليكم »[٣] .

لله ما أحلى هـذه الكلمات ! تخرج من فمٍ طاهرٍ ، وتفيض رقّة وعُذوبة ، وزهْدًا في الدنيا ، وإقبالًا على الآخرة ، وسعيًا حثيثًا للزّواج من الحُور العِين ، يترجمها بقوله : « وإني لدائبٌ في الخِطْبة » .

« عن الحسن ، قال عامر بن عبد قيس : العيش في أربع : اللّباس ، والطعام ، والنوم،والنساء ؛ فأمّا النساء ، فواللهِ ما أُبالي : امرأة رأيتُ أو جدارًا ، وأمّا اللباس : فواللهِ ما أبالي ما واريتُ به عوْرتي ، وأما الطعام ،

---

(١) وهي دار الإمارة بدمشق .
(٢) السير ٤/١٦ .
(٣) السير ٤/١٨ .

والنوم : فلقد غلبَاني ، والله لأضارَنَّهُما جهدي . قال الحسن : فأضرّ - واللهِ - بهما .

وفي رواية : الدنيا أربعة أجزاء : المال والنساء ، والنوْم والطعام ؛ أمّا المال والنساء : فلا حاجة لي بهما ، وأما الآخرانِ : فأيْمُ الله ، لأضُرّنَّ بهما . وقال : لأجعلنَّ الهمَّ واحدًا .

وفي رواية : واللهِ لئنِ استطعتُ ، لأجعلنَّ الهمَّ همًّا واحدًا . قال الحسن : ففعلَ وربِّ الكعبة »[١].

قال شيخ الحرم أبو سعيد بن الأعرابي : وهذا على ما قيل في الزهد أن يكون الهمّ همًّا واحدًا لله عز وجل وحده ، وهو غاية الزهد .

مَسرُوق بن الأجْدع :

« غاب رحمه الله عاملًا على السلسلة سنتيْن ، ثم قدم ، فنظر أهلُه في خُرْجه فأصابوا فأسًا ، فقالوا : غِبتَ ثم جئتَنا بفأس بلا عُودٍ . قال : إنا للهِ ؛ استعرناها ، نسينا نردُّها »[٢] .

قال مسروق رحمه الله : « إني أحسن ما أكون ظَنًّا ، حين يقول لي الخادم : ليس في البيت قفيزٌ ولا درهم » .

قال الأصمعي : كان مسروق يتمثَّل :

ويَكفيكَ ممَّا أُغلق البابُ دُونَهُ ... وأُرخي عليه السِّتْرُ ملحٌ وجَرْدق
وماءٌ فراتٌ باردٌ ثمَّ تَغْتَدي ... تعارِضُ أصحابَ الثَّريدِ المُلَبَّق
تجشأ إذَا ما هم تجشَّوْا كأنَّما ... غُذيتَ بألوانِ الطعامِ المُفَتَّق[٣]

---

(١) الزهد الكبير ٨٨ - ٨٩ ، والحلية ٢/٨٧ - ٩١ .
(٢) السير ٤/٦٦ .
(٣) الحلية ٢/٩٧ .

الحسن البصْري : الفقيهُ الزاهد ، المتشمِّر العابد :

كان لفضول الدنيا وزينتها نابذًا ، ولِشهوةِ النفس ونخْوتها واقذًا[١] .

وكان رحمه الله إذا ذُكر صاحب الدنيا ، يقول : « والله ما بقيتْ له ولا بقي لها ، ولا سَلِم من تبعَتِها ولا شرِّها ولا حسابها ، لقد أخرج منها في خرق »[٢] .

وقال الحسن : رحم الله عبدًا جعل العيْش عيشًا واحدًا . رحم الله رجلًا لبس خَلِقًا ، وأكل كِسرة ، ولصِق بالأرض ، وبكى على الخطيئة ، ودأب في العبادة ، وهرب من العقوبة ابتغاءَ الرحمة ، حتى يأتيه أجلُه وهو على ذلك .

« عن حميد الطويل قال : خطب رجل إلى الحسن ، وكنت أنا السفير بينهما . قال : فكانْ قد رضيه ، فذهبتُ يومًا أُثني عليه بين يديْه ، فقلت : يا أبا سعيد ، وأزيدك أنّ له خمسين ألفِ درهم . قال : له خمسون ألفًا ، ما اجتمعت من حلال . قلت : يا أبا سعيد ، إنه - كما علمتُ - ورِعٌ مسلم . قال : إنْ كان جمَعها من حلال ، فقد ضَنّ بها عن حقٍّ ، لا والله ، لا جَرَىٰ بيننا وبينه صهرٌ أبدًا »[٣] .

وقال الحسن رحمه الله : وأيمُ الله ، ما من عبدٍ قُسم له رزقُ يومٍ بيومٍ ، فلم يعلم أنه قد خير له ، إلّا عاجزٌ أو غبيُّ الرأي .

وقال هشام : سمعتُ الحسن يحلف بالله:ما أعزَّ أحدٌ الدرهمَ إلّا أذلَّه اللهُ.

---

(١) الوقذ : الضرب حتى يُشرف على الموت .

(٢) الحلية ٢/١٤٤ .

(٣) الحلية ٢/١٥١ .

وعن ابن شَوْذب ، قال : لمّا مات الحجّاج وَوَلي سليمان فأقطع الناس الموت ، فجعل الناسُ يَأخذون . فقال ابن الحسن لأبيه : لو أخذنا كمَا يأخذ الناس ؟ فقال : اسكت ، ما يسرّني لو أنّ لي ما بين الجسْرَيْن بزنبيلِ ترابٍ .

وقال أبو موسى : كنا عند الحسن ، فجاءَ ابنه فقال : أي أَبَهْ ، إنّ هذا السهم قد انكسر . فنظر إليه الحسن ، فقال : الأمر أعجلُ مِن ذلك .

« وقال الحسن : لمّا بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ ، يعرفون وجهه ويعرفون نسبه ، قال : هذا نبيٌّ ، هذا خياري ، خذوا من سنته وسبيله ، أما واللهِ ما كان يُغدىٰ عليه بالجفانِ ولا يُراح ، ولا يُغلق دونَه الأبواب ، ولا تقوم دونه الحَجَبَه ، كان يجلس بالأرض ، ويُوضَع طعامُه بالأرض ، ويلبَس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويُرْدِف خلفه ، وكان يلعَق يده .

قال الحسن : ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله ﷺ ، وما أكثر التّاركين لها . ثم إنّ عُلوجًا فُسَّاقًا ، أَكَلَة ربًا وغلولٍ - قد شغلهم ربي عز وجل ومَقَتَهم - زعموا أنْ لا بأسَ عليهم فيما أكلوا وشربوا ، وستروا البيوت وزخرفوها . ويقولون : مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه ؛ إنما جعل الله ذلك لأولياء الشيطان . الزينةُ ما رُكِبَ ظَهْرُه ، والطيبات ما جعل الله تعالى في بطونها ، فيَعمَد أحدهُم إلى نعمة الله عليه ، فيجعلها مَلاعبَ لبطْنِه وفرجه وظَهْره ، ولو شاء الله - إذْ أعطى العبادَ ما أعطاهم - أباح ذلك لهم ، ولكن تعقَّبها بما يسمعون : ﴿ **وَكُلُوا واشْرَبُوا ولا تسْرفُوا إنَّهُ لا يُحبُّ المُسْرِفين** ﴾ [الأعراف: ٣١]، فمَن أخذ نعمة الله وطُعْمتَهُ، أكل بها هنيئًا مريئًا، ومَن جعلها ملاعبَ لبطنه وفرجه وعلى ظهره ، جعلها وَبالًا يوم القيامة »[1].

(١) الحلية ٢/١٥٣ - ١٥٤ .

وقال رحمه الله : « من رأى محمدًا ﷺ ، فقد رآه غاديًا رائحًا ، لم يضع لَبِنَةً على لبنة ، ولا قصبةً على قصبة ، رُفع له عَلَمٌ فشمّر له . النَّجا النَّجا ، ثم الوَحَا الوَحَا . علي ما تعرجون ، وقد أسرع بخياركم ، وذَهب نبيُّكم ﷺ ، وأنتم في كلِّ يومٍ ترذلون ؟ العيانَ العيَانَ »[(١)] .

وقال رحمه الله : « واللهِ لقد أدركتُ سبعين بدريًّا ، أكثر لباسهم الصوف ، لو رأيتموهم لقلتم : مجانين ، ولو رأوا خياركم ، لقالوا : ما لهؤلاءِ مِن خَلاق ، ولو رأوا شرارَكم ، لقالوا : ما يُؤْمِن بيوم الحساب .. ولقد رأيتُ أقوامًا ، كانت الدنيا أهونَ على أحدهم من التراب تحت قدميْه ، ولقد رأيتُ أقوامًا ، يُمسي أحدهم لا يجدُ عشاءً إلا قوتًا ، فيقول : لا أجعل هذا كلَّه في بطني ، لأجعلنَّ بعضَه لله عز وجل . فيتصدّق ببعضه ، وإنْ كان هو أحوج ممَّن يتصدّق عليه »[(٢)].

قال رحمه الله : أدركتُ أقوامًا وصحبتُ طوائف ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقْبَل ، ولا يأسفون على شيءٍ منها أدبر ، ولَهَي كانت في أعينهم أهونَ من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يُطْوَ له ثوب ، ولم يُنصب له قِدْر ، ولم يَجعل بينه وبين الأرض شيئًا ، ولا أمر في بيته بصنعة طعامٍ قطُّ ، فإذا كان الليل ؛ فقيامٌ على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يُناجون ربَّهم في فِكَاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبُوا في شُكْرها ، وسألوا الله أنْ يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتْهم ، وسألوا الله أنْ يغفرها لهم ، فلم يزالوا على ذلك ، واللهِ ما سلموا من الذنوب ، ولا نَجوا إلّا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه[(٣)].

---

(١) الحلية ٢/١٥٤ .

(٢) زهد الثمانية من التابعين ص٦٥ - ٦٦ .

(٣) الإحياء ٤/٢٣٩ .

قال سلام بن مسكين : كان الحسن كثيرًا ما يقول : يا معشرَ الشباب ، عليكم بالآخرة فاطلبوها ، فكثيرًا ما رأينا مَن طلب الآخرة ، فأدركها مع الدنيا ، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا ، فأدرك الآخرة مع الدنيا .

وكان الحسنُ يقول عن الدنيا : « خَبَاثُ ! كلُّ عيدانِك مضضْنَا ، فوجدنا عاقبته مُرًّا » .

للهِ ما أحلىٰ هذا الكلام مِن الحسن، الذي يُشبِه كلامُه كلامَ الأنبياء!!.

وقال الحسن : الزاهد : الذي إذا رأى أحدًا ، قال : هذا أفضلُ مني .

إبراهيم التيمي :

قال رحمه الله : كم بينكم وبين القوم ؟! أقبلتْ عليهم الدنيا فهَربوا منها ، وأدبرتْ عنكم فاتّبعتموها[1] .

وقال (**بلال بن سعد**): عباد الرحمن ، أمّا ما وكلكم الله به فتضيّعون ، وأما ما تكفّل الله لكم به فتطْلُبون ، ما هكذا بعث الله عباده المُوقنين . ذوو عقول في طلب الدنيا ، وبُلْه عمّا خُلِقْتم له ؟! فكما ترجون اللهَ بما تُؤَدُّون في طاعته ، فكذلك : أشفقوا من عقاب الله بما تنتهكون من معاصي الله[2] .

نعم العاقل مَن زهِد في الدنيا وطَلَب الآخرة :

« قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لئنْ حلفتم لي على رجلٍ منكم أنه أزهدكم ، لَأَحلفنَّ لكم أنه خيركم » .

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك ص١٩٤ .

(٢) الزهد الكبير ص٨٨ .

وقال عبد الله بن مسعود : مَن أراد الآخرة أضرّ بالدنيا ، ومَن أراد الدنيا أضرّ بالآخرة ، يا قوم ، فأضرُّوا بالفاني للباقي .

« ودخل رجل على أبي ذرٍّ ، فجعل يُقلّب بصرَه في بيته ، فقال : يا أبا ذرٍّ ، ما أرى في بيتِك متاعًا ، ولا غير ذلك مِن الأثاث ! فقال : إنّ لنا بيتًا نوجِّه إليه صالِحَ متاعنا . فقال : إنه لا بدَّ لك مِن متاعٍ ، ما دمتَ ها هنا . فقال : إنّ صاحب المنزل لا يَدَعُنا فيه »[١] .

عمر بن عبد العزيز :

قال مالك بن دينار : يقولون : مالكٌ زاهد ، أيُّ زهدٍ عند مالك ، وله جُبَّة وكِساء ؟! إنما الزاهد : عمر بن عبد العزيز ؛ أتتْه الدنيا فاغرةً فَاهَا ، فتركها[٢] .

وعن عوْن بن المُعمّر ، أنَّ عمر بن عبد العزيز دخل على فاطمة ، فقال : يا فاطمة ، عندكَ درهم أشتري به عِنبًا ؟ قالت : لا . قال : فعندك الفلوس أشتري به عِنبًا ؟ قالت : لا . وأقبلتْ عليه ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ، لا تقدر على درهم تشتري به عنبًا ، ولا فلوسٍ تشتري به عنبًا ؟! قال : هذا أهونُ عليّ مِن معالجةِ الأغلال غدًا في جهنَّم[٣] .

نَعَمْ .. عمر بن عبد العزيز هو الزاهد حقًّا ، « فليس مَن زهِد في الدنيا تقذُّرًا ، مثل مَن زهد في الدنيا تصبُّرًا » ، كما قال السَّري .

قال ميمون بن مهران: أقمتُ عند عمر بن عبد العزيز ستّةَ أشهر، ما رأيتُه غيَّر رداءه ، كان يُغْسل من الجمعة إلى الجمعة ، ويُبَيَّنُ بشيءٍ مِن زعفران[٤] .

وعن مسلمة بن عبد الملك قال : دخلتُ على عمر ، وقميصُه وَسِخٌ ،

---

(١) الإحياء ٢٥٢/٤ .

(٢) الزهد الكبير ص١٠٠ .

(٣) الزهد الكبير ص١٠٠ - ١٠١ .

(٤) السير ١٣٢/٥ .

فقلت لامرأته - وهي أخت مسلمة -: اغسلوه . قالت : نفعل ، ثم عُدتُ ، فإذا القميص على حاله ، فقلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما له قميصٌ غيره[١] .

لله درُّك يا أشجّ بني أمية ، ومَن أولى منك بهذا ؟!

قوْمٌ إذا غَسلوا الثيابَ رأيْتَهم   لَبِسُوا البيوتَ وزرَّرُوا الأبوابا

صِلةُ بنُ أشيم العَدَويّ :

« قال صلة : طلبتُ الدنيا مَظانَّ حَلالِها[٢]، فجعلتُ لا أصيب منها إلا قُوتًا ، أمّا أنا فلا أُعيل[٣] فيها، وأمّا هي فلا تجاوزني، فلمّا رأيتُ ذلك، قلتُ : أي نفسُ ، جُعل رزقُك كَفافًا ، فاربعي[٤]. قال : فرَبَعتْ ، ولمْ تكِدّ »[٥].

محمد بن واسِع :

ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » ، في أحداث سنة ثمانٍ وتسعين (١٨٣/٩) ، في فتح يزيد بن المهلب لجرجان : « قالوا : أصاب يزيد بن المهلب أموالًا كثيرة جدًّا ، فكان من جملتها تاجٌ فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحدًا يزهد في هذا ؟ قالوا : لا نعلمه . فقال : واللهِ إني لَأَعلمُ رجلًا ، لو عُرض عليه هذا وأمثاله ، لزهِد فيه . ثم دعا بمحمد بن واسع - وكان في الجيش مغازيًا - فعرض عليه أخْذَ التاج ، فقال : لا حاجة لي فيه . فقال : أقسمتُ عليك لَتأخذنَّهُ . فأخذه ، وخرج به من عنده ، فأمر يزيدُ رجلًا أنْ يتبعَه ، فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمرَّ بسائل ، فطلب منه شيئًا ، فأعطاه التاج بكماله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج ، وعوَّضه عنه مالًا كثيرًا » .

---

(١) السير ١٣٤/٥ .

(٢) يعني : مواضع الحلال .

(٣) لا أعيل فيها : لا أفتقر .

(٤) اقتصري على هذا ، وارْضَي به .

(٥) الزهد الكبير ص١١٠ .

يزيدُ بنُ مَرْثـد ، القدوة ، الزاهـد في الرئاسـة :

عن الـوضين بن عطاء ، قال : « أراد الوليد بن عبد الملك أنْ يُولّي يزيد بن مرثد ، فبلَغ ذلك يزيدَ بن مرثد ، فلبس فروه قد قَلَبه ، فجعل الجلد على ظهره والصوفَ خارجًا ، وأخذ بيده رغيفًا وعِرقًا ، وخرج بلا رداءٍ ، ولا قلنسوةٍ ولا نعل ولا خفٍّ ، وجعل يمشي في الأسواق ، ويأكل الخبز واللحم ، فقيل للوليد : إنّ يزيد بن مرثد قد اختلطَ ، وأُخبر بما فعله ، فتركه »[1] وبعدها شُفي الشيخُ مِن الجنون .

فرضي الله عنك أيُّها البَكَّاء الموجد ، يزيد بن مرثد ! لقد نفعك التلقِّي عن أبي الدرداء ، وأبي ذر ، ومعاذ بن جبل .

إبراهيمُ بنُ أدْهَم: القدوة، الإمام، العارِفُ، سيّد الزُّهاد، أبو إسْحاق :

لله درُّ رجلٍ يصفه الذهبي بأنه « الإمام العارف ، سيد الزهاد » . زهِد في الرئاسة والجاه والمنصب ، وهو ابن الملوك .

قال إبراهيم بن أدهم : « كان أبي مِن أهل « بلخ » ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسر ، وحُبِّبَ إلينا الصيد ، فخرجتُ راكبًا فرسي ، وكلبي معي ، فبينما أنا كذلك ، فثار أرنبٌ أو ثعلبٌ ، فحركتُ فرسي ، فسمعت نداءً من ورائي : ليس لهذا خُلقتَ ، ولا بذا أُمِرْتَ . فوقفتُ أنظر يَمْنةً ويسْرةً فلا أرى أحدًا ، فقلت : لعَن الله إبليس ، ثم حرّكتُ فرسي ، فأسمعُ نداءً أجهرَ من ذلك : يا إبراهيم ، ليس لذا خلقتَ ، ولا بذا أمرتَ . فوقفتُ أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحدًا ، فقلت : لعن الله إبليس ، ثم حرّكتُ فرسي ، فأسمع نداءً من قربوس سَرْجي : يا إبراهيم ، ما لذا خُلقتَ ، ولا بـذا أمرتَ . فوقفت فقلتُ : أُنْبهتُ ، أنبهتُ ؛ جاءني نذيرٌ من رب

---

(١) حلية الأولياء ٥/١٦٥ .

العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يوْمي ذا ما عصمني ربي ، فرجعتُ إلى أهلي فخلّيتُ عن فرسي ، ثم جئتُ إلى رعاةٍ لأبي ، فأخذتُ منه جُبَّة وكساء ، وألقيتُ ثيابي إليه ، ثم أقبلتُ إلى العراق،أرضٌ ترفعني وأرضٌ تضعني ، حتى وصلتُ إلى العراق ، فعملتُ بها أيّامًا ، فلم يَصْفُ لي منها شيءٌ مِن الحلال ، فسألتُ بعض المشايخ عن الحلال ، فقالوا لي : إذا أردتَ الحلال ، فعليك ببلاد الشام . فصرتُ إلى بلاد الشام ، فصرتُ إلى مدينة يقال لها : المنصورة - وهي المصيصة - فعملتُ بها أيّامًا ، فلم يَصْفُ لي شيءٌ مِن الحلال ، فسألتُ بعض المشايخ ، فقالوا لي : إن أردتَ الحلال الصّافي ، فعليك بطرسوس ؛ فإنَّ فيها المباحات والعمل الكثير ، فتوجَّهتُ إلى طرسوس، فعملتُ بها أيّامًا أنطر[1] البساتين، وأحصد الحصاد »[2].

قال عبد العزيز بن أبي رواد : رحم الله إبراهيم بن أدهم ، لقد لقيتُه بخراسان ، إذا ركِب حضَر بين يديْه نحوٌ من عشرين شاكِرِيٍّ . ولكنه رحمه الله طلب بحبوحة الجنة[3].

« وقال خلف بن تميم : قال لي إبراهيم بن أدهم : كنتُ في بعض السواحل ، وكانوا يستخدموني ويبعثوني في حوائجهم ، وربما يتبعني الصبيانُ حتى يضربوا ساقي بالحصى ، إذْ جاء قومٌ من أصحابي فأحدقُوا بي فأكرموني ، فلما رأوْا أولئك إكرامهم لي أكرموني ، فلو رأيتموني والصبيان يرموني بالحصى ، وذلك أحلى في قلبي منهم حيث أحدقوا بي »[4].

وقال إبراهيم رحمه الله : أخاف أنْ لا أُوجَرَ في تركي أطايب الطعام ؛

---

(١) يحرس . فالناطور هو حارس البستان .
(٢) حلية الأولياء ٣٦٨/٧ .
(٣) (٤) الحلية ٣٧١/٧ .

لأني لا أشتهيهِ ، وكان إذا جلس على طعام طيِّب ، قدّم إلى أصحابه ، وقنَع بالخبز والزيتون[١] .

« وعن خلف بن تميم قال : دخل إبراهيم الجبل ، واشترى فأْسًا ، فقطع حَطَبًا ، وباعه واشتري ناطفًا[٢]، وقدّمه إلى أصحابه ، فأكلوا ، فقال يُباسِطُهم : كأنّكم تأكلون في رهْن »[٣].

« قال علي بن بكّار : كان إبراهيم من بني عجل ، كريمَ الحَسَب ، وإذا حصد ارتجز ، وقال :

اتخِذِ اللهَ صاحبًا ودعِ الناسَ جانبًا

وكان يلبَس فروًا بلا قميص ، وفي الصيف شَقَّتَيْن بأربع دراهم ؛ إزار ورداء ، ويصومُ في الحَضَر والسفر ، ولا ينام الليل ، وكان يتفكّر ، ويقبض أصحابُه أجرته ، فلا يمسّها بيده ، ويقول : كُلُوا بها شهواتكم . وكان ينطر[٤]، وكان يطحن بيدٍ واحدة مُدَّيْنِ من قمح » .

هذا زهد الرباني إبراهيم بن أدهم ، الذي قال عنه سفيان الثوري : « كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيمَ الخليل ، ولو كان في الصحابة ، لكان رجلًا فاضلًا »[٥].

وقال إبراهيم بن بشار : كنتُ مع إبراهيم بن أدهم ، فأتينا على قبر مُسَنَّمٍ ، فترحّم عليه ، وقال : هذا قبر حُمَيْد بن جابر ، أمير هذه المدن كلها ، كان غارقًا في بحار الدنيا ، ثم أخرجه الله منها ، بلغني أنه سُرّ ذات

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٣٩١ - ٣٩٢ .

(٢) الناطف : ضرب من الحلوى ، يُصنع من اللوز والجوز والفستق .

(٣) السير ٧/٣٩٢ .

(٤) كذا عمل بالنطارة سفيان الثوري .

(٥) السير ٧/٣٩٠ .

يوم بشيءٍ ، ونام ، فرأى رجلًا بيده كتابٌ ، ففتحه ، فإذا هو كتابٌ بالذهب : لا تُؤثِرَنَّ فانيًا على باقٍ ، ولا تَغترنَّ بملكِكَ ، فإنّ ما أنت فيه جسيمٌ ، لولا أنه عديمٌ ، وهو مُلكٌ لولا أنّ بعده هُلكًا ، وفرحٌ وسرورٌ لولا أنه غرورٌ ، وهو يومٌ ، لو كان يُوثق له بغَدٍ ، فسارعْ إلى أمر الله ، فإنَّ الله قال : ﴿ **وَسَارِعُوا إلى مغفرةٍ منْ ربِّكُمْ وجنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرض أُعدَّتْ للمتقين** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . فانتبَه فَزِعًا وقال : هذا تنبيهٌ من الله وموعظة . فخرج من ملْكه وقصَد هذا الجبل ، فعبَد اللهَ فيه حتى مات[١] .

« قال إبراهيم بن بشّار الصُّوفي : خرجتُ أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي ، وأبو عبد الله السنجاري ، نريدُ الإسكندرية ، فمررنا بنهرٍ يقال له: «نهر الأردن»، فقعدنا نستريحُ، وكان مع أبي يوسف كُسَيْراتٌ يابساتٌ، فألقاهنَّ بين أيدينا ، فأكلنا وحمدنا الله ، فقمتُ أسعى أتناول ماءً لإبراهيم ، فبادَر إبراهيم ، فدخل النهر ، حتى بلغ الماءُ ركبتَيْه ، فقال بكفَّيْه في الماء فملأهما ، ثم قال : بسم الله . وشرب ، فقال : الحمد لله . ثم إنه خرج من النهر ، فمدّ رجْلَيه ، قال : يا أبا يوسف ، لو عَلِم الملوك وأبناءُ الملوك ، ما نحن فيه من النعيم والسرور ، لجالدُونا بالسيوف أيام الحياة ، على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلَّة التعب ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، طلَب القومُ الراحةَ والنعيم ، فأخطئوا الطريق المستقيم . فتبسم ، ثم قال : من أين لك هذا الكلام ؟ »[٢] .

« وقال إبراهيم بن بشار : أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذاتَ ليلة ، وليس معنا شيءٌ نُفطر عليه ، ولا لنا حيلة ، فرآني مُغتمّا حزينًا ، فقال : يا إبراهيم ابن بشار : ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين ، مِن النعيم والراحة في الدنيا

---

(١) السير ٣٩٥/٧ .

(٢) الحلية ٣٧١/٨ ، وصفة الصفوة ١٢٧/٤ ، والزهد الكبير ص١٠٨ ، واللفظ له.

والآخرة ، لا يسألهم يومَ القيامة عن زكاة ولا حجٍّ ، ولا عن صدقةٍ ، ولا عن صلةِ رحِمٍ ، ولا عن مؤاساة ، وإنما يُسأل ويحاسَبُ على هذا هؤلاء المساكين ، أغنياءُ في الدنيا فقراءُ في الآخرة ، أعزّةٌ في الدنيا أذلّةٌ يوم القيامة . لا تغتمَّ ولا تحزنْ ؛ فرزقُ الله مضمونٌ ، سيأتيك . نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجّلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أيِّ حالٍ – أصبحنا وأمسينا – إذا أطعَمَنا اللهُ . ثم قام إلى صلاته وقمتُ إلى صلاتي ، فما لبثْنا إلّا ساعة ، فإذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفةٍ وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا ، فقال : كُلوا ، رحمكم الله . قال : فسلّم ، ثم قال : كُلْ يا مغموم . فدخل سائلٌ فقال : أطعِموني شيئًا . فأخذ ثلاثة أرغفةٍ مع تمرٍ، فدفعه إليه، وأعطاني ثلاثة، وأكل رغيفين ، وقال: المؤاساة من أخلاق المؤمنين »[1] .

بشر بن الحارث الحافي :

قال عنه الذهبي في السير (٤٦٩/١٠) : « الإمام العالم المُحدِّث الزَّاهد الربَّاني القدوة شيخ الإسلام أبو نصرٍ المروزي » .

وقال أبو نعيم عن بشر : « المكتفي بكفاية الكافي ، اكتفى فاشتَفى » .

قال بشر رحمه الله : « قل لمن طَلَب الدنيا تَهيَّأْ للذُّل » .

وقال رحمه الله : « لو سقطتْ قلنسوةٌ من السماء ، ما سقطتْ إلا على رأس من لا يريدها »[2].

وكان الإمام أحمد إذا سُئل عن الزهد،فيقول : أتسألوني عن الزهد وفيكم بشر ؟!

---

(١) الزهد الكبير ص١٠٨ ، والحلية ٣٧٠/٩ .

(٢) الحلية ٣٥٥/٨ .

« أقام بشر رحمه الله بعبَّادان ، يشربُ ماء البحر ، ولا يشرب من حياض السلطان ، حتى أضرَّ بجوفه ، ورجع إلى أخته وجعًا ، وكان يعمل المغازل ويبيعها ، فذاك كسبه »[١] .

وكان رحمه الله يمشي حافيًا ويقول : الأرض بساطة .

« وقيل لأحمد : مات بشر . قال : مات والله وما له نظيرٌ ، إلّا عامر ابن عبدِ قيس ، فإنَّ عامرًا مات ولم يترك شيئًا . ثم قال أحمد : لو تزوج »[٢] .

قال بشر رحمه الله : مساكين أهل الدنيا ، هُمْ والله مَوْضعُ رحمةٍ .

« وقال بشر : ليس الزُّهد في الدنيا ترك الدنيا ، إنما الزهد أن يُزهد في كلِّ ما سوى الله . هذا داود وسليمان عليهما السلام قد مَلَكَا الدنيا ، وكانا عند الله من الزاهدين .

إنْ لم يكن داود النبي زاهدًا فمن يكون ؟! وقد كان مع مُلْكه يَأْكُلُ من عمل يده » .

وقال بشر : قال فضيل بن عياض : يا بشر ، الرِّضاء الأكبر عن الله عز وجل الزهدُ في الدنيا . قال : قلت : كيف هذا يا أبا علي ؟ قال : يكون العطاءُ في قلبك والمنعُ بمنزلةٍ واحدة .

سفيان الثوري :

قال الذهبي في السير (٧/٢٤١) : « قد كان سفيان رأسًا في الزهد ، والتَّألُّه والخوف » .

قال حفص بن غياث : كنا نتعزَّى عن الدنيا بمجلس سفيان .

---

(١) السير ١٠/٤٧١ .

(٢) السير ١٠/٤٧٤ .

وقال سفيان رحمه الله : وجدتُ قلبي يَصْلح بين مكة والمدينة ، مع قوم غرباء أصحاب صوفٍ وعباء[١] .

وقال رحمه الله : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وأول ذلك زهدك في نفسك[٢].

وقال رحمه الله : ما أنفقتُ درهمًا في بناءٍ[٣].

قال يحيى بن يمانٍ : ما رأيت مثل سفيان ! أقبلتِ الدنيا عليه ، فصرف وَجْهَه عنها .

وعن ابن مهدي قال : قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه ، فأجَّر نفسه لحفظ ثماره ، فمرّ به بعض العشّارين ، فقال : من أنت يا شيخ ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : أَرُطبُ البصرة أحلى أم رطب الكوفة ؟ قال : لم أذق رطب البصرة . قال : ما أكذبك ! البرُّ والفاجر والكلاب يأكلون الرطب الساعة . ورجع إلى العامل ، فأخبره ليُعجبه ، فقال : ثكلتك أمك ! أَدْرِكْه ، فإن كنت صادقًا ، فإنه سفيان الثوري ، فخُذْه لتتقرَّبَ بِهِ إلى أمير المؤمنين . فرجع في طلبه فما قدر عليه[٤] .

لله دَرُّك يا إمام من زاهدٍ ومن وَرِعٍ .

عن يوسف بن أسباط ، سمعت سفيان يقول : « ما رأيتُ الزهد في شيءٍ أقلّ منه في الرِّئاسة ؛ ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإن نُوزع الرئاسة حامى عليها وعَادى »[٥].

---

(١) (٢) السير ٢٦٨/٧ ، والحلية ٦٩/٧ .

(٣) السير ٢٥٧/٧ .

(٤) السير ٢٥٨/٧ .

(٥) السير ٢٦٢/٧ .

وعن وكيعٍ قال : قال سفيان الثوري : الزُّهد في الدنيا قِصَرُ الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا لبس العبا .

وعن بشر بن الحارث قال : قيل لسفيان الثوري : أيكون الرجل زاهدًا ويكون له المال ؟ قال : نعم . إذا ابتُلِيَ صبر ، وإذا أُعطِيَ شكر .

وقال سفيان في قوله تعالى : ﴿ **لِيَبْلُوكُم أيُّكم أحسن عملا** ﴾ : الزهد في الدنيا .

قال بعضهم : قوَّمتُ ثوبيْ سفيان ونعليْه بدرهمٍ وأربعة دوانق .

أبو معاوية الأسود :

قال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخِرَقَ من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها . فقلت : إنك تُكسي خيرًا من هذا !! فقال : ما ضرّهم ما أصابهم في الدنيا ، جَبَرَ الله لهم بالجنة كلَّ مصيبة . فجعل يحيى بن معين يحدِّث بها ويبكي[1] .

اللهَ اللهَ ... ولِمَ لا يبكي يحيى ، رقيق القلب ... وهو يرى قولًا يُصَدقه العملُ ... وهو يرى الزُّهد في كماله ... وجواهرَ الكَلِم تخرج من الأفواه الطَّاهرة لساداتٍ عن الدنيا مسافرة ، ولدارِ الآخرة دومًا راحلة .. وخلَّفوا وراءهم قومًا يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويهملجون بالبراذين كلاب الأماني .. أصبح دينُ أحدهم لَعْقةً على لسانه ؛ يقول : أومن بيوم القيامة ، وكَذبَ ومَالكِ يوم الدين ..

معروف الكرخي :

عن الفاني مصروف، وبالباقي مشغوف، وبالتُّحَف محفوف، الكرخي أبو محفوظ معروف .

---

(١) الإحياء ٤/٢٤٩ .

قال عنه الذهبي في « السير » (٩/٣٣٩) : « عَلَم الزُّهّاد ، بركة العصر » .

« قال إسماعيل بن شدّاد : قال لنا سفيان بن عيينة : ما فعل ذلك الحَبْر الذي فيكم ببغداد ؟ قلنا : من هو ؟ قال : أبو محفوظ معروف . قلنا : بخير . قال : لا يزال أهل تلك المدينة بخيرٍ ما بقي فيهم »(١) .

قال أبو بكر الزَّجَّاج : قيل لمعروف الكرخي في علَّته : أوصِ . فقال : إذا متُّ فتصدّقوا بقميصي هذا ، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا ، كما دخلت إليها عريانًا .

والله هذه الغاية التي تقصر دونها همم الرجال ... فكيف بلغها معروف وطار بسبقها .

وإن كان الزهد هو قصر الأمل ، فقد كان معروف رأسًا في قصر الأمل .

« قال أحمد بن إبراهيم الدورقي : حضرت الصلاة فقال معروف لأبي نوبة : صلِّ بنا ، فقال : إن صلّيتُ بكم هذه الصلاة ، لا أُصلّي بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تُحدِّث نفسك أن تصلي صلاةً أُخرى ، نعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل »(٢) .

الإمام الزاهد شيخ خراسان ، شقيق البَلْخي : الرائد العقيق ، الزاهد الحقيق ، أبو عليٍّ البلخي شقيق :

قال علي بن محمد بن شقيق : كان لجدي ثلاثمائة قرية ، ثم يوم قتل بواشكرد لم يكن له كفن يكفَّن فيه ، قدَّمه كلَّه بين يديه . قال : وقد كان

---

(١) الحلية ٨/٣٦٦ ، وتاريخ بغداد ١٣/٢٠١ ، والسير ٩/٣٤٠ .

(٢) الزهد الكبير ص٢٣٧ .

خرج إلى بلاد الترك لتجارةٍ وهو حَدَث ، إلى قومٍ يقال لهم « الخصوصيّة » وهم يعبدون الأصنام ، فدخل إلى بيت أصنامهم ، وعالمهم فيه حَلَق رأسه ولحيته ، ولبس ثيابًا حمراء أُرجُوانِيَّة ، فقال له شقيق : إن هذا الذي أنت فيه باطل ، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلْق خالق وصانع ليس كمثله شيء ، له الدنيا والآخرة ، قادر على كل شيء ، رازق كل شيء . فقال له الخادم : ليس يُوافق قَوْلَك فِعْلُك . فقال له شقيق : كيف ذاك ؟ قال : زعمت أن لك خالقًا رازقًا قادرًا على كل شيء ، وقد تغيَّبتَ إلى هاهنا لطلب الرزق ، ولو كان كما تقول ، فإن الذي رزقك هاهنا هو الذي يرزقك ثمَّ ، فتربح العَنَا . قال شقيق : وكان سبب زهدي كلام التُّرْكِيّ . فرجع فتصدّق بجميع ما ملك ، وطلبَ العلم[١] .

« وعن شقيق قال : كنتُ شاعرًا فرزقني الله التوبة ، وخرجت من ثلاثمائة ألف درهم ، ولبست الصوف عشرين سنة ، ولا أدري أني مُراءٍ ، حتى لقيت عبد العزيز بن أبي روَّاد ، فقال : ليس الشأن في أكْل الشعير ولُبس الصوف ، الشأن أن تعرف الله بقلبك ، ولا تُشرك به شيئًا ، وأن ترضى عن الله ، وأن يكون بما في يد الله أوْثَق منك بما في أيدي الناس »[٢] .

عن شقيق قال : أخذت لباس الدُّون عن سفيان ، وأخذت الخشوع من إسرائيل ، وأخذت العبادة من عبَّاد بن كثير ، والفقه من زُفَر[٣] .

وقال رحمه الله : سبعة أبواب يُسلك بها طريق الزُّهّاد : الصبر على الجوع بالسرور لا بالفتور ، بالرضا لا بالجزع ، والصبر على العُري بالفرح

(١) حلية الأولياء ٥٩/٨ ، والسير ٣١٣/٩ .
(٢) حلية الأولياء ٥٩/٨ ، والسير ٣١٤/٩ .
(٣) السير ٣١٥/٩ .

لا بالحزن ، والصبر على طول الصيام بالتفضل لا بالتَّعسُّف ، كأنه طاعِمٌ ناعِم ، والصبر على الذُّل بطيب نفسه لا بالتكرُّه ، والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط ، وطول الفكرة فيما يُودع بطنه من المطعم والمشرب ، ويكسو به ظهره : من أين ، وكيف ، ولعلَّ ، وعسى . فإذا كان في هذه الأبواب السبعة ، فقد سلك صدرًا من طريق الزهاد ، وذلك الفضل العظيم .

وقال رحمه الله : « ثلاث خصال هي تاج الزاهد ؛ الأولى : أن يميل على الهوى ولا يميل مع الهوى . والثانية : ينقطع الزاهد إلى الزهد بقلبه . والثالثة : أن يذكر كلَّما خلا بنفسه كيف مدخله في قبره ، وكيف مخرجه ، ويذكر الجوع والعطش والعري ، وطول القيامة والحساب والصراط ، وطول الحساب والفضيحة البادية ، فإذا ذكر ذلك شَغَلَه عن ذِكْر دار الغرور . فإذا كان ذلك ، كان من مُحِبِّي الزُّهّاد ، ومن أحبهم كان معهم » .

وكان رحمه الله يقول : « كما لا يُطالبكم بصلاة غدٍ ، فلا تطلبوا منه رزق غدٍ ، عسى أن لا تصيروا إلى غد »[١] .

« وقال الحاكم : قدم شقيقٌ نيسابور في ثلاثمائةٍ من الزُّهّاد ، فطلب المأمون أن يجتمع به ، فامتنع » .

وهذا (**حاتم الأصمّ**) : « يدخل على محمد بن مقاتل قاضي الرّيّ وهو عليل ، فإذا دار نور ، وأمتعة وستور ، وجمع ، وإذا فُرُشٌ وطيئة ، فقال له : في ما أدَّاه جبريل عن الله ، وأدّاه إلى رسول الله ﷺ ، وأدّاه رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، وأدّاه أصحابه إلى الثقات ، وأدّاه الثقات إليك ،

---

(١) السير ٩/٣١٥ .

هل سمعت في العلم مَنْ كان في داره أمير أو منعة أكثر ، كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟ قال : لا . قال : فكيف سمعت من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحبَّ المساكين وقدَّم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة أكثر ؟ قال حاتم : فأنت بمن اقتنعتَ ؟ بالنبي ﷺ وأصحابه والصالحين ؟ أم بفرعون ونمرود أوَّل مَنْ بنى بالجصّ والآجُرّ ، يا علماء السوء مِثْلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا ، الراغب فيها ، فيقول : العالم على هذه الحالة ، لا أكون أنا شرًّا منه . وخرج من عنده ، فازداد ابنُ مقاتل مرضًا . فبلغ ذلك أهل الرّيّ ، ما جرى بينه وبين ابن مقاتل ، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، إن الطنافسي بقزوين أكثر شيء من هذا . قال : فسار إليه متعمِّدًا فدخل عليه ، فقال له : رحمك الله ، أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني أوّل مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي ، وكيف أتوضّأ للصلاة . قال : نعم وكرامة ، يا غلام ، إناء فيه ماء . فأتي بإناءٍ فيه ماء ، فقعد الطنافسي فتوضّأ ثلاثًا ثلاثًا ثم قال : يا هذا ، هكذا تتوضأ . قال حاتم : مكانك - يرحمك الله - حتى أتوضأ بين يديك ، فيكون أوْكَد لما أريد . فقام الطنافسي فقعد حاتم فتوضأ ثلاثًا ثلاثًا ، حتى إذا بلغ غسْل الذراعين ، غسل أربعًا ، فقال له الطنافسي : يا هذا ، أسرفتَ . قال له حاتم : فبماذا ؟ قال : غسلتَ ذراعيك أربعةً . فقال حاتم : يا سبحان الله !! أنا في كفٍّ من ماءٍ أسرفت ، وأنت في هذا الجمْع كلِّه لم تُسرف ؟!! فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك . ولما دخل إلى المدينة المنورة استقبله أهل المدينة ، فقال : يا قوم أيّ مدينةٍ هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله ﷺ . قال : فأين قصر رسول الله ﷺ فأُصلِّي فيه ركعتين ؟ قالوا : ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطيء. قال : فأين قصور أصحابه بعده ؟ قالوا : ما كان لهم قصور ، إنما كانت لهم بيوت لاطئة . قال حاتم : يا قوم ، هذه مدينة فرعون وجنوده . فذهبوا به إلى السلطان فقالوا : هذا العجمي يقول : هذه مدينة فرعون وجنوده .

قال الوالي : ولم ذاك ؟ قال حاتم : لا تعجل عليَّ ، أنا رجل أعجمي غريب ، دخلتُ المدينة فقلت : مدينة من هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله ﷺ . قلت : فأين قصر رسول الله ﷺ فأصلي فيه ركعتين ؟ قالوا : ما كان له قصر ، إنما كان له بيتٌ لاطىء . قلت : فلأصحابه بعده . قالوا : ما كان لهم قصور ، إنما كانت بيوتهم لاطئة . وقال الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١] فأنتم بمن تأسَّيْتم ؛ برسول الله ﷺ وأصحابه ، أو بفرعون أوَّل من بنى بالجصِّ والآجرّ ؟!! فخلّوا عنه وعرفوه »[١] .

فلله دَرُّ حاتم من فقيه دعوةٍ ومربي رجالٍ .

الخليل بن أحمد الفراهيدي :

قال عنه الحافظ الذهبي : « وهو معدود من الزُّهّاد . كان يقول : إني لأُغلق عليّ بابي فما يجاوزه همّي » .

وقيل : كان متقشِّفًا متعبِّدًا .

قال النضر : أقام الخليل في خصٍّ له بالبصرة لا يقدر على فلسين ، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال ، وكان كثيرًا ما ينشد :

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ ... ذُخْرًا يكون كصالح الأعمالِ[٢] .

وقال رحمه الله :

حَسْبُك مِن دهرِكَ هذا القُوتُ ... ما أَكْثَرَ القوتَ لمَنْ يموتُ[٣] .

الإمام الوليّ أبو داود عمر بن سعد الحفري :

« قال وكيع بن الجرَّاح : « إنْ كان يُدفع بأحدٍ في زماننا ، فبأبي داود

---

(١) الحلية ٨/٨٠ - ٨٢ .
(٢) السير ٧/٤٣٠ ، ٤٣١ .
(٣) الزهد الكبير ص١١٠ .

الحفري » .

أبطأ يومًا في الخروج إلى الجماعة ، ثم خرج فقال : أعتذرُ إليكم ، فإنه لم يكن لي ثوبٌ غير هذا ، صلَّيتُ فيه ، ثم أعطيته بناتي حتى صَلَّيْن فيه ، ثم أخذتُه وخرجتُ إليكم .

قال محمد بن عبد الرحمن الجوهري : « رأيتُ أبا داود الحفري ، وكان لا يُرى أديمُ جسده من الشعر ، وعليه خِرقتان : إزار ورداء فيه عدَّة رِقاعٍ » .

تزوّج أبو داود بامرأةٍ فأصدقها ثلاثة دنانير ، وكان قُوته كلَّ ليلةٍ قرصين وبِفِلْسٍ فجل أو هِنْدِبا .

قال أبو حمدون الطّيِّب المقرىء : دفنَّا أبا داود الحفري رحمه الله ، وتركنا بابه مفتوحًا ، ما كان في البيت شيء »[1].

الإمام أحمد بن حنبل :

حَمَى نَفْسَهُ الدنيا وقد سنحتْ له فمنزلُه إلَّا مِنَ القُوتِ مُقْفِرُ

رحم الله إمام أهل السنة وزاهدهم ، القائل : عزيزٌ عليَّ أن تذيب الدنيا أكبادَ رجالٍ وعتْ صدورُهم القرآن[2].

وقال رحمه الله : ما أعدلُ بفضل الفقر شيئًا ، تدري إذا سألك أهلُك حاجةً لا تقدر عليها ، أيّ شيءٍ لك من الأجر[3].

خرج - رحمه الله - وهو إمام الدنيا إلى عبد الرزاق فانقطعتْ به النفقة ؛ فأكْرَى نَفْسَه من بعض الحمّالين إلى أن وافى صنعاء .

وكان رحمه الله ربما احتاج ، فنسخ بأُجرة . وربما احتاج ، فخرج إلى اللّقاط ؛ أي المزارع بعد استئذان أصحابها ؛ ليلتقط السّنبل الذي تخطئه

(١) السير ٩/٤١٦ - ٤١٧ ، وتهذيب الكمال .
(٢) مناقب الإمام أحمد ص٢٥٩ .
(٣) المناقب ص٢٥٧ .

المناجل .

قال رحمه الله : قد خرجت إلى طرسوس على قدمي ، وقد كنّا نخرج في اللّقاط[١] .

ورَهَن إمامُ الدنيا نعلَهُ عند خبّازٍ ، على طعامٍ أخذه منه عند خروجه من اليمن ؛ قال بحر البقّال - وكان من قرية عبد الرزاق -: كان عندنا ها هنا ، فلمّا خرج أصحابه تخلَّف من بعدهم ، فمرَّ بي فقال : يا بحر ، لك عندي درهم ، خُذ هذه النعل ، فإن بعثت إليك من صنعاء بالدرهم ، وإلَّا فالنَّعل لك ، أرضيتَ ؟ قلت : نعم . ومضى[٢] .

قال سليمان بن الأشعث : ما رأيت أحمد بن حنبل ذَكَرَ الدنيا قطُّ .

وقال عبد الله بن عبد الرحمن : أحمد بن حنبل صبر على الفقر سبعين سنة .

وقال ابنُ أبي القدور أبو جعفر القطان : كان أيامَ الغلاء يجيئني أبو عبد الله بغزْلٍ ويستره ، أبيعه ، فكنت ربما بعتُه بدرهم ونصف ، وربما بعته بدرهمين ، فتخلّف يومًا ، فلمّا جاء قلت : يا أبا عبد الله ، لم تجيء أمس . فقال : أُمّ صالحٍ اعتلَّتْ.ودفع إليَّ غزلًا ، فبعته بأربعة دراهم ، فجئت بها فأنكر ذلك وقال : لعلّك زِدتَ فيه من عندك ؟ قلت : لا ؛ ما زدتُ فيه من عندي ، كان غزلًا دقيقًا[٣] .

وقال صالح : واشتريتُ جاريةً ، فاشتكتْ إليه أهلي ، فقال : قد كنتُ أكره لهم الدنيا ، وقد بلغني عنك الشيء . فقالت له : يا عمّ ، ومَنْ يكره الدنيا غيرُك . قال لها : فشأنُكِ إذَنْ .

---

(١) المناقب ص٢٨٩ - ٢٩١ .

(٢) المناقب ص٢٩٢ .

(٣) المناقب ص٣١١ .

وقال أبو بكر المروزي : رأيت أحمد بن عيسى المصري ومعه قوم من المحدِّثين ، دخلوا على أبي عبد الله ونحن بالمعسكر ، فقال له أحمد ابن عيسى : ما هذا الغمُّ يا أبا عبد الله ؟! الإسلام حنيفيَّةٌ سمحة ، بيتٌ واسع . فنظر إليهم وكان مضطجعًا ، فلمّا خرجوا قال لي : انظر إلى هؤلاء ، ما أريد أن يدخل عليَّ منهم أحدٌ .

وقال إسحاق بن هانيء النيسابوري : قال لي أبو عبد الله : بكِّر يومًا حتى تعارضني بشيءٍ من الزهد . فبكّرتُ إليه ، وقلت لأُمّ ولده : أعطني حصيرًا ومخدَّة . فبسطتُه في الدّهليز ، فخرج أبو عبد الله ومعه الكتب والمحبرة ، فنظر إلى الحصير والمخدة فقال : ما هذا ؟ فقلت : لتجلس عليه . فقال : ارفعْه ، الزهد لا يحسُن إلَّا بالزهد . فرفعتُه ، وجلس على التراب[1] .

وقال الإمام أحمد لشجاع بن مخلد العطار : يا أبا الفضل ، إنما هو طعامٌ دُونَ طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

وقال رحمه الله : أَسَرُّ أيامي إليَّ يوم أُصبح وليس عندي شيء .

أمَّا بيت أحمد ، فكان كبيتِ سويد بن غفلة ، كما قال ابن المديني .

قال عبد الملك الميموني : كان منزل أبي عبد الله ضيِّقًا صغيرًا ، وقد رأيتُ موضع مضجعه ، وفيه شَاذَكونة وبرذعة[2].

وقال الحسن بن محمد بن الحارث : دخلت دار أحمد فرأيت في بهوه حصيرًا خَلِقًا ومسورة ، وكتبه مطروحة حواليه ، وحُبّ خزف .

وقال أبو داود : رأيت لبابِ دار أبي عبد الله سترًا خلقًا ملبّدًا ، ورأيت بقُربه شيئًا نحوًا مما تُعلّق به الأداوى في الأسفار ، عليه عدَّة

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٣١٢ - ٣١٣ .

(٢) مناقب الإمام ص٣١٦ .

قلال[١] .

وقال محمد بن موسى : كان باب أبي عبد الله بابًا كبيرًا من لبن ، ثم جئت بعدُ وعلى الباب ستر شعر .

وقال أحمد بن الحسن : دخلت على أبي عبد الله غير مرةٍ وهو متربِّع ، بين يديه كانون من طين ، وله ثلاث قوائم فيه جمر ، وتحته لبيدٌ له[٢] .

وقال صالح بن أحمد : كان أبي كثيرًا ما يأتدِم بالخلّ ، وكان يُشترى له شحم بدرهم ، فكان يأكل منه شهرًا[٣] .

وقال أبو بكر المروزي : قال لي النيسابوريُّ – صاحبُ إسحاق بن إبراهيم –: قال لي الأمير : إذا جاءوا بإفطاره فأرنيه . قال : فجاءوا برغيفين خبز وخيارة ، فأريته الأمير ، فقال : هذا لا يُجيبنا[٤] إن كان هذا يُقنعه[٥] .

وقال إمام الزُّهّاد أحمد بن حنبل : قد وجدت البرد في أطرافي ، ما أراه إلّا من إدامي؛أكل الخلّ والملح .

أمَّا لباسه : فقال حميد بن زنجويه : رأيت على أحمد بن حنبل جُبّة خضراء ، فيها رقعة بيضاء من صوف .

وقال حمدان بن علي : رأيت على أبي عبد الله جبة وعليها رقعة بغير لونها .

وقال المروزي : أراد أبو عبد الله أن يرقِّع قميصه ، فلم يكن عنده رقعة ، فقال : أُرقّعه من إزاري . فقطعنا من إزاره فرقّعناه ، ولقد احتاج

---

(١) المناقب ص٣١٦ .
(٢) المناقب ص٣١٧ .
(٣) المناقب ص٣١٨ .
(٤) أي إلى القول بخلق القرآن .
(٥) المناقب ص٣١٨ .

غير مرةٍ إلى خرق ، فكان يقطع من إزاره ، وأعطاني خُفًّا له لأرمّه ، قد لبسه سبع عشرة سنة ، فإذا خمسة مواضع ، أو ستة مواضع ، الخَرْز فيه من بَرًّا .

وقال أبو بكر المروزي : استعمل لأبي عبد الله خُفّ ، فجئته به فبات عنده ليلة ، فلما أصبح قال : تفكّرت في أمر هذا الخفّ – أراه قال : عامَّة الليل – قد شغل عليّ قلبي قد عزم لي أن لا ألبسه ، كم ترى بقي ؟ الذي مضى أكثر مما بقي . فدفع إليَّ خُفًّا له خَلقًا ، فقال : اضرب على هذا الخف ، وسدّد خروقه . ثم قال : تدري منذ كم هذا الخف عندي ؟ نحو من ست عشرة سنة ، وإنما صار إليّ وهو لبيس ، وهذا قد شغل قلبي – يعني الجديد –[١] .

رحم الله ابن حنبل ، وأيّ أمره لم يكن فوق الغريب .

قال حسن بن يسار : دخلت على أحمد بن حنبل وأنا صبيٌّ مع أستاذي ، يُجصِّص له بيتًا ، فقال له أحمد : جصِّصه باليد ولا تمسحه بالمالَج[٢]. ثم فرشناه بالطوابيق ، فلمّا فرغنا استحسنه وقال : هذا نظيف يُصلّي عليه الرجل وليس فيه بارِيَّة ولا حصير . ودفع إليَّ كفّ تمرٍ[٣] .

قال صالح : قال لي أبي : جاءني أمس رجل كنت أحب أن تراه ، بينا أنا قاعد في نحر الظهيرة ، إذا برجل سلّم بالباب ، فكأن قلبي ارتاح ، ففتحت فإذا أنا برجل عليه فروة ، وعلى رأسه خرقة ، ما تحت فَرْوِه قميص ، ولا معه ركوة ، ولا جراب ولا عكّاز ، قد لوّحَتْهُ الشمس ، فقلت : ادخل . فدخل الدّهليز ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من ناحية المشرق

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) المالج : الذي يطيَّن به .

(٣) مناقب الإمام ص٣١٦ .

أريد الساحل ، ولولا مكانك ما دخلتُ هذا البلد ؛ نويتُ السلام عليك . قلت : على هذه الحال ؟! قال : نعم ، ما الزهد في الدنيا ؟ قلت : قصر الأمل . قال : فجعلت أعجب منه ، فقلتُ في نفسي : ما عندي ذهب ولا فضة . فدخلتُ البيت ، فأخذت أربعة أرغفة ، فخرجت إليه فقال : أوَ يسرُّك أن أقبل ذلك يا أبا عبد الله ؟ قلت : نعم . فأخذها فوضعها تحت حِضنه ، وقال : أرجو أن تكفيني إلى الرَّقَّة ، أستودعك الله . فكان يذكره كثيرًا .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي - وذَكَرَ الدنيا - فقال : قليلها يُجزىء ، وكثيرها لا يُجزىء . وقال أبي - وقد ذُكر عنده الفقر - فقال : الفقر مع الخير .

وقال صالح : ربما رأيت أبي يأخذ الكِسَر ، ينفض الغبار عنها ، ويصيِّرها في قصعةٍ ويصبُّ عليها ماءً ، ثم يأكلها بالملح . وما رأيته اشترى رمّانًا ولا سفرجلًا ، ولا شيئًا من الفاكهة ، إلّا أن تكون بِطِّيخة فيأكلها بخبزٍ ،وعنبًا وتمرًا .

وقال أبي : كانت والدتك في الظلام تغزل غزْلًا دقيقًا ، فتبيع الأستار بدرهمين ، أقلّ أو أكثر ، فكان ذلك قُوتنا ، وكنّا إذا اشترينا الشيء نستره عنه كي لا يراه فيوبِّخنا ، وكان ربما خُبز له ، فيجعل في فخّارة عدسًا وشحمًا وتمرات شهريز،فيجيء الصِّبيان فيصوّت ببعضهم فيدفعه إليهم ، فيضحكون ولا يأكلون ، وكان يأتدم بالخل كثيرًا .

قال : وقال أبي : إذا لم يكن عندي قطعة ، أفرح .

رحمك الله يا إمام أهل السنة .. حتى الصِّبيان يعافون أكلك ، ويضحكون أن قدّمتَ لهم مثل هذا الطعام .

« قال صالح : وكان ربما خرج إلى البقّال ، فيشتري الجُرْزة

الحطب والشيء فيحمله بيده »[١] .

قال المروزي : قدم رجل من الزُّهّاد ، فأدخلته على أحمد وعليه فرو خَلَق ، وخُريقة على رأسه ، وهو حافٍ في بردٍ شديدٍ ، فسلّم وقال : يا أبا عبد الله قد جئت من موضعٍ بعيد ، وما أردت إلّا السلام عليك ، وأريد عبادان ، وأريد إن أنا رجعت أُسلّم عليك . فقال : إنْ قُدِّر . فقام الرجل وسلّم وأبو عبد الله قاعد ، فما رأيت أحدًا قام من عند أبي عبد الله حتى يقوم هو إلّا هذا الرجل ، فقال لي أبو عبد الله : ما ترى ، ما أشبهه بالأبدال . أو قال : إني لأذْكُر به الأبدال . وأخرج إليه أبو عبد الله أربعة أرغفة مشطورة بكامَخ وقال : لو كان عندنا شيء لواسيناك[٢] .

قال الإمام أحمد : الزهد في الدنيا قصر الأمل .

وعنه رواية أخرى : أنه عَدَمُ فَرَحِه بإقبالها ، ولا حزنه على إدبارها ، فإنه سُئل عن الرجل يكون معه ألف دينار ، هل يكون زاهدًا ؟ قال : نعم ، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت[٣] .

محمد بن أسلم الطوسي :

قال الحاكم : قام محمد بن أسلم مقام وكيع ، وأفضل من مقامه ؛ لزهده وورعه وتتبُّعه للأثر .

قال محمد بن القاسم : سمعت أبا يعقوب المروزي ببغداد وقلت له : قد صحبتَ محمد بن أسلم وأحمد بن حنبل ، أيّهما كان أرجح وأكبر وأبْصَر بالدين ؟ فقال : يا أبا عبد الله ، لِمَ تقول هذا ؟! إذا ذكرتُ محمدًا في

---

(١) السير ١١/٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٢) السير ١١/٢١٠ .

(٣) مدارج السالكين ٢/١١ .

أربعة أشياء فلا تقرن معه أحدًا : البصر بالدين ، واتّباع الأثر ، والزهد في الدنيا ، وفصاحته بالقرآن والنحو .

وقال محمد بن القاسم : دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور ، فقال : يا أبا عبد الله ، تعال أُبشِّرك بما صنع الله بأخيك من الخير ، قد نزل بي الموت ، وقد منَّ الله عليَّ أنه ما لي درهم يحاسبني الله عليه . ثم قال : أغْلِق الباب ، ولا تأذن لأحدٍ حتى أموت ، وتدفنون كتبي ، واعلم أني أخرج من الدنيا ، وليس أَدَع ميراثًا غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه ، وكتبي هذه ، فلا تكلّفوا الناس مُؤْنَة . وكان معه صرّة فيها نحو ثلاثين درهمًا ، فقال : هذا لابني ، أهداه قريبٌ له ، ولا أعلم شيئًا أحلّ لي منه ؛ لأن النبي ﷺ قال : « أنت ومالك لأبيك » ، وقال : « أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإنَّ ولده من كسبه » ، فكفِّنوني منها ، فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر ، وابسطوا على جنازتي لبدي ، وغطُّوا عليها كسائي ، وأعطوا إنائي مسكينًا .

وقال أيضًا : كان يقول لي : اشتر لي شعيرًا أسود فإنه يصير إلى الكنيف ، ولا تشتر لي إلّا ما يكفيني يومًا بيوم . واشتريت له مرّة شعيرًا أبيض ، ونقّيْته وطحنته ، فرآه فتغيّر لونه فقال : إنْ كنتَ تنوّقت فيه ، فأطعمه نَفْسَك ، لعلّ لك عند الله أعمالًا تحتمل أن تُطعم نفسك النقيّ ، وأمَّا أنا ، فقد سرتُ في الأرض ، ودُرتُ فيها ، فبالله ما رأيت نفسًا تُصلِّي أشَرّ عندي من نفسي ، فبما أحتجُّ عند الله إن أطعمتُها النقيّ ، خذ هذا الطعام ، واشترِ لي كلَّ يومٍ بقطعة شعيرًا رديئًا ، واشتر لي رحًى حتى أطحن بيدي وآكل ، لعلّي أبلغ ما كان فيه عليٌّ وفاطمة رضي الله عنهما[1].

(١) السير ١٢/١٩٧ - ٢٠١ .

فرضي الله عن ربّانيّ هذه الأمة - كما قال ابنُ خزيمة - محمد ابن أسلم الطوسي .

أبو سهل الصعلوكي ، شيخ الشافعية :

« قال الذهبي : مناقب هذا الإمام جَمَّة .

قال السلمي : سمعتُ أبا سهل يقول : ما عقدت على شيءٍ قط ، وما كان لي قفل ولا مفتاح ، ولا صررتُ على فضة ولا ذهبٍ قط »[(١)].

الإمام القدوة العارف ابن خفيف :

قال ابن باكويه : سمعتُ ابن خفيف يقول : ما وجبت عليّ زكاة الفطر أربعين سنة[(٢)].

الشيخ الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين ، أبو العباس أحمد الرفاعي:

كان يجمع الحطب ويجيء به إلى بيوت الأرامل ، ويملأ لهم بالجرّة .

قيل : أُحضر بين يديه طبق تمر ، فبقي يُنقّي لنفسه الحَشَف يأكله ، ويقول : أنا أحقُّ بالدُّون ، فإني مثله دُون .

وكان لا يجمع بين لُبس قميصيْن ، ولا يأكل إلّا بعد يومين أو ثلاثة أَكْلةً ، وإذا غسل ثوبه ينزل في الشّطّ كما هو قائم يفرُكه ، ثم يقف في الشمس حتى ينشف ، وإذا ورد ضيفٌ ، يدور على بيوت أصحابه يجمع الطعام في مئزر[(٣)].

يوسف بن أسباط :

قال رحمه الله : إني لأشتهي من الله ثلاث خصالٍ : أن أموت حين

---

(١) السير ١٦/٢٣٧ .
(٢) السير ١٦/٣٤٦ .
(٣) السير ٢١/٧٩ - ٨٠ .

أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون عليَّ دَيْن ، ولا على عظمي لحم . فأُعْطِيَ ذلك كلّه[١] .

القاسم بن مخيمرة :

قال القاسم رحمه الله : لم يجتمع على مائدتي لونان من طعامٍ قطُّ ، وما أغلقتُ بابي قط ولي خَلْفَه هَمٌّ[٢] .

هكذا يكون الزهد :

عن إبراهيم بن شبيب بن شيبة قال : كنّا نتجالسُ في الجمعة ، فأتى رجل عليه ثوب واحد ، مُلتحِف به ، فجلس إلينا ، فألقى مسألة ، فما زلنا نتكلّم في الفقه حتى انصرفْنا ، ثم جاءنا في الجمعة المقبلة ، فأحببناه وسألناه عن منزله فقال : أنزل الحربية . فسألناه عن كُنيته فقال : أبو عبد الله ، فرغبْنا في مجالسته ، ورأينا مجلسنا مجلس فقهٍ ، فمكثنا بذلك زمانًا ثم انقطع عنّا ، فقال بعضنا لبعضٍ : ما حالنا ، قد كان مجلسنا عامرًا بأبي عبد الله ، وقد صار موحشًا . فوعد بعضُنا بعضًا إذا أصبحنا أن نأتي الحربية ، فنسأل عنه ، فأتينا الحربية ، وكُنّا عددًا ، فجعلنا نستحي أن نسأل عن أبي عبد الله ، فنظرنا إلى صبيانٍ قد انصرفوا من الكُتّاب ، فقلنا : أبو عبد الله ؟ فقالوا : لعلّكم تعنُون الصَّيّاد ؟ قلنا : نعم . قالوا : هذا وقته ، الآن يجيء . فقعدْنا ننتظره ، فإذا هو قد أقبل مئتزرًا بخرقةٍ وعلى كتفه خرقة ، ومعه أطيار مذبَّحة وأطيار أحياء ، فلمّا رآنا تبسَّم إلينا وقال : ما جاء بكم ؟ فقلنا : فقدْناك ، فقد كنت غمرت مجلسنا ، فما غيّبك عنا ؟ قال : إذن أصْدُقكم ، كان لنا جار ، كنت أستعير منه كل يومٍ ذلك الثوب الذي كنت آتيكم فيه ، وكان غريبًا ، فخرج إلى وطنه ، فلم يكن لي ثوب آتيكم فيه . هل لكم أن تدخلوا

---

(١) الإحياء ٢٣٨/٤ .
(٢) السير ٢٠٣/٥ .

المنزل فتأكلوا مما رزق الله عز وجل ؟ فقال بعضنا لبعض : ادخلوا منزله . فجاء إلى الباب فسلّم ، ثم صبر قليلًا ، ثم دخل فأذن لنا ، فدخلنا ، فإذا هو قد أتى بقطعٍ من البواري ، فبسطها لنا ، فقعدنا ، فدخل إلى المرأة فسلّم إليها الأطيار المذبّحة ، وأخذ الأطيار الأحياء ، ثم قال : أنا آتيكم إن شاء الله عن قريب ، فأتى السوق فباعها واشترى خبزًا ، وقد صنعت المرأةُ ذلك الطير ، وهيَّأتْه ، فقدّم إلينا خبزًا ولحم طيرٍ ، فأكلْنا ، فجعل يقوم فيأتينا بالملح والماء ، فكلّما قام ، قال بعضنا لبعض : رأيتم مثل هذا ، ألا تُغيِّرون أمره وأنتم سادة أهل البصرة ؟ فقال أحدهم : عليّ خمسمائة . وقال الآخر : عليّ ثلثمائة . وقال هذا وقال هذا ، وضمن بعضهم أن يأخُذ له من غيره ، فبلغ الذي جمعوا في الحساب خمسة آلاف درهم ، فقالوا : قوموا بنا نذهب فنأتيه بهذا ، ونسأله أن يُغيّر ما هو فيه . فقمنا فانصرفنا على حالنا ركبانًا ، فمررنا بالمربد[1] فإذا محمد بن سليمان أمير البصرة قاعد في منظرةٍ[2] له فقال : يا غلام ، ائتني بإبراهيم بن شبيب ابن شيبة من بين القوم . فجئتُ فدخلت عليه ، فسألني عن قصتنا ومن أين أقبلنا ، فصَدَقْتُه الحديث ، فقال : أنا أسبقكم إلى برّه ، يا غلام ، ائتني ببدرة دراهم . فجاء بها ، فقال : ائتني بغلام فرّاش . فجاء ، فقال : احمل هذه البدرة مع هذا الرجل ، حتى تدفعها إلى من أمرناه.ففرحتُ ثم قمت مسرعًا ، فلمّا أتيت الباب سلّمت ، فأجابني أبو عبد الله ، ثم خرج إليّ ، فلمّا رأى الفرّاش والبدرة على عنقه ، كأني سفَّيْتُ[3] في وجهه الرماد ، وأقبل عليَّ بغير الوجه الأول ، فقال : ما لي ولك يا هذا ؟ أتريد أن

(١) من أسواق العرب المشهورة في البصرة .
(٢) ما ارتفع من البناء مُشرفًا على ما تحته « شرفة » .
(٣) ذَرَوْتُ .

تفتنني ؟! فقلت : يا أبا عبد الله ، اقعد حتى أُخبرك أنه من القصة كذا وكذا ، وهو الذي تعلم أحد الجبَّارين - يعني محمد بن سليمان - ولو كان أمرني أن أضعها حيث أرى ، لرجعتُ إليه ، فأخبرته أني قد وضعتها ، فالله الله في نفسك . فازداد عليّ غيظًا ، وقام فدخل منزله ، وأصفق الباب في وجهي ، فجعلت أُقدِّم وأُؤخِّر ، ما أدري ما أقول للأمير ، ثم لم أجد بدًّا من الصدق ، فجئت فأخبرته الخبر ، فقال : حَرُورِيٌّ والله ، يا غلام ، عليَّ بالسيف . فجاء بالسيف ، فقال له : خُذ بيد هذا الغلام حتى يذهب بك إلى هذا الرجل ، فإذا أخرجه إليك ، فاضرب عنقه وائتني برأسه . قال إبراهيم : فقلت : أصلح الله الأمير ، الله الله ، فوالله لقد رأينا رجلًا ما هو من الخوارج ، ولكني أذهب فآتيك به . وما أريد بذلك إلّا افتداءً منه . قال : فضمَّنَنِيه فمضيت حتى أتيت الباب ، فسلّمتُ ، فإذا المرأة تحنُّ وتبكي ، ثم فتحتِ الباب ، وتوارتْ ، فأذنتْ لي ، فدخلتُ ، فقالت : ما شأنكم وشأن أبي عبد الله ؟! فقلت : ما حاله ؟ قالت : دخل فمال إلى الرِّكَى ، فنزع منها ماءً ، فتوضأ ، ثم سمعته يقول : اللهم اقبضني إليك ، ولا تفتنِّي . ثم تمدَّد وهو يقول ذلك ، فلحقتُه ، وقد قُضي ، فهو ذاك ميتٌ ، فقلت : يا هذه ، إن لنا قصةً عظيمة ، فلا تُحدثوا فيه شيئًا . فجئت محمد بن سليمان وأخبرته الخبر فقال : أنا أركب فأُصلِّي على هذا . قال : وشاع خبره بالبصرة ، فشهده الأمير ، وعامّة أهل البصرة ، رحمة الله عليه[1] .

عن سلام بن أبي حمزة : قال أيوب : الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء ، أحبُّها إلى الله وأعلاها عند الله ، وأعظمها ثوابًا عند الله تعالى : الزهد في عبادةِ مَنْ عُبد دون الله من كلِّ ملكٍ وصنمٍ وحجرٍ ووثنٍ ، ثم الزهد فيما حرّم الله تعالى من الأخذ والإعطاء . ثم يقبل علينا فيقول : زهدكم هذا

---

(١)

يا معشر القُرّاء فهو والله أخسُّه عند الله ، الزهد في حلال الله عز وجل .

وعن عمارة بن غزيّة قال : سمعت رجلًا سأل ربيعة فقال : يا أبا عثمان ، ما رأس الزّهادة ؟ قال : جمع الأشياء من حلِّها ، ووضعها في حقِّها .

وقال سلام بن أبي مطيع : الزاهد على ثلاثة وجوه : واحد:أن تُخلص العمل لله ، والقول ، ولا يُراد بشيءٍ منه الدنيا . والثاني : تركُ ما لا يصلُح ، والعمل بما يصلح . والثالث : الحلال ، وهو أن يزهد فيه ، وهو تطوُّع ، وهو أدناها .

قال سفيان بن عيينة : الزهد في الدنيا الصبرُ ، وارتقاب الموت .

وقال الفضيل : عامّة الزهد : في الناس . يعني إذا لم يحب ثناء الناس عليه ، ولم يُبالِ بمذمَّتهم .

وقال : إن قدرتَ أن لا تُعرف فافعل ، وما عليك إن لم يُثنَ عليك ، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا .

وقال : من أحبَّ أن يُذكر لم يُذكر ، ومن كره أن يُذكر ذُكِر .

أخي : لو سقطت قلنسوة من السماء ما سقطت إلا على رأس من يقول بها هكذا وهكذا - يعني لا يريدها -.

وقال وهيب بن الورد المكي : الزهد في الدنيا أن لا تأسَى على ما فاتك منها ، ولا تفرح بما آتاك منها .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنتم أكثر صيامًا وأكثر صلاةً ، وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيرًا منكم . قالوا : لِمَ يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هُمْ كانوا أزْهَدَ في الدنيا ، وأرْغَب في الآخرة .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، في مرضه الذي مات فيه : لولا أني أرى أن هذا اليوم آخر يومٍ من الدنيا ، وأوَّل يوم من الآخرة ،

لم أتكلَّم به ، اللهم إنَّك تعلم أني كنت أحبُّ الفقر على الغنى ، وأحب العُزلة على العزّ ، وأحب الموت على الحياة ، حبيبٌ جاء على فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندم . ثم مات رضي الله عنه .

قال الحسن البصري يعظ أصحابه : والله لقد صحبْنا أقوامًا كانوا يقولون : ليس لنا في الدنيا حاجة ، ليس لها خُلِقْنا . فطلبوا الجنة بغدوهم ورواحهم ، نعم والله ، حتى أهراقوا فيها دماءهم ، فأفلحوا ونجوْا ، هنيئًا لهم ، لا يطوي أحدهم ثوبًا ، ولا يفترشه ، ولا تلقاه إلّا صائمًا ذليلًا ، متبائسًا خائفًا ، إذا دخل إلى أهله إن قُرِّب إليه شيءٌ أكله ، وإلا سكت، لا يسألهم عن شيء ، ما هذا وما هذا . ثم قال :

ليس مَنْ مات فاستراحَ بمَيْتٍ إنما المَيْتُ ميِّتُ الأحياءِ

داود الطائي :

عن أحمد بن ضرار العجلي قال : أتيتُ داود الطائي وهو في دارٍ واسعةٍ خربة ليس فيها إلّا بيت ، وليس على بيته باب ، فقال له بعض القوم : أنت في دار وحشة ، فلو اتخذتَ لبيتك هذا بابًا ، أما تستوحش ؟ فقال : حالت وحشةُ القبر بيني وبين وحشةِ الدنيا .

أحمد بن حنبل :

عن علي بن المديني قال : دخلت منزل أحمد بن حنبل ، فما في بيته إلّا بما وُصِف به بيت سويد بن غفلة ، مِن زهده وتواضعه .

طاووس :

عن سفيان بن عيينة قال : جاء ابنٌ لسليمان بن عبد الملك ، فجلس إلى جنب طاووس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه . قال : أردتُ أن يعلم أن لله عبادًا يزهدون فيما في يديه .

زهدهم في الطعام :

عن أبي الأبيض المدني رضي الله عنه ، أنه قال : إن أقرَّ أيامي لعينيَّ ، يومَ أرجع إلى أهلي وهم يشكون الحاجة .

وقال عبد الواحد بن زيد : ما للعاملين والبِطْنة ، إنما العامل تجزيه العُلْقَة التي تقوم برَمَقه .

وقال الحسن : والله أدركت أقوامًا ، إنْ كان أحدهم ليأكل غداءً ، فما عسى أن يُقارب شبعه ، فيمسك .

وقال : والله لأن ينبذ رجل طعامه للكلب ، خيرٌ له من أن يأكل فوق شبعه .

قالوا لحكيم : فلانٌ يأكل في اليوم ثلاث مرات . قال : قولوا لأهله يبنوا له معلفًا .

قال (**أبو بكر بن عياش**) : من عظّم صاحبَ دنيا ، فقد أحدثَ حدثًا في الإسلام .

الحسن :

وعن محمد بن معاوية الأزرق قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : « عظني وأوجز » . فكتب إليه « أن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يديك : الزهد في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكُّر ، والتفكّر بالاعتبار ، فإذا أنت فكّرت في الدنيا لم تجدْها أهلًا أن تتبع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلا أن تُكرمها بهوان الدنيا ، فإن الدنيا دار بلاءٍ ومنزل قُلْعَة[1] » .

---

(١) أي انقطاع وارتحال .

وكتب الحسن أيضًا إلى عمر : أما بعد ، فإن الدنيا مشغلةٌ للقلب والبدن ، وإن الزهد راحةٌ للقلب والبدن ، وإن الله سائلنا عن الذي نعمنا في حلاله ، فكيف بما نعمنا في حرامه !

وعن الحسن قال : والله لقد أدركتُ أقوامًا ، إن كان أحدهم لتكون به الحاجة الشديدة وإلى جنبه المال الحلال ، لا يأتيه فيأخذ منه ، فيُقال له : رحمك الله ، ألا تأتي هذا ؛ فتستعين به على ما أنت فيه ؟ فيقول : لا ، والله إني أخشى أن يكون فساد قلبي وعملي[١] .

السّـرِيّ :

قال السريُّ : خمسٌ من أخلاق الزُّهّاد : الشكر على الحلال ، والصبر عن الحرام ، ولا يُبالي متى مات ، ولا يُبالي من أكل الدنيا ، ويكون الفقر والغنى عنده سواء[٢] .

الزُّهْـرِي :

قال سفيان بن عيينة : سمعت الزهريَّ ، وقد سأله رجل ، فقال : يا أبا بكر ، مَنِ الزاهد ؟ قال : الذي لا يغلب الحرامُ صبره ، ولا يمنع شكرَهُ . قال ابن عيينة : ما سمعت في الزهد قط شيئًا أحسن من هذا[٣] .

يحيى بن معاذ الرازي :

قال يحيى بن معاذ الرازي : الزهد يُورث السَّخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالرُّوح .

وقال : لا يبلغ أحدٌ حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال : عملٌ بلا علاقة ، وقولٌ بلا طمع ، وعزٌّ بلا رياسة .

---

(١) الزهد الكبير ص٩٥ .
(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص٩٧ .
(٣) الزهد الكبير ص٩٧ ، وجامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠ .

وقال : الزاهد يُسْعِطك الخلَّ والخَرْدَل ، والعارف يُشِمُّك المسك والعنبر .

وقال رجل ليحيى : متى أدخُلُ حانوت التَّوكُّل ، وألبس رداء الزاهدين ، وأقعد معهم ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك إلى حدّ لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيامٍ ، لم تضعف نفسك ، فأمّا ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة ، فجلوسك على بساط الزاهدين جهلٌ ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح[1] .

قال يحيى : الزاهد الصادق:قُوتُه ما وجد ، ولباسه ما سَتَر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فِكرته ، والقرآن حديثه ، والرَّبُّ أنيسُه ، والذِّكْر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكُّل حسْبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى[2] .

وقال رحمه الله : الزهد ثلاثة أشياء : القلة والخلوة والجوع .

فتأسّ يا أخي بنبيك الأطهر ﷺ ، فإن فيه أُسوةً لمن تأسَّى ، وعزاءً لمن تعزَّى ، وأحب العباد إلى الله المُتأسِّي بنبيه والمُقتصّ لأثره .

قَضَم الدنيا قضْمًا و لم يُعِرْها طرْفًا ، كان يأكل على الأرض ، ويجلس جلسة العبد ، ويخصف بيده نعله ، ويرقّع بيده ثوبه ، ويركب الحمار العاري ، ويُردف خَلْفَهُ ، أعرض عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها من نفسه ، وأحبّ أن تغيب زينتُها عن عينه ، لكي لا يتّخذ منها رِياشًا ، ولا يعتقدها

---

(١) المدارج ٢/١١ - ١٢ .
(٢) الإحياء ٤/٢٤٦ .

قرارًا ، ولا يرجو فيها مقامًا ، فأخرجها من النفس ، وأشخصها[١] عن القلب ، وغيّبها عن البصر ، وكذلك من أبغضَ شيئًا ، أبغض أن ينظر إليه ، وأن يُذكر عنده .

جاع رسول الله ﷺ مع خاصّته[٢] ، وزُوِيت عنه زخارفُها مع عظيم زلفته ، فلينظر ناظرٌ بعقله : أكرم الله محمدًا ﷺ بذلك أم أهانه ؟ فإن قال : « أهانه » ، فقد كذب وأتى بالإفك العظيم . وإن قال : « أكرمه » ، فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له ، وزواها عن أقرب الناس منه ، فتأسّى مُتأسٍّ بنبيه ﷺ ، واقتص أثره وولج مولجه ، وإلا فلا يأمن الهلكة ، خرج من الدنيا خميصًا ، وورد الآخرة سليمًا ، لم يضع حجرًا على حجر ، حتى مضى لسبيله ، وأجاب داعي ربه .

فما أعْظَمَ منَّة الله عندنا حين أنعم علينا به سَلَفًا نتَّبعه ، وقائدًا عظيمًا نطأ عَقِبَهُ[٣] .

قال ذو النون المصري : « تجوَّعْ ، وتخلَّ ، وتفرَّد ، واضجرْ ، ترى العَجَب »[٤] .

وقال أيضًا ، رحمه الله : « ما رجع من رجع إلّا من الطريق ، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا ، فازهد يا أخي ترَ العجب »[٥] .

---

(١) أبْعَدَها .
(٢) أي مع خصوصيته وفضله عند ربه .
(٣) العقب : مؤخر القدم ، ووطء العقب : مبالغة في الاتّباع والسلوك على طريقه ، نقفوه خطوةً خطوةً ، حتى كأننا نطأ مؤخر قدمه .
(٤) الزهد الكبير ص١٠١ .
(٥) الزهد الكبير ص٨٨ .

ونختم بما قاله علي ، رضي الله عنه : والله لقد رقّعت مِدْرَعتي[1] هذه حتى استحييتُ من راقعها ، ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها عنك ؟ فقلت : اغرُب عني ، فعند الصباح يحمد القومُ السُّرى .

* * *

(١) المِدْرَعَة : ثوب من صوف .



الفصْلُ الرَّابع
عُلُوُّ الهِمَّـةِ
في الـورعِ

« فضلُ العلمِ أحبُّ إليَّ من فضلِ العبادةِ ، وخيرُ دينكم الورَعُ »
[حديث شريف]



□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الورعِ □

فريضة طلب الحلال من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهمًا ، وأثقلُها على الجوارح فِعلًا ، ولذلك اندرس بالكُلِّية علمًا وعملًا ، وصار غموض علمه سببًا لاندراس عمله .

قال تعالىٰ : ﴿ **يَٰأَيُّهَا الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم** ﴾ [المؤمنون : ٥١] . فأمر بالأكل من الطيبات قبل العمل .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وثيابَك فطهِّرْ** ﴾ [المدثر : ٤] .

قال قتادة ومجاهد : نفسك فطهِّرْها من الذنب ، فكنَّى عن النفس بالثوب .

وهذا قول إبراهيم النخعي ، والضحاك ، والشعبي ، والزهري ، والمحقِّقين من أهل التفسير .

قال ابن عباس : لا تلبسْها على معصية ولا غدْر .

ونجاسة الباطن تُورث نجاسة الظاهر ، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ، ويُؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر ، وتأثير القلب والنفس في الثياب أمْر خفيٌّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها ، حتىٰ إن ثوب البرِّ لَيُعرَف من ثوب الفاجر وليسا عليهما .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُنْ وَرِعًا تَكنْ أعبدَ الناس »[١].

---

(١) حسن : أخرجه ابن ماجه ، والخرائطي في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في « الحلية » والبيهقي في « الزهد » وابن أبي الدنيا في « الورع » واللفظ له . قال البوصيري =

وقال رسول الله ﷺ : « فضلُ العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة ، وخيرُ دينكم الوَرَعُ »[1].

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢١) : « وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة ، فقال : « من حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه » . فهذا يعمُّ التَّرك لما لا يُعنى ؛ من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكْر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة . فهذه الكلمة شافية في الورع » .

وعن عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفُلُون عن أفضل العبادة ؛ هو الورع .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما أدرك مَنْ أدرك إلا مَنْ كان يعقل ما يدخل جوفه .

وقال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ **يؤتي الحكمة مَنْ يشاء** ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، قال : الورَع .

وعن معاوية بن قُرَّة قال : دخلتُ على الحسن وهو مُتَّكئ على سريره ، فقلتُ : يا أبا سعيد ، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله ؟ قال : الصلاة في جوف الليل والناس نيام . قلتُ : فأيُّ الصوم أفضل ؟ قال : في يومٍ صائف . قلتُ : فأيُّ الرِّقاب أفضل ؟ قال : أنفسُها عند أهلها وأغلاها ثمنًا . قلتُ :

= في الزوائد : هذا إسناد حسن .

(١) صحيح : أخرجه البزار والطبراني في الأوسط ، والحاكم في المستدرك عن حذيفة ، والحاكم عن سعد بن أبي وقاص . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وحسَّن الحديثَ المنذري ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢١٤) .

فما تقول في الورَع ؟ قال : ذاك رأسُ الأمر كلِّه .

وعن أرطاة بن المنذر قال : قال عيسى بن مريم ﷺ : « لو صلَّيتم حتى تصيروا مثل الحنايا ، وصُمتُم حتى تكونوا أمثال الأوتاد ، وجرى من أعينكم الدموع أمثال الأنهار ؛ ما أدركتم ما عند الله إلا بورَع صادق »[١].

وقال أبو إسماعيل المؤدّب : جاء رجل إلى العُمَري ، فقال : عظني ، فأخذ حصاة من الأرض ، فقال : زِنة هذه من الورَع يدخل قلبَك ؛ خيرٌ لك من صلاة أهل الأرض . قال : زدني . قال : كما تُحِبُّ أن يكون الله لك غدًا فكنْ له اليوم .

وقال يونس بن عُبيد : لو أعلم موضع درهم من حلال من تجارة لاشتريتُ به دقيقًا ، ثم عجنتُه ، ثم جفَّفتُه ، ثم دققتُه ، أُداوي به المرضى[٢].

وقال الضحَّاك : أدركتُ الناس وهم يتعلَّمون الورع ، وهم اليوم يتعلَّمون الكلام . وقال : « لقد رأيتُنا وما يتعلَّم بعضنا من بعض إلا الورَع » .

وقال النضر بن محمد : نُسُكُ الرجل على قدْر ورَعه .

وقال صالح المريّ : المُتورِّع في الفتن كعبادة النبيِّين في الرخاء .

وقال خالد بن معدان : من لم يكن له حلمٌ يضبط به جهْله ، وورَعٌ يحجزه عما حرَّم الله عليه ، وحسْنُ صحابة عمن يصحبه ؛

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد والطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، والحاكم في « الكنى » عن أبي ذر ، والحاكم في تاريخه عن علي بن أبي طالب ، والطبراني في الصغير عن زيد بن ثابت ، وابن عساكر عن الحارث بن هشام ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩١١) .

(٢) إسناده حسن إلى أرطاة .

فلا حاجة لله فيه[١].

وقال يحيىٰ بن أبي كثير : يقول الناس : فلانٌ الناسك ، فلان الناسك ، إنما الناسك : الوَرِعُ .

وقال الفُضيل : من عرف ما يدخل جوفه كُتب عند الله صدِّيقًا ، فانظر عند مَنْ تُفطر يا مسكين .

وقال سهل التسْتُري :لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسُّنَّة ، وأكْل الحلال بالورَع ، واجتناب النهي من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت .

وقال سهل رحمه الله : مَنْ أكل الحرام عصتْ جوارحه شاء أم أبىٰ ، عَلِمَ أو لم يعلم ، وَمَنْ كانت طُعْمته حلالًا أطاعته جوارحه ، ووفِّقتْ للخيرات .

« قال الشبلي : الوَرَع : أن يتورَّع عن كل ما سوىٰ الله .

وقال يحيىٰ بن معاذ : الورَع : الوقوف على حدِّ العلم من غير تأويل .

وقال:الورَع على وجهين : ورَع في الظاهر ، وورَع في الباطن ؛ فورع الظاهر : أن لا يتحرَّك إلا لله ، وورَع الباطن : هو أن لا تُدخِل قلبك سواه .

وقال : مَنْ لم ينظر في الدقيق من الورَع لم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقال يونس بن عبيد : الورَع : الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٧ .

النفس في كل طرفة عين .

وقال الحسن : مثقال ذرَّة من الورَع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وقال أبو هريرة : جلساء الله غدًا أهل الورَع .

وقال بعض الصحابة : كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام »[١].

قال الهروي : « الورع تَوَقٍّ مُسْتَقْصًى على حَذَرٍ ، وتحرُّجٌ على تعظيم » .

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢٣) : « يعني أن يتوقَّى الحرام والشُّبه وما يخاف أن يضرَّه أقصىٰ ما يُمكِنُه من التوقِّي . والتوقِّي : فعْل الجوارح ، والحذَر : فعْل القلب . ويكون الباعث على الورَع عن المحارم والشُّبه : إما حذرُ الوعيد ، وإما تعظيم الربّ جلَّ جلاله ، وإجلالًا له أن يتعرَّض لما نهي عنه ، فقد يتوقَّى العبد الشيء لا على وجه الحذَر والخوف ، ولكن لأمورٍ أُخرىٰ ؛ من إظهار نزاهة ، وعزَّة وتصوُّف ، أو اعتراض آخر ؛ كتوقِّي الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنَّة ولا نار ما يتوقَّونه من الفواحش والدناءة تصوُّنًا عنها ، ورغبةً بنفوسهم عن مواقعتها ، وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك » .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولىٰ : تجنُّب صوْن القبائح ؛ لصون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان » .

---

(١) تحت الطبع بفضل الله جمعٌ لي عن الزهد والورع بعنوان « رائق الشهد في الورَع والزهد » .

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢٤) : « هذه ثلاث فوائد من فوائد تجنُّب القبائح :

إحداها : « **صوْن النفس** » : وهو حفْظها وحمايتها عمّا يشينُها ويعيبها ويزري بها عند الله عزَّ وجل وملائكته وعباده المؤمنين وسائر خلقه ؛ فإن مَنْ كرُمت عليه نَفْسُه وكبُرت عنده صانها وحماها ، وزكَّاها وعلَّاها ، ووضعها في أعلى المحالِّ ، وزاحم بها أهل العزائم والكمالات . ومَنْ هانت عليه نَفْسُه وصَغُرت عنده ألقاها في الرذائل ، وأطلق شناقها ، وحلَّ زمامها وأرخاه ، ودسَّاها ولم يصنْها عن قبيح ، فأقل ما في تجنُّب القبائح صوْن النفس .

وأمَّا « توفير الحسنات » فمن وجهين :

أحدهما : توفير زمانه على اكتساب الحسنات ، فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مُسْتَعِدًّا لتحصيلها .

والثاني : توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها ، بموازنة السيئات وحبوطها ، فتجنُّب السيئات يُوفِّر ديوان الحسنات .

وأما « صيانة الإيمان » : فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . وهذه الأمور الثلاثة – وهي : صون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان – هي أرفع من باعث العامَّة على الورع ؛ لأن صاحبها أرفعُ هِمَّة ، لأنه عاملٌ على تزكية نفسه وصونها ، وتأهيلها للوصول إلى ربِّها ، فهو يصونها عمّا يشينها عنده ، ويحجبها عنه ، ويصون حسناته عما يُسقطها ويضعها ؛ لأنه يسير بها إلى ربِّه ، ويطلب بها رضاه ، ويصون إيمانه بربِّه – من حُبِّه له ، وتوحيده ، ومعرفته به ، ومراقبته إياه – عما يُطفئ نوره ، ويُذهِب بهجته ، ويُوهِن قُوَّته » .

قال الهروي :

« **الدرجة الثانية** : حفْظ الحدود عند ما لا بأس به ؛ إبقاءً على الصيانة والتقوىٰ ، وصعودًا عن الدناءة ، وتخلُّصًا من اقتحام الحدود » .

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢٥ - ٢٦) : « إن مَنْ صعد عن الدرجة الأولىٰ إلى هذه الدرجة من الورَع يترك كثيرًا مما لا بأس به من المباح ؛ إبقاءً على صيانته ، وخوفًا عليها أن يتكدَّر صفوها ، ويُطفَأ نورُها . فإنَّ كثيرًا من المباح يُكدِّر صَفْوَ الصيانة ، ويُذهِب بهجتها ، ويُطفئ نورها ، ويُخلِق حسنتها وبهجتها .

وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - في شيء من المباح : هذا يُنافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركْه شرطًا في النجاة ، أو نحو هذا من الكلام .

والفرق بين صاحب الدرجة الأولىٰ وصاحب هذه : أن ذلك يسعىٰ في تحصيل الصيانة ، وهذا يسعىٰ في حفْظ صَوْنها أن يتكدَّر ، ونورها أن يُطْفأ ويذهب .

وأما الصعود عن الدناءة : فهو الرفع عن طرقاتها وأفعالها .

وأما التخلُّص عن اقتحام الحدود : فالحدود : هي النهايات ، وهي مقاطع الحلال والحرام ، فحيث ينقطع وينتهي ؛ فذلك حدُّه ، فمن اقتحمه وقع في المعصية ، وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن تعدِّي حدوده وقُربانه ، فقال : ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها** ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، فإن الحدود يُراد بها أواخر الحلال ، وحيث نهىٰ عن القُربان ؛ فالحدود هناك : أوائل الحرام .

فالورَع يُخَلِّص العبد من قُربان هذه وتعدِّي هذه . وهو اقتحام

الحــدود » .

قال الهروي :

« **الدرجة الثالثة** : التورُّع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت ، والتعلُّق بالتفرُّق ، وعارض يُعارض حال الجمع » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » : « الفرق بين شتات الوقت ، والتعلُّق بالتفـرُّق : كالفرق بين السـبب والمسبّب والنفي والإثبات ؛ فإنه يُشتِّت وقته ، فلا يجد بُدًّا من التعلُّق بما سوىٰ مطلوبه الحق ، إذ لا تعطيل في النفس ولا في الإرادة ، فمن لم يكن الله مُراده أراد سواه ، ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه ، ومن لم يكن عمله لله فلا بدَّ أن يعمل لغيره .

فالمُخلِص يصونه الله بعبادته وحده ، وإرادة وجهه وخشيته وحده ، ورجائه وحده ، والطلب منه ، والذلِّ له ، والافتقار إليه وحده .

وإنما كان هـذا أعلىٰ من الدرجة الثانية ؛ لأن أربابها اشتغلوا بحفظ الصيانة من الكدر وملاحظتها ، وذلك عند أهل الدرجة الثالثة : تفرُّقٌ عن الحق ، واشتغالٌ عن مراقبته بحال نفوسهم . فأدبُ أهل هذه أدبُ حضور ، وأدبُ أولئك أدبُ غيبة .

وأما « الورع عن كل حـال يُعارض حـال الجمع » : فمعناه : أن يستغرق العبد شهود فنائه في التوحيد ، وجمعيَّته على الله تعالى فيه عن كل حال يُعارض هذا الفناء والجمعيَّة .

وفوق هذا مقام أرفع منه وأعلىٰ ، وهو الورَع عن كل حظٍّ يُزاحم مراده منك ، ولو كان الحظُّ فناءً أو جمعية ، أو كائنًا ما كان . و« الفناء » و« الجمعية » حظُّ العبد ، وأنّ حقَّ الرب وراء ذلك ، وهو البقاء بمراده

فرقًا وجمعًا به وله .

وعلى هذا فالوَرَع الخالص : الورَع عن كل حال يُعارض حال القيام بالأمر والبقاء به فرقًا وجمعًا . والله المستعان » .

قال أبو سليمان الداراني : الورَع أوَّل الزهد ، كما أنّ القناعة أوَّل الرضا .

فـــائدة :

قال ابن القيم : « الخوف يُثمر الورع والاستعانة وقِصَر الأمل . وقوة الإيمان باللقاء تُثمر الزهد . والمعرفة تُثمر المحبة والخوف والرجاء . والقناعة تُثمر الرضاء . والذكْرُ يُثمِر حياة القلب . والإيمان بالقدر يُثمر التوكُّل . ودوام تأمُّل الأسماء والصفات يُثمر المعرفة . والورَع يُثمر الزهد أيضًا . والتوبة تُثمر المحبة أيضًا ، ودوام الذكْر يُثمرها . والرضا يُثمر الشكر . والعزيمة والصبر يُثمران جميع الأحوال والمقامات . والفكْر يُثمر العزيمة . والمراقبة تُثمر عمارة الأوقات وحفظ الأيام . والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسْرها يوجب حياة القلب وعِزّه وجبْرَهُ . ومعرفة النفس ومقْتها يوجب الحياء من الله عز وجل ، واستكثار ما منه ، واستقلال ما منك من الطاعات ، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان . وصحَّة البصيرة تُثمر اليقين . وحُسْن التأمُّل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلُوَّة يُثمر صحَّة البصيرة .

وملاك ذلك كله أمران : أحدهما : أن تنقُل قلبك من وطن الدنيا فتُسكنه في وطن الآخرة . ثم تُقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرها ، وفهْم ما يُراد منه وما نزل لأجله ، وأخْذ نصيبك وحظِّك من كلِّ آية من آياته ، وتُنزلها على داء قلبك .

فهذه طريقة مُختَصرة قريبة سهلة ، مُوصلة إلى الرفيق الأعلىٰ ، آمنة لا يلحق سالكها خوفٌ ولا عطبٌ ، ولا جوعٌ ولا عطشٌ ، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق ألبتة ، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم . ولا يعرف قدْر هذه الطريق إلا من عرف طُرُقَ الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها . والله المستعان »[1].

درجات الورَع عن الحرام عند الغزالي :

قال الغزالي رحمه الله : « الورع عن الحرام على أربع درجات :

الأولىٰ : ورع العدول : وهو الذي يجب الفسق باقتحامه ، وتسقط العدالة به ، ويثبت اسم العصيان والتعرُّض للنار بسببه ؛ وهو الورع عن كل ما تُحرِّمُه فتاوىٰ الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين : وهو الامتناع عما يتطرَّق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتي يُرخِّص في التناول بناءً على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة .

الثالثة : ورع المتقين : ما لا تُحرِّمه الفتوىٰ ولا شُبهة في حِلِّه ، ولكن يُخاف منه أداؤه إلى مُحَرَّم . وهو تَرْك ما لا بأس به مخافةً مما به بأس . وهذا ورَع المتقين .

أخذ الحسن رضي الله عنه تمرةً من الصدقة - وكان صغيرًا - فقال النبي ﷺ : « كخْ كخْ ، ألقِها »[2].

« ومن ذلك ما سُئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في

---

(١) المدارج ٢ / ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

المسجد ، يحمل مجمرةً لبعض السلاطين ، ويُبَخِّر المسجد بالعود ، فقال : ينبغي أن يخرج من المسجد ، فإنه لا يُنتفع من العود إلا برائحته . وسُئل أحمد بن حنبل عمّن سقطت منه ورقة فيها أحاديث ، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها ؟ فقال : لا ، بل يستأذن ثم يكتب » .

ومن ذلك : التورُّع عن الزينة ؛ لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها ، وإن كانت الزينة مُباحة في نفسها . وقد سُئل أحمد بن حنبل عن النِّعال السبتية ، فقال : أما أنا فلا أستعملها ، ولكن إنْ كان للطين فأرجو ، وأمَّا مَنْ أراد الزينة فلا .

ومن ذلك ما رُوي عن علي بن معبد أنه قال : كنتُ ساكنًا في بيت بكراء ، فكتبتُ كتابًا ، وأردتُ أن آخذ من تراب الحائط لأُتَرِّبه وأُجفِّفَه ، ثم قلتُ : الحائط ليس لي ، فقالت لي نفسي : وما قَدْرُ تراب من حائط ؛ فأخذتُ من التراب حاجتي ، فلما نمتُ إذا أنا بشخص واقف يقول لي : يا علي بن معبد ، سيعلم غدًا الذي يقول : وما قَدْرُ تراب من حائط . ولعلَّ معنى ذلك : أنه يرى كيف يحطُّ من منزلته ، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحقَّ عقوبة على فعْله .

وهكذا المباحات كلها إذا لم تُؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة ، مع التحرُّزِ من غوائلها بالمعرفة أولًا ، ثم بالحذر ثانيًا ، حتى كره أحمد ابن حنبل تجصيص الحيطان ، وقال : أمَّا تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه ، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها ، واستدلّ بما رُوي عن النبي ﷺ : أنه سُئِلَ أن يكحل المسجد ، فقال : « عرش كعرش موسى ! »[1] ، وقال ﷺ : « عريشًا كعريش موسى ؛

---

(١) صحيح : أخرجه البيهقي في السنن عن سالم بن عطية مُرسلًا ، وصحَّحه =

ثُمام ، وخُشيبات ، والأمر أعجلُ من ذلك »[1] .

وكره السلف الثوب الرقيق ، وقالوا : مَنْ رَقَّ ثوبه رقَّ دينه . وكل ذلك ؛ خوفًا من سريان اتِّباع الشهوات في المباحات إلى غيرها ، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعوَّدتِ المسامحة استرسلت ؛ فاقتضىٰ خوف التقوى الورَعَ عن هذا كله .

الدرجة الرابعة : ورَع الصِّدِّيقين : ما لا بأس به أصلًا ولا يُخاف منه أن يُؤدِّي إلى ما به بأس ، ولكنه يُتناول لغير الله ، وعلىٰ غير نيّة التقَوِّي به علىٰ عبادة الله .

فالأمر عندهم : كلُّ ما لا تتقدَّم في أسبابه معصية ، ولا يُستعان به على معصية ، ولا يُقصد منه في الحال والمآل قضاءُ وطرٍ ، بل يُتناول لله تعالىٰ فقط ، وللتقوِّي على عبادته ، واستبقاء الحياة لأجله . وهذه رُتبة الموحِّدين المُتجرِّدين عن حظوظ نفوسهم ، المنفردين لله تعالىٰ بالقصد .

فمن ذلك ما رُوي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لو تمشّيْت في الدار قليلًا حتى يعمل الدواء ؟ فقال : هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أُحاسِب نفسي منذ ثلاثين سنة . فكأنه لم تحضره نيَّة في هذه المشية تتعلَّق بالدِّين ، فلم يجز الإقدام عليها .

ومن هذا ما روي عن ذي النون المصري أنه كان جائعًا محبوسًا ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعامًا على يد السجَّان فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال :

= الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٩٩٨) ، والصحيحة رقم (٦١٦) .

(١) حسن : أخرجه المخلص في فوائده ، وابن النجار عن أبي الدرداء ، وكذا أخرجه الضياء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٠٠٧) .
والثُّمام : نبات يُشَدُّ به خصاص البيوت .

جاءني على طبق ظالم ؛ يعني أنَّ القوة التي أوصلت الطعام إليَّ لم تكن طيِّبة . وهذه الغاية القصوىٰ في الورَع .

ومن ذلك أن بِشرًا رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء . فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه ، وإن كان الماء مُباحًا في نفسه ؛ فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء ، وقد أُعطوا الأجرة من الحرام »[١] .

عمر بن الخطاب :

لله دَرُّه ! ما كان أشدَّ ورعه عن مال المسلمين !

ورحم الله حافظًا حين قال في عُمريَّته :

فَمَنْ يُجاري أبا حفصٍ وسيرتَه ... أمَّن يُحاولُ للفاروقِ تشبيها

إذ اشتهتْ زوجُهُ الحلوى فقال لها ... من أين لي ثمنُ الحلوى فأشريها

ما زاد عن قُوتِنا فالمسلمون به ... أولىٰ فقومي لبيتِ المالِ رُدِّيها

« عن عاصم بن عمر عن عمر قال : إنه لا أجده يحلُّ لي أن آكل من مالكم هذا ، إلا كما كنتُ آكل من صُلب مالي : الخبز والزيت ، والخبز والسمن . قال : فكان ربما يُؤتى بالجفنة قد صُنِعت بالزيت ، ومما يليه منها سمنٌ ؛ فيعتذر إلى القوم ويقول : إني رجل عربي ، ولستُ أستمري الزيت »[٢] .

أبو الدرداء :

عن معاوية بن قُرَّة قال : « كان لأبي الدرداء جَمَلٌ يُقال له : « الدمون » . فكان إذا استعاره منه رجُلٌ ؛ قال : لا تحملْ عليه إلا طاقته .

---

(١) إحياء علوم الدين بتصرُّف ٤ / ١٠٧ - ١١٠ .

(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٤ .

فلما كان عند الموت ؛ قال : يا « دمون » ، لا تُخاصِمْني عند ربي ، فإني لم أكن أحمل عليك إلَّا ما كنتَ تُطيق »[١].

عُبادة بن الصامت رضي الله عنه :

« عن عثمان بن أبي العاتكة : أن عُبادة بنَ الصامت مرَّ بقرية « دُمَّر » ، فأمر غُلامَهُ أَنْ يقطعَ له سِواكًا من صفصاف على نهر بَرَدَى ، فمضى ليفعلَ . ثم قال له : ارجعْ ، فإنَّه إنْ لا يكنْ بثمن ، فإنَّه يَيْبسُ ، فيعودُ حطبًا بثمن »[٢].

أبو بكرة الثقفي رضي الله عنه :

عن الحكم بن الأعرج قال : « جَلَبَ رجلٌ خشبًا ، فطلَبَهُ زياد ، فأبى أن يبيعَهُ ، فغصَبَهُ إيَّاه ، وبنى صُفَّة مسجدِ البصرة . قال : فلم يُصَلِّ أبو بَكْرَةَ فيها حتى قُلعت »[٣].

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

قال طاووس : ما رأيتُ رجلًا أورع من ابن عمر !

« عن قَزَعَة ، قال : رأيتُ على ابنِ عمر ثيابًا خَشنةً أو جَشبةً ، فقلتُ له : إني قد أتيتُكَ بثوب ليِّن مما يُصنع بخراسان ، وتَقَرُّ عيناي أنْ أراه عليكَ . قال : أرِنيه ، فَلَمَسَه ، وقال : أحريرٌ هذا ؟ قلتُ : لا ، إنه من قُطْن . قال : إني أخاف أنْ ألبَسَه ، أخافُ أكون مُختالًا فَخُورًا ، والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فخور »[٤].

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٠ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ١٠ .
(٣) تاريخ ابن عساكر ١٧ / ٣٢٠ / أ ، والسير ٣ / ٧ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٣٣ ، وحلية الأولياء ١ / ٣٠٢ . والجشب من الثياب : الخشِن الغليظ .

المسور بن مخرمة :

« قالت أمُّ بكر : احتكر المسور طعامًا كثيرًا ، فرأى سحابًا من الخريف فكرهه ، فقال : لا أراني قد كرهتُ ما ينفع المسلمين ، مَنْ جاءني أوليتُه كما أخذتُه . قال : فبلغ ذلك عمر . فقال : مَنْ لي بالمسور ، فأتى عمر . فقال : يا أمير المؤمنين ، إني احتكرتُ طعامًا كثيرًا ، فرأيتُ سحابًا قد نشأ ، فكرهتُها ، فتألَّيتُ أن لا أربح فيها شيئًا . فقال عمر : جزاك الله خيرًا »[1].

« وعن أُمِّ بكر ابنة المسور قالت : كان المسور لا يشرب من الماء الذي يُستقى في المسجد ، ويكرهه ، ويرىٰ أنه صدقة »[2].

عمرو بن عتبة بن فرقد :

« عن علقمة قال : خرجنا ومعنا مسروق ، وعمرو بن عتبة ، ومعضد ؛ غازين ، فلمّا بلغْنا « ماسندان » ، وأميرها عتبة بن فرقد ؛ قال لنا ابنه عمرو ابن عتبة : إنكم إنْ نزلتم عليه صنع لكم نُزُلًا ، ولعلّه يظلم فيه أحدًا ، ولكن إنْ شئتم قِلنا في ظلِّ هذه الشجرة ، فأكلنا كِسرنا ، ثم رجعنا . ففعلنا »[3].

عامر بن عبد قيس :

« بعث أمير البصرة إلى عامر بن عبد قيس : ما لَكَ لا تأكل الجبن ؟ قال : إنا بأرض فيها مجوس ، فما شهد مسلمان أنْ ليس فيها ميتة أكلتُه »[4].

* * *

(١) الورع لأحمد صـ ٤٤ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٤٣ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٤٢ .
(٤) السير ٤ / ١٨ ، وفي كتاب الزهد لأحمد : « السمن » ، وكلاهما صحيح .

عبيدة السلماني :

« روى هشامُ بن حسَّان ، عن محمد ، عن عبيدة ، قال : اختلف الناسُ في الأشربة ، فما لي شراب منذ ثلاثين سنة إلَّا العَسَل واللَّبن والماء »[١].

أبو وائل : شقيق بن سلمة :

« قال عاصم بن بَهْدلة : كان أبو وائل يقولُ لجاريته ، إذا جاءَ يحيى - يعني ابنَهُ - بشيءٍ فلا تقبليه ، وإذا جاء أصحابي بشيء فَخُذِيه . وكان ابنهُ قاضيًا على الكُناسة[٢]. قال : وكان لأبي وائل رحمه الله خُصٌّ من قصب ، يكون فيه هو وفرسه ، فإذا غزا ، نَقَضَهُ وتصدَّق به . فإذا رَجَعَ ، أنشأ بناءه .

قلتُ : قد كان هذا السَّيِّد رأسًا في العلم والعمل »[٣].

سعيد بن جُبير :

« قال الأعمش : لمّا جيء بسعيد بن جُبَيْر وطَلْقِ بن حبيب وأصحابهِمَا ؛ دخلتُ عليهم السجن ، فقلتُ : جاء بكم شرطي أو جُلَيْريز من مكَّةَ إلى القتل ، أفلا كَتَّفْتُمُوه وألقَيْتُمُوه في البريَّة ؟! فقال سعيد : فَمَنْ كان يسقيه الماء إذا عَطِشَ ! »[٤].

محمد بن سيرين :

قال الذهبي : « وقد وقف على ابن سيرين دَيْن كثير من أجل زيت

---

(١) السير ٤ / ٤٢ .
(٢) محلة بالكوفة .
(٣) السير ٤ / ١٦١ ، والحلية ٤ / ١٠٣ .
(٤) السير ٤ / ٣٤٠ .

كثير أراقه ؛ لكونه وجد في بعض الظروف فأرة »[١].

رحم الله ابن سيرين ، فلقد كان يركب مثل حدِّ السنان .

قال العلاء بن زياد : « لو كنتُ مُتمنِّيًا لتمنيتُ فقْه الحسن ، وورع ابن سيرين ، وصواب مطرف ، وصلاة مسلم بن يسار .

وعن بكر بن عبد الله قال : مَنْ سرَّه أن ينظر إلى أعلم رجل أدركناه في زمانه ؛ فلينظر إلى الحسن ، فما أدركنا أعلم منه . ومَنْ سرَّه أن ينظر إلى أورع رجل أدركناه في زمانه ؛ فلينظر إلى ابن سيرين ، إنه لَيَدَعُ بعض الحلال تأثُّمًا .

وقال مورق : ما رأيتُ رجلًا أفقه في ورعه ، ولا أورع في فقهه من محمد .

وقال أبو قلابة : اصرفوه كيف شئتم لتجدُنَّه رجُلًا .

وعن هشام قال : كان أنس بن مالك أوصىٰ أن يُغَسِّله محمد بن سيرين ، فلما مات أتى محمد بن سيرين ، فقيل له في ذلك . فقال : أنا محبوس في السجن . قالوا : قد استأذنَّا الأمير فأذن لك . قال : إن الأمير لم يحبسْني ، إنما حبسني الذي له عليَّ الحقُّ .

وعن ابن عون قال : كان محمد يكره أن يشتري بهذه الدنانير المُحدَثة والدراهم التي عليها اسم الله »[٢].

وقال هشام بن حسَّان : ترك محمد بن سيرين أربعين ألفًا فيما لا ترون به اليوم بأسًا .

---

(١) السير ٤ / ٦٠٩ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٤١ ، ٤٢ .

الحسن البصري :

قال الحسن : « إن هذه المكاسب قد فسدتْ ، فخذوا منها القوت ؛ أي شبه المضطر »[١].

طاووس :

« عن بلال بن كعب قال : كان طاووس إذا خرج من اليمن إلى مكة لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية »[٢].

« وقال المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : كان طاووس لا يشرب في طريق مكة إلَّا من الآبار القديمة ؟ قال : نعم . قد بلغني هذا عنه . وقال : طاووس كاسمه ، لقد افتعل ابنه على لسانه كتابًا إلى عمر بن عبد العزيز ، فأعطاه ثلاثمائة دينار ، فباع طاووس ضيعة له ، فبعث بها إلى عمر ، فأُريد طاووس على أن يدخل على ابنه وهو في الموت فأبى ، أو قال : دخل عليه في وقت الموت »[٣].

« قال يوسف بن أسباط : مرَّ طاووس بنهر قد كُرِي ، فأرادتْ بغلتُه أن تشرب ، فأبى أن يدعها ؛ يعني كراة السلطان »[٤].

« قال طاووس : مَثَلُ الإسلام كمثل شجرة ، فأصلُها الشهادة ، وساقُها كذا وكذا ، وورقها كذا - شيء سمّاه - وثمرها الورع ، لا خير في شجرة لا ثمر لها ، ولا خير في إنسان لا ورع له »[٥].

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١١ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٢٣ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٩ .
(٥) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٩ .

عمر بن عبد العزيز :

أخرج الإمام أحمد عن « عبد الله بن راشد - صاحب الطِّيب - قال : أتيتُ عمر بن عبد العزيز بالطِّيب الذي كان يُصنع للخلفاء من بيت المال ، فأمسك على أنفه ، وقال : إنما يُنتفع بريحه »[١].

وقال مسلمة بن عبد الملك : « دخلتُ على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه بعد الفجر ، فلا يدخل عليه أحدٌ ، فجاءته جارية بطبق عليه تمرٌ صيحاني ، وكان يُعجبه التمر ، فرفع بكفِّه منه ، فقال : يا مسلمة ، أترى لو أن رجُلًا أكل هذا ثم شرب عليه من الماء - على التمر طيب - أكان مُجزئه إلى الليل ؟ قلتُ : لا أدري . قال : فرفع أكثر منه ، فقال : هذا ؟ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ، كان كافيه دون هذا حتى ما يُبالي أن لا يذوق طعامًا غيره . قال : فعلامَ يدخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعتْ مني موعظة ما وقعتْ هذه »[٢].

قال فرات بن مسلم : « كنتُ أعرض على عمر بن عبد العزيز كُتُبي في كل جمعة ، فعرضتُها عليه ، فأخذ منها قرطاسًا قدْر أربع أصابع ، فكتب فيه حاجة . قال : فقلتُ : غفل أمير المؤمنين ، فأرسل من الغد أن جئني بكتُبك . قال : فجئتُ بها ، فبعثني في حاجة ، فلما جئتُ قال لي : ما لنا أن ننظر فيها . قلتُ : إنَّما نظرتَ فيها أمس . قال : فاذهب أبعث إليك ، فلما فتحتُ كُتُبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدْر القرطاس الذي أخذ »[٣].

* * *

---

(١) الورع لأحمد صـ ٢٥ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٦٣ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٢٣ .

يونس بن عُبيد :

قال رحمه الله : إنك لَتعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلَّم . وقال : ما أهمَّ رجُلًا كسْبه حتى أهمَّه أين يضع درهمه .

« قال النضرُ بن شُميل : غلا الخزُّ في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عُبيد خزَّازًا ، فعلم بذلك ، فاشترىٰ من رجل متاعًا بثلاثين ألفًا . فلما كان بعد ذلك ، قال لصاحبه : هل كنتَ علمتَ أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا ؟ قال : لا . ولو علمتُ لم أبع . قال : هَلُمَّ إليَّ مالي ، وخذْ مالك . فردَّ عليه الثلاثين الألف »[١].

كَهْمس :

قال الذهبي في السير ٦ / ٣١٧ : « قيل : إنَّ كهمسًا سقط منه دينار ، ففتَّش ، فلقيه ، فلم يأخذه ، وقال : لعلَّه غيره » .

عطاء بن محمد الحرَّاني :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - وذكر ورع عطاء بن محمد الحرَّاني . فذكر من ورعه ، قال : كان إذا قدم مكة حمل معه أحمال طعام ، وقال : لا أُنافس أهل مكة في سعرهم ، وكان يتأوَّل هذه الآية ﴿ **ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ** ﴾ . قال أبو عبد الله : ما بلغني عن أحد أنه نظر في هذا غير هذا »[٢].

أيوب بن النجَّار :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورع أيوب بن

(١) السير ٦ / ٢٩٣ ، والورع لأحمد صـ ٤٢ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٥ .

النجار ، فقال : قد كان خرج من ماله كله ، قد رأيتُه بمكة ومعه رشاءٌ يستقي به من بئر زمزم »[١].

أبو السّوار :

« قال مخلد بن حسين : استسقىٰ إنسان من منزل أبي السّوار ماءً ، فقالت امرأته:ما في الجُبِّ قطرة ، أو ما عندنا قطرة من ماء . قال : فذهب إلى عَكَرِ الجُبِّ أو ما في أسفله . قال : فجاء فصبَّ على رأسها ، وقال : يا أُمَّ السَّوار ، كم هاهنا من قطرة .

قال مخلد : إن أبا السوار العدوي أقبل عليه رجُلٌ بالأذىٰ فسكت ، حتىٰ إذا بلغ منزله أو دخل ؛ قال : حَسبُك إنْ شئت »[٢].

فهذا ورع في المنطق !

إبراهيم بن أدهم :

« قال أبو بكر المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : قد قال قادم الديلمي : قيل لإبراهيم بن أدهم : ألا تشرب من زمزم ؟ فقال : لو وجدتُ رشًا أو دلوًا لاستقيتُ .

وقيل لوهيب بن الورد : ألا تشرب من زمزم ؟ فقال : بأي دلو .

قال أبو عبد الله : ما ظننتُ أنّ وهيبًا قال هذا ، ولا ظننتُ أن أحدًا نظر في هذا غير أيوب بن النجار .

وقال محمد بن مقاتل : سقطتْ نفقة إبراهيم بن أدهم بمكة ، فمكث

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٤٤ .

خمسة عشر يومًا يستفُّ الرَّمْل »[١].

سفـيان الثـوري :

قال الذهبي في « السير » (٧ / ٢٦٠) : « قال قتيبة : لولا سفيان لمات الورَعُ » .

« قال الفريابي : قيل لسفيان أو سُئل عن الشرب من زمزم ، فقال : إن وجدت دلوًا فاشرب »[٢].

قال سفيان رحمه الله : « عليك بالزهد يبصِّرْك الله عورات الدنيا ، وعليك بالورع يُخَفِّفِ الله حسابك ، ودعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وادفعْ الشكَّ باليقين يسلمْ لك دينك »[٣].

عثمان بن زائدة :

قال عنه ابن حبان : كان من العُبَّاد المُتقشِّفين ، وأهل الورع الدقيق والجهد الجهيد .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورع عثمان بن زائدة ، فقال أبو عبد الله : قد قيل لسفيان – يعني الثوري – : مَنْ نسأل بعدك ؟ فقال: سلوا عثمان بن زائدة .

وقال عباس العنبري : سمعتُ أبا الوليد يقول : كنتُ مع عثمان بن زائدة ؛ فانطفأ مصباحه ، فذهب غلامه ، فأخذ له نارًا من قوم . فقال له عثمان : من أين هذا ؟ قال : من موضع سمَّاه . قال : فطفأه عثمان وقال :

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٣) الحلية ٧ / ٢٠ .

لا نستضيء بنارهم . سمعتُ عبَّاسًا العنبري يقول : قال لي بشر بن الحارث : انظر أن تكتب لي بأخلاق عثمان بن زائدة »[١].

روىٰ ابن أبي الدنيا في « الورع » : « قيل لسفيان بن عيينة : مَن أورع مَنْ رأيتَ ؟ قال : عثمان بن زائدة .

وقال أبو الوليد : ما سمعتُ عثمان بن زائدة تكلَّم بكلمة قطُّ لا يستثني فيها . وكان يقول : يا أبا الوليد ، إن حدَّث أبا الوليد . وكان يُكلِّمني نهارًا طويلًا ، ثم يقول : كلُّ ما جرىٰ بيني وبينك فهو إن كان كذلك ، إن شاء الله »[٢].

من سادات الوَرِعين :

« قال بشر بن الحارث : سمعتُ المُعافىٰ بن عمران يقول : كان عشرة فيمن مضىٰ من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد ، لا يُدخِلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ، وإلَّا استفّوا التراب . ثم عدَّ بشر : إبراهيم ابن أدهم ، وسليمان الخوَّاص ، وعلي بن الفُضيل ، وأبا معاوية الأسود ، ويوسف بن أسباط ، ووهيب بن الورد ، وحذيفة شيخ من أهل حرَّانِ ، وداود الطائي . فعدَّ عشرة كانوا لا يُدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ؛ وإلا استفّوا التراب »[٣].

يوسف بن أسباط :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر له رجُلٌ ورَعَ يوسف بن أسباط ، أنه كان ينزل فيما أُقطعوا بطرسوس ، فلما تبايعوا

(١) الورع لأحمد صـ ٥ ، ٦ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٩ .

اعتزل يوسف بن أسباط ، وكره مبايعتهم ؛ فاستحسن أبو عبد الله فعْل يوسف رحمه الله .

وسمعتُ شُعيب بن حرب ، وقيل له : يوسف بن أسباط من أين كان يأكل ؟ فقال شعيب : البِرُّ عشرة أجزاء ؛ تسعة في طلب الحلال ، يوسف أحكم التسعة . قال : وسمعتُ علي بن شعيب يقول : لمَّا فارق شعيبٌ يوسف بن أسباط زوَّده طعامًا . فقال شعيب لابنه : طعام يوسف بَقُّوه لي ، وكُلُوا أنتم طعامنا »[1].

محمد بن إدريس :

« قال المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر محمد بن إدريس الذي كان بالثغر ، فقال : كان ذلك رجُلَهم ، ذاك كان يأكل من الأسل ؛ يعني من نتفه .

علي بن شعيب يقول : لمّا قدم شعيب بن حرب على يوسف بن أسباط ؛ رأى عنده شابًّا يُكلِّم يوسف ويغتاظ له ، أو قال : يرفع صوته ، فقال شعيب : ترفعُ صوتك ؟ فقال له يوسف : يا أبا صالح ، إنه محمد بن إدريس ، إنه يدري من أين يأكل .

قال أبو عبد الله : كان محمد بن إدريس رَجُلًا من الثغر . قال شعيب : بأبي أنت وأُمِّي ، وإني نذرت إذا رأيتُك أن أُحدِّثك »[2].

وهيب بن الورد :

« قال شعيب بن حرب : ما احتملوا لأحد ما احتملوا لوهيب ، وكان

---

(١) الورع لأحمد صـ ٨ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٩ .

يشرب بدلوه »[١] .

قال ابن المبارك : ما جلستُ إلى أحد كان أنفع لي من مجالسة وهيب ، وكان لا يأكل من الفواكه ، وإذا انقضت السَّنة وذهبتِ الفواكه ؛ يكشف عن بطنه وينظر إليها ، ويقول : يا وهيب ، ما أرىٰ بك بأسًا ، ما أرى ترْكَك للفواكه ضرَّك شيئًا .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : وذكر وهيب ابن الورد ، فقال : قد كلّمه ابن المبارك فيما يجيء من مصر ، وإنما أراد ابن المبارك أن يُسهِّل عليه ، ولم يدرِ أنه يُشدِّد عليه ، وكان لا يأكل مما يجيء من مصر إلا الزيت . قال : سمعتُ محمد بن حبيس خادم وهيب يقول : كلَّم إبراهيم بن أدهم وهيبًا فيما يجيء من مصر . قال : فحال الناس بين إبراهيم وبين وهيب من أن يسمع كلامه . قال أبو بكر بن خلّاد : فقيل لابن حبيس : لو سمع كلامه أيش ترىٰ كان يصنع ؟ قال : كان - والله - لا يأكل إلا زبيب الطائف ، يقتصر عليه حتىٰ يلقىٰ الله عز وجل »[٢] .

« واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب ابن الورد بمكة ، فذكروا الرُّطَب . فقال وهيب : هو من أحبِّ الطعام إلَيَّ ، إلَّا أني لا آكله ؛ لاختلاط رُطَب مكة ببساتين زبيدة وغيرها . فقال له ابن المبارك : إنْ نظرتَ في مثل هذا ضاق عليك الخبز . فقال : وما سببُه ؟ قال : إن أصول الضياع اختلطت بالصوافي . فغُشي على وهيب . فقال سفيان : قتلتَ الرجل . فقال ابن المبارك : ما أردتُ إلا أن أُهوِّن عليه . فلما أفاق قال : لله عليَّ ألَّا آكل خبزًا أبدًا حتىٰ ألقاه . قال : فكان

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٥٣ .

يشرب اللبن . قال : فأتته أُمُّه بلبن ، فسألها . فقالت : هو من شاة بني فلان . فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم ، فذكرت . فلما أدناه من فيه قال : بقي أنها من أين كانت ترعى ! فسكتتْ ، فلم يشرب ؛ لأنها كانت ترعى من موضع فيه حقٌّ للمسلمين . فقالت أُمُّه : اشرب ؛ فإن الله يغفر لك . فقال : ما أُحبُّ أن يغفر لي وقد شربتُه ، فأنال مغفرته بمعصيته »[1].

« وقال وهيب : ألا حُرٌّ كريم يغضب على الدنيا فيخربها »[2].

« قال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك ، إنهم لَأَضرُّ على الأُمَّة من المُقامرين .

قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله – أحمد بن حنبل – وذكر قومًا من المُترَفين ، فقال : الدنوُّ منهم فتنة ، والجلوس معهم فتنة »[3].

أبو يوسف الغسولي :

« قال أبو عبد الله – أحمد بن حنبل – : أبو يوسف الغسولي قد خَلَف ابن إدريس ، يريد بذلك : الورع .

سمعتُ علي بن شعيب يقول : قال لي أبي : كنتَ قِلتَ عند فلان . قال : فقال لي : أكلتَ عنده ؟ قلتُ : نعم . قال : احمد ربَّك ، أكلتَ ما لا تُسأل عنه ؛ يعني عن كسبه ، سمعتُ أبا يوسف الغسولي يقول : إنه لَيكفيني في السَّنة اثنا عشر درهمًا ، في كل شهر درهم ، وما يحملني على العمل إلا ألسنة هؤلاء القرَّاء ، يقولون : أبو يوسف من أين يأكل .

---

(١) الإحياء ٢ / ١٠٤ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٤٣ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٥٠ .

سمعتُ أبا يوسف الغسولي يقول : أنا أتفقَّه في مطعمي منذ ستين سنة »[١] .

داود بن يحيىٰ بن يمان :

« قال المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : قدم داود بن يحيىٰ بن يمان ، وأيش كان ؟! ما كان أنسكه ؟! »[٢] .

حمّاد بن أبي حنيفة :

قال عنه الذهبي في « السير » (٦ / ٤٠٣) : « كان ذا علم ودين وصلاح وورع تامٍّ . لمَّا تُوفِّي والده ؛ كان عنده ودائع كثيرة ، وأهلُها غائبون ، فنقلها حمَّاد إلى الحاكم ليتسلَّمها . فقال : بل دعها عندك ، فإنك أهل . فقال : زِنْها واقبضها حتى تبرأ منها ذِمَّة الوالد ، ثم افعل ما ترىٰ . ففعل القاضي ذلك . وبقي في وزنها وحسابها أيامًا ، واستتر حماد ، فما ظهر حتى أودعها القاضي عند أمين » .

حمزة بن حبيب الزيَّات شيخ القُرَّاء :

قال الذهبي في « السير » (٧ / ٩٠) : « كان يجلِبُ الزَّيْت من الكوفة إلى حُلوان ، ثم يجلِبُ منها الجُبْنَ والجَوْزَ ، وكان إمامًا قَيِّمًا لكتاب الله ، قانتًا لله ، ثَخِينَ الورع ، رفيعَ الذِّكر ، عالمًا بالحديث والفرائض . أصلُه فارسي .

قال حسين الجُعْفي : ربَّما عطِش حمزة ، فلا يَسْتَسقي ؛ كراهية أَنْ يُصَادِف مَنْ قَرَأ عليه .

---

(١) الورع لأحمد صـ ٩ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٩ .

قال ابن فُضَيل : ما أحْسِب أن الله يَدفَعُ البلاءَ عن أهـلِ الكوفَةِ إلا بحمزةَ » .

يزيد بن زُريع :

« قال ابن حبَّان : مات سنة اثنتين أو ثلاث وثمانين ، في ثامن شوال . وكان مِن أورع أهلِ زمانه .

مات أبوه ، وكان واليًا على الأُبُلَّة ، فخلَّف خمسمائة ألف ، فما أخذ منها حبَّة ، رحمه الله »[1].

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورَع يزيد بن زُريع ، فقال : قد تنزَّه عن ميراث أبيه . سمعتُ عبد الوهاب يقول : سمعتُ أبا سليمان الأشقر – وكفاك بأبي سليمان – قال : قد تنزَّه يزيد بن زُريع عن خمسمائة ألف من ميراث أبيه فلم يأخذه . وسمعتُ أُميَّة بن بسطام ابن عمِّ يزيد بن زُريع يقول : كان يزيد يعمل الخوص ، وكان يكون في هذا البيت ؛ وأشار إلى بيت لطيف في المسجد . وكان زُريع واليًا »[2].

الإمام عبد الله بن المبارك :

« قال الحسن بن عرفة : قال لي ابنُ المبارك : استعرتُ قلمًا بأرض الشَّام ، فذهبتُ على أن أردَّه ، فلما قدمتُ مرو ؛ نظرتُ فإذا هو معي ، فرجعتُ إلى الشام حتى رددتُه على صاحبه »[3].

« قال الحسن بن الربيع : لما احتُضِرَ ابن المبارك في السَّفر قال : أشتهي

---

(١) السير ٨ / ٢٩٩ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٦ – ٧ .
(٣) السير ٨ / ٣٩٥ .

سويقًا ، فلم نجـدْه إلا عند رجل كان يعمل للسلطان ، وكان معنا في السفينة ، فذكرْنا ذلك لعبد الله ، فقال : دعوه . فمات ولم يَشْرَبْه »[١] .

قال أبو بكر المروزي : « سمعتُ أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - وذكر ورَع ابن المبارك ، فقال : إنما رفعه الله بمثل هذا » .

علي بن الفُضيل بن عياض :

قال الذهبي في « السِّيَر » (٨ / ٤٤٢ ، ٤٤٣) : « من كبار الأولياء ، ومات قبلَ والده . وكان عليٌّ قانتًا لله ، خاشعًا ، وَجِلًا ، رَبَّانيًّا ، كبيرَ الشأن » .

« عن فضيل ، أنهم اشتَرَوْا شعيرًا بدينار ، وكان الغَلاء ، فقالت أمُّ علي للفضيل : قوِّرْتُه لِكل إنسان قرصين ، فكان عليٌّ يأخذ واحدًا ، ويتصدَّقُ بالآخر ، حتى كاد أن يُصيبه الخَوَاءُ »[٢] .

وبه ، « أن عليًّا كان يحمِل على أباعِرَ لأبيه ، فنقص الطعامُ الذي حمله ، فحبس عنه الكِرَاء فأتى الفُضيل إليهم ، فقال : أتفعلون هذا بعليٍّ ، فقد كانت لنا شاةٌ بالكوفة ، أكلتْ شيئًا يسيرًا مِن علف أمير ، فما شَرِبَ لها لبنًا بعدُ . قالوا : لم نعلم يا أبا علي أنه ابنُك »[٣] .

« حمَّاد بن الحسن : حدَّثنا عمر بن بِشْر المكي ، عن الفُضيل قال : أهدىٰ لنا ابن المبارك شاةً فكان ابني لا يشربُ منها ، فقلتُ له في ذلك فقال : إنها قد رعتْ بالعراق »[٤] .

---

(١) السير ٨ / ٤١١ .
(٢) الحلية ٨ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٣) الحلية ٨ / ٢٩٨ .
(٤) السير ٨ / ٤٤٦ .

أبو بكر بن عيَّاش :

« قال يحيىٰ بن سعيد : زاملتُ أبا بكر بن عياش إلى مكة ، فما رأيتُ أورَعَ منه ، لقد أهدىٰ له رَجُلٌ رُطَبًا ، فبلغه أنه من بستانٍ أُخِذَ من خالد ابن سلمَة المخزومي ، فأتى آلَ خالد ، فاستحلَّهم ، وتصدَّق بثمنه »[1].

منصـــور :

« عن الحسن بن صالح،عن منصور أنه كان في الديوان ، وكان في الديوان دَنٌّ فيه طين ، فقال له رجل : ناوْلني طينًا أختم به هذا الكتاب . قال : أعطني كتابك حتى أنظر ما فيه »[2].

أبو جمـيل :

« قال زكريا المروزي : جاء رجل بكتاب إلى أبي جميل ، فقال له : هذا الكتاب تحمله معك . قـال : حتىٰ أستأمر الحمَّال . قـال : فأتىٰ به عبد الله بن المبارك ، فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ، هذا الكتاب تحمله معك . قال : ادفعه إلى الغلام . فقال : إني أتيتُ أبا جميل ، فقال : حتىٰ أستأمر الحمَّال . قال ابن المبارك : ومن يُطيق ما يُطيق أبو جميل ؛ مرَّتين »[3].

زاذان :

« قال سالم بن أبي حفصة : كان زاذان إذا عرض الثوب ناول ثمن[4] الطرفين »[5].

---

(١) السير ٨ / ٤٩٩ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٨٢ .
(٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٢ .
(٤) يعني أردأ الطرفين .
(٥) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٤ .

مجمع التيمي :

« قال سفيان بن مسعر : جاء مجمع التيمي بشاة يبيعها ، فقال : إني أحسب أو أظنُّ في لبنها ملوحة »[١].

عمرو بن قيس :

« قال علي بن يزيد : كان عمرو بن قيس إذا باع الثوب - يعني المقطوع - قال : أبرأ إليك من العرض في الطول ، ومن الطول في العرض ، وما أفسد الحائك والعقد »[٢].

حسَّان بن أبي سنان :

« قال عبد الله : كتب غلام لحسَّان بن أبي سنان إليه من الأهواز ، أنَّ قصبَ السُّكَّر أصابته آفة ، فاشترِ السُّكَّر فيما قِبَلك . قال : فاشتراه من رجل ، فلم يأتِ عليه إلا قليل ؛ فإذا فيما اشترىٰ ربح ثلاثين ألفًا ، فأتىٰ صاحب السُّكَّر ، فقال : يا هذا ، إن غلامي كان كتب إلَيَّ و لم أُعلِمْك ، فأقلْني فيما اشتريتُ منك . فقال الآخر : فقد أعلمتني الآن وطيَّبته لك . قال : فرجع فلم يحتمل قلبُه . قال : فأتاه ، فقال : يا هذا ، إني لم آتِ هذا الأمر من قِبَل وجهه ، فأُحبُّ أن يُستردَّ هذا البيع . قال : فما زال به حتىٰ ردَّ عليه »[٣].

شُعيب بن حرب :

« قال محمد بن عبد الله : رأيتُ قد بَنَوْا درجة لمسجد شُعيب في الطريق ، فقال : لا وضعتُ رِجْلي عليها حتى تُهْدَمَ .

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٤ .

(٢،٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٥ .

قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورَع شعيب ابن حرب ، فقال : لقد دقَّق ، فقال : ليس لك أن تُطيِّن من خارج ؛ لئلا تخرج في الطريق .

وقال محمد بن عبد الله البزّاز : سمعتُ شعيب بن حرب يقول : لك أن تُطيِّن الحائط من خارج ، وليس لك أن تُجصِّصَه ؛ لعله أن يخرج في الطريق »[١].

ابن عـون :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ابنَ عون ، فقال : كان لا يُكري دوره من المسلمين . قلتُ : لأيِّ عِلّةٍ ؟ قال : لئلا يُروِّعَهم »[٢].

« قال أبو الأسود حميد : قال ابن عون لرجل : إني سأُحسن إليك . فأتاه متاع من موضع ، فدعا الرجل ، فقال له : ضعْ عليه صنفًا صنفًا ما أردتَ ، ففعل الرجل . فقال له ابن عون : إن دفعتُه إليك بما وضعتَ أتراني أحسنتُ ؟ قال : نعم . قال : هـو لك ، ثم قال : لا أدري أبلغتُ مبلغ الإحسان أم لا ؟ »[٣].

محمد بن واسع :

« قال الربيع اليحمـدي : رأيتُ محمد بن واسع يبيع حمارًا بسـوق بلخ ، فقال له رجل : أترضاه لي ؟ قال : لو رضيتُه لم أبِعْه »[٤].

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٤٦ ، ٤٧ .

(٣،٤) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٦ .

وقال محمد بن واسع : يكفي من الدعاء مع الورعِ اليسيرُ منه .

أيوب بن راشد :

« قال رباح بن الجرَّاح : رأيتُ أبا شعيب أيوب بن راشد ، فما رأيتُ أحدًا كان أورع منه ، كان يكنس حيطان بيته ، فإذا وقع شيء من حيطان جيرانه جمعه فذهب به إليهم »[١].

أبو داود الحَفَري :

قال الجوهري : « رأيتُ أبا داود الحفري وعليه خِرقتان : إزار ، ورِداء فيه عِدَّةُ رِقاع ، وكان إذا أراد أنْ ينتثر ؛ خرج من المسجد ، وكان مسجدُهُم مُحَصَّبًا ، فقيل : أليس كفَّارتُها دفنَها ؟ فيقولُ : لعلِّي أؤخَذ قبل أنْ أُكَفِّرَ .

وتزوَّجَ بامرأةٍ ، فأَصْدَقَهَا ثلاثةَ دنانير ، وكان قُوتُه كلَّ ليلةٍ قُرْصَيْن ، وبفلسٍ فجل أو هِنْدَبا .

قال أبو حمدون الطَّيِّبُ المُقرئ : دفنَّا أبا داود الحفري رحمه الله ، وتركنا بابه مفتوحًا ، ما كانَ في البيت شيء »[٢].

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتابه « الورع » صـ ٧٧ : « رأيتُ أبا داود الحفري وعليه جُبَّةٌ خَلِقة ، قد خرج القطن منها ، بين المغرب والعشاء يُصلِّي ويترجَّح من الجوع .

وسمعتُ بعض المشيخة يقول : سمعتُ أن أبا داود الحفري سمع رجُلًا

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ٤١٥ .

يقول : أَكَلْنا كذا وأَكَلْنا كذا . فقال له أبو داود : اسكتْ ، لي اليوم ثلاث ، ما أكلتُ إلا بقلًا وخلًّا ولم يُيسَّر خُبزٌ .

وسمعتُ عثمان بن أبي شيبة يقول : سمعتُ أبا داود الحفري يقول : إذا أصبتُ قرصين من شعير عند فطري فعلىٰ مُلك أبي جعفر العفا .

سمعتُ طحَّانًا بالكوفة يقول : كان أبو داود الحفري يأكل النُّخالة ، وكان يجلس إليه ، ثم خلف بعد أبي داود أبو كُريب ، فلا أدري لمن قال أنه كان يأكل النخالة ؛ لأحدهما أو جميعًا » .

زكريا بن عدي بن زُريق :

« قال أبو يحيىٰ صاعِقة : قدم زكريا بنُ عدي ، فكلَّموا له مَن يستعْمِلُه على قَرْيَةٍ في الشَّهْرِ بثلاثين دِرْهَمًا ، فرجَع بعد شَهر ، وقال : ليس أَجدُني أعمل بقدر الأجرة .

واشتكتْ عينه ، فأتاه رجل بكُحْل . فقال : أنت ممّنْ يسمع الحديث مني ؟ قال : نعم . فأبىٰ أن يأخذه »[1] .

شيخ أهل الورَع : بِشْرُ بنُ الحارث الحافي :

« قال أبو بكر بنُ عثمان : سمعتُ بشرَ بن الحارث يقول : إني لأشتهي شِوَاءً منذ أربعين سنةً ، ما صفا لي درهمُه .

قال محمدُ بن عبد الوهّاب الفَرَّاء : حدَّثنا عليُّ بن عثَّام ، قال : أقام بشرُ ابن الحارث بعبَّادان يشربُ ماءَ البحرِ ، ولا يشربُ من حياضِ السلطان ، حتى أضرَّ بجوفه ، ورجع إلى أُختهِ وجِعًا ، وكان يعملُ المغازِلَ ويَبيعُها ، فذاكَ كسبُه »[2] .

---

(١) تاريخ بغداد ٨ / ٤٥٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) تاريخ بغداد ٧ / ٧٦ .

رضي الله عنك يا بشر ، كم جُعتَ سيدي من أجل ورَعك !!

« قال أبو بكرٍ المروزي : سمعتُ بشرًا يقولُ : الجوعُ يُصفِّي الفؤادَ ، ويُميت الهوىٰ ، ويُورِثُ العلمَ الدقيق »(١).

« قال بشر رحمه الله : ما شبعتُ منذ خمسين سنة ؛ يعني من السواد .

وقال رحمه الله : ما ينبغي للرجل أن يشبع اليوم من الحلال ؛ لأنه إذا شبع من الحلال دعتْه نفسه إلى الحرام ، فكيف إلى هذه الأقذار اليوم !

وقال رحمه الله : ينبغي للرجل إذا كان عنده شيء يستطيبه أن يرفعه - أو قال : يتقوَّته - ويتنزّه عن هذه الأقذار »(٢).

« وقال رحمه الله : ينبغي للرجل أن ينظر خُبْزَه من أين هو ، ومسكنَه الذي سكنه ، أصلُه من أيش هو ، ثم يتكلَّم »(٣).

« قال أبو بكر المروزي : أدخلتُ على أبي عبد الله رجُلًا - وهو حطَّاب - فقال : إن لي إخوةً ، وكسبُهم من الشُّبهة ، فربما طبختْ أُمُّنا ، وتسألنا أن نجتمع ونأكل . فقال : هذا موضع بشر ، لو كان لك حيًّا كان موضعًا تسأله ، أسأل الله ألَّا يمقتنا ، ولكن تأتي أبا الحسن عبد الوهاب فتسأله . فقال له الرجل : فتخبرني بما في العلم ؟ قال : قد روي عن الحسن : إذا استأذن والدته في الجهاد فأذنت له وعلم أن هواها في المقام ؛ فليقمْ »(٤).

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٧١ .
(٢) الورع لابن حنبل صـ ٧ .
(٣) الورع لأحمد صـ ١٠ .
(٤) الورع لأحمد صـ ٣٣ .

أيُّ فخار وأي تاج يضعه على جبينك يا بشر إمامُ أهل السُّنة حين يقول : « هذا موضع بشر » !! ويقول في حادثة أُخرىٰ لأخت بشر : « من بيتكم خرج الورَعُ » !!

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : « سمِعتُ قرابة بشر بن الحارث يقول : قدم بشر بن الحارث من عبَّادان ليلًا – أو قال : من سفر – وهو مُتَّزِرٌ بحصير .

سمعتُ بعض أصحابنا يقول : قال بشر لأُناس : هذا أويس عري حتى قعد في قوصرة .

وقيل لبشر بن الحارث : لو اتخذتَ في مقطوعك لفافة أو نحوها – وذكر له الندىٰ والبرد – فقال : لهذا البرد نهاية وينقطع ؟ قالوا : نعم . قال : فالأمر قريب »[1] .

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول في ذكْر بشر ابن الحارث ، فقال : رحمه الله ، لقد كان فيه أُنْسٌ . وذُكر له شيء من أمْر الورع ، فقال : يُسأل عن مثل هذا بشر ، لو كان حيًّا كان موضعًا لهذا ، هذا موضع بشر ، وأنا لا ينبغي لي أن أتكلَّم في هذا »[2] .

وقال أحمد بن حنبل : « سمعتُ أبا نصر التمَّار يقول : قال لي بشر ابن الحارث : إني لَأَشتهي الباذنجان منذ عشرين سنة »[3] .

(١) الورع لأحمد صـ ٤٤ .
(٢) الورع صـ ٤٦ .
(٣) الورع صـ ٦٣ .

قال أحمد بن حنبل : « سمعتُ عبد الرحمٰن المُتطبِّب يقول : جئتُ بشرًا بقارورة فيها دواء . فقال : قارورتك هذه تُشبه قوارير الملوك . فردَّها ولم يقبلْها »[١].

« كان بشر الحافي رحمه الله من الورعين . فقيل له : من أين تأكل . فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس مَنْ يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك . وقال : يدٌ أقصر من يدٍ ، ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشُّبُهات »[٢].

أبو عبد الله الطوسي التروغندي :

« كان لأبي عبد الله الطوسي التروغندي شاةٌ يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء ، ويرعاها وهو يصلي ، وكان يأكل من لبنها ، فغفل عنها ساعة ، فتناولتْ من ورق كرمٍ علىٰ طرف بستان ؛ فتركها في البستان و لم يستحلَّ أخْذها »[٣].

داود الطـائي :

قال أحمد بن حنبل : « كان عندي مولًى لابن المبارك ، فذكر عن ابن المبارك ، قال : الأمر ما كان عليه داود الطائي »[٤].

عيسى بن يونس :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورَعَ عيسىٰ بن يونس ، فقال : قدم فُرفع في حصن منقوب ، فأمروا له بمائة ألف - أو

---

(١) الورع لأحمد صـ ٧٧ .
(٢) إحياء علوم الدين ٢ / ١٠٤ .
(٣) الإحياء ٢ / ١٢٥ .
(٤) الورع لأحمد صـ ٧ .

قال : بمال - فلم يقبل ، ويُدرىٰ ابن كم كان عيسىٰ ؟! كأنه أراد به أنه كان حَدَثًا »[(١)].

أبو العباس الخطَّاب :

« قال ابن أبي خالد الخطَّاب : كنتُ مع أبي العبَّاس الخطَّاب ، وقد جاء يُعزِّي رجلًا ماتت امرأته ، وفي البيت بساط ، فقام أبو العباس على باب البيت ، فقال : أيها الرجل ، معك وارث غيرك ؟ قال : نعم . قال : فما قعودك على ما لا تملك ، أو كلامًا ذا معناه . قال : فتنحَّى الرجل عن البساط »[(٢)].

الضحَّاك صاحب بشر :

قال الإمام أحمد : « بلغني عن الضحَّاك صاحب بشر بن الحارث ، قال : كان يجيء إلى أخته حين مات زوجها فيبيت عندها ، فيجيء معه بشيء يقعُدُ عليه ، ولم يرَ أن يقعد على ما خلَّف من غَلَّة الورثة »[(٣)].

عبد الرحمٰن بن مهدي :

« قال موسىٰ بن عبد الرحمٰن بن مهدي : لمّا قُبِضَ عمِّي أُغمي على أبي ، فلما أفاق قال : البساط ! نحُّوه ، أي أدرِجُوه ، لعلَّه للورثة »[(٤)].

بشر بن منصور السليمي :

قال أبو نعيم في الحلية (٦ / ٢٣٩) : « قال عبد الرحمٰن بن مهدي : أتاني بشر بن منصور مرَّة في حاجة . فقلتُ له : ألا بعثتَ إليَّ حتى آتيك ؟ قال : لا ، الحاجة لي . وعرضتُ عليه دابة يركب يرجع عليها . قال :

---

(١) الورع لأحمد صـ ٨ .

(٢،٣،٤) الورع لأحمد صـ ٢٣ .

أكره أن أُعوِّد نفسي هذه العادة . وبنى عيسى بن جعفر بِرْكَة ، فكان لا يشرب من مائها ، ويبعث إلى النهر جارية له ، فتجيئه بجرَّة ، فقال : لو كنتُ غنيًّا لم يُفطن لي ، كنتُ أُرسل مَنْ يستقي لي على حمار ، ثم تدارك كلمته ، فقال : أستغفر الله ، إني لبخير ، إني لبخير . قال عبد الرحمـٰن : فكان بشر ابن منصور يكره أن يشتري من رجل بنى كُويخًا في غير حقِّه » .

« وقال شقيق العصفري لبشر بن منصور : يسرُّك أنَّ لك مائة ألف ؟ فقال : لَأَنْ تَنْدَرا - وأشار إلى عينيه - أحبُّ إليَّ من ذاك . قال غسَّان : علَّم بشر بنيه عَمَلَ الخوص » .

شميط :

كان رحمه الله يقول في كلامه : « أبناء دنيا يرضعونها ، لا ينفطمون عن رضاعها » .

وقال رحمه الله : « إن الدينار والدرهم أزِمَّة المنافقين ، بها يُقادون إلى السَّوْءات »[1].

وكيع :

« عن عبد الواحد القنطري قال : قال وكيع : نظرتُ في زادي فلم يصحَّ لي ، ونظرتُ في ثوبَيْ إحرامي فلم يصحَّ لي ، فما على رجل أن يخلع ثيابه ويقوم في الماء حتى يرزقه الله »[2].

ورَع إمام أهل السُّنة أحمد بن حنبل :

« كان رحمه الله لا يأخذ من الخلفاء شيئًا ... حتىٰ في سجنه .

---

(١) الورع لأحمد صـ ٤٢ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٤٣ .

ولقد صبر رحمه الله على مقدار رُبع سويق - وهو الكيلجة - خمسة عشر يومًا بمعسكر المتوكل ، يعتصم بذلك حتى أتته النفقة من بغداد ، ولا يذوق من مائدة المتوكل »[١].

« ولقد دفع المأمون إلى إسحاق بن موسىٰ الأنصاري مالًا ، وقال : اقسمْه على أصحاب الحديث ، فإنهم ضعفاء ، فما بقي أحدٌ منهم إلا أخذ ؛ إلا أحمد بن حنبل ، فإنه أبىٰ »[٢].

« قال فوران : كنا عند أحمد بن حنبل قبل أن يموت بليلتين ، وكان ثَمَّ غلام أسود لأبي يوسف - يعني عمَّه - اشتراه من هذا المال ، فذهب يُرَوِّح أحمد ؛ فنهاه .

وقال سليمان بن داود الشاذكوني : علي بن المديني يتشبَّه بأحمد ابن حنبل ؟! هيهات ما أُشَبِّهُ السَّكَّ باللَّكِّ[٣] ، لقد حضرتُ من ورعه شيئًا بمكة ؛ إنه رهن سطلًا عند فاميٍّ ، فأخذ منه شيئًا يتقوَّته ، فجاء فأعطاه فكاكه ، فأخرج إليه سَطْلَيْن ، فقال : انظر أيهما سطْلُك فخذْه . فقال : لا أدري ، أنت في حِلٍّ منه ومما أعطيتك في حلٍّ ، ولم يأخذه . قال الفامي : والله إنه لَسَطْلُه ، وإنما أردتُ أن أمتحنه فيه »[٤].

« وقال أحمد بن القاسم الطوسي : كان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصراني غمَّض عينيه ، فقيل له في ذلك ؛ فقال : لا أقدر أنظر إلى مَنِ افترىٰ على الله وكذب ....

(١) الورع لأحمد صـ ٥٠ .
(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٢٧ .
(٣) السَّكُّ : ضربٌ من الطيب ، واللَّكُّ نبات يصبغ به .
(٤) مناقب الإمام صـ ٣٢٨ .

عليه »[١] .

قال علي بن المديني : ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد بن حنبل ، وبلغني أنه لا يُحدِّث إلا من كتاب ، ولنا فيه أُسوة حسنة .

وقال أحمد بن محمد التستري : ذكروا أن أحمد بن حنبل أتى عليه ثلاثة أيام ما كان طعم فيها ، فبعث إلى صديق له ، فاستقرض شيئًا من الدقيق ، فعرفوا في البيت شدَّة حاجته إلى الطعام ، فخبزوا له بالعجلة ، فلما وُضع بين يديه قال : كيف خبزتم هذا بسرعة ؟ فقيل له : كان التَّنُّور في بيت صالح مسجورًا ، فخبزنا بالعجلة ، فقال : ارفعوا . ولم يأكل ، وأمر بسدِّ بابه إلى دار صالح .

وقال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول في مرضه الذي مات فيه لأُمِّ ولده : ومَنْ قال لكِ أن تخبزي ثَمَّ شيئًا ، وقد كانت خبزتْ مرَّة غير تلك ، فقال لها : ومَنْ يأكله ؟ فلم يأكل منه شيئًا ؛ يعني بيت صالح ولده .

قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وقال لي ونحن في موضع : ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾ ، ثم قال : قد سكنَّا . قال : أو نحن فيها ؟

قال إسحاق بن إبراهيم بن هاني : أعطاني أبو عبد الله يومًا قطعةً ، فقال : اشترِ لي بهذه القطعة باقلّاء وماءه . وأعطتني أيضًا حُسن أُمُّ ولده قطعةً ، فقالت : اشترِ لي بهذه القطعة أيضًا باقلّا ، فقال : اشترِ للصبيان زيتًا وباقلّا ، ففضُل حبةٌ أو حبتان من قِطَع الصبيان ، فقلتُ لصاحب الباقلّا :

---

(١) مناقب الإمام صـ ٣٢٨ .

أعطني به زيتًا ، فصببتُه على الباقلّا الذي أخذتُه لأبي عبد الله ، فلما جئتُ به وضعتُه بين يديه ، فنظر أثر الزيت ، فقال لي : ما هذا ؟ فقلتُ : فضُل من قِطَع الصبيان حبَّة ، فصببت لك بها زيتًا ، فقال : ارفع يا أحمق ! وَمَنْ أمرك بهذا ؟ متى تعقل ؟ ولم يأكله !

وقال محمد بن علي السمسار : سمعتُ أبا عبد الله يقول لإسحاق ابن إبراهيم النيسابوري : خذْ من أمِّ علي - يعني ابنة أبي عبد الله - ما تُعطيك . فدخل وخرج ومعه دجاجة ، فخرجنا جميعًا ، فقلتُ لإسحاق : ما قال لك ؟ قال : قالت : أبي يُريد أن يحتجم وليس معه شيء ، فقال لي : أعطي إسحاق الدجاجة يبيعها ، فإني محتاج إلى الحجامة . فصرنا بها إلى السوق ، فأُعطي بها درهمًا ودانقَيْن ، فلم يبعها وردَّها ، فلما صرنا إلى القنطرة فإذا عبد الله جالس في دُكَّان ابن بختان ، فدعا إسحاق ، وقال : أيُّ شيء هذه ؟ لمن هذه ؟ فقلتُ : أعطتني أُمُّ علي أبيعُها ، فقال : كَمْ أُعطيتَ بها ؟ قال : درهمًا ودانقيْن ، فقال : بعنيها بدرهم ونصف ، فأعطاه درهمًا ونصفًا وأخذها منه ، فلما صار إلى أبي عبد الله ، قالت أُمُّ علي : بِكَمْ بعتَهَا ؟ قال : بدرهم ونصف . فقالت : بسّ ؟ فقال لها : أعطَوْني في السوق درهمًا ودانقيْن . فقال أبو عبد الله : يا إسحاق ، ممَّنْ بعتَها ؟ قلتُ له: مِن عبد الله . فأخذ الثمنَ من أُمِّ عليٍّ ، وقال : مُرَّ ، رُدَّها . فخرج إسحاق يعدو ، حتى جاء إلى عبد الله ، فقال له : رُدَّها ، فقد صاح عليَّ أبوك . قال : ولِمَ قلتَ له ؟ فردَّها . قال إسحاق : فقال لي أبو عبد الله : مُرَّ بها إلى السوق ، ولا تمرَّ على عبد الله . فبعتُها من غريب بدرهم وثُلُث ، ثم جئتُ إلى أبي عبد الله ، فقال : لعلَّك دفعتَها إلى عبد الله ؟ قلتُ : لا ، بعتُها من رجُل غريب .

وعن صالح قال أن أباه مرض ، فوصف له عبد الرحمـٰن المُتطبِّبُ

قرعة تُشوى ويُسقى ماؤها ، فقال لي : يا صالح ، لا تشوِ في منزلك ، ولا منزل عبد الله ، فسمعتُ أبا بكر المروزي يقول : فمضيتُ بها وشويتُها وجئتُ بها إليه .

وإن تعجبْ فاعجبْ من إمام أهل السنة :

قال محمد بن عياش : أرسلَني أبو عبد الله ، فاشتريتُ له سمنًا بقطعة ، فجئتُ به على ورقة بقل ، فأخذ السمن وأعطاني الورقة ، وقال : رُدَّها .

لله دَرُّك يا إمام ! فقد أتعبتَ الوَرِعين من بعدك .. فكيف بمن خلَّطوا ؟!

قال جعفر بن محمد بن يعقوب : جاء رسول من دار أحمد بن حنبل إليه ؛ يذكر له أن أبا عبد الرحمـن[1] عليل واشتهى الزبد ، فناول رجلًا من أصحابه قطعة وقال : اشترِ له بها زبدًا ، فجاء به على ورق سلق . فلما أن نظر إليه قال : من أين هذا الورق ؟ فقال : أخذتُه من عند البقَّال . فقال : استأذنته في ذلك ؟ فقال : لا . قال : رُدَّه .

وقال عبد الله بن أيوب المخزومي : نزل عندنا رَوْح بن عبادة ، فجاء أحمد بن حنبل إليه ، وبات هاهنا وخُبزُه في كُمِّه ، ويشرب من ماء النهر ، وينتظر روحًا حتى خرج ، فجاء يحيي بن أكثم في ضِبنه ، فجلس بين يديْ أحمد ، وجعل يسأله ، وأحمد مُطرِقٌ ، فلما رآه لا يُقبل عليه قام وتركه .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل : وُلد لي مولود ، فأهدى لي صديق شيئًا ، ثم أتى على ذلك أشهر ، وأراد الخروج إلى البصرة ، فقال لي : تُكَلِّمُ أبا عبد الله يكتب لي إلى مشايخ بالبصرة . فكلَّمتُه ، فقال : لولا أنه

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل .

أهدىٰ إليك كنتُ أكتب له .

وقال عبد الله بن أحمد : كان هاهنا شيخ قال : رأيتُ على أبي عبد الله جَرَبًا ، فجئتُ بدواء ، فقلتُ : ضعْ هذا عليه . فأخذه ثم ردَّه ، فقلتُ له : لِمَ رددتَه ؟ فقال : أنتم تسمعون مني .

لله دَرُّ إمام أهل السُّنة ابن حنبل ! يظهر ورعه بيِّنًا في المسائل التي أجاب عنها !!

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : أكره الشرب من هذه الآبار التي في الطرقات .

قلتُ لأبي عبد الله : بئر احْتُفِرَتْ ، وقد أوصىٰ مُخنَّثٌ أن يُعان فيها ؛ ترىٰ الشُّربَ منها ؟ قال : لا ، كَسْبُ المُخنَّث خبيثٌ ، يكسبه بالطبل . قلتُ : فإن رُشَّ منها المسجد ترىٰ أن يُتوقَّى ؟ فتبسَّم »[1].

« قال أبو بكر المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : إني أُدعىٰ أُغسِّل الميت في يوم بارد ، فيفضُل من الماء الحارِّ ، ترىٰ أن أتوضَّأ منه ؟ قال : لا ، ذاك قد أُسخن بكُلْفة ؛ كأنه ذهب إلى أمْر الورثة »[2].

« قلتُ لأبي عبد الله : إن عيسىٰ الفتاح قال : سألتُ بشر بن الحارث : هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ قال : لا ، فقال أبو عبد الله : هذا سديد »[3].

« قال أبو بكر المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : ما تقول في طيرة أنثى جاءت إلى قوم ، فأزوجت عندهم وفرخت ، لمن الفرخ ؟ قال :

---

(١) الورع لابن حنبل صـ ٢١ .
(٢) الورع لابن حنبل صـ ٢٣ .
(٣) الورع لابن حنبل صـ ٣٢ .

يتبعون الأم . وأظن أني سمعتُه يقول في الحمام الذي يرعىٰ في الصحراء : أكره أكْل فراخها ، وكره أن يرعىٰ في الصحراء ، وقال : تأكل طعام الناس »(١).

قال إبراهيم الحربي : لزمتُ أحمد بن حنبل سنتين ، فكان إذا خرج يُحدِّثنا يخرج معه محبرة مُجلَّدة بجلد أحمر وقلمًا ، فإذا مرَّ به سَقْطٌ أَوْ خطأٌ في كتابه ؛ أصلحه بقلمه من محبرته ، يتورَّع أن يأخذ من محبرة أحدنا شيئًا ، وكنا نقول لأحمد في الشيء يحفظه ، فيقول : لا ، إلا في كتاب .

قال إبراهيم : ما خرج إلينا أحمد بن حنبل رحمه الله قطُّ إلا ومعه محبرة وقلم ، يتورَّع أن يأخذ منا مُدَّة(٢) ، فيُصلح بها سينًا أو شكلة .

قال عبد الله بن أحمد : سمعتُ أبي يقول ليحيىٰ بن معين : يا أبا زكريا ، بلغني أنك تقول : حدَّثنا إسماعيل بن عُليَّة . فقال يحيىٰ : نعم ، أقول هكذا . قال أحمد : فلا تقُلْه ، قل : إسماعيل بن إبراهيم ، فإنه بلغني أنه يكره أن يُنسب إلى أُمِّه . قال يحيىٰ لأبي : قد قبلنا منك يا مُعلِّمَ الخير .

وقال أبو فروة يزيد بن محمد الرهاوي : لقيتُ أبا عبد الله أحمد ابن محمد بن حنبل ببغداد ، فقال لي فيما يقول : ما فعل الرجل الذي عندكم بحرَّان (الجوهري) ، عنده علم ؟ فقلتُ له : ما أعرف بحرَّان جوهريًّا يُكتب عنه ، فقال : بلىٰ ، صاحب أبي معبد حفص بن غيلان ؟ قلتُ : ما أعرفه . قال : يغفر الله لك ، له بنون ؟ قلتُ : لعلك تُريد البومة ؟ قال : إياه أعني . اكتب عنه ، فإنه ثقة .

قال ابن الجوزي رحمه الله : هذا الرجل اسمه محمد بن سليمان

---

(١) الورع لابن حنبل صـ ٤٠ .

(٢) المُدَّة بالضم : اسم ما استمدت به من المداد على القلم .

ابن أبي داود ، وَلُقِّبَ بالبومة ؛ فتورَّع الإمام أحمد عن ذكْر لقبه .

○ ***أما عن تورُّعه عن الفُتيا :***

فقال أحمد بن محمد المروذي : سألتُ أحمد بن حنبل ما لا أُحصي عن أشياء ، فيقول فيها : لا أدري .

وقال محمد بن عُبيد اليمامي : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : ربما مكثتُ في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقد فيها شيئًا[١] .

فَيَـٰأَيُّـهَا الساعي لِيُدْرِكَ شأوَه   رويدك عــن إدراكِهِ ستُقصِّــرُ

ولله دَرُّ القائل :

مناقبُــهُ إن لم تكــنْ عالمًا بها   فاكشفْ طروس القوم عنهن واسألِ

خلف بن هشام :

وقال : أعدتُ الصلاةَ أربعين سَنَةً كنتُ أتناولُ فيها الشرابَ على مذهب الكوفيين[٢] .

البربهــاري :

« ترك ميراث أبيه تورُّعًا ، وكان سبعين ألفًا »[٣] .

عُقْدَةُ والد الحافظ ابن عُقْدَة :

عن الحافظ أبي بكر ، قال : وإنما لُقِّب والدُ أبي العَبَّاس بعُقْدَةَ ؛ لِعِلْمِهِ بالتَّصريف والنَّحو ، وكان يُورِّق بالكُوفة ، ويُعلِّم القرآنَ والأدبَ ، فأخبرني

(١) انتهى ملخَّصًا من مناقب الإمام صـ ٣٢٦ - ٣٣٨ .
(٢) تاريخ بغداد ٨ / ٣٢٧ ، والسير ١٠ / ٥٧٩ .
(٣) طبقات الحنابلة ٢ / ٤٣ ، والسير ١٥ / ٩٠ .

القاضي أبو العلاء ، أخبرنا محمدُ بنُ جعفر بن النَّجّار ، قال : حَكَى لنا أبو عليّ النقّار ، قال : سَقَطَت مِنْ عُقْدَةَ دنانيرُ ، فجاء بنخَّالٍ ليطلُبَها . قال عُقْدَةُ : فوجدتُها ، ثم فَكَّرتُ ، فقُلتُ : ليس في الدنيا غير دنانيرك ؟ فقلتُ للنَّخَّال : هي في ذِمَّتِكَ ، وَذَهَبْتُ وَتَرَكْتُه .

قال : وكان يؤدِّب ابن هشام الخَزَّاز ، فلمَّا حَذَقَ الصَّبُّي وتَعَلَّمَ ، وَجَّه إليه أبوه بدنانير صالحة ، فردَّها ، فَظَنَّ ابنُ هِشام أنَّها استُقِلَّتْ ، فأضْعَفَهَا له ، فقال : ما رَدَدْتُهَا اسْتِقْلالًا ، ولكنْ سألَني الصبيُّ أنْ أُعَلِّمَه القُرآن ، فاخْتَلَطَ تعليمُ النَّحْوِ بتعليمِ القُرْآن ، ولا أسْتَحِلُّ أنْ آخذ منه شيئًا ، ولو دَفَعَ إلَيَّ الدُّنيا[1] .

أبو الحسن الداوودي :

كان ما يأكله يُحمل من بوشنج إلى بغداد احتياطًا .

قال أسعد بن زياد : كان شَيْخُنَا الداوودي بقي أربعين سنةً لا يأكل لحمًا - وَقْتَ تَشويش التُّركمان ، واختلاطِ النَّهب - فأضرَّ بِهِ ، فكان يأكُلُ السمكَ ، ويُصطادُ له مِن نَهْرٍ كبير ، فحُكي له أنَّ بعض الأمراء أكل علَى حافة ذلك النهر ونُفِضتْ سُفرتُه وما فَضُلَ في النهر ، فما أكَلَ السمك بعدُ[2] .

« قال السِّلَفي : سألتُ المؤتمن عن الداوودي ، فقال : كان من ساداتِ رجال خُراسان ، تركَ أكل الحيوانات وما يخرج منها منذ دخل التُّركمان ديارهم ، تفقَّه بسَهل الصُّعلوكي ، وبأبي حامد الإسفراييني .

قال ابنُ النجّار : كان من الأئمة الكبار في المذهب ، ثِقةً ، عابدًا ،

---

(١) تاريخ بغداد ٥ / ١٥ ، والسير ١٥ / ٣٤٤ .

(٢) طبقات الإسنوي ١ / ٥٢٥ ، والسير ١٨ / ٢٢٤ .

مُحقِّقًا ، دَرَّس وأفتىٰ ، وصَنَّفَ ووَعظ »[١].

أبو إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية :

« قال السمعاني : دخل أبو إسحاق يومًا مسجدًا ليتغدَّى ، فنسي دينارًا ، ثم ذَكَر ، فرجع ، فوجده ، ففكَّر ، وقال : لعله وَقَعَ من غيري . فتركه »[٢].

قال السبكي في طبقات الشافعية (٤ / ٢١٧) : « هذا هو الزهد هكذا هكذا ، وإلا فلا لا ، وهذا هو الورع ، وليكن المرء هكذا ، وإلَّا فلا يؤمِّل من الجنة آمالًا ، وهذا هو خُلاصة الناس ، وهذا هو الحَلْي ، وما يُظنُّ أنه نظيره فذاك هو الوسواس ، وإن كان تُقًى فهذا العمل الأتقىٰ ، وإن كانت هِمَّةٌ فمثل هذه الهِمَم التي لا يتجنَّبُهَا إلا الأشقىٰ » .

المُحَدِّث الزاهد : عطاء بن أبي سعد الهروي الفقاعي :

تلميذ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري :

« قال السمعاني : سمعتُ عبد الخالق بن زياد يقول : أمر بعض الأمراء أن يُضرب عطاء الفقاعي - في محنة الشهيد عبد الهادي بن شيخ الإسلام - مائة ، فبُطح علىٰ وجهه ، فكان يُضرب إلى أن ضُرب ستين ، فشكُّوا كم ضُرب ؛ خمسين أو ستين ؟ فقال عطاء : خُذوا بالأقلِّ احتياطًا . وحُبس مع نساء ، وكان في الموضع أترسة ، فقام بجهد من الضرب ، وأقام الأترسة بينه وبينهن ، وقال : نهىٰ رسول الله ﷺ عن الخلوة ....

---

(١) السير ١٨ / ٢٢٥ .

(٢) السير ١٨ / ٤٥٦ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢ / ١٧٣ ، و« المجموع » ١ / ٢٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٤ / ٢١٩ .

بالأجنبـية »[١].

نور الدين بن زنكي :

« قال ابن الأثير في « الكامل » (١١ / ٤٠٣) : طالعتُ السِّيَر ، فلم أر فيها بَعْدَ الخُلفاء الراشدين وعُمر بن عبد العزيز أحسنَ من سيرتِه ، ولا أكثر تحرِّيًا منه للعَدْلِ ، وكان لا يأكُل ولا يلبَسُ ولا يتصرَّفُ إلا من مُلك له قد اشتراهُ من سهمِهِ من الغَنيمة ، لقد طلبتْ زوجتُه منهُ ، فأعطاها ثلاثةَ دكاكين ، فاستقلَّتْها ، فقال : ليسَ لي إلا هذا ، وجميعُ ما بيدي أنا فيه خازِنٌ للمسلمين .

قال سبطُ الجوزي[٢] : كان له عجائزُ ، فكان يَخِيطُ الكوافي ، ويعملُ السكاكر ، فَيَبِعْنَهَا له سرًّا ، ويُفْطِرُ على ثمنها[٣].

الحافظ ابن عساكر :

« كان رحمه الله زاهدًا عابدًا وَرِعًا مُنقطعًا إلى العلم والعبادة ، حَسَنَ الأخلاق ، قليلَ الرغبة في الدنيا »[٤].

قال أبو شامة : « كان يتورَّع من المرور في زُقاق الحنابلة ؛ لئلَّا يأثموا بالوقيعة فيه ، وذلك لأن عوامَّهم يبغضون بني عساكر ؛ لأنهم كانوا أعيان الشافعية الأزهرية »[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٦ ، وحديث النهي عن الخلوة بالأجنبية رواه البخاري ومسلم وأحمد ، والطيالسي والترمذي وأبو يعلى والحاكم .

(٢) مرآة الزمان ٨ / ١٩٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٣٤ - ٥٣٥ ، ٥٣٧ .

(٤) قول أبي المظفر ابن الجوزي في مرآة الزمان ٨ / ٦٣١ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ١٨٨ نقلًا عن « ذيل الروضتين » .

□ الـورَعُ في النظـر □

قال عمرو بن مرة العابد الثقة : « ما أُحِبُّ أنِّي بصير ، كنتُ نظرتُ نظرةً وأنا شابٌّ »(١) .

لله دَرُّهُم :

قال أنس بن مالك : « إذا مـرَّت بك امـرأة فغمِّضْ عينيك حتىٰ تُجاوزك »(٢) .

« كان سفيان الثوري قاعدًا بالبصرة ، فقيل له : هذا مساور بن سوار يمرُّ - وكان على شرطة محمد بن سليمان - فوثب فدخل داره ، وقال : أكره أن أرىٰ من يعصي الله ولا أستطيع أن أُغَيِّر عليه .

وقال فُضيل بن عياض : لا تنظروا إلى مراكبهم ، فإنَّ النظر إليها يُطفئ نور الإنكار عليهم »(٣) .

وقال سفيان : « لا تنظروا إلى دُورهم ولا إليهم إذا مرُّوا على المراكب .

قال خالد بن الأحمر : سمعتُ وكيعًا يقول : مـررتُ مع سـفيان على دار مشيدة ، فرفعتُ رأسي إليها . فقال : لا ترفعْ رأسكَ تنظر إليها ؛ إنما بَنَوْها لهذا »(٤) .

« وقال داود الطائي : كانوا يكرهون فُضُول ....

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٢ .
(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع صـ ٦٦ .
(٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٧ .
(٤) الورع لأحمد صـ ٩٦ .

النظر »[١].

« وقد كان السلف رضي الله عنهم يُبالغون في الاحتراز من النظر : كان في دار مجاهد عُلِّية قد بُنيتْ ، فبقي ثلاثين سنة ولم يشعر بها »[٢].

كم من نظرة تحلو في العاجلة ، مرارتها لا تُطاق في الآجلة !

« عن أبي الأديان قال : كنتُ مع أستاذي أبي بكر الدقَّاق ، فمرَّ حَدَثٌ ، فنظرتُ إليه ، فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه ، فقال : يا بُنَّي ، لتجدنَّ غِبَّها ولو بعد حين ، فبقيتُ عشرين سنة وأنا أُراعي الغِبَّ ، فنمتُ ليلة وأنا مُتَفَكِّرٌ فيه ؛ فأصبحتُ وقد نسيتُ القرآن كلَّه »[٣].

نَعَمْ ، لرُبَّ نظرة لَأَنْ تلقى الأَسَدَ فيأكلك خيرٌ لك منها .

وأنا الذي اجتلب المنيةَ طرفُه ... فَمَنِ المُطالَبُ والقتيلُ القاتِلُ

فقلْ للناظرين إلى المُشتهَىٰ في ديارهم ، هذا أنموذج من دار قرارهم ، فإن استعجل أطفال الهوىٰ فدارهم ، وعِدْهم قُرْب الرحيل إلى ديارهم ﴿ **قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم** ﴾ [النور : ٣٠] .

* * *

□ الورَعُ في السمعِ □

« عن نافع قال : كنتُ مع ابن عمر في طريق ، فسمع زُمَّارة راعٍ ، فوضع أصبعيه في أُذُنَيْه ، ثم عدل عن الطريق ، ثم قال : يا نافع ، أتسمع ؟

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٢ .

(٢،٣) التبصرة لابن الجوزي ١ / ١٥٨ - ١٦١ .

قلتُ : لا . فأخرج أصبعيه من أُذنيه ، ثم عدل إلى الطريق ، ثم قال : هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ صنع »[١] .

فنزِّهْ يا أخي سمْعَك ، واستمعْ إلى ما صحَّ عن محمد بن المنكدر .

قال رحمه الله : « إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ : أين الذين كانوا يُنَزِّهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان ، أسكِنوهم بياض المسك ، ثم يقول للملائكة : أسمِعُوهم تمجيدي وتحميدي »[٢] .

* * *

□ الورَعُ في الشمِّ □

عن محمد بن سعد بن أبي وقَّاص قال : « قدم على عمر مسْكٌ وعنبر من البحرين ، فقال عمر : والله لوددتُ أني وجدتُ امرأة حسنة الوزن تَزِنُ لي هذا الطِّيب حتىٰ أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد ابن عمرو بن نفيل : أنا جيِّدة الوزن ، فهلُمَّ أزن لك . قال : لا . قالت : لِمَ ؟ قال : إني أخشىٰ أن تأخذيه فتجعلينه هكذا - أدخل أصابعه في صِدْغيْه - وتمسحين به عُنُقك ، فأُصيبُ فضلًا على المسلمين »[٣] .

« وعن يونس بن أبي الفرات ، أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أُتي

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٨ .
صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والخلال في « الأمر بالمعروف » ، وابن حبان ، والآجُرّي في « تحريم النرد » ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٧١ .
(٣) إسناده حسن : أخرجه أحمد في الزهد صـ ١١٩ .

بغنائم مسْك ، فأخذ بأنفه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تأخذ بأنفك لهذا !! قال : إنما يُنتفع من هذا بريحه ، فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين »[١].

* * *

□ الورَعُ في البطـن □

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طَيِّبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَٰأَيُّهَا الرسل كلوا من الطيِّبات واعملوا صالحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿ يَٰأَيُّهَا الذين آمنوا كلوا من طيِّبات ما رزقناكم ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر العبد يُطيل السفر ، أشعثَ أغبرَ ، رافعًا يديْه : يا ربِّ يا ربِّ ؛ مطعمه حرام ، ومشربُه حرام ، وملبسُه حرام ، وغُذِّيَ بالحرام ، فَأَنَّى يُستجابُ لهذا »[٢].

وعن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من استطاع منكم ألا يجعل في بطنه إلا طيِّبًا فليفعل ، فإنَّ أول ما ينتُنُ من الإنسان بطنُهُ »[٣].

« عن أبي صالح الحنفي قال : دخلتُ على أُمِّ كلثوم ، فقالت : ائتوا أبا صالح بطعام . فأتوني بمرقة فيها جنوب ، فقلتُ : أتُطعموني هذا وأنتم

---

(١) إسناده حسن : انظر الورع لابن أبي الدنيا صـ ٧٤ .
(٢) إسناده حسن : أخرجه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وقال الترمذي : حسن غريب .
(٣) صحيح : أخرجه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » ، وابن أبي الدنيا في « الورع » واللفظ له .

أمراء ؟! قالت : كيف لو رأيتَ أمير المؤمنين عليًّا ، وأُتي بأُتْرُجٍّ ، فأخذ الحسن أو الحسين منها أترُجَّة لصبيٍّ لهم ، فانتزعها من يده ، وقسمها بين المسلمين[1] .

قال أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٦٩) : « يا شقيق - البلخي - لم ينبُل عندنا مَنْ نبُل بالحجِّ ولا بالجهاد ، وإنما نبُل عندنا مَنْ نَبل ، مَنْ كان يعقل ما يدخل جوفه - يعني الرغيفين - من حِلِّه » .

❊ ❊ ❊

□ الورَع في المسعىٰ □

« قال قتادة : كان المؤمن لا يُرىٰ إلا في ثلاثة مواطن : في مسجد يعمُره ، أو بيت يستُره ، أو حاجة لا بأس بها .

وعن شُبيل بن عوف : ما اغبَرَّتْ رجلاي في طلب دنيا ، ولا جلستُ في مجلس إلا مُنتظرًا لجنازة أو لحاجة لا بُدَّ منها »[2] .

رضي الله عن تلك الأنفس !!

عن العبَّاس بن سهم ، أنّ امرأةً من الصالحات أتاها نَعْيُ زوجها وهي تعجن ، فرفعتْ يديها من العجين ، وقالت : هذا طعام قد صار لنا فيه شريكٌ .

❊ ❊ ❊

(١) إسناده حسن : رواه ابن أبي الدنيا في الورع صـ ٩١ .

(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٩٥ ، ٩٧ .

□ الـوَرَع في الفـرْج □

« قال سفيان بن عُيَيْنة : لو أنّ رَجُلًا لعب بغـلام بين أصبعـين من أصابع رِجله ، يُريد بذلك الشهوة ؛ لكان لواطًا »(١).

* * *

□ الـوَرَع في اللســان □

« قال الحسن بن حيّ : فتَّشتُ الورَع ، فلم أجده في شيء أقلّ منه في اللسان .

وعن ابن أبي رزمة قال : سُئل عبد الله - يعني ابن المبارك - : أيُّ الورَع أشدُّ ؟ قال : اللسان .

وعن أبي حيَّان التيمي قال : كان يُقال : ينبغي للعاقل أن يكون أحفظَ للسانه منه لموضع قدمه »(٢).

« قال عبد الكريم الجزري : ما خاصَم وَرِعٌ قَطُّ ؛ يعني في الدِّين »(٣).

« وقال إسحاق بن خلف : الوَرَع في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفضة ، والزهدُ في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة ؛ لأنهما يُبذلان في طلب الرياسة »(٤).

« ذكروا عند الربيع بن خُثيم رجلًا فقال : ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرَّغ من ذمِّها إلى ذمِّ الناس ، إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد وأمِنوه

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع صـ ٩٤ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٧٧ .
(٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٥٩ .
(٤) مدارج السالكين ٢/٢٢ .

علىٰ ذنوبهم .

وعـن بكر بن ماعـز قال : جاءت ابنة الربيع بن خُثيم ، فقالت : يا أبتِ ، أذهبُ ألعب ؟ قال : فلما أكثرتْ عليه ، قال بعض جلسائه : لو أمرتَهَا فذهبتْ . قال : لا يُكتب عليَّ اليوم أني أمرتُها باللَّعب »[1] .

بأبي أنت وأُمِّي يا ابن خُثيم .. تحرص علىٰ ألا يضمَّ كتابُك حتىٰ كلمة (اللَّعب) .. مُجرَّد التلفُّظ بها لبُنيَّة ! فما ظنُّك بِمَنْ طولَ عمرهم يلعبون ، وفي سكرتهم يعمهون !!

« عن إبراهيم بن بشّار قال : سُئِلَ إبراهيم بن أدهم : بِمَ يتمُّ الوَرَعُ ؟ قال : بتسوية كل الخلق من قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل من قلبٍ ذليلٍ لربٍّ جليل ، فَكِّرْ في ذنبك ، وَتُبْ إلىٰ ربِّك ؛ يثبت الوَرَعُ في قلبك ، واحسم الطمعَ إلا من رَبِّك »[2] .

* * *

---

(١) الورع لأحمد صـ ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) الحلية ٨ / ١٦ .

الفصْلُ الخَامِس

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ

في الصَّـبْرِ

« لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَىٰ أَحَدٌ ،
وَأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ..... »

« حديثٌ صَحيحٌ » : رواه أحمد ، والترمذي ،
وابن ماجه ، وابن حِبَّان ، عن أنسٍ .



□ علو الهمة في الصَّبْرِ □

« إنَّ اللهَ سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكْبُو ، وصارمًا لا ينبو ، وجندًا لا يُهزَم ، وحصنًا لا يُهدَم ، ولا يُثْلَم ، فهو والنصر أَخَوان شقيقان ، وهو أنصرُ لصاحبه مِن الرجال بلا عُدَّة ولا عَدَدٍ ، ومحلُّه مِنَ الظَّفَر محلّ الرأسِ مِنَ الجسد .

وللصابرين مَعِيَّةٌ مع الله ، ظفروا بها بخير الدنيا والآخرة ، وفازوا بها بنِعَمِهِ الظَّاهرة والباطنة ، وجعل اللهُ سبحانه الإمامة في الدين مَنُوطَةً بالصبر واليقين ؛ فقال تعالىٰ – وبقوْله اهتدىٰ المُهتَدُونَ – : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

قال ابن تيمية : إنما تُنَالُ الإمامةُ في الدين بالصبر واليقين .

وقال ابن عيينة : « لمَّا أخذوا برأس الأمر ، صارُوا رؤوسًا » .

وأخبرَ سبحانه أنَّ الصبر خيرٌ لأهلِهِ مؤكِّدًا باليمين ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصابِرِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٦] .

وأخبر عن محبَّته للصابرين ، ولقد بشَّر الصابرين بثلاثٍ ، كلٌّ منها خيرٌ ممَّا عليه أهل الدنيا يتحاسدون ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥ – ١٥٧] .

وأوصىٰ عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ** ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وَجَعَلَ الفوزَ بالجنةِ والنجاةَ مِنَ النَّارِ لا يحظَىٰ بِهِ إِلَّا الصابرون ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١١١] .

وأخبر أنَّ الصبر والمغفرةَ من العزائم ، التي تجارةُ أربابها لا تَبُور ؛ فقال تَعَالَىٰ : ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [الشورىٰ : ٤٣] .

وفي الصحيح عن رسولنا ﷺ : « وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ مِن الصبر » . وأخبر ﷺ أنَّ الصبر ضياءٌ .

قال عمر رضي الله عنه : « أفضلُ عيشٍ أدركناه بالصبر ، ولو أنَّ الصبر كان من الرجال كان كريمًا » .

وقال عليُّ بنُ أبي طالب : الصبر مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو .

وقال الحسن : الصبرُ كَنْز مِن كنوز الجنة ، لا يُعطِيهِ اللهُ إلا لعبدٍ كريمٍ عنده .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً فانتزعَهَا منه فعاضه مكانها الصبر ، إلَّا كان ما عوَّضه خيرًا ممّا انتزعه .

وقال ميمون بن مهران : ما نال أحدٌ شيئًا مِن ختْم الخير فما دونه إلَّا الصبر .

وقال سليمان بن القاسم : كلّ عملٍ يُعرَف ثوابُه إلَّا الصبر ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِساب** ﴾ ، قال : كالماء المُنْهمر »[1].

---

(١) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم صـ ٦٤ ، ٩٠ - ٩١ .

قال ابن القيم : « الإنسان منّا إذا غلب صبرُه باعِثَ الهوىٰ والشهوة ، الْتحَقَ بالملائكة ، وإن غلب باعِثُ الهوىٰ والشهوة صبرَه،الْتحق بالشياطين ، وإنْ غلب باعثُ طبْعه - من الأكل والشرب والجماع - صبرَه ، الْتحق بالبهائم . قال قتادة : خلَق الله سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات ، وخلق البهائم شهواتٍ بلا عقول ، وخلق الإنسان وجعل له عقلًا وشهوة ، فمَن غلب عقلُه شهوَتَه فهو مع الملائكة ، ومن غلبتْ شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم »(١) .

أنواع الصبر :

والصبر نوعان : اختياري واضطراري ، والاختياريُّ أكمل من الاضطراري ، أو صبرٌ على ما يتعلق بالكسب ، وصبرٌ على ما لا كسب للعبد فيه .

أو بلفظٍ آخر : هو على ثلاثة أنواع : صبرٌ على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله .

والصبر المتعلق بالتكليف - وهو الأمر والنهي - أفضل من الصبر علىٰ مجرَّد القَدَر ، فإنَّ هذا الصبر يأتي به البَرُّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فلا بدّ لكلّ أحدٍ من الصبر على القَدَر اختيارًا أو اضطرارًا .

فأما الصبر على الأوامر والنواهي - الصبرُ عن المعصية والصبر علىٰ الطاعة - فهو صبرُ أتْباعِ الرُّسل ، وأعظمهم اتِّباعًا أَصبرُهم في ذلك .

والصبر على الاضطراري - وهو الصبر على الامتحان والقَدَر - مع عِظَم جزائه فهو أقلُّ رتبةً من الصبر عن المعصية .

قال ابن تيمية - قدَّس اللهُ روحه -: « كان صبرُ يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكملَ من صبره على إلْقاءِ إخوته له في الجُبِّ ،

---

(١) عدة الصابرين صـ ١٨ .

وبيْعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ؛ فإنَّ هذه أمورٌ جرتْ عليه بغير اختياره ، لا كسبَ له فيها ، ليس للعبد فيها حِيلةٌ غير الصبر ، وأمَّا صبره عن المعصية : فصبر اختيار ، ومحاربةٌ للنفس »[(١)].

قال ابن القيم في المدارج (٢ / ١٦٩) : « الصبر على طاعته ، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره ؛ فإنَّ الصبر فيها صبر اختيارٍ وإيثارٍ ومحبّة ، والصبر على أحكامه الكونية صبرُ ضرورة ، وبينهما مِن البَوْن ما قد عرَفتَ . وكذلك كان صبر نوحٍ وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم في الله ، باختيارهم وفعْلهم ومقاومتهم قَوْمَهم – أكملَ من صَبْرِ أيوب علىٰ ما ناله في الله ، من ابتلائه وامتحانه بما ليس مُسَبَّبًا عن فعْله .

وكذلك كان صبر إسماعيل الذَّبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر اللهِ – أكملَ من صبرِ يعقوب على فَقْدِ يوسف » .

وكان ابن تيمية رحمه الله يقول : « الصبر على أداءِ الطاعات أكملُ من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ؛ فإنَّ مصلحة فعْل الطاعة أحبُّ إلى الشارع من مصلحة ترْك المعصية ، ومفسدة عدْم الطاعةِ أبْغَضُ إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية »[(٢)].

وهو أيضًا علىٰ ثلاثةِ أنواع : صبرٌ بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله :

فالأول : الاستعانة به ، ورؤيته أنَّه هو المصبِّر ، وأنَّ صبرَ العبد بربِّه لا بنفسه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ** ﴾ [النحل : ١٢٧] .

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦ .
(٢) المدارج ٢ / ١٥٧ .

والصبر بالله : بقاء ؛ لأنَّ العبد إذا كان بالله هان عليه كُلُّ شيءٍ ، ويتحمَّل الأثقال ولم يجدْ لها حِمْلًا ؛ فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه ، كان لقلبهِ وروحه وجودٌ آخر وشأن آخر ، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق ، وبهذا الحال لا يجد عَناء الصبر ولا مرارته ، وتنقلب مشاقُّ التكليف له نعيمًا وقُرَّةَ عين ، كما قال ثابت البناني : « عالجتُ قيامَ الليل عشرين سنةً ، وتنعَّمتُ به عشرين سنة » . ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجدْ لها مشقَّة وكُلْفَةً .

والثاني : الصبر لله : وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبَّة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرُّب إليه ، لا لإظهار قوة النفس ، والاستحماد إلى الخلْق ، وغير ذلك من الأعراض .

« والصبر لله فوقَ الصبر بالله ، وأعلى درجةً منه وأجلّ ؛ فإنَّ الصبرَ للهِ متعلّق بإلـٰهيَّته ، والصبر به متعلِّق بربوبيَّته ، وما تعلَّق بإلـٰهيته أكملُ وأعلىٰ ممَّا تعلق بربوبيّته . ولأنَّ الصبرَ له : عبادةٌ ، والصبرَ به : استعانةٌ ، والعبادة : غايةٌ ، والاستعانة : وسيلة ، والغاية : مُرَادَةٌ لنفسها . ولأنّ الصبرَ له : صبرٌ فيما هو حقٌّ له ، محبوبٌ له مَرْضِيٌّ له ، والصبر به قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوطٌ له ، وقد يكون في مكروه أو مباح،فأين هذا مِن هذا ؟! » .

والثالث : الصبر مع الله : وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع أحكامه الدينية ، صابرًا نفسه معها ، سائرًا بسيْرها ، مُقيمًا بإقامتها ، يتوجَّه معها أين توجَّهت ركائبها ، وينزل معها أين استقلَّتْ مضاربُها ، فهو قد جعل نفسه وقْفًا على أوامره ومحابِّه . وهذا أشدُّ أنواعِ الصبر وأصعبها ، وهو صبر الصِّدِّيقين .

قال الجنيد : « السَّيْر من الدنيا إلى الآخرة سَهْلٌ هَيِّن على المؤمن ، وَهُجْران الخلْق في جنْبِ الله شديد ، والمسير من النفس إلى الله صَعْبٌ شديد ، والصبر مع الله أشدُّ » .

والصبر مع الله وفاء ، لا يُزيغ القلبَ عن الإنابة ، ولا الجوارحَ عن الطاعة ، فتُعْطَىٰ المعية حقّها مِن التوفية ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وإبراهيمَ الذي وَفَّىٰ** ﴾ [النجم : ٣٧] ، أي وَفَّىٰ ما أُمر به ، بصبْره مع الله علىٰ أوامره .

مَـرَاتِبُ الصـبر :

قال ابن القيم في المدارج (٢ / ١٦٩ - ١٧٠) : « المراتب أربعة :

إحداها : مرتبة الكمال : وهي مرتبة أُولي العزائم ، وهي الصبر لله وبالله . فيكون في صبره مبتغيًا وجهَ الله صابرًا به ، متبرِّئًا مِن حوْله وقوّته . فهذا أقوىٰ المراتبِ وأرفعُها وأفضلها .

الثانية : أنْ لا يكون فيه لا هذا ولا هذا . فهو أَخسُّ المراتب ، وأردأُ الخلق ، فهو جديرٌ بكلِّ خُذْلانٍ وبكلِّ حِرْمَانٍ .

الثالثة : مرتبة مَن فيه صبرٌ بالله ، وهو مستعينٌ متوكِّل على حوْله وقوّته ، ولكنّ صبره ليس لله ، إذْ ليس صبرُه فيما هو مراد الله الديني منه ، فهذا يُنال مطلوبُه ، ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبتُه شرَّ العواقب ، وفي هذا المقام خفراء الكفار وأربابُ الأحوال الشيطانية ؛ فإنَّ صبرهم بالله ، لا لله ، ولا في الله .

الرابعة : مَن فيه صبرٌ لله ، لكنّه ضعيفُ النصيب من الصبر به ، والتوكُّل عليه ، والثقة به ، فهذا له عاقبة حميدة ، ولكنه ضعيفٌ عاجزٌ مخذولٌ في كثيرٍ مِن مطالبه ، لضعفِ نصيبه مِن ﴿ **إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستعينُ** ﴾ ، فنصيبُه مِن الله أقوىٰ مِن نصيبه بالله ، فهذا حالُ المؤمن الضعيف .

صابرٌ بالله ؛ لا لله : حال الفاجر القويّ ، وصابرٌ لله وبالله : حال المؤمن القوي ، والمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف . فصابِرٌ لله وبالله : عزيزٌ حميد ، ومَن ليس لله ولا بالله مذمومٌ مخذول ، ومن هو بالله ، لا لله : قادرٌ مذموم ، ومَن هو لله لا بالله عاجزٌ محمود » .

الصَّبر علىٰ البَلاء :

الصبر علىٰ البلاءِ بضاعة الصِّدِّيقين ؛ فإنَّ ذلك شديدٌ على النفس ، ولذلك قال ﷺ : « أسألك مِن اليقين ما تُهوِّن عليَّ به مصائب الدنيا »(١). فهذا صبر مستندُه حُسْن اليقين .

والصبر من آكَدِ المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبِّين ، وهم أحوج إلى منزلته من كلِّ منزلة ، وهو مِن أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبْيَنِهَا . وبهذا الصبر يُعْلَم صحيحُ المحبَّة من معلولها ، وصادقُها من كاذِبها ؛ فإنَّ بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحةُ محبّته .

ومن هاهنا كانت محبَّة أكثر الناس كاذبة ؛ لأنّهم كلهم ادّعوْا محبة الله تعالىٰ ، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة ، ولم يثبت معه إلّا الصابرون ، فلولا تحمُّل المشاقّ ، وتجشُّم المكاره بالصبر ، لَمَا ثبتَتْ صحة محبتهم ، وقد تبيَّن بذلك أنَّ أعظمهم محبَّةً أشدُّهم صبرًا .

ولهذا وصف الله تعالىٰ بالصبر خاصة أوليائِه وأحبابه ، فقال عن حبيبه أيُّوب : ﴿ **إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾ ثمَّ أثنىٰ عليه فقال : ﴿ **نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّابٌ** ﴾ [صٓ : ٤٤] ، فصلَّى اللهُ على نبيّه أيُّوب ، فكمْ كانَ صبرُه حتى

(١) جزءٌ من حديث أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصحّحه من حديث ابن عمر ، وحسّنه الترمذي .

ضُرب به المثل ، وكم كان أدبه في صبره إذْ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، فقال : مسَّني ، ولم يقلْ : هَدَّني .

قال رسول الله ﷺ : « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثم الصالحون ؛ لقد كان أَحدُهم يُبتلىٰ بالفقر حتَّى ما يجدُ إلا العباءة ، يجوبها[١] ، فيلبسها ، ويُبتلىٰ بالقمْلِ حتىٰ يقتله ، وَلَأَحدُهم كان أشدَّ فرحًا بالبلاءِ من أحدكم بالعطاء »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « لَيَودَّنَّ أهلُ العافية يوم القيامة أنَّ جلودَهم قُرِضَتْ بالمقاريض ، ممَّا يَرَوْنَ من ثواب أهل البلاء »[٣].

المرأة السَّوْداء التي كانت تصْرَع :

« عن عطاء : قال لي ابن عباسٍ : أَلَا أُريك امرأةً من أهل الجنة ؟! هذه المرأة السوداء ، أتتْ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ، إني أُصرع ، فادْعُ اللهَ لي . فقال : « إنْ شِئْتِ ، صبرتِ ولكِ الجنة ، وإنْ شِئْتِ ، دعوتُ الله أنْ يعافيكِ » . فقالت : أصبر . ثم قالت : يا رسول الله ، إني أتكشَّفُ فادعُ الله لي أن لا أتكشَّف . فدعا لها » . فرضي اللهُ عنها ، صبرتْ على الصَّرَع ونالت الجنة ، فما أعقلها وما أصبَرَها !!

---

(١) أي : يقطع وسطها ليلبسها .

(٢) صحيح ، رواه ابن ماجه وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد ، وكذا رواه ابن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣١ .

(٣) حسن ، رواه الترمذي والضياء عن جابرٍ ، ورواه الخطيب وابن عساكر ، والطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٨٤ ، والصحيحة ٢٢٠٦ .

الأحْنف بن قيْس :

« قال مغيرة : ذهبتْ عيْنُ الأحْنف ، فقال : ذهبتْ من أربعين سنة ، ما شكوتُها إلى أحد »[١] . فَرضِيَ اللهُ عن سيّد أهلِ المشرق ... لسانُ حاله يقول :

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّمَا تشكُو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُكْ

قال ابن تيمية : « الصبر الجميلُ هو الذي لا شكوىٰ فيهِ ولا مَعَهُ » .

عروة بن الزبير :

قال ابن القيم : « قَدِمَ عروة بن الزبير علىٰ الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد ، وكان من أحسن الناس وجهًا ، فدخل يومًا على الوليد في ثيابِ وشي ، وله غديرتان وهو يضرب بيده ، فقال الوليد : هكذا تكون فتيان قريش . فعانه[٢] ، فخرج من عنده متوسّنًا ، فوقع في إصطبل الدوابِّ ، فلم تزل الدوابُّ تطؤه بأرجلها حتىٰ مات ، ثم إنَّ الأكلة وقعتْ في رِجْل عروة ، فبعث إليه الوليدُ الأطباء ، فقالوا : إنْ لم تقطعْها ، سَرَتْ إلى باقي الجسد فتهلك . فعزم على قطْعها ، فنشروها بالمنشار ، فلمَّا صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة ، فَغُشِيَ عليه ، ثم أفاق والعَرَق يتحدَّر على وجهه وهو يهلِّل ويكبّر ، فأخذها وجعل يقبِّلها في يده ، ثم قال : أمَا والذي حَمَلني عليكِ ، إنه لَيَعلم أني ما مَشَيْتُ بكِ إلى حرام ، ولا إلى معصية ، ولا إلى ما لا يُرضي اللهَ . ثم أمر بها ، فغسِّلَتْ وطيِّبتْ وكُفِّنت في قطيفة ، ثم بُعِثَ بها إلى مقابر المسلمين ، فلمّا قدِم مِن عند الوليد المدينة ، تلقّاهُ أهلُ بيته وأصدقاؤه يُعزّونه ، فجعل يقول : ﴿ **لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا**

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٩٢ .

(٢) أي : أصابه بعينه ، حسَده .

هذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢] ، ولم يزدْ عليه .

قال ابن القيم : ولمّا أرادُوا قطع رجله ، قالوا له : لو سَقَيْنَاك شيئًا كي لا تشعر بالوجع . فقال : إنما ابتلاني لِيَرىٰ صبري ، أفأعارض أمرَه ؟! »[1].

إنْ سلبتَ فلَطالما أعطيتَ ، وإنْ أخذتَ فطالما أبقيتَ ، وأبقيتَ لنا فيكَ الأملَ ، يا بَرُّ يا وَصُول .

وأصيبَ (**مُطَرِّف بنُ عبد الله**) في ابنٍ له ، فأتاه قومٌ يُعَزُّونه ، فخرج إليهم أحسن ما كان بِشْرًا ، ثم قال : « إنِّي لأَسْتحيي من الله أنْ أتضعضعَ لمصيبةٍ »[2] .

وكان الإمام أحمد يَئِنُّ في مرضه ، فلمّا أخبروه أنَّ طاووسًا يقول : إنَّ أنينَ المريض شكوىٰ ، فما أنَّ حتى مات ، رحمه الله .

الإمامُ إبراهيم الحربيّ وصَبْرُه علىٰ الجوعِ والفقر :

قال رحمه الله : « قميصي أَنْظَفُ قميصٍ ، وإزاري أوسَخُ إزارٍ ، ما حدّثتُ نفسي أنهما يستويانِ قطُّ ، وفردُ عقبي[3] صحيح والآخر مقطوع ، ولا أحدّث نفسي أنْ أصلحَهما ، ولا شكوتُ إلى أهلي وأقاربي حُمَّىٰ أجدها ، لا يغمُّ الرجل نفسه وعياله ، ولي عشرُ سنين أُبصر بِفَرْدِ عَيْنٍ ، ما أخبرتُ به أحدًا ، وأفنيتُ من عُمري ثلاثين سنة برغيفَيْن ، إنْ جاءَتْني بهما أُمّي أو أختي ، وإلَّا بقيتُ جائعًا إلى الليلة الثانية ، وأفنيتُ ثلاثين سنةً برغيفٍ في اليوم والليلة ، إنْ جاءتني امرأتي أو بناتي به ، وإلَّا بقيتُ جائعًا ، والآنَ

(١) عُدَّة الصابرين صـ ٩١ – ٩٢ .
(٢) عُدَّة الصابرين صـ ٩٤ .
(٣) العقب هنا : النعل على سبيلِ المجاز .

آكُل نصف رغيف وأربعَ عشرة تمرةً ، وقام إفطاري في رمضان هذا بدرهم ودانِقَيْن ونصف » .

وقال رحمه الله : « ما كنا نعرف من هذه الأَطْبِخَةِ شيئًا ، كنتُ أجيءُ من عَشي إلى عَشي ، وقد هيَّأت لي أُمّي باذنجانة مشويَّة ، أو لَعْقَة بِنٍّ[1] ، أو باقة فجْل »[2] .

للهِ دَرُّه ... جوعٌ قليل وعُري قليل ، ثم بعد ذلك الجنة !!

ما ضرهم ما أصابهم ... جَبَرَ اللهُ لهم بالجنةِ كلَّ مصيبة .

أبو قَلابَةَ الإمامُ صاحبُ ابنِ عبَّاسٍ وَصَبْرُهُ الجَميل :

« قال أيُّوب السختياني - وذكر أبا قلابة - : كان - والله - من الفقهاء ذوي الألباب ، إني وجدتُ أعلم الناس بالقضاء أشدَّهم منه فرارًا ، وأشدَّهم منه فَرَقًا ، وما أدركتُ بهذا المِصر أعلمَ بالقضاء من أبي قلابة .

وعن مسلم بن يَسَار قال : لو كان أبو قلابة مِن العَجَم ، لَكَان مَوبَذ موبذان . يعني : قاضي القضاة .

يُروىٰ أنَّ أبا قلابة عَطِشَ وهو صائم ، فأكرمه اللهُ لمّا دعا ، بأن ظلّلتْه سحابة وأمطرتْ على جسده ، فذهبَ عطشُه »[3] .

قال الذهبي في السير : « إنَّ أبا قلابة ممَّن ابْتُلِيَ في بدنه ودينه ، أُرِيدَ على القضاء ، فهرب إلى الشام ، فمات بعريض مصر سنة أربع ، وقد ذهبتْ يداه ورجلاه وبصرُه ، وهو مع ذلك حامدٌ ....

(١) البن : الطبقة مِن الشحم .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٦٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٦٨ - ٤٧٥ .

شَــاكِرٌ »(١) .

وقد روىٰ ابن حبان قصة صبره الكريم الجميل النبيل : قال ابن حبان : « حدَّثني بقصَّةِ موتهِ محمدُ بن المنذر بن سعيد ، قال : ثني يعقوب بن إسحاق بن الجراح ، قال : ثني الفضل بن عيسىٰ ، عن بَقيَّة بن الوليد ، حدثني الأوزاعي ، عن عبد الله بن محمد ، قال : خرجت إلى ساحل البحر مرابطًا وكان رابطُنا يومئذ عريش مصر . قال : فلمّا انتهيتُ إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة ، وفي البطيحة خيمة ، فيها رجل قد ذهبَ يداه ورجلاه ، وَثَقُل سمْعه وبصره ، وما له من جارحةٍ تنفعه إلَّا لسانه ، وهو يقول : « اللهمَّ أَوْزِعني أن أحمدك حمدًا ، أكافئ به شكرَ نعمتك التي أنعمتَ بها عليَّ ، وفضَّلتني على كثيرٍ ممّن خلقتَ تفضيلًا » . قال الأوزاعي : قال عبد الله : قلتُ : واللهِ لآتينَّ هذا الرجل ، وَلَأَسألنَّه أنّى له هذا الكلام ، فَهْمٌ أمْ عِلمٌ أم إلْهامٌ أُلهِمَ ؟ فأتيتُ الرجل فسلّمتُ عليه ، فقلت : سمعتُك وأنت تقول : « اللهم ..... تفضيلًا » ، فأيّ نعمة مِن نِعَم الله عليك تحمده عليها ، وأيُّ فضيلةٍ تفضّلَ بها عليك تشكرُه عليها ؟ قال : وما ترىٰ ما صنع ربّي ؟! واللهِ لو أرسـل السمـاء عليَّ نارًا فأحرقتْـني ، وأمر الجبال فدمَّرتْني ، وأمر البحار فأغرقتني ، وأمر الأرض فبلعتني ، ما ازددتُ لِربّي إلَّا شكرًا ، لِمَا أنعم عليّ من لساني هذا ، ولكن يا عبد الله إذْ أتيتني ، لي إليك حاجة ، قد تراني على أيّ حالة أنا ، أنا لستُ أقدر لنفسي علىٰ ضُرٍّ ولا نفْع ، ولقـد كان معي بنيٌّ لي يتعاهدني في وقت صـلاتي ، فيوضّيني ، وإذا جعتُ أطعمني ، وإذا عطشتُ سقاني ، ولقد فقدتُه منذ ثلاثة أيام ، فتحسَّسْه لي رحمك الله . فقلتُ : واللهِ ما مشىٰ خلقٌ في حاجةِ

---

(١) السير ٤ / ٤٧٥ .

خلقٍ ، كان أعظم عند الله أجرًا ممَّن يمشي في حاجةِ مثلك . فمضيتُ في طلب الغلام ، فما مضيتُ غيرَ بعيدٍ ، حتى صرتُ بين كثبان من الرمل ، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سَبعٌ وأكل لحْمه ، فاسترجعْتُ وقلت : أنَّى لي وجْهٌ رقيقٌ آتي به الرجل ؟! فبينما أنا مُقْبل نحوه ، إذْ خطر علىٰ قلبي ذكْرُ أيُّوب النبي ﷺ ، فلمَّا أتيتهُ سلَّمتُ عليه ، فردّ عليَّ السلام ، فقال : ألستَ بصاحبي ؟ قلت : بلىٰ . قال : ما فعلتَ في حاجتي ؟ فقلت : أنت أكرمُ على الله أمْ أيُّوبُ النبي ؟ قال : بل أيُّوب النبي . قلت : هل علمتَ ما صنع به ربُّه ؟ أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده ؟ قال : بلىٰ . قلتُ : فكيف وَجَدَه ؟ قال : وجده صابرًا شاكرًا حامدًا . قلتُ : لمْ يَرضَ منه ذلك حتىٰ أوحشَ مِن أقربائه وأحبّائه ؟ قال : نعم . قلت : فكيف وجدَه ربُّه ؟ قال : وجدَه صابرًا شاكرًا حامدًا . قلتُ : فلمْ يَرْضَ منه بذلك حتىٰ صيّره عَرَضًا لمارّ الطريق ، هل علمتَ ؟ قال : نعم . قلتُ : فكيف وجدَه ربُّه ؟ قال : صابرًا شاكرًا حامدًا ، أوجِزْ رحمك الله . قلتُ له : إنَّ الغلام الذي أرسلتَني في طَلَبه وجدتُه بين كثبان الرمل ، وقد افترسه سبعٌ فأكل لحمه ، فأعظم اللهُ لكَ الأجرَ وألهمَك الصبر . فقال المبتلىٰ : الحمد لله الذي لم يخلقْ من ذرِّيتي خلقًا يعصيه ، فيعذِّبه بالنار . ثم استرجَعَ ، وشَهِقَ شهقةً فمات ، فقلتُ:إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، عظُمت مصيبتي ، رجلٌ مثل هذا إنْ تركتُه أكلَتْهُ السباع ، وإنْ قعدتُ ، لم أقدر على ضرٍّ ولا نفْع . فسجَّيْتُه بشمْلةٍ كانتَ عليّ ، وقعدتُ عند رأسه باكيًا ، فبينما أنا قاعدٌ إذْ تهجَّم عليّ أربعة رجال ، فقالوا : يا عبدَ الله ، ما حالك ؟ وما قصَّتُك ؟ فقصصْتُ عليهم قصَّتي وقصَّته ، فقالوا لي : اكشفْ لنا عن وجهِهِ ، فعسىٰ أنْ نعرفه . فكشفتُ عن وجهه ، فانكبَّ القوم عليه ، يقبِّلون عينيْه مرةً ، ويديْه أُخرىٰ ، ويقول : بأبي عَيْنٌ طالما غُضّتْ عن محارم الله ، وبأبي جِسْمٌ طالَمَا كان

ساجدًا والناس نِيَام . فقلتُ : مَن هذا يرحمكم الله ؟ فقالوا : هذا أبو قلابة الجرمي ، صاحب ابن عباس ، لقد كان شديدَ الحبِّ لله وللنبيّ ﷺ . فغسَّلناه وكفّنّاه بأثواب كانت معنا ، وصلَّينا عليه ودفنّاه . فانصرف القوم وانصرفتُ إلى رباطي ، فلمّا أنْ جَنَّ عليّ الليلُ ، وضعت رأسي ، فرأيتُه فيما يَرَىٰ النائم في روضةٍ من رياض الجنة ، وعليه حُلّتانِ من حُلَل الجنة ، وهو يتلُو الوحي : ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ [الرعد : ٢٤] ، فقلتُ : ألستَ بصاحبي ؟ قال : بلىٰ . قلتُ : أنَّىٰ لك هذا ؟ قال : إنَّ للهِ درجاتٍ لا تُنالُ إلَّا بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرَّخاء ، مع خشية الله عز وجل في السِّرِّ والعلانية »[١] .

وهذه همّة إمامٍ تستمطرُ الدمع ... لسانُ حالِهِ يقول : « إذا علمتَ أنَّ لُطْفَ اللطيف لا ينفكُّ عنه أبدًا ، وأنَّ اللطيف لطيفٌ على الدَّوام ، صار المنع عَيْنَ العطاء » .

صَبْرُ امرأةٍ تَفْضُلُ مَلايينَ الرِّجالِ :

« هذه زوجة فتْحٍ المَوْصلي ، انقطعتْ إصبعها ، فضحكتْ ، فقال لها بعض مَن معها : أتضحكين ، وقد انقطع إصبعك ؟! فقالت : أخاطبك على قدْر عقلك ، حلاوة أجْرِها أنستْني مرارةَ قطْعها » .

قال ابن القيم : « إشارةً إلى أنَّ عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام ، مِن ملاحظة المبتلي ، ومشاهدة حسْن اختياره لها في ذلك البلاء ، وتلذُّذها بالشكر له والرضا عنه ، ومقابلة ما جاء من قِبَله بالحمد والشكر ، كما قيل :

لَئِنْ سَاءَني أنْ نِلتَني بمساءَةٍ فقدْ سرَّني أنّي خطرتُ ببالِكَا »[٢]

---

(١) « الثقات » لابن حبان ٥ / ٢ - ٥ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٦٧ - ١٦٨ .

لله دَرُّهَا مِن عابدةٍ وَلِيَّةٍ تقيَّة !! وكيف لا ، وهي زوجة فتْحٍ الموصليّ ، وليّ مِن كبار أولياء هذه الأمة ؟!

قال أبو بكر المروزي : « ذكرتُ لأبي عبد الله - أحمد بن حنبل - الفضل وعرْيه ، وفتح الموصلي وعرْيه وصبره ، فتغَرْغَرَتْ عينه ، وقال : رحمهم الله ، كان يُقال : عند ذكْر الصالحين ، تنزل الرحمة »(١).

وزوجُهَا صبرُهُ يَفُوقُ الخَيَال :

قال إبراهيم بن عبد الله : « صدع فتح الموصلي ، فقال : يا ربِّ ، ابتليتني ببلاءِ الأنبياء ، فشُكْرُ هذا أنْ أصلي الليلة أربعمائة ركعة »(٢).

وقال بشر بن الحارث : « بلغني أنّ بِنتًا لفتْح الموصلي عَريت ، فقيل له : ألا تطلب مَن يكسوها ؟ فقال : لا ، أدعها حتى يرىٰ الله عز وجلّ عُرْيها وصبري عليها . قال : وكان إذا كان ليالي الشتاء ، جمع عياله وقام بكسائه عليهم ، ثم قال : اللهمَّ أفقرتني وأفقرت عيالي ، وجوّعتَني وجوّعتَ عيالي ، وأعريتَني وأعريتَ عيالي ، بأيّ وسيلةٍ توسلتُها إليك ، وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابِك ، فهل أنا منهم حتى أفرح ؟ »(٣).

واللهِ لَأَخْبَارُ فَتْحٍ وزوجه أعطرُ من أريجِ الزهور .. بل بطيبها تطيبُ المجالس !

إبراهيمُ بنُ أدهمَ أستاذُ الشيوخ ، وصبرُه العجيب :

أمّا إبراهيم بن أدهم ... فهو لا يجارىٰ ولا يبارىٰ ..

عن حذيفة المرعشيّ قال : دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم ، فإذا

---

(١) « الورع » لأحمد صـ ٤٦ .

(٢،٣) الحلية ٨ / ٢٩٢ .

شقيق البلخيّ قد حجَّ في تلك السنة ، فاجتمعنا في شقّ الطواف ، فقال إبراهيم لشقيق : علىٰ أيّ شيءٍ أصّلْتم أصلَكم ؟ قال : أصّلْنا أصلنا علىٰ أنّا إذا رُزقنا أكلنا ، وإذا مُنِعْنا صبرنا . فقال إبراهيم : هكذا تفعل كلابُ « بلخ » . فقال له شقيق : فعلىٰ ماذا أصّلتم ؟ قال : أَصّلنا علىٰ أنّا إذا رزقنا آثرنا ، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا . فقام شقيق فجلس بين يدي إبراهيم ، فقال : يا أستاذ ، أنت أستاذُنا »[1]... وفي رواية : « إنَّا قومٌ نصبر عند الرخاء ، ونشكر عند البلاء » .

لله دَرُّه ، فهذا واللهِ صبر الملوك !! وله أسوة ؛ فقد قال رسولنا ﷺ : « وَلَأَحَدُهم كان أشدَّ فرحًا بالبلاءِ من أحدِكم بالعطاء » ... لا يتمنّىٰ البلاء ، فإن نزل به فَرِحَ ... لله دَرُّه ... أما قال ذلك عبد الرحمـٰن بن عوف : « ابْتُلِينَا بالضراء فصبرنا ، وابتُلينا بالسَّراء فلم نصبر »[2] .

لله دَرُّ امرأةِ فَتْح !! لله دَرُّ فتْح الموصلي زوجها !! لله دَرُّ أستاذ الشيوخ الكبار إبراهيم بن أدهم !! وما أعطر ذوقه السَّنّي !!

شربنا شرابًا طيِّبًا عندَ طيِّبٍ ... كذاك شرابُ الطَّيِّبينَ يَطِيبُ
شربنا وأَهْرقنا على الأرضِ فَضْلَهُ ... وَللأَرْضِ مِنْ كأسِ الكرامِ نَصِيبُ

يقول الهروي في درجات الصبر : « الدرجة الثالثة : الصبر في البلاء ، بملاحظة حسْن الجزاء ، وانتظار روح الفرج ، وتهوين البليّة بِعَدِّ أَيَادِي المِنَن ، وبذكْر سوالِف النِّعَم » .

قال ابن القيم : « هذه ثلاثة أشياء تبعث المتَلبِّسَ بها علىٰ الصبر في البلاء :

---

(١) الحلية ٨ / ٣٧ .

(٢) انظر كلام ابن القيم في عدّة الصابرين صـ ٢١٠ .

إحداها : « ملاحظةُ حسْن الجزاء » : وعلىٰ حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته ، يخفُّ حمْل البلاء لشهود العِوَض ، وما أقدم أحدٌ علىٰ تحمُّل مشقَّةٍ عاجلة إلَّا لثمرة مؤجَّلة ، فالنفسُ موكّلة بحبِّ العاجل ، وإنّما خاصّة العقل : تَلمُّحُ العواقب ، ومطالعة الغايات . وأجمع عقلاء كلّ أمّة علىٰ أنَّ النعيم لا يُدرك بالنعيم ، وأنَّ مَنْ رافَقَ الراحة فارق الراحة ، وحصل علىٰ المشقة وَقْتَ الراحة ، **فإنّه على قَدْر التعب تكون الراحة** .

علىٰ قدْر أهلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ   وَتأتي علىٰ قَدْرِ الكريمِ الكرائِمُ
ويكبرُ في عَيْنِ الصغيرِ صَغيرُهَا   وتصْغُرُ في عَيْنِ العظيمِ العظائمُ

والقصد : أنَّ ملاحظة حُسْن العاقبة تُعين علىٰ الصبر فيما تتحمّله باختيارك وغير اختيارك .

والثاني : « انتظار روح الفرج » : يعني راحته ونسيمه وَلَذَّته ، فإنَّ انتظاره ومطالعته وترقُّبه يخفِّفُ حمل المشقّة ، ولا سيّما عند قوّة الرجاء ؛ فإنّه يجد في حشْو البلاء مِن روح الفرج ونسيمه وراحته ، ما هو مِن خفيّ الألطاف ، وما هو فرج معجّل ، وبه وبغيره يُفهم معنىٰ اسمه:اللطيف » .

وكَـمْ لِلّٰهِ مِـنْ لُطْـفٍ خَفِـيّ   يَـدِقُّ خَفَـاهُ عـن فَهْم الذَّكِيّ

والثالث : « تهوين البليّة » بأمريْن :

أحدهما : أنْ يَعِدّ نِعَمَ الله عليه وأياديه عنده ، فإذا عجَز عن عَدِّها ، وأَيِس من حصْرها ، هـان عليه ما هو فيه مِن البلاء ورآه – بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه – كقطرةٍ من بَحْر .

الثاني : تذكُّر سوالِف النِّعم التي أنعم الله بها عليه ، فهـذا يتعلّق بالماضي . وتعـداد أيادي المنن : يتعلّق بالحال . وملاحظة حسن الجزاء ، وانتظار روح الفرج : يتعلق بالمستقبل ، وأحدهما في الدنيا ، والثاني يوم

الجزاء »[١].

عن يونس بن يزيد قال : « سألتُ ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن : ما منتهى الصَّبر ؟ قال : أن يكون يومَ تُصيبُه المصيبةُ مثلَه قبل أنْ تُصيبه » .

« وقال قيْس بن الحجاج في قول الله تعالىٰ : ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ﴾ [المعارج : ٥] ، قال : أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُعرَف مَن هو » .

ملكتُ دموع العين حتىٰ رددتها   إلى ناظري فالعين في القلب تدمعُ

الصَّبْر عنِ المَعْصية :

قيل لوهيب بن الورد : هل يذوق حلاوة الإيمان مَن عصىٰ ؟ قال : لا ، ولا مَنْ همّ .

« قال ميمون بن مهران : الصبرُ صبران : فالصبر علىٰ المصيبة حسن ، وأفضل منه الصبر عن المعصية »[٢] .

وقال ابن القيم : « مَشَقَّة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته علىٰ العبد ، فإذا اجتمع في الفعل هذانِ الأمرانِ ، كان الصبر عنه أشقّ شيءٍ على الصابر . ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشابِّ عن الفاحشة ، وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات - عند الله بمكان . ولذلك استحقّ **المذكورون** في الحديث ، الذين يظلُّهم الله في ظلِّ عَرْشه ، لكمال صبرهم ومشقّته ؛ فإنّ صبر الإمام المتسلّط علىٰ العدل في قسْمه وحكْمه ورضاه وغضبه ، وصبر الشابِّ على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة المسجد ، وصبر المتصدِّق علىٰ إخفاء الصَّدقة حتىٰ عن

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) عدة الصابرين صـ ٦٨ .

بعضِهِ ، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه ، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما ، وصبر الباكي مِن خشية الله على كتمانِ ذلك وعدم إظهاره للناس - من أشقِّ الصبر . ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والمِلِك الكذّاب والفقير المختال أشدَّ العقوبة ، لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرّمات عليهم ، لضعْف دواعيها في حقِّهم ، فكان تركُهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلًا علىٰ تمرُّدهم على الله وعُتوّهم عليه . ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر »[١].

الكريمُ بنُ الكريمِ بنِ الكريمِ بن الكريم : يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ابنِ إبراهيمَ ، عليهم السلام :

قال ابن القيم رحمه الله : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كان صبرُ يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز علىٰ شأنها ، أكملَ من صبره على إلقاء إخوته له في الجُبِّ ..... فصبره عن المعصية صبرُ اختيار ورضًى ومحاربة للنفس ، ولا سيّما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة :

فإنّه كان شابًّا ، وداعيةُ الشباب إليها قويّة . وعَزَبًا ليس له ما يعوِّضه ريردُّ شهوته . وغريبًا : والغريبُ لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله . ومملوكًا : والمملوك أيضًا ليس له وازعُه كوازعِ الحرّ . والمرأة جميلة ، وذات منصب ، وهي سيِّدته . وقد غاب الرقيب . وهي الداعية له إلى نفسها ، والحريصة علىٰ ذلك أشدَّ الحرص ، ومع ذلك توعَّدته إنْ لم يفعل : بالسجن والصَّغار . ومع هذه الدواعي

(١) عدّة الصابرين صـ٦٦ - ٦٧ .

كلِّها : صبرَ اختيارًا ، وإيثارًا لِمَا عند الله ، وأين هذا مِن صبره في الجُبِّ علىٰ ما ليس مِن كسْبه ؟! »[1].

يوسف الصِّدِّيق المحْسِن ما وقَع منهُ همٌّ بالمعصية ألبتةَ ، لعُلوِّ قَدْره وهمّتِه :

قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

اختيار الشيخ أبي حَيَّان : أنَّ يوسف لم يقع منه همٌّ - بالمعصية - أصلًا . قال الشَّنْقِيطي : « هذا الوجه الذي اختارَهُ أبو حيان وغيره هو أجْرَىٰ الأقوال على قواعد اللغة العربية ؛ لأنَّ الغالِب في القرآن وفي كلام العرب أنَّ الجواب المحذوف يُذكَر قبله ما يدلُّ عليه ، كَقَوْله : ﴿ **فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس : ٨٤] ، أي : إنْ كنتم مسلمين فتوكَّلوا عليه . فمعنىٰ الآية : وهمَّ بها لولا أنْ رأى بُرهانَ رَبِّه . أي : لولا أنْ رآه ، هَمَّ بها .

ونظيرُ ذٰلك قولُه تعالىٰ : ﴿ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ... ﴾ الآية [القصص : ١٠] ، أي : لولا أنْ ربطنا على قلبها لَكادتْ تُبدي به » .

إنَّ الذي يستلِفتُ النظرَ كثرةُ تَكْرار الإحسان عند يوسف ، فكان محسنًا مع ربِّه وأيضًا مع الناس :

وقد سمّىٰ الله قصَّته ﴿ **أحسنَ القَصَص** ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٢] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦ .

ووصفهُ السُّجَناءُ بذٰلِكَ : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

وبه مكّنه الله تعالىٰ في الأرض ﴿ وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حيثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .

وقال لهُ إخوتُه وَهُمْ لا يعرفونه : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٧٨] .

وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

ثم أثنىٰ علىٰ رَبِّه بإحسانه إليه : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .. فيوسف عليه السلام وصفه الله بأنَّه مِنَ المُخلَصين والمخلِصين ، وهؤلاءِ ليس للشيطان عليهم سلطان ألبتة ، ووصفه الله بأنَّه من المحسنين ، والإحسان أنْ تعبد الله كأنّك تراه ، فكيف يهمُّ بالمعصية مَن كان هذا حاله ونَعْته ؟!

فللَّهِ ما أعلىٰ همّته وصبرَه .. شهد الله لصبره عن المعصية ، وشهدتِ امرأة العزيز والنِّسوة ، حتىٰ إبليس أقرّ بطهارةِ يوسف ، فهو مِن سادات المخلصين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُم الْمُخْلَصِين ﴾ [صٓ : ٨٢ ، ٨٣] ، فأقرّ بأنَّه لا يُمكنه إغواء المخلصين .

يقول الهروي في المنازل : « الصبر عن المعصية بمُطالعة الوعيد : إبقاءً علىٰ الإيمان ، وحَذَرًا من الحرام ، وأحسنُ منها : الصبر عن المعصية حياءً » .

قال ابن القيم : « ذَكَرَ للصبر عن المعصية سببيْن وفائدتيْن :

أمَّا السَّبَبَان : فالخوف من لحُوق الوعيد المترتّب عليها . والثاني : الحياء من الربِّ تبارك وتعالىٰ أن يُستعان على معاصيه بِنِعَمِه ، وأنْ يُبَارَز بالعظائم .

وأمَّا الفائدتان : فالإبقاء على الإيمان ، والحذَر من الحرام .

فأمَّا مطالعة الوعيد ، والخوف منه ، فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر ، والتصديق بمضمونه .

وأمّا الحياء : فيبعث عليه قوة المعرفة ، ومشاهدة معاني الأسماء والصفات . وأحسن من ذلك : أن يكون الباعث عليه وازِع الحُبِّ ، فيترك معصيته محبةً له كحال الصُّهَيْبيين .

ولمّا كان « الحياء » مِن شِيَم الأشراف ، وأهل الكَرَم والنفوس الزكيّة ، كان صاحبه أحسن حالًا مِن أهل الخوف . ولأنّ في الحياء من الله ما يدلّ علىٰ مراقبته وحضور القلب معه ، ولأنَّ فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف .

فمَن وازعُه الخوف : قلبُه حاضرٌ مع العقوبة ، ومَن وازعه الحياء : قلبُه حاضرٌ مع الله ، والخائف مُراعٍ جانبَ نفسه وحمايتها ، والمستحيي مراعٍ جانبَ ربِّه وملاحِظٌ عظمته ، وَكِلَا المقامَيْنِ : من مقاماتِ أهل الإيمان ، غيرَ أنَّ الحياء أقربُ إلى مقام الإحسان ، وأَلْصَقُ به ، إذْ أنزل نفسه منزلةَ مَن كأنّه يَرَىٰ الله ، فنبعثْ ينابيعُ الحياء من عيْنِ قلبه ، وتفجرت عيونُها » .

راودَت امرأةٌ رجلًا ، فقال لها : إنّ رجلًا يبيعُ جنةً عَرْضُها الأرضُ والسمٰوات بفِتْر ما بَيْنَ رجليْك ، لعديمُ البَصَر بالمساحة .

وراوَدَ رجلٌ امرأةً عن نفسها ، وقال لها : لا يَرانا إلّا الكواكبُ . فقالت له : فأين مُكَوْكِبُهَا ؟!

تَقْويةُ باعثِ الدِّين والهمّةِ في الصَّبرِ عن المعصية :

ويكون ذلك بأمور :

أحدها : إجلال الله تبارك وتعالىٰ أنْ يُعصىٰ وهو يَرىٰ ويَسمع ، ومَن قام بقلبه مشهدُ إجلالِهِ ، لم يطاوعْه قلبُه لذلكَ ألبتة .

الثاني : مشهد محبَّته سبحانه ، فيترك معصيته محبةً له ، وأفضل التَّرك ترْك المحبِّين ، كما أنَّ أفضل الطاعة طاعةُ المحبِّين ، فبيْن ترْك المحبِّ وطاعته ، وترْك مَن يخاف العذابَ وطاعته بوْنٌ بعيد .

الثالث : مشهد القهْر والظفر ؛ فإنّ قهْر الشهوة والظفر بالشيطان : له حلاوة ومسرّة وفرحة عند مَن عَلَتْ همّته ، أعظمَ من الظفر بعدوّه من الآدميِّين ، وأحلىٰ موقعًا وأتمَّ فرْحةً .

الرابع : أنْ يُعوّد باعِثُ الدين ودواعيه مصارعةَ داعي الهوىٰ ، ومقاومته علىٰ التدريج قليلًا قليلًا ، حتىٰ يُدْرك لَذَّة الظفر ، فتقوىٰ حينئذٍ همَّتُهُ ؛ فإنَّ مَن ذاق لَذَّة شيءٍ قَوِيتْ همَّتُه في تحصيله ، ومَن ترك المجاهدة بالكُلِّيَّة ضَعُفَ فيه باعثُ الدين وقوي فيه باعث الشهوة ، ومتىٰ عوّد نفسه مخالفة الهوىٰ ، غلبهُ متى أرادَ .

الخامس : أنْ يعلم العبدُ بأنّ فيه جاذبيْن متضادَّيْن ، ومحنتُه بين الجاذبيْن ، فجاذِبٌ يجذبُه إلى الرفيق الأعلىٰ من أهل عِلّيِّين ، وجاذبٌ يجذبه إلى أسفل سافلين ، فكلّما انقاد مع الجاذب الأعلىٰ ، صَعِدَ درجةً حتىٰ ينتهي إلى حيثُ يَليق به من المَحَلِّ الأعلى ، وكُلّما انقاد إلى الجاذِب الأسفل نزل ... ومتىٰ أراد أنْ يعلم هلْ هو مع الرفيق الأعلىٰ أو الأسفل ، فلْينظرْ أين روحُهُ في

هذا العالم ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ كُلٌّ يَعملُ علىٰ شاكِلَتِهِ** ﴾ [الإسراء : ٨٤] ، فالنفوس العُلويّة تنجذبُ بذاتها وهمّها وأعمالها إلى أعلىٰ ، والنفوس السافلة إلى أسفل .

الصبر علىٰ الطاعة وهو الصبر الأعلىٰ :

وأكملُ الناس صبرًا علىٰ الطاعة أولو العزم من الرسل ، ولذا أمر رسوله ﷺ أن يصبر صبرهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ **فاصبرْ كَمَا صبرَ أولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسلِ** ﴾ ، [الأحقاف : ٣٥] ، ونهاه أن يتشبّه بصاحب الحوت ، حيث لم يصبر صبْر أولي العزم ، فقال تعالىٰ : ﴿ **فاصبرْ لحكمِ ربِّك ولا تكنْ كَصَاحِبِ الحوتِ إذْ نَادَىٰ وَهو مَكْظُوم** ﴾ ، [القلم : ٤٨] .

صَبْرُ خليل الرحمٰن :

لقد كان صبر خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام أوفىٰ صبْر ، وقد صبر علىٰ طاعة الله ، وصابر ورابط ، وفيه قال الله تعالىٰ : ﴿ **وإبراهيمَ الذي وفَّىٰ** ﴾ [النجم : ٣٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهُنَّ قال إنِّي جاعِلُك للناسِ إمامًا قال ومِن ذُريَّتي قالَ لا ينالُ عهدي الظَّالِمين** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

قال ابن عباس : ما قام أحدٌ بدينِ الله كلّه إلّا إبراهيم عليه السَّلام ، قدَّم بدنَه للنيران ، وطعامَه للضيفان ، وولدَه للقُرْبان ...

بأبي وَأُمِّي خليل الرحمٰن ، وَمَن يصبرُ صبرَه ؟! يأمُره اللهُ تبارك وتعالىٰ بجعْل ولدِه وزوجِهِ في مكانٍ قَفْرٍ ويُطيع ، ويأمُره بذبح ولده وهو الشيخُ الطَّاعنُ في السِّن فيُطيع ، وَيُلْقَىٰ في النَّار فيصبر ، وسَلِمَ قلبُه من كلِّ الأغيار ، وأتَى ربَّه بقلبٍ سليمٍ ، ابتلاهُ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن ، وكسَّر الأصنامَ غيرةً لربِّه مِنْهُنَّ ، فلمَّا أُجِّجَتِ النارُ ذهبت بلطْف الله حرارتُهنّ ،

وغُرِس شجرُ الجنة في سواء الجحيم ، ﴿ **قلنا يا نارُ كوني بَرْدًا وسلامًا علىٰ إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

صبر نوحٍ عليه السلام :

مرَّ بنا في علوّ الهمة في الدعوة إلى الله صبرُ نوح النَّبيل الكريم في الدعـوة . وهي من أعلىٰ الطاعات ، ألف سنة إلَّا خمسـين عامًا .. يُوقِفُ أنفاسه علىٰ الدعوة إلى الله ... في أطْول صبر عرفه تاريخ البشرية ... وأكْرَم صـبر .

صبر إسماعيل عليه السلام :

قال تعالىٰ : ﴿ **فلمَّا بلغ معه السَّعْيَ قال يا بُنَيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذْبحك فانظرْ ماذا ترىٰ قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤْمَر ستجدُني إنْ شاء اللهُ من الصَّابرين فلمَّا أسلمَا وتلَّه للجبين وناديْناه أن يا إبراهيمُ قدْ صدَّقتَ الرؤيا إنَّا كذٰلِكَ نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ١٠٢ - ١١١] .

حادث فريد عظيم ، تعجزُ الكلماتُ أن تصوّر روْعته ، وصبرٌ بل ورضًا ونُبْلُ طاعةٍ ، وروعة إيمان وعظمة تسليم ، ووراء كلّ ما يتعارف عليه بنو الإنسان ... رضًا هادئ وصبر جميل مُستبشر ، متذوّقٌ للطاعة وطعْمها العذْب ، يبقىٰ منارةً ...

فللَّهِ درُّ إبراهيم الخليل في عزمه وخُلَّته لربِّه ! ولله صبْر إسماعيل ... قَبِلَ الله منه هذا الصبر وفدّاه ، وأكرمه كما أكرم أباه !

قال شيخ الإسلام الأنصاري : « الصبر علىٰ الطاعة ؛ بالمحافظة عليها دوامًا ، وبرعايتها إخلاصًا،وبتحسينها علمًا » .

قال ابن القيم : « إنَّ الطاعة تتخلف من فوات واحدٍ من هذه الثلاثة ،

فإنَّ العبد إنْ لم يحافظ عليها دوامًا عطَّلها ، وإنْ حافظ عليها دوامًا عرَض لها آفتان :

إحداهما : تَرْك الإخلاص فيها ، فحفْظها مِن هذه الآفة برعاية الإخلاص .

الثانية : ألَّا تكون مطابقة للعلم ، بحيث لا تكون على اتباع السنَّة ، فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة .

سيِّد المؤذِّنين ، المشهود له بالجنة على التعْيين ، بلالُ بن رباح :

« عن زرّ ، عن عبد الله قال : أول مَن أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمُّه سُميَّة ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد ، فأمَّا النبي ﷺ وأبو بكر : فمنعهما الله بقوْمهما ، وأمّا سائرهم : فأخذهم المشركون ، فألبسوهم أدراع الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحدٌ إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال ؛ فإنّه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة ، وهو يقول : أحدٌ أحد »[1] .

لقد نالتْ سِياطُ الكفر دَوْمًا ... بمكةَ مِن ظهور الصالحينا
فَمَهْلًا يا طغاةَ الشِّرْكِ مَهْلًا ... فطعمُ السَّوْطِ أحلىٰ ما لقينا
وما عِبْنَا عليه سوىٰ جراحٍ ... تُصيبُ الجسمَ دون الرُّوحِ فينا

وهذا عمار يُعَذَّب حتى لا يدري ما يقول ، وخبّاب ما ينطفئ وَهَجُ الحديدَ المحمي الذي يضعونه عليه إلَّا بما يسيل من وَدَك ظهره ، وخُبيب بن عَدِيّ يردّد حداءَه الجميل :

ولستُ أُبالي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي
وَذٰلِكَ فِي ذَاتِ الإِلٰه وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

---

(١) السير ١ / ٣٤٧ - ٣٤٨ ، وإسناده حسن .

فأين أنت يا مخنَّث العزم والطريق طويل ، تعب فيه آدم،وناح فيه نوح ، وأُلقي في النَّار إبراهيم ، واضطجع للذبح إسماعيل ، وَشُقَّ بالمنشار زكريا ، وَذُبِحَ السيدُ الحصور يحيىٰ ، عاش مع الوحوش عيسىٰ ، قاسىٰ الضُّرَّ أيُّوبُ ، زاد على المقدار في البكاء داود ، اتُّهم بالسحر والجنون نبيُّ الله الكريم ؛ كُسِرَت رباعيَّته وشُجَّ رأسه ووجهه ، ولله جنود السمٰوات والأَرض ، قُتل ذو النورين وعليّ ، وَطُعن عمر ، وقُتل الحسين ، وسعيد ابن جبير ، وعُذِّب ابن المسيب ومالك ، فرفعهما الله بعد محنتهما ؟!

الإمام الكبير الشهيد أحمد بن نصرٍ الخُزاعّي :

« كان رحمه الله أمَّارًا بالمعروف ، قوّالًا بالحقّ .

حُمل إلى سامرّاء مقيَّدًا ، وجلس الواثق له ، وقال لأحمد : دَعْ ما أُخِذت له ، ما تقول في القرآن ، قال : كلامُ الله . قال : أفمخلوق هو ؟ قال : كلامُ الله . قال : فترىٰ ربَّك في القيامة ؟ قال : كذا جاءتِ الرواية . قال: ويْحَك! يُرىٰ كما يُرَىٰ المحدود المُتجسِّم، ويحويه مكانٌ ويحاصره ناظر ؟! أنا كفرتُ بِمَنْ هذه صفته ، ما تقولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربيّ : هو حلالُ الدَّم . ووافقه فقهاء ، فأظهر أحمد بن أبي دؤاد أنّه كارهٌ لقتْله ، وقال : شيخٌ مُختلٌّ ، تغيّر عقْله ، يُؤَخّر . قال الواثق : ما أُراه إلا مُؤَدِّيًا لكفره قائمًا بما يعتقده ، ودعا بالصَّمصامة ، وقام . وقال : أحتسب خطاي إلى هذا الكافر . فضَرب عنقه بعد أنْ مدُّوا رأسَه بحبلٍ وهو مقيّد ، ونُصب رأسُه بالجانب الشرقيّ .

كان جعفر بن محمد الصائغ يقول : رأيتُ أحمد بن نصر حين قُتل ، قال رأسُه : لا إلـٰه إلَّا الله .

قال المروذي : سمعتُ أحمد بن حنبل ذكر أحمد بن نصر ، فقال :

رحمه الله ، لقد جادَ بنفسه .

ونُقل عن الموكَّل بالرأس ، أنه سمعه في الليل يقرأ : ﴿ يسٓ ﴾ ، وصح أنهم أقعدوا رجلًا بقصبة ، فكانت الريح تُدير الرأسَ إلى القبلة ، فيديره الرجل .

« قال السراج : سمعتُ خلف بن سالم يقول بعد ما قُتل ابن نصر ، وقيل له : ألَا تسمع ما الناس فيه،يقولون : إنّ رأس أحمد بن نصر يقرأ ؟! فقال : كان رأس يحيىٰ يقرأ » .

بقي الرأسُ منصوبًا ببغداد ، والبدن مصلوبًا بسامرَّاء ستَ سنين ، إلى أنْ أُنْزِلَ ، وجُمع في سنة سبع وثلاثين ، فَدُفِنَ رحمةُ الله عليه »[١].

إمامُ أهلِ السُّنَّةِ يُعطي المجهودَ مِن نفسهِ في المِحْنَة :

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قال لي أبي : يا بُنَيَّ ، لقد أعطيتُ المجهود من نفسي .

وقال أبو غالب ابن بنت معاوية : ضُرِبَ أحمد بن حنبل بِالسِّيَاط في الله ، فقامَ مَقَامَ الصِّدِّيقين ، في العشر الأواخر مِن رمضان سنة عشرين ومائتين .

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي على الناس زمان ؛ الصابرُ فيهم على دينه كالقابِض على الجمر »[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٦٧ - ١٦٩ .

(٢) صحيح ، رواه الترمذي وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٨٧٩) ، والصحيحة (رقم ٩٥٥) .

مِن ورائكم زمان صبر ، للمتمسِّك فيه أجرُ خمسين شهيدًا منكم »[١] .

وقال الشافعي : أسَدُّ الأعمال ثلاثة : الجُود من قِلّة ، والوَرَع في خُلْوة ، وكلمة الحقِّ عند مَن يُرجىٰ ويُخَاف .

أُخِذَ أحمد بن حنبل في محنة خلْق القرآن أيّام المأمون ، ليُحمَل إلى المأمون ببلاد الروم ، وأُخذ معه أيضًا محمد بن نوحٍ مقيَّدَيْن ، ومات المأمون قبل أن يلقاه أحمد ، فَرُدَّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح في أقيادهما ، فمات محمد بن نوح في الطريق ، وَرُدَّ أحمد إلى بغداد مقيَّدًا .

ودخل على الإمام أحمد بعضُ حُفاظ أهلِ الحديث بالرقة وهو محبوس ، فجعلوا يُذاكرونه ما يروىٰ في التقيَّة من الأحاديث ، فقال أحمد : وكيف تصعنون بحديث خبّاب : « إنَّ مَن كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار ، ثم لا يصدُّه ذلك عن دينه » ؟! فيئسوا منه .

قال أحمد : لستُ أبالي بالحبس ؛ ما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلًا بالسيف ، إنّما أخاف فتنة السَّوْط ، وأخاف أنْ لا أصبر . فسمعَه بعضُ أهل الحبس وهو يقول ذلك ، فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلَّا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي ، فكأنَّه سُرِّي عنه .

قال الإمام أحمد : كنتُ أُصَلّي بأهل السجن وأنا مقيَّد .

ولما مات المأمون ، رُدّ أحمد إلى بغداد فسُجن ، إلى أن امتحنه المعتصم .

« قال أبو بكر المروزي : لمّا سُجن أحمد بن حنبل ، جاء السَّجَّان ،

---

(١) صحيح ، رواه الطبراني في المعجم الكبير ، وصححه الألباني في الصحيحة (رقم ٤٩٤) وصحيح الجامع رقم (٢٢٣٠) .

فقال له : يا أبا عبد الله ، الحديث الذي رُوي في الظَّلَمَة وأعوانهم ، صحيح ؟ قال : نعم . قال السّجّان : فأنا من أعوان الظَّلَمَة ؟ قال أحمد : فأعوان الظلمة مَنْ يأخذ شَعْرَك ، ويغسل ثوبك ، ويُصلح طعامك ، ويَبيع ويشتري منك ، فأمّا أنت فَمِنْ أنفسِهِم »[1] .

لله دَرُّ ابن حنبل ، وضعُوا في رِجْله أربعةَ قيود ، وهو إمام أهل السنة !!

ولمّا أمر المعتصم بحمْل أحمد إليه - وكان قد سجنوه في رمضان سنة تسع عشرة ، في دار إسحاق بن إبراهيم - دخل عليه إسحاق ، فقال : يا أحمد ، إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ، إنه قد آلى إنْ لم تجبْه أنْ يضربَك ضربًا بعد ضربٍ ، وأنْ يُلقيَك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس ، وجيء إلى أحمد بدابّة ، فَحُمِلَ عليها وعليه الأقياد ، وكاد غيرَ مرَّة أنْ يخرّ على وجهه ؛ لِثِقَل القيود ، فجيءَ به إلى دار المعتصم ، وأدخلوه في حجرة ، وأدخلوه إلى بيت ، وأقفل الباب عليه ، وذلك في جوْف الليل ، وليس في البيت سِراج ، فلمّا كان الغَدُ ، أخرجوه إلى الخليفة ليناظره أحمد بن أبي دؤاد ، والمعتصم يقول : واللهِ لَئِنْ أجابني لأُطلقن عنه بيدي ، وَلَأَركبنّ إليه بجندي ، وَلَأَطأن عقبَهُ . ثم قال : يا أحمد ، واللهِ إني عليك لشفيقٌ ، وإني لأُشفق عليك كشفقتي على هارونَ ابني ، ما تقول ؟ فأقول : أعطوني شيئًا مِن كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله . ومرةً أُخرىٰ يقول المعتصم لأحمد : ما كنت تعرف صالحًا الرشيدي ؟ قال أحمد : قد سمعتُ باسمه . قال : كان مُؤَدِّبي ، وكان في ذلك الموضع جالسًا - وأشار إلى ناحية من الدار - فسألْتُه عن القرآن ، فخالفني ، فأمرتُ

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٩٧ .

به فَـوُطِئَ وَسُحِبَ . وبعد ثلاثة أيام مـن المناظرة والإمام أحمـد يُفحم المبتدعة ، قال المعتصم : العقابين والسياط . فجيء بهم .

قال إبراهيم البوشنجي : ذكروا أنَّ المعتصم رقَّ في أمر أحمد ، لمَّا عُلِّقَ في العقابين ، ورأىٰ ثبوته وتصميمه ، وصلابته في أمره ، حتىٰ أغراه ابن أبي دؤاد ، وقال له : إنْ تركتَه قيل : إنّك تركتَ مذهب المأمون ، وسخِطتَ قولَه . فهاجه ذلك على ضرْبه .

« قال صالح : قال أبي : لمّا جيء بالسياط ، نظر إليها المعتصم ، فقال : ائْتوني بغيرها . فأُتي بغيرها ، ثم قال للجلَّادين : تقدّموا . فجعل يتقدّم إليَّ الرجلُ فيضربني سَوْطَيْن ، فيقول له - يعني المعتصم - : شُدَّ ، قطع اللهُ يدك ! ثم يتنحَّى ، ثم يتقدَّم الآخر فيضربني سَوْطَيْن ، وهو في كلِّ ذلك يقول لهم : شدُّوا ، قطع اللهُ أيديكم ، فلمّا ضُرِبتُ تسعة عشر سوطًا ، قام إليَّ - يعني : المعتصم - فقال : يا أحمد ، علامَ تقتل نفسَك ؟! إني والله عليك شفيق . قال : فجعل عُجيف ينخسني بقائم سيفه ، وقال : أتريد أنْ تغلب هؤلاء كلَّهم ؟ وجعل بعضهم يقول : ويلك ! الخليفةُ على رأسك قائم . وجعل عبد الرحمـٰن يقول : ويْحك يا أحمد ! مَن صنع مِن أصحابك في هذا الأمر ما تصنع ؟! قال : وجعل المعتصم يقول : ويحك يا أحمد ! أجبني إلى شيء لك فيه أدنىٰ فَرَج ، حتى أُطلق عنك بيدي . قال : فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل ، أو سنة رسوله حتى أقول به . قال : فرجع فجلس ، فقال للجلّادين:تقدَّموا . فجعل الجلّاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحّىٰ ، وهو في خلال ذلك يقول : شُدَّ ، قطع اللهُ يدك . قال أبي : فذهب عقلي ، فأفقتُ بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أُطلقتْ عني ، فقال لي رجل ممّن حضر : إننا كَبَبْنَاك على وجهك ، وطـرحنا على ظهرك باريَّة ، ودُسناك . قال أبي : فما شعـرتُ

بذلك ، وأتوْني بسُويقٍ فقالوا لي : اشربْ وتقيّأْ . فقلت : لستُ أُفطر . ثم جِيء بي إلى دار إسحاقَ بن إبراهيم ، فحضرتْ صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلّى ، فلمّا انفتل من الصلاة ، قال لي : صلَّيْتَ والدمُ يسيل في ثوبك ؟! فقلتُ : قد صلّى عمر وجُرْحه يثغب دمًا »[1]. ثم خُلّي عنه فصار إلى منزله ، فمكث في السجن منذ أُخذ وحمل ، إلى أنْ ضرب وخُلّي عنه : ثمانيةً وعشرين شهرًا . قال بعض الجلّادين الذين ضربوا الإمام أحمد : لقد بطل أحمدُ الشُّطّار ، واللهِ لقد ضربتُه ضربًا ، لو أُبرِكَ لي بعيرٌ فضربتُه ذلك الضرب ، لنقبتُ عن جوْفه .

وقال شاباص التائب : لقد ضربتُ أحمد بن حنبل ثمانين سوْطًا ، لو ضربتُه فيلًا لهدَّتْه .

يرحم الله إمام أهل السنة ، لله دَرُّه ودرّ أُمٍّ أنجبتْه ، لقد كاد أن يكون إمامًا وهو في بطنها !!.

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب – وهو على الشُّرَط للمعتصم ، خليفة إسحاق بن إبراهيم – : ما رأيتُ أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالَط الملوك ، أثبتَ قلبًا من أحمد يومئذٍ ، ما نحن في عينه إلّا كأمثال الذُّباب .

لمّا أُخرج رحمه الله إلى المعتصم يومَ ضُرب ، قال له العوْن الموكّل به : ادعُ على ظالِمِك . فقال : ليس بصابرٍ مَن دعا على ظالم .

قال ابن الجوزي : هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فبذلها ، كما هانت على بلالٍ نفسه . وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنَّه كانت نفسه عليه في الله تعالى ، أهونَ مِن نفس ذباب ، وإنما تهون عليهم أنفسُهم

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٤٠٥ – ٤٠٧ .

لِتَلمُّحهم العواقب ، فعيونُ البصائر ناظرةٌ إلى المآل لا إلى الحال ، وشدّة ابتلاء أحمد دليل على قوّة دينه ؛ لأنّه قد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال : « يبتلى الرجلُ على حسب دينه » . فسبحان مَن أيّده وبصّره ، وقوّاه ونصره !!

« قال ابن الجوزي : وما زال الناس يُبْتَلَوْن في الله تعالى ويصبرون ، وقد كانت الأنبياء تُقتل ، وأهل الخير في الأمم السابقة يُقتلون ويحرّقون ، ويُنشر أحدهم بالمنشار ، وهو ثابت على دينه . وقد سُمّ نبيُّنا ﷺ ، وسُمَّ أبو بكر ، وقتل عمر وعثمان وعلي ، وسمّ الحسن ، وقتل الحسين بن علي ، وابن الزبير ، والضحّاك بن قيس ، والنعمان بن بشير ، وصُلب خُبيب ابن عَدِيّ .

وقَتل الحجاجُ عبدَ الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ ، وعبدَ الله بن غالب الحداني ، وسعيدَ بن جُبيْر ، وأبا البختري الطائي ، وكميلَ بن زياد ، وحطيطًا الزيّات ، وماهانَ الحنفي؛صلبَهُ ، وصلبَ قبله ابنَ الزبير .

وقتلَ الواثقُ أحمد بن نصرْ الخزاعي وصلبه .

فأمّا مَن ضُرب من كبار العلماء :

فعبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ : ضربَه الحجّاج أربعمائة سَوْط ، ثم قتله .

وخُبيبُ بن عبد الله بن الزبير : ضربَه عمر بن عبد العزيز بأمْر الوليد مائة سوط ، فكان عمر إذا قيل له : أبشرْ . قال : كيف بخُبيبٍ على الطريق ؟!

وأبو الزناد : ضربه بنو أُمية .

وأبو عمرو بن العلاء : ضربه بنو أمية خمسمائة سوط .

وربيعة الرأي : ضربه بنو أمية .

وعطية العوفي : ضربه الحجّاجُ أربعمائة سَوْط .

ويزيد الضبِّي : ضربه الحجّاجُ أربعمائة سوط .

وثابت البناني : ضربه ابن الجارود خليفة ابن زياد .

وعبد الله بن عوْن : ضربه بلال بن أبي بردة سبعين سوطًا .

ومالك بن أنس : ضربه المنصور سبعين سوطًا في يمينِ المُكْرَه ، وكان مالك يقول : لا تلزمُه اليمين .

وأبو السّوار العدوي ، وعقبة بن عبد الغافر : ضُرِبَا بالسياط .

وَلِأحمدَ بن حنبل في هؤلاء الأئمة أسوةٌ »[١].

« دخل الحارث بن مسكين على الإمام أحمد ، فقال له : أخبرَني يوسف بن عمر بن يزيد ، عن مالك بن أنس : أن الزهريّ سُعي به حتى ضُرِبَ بالسياط ، فقيل لمالك بعد ذلك : إنّ الزهريّ قد أُقيم للناس وَعُلِّقَتْ كتبُه في عنقه . فقال مالك : قد ضُرِب سعيد بن المسيب بالسياط ، وَحُلِقَ رأسُه ولحيتُه ، وَضُرب أبو الزناد بالسياط ، وَضُرِبَ محمد بن المنكدر وأصحابٌ له في حمّامٍ بالسياط . قال : وقال عمر بن عبد العزيز : لا تغبِطوا أحدًا لم يصبْه في هذا الأمر أذًى . فأُعجبَ أحمد بقوْل الحارث »[٢] .

قيل للشافعي : يُبتلى الرجلُ خيرٌ له أم يُمَكَّن ؟ قال : لا يُمَكَّنُ حتى يُبتلى .

ضربُوا ابنَ حنبل بالسياطِ بظُلْمهم ... بغْيًا فثُبِّتَ بالثباتِ الأنْورِ

قال المُوَفَّقُ حينَ مُدِّد بينهمْ ... مدّ الأديم معَ الصعيدِ القرْقرِ

إني أموتُ ولا أبوءُ بِفَجْرَةٍ ... تصلى بوائقُها محلَّ المفتري

لله دَرُّه !!

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ٤٢١ - ٤٢٢ .

هـانتْ عليه نفسُـهُ في دِينـهِ ... فَفَـدَىٰ الإمـامُ الدينَ بالجُثْمَـانِ
لِلّٰهِ مَـا لَقِـيَ ابنُ حنبـلَ صابرًا ... عــزمًا وينصــرُهُ بــلا أعــوانِ

قال بشر الحافي رحمه الله : إنّ ابنَ حنبل طار بحظّها وغنائها في الإسلام .

قال إسحاق بن راهَوَيْه : لولا أحمد بن حنبل وبذلُ نفسِهِ لِمَا بذلها له ؛ لذهَبَ الإسلام .

« وعن أبي هيْثم العابد قال : كنتُ عند بشْر بن الحارث ، فجاءه رجلٌ فقال : قد ضُرِب أحمد بن حنبل إلى السَّاعة سبعةَ عشرَ سوطًا ، قال : فمدَّ بشرٌ رجله ، وجعل ينظر إلى ساقيْه ويقول : ما أقبحَ هذا الساقَ أنْ لا يكون القيدُ فيه نصْرة لهذا الرجل » .

وقالوا لبشر : ألَا صنعتَ كما صنع ابن حنبل . فقال : تريدون مني مرتبةَ النبوة ، لا يقوىٰ بدني على هذا ، حَفِظَ الله أحمد ؛ مِن بين يديْه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته ، وعن يمينه وعن شماله .

« وقال بشرٌ : أُدخلَ أحمدُ الكِيرَ ، فخرج ذهبًا أحمرَ . قال علي ابن خشرم : فبلغ ذلك أحمد ، فقال : الحمد لله الذي رَضَّىٰ بشْرًا بما صنعنا »[1] .

وما أروع ما كتب مصطفى صادق الرافعي ، بقلمه النيّر – لله دَرُّه – : « كنتُ لا أزال أَعجب من صبْر شيخنا أحمد بن حنبل ، وقد ضُرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه ، فلم يتحوَّل عن رأيه ، فعلمتُ الآنَ أنّه لم يجعل في نفسه للضرب معنىٰ الضرب ، ولا عـرف

---

(١) مناقب الإمام صـ ١٥٧ .

للصبر معنىٰ الصبر الآدمي ، ولو هو صبَر على هذا صَبْرَ الإنسانِ لَجَزِعَ وتحوّل ، ولو ضُرب ضرْب الإنسان لتألَّم وتغيّر ، ولكنه وضع في نفسه معنىٰ ثبات السنة وبقاء الدين ، وأنّه هو الأمّة كلُّها لا أحمد بن حنبل ، فلو تحوّل لتحوّل الناس ، ولو ابتدع لابتدعوا ، فكان صبره صبر أمَّة كاملة ، لا صبر فرْد ، وكان يُضرب بالسياط ونفسُه فوق معنىٰ الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير ، لَمَا نالوا منه شيئًا ؛ إذْ لم يكن جسمُه إلَّا ثوبًا عليه ، وكان الرجل هو الفكْر ليس غيْر .

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتُمِنوا عليها من الله ، لتبقىٰ بهم معانيها في هذه الدنيا ، فهم يُزْرعون في الأمم زرعًا بيد الله ، ولا يملك الزرع غير طبيعته ، وما كان المعتصم - وهو يريد شيخنا علىٰ غير رأيه وعقيدته - إلَّا كالأحمق ، يقول لشجرة التفاح : أثمري غير التفاح »[1،2] .

أسلم أبو جندل بن سُهيل ، فقيّده أبوه ، لمّا نزل رسول الله ﷺ الحديبية ، خرج أبو جندل يرسُفُ في قيوده ، فدخل في الصحابة ، فقال سُهيل : وهذا أول مَنْ أُقاضيك عليه . فاستغاث أبو جندل : يا معشرَ المسلمين ، أُرَدّ إلى المشركين فيفتنوني عن ديني . فقال الرسول : « لا بدّ من الوفاء » . فَرُدَّ إليهم ، فقدِم يسعىٰ نحوهم ، وقلبه يجهز جيوش الحِيَل في الخلاص .

أنذرَتْني أمُّ سعدٍ أنَّ سعدًا ... دونها يَنْهَد لي بالشرِّ نَهْدَا
وعلىٰ ما صفحوا أوْ نَقمُوا ... ما أرىٰ لي منك يا ظبينُ بُدَّا

(١) مجلة الأسرة العدد ٢٣ صفر ١٤١٦ هـ صـ ٤٣ .
(٢) تحت الطبع رسالة لي عن « الصبر والرضا » .

لمّا أسلم مصعب بن عمير حبسه أهلُه ، فأفْلتَ إلى الحبشة ، ثم قدِم مكة فدخل على رسول الله ﷺ ، فأرسلتْ إليه أمُّه : يا علق ، أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي ؟! فقال : ما كنتُ لِأَبدأَ بأحدٍ قبل رسول الله ﷺ . فأرادتْ حبسه ، فقال : واللهِ لئنْ حبستني ، لأحرِّضنَّ على قتْل مَن يتعرّضُ لي . فتركتْه .

وعاذِلينَ لحُوبي في مودَّتكمْ　　يا ليْتَهُمْ وجدُوا مثلَ الذي أَجِدُ
لمَّا أطالوا عِتابي فيك قلتُ لهمْ　　لا تُفرطوا بعض هذا اللَّوْمِ واقتصدُوا

جمع حبس التعذيب بين بلالٍ وعمَّار ، مصادَرين على بذل الدين ، فزوَّروا نطْق عمّار ، على خطّ قلبه ، فلم يعرفوا التزوير ، وأصرّ بلال على دعوىٰ الإفلاس ، فسلّموه إلى صبيانهم في حديده ، يَصهرونه في حرّ مكة ، ويضعون على صدْره - وقتَ الرمضاء - صخرة ، ولسان محبته يقول :

بعينيْك ما يلقىٰ الفؤادُ وما لقي　　وللشّوْق ما لم يبقَ مني وما بقي

واعجبًا ! يُلام ذو حِسٍّ على عشْق يوسف ؟! قدِم الطُّفَيْل بن عمرو الدوْسيّ مكة ، فقالت قريشٌ : لا تَدْنُ من محمد ؛ فإنّا نخاف أنْ يفتنك . فسدَّ أُذنيْه بقطنتيْن ، ثم تفكّر وقال : والله ما يخفىٰ عليَّ الحسَنُ من القبيح . فانطلَق فسمع من رسول الله ﷺ ، فأسلم .

وما كنتُ ممَّن يدخلُ العشقُ قلبَهُ　　ولكنّ مَنْ يُبصر جفونَكَ يعشَقُ

قطعتْ قريشٌ لحْمَ خُبيب ، ثم حملوه إلى الجذْع لِيُصلب ، فقالوا : أتحبُّ أنّ محمدًا مكانَك ؟ فقال : واللهِ ما أحب أنِّي في أهلي وولدي ، وأنَّ محمدًا شِيكَ بشوْكة . ثم نادىٰ : وامحمَّداه .

إنَّ في الأَسْرِ لَصَبًّا　　ومعهُ في الخدّ صَبُّ
هـو بالـروم مُقِـيمٌ　　ولهُ بالشَّـامِ قَلْـبُ

لمّا توعَّد فرعون السحرة بالصَّلْب ، أنساهم أملُ لقاءِ الحبيب مرارةَ الوعيد ، ﴿ **إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** ﴾ يا فرعون ، غايةُ ما تفعل أنْ تحرق الجسم ، والرَّكْبُ قد سَرَىٰ ، ﴿ **لَا ضَيْرَ** ﴾ .

فرعونُ عَقلُكَ لمْ يزلْ مَخْدُوعَا ... وزمانُ حكْمِكَ لمْ يزلْ مَقْطُوعَا
ما زلت يا فرعونُ غرًّا تابعًا ... وتظنُّ نفسَك قائدًا متبوعَا
فرعونُ أنتَ الرمزُ سُمُّكَ لم يزلْ ... يَجري بأفئدةِ الطُّغاة نَقيعَا
خضِّبْ يمينَكَ بالدماءِ وقلْ لنا ... إنّي أنفِّذُ أمرِيَ المشروعَا
اسرقْ غذاءَ الجائعينَ وقلْ لنا ... إنّي أحاربُ في البلادِ الْجوعا
قطِّعْ رؤوسَ المصلحينَ فإنَّهُمْ ... يبغونَ منكَ إلَىٰ الإلٰهِ رُجوعَا
واملأْ سجونَكَ ثمَّ قلْ إنّي هُنا ... لأُحاربَ الإرهابَ والتَّطْبيعَا
طَارِدْ بجندِكَ كلَّ صاحبِ مبدإٍ ... يأبَىٰ لقانونِ الضَّلالِ خُضوعَا
واركضْ وراءَ شبابِ مصرَ لأَنَّهُمْ ... رفعُوا الجباهَ وحاربوا التطبيعَا
همْ يصعَدون إلى السماءِ وأنتَ في ... أوْحالِ وَهْمِكَ ما تزالُ وَضِيعَا
همْ يَلجئون إلى الإلٰهِ وأنتَ لَا ... يُرضيكَ إلَّا أنْ تسوقَ قطيعَا
هـمْ ينظـرونَ بأعْـينٍ مجلُوّةٍ ... فيرَوْنَ فَلَّكَ في العبادِ شَنِيعَا
عَرَفُوا حقيقةَ سحْرِ مَنْ جمَّعْتَهُمْ ... ورأَوْا عصَا موسَىٰ تُخيفُ جموعَا
ورأَوْا جِباهَ الساحرينَ تَعفَّرتْ ... سجدُوا لربِّ العالمينَ خُشوعَا
ورأَوْكَ تَستبقي النساءَ رهائنًا ... وتُديرُ قتْلًا في الرجالِ فظيعَا
نظرُوا إليكَ فأنكروكَ لأَنَّهمْ ... عرفوكَ في طُرُقِ الخداعِ ضَلِيعَا
لكَ كلَّ يوم قَوْلَةٌ تلْغي بِهَا ... ما قلتَ أمسِ وتُحسنُ الترقيعا
ما مصرُ يا فرعونُ إلَّا حُـرَّةٌ ... تَأْبَىٰ إلى غيرِ العفافِ نُزوعَا
لكنَّها سُلِبتْ عباءَةَ طُهْرِهَا ... وخلعْتَ أنتَ حجابَها لِتَضِيعَا
وأكلْتَ أصنافَ الطعامِ ومصرُ في ... ضَنْكٍ شديدٍ لا تنالُ ضريعَا

عجبًا متى تَبني لنفسك منزلًا في الحقّ تملأُ مُقْلَتَيْكَ دمُوعَا
أتظنُّ هامانَ الذي استنجَدْتَهُ ما زالَ يُوقِدُ للولاءِ شُمُوعَا
أتظنُّهُ ما زالَ يَبني صَرْحَهُ حتّى تُطيق إلى السماءِ طُلوعَا
أنسِيتَ قارونَ الذي زرعَ الهوى في قلبِهِ حتى استطالَ فُروعَا
ضيفتْ بِهِ الأَرضُ التي أبدى لهَا خُيَلاءَهُ وغدا بها مخْدُوعَا
ضاعتْ مفاتيحُ الخزائنِ واختفى قارونُ لم يَرَ في العبادِ شَفِيعَا
سلْ عنهُ أرضَكَ حينَ لمْ تتركْ لَهُ أثرًا ولا للصوتِ منهُ سَميعَا
أنسيتَ يا فرعونُ أنَّكَ غارِقٌ في اليَمِّ تعصِرُ قلبَك المَفْجوعَا
أنسيتَ رَهْوَ البحرِ حينَ وَلِجْتَهُ فرأيتَ نفسَكَ في الخِضَمِّ صَريعَا
شَرِّقْ وَغَرِّبْ كيفَ شئتَ فإنَّنا لا نجهلُ التطبيلَ والتلْمِيعَا
أبشِرْ فإنَّ الفجرَ سوفَ يُريق من كأسِ الظلام شرابَك المنقُوعَا
ولَسوفَ تفتحُ مصرُ صفحةَ عِزِّهَا وَلَسوفَ يغدو رأسُها مَرفوعَا
فرعونُ لا يخدعْكَ وَهْمُكَ إنّني أبصرتُ طِفلًا في حِمَاكَ رضيعَا[1]

ومن علوّ الهمّة: المصابرةُ والمرابطةُ ، قال تعالى : ﴿ **يَٰأَيُّهَا الذينَ آمنُوا اصبرُوا وصابرُوا ورابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لعلَّكُمْ تُفلِحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، فالصبرُ مع نفسك ، والمصابرةُ بينك وبين عدوّك ، والمرابطةُ الثباتُ وإعداد العُدّة . وكما أنّ « الرِّباطَ » لزومُ الثَّغْرِ لئلّا يهجم منه العدو ، فكذلك الرباط أيضًا لزومُ ثغْر القلب ، لئلّا يهجم عليه الشيطان ، فيمْلِكه أو يُخربه أو يُشعثه .

---

(١) « رسالة إلى فرعون » : قصيدة لعبد الرحمٰن العشماوي - الرياض ٢٩ / ٩ / ١٤١٣ هـ .

صبرُ الكِرَام لا صبْر اللِّئام :

« قال بعض العقلاء : « مَن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم » .
أمّا اللئيم فإنَّهُ يصبر اضطرارًا ؛ فإنّه يحوم حوْل ساحة الجزَع ، فلا يراها تُجدي عليه شيئًا ، فيصبر صبرَ الموثق للضرب ، وأيضًا فالكريم يصبر في طاعة الرحمٰن ، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان ، فاللئام أصبرُ الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم ، وأقلّ الناس صبرًا في طاعة ربِّهم ، فيصبر على البذْل في طاعة الشيطان أتمَّ صبرٍ ، ولا يصبر على البذل في طاعة الله في يُسْر شيءٍ ، ويصبر على تحمُّل المشاق لِهَوىٰ نفسه في مرضاة عدوّه ، ولا يصبر على أدنىٰ المشاقّ في مرضاة ربّه ، ويصبر على ما يُقال في عِرْضه في المعصية ، ولا يصبر على ما يُقال في عرضه إذا أُوذيَ في الله ، بل يفرُّ مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشيةَ أن يُتكلَّمَ في عرضه في ذات الله ، ويبذُل عرضَه في هوىٰ نفسه ومرضاته صابرًا على ما يُقال فيه ، وكذلك يصبر على التبذُّل بنفسه وجاهه في هوىٰ نفسه ومُراده ، ولا يصبر على التبذُّل لله في مرضاته وطاعته ، فهو أصبر شيءٍ على التبذُّل في طاعة الشيطان ومُراد النفس ، وأعجزُ شيءٍ عن الصبر على ذلك في الله ، وهذا أعظمُ اللُّؤْم ، ولا يكون صاحبه كريمًا عند الله ، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، ليعلم أهلُ الجَمْع مَنْ أوْلىٰ بالكرم اليوم ، أينَ المتَّقون ؟ »[1].

❊ ❊ ❊

(١) عدّة الصابرين صـ ٤٩ .

الفصْلُ السَّادس

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ في التَّوَكُّـل

« لَوْ أَنَّكُمْ توكَّلتُمْ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ توكُّلِهِ ،
لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرزقُ الطير ، تغدو خِمَاصًا ،
وترُوح بِطانًا » [حديثٌ صحيحٌ]



□ عُلُوُّ الهِمَّةِ فِي التوكُّل □

اعلمْ يا أخي أنّ التوكُّل هو من أجلّ السُّبُل عند الخاصّة وأعظمها قدرًا ، وقد أمَرَ اللهُ رسوله بذلك ، وحضَّه عليه هو والمؤمنين ، فقال تعالىٰ لرسوله : ﴿ **قُلْ هو الرحمٰنُ آمنَّا بِهِ وعليهِ توكَّلْنا فستعلمُونَ مَن هُو في ضلالٍ مُبينٍ** ﴾ [الملك : ٢٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فتوكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّكَ على الحقِّ المبين** ﴾ [النمل : ٧٩] ، وقال له : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [النساء : ٨١] ، وقال له : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ الحيِّ الذي لا يموتُ وسبِّحْ بحمدِه** ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فَإذَا عزمْتَ فتوكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكِّلين** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال عن أنبيائه ورسله : ﴿ **وما لنَا ألَّا نتوكَّلَ علىٰ اللهِ وقدْ هدانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ علىٰ ما آذيْتُمونا وعلىٰ اللهِ فلْيتوكَّلِ المتوكِّلُون** ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

وقال تعالىٰ عن أصحاب نبيِّه : ﴿ **الذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قدْ جمعُوا لكمْ فاخْشَوْهُمْ فزادهُمْ إيمانًا وقالُوا حسبُنا اللهُ ونعْمَ الوكيل** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال تعالىٰ عن أوليائه : ﴿ **ربَّنا عليكَ توكَّلْنا وإلَيْكَ أَنبْنَا وإليكَ المصيرُ** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال تعالىٰ للمؤمنين : ﴿ **وعلىٰ اللهِ فتوكَّلُوا إنْ كُنتمْ مؤمنين** ﴾ [المائدة : ٢٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وعلىٰ الله فلْيتوكَّلِ المؤمنون** ﴾ [إبراهيم : ١١] .

ولم يخاطب الله بالتوكُّل في كتابه إلَّا خواصَّ خلقه ، وأقربهم إليه ، وأكرمهم عليه ، وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكّلين ، والمعلَّقُ علىٰ الشرط

يعدم عند عدمه ، وهذا يدلُّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكُّل ، فمَن لا توكُّلَ له لا إيمانَ له .

وقال تعالىٰ : ﴿ **إنما المؤمنونَ الذينَ إذَا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وَإذَا تُليتْ عليهِمْ آياتُهُ زادتْهم إيمانًا وعلىٰ ربِّهم يتوكَّلونَ** ﴾ [الأنفال : ٢] . وهذا يدلُّ علىٰ انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة .

وأخبر تعالىٰ عن رسله بأنّ التوكُّل مَلْجَؤُهُم ومعاذُهم ، وأمَرَ به رسولَه في أربعةِ مواضعَ من كتابه ، وقال : ﴿ **وقال موسىٰ يا قوم إنْ كنتمْ آمنتمْ باللهِ فعليهِ توكَّلوا إنْ كنتمْ مؤمنينَ * فقالُوا علىٰ اللهِ توكَّلْنا ربَّنا لا تجعلْنا فتنةً للقومِ الظالمينَ** ﴾ [يونس : ٨٤ - ٨٥] .

والتوكل مِن أصعبِ منازل العامّة عليهم ، لأنَّ العامّة لم يَخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم ، ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصّة ، وهي التي تشهد التوكيل ، فهم في رِقِّ الأسباب ، فيصعب عليهم الخروج عنها ، وخُلُوُّ القلب منها ، والاشتغال بملاحظة المسبِّب وحده .

والله تبارك وتعالىٰ يُوكّل العبد ويُقيمه في حفْظ ما وَكَّله فيه ، والعبدُ يوكل الربَّ ويعتمد عليه .

فأما وكالة الربِّ عبدَه : ففي قوله تعالىٰ : ﴿ **فإنْ يَكْفُرْ بها هؤلاءِ فقدْ وكَّلْنا بِها قومًا ليسُوا بها بكافرين** ﴾ [الأنعام : ٨٩] . قال قتادة : وكّلنا بها الأنبياءَ الثمانيةَ عشرَ الذين ذكرناهم . يعني : قبل هذه الآية . وقال أبو رجاء العطاردي : معناه : إنْ يكفر بها أهل الأرض ، فقد وكّلنا بها أهل السماء ، وهم الملائكة . وقال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار أهل المدينة .

والصواب : أنّ المراد مَن قام بها إيمانًا ودعوةً وجهادًا ونُصرةً ، فهؤلاء

هم الذين وكّلهم الله بها .

فإن قلتَ : فهل يصحُّ أنْ يقال : إنَّ أحدًا وكيل الله ؟

قلتُ : لا ؛ فإنّ الوكيل مَن يتصرف عن موكِّله بطريق النيابة ، والله عز وجل لا نائبَ له ، ولا يَخلُفه أحد ، بل هو الذي يُخلِفُ عبدَه ، كما قال النبي ﷺ : « اللهمّ أنت الصاحبُ في السفر ، والخليفةُ في الأهل » . علىٰ أنّه لا يمتنع أنْ يُطلق ذلك باعتبارِ أنّه مأمورٌ بحفظ ما وكّله فيه ، ورعايته والقيام به .

وأما توكيل العبدِ ربَّه : فهو تفويضُه إليه ، وعزْل نفسه عن التصرف ، وإثباته لأهله ووليّه . ولهذا قيل في التوكل : إنه عزْل النفس عن الربوبية ، وقيامها بالعبودية . وهذا معنى كوْن الربِّ وكيلَ عبده ، أي : كافيه ، والقائم بأموره ومصالحه ؛ لأنَّه نائبُه في التصرف . فوكالة الربِّ عبدَه أمرٌ وتعبُّدٌ وإحسان له ، وخُلعة منه عليه ، لا عن حاجة منه ، وافتقارٍ إليه كموالاته .

وأما توكيل العبدِ ربَّه : فتسليمٌ لربوبيته ، وقيامٌ بعبوديته .

معنىٰ التوكُّل :

قال الإمام أحمد : التوكُّل عمل القلب . ومعنىٰ ذلك : أنه عمل قلبي ، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس : مَن يجعله من باب المعارف والعلوم ، فيقول : هو علم القلب بكفاية الربّ للعبد .

ومنهم : من يفسّره بالسكون ، وخمود حركة القلب . فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل ، يُقلبه كيف يشاء . وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار .

قال سهل : التوكل:الاسترسال مع الله مع ما يريد .

ومنهم : من يفسّره بالرضا ، فيقول : هو الرضا بالمقدور .

قال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلتُ على الله . يكذب على الله ، لو توكَّل على الله ، رضي بما يفعل الله .

وسُئل يحيىٰ بن معاذ : متىٰ يكون الرجل متوكّلًا ؟ فقال : إذا رضي بالله وكيلًا .

ومنهم : من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه ، والسكون إليه .

قال ابن عطاء : التوكل:أن لا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب ، مع شِدّة فاقَتِك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها .

قال ذو النون : هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أنَّ الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه .

وقال بعضهم : التوكل : التعلّق بالله في كلّ حال .

وقيل : التوكل:أنْ ترِد عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو إلَّا إلى مَن إليه الكفايات .

وقيل : نفي الشكوك ، والتفويض إلى مالك الملوك .

وقال ذو النون : خلْع الأرباب ، وقطع الأسباب . يريد قطْعها من تعلُّق القلب بها ، لا من مُلابَسة الجوارح لها .

ومنهم : من جعله مُرَكَّبًا من أمرين أو أمور .

فقال أبو سعيد الخراز : التوكّل : اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . يريد : حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن ، وسكون

إلى المسبِّب ، وركون إليه ، ولا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه .

وقال أبو تراب النَّخْشَبي : هو طرْح البدن في العبودية ، وتعلُّق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ؛ فإن أُعْطِيَ شكر ، وإن مُنع صبر .

فجعلَه مركّبًا من خمسة أمور : القيام بحركات العبودية ، وتعلُّق القلب بتدبير الرب ، وسكونه إلى قضائه وقدَره ، وطمأنينته وكفايته له ، وشكْره إذا أُعطي ، وصبره إذا مُنع .

وأجمع القوم على أنَّ التوكل لا ينافي القيام بالأسباب . فلا يصحُّ التوكل إلا مع القيام بها،وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد .

قال سهل بن عبد الله : مَن طَعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان .

فالتوكل حالُ النبي ﷺ ، والكسْب سنّتُه ، فمن عمل علىٰ حاله فلا يتركنّ سنتَه ، وهذا معنى قوْل أبي سعيد : « هو اضطرابٌ بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب » . وقول سهلٍ أبين وأرفع .

وقيل : التوكل:قطْع علائق القلب بغير الله .

وسئل سهل عن التوكل ، فقال : قلب عاش مع الله بلا عَلاقة .

وقيل : التوكل:هجْر العلائق ، ومواصلة الحقائق .

وقيل: التوكل: أنْ يستوي عندك الإكثار والإقلال . وهذا مِن موجباته وآثاره ؛ لأنه حقيقته .

ومنهم : من جعل التوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية .

قال أبو علي الدقّاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ،

ثم التفويض . فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضىٰ بحكمه . فالتوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحّدين . التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواصّ ، والتفويض صفةُ خاصّة الخاصّة . التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبيّنا محمد ﷺ وعليهم أجمعين .

هذا كلّه كلام الدقّاق ، ومعنىٰ هذا التوكل : اعتماد علىٰ الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوْعِ اقتراحٍ عليه ، وإرادةٍ وشائبةِ منازَعَةٍ ، فإذا سلّم إليه زال عنه ذلك ، ورضي بما يفعله وكيله ، وحال المفوّض فوق هذا ، فإنّه طالب مريد ممّن فوّض إليه ، ملتمسٌ منه أن يتولّى أموره ، فهو رضًا واختيار ، وتسليمٌ واعتماد . فالتوكل يندرج في التسليم ، وهو والتسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وكلٌّ أشار إلى واحد أو اثنين أو أكثر مِن حال؛ رُكِّب التوكّلُ من مجموعها .

التوكُّل علىٰ اللهِ حقَّ التَّوكُّل :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنّكم توكّلتم علىٰ الله عزّ وجل حقَّ توكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا »[١،٢] .

---

(١) خماصًا : أي ضامرة البطون من الجوع . وبطانًا : أي ممتلئة البطون .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والطيالسي في مسنده ، والترمذي ، والنسائي في الكبرىٰ ، وأبو نعيم في الحلية ، والبغوي في شرح السنة ، وأخرجه أحمد في المسند ، والفسوي في المعرفة ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه ، ووافقه =

عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكّلت ، وإليك أَنَبْتُ ، وبك خاصمتُ ، أعوذ بعزَّتك ، لا إلـٰه إلَّا أنت ، الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون »[١].

قال شيخ الإسلام ابن القيم : « إن التَّوكُّل حالٌ مركَّبة من مجموع أمورٍ ، لا تتمّ حقيقة التوكل إلَّا بها .

فأوَّل ذٰلك معرفةٌ بالرَّبِّ وصفاته : من قدرته ، وكفايته ، وقيُّومِيَّتِهِ ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة أول درجةٍ يضع بها العبد قدمه في مقام التوكُّل . قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصحُّ التوكل ولا يُتصوَّر من فيلسوف ، ولا من القَدَرِيّة النُّفاة ، القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء . ولا يستقيم أيضًا من الجَهْمِيّة النّفاة لصفات الرب جل جلاله . ولا يستقيم التوكُّل إلا من أهل الإثبات .

فأيّ توكُّلٍ لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيّات العالم سُفليّه وعلويّه ، ولا هو فاعل باختياره ، ولا له إرادة ومشيئة ، ولا يقوم به صفة ؟! فكلُّ مَنْ كان بالله وصفاته أعْلَمَ وَأَعْرَفَ ، كان توكُّلُهُ أصحَّ وأقوىٰ . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

والتوكل من أعَمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنىٰ ؛ فإن له تعلُّقًا خاصًّا بعامَّة أسماء الأفعال ، وأسماء الصفات . فله تعلُّق باسم الغفّار ، والتّوّاب ،

= الذهبي ، والبيهقي في الشعب ، وأخرجه أحمد وابن ماجه ، وأبو نعيم في أخبار أصفهان ، وصححه المناوي في التيسير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٢٥٤) والصحيحة (رقم ٣١٠) .

(١) أخرجه أحمد ، ومسلم بلفظ : « ... لا إلـٰه إلا أنت أن تُضلني ، أنت الحيّ ... » . وأخرجه البخاري مختصرًا . التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٣٦ .

والعَفُوّ ، والرَّءوف ، والرَّحيم . وتعلُّق باسم الفتّاح ، والوهّاب ، والرّزّاق ، والمعطي ، والمُحسن . وتعلُّق باسم المُعِزّ ، المُذِلّ ، الحافظ ، الرّافع ، المانع ، من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه ، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر . وتعلُّق بأسماء القدرة ، والإرادة . وله تعلُّق عامّ بجميع الأسماء الحسنى . ولهذا فسَّره مَنْ فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله . وإنما أراد أنه بحَسَب معرفة العبد ، يصحُّ له مقام التّوكُّل . وكلما كان بالله أَعْرَف ، كان توكُّلُه عليه أقوىٰ .

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات : فإن مَنْ نفاها فتوكُّلُه مدخول . وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي : أن إثبات الأسباب يَقْدَح في التّوكُّل ، وأن نَفْيها تمام التّوكُّل . فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكُّل ألبتّة ؛ لأن التّوكُّل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكَّل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به . فإذا اعتقد العبد أن توكُّله لم ينصبه اللهُ سببًا ، ولا جَعَلَ دعاءه سببًا لنيلِ شيءٍ ، فإن المتوكَّل فيه المدعو بحصوله : إن كان قد قُدِّر ؛ حَصَلَ ، توكَّلَ أو لم يتوكَّلْ ، دعا أو لم يَدْعُ . وإن لم يُقَدَّرْ ؛ لم يحصُلْ ، توكَّلَ أيضًا أو تَرَكَ التّوكُّلَ . وصرَّح هؤلاء : أن التوكل والدعاء عبوديّة محضة ، لا فائدة لهما إلا ذلك . ولو تَرَكَ العبد التّوكُّلَ والدعاء ، ما فاتَهُ شيء مما قُدِّر له . وَمِنْ غُلاتهم مَنْ يجعل الدعاء بعَدَم المؤاخذة على الخطإ والنسيان ، عديمَ الفائدة ، إذ هو مضمون الحصول . ورأيتُ بعض متعمِّقي هؤلاء - في كتابٍ له - لا يُجوِّز الدعاء بهذا ، وإنما يجوِّزه تلاوةً لا دعاءً . قال : لأن الدعاء به يتضمَّن الشّكَّ في وقوعه ؛ لأن الداعي بين الخوف والرجاء ، والشّكّ في وقوع ذلك : شكٌّ في خبر الله . فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم ، وتحريم الدعاء بما أثنىٰ الله علىٰ عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه ،

ولم يزل المسلمون - من عهد نبيهم ﷺ وإلى الآن - يدعون به في مقامات الدعاء ، وهو من أفضل الدعوات . وجواب هذا الوهم الباطل ، أن يقال : بقي قسمٌ ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع ؛ وهو أن يكون قُضي بحصول الشيء عند حصول سَبَبِهِ من التَّوكُّل والدعاء ، فنصب الدعاء والتَّوكُّل سَبَبَيْن لحصول المطلوب ، وقضىٰ الله بحصوله إذا فَعَلَ العبدُ سببه ، فإذا لم يأتِ بالسبب ، امتنع المسبَّب . وهذا كما قضي بحصول الولد إذا جامع الرجل مَنْ يُحبلها ، فإذا لم يُجامع لم يُخلق الولد . وقضي بحصول الشِّبَع إذا أكل ، والرِّيّ إذا شرب ، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يُروَ . وقضي بحصول الحجّ والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق . فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة . وقضي بدخول الجنة إذا أسلم وأتىٰ بالأعمال الصالحة ، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات ، لم يدخلها أبدًا . وقضي بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته . وقضي بطلوع الحبوب التي تزرع بشقّ الأرض ، وإلقاء البذر فيها ، فما لم يأتِ بذلك لم يحصل إلا الخيبة .

فوِزان ما قاله منكرو الأسباب : أن يترُك كلٌّ مِن هؤلاء السببَ الموصِّلَ ، ويقول : إن كان قُضي لي وسبق في الأزل حصول الولد والشِّبَع والرِّيّ والحجّ ونحوها ، فلا بد أن يصل إليَّ ، تحرَّكتُ أو سكنتُ ، وتزوَّجت أو تركت ، سافرت أو قعدت . وإن لم يكن قد قُضي لي ، لم يحصُل لي أيضًا ، فعلتُ أو تركت . فهل يعُدُّ أحَدٌ هذا من جملة العقلاء ؟! وهل البهائم إلَّا أفْقَه منه ؟! فإن البهيمة تسعىٰ في السبب بالهداية العامة .

فالتَّوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصُل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التّوكُّل . ولكنْ مِن تمام التّوكُّل : عدم الرُّكُون إلى الأسباب ، وقطْع علاقة القلب بها ، فيكون حال

قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بَدَنِهِ قيامه بها . فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ودينه ، والتَّوكُّل متعلِّق بربوبيته وقضائه وقدره . فلا تقوم عبودية الأسباب إلَّا على ساقِ التّوكّل ، ولا يقوم ساق التّوكّل إلَّا علىٰ قَدَم العبودية . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التَّوكُّل : فإنه لا يستقيم توكُّل العبد حتى يصحّ له توحيده . بل حقيقة التّوكُّل : توحيد القلب . فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكُّلُه معلولٌ مدخولٌ ، وعلى قدْر تجريد التوحيد ، تكون صحَّة التّوكّل ، فإن العبد متىٰ التفتَ إلى غير الله ، أخَذَ ذلك الالتفاتُ شُعبةً من شُعَب قلبه ، فنقص من توكُّله على الله بقدْر ذَهاب تلك الشُّعبة ، ومن هاهنا ظنَّ مَنْ ظنّ ، أن التَّوكُّل لا يصحُّ إلا برفض الأسباب ، وهذا حقٌّ . لكنَّ رَفْضها عن القلب لا عن الجوارح ، فالتوكل لا يتمّ إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلُّق الجوارح بها ، فيكون منقطعًا منها متَّصِلًا بها . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه : بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكونٌ إليها . بل يخلع السكونَ إليها من قلبه ، ويُلبسه السكونَ إلى مسبِّبها . وعلامة هذا : أنه لا يُبالي بإقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها ، وإقبال ما يكره ؛ لأن اعتماده علىٰ الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه ، قد حصَّنه من خوفها ورجائها ، فحاله حالُ مَنْ خرج عليه عدوٌّ عظيم لا طاقة له به ، فرأى حِصنًا مفتوحًا ، فأدخله ربُّه إليه ، وأغلق عليه باب الحصن . فهو يشاهد عدوَّه خارج الحِصن ، فاضطرابُ قلبِه وخوفُه من عدوّه في هذه الحال ، لا معنىٰ له . وكذٰلك من أعطاه ملكٌ درهمًا ، فسُرق منه ، فقال له الملك : عندي أضعافه فلا تهتمَّ ، متىٰ جئتَ إلَيَّ أعطيتُك من

خزائني أضعافه . فإذا علم صحة قوْل الملك ، وَوَثِقَ به واطمأنَّ إليه ، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك – لم يُحزِنه فَوْتُهُ . وقد مثِّل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه ، وطُمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره ، وليس في قلبه التفاتٌ إلى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكِّل كالطفل ، لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكِّل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

الدرجة الخامسة : حُسن الظن بالله عز وجل : فعلىٰ قدر حسن ظنِّك بربك ورجائك له ، يكون توكُّلُك عليه ، ولذلك فَسَّر بعضهم التوكل بحُسن الظن بالله . والتحقيق : أن حُسن الظَّنّ به يدعوه إلى التوكُّل عليه . إذ لا يتصوَّر التّوكُّل على من ساء ظنُّك به ، ولا التّوكُّل علىٰ من لا ترجوه . والله أعلم .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلِّها إليه ، وقطع منازعاته : وبهذا فسَّره من قال : أن يكون العبد بين يدي الله ، كالميِّت بين يدي الغاسِل ، يُقلِّبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير . وهذا معنىٰ قول بعضهم : التَّوكُّل إسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الرب لك ، وهذا في غير باب الأمر والنهي ، بل فيما يفعله بك ، لا فيما أمرك بفعله . فالاستسلام كتسليم العبدِ الذليل نَفْسَهُ لسيِّده ، وانقياده له ، وتَرْك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ولله دَرُّ القائل :

لا تُدبِّـرْ لك أمْــرا ... فَأُولُو التَّدْبيرِ هَلْكَىٰ
سَلِّمِ الأَمْـرَ تَجِدْنَـا ... نَحـنُ أَوْلَىٰ بِكَ مِنْكَـا

الدرجة السابعة : التفويض : وهو رُوح التَّوكُّل ولُبُّهُ وحقيقته . وهو إلقاء أمورِهِ كلِّها إلى الله ، وإنزالها به طَلَبًا واختيارًا ، لا كُرْهًا واضطرارًا ،

بل كتفويضِ الابن العاجز الضعيف المغلوب علىٰ أمره ، كلَّ أموره إلى أبيه ، العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحُسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرىٰ أن تدبير أبيه له ، خيرٌ من تدبيره لنفسه ، وقيامه بمصالحه وتولِّيه لها ، خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتولّيه لها ، فلا يجد له أصْلَح ولا أرْفَق من تفويضه أموره كلّها إلى أبيه ، وراحته من حَمْل كُلَفِها وثقل حِمْلها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علْم من فوّض إليه ، وقدرته وشفقته . فإذا وضع قَدَمه في هذه الدرجة ، انتقل منها إلى :

درجة الرضا : وهي الدرجة الثامنة : وهي ثمرة التَّوكُّل . ومن فسَّر التّوكُّل بها ، فإنما فسّره بأجَلِّ ثمراته وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكَّل حقَّ التّوكُّل ، رضي بما يفعله وكيلُه . وكان شيخنا - رضي الله عنه - يقول : المقدور يكتنفه أمران : التّوكُّل قَبْلَه والرضا بعده ، فمن توكَّل علىٰ الله قَبْل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية . أو معنىٰ هذا . قلت : وهذا معنىٰ قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأسْتَقْدِرُكَ بقُدْرتك ، وأسألك من فضلك العظيم » . فهذا توكُّل وتفويض . ثم قال : « فإنك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علَّام الغيوب » . فهذا تبرُّؤ إلى الله من العلْم والحوْل والقُوَّة ، وتوسُّلٌ إليه - سبحانه - بصفاته التي هي أحبُّ ما توسّل إليه بها المتوسِّلون . ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحتُه عاجلًا أو آجِلًا ، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مَضَرَّتُه عاجلًا أو آجلًا ، فهذا هو حاجته التي سألها . فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له ، فقال : « وَٱقْدرْ لِيَ الخَيْرَ حيثُ كَانَ ، ثم رَضِّنِي به » . فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلـٰهية ، والحقائق الإيمانية ، التي من جملتها : التَّوكُّلُ والتفويض قَبْلَ وقوعِ المقدور . والرضا

بعده ، وهو ثمرة التّوكُّل . والتفويض علامةُ صحّتِهِ . فإن لم يَرْضَ بما قُضِيَ له ، فتفويضه معلولٌ فاسد .

فباستكمال هذه الدرجات الثمان ، يستكمل العبد مقام التَّوكُّل ، وتثبُت قدمُه فيه . وهذا معنىٰ قول بشرٍ الحافي : يقول أحدهم : توكَّلتُ على الله . يكذبُ علىٰ الله ؛ لو توكَّلَ على الله لرضي بما يفعله الله به . وقول يحيىٰ بن معاذ وقد سُئل : متى يكون الرجل متوكِّلًا ؟ فقال : إذا رضي بالله وكيلًا »[1].

اشتباه المحمود الكامل من التَّوكُّل بالمذموم الناقص :

يقول شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « وكثيرًا ما يشتبه في هذا الباب : المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص . فيشتبه التفويض بالإضاعة ، فيضيِّع العبد حظَّه ، ظنًّا منه أن ذلك تفويضٌ وتوكُّل . وإنما هو تضييعٌ لا تفويض ؛ فالتضييع في حقِّ الله ، والتفويض في حقِّك .

ومنه : اشتباه التوكل بالراحة ، وإلقاء حمل الكَلِّ . فيظنُّ صاحبه أنه متوكِّل ، وإنما هو عاملٌ علىٰ عدم الراحة . وعلامة ذلك : أن المتوكِّل مجتهدٌ في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد ، مستريحٌ مِنْ غيرها لتعبه بها . والعامل على الراحة آخِذٌ من الأمر مقدارَ ما تندفع به الضرورة ، وتسقُط به عنه مُطالَبَة الشرع . فهذا لون ، وهذا لون .

ومنه : اشتباه خَلْع الأسباب بتعطيلها . فخلعُها توحيد ، وتعطيلُها إلحاد وزندقة . فخلْعُهَا عَدَم اعتماد القلب عليها ، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها . وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١١٧ - ١٢٣ .

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز . والفَرْق بينهما : أن الواثق بالله قد فَعَلَ ما أمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجرة ، وباذر الأرض . والمغترُّ العاجز : قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله . والثقة إنما تصحُّ بعد بذْل المجهود .

ومنه : اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه ، بالطمأنينة إلى المعلوم ، وسكون القلب إليه . ولا يميِّز بينهما إلَّا صاحب البصيرة ، كما يُذكر عن أبي سليمان الداراني : أنه رأى رجلًا بمكة لا يتناول شيئًا إلا شَرْبَةً من ماء زمزم ، فمضىٰ عليه أيام ، فقال له أبو سليمان يومًا : أرأيت لو غارت زمزم ، أيّ شيءٍ كنت تشرب ؟ فقام وقبَّل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرًا ، حيث أرشدْتني ، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيامٍ . ثم تركه ومضىٰ .

وأكثَر المتوكِّلين سكونُهم وطُمأْنِينتُهُم إلى المعلوم ، وهم يظنون أنه إلى الله . وعلامة ذلك : أنه متى انقطع معلومُ أحَدِهم ، حَضَرَه هَمُّه وَبَثُّه وخوفه ، فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله .

ومنه : اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبده - مما يحبه ويكرهه - بالعزْم على ذلك ، وحديث النفْس به . وذلك شيءٌ ، والحقيقة شيءٌ آخر ، كما يُحكىٰ عن أبي سليمان أنه قال : أرجو أن أكون أُعطِيت طرفًا من الرضا ، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا . فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا عزمٌ منه علىٰ الرضا وحديثُ نفسٍ به . ولو أدْخَلَهُ النار ، لم يكن من ذلك شيءٌ . وَفَرْقٌ بين العزم علىٰ الشيء وبين حقيقته .

ومنه : اشتباه عِلْم التَّوكُّل بحال التّوكّل . فكثيرٌ من الناس يعرف التّوكُّل وحقيقته وتفاصيله ، فيظنّ أنه متوكِّل ، وليس من أهل التوكل . فحال التّوكّل : أمرٌ آخر مِنْ وراء العلم به . وهذا كمعرفة المحبة والعلم

بها وأسبابها ودواعيها . وحال المحبّ العاشق وراء ذلك . وكمعرفة علم الخوف ، وحال الخائف وراء ذلك . وهو شبيهٌ بمعرفة المريض ماهيَّة الصحة وحقيقتها ، وحالُهُ بخلافها .

فهذا الباب يكثر اشتباهُ الدَّعاوى فيه بالحقائق ، والعوارِض بالمطالب ، والآفات القاطِعة بالأسباب الموصلة . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

توكُّل العاجِز القاصِر الهمَّة المغبون في توكُّله :

يقول شيخ الإسلام ابن القيم : « كثيرٌ من المتوكِّلين يكون مغبونًا في توكُّله ، وقد توكَّل حقيقةَ التّوكّل وهو مغبون ؛ كمن صَرَف توكُّله إلى حاجةٍ جزئيّة استفرغَ فيها قوةَ توكُّله ، ويمكنه نيلُها بأيسر شيءٍ ، وتفريغُ قلبه للتّوكّل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خبرًا . فهذا توكُّل العاجز القاصر الهمَّة ، كما يصرف بعضهم همَّتَهُ وتوكُّلَه ودعاءَهُ إلى وَجَع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيفٍ أو نصفِ درهم ، أو نصرٍ على عدوّ أو زوجة أو ولد ، ونحو ذلك ، ويَدَع صرْفه إلى نُصرة الدين ، وقمْع المبتدعين ، وزيادة الإيمان ، ومصالح المسلمين . والله أعلم .

ودون هؤلاء من يتوكَّل عليه في حُصُول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكُّلهم أقوى من توكّل كثيرٍ من أصحاب الطاعات ؛ ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك ، معتمدين على الله أن يسلِّمهم ، ويظفرهم بمطالبهم » .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٢٣ - ١٢٥ .

فالتَّوكُّل أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنَّازِلين ، لسعة متعلَّق التّوكّل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التّوكّل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، والطير والوحش والبهائم . فأهل السمٰوات والأرض - المكلَّفون وغيرهم - في مقام التَّوكُّل ، وإن تبايَنَ متعلّق توكُّلهم .

درجات التَّوكُّل :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » شارحًا كلام شيخ الإسلام الأنصاري : « قال : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولىٰ : التَّوكُّل مع الطَّلَب ، ومعاطاة السبب على نِيَّة شغل النفس بالسبب مخافة ، ونفْع الخلْق ، وتَرْك الدَّعوى » .

يقول : إن صاحب هذه الدرجة يتوكل على الله ، ولا يترك الأسباب ، بل يتعطاها على نيَّة شغل النَّفْس بالسبب ، مخافةَ أن تفرغ فتشتغل بالهوىٰ والحظوظ . فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلتْه بما يضرُّه ، لا سيما إذا كان الفراغ مع حدَّة الشباب ، وملْك الجِدَة ، وميْل النفس إلى الهوىٰ ، وتوالي الغفلات ، كما قيل :

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ مَفْسَدَةٌ للمرء أيّ مفسدهْ

ويكون أيضًا قيامه بالسبب على نيَّة نفْع النفس ، ونفع الناس بذلك ، فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره .

وأمَّا تضمُّن ذلك لترك الدعوىٰ : فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلَّصَ من إشارة الخلْق إليه ، الموجِبة لحُسن ظنّه بنفسه ، الموجِب لدعواه . فالسبب ستْرٌ لحاله ومقامه ، وحجابٌ مُسْبَل عليه .

ومن وجهٍ آخر ، وهو أن يَشْهَد به فقره وذُلَّه ، وامتهانه امتهانَ العبيد

والفَعَلَة . فيتخلَّص من رعونةِ دعوىٰ النفس ، فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة الأسباب ، سَلِمَ من هذه الأمراض .

فيقال : إذا كانت الأسباب مأمورًا بها ، ففيها فائدةٌ أجلُّ من هذه الثلاث ، وهي المقصودة بالقصد الأول ، وهذه مقصودة قصد الوسائل . وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خُلق له العبد ، وأُرسلت به الرسل ، وأُنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السمٰوات والأرض ، وله وُجدت الجنة والنار . فالقيام بالأسباب المأمور بها : مَحْضُ العبودية ، وحقُّ الله على عبده الذي توجَّهت به نحوه المطالب ، وترتَّب عليه الثواب والعقاب . والله سبحانه أعلم .

قال : « **الدرجة الثانية** : التَّوكُّل مع إسقاط الطلب ، وغَضّ العين عن السبب ؛ اجتهادًا لتصحيح التّوكّل ، وقمعًا لشرف النفس ، وتفرُّغًا إلى حِفْظ الواجبات » .

قوله : « مع إسقاط الطلب » ؛ أي من الخلْق لا من الحق ، فلا يطلب من أحدٍ شيئًا . وهذا من أحْسَن الكلام وأنْفَعه للمريد ؛ فإن الطَّلَب من الخلْق في الأصل محظورٌ ، وغايته أن يُباح للضرورة ، كإباحة الميتة للمضطرّ ، ونصَّ أحمد على أنه لا يجب . وكذلك كان شيخنا يُشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال . وسمعتُهُ يقول في السؤال : هو ظُلم في حقِّ الربوبية ، وظلم في حق الخلْق ، وظلم في حق النفس .

أمّا في حق الربوبية ؛ فَلِمَا فيه مِن الذُّلّ لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه ، والتَّعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين ، والتَّعرُّض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه . وأمّا في حق الناس : فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال ، واستخراجه منهم . وأبغض ما إليهم : مَنْ يسألهم ما في أيديهم . وأحبُّ ما إليهم :

من لا يسألهم ؛ فإن أموالهم محبوباتهم ، ومن سألك محبوبك فقد تعرَّض لمقتك وبغضك . وأمَّا ظلم السائل نفسه : فحيثُ امْتَهَنَهَا وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال ، ورضي لها بذُلِّ الطلب ممن هو مِثْلُه ، أو لعل السائل خير منه وأعلى قَدْرًا ، وتَرَكَ سؤال مَنْ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فقد أقام السائل نفسه مقامَ الذُّلّ ، وأهانها بذلك ، ورضي أن يكون شحَّاذًا مِن شحّاذٍ مثله ، فإن من تشحذه فهو أيضًا شحّاذ مثلك ، والله وحده هو الغني الحميد . فسؤال المخلوق للمخلوق : سؤال الفقير للفقير . والرب تعالىٰ كلَّما سألتَهُ كَرُمْتَ عليه ، ورضي عنك ، وأحبَّك . والمخلوق كلما سألته هُنت عليه وأبغضَك ومَقَتَك وَقَلاكَ ، كما قيل :

الله يغضبُ إن تركتَ سؤالَهُ وَبنيُّ آدَمَ حينَ يُسأَلُ يغضبُ

وقبيحٌ بالعبد المريد : أن يتعرَّض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كلّ ما يريد . وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه ، قال : كُنّا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : « ألا تُبايعون رسول الله ؟ » . وكنّا حديثي عهدٍ ببيعةٍ ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : « ألا تُبايعون رسول الله ؟ » . فبسطْنا أيدينَا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نُبايعك ؟ فقال : « أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس - وأسرَّ كلمةً خفيَّةً - ولا تسألوا الناس شيئًا » . قال : ولقد رأيت بعضَ أولئك النَّفر يسقط سَوْطُ أَحَدِهم ، فما يسأل أحدًا أن يُناوله إياه .

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزْعة لحمٍ » .

وفيهما أيضًا عنه ، أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر ، وَذَكَرَ الصَّدَقة والتَّعفُّف عن المسألة - : « واليَدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى » .

واليد العليا : هي المنفقة . والسفلى : هي السائلة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من سأل الناس تكثُّرًا ، فإنما يسأل جَمْرًا ، فَلْيَسْتَقِلّ أو لِيَسْتَكْثِرْ » .

وفي الترمذي عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المسألة كَدٌّ يَكُدُّ بها الرجل وَجْهَهُ ، إلا أن يسأل الرجل سلطانًا ، أو في الأمر الذي لا بُدَّ منه » . قال الترمذي : حديث صحيح .

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : « مَنْ أصَابَتْهُ فاقةٌ ، فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته ، ومَنْ أنزلها بالله فيوشِكُ الله له برزقٍ عاجِل أو آجِل » .

وفي السنن والمسند عن ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئًا ، أتكفَّل له بالجنة » . فقلت : أنا . فكان لا يسأُل أحدًا شيئًا .

وفي صحيح مسلم عن قبيصة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إن المسألة لا تحلُّ إلَّا لأحَدِ ثلاثةٍ : رَجُل تحمَّل حمالةً ، فحلَّتْ له المسألةُ حتى يُصيبها ، ثم يُمسك . ورجلٌ أصابتْهُ جائحةٌ اجتاحتْ مالَهُ ، فحلّتْ له المسألة حتى يُصيب قوامًا مِنْ عيشٍ - أو قال : سدادًا من عيش - . ورَجُل أصابَتْهُ فاقةٌ حتى يقولَ ثلاثةٌ من ذوي الحِجَا من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقةٌ . فحلَّتْ له المسألةُ حتى يُصيب قوامًا من عيشٍ - أو قال : سدادًا من عيش - . فما سواهُنَّ من المسألة يا قبيصة ، فَسُحْتٌ يأكُلُهَا صاحبها سُحْتًا » .

فالتَّوكُّل مع إسقاط هذا الطَّلَب والسؤال ، هو مَحْضُ العبودية .

قوله : « وغضّ العين عن التَّسبُّب ، اجتهادًا في تصحيح التَّوكُّل » .

معناه : أنه يُعرض عن الاشتغال بالسبب ، لتصحيح التّوكّل بامتحان النفس . لأن المتعاطي للسبب قد يظنّ أنه حَصَّل التّوكُّل ، ولم يُحصِّلْه لثقته بمعلومه ، فإذا أعرضَ عن السبب ، صحَّ له التَّوكُّل .

وهذا الذي أشار إليه : مذهب قومٍ من العُبَّاد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ، ويرى حمل الزاد قدْحًا في التّوكّل ، ولهم في ذلك حكايات مشهورة ، وهؤلاء في خفارة صدقهم ، وإلَّا فدرجتُهم ناقصةٌ عن العارفين ، ومع هذا فلا يُمكن بشرًا ألبتة تَرْك الأسباب جملةً . فهذا إبراهيم الخوَّاص كان مجرَّدًا في التّوكّل يُدقِّق فيه ، ويدخل البادية بغير زاد ، وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض ، فقيل له : لِمَ تحمل هذا ، وأنت تمنع من كل شيء ؟ فقال : مثل هذا لا ينقص من التّوكُّل ؛ لأن لله علينا فرائض ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوبٌ واحد ، فربما تخرَّق ثوبه ، فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته ، وإذا رأيت الفقيرَ بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط ، فاتَّهِمْه في صلاته .

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب ؟ أو ليست حركة أقدامه ونَقْلها في الطريق والاستدلال على أعلامها - إذا خفيت عليه - من الأسباب ؟ فالتَّجرُّد من الأسباب جملةً : ممتنعٌ عقلًا وشرعًا وحسًّا . نعم، قد تعرض للصادق أحيانًا قوة ثقةٍ بالله ، وحالٌ مع الله ، تحمله على ترك كلِّ سببٍ مفروض عليه ، كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة ، ويكون ذلك الوقت بالله لا به ، فيأتيه مددٌ من الله على مقتضىٰ حاله ، ولكن لا تدوم له هذه الحال ، وليست في مقتضىٰ الطبيعة ؛ فإنها كانت هجمة هجمتْ عليه بلا استدعاء فحمل عليها ، فإذا استدعى مِثْلَها وتكلَّفها ، لم يُجَب إلى ذلك ، وفي تلك الحال : إذا تَرَكَ السبب يكون معذورًا ؛ لقوة

الوارد وعجزه عن الاشتغال بالسبب ، فيكون في وارده عونٌ له ، ويكون حاملًا له ، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد ، وقع في المحال . وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تُحكى عن القوم ، فهي جزئيَّة حصلت لهم أحيانًا ، ليست طريقًا مأمورًا بسلوكها ، ولا مقدورة ، وصارت فتنة لطائفتين ؛ طائفة ظنتها طريقًا ومقامًا ، فعملوا عليها ، فمنهم من انقطع ، ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها ، بل انقلب على عقبيه . وطائفة قدحوا في أربابها ، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل ، مدَّعِين لأنفسهم حالًا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، إذ لم يكن فيهم أحَدٌ قطُّ يفعل ذلك ، ولا أخلَّ بشيءٍ من الأسباب ، وقد ظاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعيْن يوم أُحُد ، ولم يحضر الصَّفّ قطُّ عُريانًا ، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة ، واستأجر دليلًا مشركًا على دين قومه ، يدلُّه على طريق الهجرة ، وقد هدىٰ الله به العالمين ، وعصمه من الناس أجمعين ، وكان يدَّخِر لأهله قُوتَ سنةٍ وهو سيِّد المتوكِّلين ، وكان إذا سافر في جهادٍ أو حجٍّ أو عمرةٍ ، حَمَلَ الزاد والمزاد .

قوله : « وقمعًا لشَرَف النفس » .

يريد : أن المتسبِّب قد يكون متسبِّبًا بالولايات الشريفة في العبادة ، أو التِّجارات الرفيعة ، والأسباب التي له بها جاهٌ وشرف في الناس ، فإذا تَرَكَهَا ، يكون تركها قمعًا لشرف نفسه ، وإيثارًا للتواضع .

وقوله : « وتفرُّغًا لحفظ الواجبات » .

أي يتفرّغ بتركها لحفظ واجباتها التي تُزاحمها تلك الأسباب . والله أعلم .

قال : « **الدرجة الثالثة** : التّوكُّل مع معرفة التّوكّل ، النازعة إلى الخلاص

من عِلَّة التّوكّل . وهي أن يعلم أن مِلْكَةَ الحقِّ تعالىٰ للأشياء هي مِلْكة عِزَّة ، لا يُشاركه فيها مُشارِك ، فَيَكِل شركتَهُ إليه ؛ فإنَّ مِنْ ضرورةِ العبوديةِ : أن يعلم العبد أن الحقَّ سبحانه هو مالك الأشياء وَحْدَه » .

يريد أن صاحب هذه الدرجة ، متى قَطَعَ الأسباب والطَّلَب ، وتعدَّى تينك الدرجتيْن ، فتوكُّله فوقَ توكُّلِ مَنْ قَبْلَهُ . وهو إنما يكون بعد معرفته بحقيقة التّوكُّلِ ، وأنه دون مقامه ، فتكون معرفته به وبحقيقته نازِعة - أي باعثة وداعية - إلى تخلُّصِه من علَّة التّوكُّل ، أي لا يعرف علَّة التّوكُّل حتى يعرف حقيقتَهُ ، فحينئذٍ يعرف التَّوكُّل المعرفةَ التي تدعوه إلى التخلُّص من علّته .

ثم بيَّن المعرفة التي يعلم بها علَّة التَّوكُّل فقال : « أن يعلم أن مِلْكَة الحقِّ للأشياء مِلْكة عزَّة » ؛ أي مِلْكة امتناع وقوة وقهر ، تمنع أن يشاركه في مُلْكِهِ لشيءٍ من الأشياء مُشارِك ، فهو العزيز في مُلْكه ، الذي لا يُشاركه غيره في ذرَّةٍ منه ، كما هو المنفرد بعزَّته التي لا يُشاركه فيها مشارك .

فالمتوكِّل يرى أن له شيئًا قد وكَّل الحق فيه ، وأنه سبحانه صار وكيله عليه . وهذا مخالفٌ لحقيقة الأمر ؛ إذ ليس لأحدٍ من الأمر مع الله شيء ، فلهذا قال : « لا يُشاركه فيه مُشارِك ، فَيَكِلُ شركته إليه » ، فلسان الحال يقول لمن جعل الرب تعالى وكيله : في ماذا وكَّلتَ ربَّك ؟ أفي ما هو له وحده ؟ أو لك وحدك ؟ أو بينكما ؟ فالثاني والثالث ممتنع بتفرُّده بالملك وحده . والتوكيل في الأول ممتنع ، فكيف توكّله فيما ليس لك منه شيء ألبتة ؟!

فيقال : هاهنا أمران : توكُّل ، وتوكيل . فالتَّوكُّل : محض الاعتماد والثقة ، والسكون إلى مَنْ له الأمر كلُّه . وعِلْم العبد بتفرُّد الحقِّ تعالىٰ

وحده بملك الأشياء كلِّها ، وأنه ليس له مُشارِك في ذَرَّةٍ من ذرَّات الكون : من أقوىٰ أسباب توكُّلِهِ وأعظم دواعيه . فإذا تحقَّق ذلك علمًا ومعرفةً ، وباشر قلبه حالًا ، لم يجد بُدًّا من اعتماد قلبه على الحقِّ وحده وثقته به ، وسكونه إليه وحده ، وطمأنينته به وحده ؛ لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته ، وجميع مصالحه كلها ، بيده وَحْدَهُ لا بيدِ غيرِهِ ، فأين يَجِد قلبه مناصًا من التَّوكُّل بعد هذا ؟!

فَعِلَّة التوكل حينئذٍ : التفات قلبه إلى مَنْ ليس له شركة في ملك الحق ، ولا يملك مثقال ذرةٍ في السمٰوات ولا في الأرض . هذه علَّة توكُّلِهِ ، فهو يعمل على تخليص توكُّله من هذه العلّة .

نعم ، ومن علَّةٍ أُخرىٰ ، وهي رؤيةُ توكُّله ، فإنه التفاتٌ إلى عوالم نفسه .

وعلة ثالثة : وهي صَرْفه قوة توكُّله إلى شيءٍ : غيرُهُ أحبُّ إلى الله منه .

فهذه العِلَل الثلاث هي عللُ التوكيل .

وأمَّا التَّوكُّل : فليس المراد منه إلَّا مجرَّد التَّفْوِيض . وهو من أخصِّ مقامات العارفين ، كما كان النبي ﷺ يقول : « اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك ، وَفَوَّضْتُ أمري إليك » . وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **وأُفوِّض أمري إلى الله إن الله بصيرٌ بالعباد** ﴾ فكان جزاء هذا التفويض قوله : ﴿ **فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا** ﴾ [غافر : ٤٤ ، ٤٥] . فإن كان التَّوكُّل معلولًا بما ذكره ، فالتفويضُ أيضًا كذلك . وليس ، فليس .

ولولا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله ، فمأخوذٌ من قوله ومتروك ، وهو عُرضة الوهم والخطأ ، لما اعترضْنا على من لا نلحق

غُبارهم ، ولا نجري معهم في مضمارهم ، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ، ومنازل السائرين ، كالنجوم الدراري . ومن كان عنده علم فليُرشدنا إليه ، ومن رأى في كلامنا زيغًا ، أو نقصًا وخطأً ، فليُهدِ إلينا الصواب ، نشكر له سعيه ، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم . والله أعلم ، وهو الموفِّق »[1] .

□ أعلىٰ التَّوكُّل توكُّل الأنبياء وَوَرَثَتِهم □ في فتح بصائر القلوب

لا يستوي في شرفه وهمَّته مَنْ تَوكَّلَ على الله في رغيف ، ومن توكَّل على الله في نُصرة دينه .

فالتَّوكُّل على الله في معلومِ الرزق المضمون ، والاشتغال به عن التَّوكُّل في نصرة الحقّ والدِّين من أوْهَى المنازل . والناس بعدُ في التَّوكُّل على حَسَب هِمَمهم ومقاصدهم .

فأفضلُ التَّوكُّل : التّوكّل في الواجب - أعني واجب الحق ، وواجب الخلْق ، وواجب النفس - وأوسعه وأنْفَعُه : التَّوكُّل في التأثير في الخارج في مصلحةٍ دينية ، أو دفْع مفسدةٍ دينية ، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله ودفْع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكُّل ورثتهم .

توكل الخليلين : إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم :

في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم ﷺ ، حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٠ - ١٣٧ .

له : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

إبراهيم الخليل الأنموذج المثالي للمتوكِّلين :

قال أبو يعقوب النهرجوري : « التّوكُّل على كمال الحقيقة وَقَعَ لإبراهيم خليل الرحمٰن في تلك الحال ، إلى أن قال لجبريل عليه السلام : أمَّا إليك فلا . لأنه غائب عن نفسه بالله ، فلم يَرَ مع الله غير الله ، وكان ذهابه بالله من الله إلى الله بلا واسطة وهو من عاليات التوحيد ، وإظهار القُدرة لنبيه إبراهيم عليه السلام » .

اعترضه وتعرَّض لحوائجه المَلَك ، حين قطع بَيْدَاءَ الهَوَىٰ وسَلَكَ ، فقال له بلسان الحال : مَعِي مَنْ مَلَك ، إيَّاك والتعريض بما ليس لَك ، فلمَّا لم يتعلَّق بخلْقٍ دون الله إذ أُضيم ﴿ **قُلنا يا نارُ كُوني بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

تعرّضت له الأمْلاك فكفَّها كَفّا ، فلمَّا رآه ربُّه لا يمدُّ إلى غيره كَفّا ، مَدَحَه ويكفي في مدْحه له ﴿ **الذي وفَّىٰ** ﴾ [النجم : ٣٧] ، واجتمع الخلائق صَفّا ، ينظرون مَنْ صَفَّى ، فلمَّا أتى ربَّهُ بقلبٍ سليم ، قال تعالىٰ : ﴿ **قُلْنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تنحّ يا جبريل، فما ذا موضعُ زحمة ، وخلّني وخليلي فإليه الرحمة ، وهل بذلت له إلّا لحمة تَبْلى أو شحْمة ، فلمَّا وطَّنَ نَفْسَه علىٰ أن يصير فحمة ، وحُوشي من ذلك الكريم ﴿ **قُلنا يا نار كوني بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

وعلىٰ طريقة الهِمَّة العالية في التَّوكُّل ، سار رَكْبُ النبيين صلوات الله وسلامه عليهم .

منـارة التّـوكُّل :

توكُّل نبينا ﷺ ، درسٌ عظيم من أُحُد :

قبل الخروج لأُحدٍ شاور رسول الله ﷺ أصحابه ، وبعد الشورىٰ كان الدرس الرباني النبوي للأُمَّة : ﴿ **فإذا عزمت فتوكَّل علىٰ الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . التّوكُّل على الله وإسلام النفس لقدره . والتوكل على الله خلَّة يحبها الله ويحب أهلها ، وهي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هي التي تميِّز المؤمنين .

« والتوكل على الله ، وردُّ الأمر إليه في النهاية ، هو خطُّ التوازن الأخير في التَّصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية ، وهو التَّعامُل مع الحقيقة الكبيرة : حقيقة أن مردّ الأمر كلّه لله ، وأن الله فعّال لما يريد .

لقد كان هذا درسًا من دروس « أُحُد » الكبار .. هو رصيد الأُمَّة المسلمة في أجيالها كلِّها ، وليس رصيد جيلٍ بعينه في زمن من الأزمان .

ولتقرير حقيقة التَّوكُّل على الله وإقامتها على أصولها الثابتة ، يمضي السياق فيقـرِّر أن القوة في النصر والخـذلان ، هي قوة الله ، فعندها يُلتمس النصر ، ومنها تُتَّقىٰ الهزيمة ، وإليها يكون التَّوجُّه ، وعليها يكون التَّوكُّل .

﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلىٰ الله فليتوكّل المتوكِّلون** ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وبذلك يخلُص تصور المسلم من التماس شيءٍ من عند غير الله ، ويتصل قلبه مباشرةً بالله ، فينفض يده من كلِّ الأشباح الزائفة ، والأسباب الباطلة للنُّصرة والحماية والالتجاء ؛ ويتوكَّل على الله وحده في إحداث النتائج ، وتحقيق المصاير ، وتدبير الأمر بحكمته،وتقبُّل ما يجيء به قدر الله في اطمئنانٍ ، أيًّا كان .

إنه التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلّا في الإسلام »[١].

الرسول ﷺ يُعلِّم أصحابه الدرس الثاني بعد أحد :
التّوكّل أبْهَىٰ صُوَر العقيدة :

قال تعالىٰ : ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤] .

لله ما أحلىٰ هذا الدرس : كان يوم « أُحُد » يوم السبت النصف من شوال ، فلمَّا كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذَّن مؤذِّن رسول الله ﷺ في الناس يطلب العدوّ ، وأذّن مؤذّنه أن لا يخرجنّ معنا أحدٌ إلَّا من حضر يومنا بالأمس . دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرَّةً أُخرىٰ غداة المعركة المريرة ، وهم مثخنون بالجراح ، وهم ناجون بشقِّ الأنفس من الموت أمس في المعركة ، وهم لم ينسوا بعد هوْل الدَّعْكة ومرارة الهزيمة وشدَّة الكرب ، وقد فقدوا من أعزَّائهم من فقدوا ، فقلّ عَدَدُهم ، فوق ما هم مثخنون بالجراح ! لقد دعاهم الرسول ﷺ ، ودعاهم وحدهم ، وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابةٍ ، تحملُ إيحاءاتٍ شتَّى ، وتُومئ إلى حقائق كبرىٰ ؛ لعلَّ رسول الله ﷺ شاء أن يُشْعر المسلمين ، وأن يُشعر الدنيا كلَّها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وُجدت في هذه الأرض ... حقيقة أن هناك عقيدةً هي كلّ شيء في نفوس أصحابها ، ليس لهم من أربٍ في الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية في حياتهم

---

(١) الظلال ١ / ٥٠٣ - ٥٠٤ بتصرف .

سواها ، عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها ، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقيةً في أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولا يُقدِّمونها فداها .

لقد كان هذا أمرًا جديدًا في هذه الأرض في ذلك الحين ، ولم يكن بُدٌّ أن تشعر الأرض كلها - بعد أن يشعر المؤمنون - بقيام هذا الأمر الجديد ، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة . ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة : صورة التَّوكُّل على الله وحده ، وعدم المُبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمْع قريشٍ لهم - كما أبلغهم رُسُل أبي سفيان - وكما هوَّل المنافقون في أمر قريش . هذه الصورة الرائعة الهائلة ، كانت إعلانًا قويًّا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة ، وكان هذا بعض ما تُشير إليه الخُطَّة النبويّة الحكيمة . بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد ، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله ، صورتهم هذه ، وموقفهم هذا ، وهي صورة رفيعة ، وهو موقفٌ كريم لنفوسٍ كبيرة لا تعرف إلَّا الله وكيلًا ، وترضى به وحده وتكتفي ، وتزداد إيمانًا به في ساعة الشِّدَّة ، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس : ﴿ **حسبُنا الله ونعم الوكيل** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . هذا هو الدرس الجميل العالي ، الذي علَّمه سيِّد المتوكِّلين لأصحابه ، وأخرجوه هم إلى عالم الواقع .

أنبياء الله قِمَمٌ عالية في التَّوكُّل :

قال الله تعالى : ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [إبراهيم : ١١] .

يطلقها الرسل حقيقة دائمة ... فعلىٰ الله وحده يتوكّل المؤمن ، لا يلتفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عونًا إلّا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه . ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذىٰ بالثبات .

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

إنها كلمة المُطمئِنّ إلى موقفه وطريقه ، المالئ يديه من وليِّه وناصره ، المؤمن بأن الله الذي يهدي السبيل لا بدّ أن ينصر ويعين ، وماذا يهمّ حتىٰ ولو لم يتمّ في الحياة الدنيا نصرٌ ، إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل والقلب الذي يحسّ بأن عناية الله سبحانه تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بألوهيته القاهرة المسيطرة ، وهو شعور لا مجال معه للتَّردُّد في المضيّ في الطريق ، أيًّا كانت العقبات في الطريق ، وأيًّا كانت قوى الطاغوت التي تتربَّص في هذا الطريق ، ومن ثَمَّ هذا الرَّبْط في ردّ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بين شعورهم بهداية الله لهم ، وبين توكُّلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ، ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة - حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله ، وبين بديهيّة التّوكُّل عليه - لا تستشعرها إلا القلوب التي تُزاول الحركة في مواجهة الطواغيت ، والتي تستشعر في أعماقها رحمته وعنايته وهي تفتح لها كُوَىٰ النور ، فتبصر الآفاق المشرقة ، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة ، وتحسّ الأُنس والقربىٰ .. وحينئذٍ لا تحفل بما يتوعَّدها به طواغيت الأرض ، ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد ، وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل .. وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو ؟! وماذا يُخيفه من أولئك العبيد ؟!

﴿ **وما لنا ألَّا نتوكَّل على الله وقد هدانا سُبُلنا ولنصبرنَّ علىٰ ما آذيتمونا** ﴾ لنصبرنّ ، لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نَهِن ، ولا نتزعزع ولا نشُكُّ ، ولا نُفرِّط ولا نحيد ﴿ **وعلىٰ الله فليتوكّل المتوكلون** ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

مشهد باهر في علوّ الهمَّة في التَّوكُّل لنبي الله هود ﷺ :

بعد أن قصَّ الله ما بذل هود من النُّصح لقومه ، وبعد أن تودَّد إليهم وهو يدعوهم غاية التَّودُّد ، يسجِّل القرآن موقفًا باهرًا في الاستعلاء بالحق والثقة بالله ، وتحدِّيًا سافرًا وحسمًا كاملًا ومُفاصَلَةً ، قَذَفَ بها في وجوه قومه ، فقال تعالىٰ : ﴿ .. **قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تُنظرون * إني توكَّلت على الله ربي وربّكم ما من دابَّةٍ إلَّا هو آخذ بناصيتها إن ربي علىٰ صراط مستقيم** ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٥].

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كلِّ مكانٍ وفي كلّ زمانٍ ، في حاجةٍ إلى أن يقفوا طويلًا أمام هذا المشهد الباهر ؛ رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتىٰ أهل الأرض ، وأغنىٰ أهل الأرض ، وأكثر أهل الأرض حضارةً ماديَّةً في زمانهم : ﴿ **أتبنون بكلِّ ريعٍ آية تعبثون * وتتَّخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٠] .

هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة ، في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ، وفاصَلَهم هذه المُفَاصَلَة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحدَّاهم أن يكيدوه بلا إمهال ، وأن يفعلوا ما في وسعهم ، فلا يُباليهم بحال !

لقد وقف هود هذه الوقفة الباهرة؛ لأنه يجد الفهم كلَّ الفهم لمعنىٰ التَّوكُّل في أبهىٰ صُوَره ، ويُوقن أن أولئك الجبَّارين العُتاة المتمتِّعين المتبطِّرين ،

إنما هم من الدواب ! وهو مُستيقن أنه ما من دابّةٍ ، إلا وربُّه آخِذٌ بناصيتها ، ففيم يحفل إذن هؤلاء الدوابّ ؟! وأن ربَّه هو الذي أعطاهم ما أعطاهم للابتلاء لا لمطلق العطاء ، وأن ربَّه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضرّونه شيئًا ، ولا يردُّون له قضاءً ، ففيم إذن يَهُولُه شيء ممَّا هم فيه ، وربّه هو الذي يُعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء .. عموم قدرة ، وكمال ملك ، وتمام حكمة وعدل وإحسان ، في خلقه ، وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وإفقاره وإعزازه ، وإذلاله وإنعامه ، وانتقامه وثوابه ، وإحيائه وإماتته . وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء وورثتهم .. وعلىٰ قدْر هذه المعرفة يكون قدْر التَّوكُّل في قلب العبد .

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بُدّ أن يجدوا هذه الحقيقة في نفوسهم علىٰ هذا النحو ، حتىٰ يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قُوَى الجاهلية الطاغية من حولهم ، وهم مستيقنون أن ربَّهم آخِذٌ بناصية كلِّ دابَّة ، وأن الناس – كل الناس – إن هم إلا دوابّ من الدوابّ !

ويوم تتمّ هذه المفاصلة ، يتحقَّق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير علىٰ أعدائه ، في صورةٍ من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال .

وخطيبُ الأنبياءِ شُعيب ﷺ قمَّةٌ سامية :

قال تعالىٰ على لسانه : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت علىٰ بينة من ربي ورزقني منه رزقًا حسنًا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلَّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلتُ وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

فخطيب الأنبياء شعيب ﷺ لا يبغي كسبًا شخصيًّا ، إنما يريد إصلاحًا

عامًّا للمجتمع ، ويتوكَّل على الله في المقصد الشريف والغاية النبيلة العظيمة .

أُمّ إسماعيل وعلوّ توكُّلها :

إذَنْ لا يُضيِّعنا :

في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : جاء إبراهيم بأُمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل ، حتى وضعها عند البيت ، عند دَوْحَةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذٍ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم قفّى[1] إبراهيم منطلقًا ، فَتَبِعَتْه أُمُّ إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء ؟ فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا . ثم رجعتْ .

إيه يا جبال فاران ... موضع مكة الآن ، حدِّثي عن توكُّل أم إسماعيل وتفويضها في أعلى وأغلى قمم التّوكّل وصوره . وفي سمع الأيام يبقى صوت أم إسماعيل : « إذن لا يُضيِّعنا » وهي لا ترى إلّا حَرَّةً ملتهبة ، وعطشًا منهكًا ، وجهدًا يهدّ ، ورضيعًا يتلوّى .

وقالتْها لجبريل حين قال لها : مَنْ أنتِ ؟ قالت : أنا هاجر . أو : أُمّ ولد إبراهيم . قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله . قال : وكلكما إلى كافٍ .

موقف أم إسماعيل وتوكُّلها يعجز عنه الرجال ... لكأن كل قطرةٍ من هذا الماء تحكي قصةً تُروى ، وتحوي ظلًّا وديعًا لطيفًا يُروِّي هجير دنيانا بثمرة توكُّل أم إسماعيل . وصدق رسول الله ﷺ حين قال ، عن السعي

(١) أي ولّى راجعًا .

بين الصفا والمروة : « هذا ما أورثتكموه أُمُّ إسماعيل » .. ورث الصحابة منها أعلىٰ التّوكُّل .

هِمَمُ الصحابة في التَّوكُّل أعلىٰ الهِمَم :

قال ابن القيم عن الصحابة : « هم أُولو التَّوكُّل حقًّا ، وأكمل المتوكِّلين بعدهم : هو من اشتمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرةٍ بعيدة ، أو لحق أثرًا من غُبارهم . فحالُ النبي ﷺ وحال أصحابه محكُّ الأحوال وميزانها ، بها يُعلم صحيحها من سقيمها ؛ فإن هممهم كانت في التّوكّل أعلىٰ مِنْ هِمم مَنْ بَعْدَهم ، فإن توكُّلهم كان في فتح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله في جميع البلاد ، وأن يُوحِّده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فَمَلَئُوا بذلك التوكُّلِ القلوبَ هُدًى وإيمانًا ، وفتحوا بلاد الكفر ، وجعلوها دار إيمانٍ ، وهبَّتْ رياحُ روح نسماتِ التّوكّل علىٰ قلوب أتباعهم ، فملأتْها يقينًا وإيمانًا . فكانت همم الصحابة - رضي الله عنهم - أعلىٰ وأجلّ من أن يصرف أحَدُهم قوةَ توكُّلِهِ واعتماده على الله في شيءٍ يحصُل بأدنىٰ حيلةٍ وسعي ، فيجعله نصب عينيه ، ويحمل عليه قويّ توكُّله »[1].

عكاشة بن محصن المتوكِّل حقًّا :

عن هشيم بن بشير ، عن حصين قال : كنا جلوسًا مع سعيد بن جبير ذات غداةٍ ، فقال لنا : أيّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة[2] ؟ قال :

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٥ .

(٢) فائدة : أخرج أحمد والحاكم بسندٍ صحيح ، عن محمد بن سيرين قال : كُنَّا مع أبي قتادة على ظهر بيتنا ، فرأىٰ كوكبًا انقضَّ فنظروا إليه ، فقال أبو قتادة : إنَّا قد نُهينا أن نُتبعه أبصارنا . صححه الحاكم ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع : ورجاله رجال الصحيح . اهـ . وقوله : « نُهينا » مرفوع إلى =

قلت : أنا. قال : ثم استدركت نفسي ، فقلت : إن سهري لم يكن في صلاةٍ ، ولكنْ لدغتني عقربٌ فسهرتُ . فقال سعيد بن جبير : كيف صنعتَ ؟ قلت : صنعت أنِ استرقيتُ . قال : وما حملك على ذلك ؟، قال : قلت : حديثٌ حدَّثنيه الشعبي . قال : وما حدَّثكم ؟ قال : قلت : حدثنا الشعبي ، عن بريدة بن الحصيب الأسلمي ، أنه قال : لا رُقيَة إلَّا من عينٍ أو حُمة[1]. فقال سعيد بن جبير : قد أحسن من انتهىٰ إلى ما سمع . ثم قال سعيد ابن جبير : حدَّثنا ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « عُرِضَت عليَّ الأُمم[2] ، فرأيت النبي يمرُّ ومعه الرَّهط ، والنبي يمرّ ومعه الثلاثة والاثنان ، والنبي يمرّ ومعه الرجل الواحد ، والنبي يمرّ وليس معه أحد ، إلى أن رُفِعَ لي سوادٌ عظيم فقلت : هذه أُمَّتي . قيل : ليس بأُمّتك ، هذا موسىٰ وقومه . إلى أن رفع لي سواد عظيم.قد سدَّ الأفق ، فقيل : هذه أُمّتك ، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب » . قال : ثم دخل النبي - ﷺ - فخضنا في أولئك السبعين ، وجعلنا نقول : من الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب ؟ أهم الذين صحبوا النبي ﷺ ؟ أم هم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يُشركوا بالله شيئًا ؟ إلى أن خرج النبي ﷺ فقال : « ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟ » . قال : فأخبروه ،

= النبي ﷺ على الصحيح الذي قاله الجمهور . انظر التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٣ هامش (١) .

(١) الحُمَة : بالتخفيف : السُّم ، وقد يُشدَّد ، وقد روي هذا الأثر مرفوعًا عن النبي ﷺ من حديث عمران بن حصين بسندٍ جيِّد . انظر التوكل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٤ هامش (٢) .

(٢) في رواية الترمذي والنسائي - وهي صحيحة - أن عرْض الأمم كان ليلة الإسراء . التوكل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٤ ، هامش (٣) .

فقال : « هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يكتوون ، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون » .
فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « أنت منهم » .
وقام رجل آخر من المهاجرين فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « سبقك بها عكاشة »[1].

ما أبقيتَ لأهلك يا أبا بكر ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله :

سُئل الأستاذ أبو سهل محمد بن سليمان ، عن قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : الله ورسوله .

قال : هو تجريد لله بالكليَّة ، وإدخال الرسول ﷺ فيه ؛ لمكان الإيمان وحقيقة التعلُّق بالسبب في الوصول إلى المسبّب ، لا على أن إليه انقطاعه . فإذا كمل توكُّل المتوكِّل ، وتحقَّق فيه ، أخبر إن شاء عن السبب ، وإن شاء عن المسبب ؛ لأن الكلَّ عنده واحدٌ ؛ لتعلُّق الفروع في الكلِّ بالأصل .

* * *

(١) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومن طريقه البغوي في شرح السنة ، ومسلم ، والترمذي وقال : حسن صحيح . والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف - والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب من طرقٍ عن حصين بن عبد الرحمٰن به ، واللفظ لأحمد ومسلم والبيهقي ، واقتصر الباقون على المرفوع منه .
وأخرجه الطيالسي ومن طريقه القشيري في الرسالة ، وأحمد ، وابن حبان بسند حسن ، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء .
وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصححه وأقره الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية .
وصححه ابن كثير في تفسيره ، والحافظ في الفتح ، وقال الهيثمي في المجمع : وأحد أسانيد أحمد والبزار رجاله رجال الصحيح . انظر التوكل ، ابن أبي الدنيا ، هامش ٣٩ صـ ٧٣ ، ٧٤ ، صـ ٧٣ - ٧٦ .

عمر بن الخطاب يوضِّح الطريق :

عن معاوية بن قرَّة ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لقي ناسًا من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكِّلون . قال : بل أنتم المُتَّكِلُونَ ، إنما المتوكِّل من يُلقي حَبَّهُ في الأرض ويتوكّل على الله عزَّ وجل[١] .

عن المعرور بن سويد ، عن عمر رضي الله عنه ، أنه قال : يا معشر القُرَّاء ، ارفعوا رؤوسكم ، ما أوضح الطريق ، فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا كَلًّا على المسلمين[٢] .

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

عن مغيرة بن سعد بن الأخرم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود قال : والذي لا إلٰه غيره ، ما يضرُّ عبدًا يصبح على الإسلام ويُمسي عليه ، ماذا أصابه من الدنيا[٣] .

عبد الله بن سلام وسلمان :

عن سعيد بن المسيب ، قال : التقى عبد الله بن سلام وسلمان ، فقال أحدهما لصاحبه : إن متَّ قبلي فالقني فأخبرني ما لقيتَ من ربِّك ، وإن أنا متُّ قبلك لقيتُك فأخبرتُك . فقال أحدهما للآخر : أوَ يلقى الأموات الأحياء ؟! قال : نعم ، أرواحهم تذهب في الجنة حيث شاءتْ . قال : فمات فلان فلقيه في المنام فقال : توكَّل وأبْشِر ، فلم أرَ مِثْلَ التَّوكُّل قطُّ ، توكَّلْ وأبشر ، فلم أرَ مثل التّوكّل قط[٤] .

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٤٨ . وإسناده صحيح . انظر تحقيق الدوسري .

(٢) إسناده حسن . ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ٢ / ١٣٦ .

(٣) إسناده صحيح . الجامع لشعب الإيمان .

(٤) إسناده صحيح . التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٤٨ .

قال سعيد بن جبير : التَّوكُّل على الله - عز وجلّ - جماعُ الإيمان .

أبو حازم سلمة بن دينار :

قال رحمه الله : « وجدت الدنيا شيئين : شيء هو لي ، وشيء هو لغيري . فأمَّا الذي هو لي ، فلو طلبتُه قبل أجله بحيل السمٰوات والأرض ، لم أقدر عليه ، وأمَّا الذي هو لغيري ، فلم أُصِبْه فيما مضىٰ ، ولم أرجُهُ فيما بقي ، يُمنع رزقي من غيري ، كما يُمنع رزق غيري مني ؟ ففي أي هذين أُفني عمري ؟! .

وقيل له ، رحمه الله : ما مالُك ؟ قال:خير مالي ثقتي بالله تعالىٰ ، وإياسي مما في أيدي الناس »[١].

عامر بن عبد قيس :

قال عامر رحمه الله : « ثلاث آياتٍ من كتاب الله عز وجل اكتفيتُ بهنَّ عن جميع الخلائق ؛ أوَّلُهن : ﴿ **وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدك بخيرٍ فلا رادَّ لفضله** ﴾ [يونس : ١٠٧] .

والآية الثانية : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا مُمسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ [فاطر : ٢] .

والثالثة : ﴿ **وما من دابَّة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودعها كلٌّ في كتابٍ مبين** ﴾[٢] [هود : ٦] .

أبو الصهباء صلة بن أشيم :

قال صلة : طلبتُ الرزق مظانّه ، فأعياني إلَّا رزق يوم بيوم ، فعلمتُ

(١،٢) الجامع لشعب الإيمان .

أنه خير لي ، وإن امرأً جعل رزقه يومًا بيوم ، فلم يعلم أنه خيرٌ له لعاجز الرَّأي .

قال الحليمي رحمه الله : وفي المسألة وجه ثالث ؛ وهو أن من كان قويّ العزم ، يقدر على تجريد الصبر وترك مجاوزته إلَّا إلى الدعاء ، وكان إذا تصبّر مدَّةً فلم ينكشف عنه ضرُّه ؛ لم يَعُد إلى التَّسبُّب ولم يندم على اختياره التَّصبُّر عليه ، أو لم يكن في عامَّة أوقاته شاكًّا في أن الصبر الذي آثره أعْوَدُ عليه ، أو التَّسبُّب ؛ فالصبر له أفْضَل . ومن كان ضعيف العزم ، وكان لا يصبر إلَّا متكلِّفًا ، ولا يزال - خلالَ الصبر - شاكًّا في أن ذلك كان أوْلَى به ، أو التَّسبُّب ، وكان إذا صبر وقتًا ، لم يثبت على صبره وعاد إلى التَّسبُّب ؛ فينبغي له أن يكون مع المتسبِّبين ، وجعْل نظير ذلك الاستكثار من نوافل الصيام والصلاة ، إذا لم يتبرَّم بها ولم يستثقلها . وعلى هذا أكثر أهل المعرفة .

الحســن البصــري :

عن معتمر بن سليمان ، عن عبد الجليل قال : سمعت الحسن يقول : إن من توكُّل العبد أن يكون الله - عز وجل - هو ثقته .

وعن أبي رجاء العطاردي قال : سُئل الحسن عن التَّوكُّل ، فقال : الرضا عن الله عز وجل .

وقال رحمه الله : ابن آدم ، لا تحملْ همَّ سنةٍ على يومٍ ، كفى يومك بما فيه ، فإن تكُن السنة من عمرك ، يأتِكَ الله فيها برزقك ، وإلَّا تكُن من عمرك ، فأراك تطلب ما ليس لك .

سفيان الثوري :

وعن سفيان الثوري : ﴿ **إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى**

ربِّهم يتوكَّلُون ﴾ [النحل : ٩٩] ، قال : أن يحملهم على ذنبٍ لا يُغفر[١].

إبراهيم بن أدهم :

قال رحمه الله : لا تجعل فيما بينك وبين الله عليك منعمًا ، وَاعْدُد النعمة عليك من غير الله مغرمًا .

قال علي بن بكّار : شكا رجل إلى إبراهيم بن أدهم كثرة عياله ، فقال له إبراهيم : يا أخي ، انظر كلّ من في منزلك ليس رزقه على الله ، فحوِّلْهُ إلى منزلي .

الفضيل بن عياض :

قال الفضيل : التوكُّل قوامُ العبادة .

أخي ، قد قال الجواد عزَّ وجل : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، ثم أقسم على ذلك : ﴿ **فوربِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مِثْلَ ما أنكم تنطقون** ﴾ [الذاريات : ٢٣] . فيا سبحان الله ! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟! أفلم يُصدِّقوه - سبحانه - بقوله حتى ألجَئُوه إلى اليمين ؟!.

طلق بن حبيب :

وكان طلق بن حبيب يقول : أسألك خوف العالمين بك ، وعلمَ الخائفين لك ، وتوكُّل الموقنين بك ، ويقين المتوكِّلين عليك ، وإنابة المُخبتين إليك ، وإخبات المنيبين إليك ، وصبر الشاكرين لك ، وشكر الصابرين لك وإلحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك[٢].

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٦٠ .

(٢) التوكل . لابن أبي الدنيا صـ ٦٩ .

معروف الكرخيّ :

عن حماد بن محمد بن المبارك ، قال : قال رجل لمعروف - يعني معروفًا الكرخي - : أوصني . قال : توكَّل على الله عز وجل حتى يكون جليسَك وأنيسَك وموضعَ شكواك ، وأكثِرْ ذكْر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره ، واعلم أن الشفاء لما نزل بك كتمانه ، وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرُّونك ولا يُعطونك ولا يمنعونك(١).

بشر بن الحارث :

قال رحمه الله : أما تستحي أن تطلب الدنيا ممَّن طَلَبَ الدنيا ؟! اطلب الدنيا ممَّن بيده الدنيا(٢).

يحيىٰ بن معاذ الرازي :

قال رحمه الله : مَنْ طلب الفضل من غير ذي الفضل ، غرم ، وإن ذا الفضل هو الله عز وجل : ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ [البقرة : ٢٤٣](٣).

أحمد بن حنبل رحمه الله :

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ : وجملة التوكل : تفويضُ الأمر إلى الله جلَّ ثناؤه والثقة به(٤).

سليمان الخوَّاص :

عن أبي قدامة الرَّمْلي قال : قرأ رجلٌ هذه الآية : ﴿ **وتوكَّلْ على الحيِّ**

---

(١) التوكل . لابن أبي الدنيا صـ ٧١ .

(٢،٣) الجامع لشعب الإيمان .

(٤) كتاب : ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ٢ / ٧٢ .

الذي لا يموت وسَبِّحْ بحمده وكفىٰ به بذنوب عباده خبيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٨] . فأقبل عليَّ سليمانُ الخوَّاص فقال : يا أبا قدامة ، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ بعد الله في أمره ، ثم قال : انظر كيف قال الله - تبارك وتعالىٰ - : ﴿ وتوكلْ على الحيِّ الذي لا يموت ﴾ فأعلمك أنه لا يموت ، وأنَّ جميع خلقه يموتون ، ثم أمرك بعبادته فقال : ﴿ وسبحْ بحمده ﴾ ثم أخبرك بأنه خبير بصير ، ثم قال : والله يا أبا قدامة ، لو عَامَل عبدٌ اللهَ بحُسْن التوكل وصِدْق النية له بطاعته ؛ لاحتاجت إليه الأمراء فمن دُونَهم ، فكيف يكون هذا محتاجًا ومَوْئله ومَلْجَؤُهُ إلى الغني الحميد ؟![١] .

جوامع الغِنَىٰ في التوكل :

اجتمع حذيفة المرعشي وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغِنى ، وسليمان ساكت ، فقال بعضهم: الغَنيُّ: من كان له بيت يُكِنُّهُ ، وثوبٌ يستره ، وسداد من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا . وقال بعضهم : الغنيُّ: من لم يَحْتَجْ إلى الناس . فقيل لسليمان : ما تقول أنت يا أبا أيوب ؟ فبكىٰ ثم قال : رأيت جوامع الغنىٰ في التوكل ، ورأيت جوامع الشَّرِّ في القنوط ، والغنيُّ حق الغنىٰ : من أسكن قلبه إلى الله من غناه يقينًا ، ومن معرفته توكُّلًا ، ومن عطائه وقسمته رضًا ، فذلك الغنيُّ حق الغنىٰ ، وإن أمسىٰ طاويًا ، وأصبح معوزًا . فبكىٰ القوم جميعًا من كلامه .

عن جعفر بن محمد الخلدي قال : « سمعت إبراهيم الخواص يقول : أدبُ التوكل ثلاثة أشياء : صحبة القافلة بالزَّاد ، والجلوس في الزَّوْرق بالزاد ، والجلوس في المجلس بالزاد »[٢] .

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٧٠ .
(٢) ثلاث شعب من الجامع ٢ / ١٦٩ .

وسُئل رحمه الله عن التوكل ، فأطرق ساعةً ثم قال : إذا كان المعطي هو المانع فمن يُعْطي ؟!

أبو يعقوب النهرجوري :

قال أبو يعقوب النهرجوري : « أدنى التوكل تركُ الاختيار .

قال : ولا يتوكَّل على الله إلا من عُرف بالولاية والكلاية والكفاية . فلا تتعرَّضوا لأهل التَّوكُّل ، فإنهم صفوة الله وخاصَّته ؛ استضافوه فأضافهم ، ونزلوا عليه فأحسن نُزُلَهم ، وتوكَّلوا عليه فكفاهم ، فهم أغنياء بفقرهم ، وغيرهم فقراء بغناهم ، فمن أنكر التوكل على الله نُسب إلى قِلَّة العلم »[1].

شقيق البلخي :

المتوكِّل على الله قد وَجَدَ الاسترواح :

قال شقيق رحمه الله : « لكل واحدٍ مقام ؛ فمتوكِّل على ماله ، ومتوكل على نفسه ، ومتوكل على لسانه ، ومتوكل على سيفه ، ومتوكل على سَلْطنته ، ومتوكل على الله عز وجل . فأما المتوكل على الله عز وجل فقد وجد الاسترواح ، نوَّه الله به ، ورفع قدره ، وقال : ﴿ **وتوكَّلْ على الحي الذي لا يموت** ... ﴾ الآية [الفرقان : ٥٨] ، وأما مَنْ كان مستروحًا إلى غيره ، يوشك أن ينقطع به فيشقى »[2].

قال رحمه الله : التوكل طمأنينةُ القلب بموعود الله عز وجل .

* * *

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ٢ / ١٨١ .

(٢) الجامع لشعب الإيمان .

حاتم الأصَمّ :

رِزْقِي لا يأْكُله غَيْرِي :

قيل لحاتم الأصم : عَلامَ بنيتَ أمرك هذا من التوكل ؟ قال : على أربع خلال : علمتُ أن رزقي لا يأكله غيري ، فلست أهتم به . وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ، فأنا مشغولٌ به . وعلمت أن الموت يأتيني بغتةً ، فأنا أُبادِرُه . وعلمتُ أني بعين الله في كل حال ، فأنا مُسْتحٍ منه[(١)].

قال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ **ولله خزائن السمٰوات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون** ﴾ [المنافقون : ٧] .

الجُنيد رحمه الله :

قال رحمه الله : ليس التوكل الكَسْب ولا تَرْك الكسب ، التوكلُ الشيءُ في القلوب .

وقال : إنما هو سكون القلب إلى موعود الله عز وجل .

أبو عثمان الحِيري :

قال رحمه الله في مواعظه : « يا عَبْدَ اللهِ ، في ماذا تُتعب قلبك ، وتنازع إخوانك ، وتعادي على طلب الرِّئاسة والعز أَشْكالك وأَخْدَانك ، وتعمل في هلكة حَسَناتك بالحسد لمن هو فوقك ، كأنك لم تؤمن بما أخبر أنه يُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء ، ويؤتي الملك من يشاء ، ويَنْزِعُ الملك ممن يشاء ، فاستعملِ العلمَ في ظاهرك ، إن كنت تاجرًا أو كاسبًا أو زارعًا ، وأَجْمِلْ في الطَّلب ، واترك الحرام والشبهات جميعًا ، فإن نفسًا لن تموت حتىٰ تستوفي رزقها وحظَّها من عِزِّها ورياستها ورزقها . لو هرب العبد من رزقه

---

(١) الجامع لشعب الإيمان .

لأدركه رزْقُه ، كما لو فرَّ من الموت لأدركه الموت . قال : واليقين لا يمنع المُوقنين من طلب الحظِّ الوافي من الدنيا ، وإنما يدل على تَرْك الفضول رضًا بالقليل ، وزهدًا في الكثير ، اتباعًا لرسول رب العالمين ﷺ ولأصحابه ؛ فإنهم أئمة المتوكِّلين والزَّاهدين ، مع ما وصفنا من الأَمْن بما لَكَ ، والإياس مما ليس لك ، وأنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ومن زعم أن اليقين يمنع طلب القوت والكفاف فقد جهل اليقين ، وخالف سنن السَّلف الصالحين ، فقد تقدَّم في ذلك - مع صدق التوكل - الأنبياء وأتباعهم ، وخلافهم خلاف الحق ، وموافقتهم موافقة الحق ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

البوشـنجي :

قال أبو الحسن علي بن أحمد البوشنجي ، لمَّا سُئِل عن التوكل : « التَّبرئة من حَوْلِك وقوتك ، وحولِ مِثْلك وقوة مثلك »[1].

الكتـاني :

قال الكتاني : التوكل في الأصل اتِّباع العلم ، وفي الحقيقة استعمال اليقين .

أسـود بن سـالم :

الثِّقَةُ الوَرِع الفاضل . روى عن سفيان بن عيينة وحماد بن زيد . كان رحمه الله يشتمر ، فإذا أصاب نصف دانقٍ ، قام وانصرف .

ابن الفرغاني أبو بكر الواسطي :

سئل عن ماهية التَّوكُّل ، فقال : الصبر على طوارق المحن ، ثم التفويض ،

---

(١) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان للبيهقي صـ ١٧٣ تحقيق د / عبد الإله ابن سلمان الأحمدي .

ثم التسليم ، ثم الرضا ثم الثقة .

وأمَّا صدق التَّوكُّل : فهو صدق الفاقة والافتقار ؛ يعني إلى الله عز وجل .

أبو علي الرّوذباري ومرقاة التَّوكُّل :

قال رحمه الله : مرقاة التوكل ثلاث درجات :

الأول منها : إذا أُعطي شكر ، وإذا مُنِع صبر .

والثاني : المنع والعطاء عنده واحد .

والثالث : المنع مع الشكر أحبُّ إليه بعلمه باختياره ذلك له .

عبد الله بن إدريس بن يزيد :

قال : عجبتُ ممَّن ينقطع إلى رجلٍ ولا ينقطع إلى من له السمٰوات والأرض .

النهرجوري :

قال : المتوكِّل على الحقيقة والصِّحة قد رفع مُؤْنته عن الخلق، فلا يشكو ما به ، ولا يذُمُّ مَنْ منعه ؛ لأنه يرىٰ المَنْع والعطاء من الله عز وجل .

شميط بن عجلان :

قال رحمه الله : إن المؤمن يقول لنفسه : إنما هي ثلاثة أيام ، فقد مضىٰ أمس بما فيه ، وغدًا أملٌ لعلَّك لا تدركه ، إنك إن كنت من أهل غدٍ فإن غدًا يجيء برزقِ غدٍ ، دون غدٍ يومٌ وليلة ، تُخْترمُ فيها أنفسٌ كثيرة ، ولعلَّك المُخْتَرَم فيها ، كفىٰ كلّ يوم همَّه .

إبراهيم بن شيبان :

قال إبراهيم بن شيبان : حُسْن الظن بالله:هو الإياس عن كل شيءٍ

سوى الله عز وجل .

السَّـرِيّ :

عن الجنيد بن محمد قال : سمعتُ السَّرِيَّ يذمُّ الجلوس في المسجد ، ويقول : جعلوا مسجد الجامع حوانيتَ ليس لها أبواب .

سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ :

قال سهل رحمه الله : التَّوكُّل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميِّت بين يدي الغاسل يُقلِّبه كيف يريد .

يجول الغِنَى والعِزُّ في كلِّ موطنٍ ليستوطنا قلب المرء إن توكَّلا
وَمَنْ يتوكَّلْ كان مولاه حَسْبَهُ وكان له فيما يُحاول معقلا
إذا رَضِيتْ نفسي بمقدور حظِّها تعالتْ وكانت أفضلَ الناس منزلَا[(١)]

عن عون بن عبد الله قال : بينا رجل في بستان بمصر ، في فتنة ابن الزبير ، مكتئبًا معه شيء ينكُت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح[(٢)] له صاحب مسحاةٍ[(٣)] ، فقال له : يا هذا ، ما لي أراك مكتئبًا حزينًا ؟ قال : فكأنه ازدراه[(٤)] ، فقال : لا شيء . فقال صاحب المسحاة : أللدنيا ؟! فإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، والآخرة أَجَلٌ صادق ، يحكم فيها ملكٌ قادر ، يفصل بين الحق والباطل ؛ حتى ذَكَرَ أن لها مفاصل كمفاصل اللحم ، من أخطأ شيئًا أخطأ الحقّ . فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه ، قال : فقال : لما فيه المسلمون . قال : فإن الله - عز وجل - سيُنجِّيك بشفقتك

---

(١) التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا صـ ٥٠ .
(٢) أي : عرض له .
(٣) المسحاة : المجرفة من الحديد .
(٤) أي : احتقره واستصغر شأنه .

على المسلمين ، وسَلْ ، فمن ذا الذي سأل الله - عز وجل - فلم يُعطه ، ودعاه فلم يُجبه ، وتوكَّل عليه فلم يَكْفِهِ ، أو وثق به فلم يُنَجِّه ؟! قال : فَعَلِقت[١] الدعاء : اللهم سلِّمْنِي وسلِّم مِنِّي . فتجلت[٢] ولم تُصب منه أحدًا[٣].

بعض أهل العلم :

« عن محمد بن صالح التميمي ، قال : كان بعض أهل العلم إذا تلا : ﴿ **ومن يتوكَّل علىٰ الله فهو حسبه** ﴾[٤] ، قال : اللَّهمَّ إني سمعتك في كتابك تندب عبادك إلى كفايتك ، وتشترط عليهم التوكُّل عليك ، اللهم وأجد سبيل تلك الندبة سبيلًا قد انمحت دلالتها ، ودُرست ذكراها ، وتلاوة الحجَّة بها ، وأجد بيني وبينك مشبهات تقطعني عنك ، وعوقات تُقعدني عن إجابتك ، اللهم وقد علمتُ أن عبدًا لا يرحل إليك إلا ونالك ؛ فإنك لا تحتجب عن خلقك ، إلا أن تحجبهم الآمالُ دونك ، وعلمت أن أفضل زاد الراحل إليك صبرٌ على ما يؤدِّي إليك ، اللهم وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي ، وأفهمتني حجتك بما تبيَّن لي من آياتك ، اللهم فلا أتحيَّرنَّ دونك وأنا أُؤمِّلك ، ولا أختلجنَّ عنك وأنا أتحرَّاك ، اللهم فأيِّدني منك بما تستخرج به فاقة الدنيا[٥] من قلبي ، وتُنعشني[٦] من مصارع أهوائها ، وتسقيني بكأس للسُّلْوَة[٧]

(١) أي : فاغتنمته .
(٢) أي : انكشفت .
(٣) التوكل علىٰ الله عزَّ وجلَّ ، ابن أبي الدنيا صـ ٥٢ . وإسناده صحيح .
(٤) الطلاق : ٣ .
(٥) أي الحاجة إليها .
(٦) أي تنقذني .
(٧) أي : لنسيانها .

عنها ، حتى تستخلصني لأشرف عبادتك ، وتورثني ميراث أوليائك الذين ضربت لهم المنار[١] على قصدك ، وحثثتَهُم حتى وصلوا إليك . آمين رب العالمين »[٢] .

حكيم :

قال بعض الحكماء : التوكل على ثلاث درجاتٍ ؛ أوَّلها : تَرْك الشكاية . والثانية : الرضا . والثالثة : المحبة . فترْك الشكاية درجةُ الصبر ، والرضا سكون القلب بما قسم الله عز وجل له ، وهي أرفع من الأولى ، والمحبة أن يكون حبه لما يصنع الله عز وجل به،فالأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين[٣] .

وعن السَّرِيّ بن يحيى ، عن **وهيب بن الورد** : أن رجلين كُسر بهما في البحر[٤] فوقعا في الأرض ، فأتيا بيتًا مبنيًّا من شجر فكانا فيه ، فبينما هما ذات ليلة ، أحدهما نائم والآخر يقظان ، إذ جاءت امرأتان فوقفتا على الباب ، بهما من قُبح الهيئة شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فقالت إحداهما للأُخرى : ادخلي . فقالت : ويحك ، إني لا أستطيع . قالت : ويحك ، لِمَهْ ؟ قالت : أوَ ما ترين ما في الباب ؟ فإذا لوح في البيت فيه كتاب[٥] : حسبي الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس من وراء الله مرمى[٦،٧] .

---

(١) أي العلامات .

(٢) كتاب التوكل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٨٢ ، هامش ٤٤ .

(٣) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٨٤ .

(٤) كسر بهما سفينة في البحر .

(٥) أي مكتوب فيه .

(٦) في الحلية : منتهى .

(٧) التوكل ، لابن أبي الدنيا صـ ٦٨ وإسناده حسن .

زُهيْر البابّي :

عن ابن أبي الدنيا قال : قال زهير البابي : ما أقدرُ أنْ أقول : توكَّلتُ علىٰ الله .

وفي الحلية : « لا أعلم أني توكَّلْتُ علىٰ الله ساعةً قطُّ » . أي : ما صحَّ له التوكل .

وعن الشعبي قال: تجالَس شتير ومسروق، فقال شتير: سمعت عبد الله– هو ابن مسعود رضي الله عنه – يقول : إنَّ أشدَّ آيةٍ في القرآن تفويضًا : ﴿ **وَمَنْ يتوكَّلْ علىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه** ﴾ [الطلاق : ٣] ، فقال مسروقٌ : صدقتَ[١] .

وأنشد سعيدُ بن محمد بن سعيد العاقري من قوله :

« صدقَ الكذوبُ و لم يكنْ بصدوقِ	ما الحِرْصُ إلَّا مِنْ طريقِ الموقِ
قد قدَّر اللهُ الأمورَ بعلْمِهِ	فيها علىٰ المحرومِ والمرزوقِ
فإذَا طلبتَ فلا إلىٰ متطلّبٍ	وإذا اتّكَلْتَ فلا علىٰ مخلوقِ
فإذَا اتكلتَ فكنْ بربِّك واثقًا	لا ما تحصَّل عندكَ الموثوقِ »[٢]

وعن عُقبة بن أبي زينب ، قال : مكتوبٌ في التوراة : « لا توكَّلْ علىٰ ابن آدم ؛ فإنَّ ابن آدم ليس له قوام ، ولكنْ توكلْ علىٰ الله الحيِّ الذي

---

(١) كتاب « التوكل » لابن أبي الدنيا ، صـ ٨٧ ، وإسناده جيد ، وأخرجه الطبراني في الكبير من طريق سعيد بن مسروق عن الشعبي به مطوّلًا ، ولفظُه : أشدُّ آيةٍ في كتاب الله تفويضًا : ﴿ **ومنْ يتّقِ اللهَ يجعلْ لَهُ مَخْرجًا** ... ﴾ الآية [الطلاق : ٢] ، وإسناده صحيح . « كتاب التوكل » لابن أبي الدنيا ، صـ ٨٧ ، هامش ٥٠ .

(٢) « التوكل » لابن أبي الدنيا صـ ٨٨ .

لا يموت »[١].

عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « الطِّيَرة مِن الشرك ، ولكنَّ اللهَ عز وجلّ يُذهبها بالتوكّل »[٢].

عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الطِّيَرة شرك - ثلاثًا - وما منّا إلا ولكنّ الله يُذهبه بالتوكل »[٣].

عن العقار بن المغيرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنِ استرقىٰ واكتوىٰ فقد بَرِئ من التوكُّل »[٤].

---

(١) إسناده جيد ، كتاب التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٦٤ .

(٢) أخرجه الطيالسي ، وأحمد ، وابنه عبد الله في السنة ، والطحاوي في المشكل ، وفي شرح المعاني ، والحاكم ، وابن بشران في الأمالي ، والبيهقي في السنن ، والبغوي في شرح السنة من طريق شعبة به ، وإسناده صحيح ، وقد أخرجه المزي في التهذيب من طريق المصنف ، وقال الحاكم : صحيحٌ سندُه ، ورواته ثقات ، وأقرَّه الذهبي . انظرْ كتاب التوكل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٨ هامش ٤١ .

(٣) أخرجه أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح . وابن ماجه ، والطحاوي في المشكل ، والبيهقي في السنن وفي الشعب ، والمزي في التهذيب من طريق سفيان به ، وإسناده صحيح ، والحديث صحَّحه العراقي في أماليه ، كما في الفيض ، والمناوي في التيسير .
واعلم أنَّ قوله : « وما منا إلّا ولكنّ اللهَ يُذهبه بالتوكل » - من كلام ابن مسعود - مدرجٌ في الحديث غير مرفوع ، كما نصَّ علىٰ ذلك جماعة من الأئمة الكبار ، وهم : سليمان بن حرب ، شيخ البخاري ، والمنذري وابن القيم والهيثمي والحافظ ابن حجر والسيوطي . انظر : « التوكل » لابن أبي الدنيا ، صـ ٧٩ ، هامش ٤٢ ، الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي ، ٨٤ / ٢ .

(٤) إسناده ضعيف ، ومع ذلك فقد حسّن الحديث البغوي ، وصحَّحه المناوي في التيسير ، انظر : كتاب التوكل ، لابن أبي الدنيا صـ ٨٠ ، ٨١ ، هامش ٤٣ ، =

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أُلقي إبراهيم ﷺ في النار ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقال محمد ﷺ مثلها[١].

وعن أنسٍ بن مالكٍ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قال : بسم الله ، توكّلتُ علىٰ الله ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله ، فيُقال له حينئذٍ : كُفيتَ ووُقيتَ ، وتنحّىٰ له الشيطان »[٢].

وعن مجاهدٍ قال : كان يُقال : إذا خرج الرجل من المسجد فلْيَقُلْ : بسم الله ، توكلتُ علىٰ الله ، اللهمَّ إني أعوذُ بكَ مِن شرِّ ما خرجتُ إليه[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « لنْ يَلِجَ الدرجاتِ العُلَىٰ مَن تكهَّن ، أو استقسم ، أو رجع من سَفَرٍ تطيُّرًا »[٤].

= الجامع لشعب الإيمان .

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، ومن طريقه البغوي في تفسيره، والنسائي في الكبرىٰ وعمل اليوم والليلة ، والحاكم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، انظر : التوكل علىٰ الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا صـ ٦٦ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ، وابن حبان ، وقال الترمذي : حديث صحيح حسن غريب ، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه ، وقد ذكر الحافظ في تخريج الأذكار له شاهدًا مرسلًا ، من حديث عوْن بن عبد الله . وقال عنه : (قوي الإسناد) فلعلّه يتقوىٰ به ، والله أعلم ، انظر : التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٥٥ .

(٣) إسناده صحيح ، وانظر أذكارًا أُخرىٰ في « الأذكار » و« الكلم الطيب » ، التوكُّل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٥٧ .

(٤) حسن ، رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء ، ورواه تمام ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ١١٦١ ، وصحيح الجامع رقم (٥١٠٢) .

التوكُّل أوسعُ وأعلىٰ مِن التفويض :

يرىٰ شيخ الإسلام الهروي أنَّ التفويض أعلىٰ من التوكل ؛ فإنَّ التوكّل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده ، وهو ألطف إشارةً وأوسعُ معنًى من التوكل .

والتفويضُ هو عين الاستسلام ، والتوكّل شعبة منه .

والتفويضُ براءةٌ من الحوْل والقوة ، وتسليم الأمر كلِّه إلى مالكه ، فالمفوِّض يتبرَّأ من الحول والقوة ، ويفوِّض الأمر إلى صاحبه من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه ، بخلاف التوكل ؛ فإنَّ الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكّل .

ويرىٰ شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية أن التوكّل أوسع وأعلىٰ من التفويض ، فإنْ كان التفويض براءةً من الحول والقوة، «كذلك التوكل أيضًا ، وما قدحْتُمْ به في التوكّل ، يردّ عليكم نظيره في التفويض سواء ، فإنّك كيف تفوّض شيئًا لا تملكه ألبتة إلى مالكه ؟! وهل يصحّ أنْ يفوّض واحد من آحاد الرعيّة المُلك إلى مَلِك زمانه ؟!

فالعلّة إذنْ فِي التفويض أعظمُ منها في التوكّل ، بل لو قال قائل : التوكّل فوق التفويض ، وأجلّ منه وأرفع ، لَكَانَ مصيبًا . ولهذا كان القرآن مملوءًا به أمْرًا ، وإخبارًا عن خاصّة الله وأوليائه ، وصفوة المؤمنين ، بأنّ حالَهم التوكلُ . وأمر الله به رسوله في أربعة مواضعَ مِن كتابه[1] ، وسماه

---

(١) بل أكثر من ذلك ؛ قال الله : ﴿ **فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ علىٰ اللهِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقال : ﴿ **فأعرِضْ عنهُمْ وتوكَّل علىٰ اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [النساء : ٨١] . وقال : ﴿ **وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتوكَّل علىٰ اللهِ** ﴾ [الأنفال : ٦١] . وقال : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ العزيزِ الرَّحِيمِ** ﴾ [الشعراء : =

« المتوكّل » ، كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « قرأتُ في التوراة صفة النبي ﷺ : محمد رسول الله ، سَمَّيْتُهُ المتوكل ، ليس بِفظٍّ ، ولا غليظ ، ولا سَخَّاب بالأسواق » .

وأخبر عن رسله بأنّ حالَهم كان التوكّل ، وبه انتصروا علىٰ قومهم . وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسَاب ، « أنهم أهل مقامِ التوكل » .

ولم يجىء التفويض في القرآن إلَّا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون ، من قوله : ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ** ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتّخذه وكيلًا . فقال : ﴿ **ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلـٰهَ إلَّا هُو فاتّخِذْهُ وكيلًا** ﴾ [المزمل : ٩] ، وهذا يُبطل قوْل مَن قال مِن جهلة القوم : إنّ توكيلَ الربِّ فيه جَسَارة علىٰ الباري ؛ لأنّ التوكُّل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكّل ، وذلك عيْن الجسارة .

قال : ولولا أنّ الله أباح ذلك وندَب إليه ، لمَا جاز للعبد تعاطيه .

وهذا من أعظم الجهل ؛ فإن اتخاذه وكيلًا هو محضُ العبودية ، وخالص التوحيد ، إذا قام به صاحبه حقيقةً .

ولله دَرُّ سيد القوم ، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري ، إذْ يقول : العلم كلّه بابٌ من التعبُّد ، والتعبُّد كلُّه باب من الورَع ، والورع

= ٢١٧] وقال : ﴿ **فتوكّلْ علىٰ اللهِ إنَّكَ علىٰ الحقِّ المُبِينِ** ﴾ [النمل : ٧٩] . وقال : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ اللهِ وكَفَىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [الأحزاب : ٣] وقال : ﴿ **ودعْ أَذَاهُمْ وتوكَّلْ علىٰ اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [الأحزاب : ٤٨] . وقال : ﴿ **فاعبدْهُ وتوكّلْ عليهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] وقال : ﴿ **وتوكلْ علىٰ الحي الذي لا يموتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

كلّه باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل .

فالذي نذهب إليه : أنّ التوكل أوسع من التفويض ، وأعلىٰ وأرفع .

قوله : « فإنَّ التوكّل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده » .

يعني بالسبب : الاكتساب . فالمُفوِّض قد فوّض أمْره إلى الله قبل اكتسابه وبعده ، والمتوكّل قد قام بالسبب ، وتوكّل فيه علىٰ الله ، فصار التفويض أوسع .

فيقال : والتوكّل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده ، فيتوكل علىٰ الله أنْ يقيمَه في سببٍ يُوصله إلى مطلوبه ، فإذا قام به توكّل علىٰ الله حال مباشرته ، فإذا أتمّه توكّل علىٰ الله في حصول ثمراته ، فيتوكل على الله قبله ، ومعه ، وبعده .

فعلى هذا : هو أوسع مِن التفويض على ما ذُكر »[1].

قال أبو سليمان الداراني : إذا بلغ العبد الغاية مِن الزهد ، أخرجه ذلك إلى التوكّل .

ونختم بقوْل رسولنا ﷺ : « لو أنَّ ابنَ آدم هرَب مِن رزقِهِ كما يهرَب من الموت ، لَأدركه رزقُه كما يُدركه الموت »[2].

ولله دَرُّ القائل :

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٨ - ١٤١ .

(٢) حسن ؛ رواه أبو نعيم في الحلية عن جابر ، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٠ ، وصحيح الجامع رقم ٥١١٦ .

وَيزْعُمُ أنَّهُ منَّا قريبٌ ... وأنَّا لا نُضَيِّعُ مَنْ أتَانَا
وَيَسألُنَا علىٰ الإقتار جُودًا ... كأنَّا لا نراهُ ولا يَرانا

الثِّقَةُ باللهِ تعالىٰ :

ومن علو الهمّة في التوكّل : الثقة بالله تعالىٰ ، فالثقة سواد عيْن التوكل ، ونقطةُ دائرة التفويض ، وسُويداء قلب التسليم .

والثقة خلاصةُ التوكّل ولبُّه ، كما أنّ سواد العين أشرف ما في العين .

والثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض ، فلو كان التفويض قلبًا ، لَكَانت الثّقة سويداءَه ، ولو كان عينًا لَكانت سوادَها . والثقة هي رُوح التوكل ، ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان .

وعنوانها : أَمْن العبد من فَوْتِ المقدور ، وانتقاض المسطور ، فيظفر بروح الرضا ، وإلا فبعين اليقين ، وإلَّا فبلطْف الصبر .

وذلك أنَّ مَن تحقّق بمعرفة الله ، وأنّ ما قضاه الله : فلا مردّ له ألبتة ؛ أَمِن من فوْت نصيبه الذي قسّمه الله له ، وأمِن أيضًا من نقصان ما كتبه الله له ، وسطّره في الكتَاب المسطور ، فيظفر بروح الرضا ، أي براحته ولَذَّته ونعيمه ؛ لأنّ صاحب الرضا في راحة ولَذَّة وسرور ، كما في حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إنّ الله – بعدْله وقسطه – جعل الرَّوْح والفرَح في اليقين والرضا ، وجعل الهمَّ والحزَن في الشّكِّ والسخط » .
فإن لم يقدر العبد علىٰ « روح الرضا » ، ظفر « بعين اليقين » ، وهو قوة الإيمان ، ومباشرته للقلب . فإن لم يحصل له هذا المقام ، حصل على « لطْف الصبر » وما فيه من حسْن العاقبة .

فإنِ استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإنْ لم تستطع ، فإنَّ في الصبر على ما تكره النفس خيرًا كثيرًا .

وخير مثال على الثقة بالله تعالىٰ وعلوّ الهمة فيها : أُمُّ موسىٰ رضي الله عنها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص : ٧] . قال ابن القيم : « فإن فعْلَها هذا هو عيْن ثقتها بالله تعالىٰ ، إذْ لولا كمال ثقتها بربِّها ، لَمَا ألقتْ بولدها وفلِذَة كبدها في تيار الماء ، تتلاعب به أمواجه ، وجَرَيَانه إلى حيث ينتهي أو يقف »[1].

لله ما أشرفَ هذا المقام وأحلاه وأعلاه .. إنّ الأُمَّ إذا خافت على ولدها ، ضمَّته إلى صدرها ... ولكنّ أمَّ موسىٰ يُلهمها اللهُ تعالىٰ أن تُلقي بولدها إلى النهر .. ثقةً منها بربِّها ... ويتهادىٰ التابوتُ بالرضيع حتىٰ يصل إلى تحت قصر فرعون .. لتكون المعركة على أرضه .. إنّك تُرسل المئات والآلاف بحثًا عن الرضيع ، وتُذبّح من أجْلِهِ الآلاف من الرجال ، وتستحيي النساء ... فها هو الآنَ في قصرك ... وأطلَّتْ آسيَةُ علىٰ الجمال المُوسَوِيّ الذي زكّي صاحبه بقوله تعالىٰ : ﴿ **وألقيْتُ عليكَ محبَّةً مِني وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾ [طه : ٣٩] ، فألقىٰ اللهُ محبَّته في قلبِها ، فقالت : ﴿ **قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوه** ﴾ [القصص : ٩] ، لِهَوان فرعونَ على الله ، لم يُرسل اللهُ تعالىٰ مع موسىٰ لِحفْظه طائفةً من الملائكة ، وإنما حَماه بأَرَقِّ شيءٍ .. سِتْر رقيق من المحبَّة يُغلّف قلبَ آسية ... ونفّذ فرعونُ أمْر آسية . فانظرْ كمْ قتلَ فرعونُ للظفر بموسىٰ ، ولسانُ القدر يقول له : « لا نربِّيه إلَّا في حِجْرك »... ويُحرِّم اللهُ علىٰ موسىٰ المراضعَ ، لِتُرْضِعَه أُمُّه ، ليكون الرَّدُّ كاملًا ﴿ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ** ﴾ [القصص : ٧] ... فانظرْ جزاءَ الثقةِ بالله تعالىٰ ... الطمأنينة ﴿ **رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾ [القصص : ١٠] ... بعد أنْ كانت تُرضع ولدها علىٰ

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٤٣ .

خَوْف من فرعون وملَائه ، فالآنَ تُرضع بأمْر فرعون ... وثِقَتْ بربِّها ... فكانت تُرضع ولدَها وتأخذ أجْرها ... وما كان هذا أبدًا لأُمٍّ غيرها ...

وردَّ الله إليها ولدها ... وأنعم عليه بالنبوة ، فإنَّ الهديَّة إذا جاءتْ من عند الملك تُضمَّخُ بطِيبه ...

ومن قبلها أُمُّ إسماعيل ، تَثِقُ بربها « إذن لا يضيِّعُنا » . فيرسل الله سيد ملك السماء جبريل ، ليحفُر لها زمزم .

فهلَّا وثقتَ بربِّك ، وملأتَ قلبك فرحًا به ... ولم تترك في قلبك مكانًا خاليًا لمحبَّة سواه ، وردَّدتَ ما قال القائل :

ملأتَ قلبي منكَ حتىٰ لم تدعْ ... مني مكانًا خاليًا لِسِوَاكَا
والقلبُ فيكَ هَيَامُه وغرامُهُ ... والروحُ لا تنفكُّ عَنْ ذِكْراكَا

□ علوُّ الهمَّة في التَّسْلِيم □

« وهو نوعان : تسليم لحكمه الديني الأمري ، وتسليم لحكمِهِ الكوني القدَري .

فأمَّا الأول : فهو تسليم المؤمنين العارفين ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **فلا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينهمْ ثمَّ لا يَجدُوا في أنفسِهِمْ حَرَجًا ممَّا قضيتَ ويسلِّمُوا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] . فهذه ثلاث مراتب : التحكيم ، وسَعَة الصدر بانتفاء الحَرَج ، والتسليم .

وأما التسليم للحكم الكوني : فمزلّة أقدام ، ومَضَلّة أفهام ، حيّر الأنام ، وأوقع في الخصام . وهي مسألة الرضا بالقضاء .

والتسليم للقضاء يُحمَد إذا لم يُؤمر العبد بمنازعته ودفْعه ، ولم يقدر

علىٰ ذلك ، كالمصائب التي لا قُدرة له على دفعها .

وأمّا الأحكام التي أُمر بدفْعها : فلا يجوز له التسليم إليها ، بل العبودية : مدافعتها بأحكامٍ أُخَر ، أحبَّ إلى الله منها »[١].

إيَّاك وعِلَّةَ التَّسْليم :

يقول الهروي : « وفي التسليم والثقة والتفويض : ما في التوكُّل مِن العلل » .

ويقول ابن القيم شارحًا : « يعني أنّ العلل التي في « التوكل » من معاني الدعوىٰ ، ونسبتُه الشيء إلى نفسه أولًا ، حيث زعم أنه وَكَّل ربَّه فيه ، وتوكَّل عليه فيه ، وجعله وكيله القائم عنه بمصالحه التي كان يحصّلها لنفسه بالأسباب والتصرفات ، وغير ذلك من العلل .

وليس في التسليم إلا علّة واحدة : وهي أن لا يكون تسليمُه صادرًا عن محْض الرضا والاختيار ، بل يَشُوبه كُرْهٌ وانقباض ، فيلسم على نوعِ إغماض . فهذه علة التسليم المؤثّرة . فاجتهد في الخلاص منها »[٢].

أَوَّلُ التَّسْـلِيم :

« وأولُ التسليم : أنْ لا تطلب على الحقِّ دليلًا ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِ بربِّكَ أَنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ** ﴾ [فصّلت : ٥٣] . فكيف تُحوِج وليَّك وحبيبك إلى أنْ يُقيم لك الدليل علىٰ التوحيد والمعرفة ، بحيث لا تسير إليه حتى يقيمَ لك دليلًا علىٰ وجوده ووحدانيته ، وقدرته ومشيئته ؟! ولو أنّ رجلًا دعاك إلى داره ، فقلتَ للرسول : لا آتي معكَ حتى تُقيم لي الدليل

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٤٦ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٤٧ .

علىٰ وجود مَن أرسلك ، وأنَّه مُطاع ، وأنَّه أهلٌ أنْ يُغشىٰ بابُه . لَكُنْتَ في دعوىٰ الفُتوَّة زنيمًا . فكيف بمن وجودُه ووحدانيَّته وقدرته ، وربوبيّته وإلٰهيَّته ، أظهرُ من كلِّ دليل تطلبه ؟! فما مِن دليلٍ يُستدل به ، إلَّا ووحدانيّة الله وكماله أظهر منه ، فإقرارُ الفِطَرِ بالربِّ سبحانه خالق العالم ، لم يُوقفها عليه مُوقِف ، ولم تحتجْ فيه إلى نظر واستدلال ، ولهذا لم تدعُ الرسلُ قطُّ الأممَ إلى الإقرار بالصانعِ سبحانه وتعالىٰ ، وإنما دعَوْهم إلىٰ عبادته وتوحيده ، وخاطَبوهم خطابَ مَن لا شبهة عنده قطّ في الإقرار بالله تعالىٰ ، ولا هو محتاجٌ إلى الاستدلال عليه ، ولهذا ﴿ **قالتْ لهمْ رسلُهُمْ أَفِي اللهِ شكٌّ فَاطِرِ السمٰواتِ والأرض** ... ﴾ الآية [إبراهيم : ١٠] ، وكيف يصحُّ الاستدلال علىٰ مدلولٍ هو أظهرُ من دليله ؟! حتىٰ قال بعضهم : كيف أطلب الدليل علىٰ مَن هو دليلٌ على كلِّ شيء ؟! فتقْييد السائر بالدليل وتوقُّفه عليه دليلٌ على عدم يقينه ، بل إنما يتقيّد بالدليل الموصّل له إلى المطلوب بعد معرفته به ؛ فإنه يحتاج بعد معرفته إلىٰ دليل يُوصله إليه ويدلّه على طريق الوصول إليه ، وهذا الدليل هو الرسول ﷺ ، فهو موقوف عليه يتقيَّد به ، لا يخطو خطوةً إلَّا وراءه ﷺ ، فيكون علْمُه ويقينه ونورُ بصيرته ، مغنيًا له عن كثيرٍ من الأدلّة التي يتكلّفها المتكلّفون وأرباب القَال ؛ فإنه مشغول عنها بما هو أهمُّ منها ، وهو الغاية المطلوبة .

مثاله : أنَّ المتكلّمَ يُفني زمانه في تقرير حدوث العالَم ، وإثبات وجود الصانع ، وذلك أمْر مفروغ منه عند السالك الصادق ، صاحب اليقين . فالذي يطلبه هذا بالاستدلال الذي هو عُرضة الشُّبه والأسئلة والإرادات ، التي لا نهاية لها ؛ هو كشفٌ ويقين للسالك ، فتقييده في سلوكه بحالِ هذا المتكلِّم انقطاعٌ وخروج عن الفتوّة .

وهـذا حقٌّ لا يُنازِع فيه عـارف ، فترىٰ المتكلم يبحث في الزمان

والمكان ، والجواهر والأعراض والأكوان ، وهمّته مقصورة عليها لا يعدوها ، ليصل منها إلى المكوّن وعبوديته .

والسالك قد جاوزها إلى جمْع القلب علىٰ المكون وعبوديته ، بمقتضىٰ أسمائه وصفاته ، لا يلتفتُ إلى غيره ، ولا يشتغل قلبه بسواه .

فالمتكلّم متفرّقٌ مُشتغِل في معرفة حقيقة الزمان والمكان . والعارف قد شحّ بالزمان أنْ يذهب ضائعًا في غير السَّيْر إلى ربِّ الزمان والمكان . فصاحب التسليم لا يتعلّق في سيره بدليل » .

الشُّبهات والشَّهَوات سببُ الانقطاع :

تمامُ التَّسْلِيم :

« وتمام التسليم بالخلاصِ من شُبهة تُعارِض الخبر ، أو شهوة تعارِض الأمر ، أو إرادة تُعارِض الإخلاص ، أو اعتراضٍ يُعارِض القدَر والشرع . وصاحب هذا التخلُّص : هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلَّا مَن أتىٰ الله به ، فإنَّ التسليم ضدُّ المنازَعة .

والمنازَعة : إمَّا بشبهة فاسدة ، تُعارض الإيمان بالخبر عمّا وَصَفَ اللهُ به نفسه من صفاته وأفعاله ، وما أخبر به عن اليوم الآخر ، وغير ذلك . فالتسليم له : تَرْكُ منازعته بشبهات المتكلّمين الباطلة .

وإمّا بشهوةٍ تعارِض أمْر الله عز وجل : فالتسليم للأمر بالتخلُّص منها .

أو إرادة تُعارِض مراد الله من عبده ، فتعارضه إرادة تتعلَّق بمراد العبد من الربّ . فالتسليم : بالتخلّص منها .

أو اعتراضٍ يُعارض حِكْمته في خلقه وأمره ، بأنْ يظنَّ أنَّ مقتضىٰ الحكمة خلافُ ما شرعَ ، وخلاف ما قضىٰ وقدّر . فالتسليم : التخلُّص من

هذه المنازعات كلّها .

وبهذا يتبيّن أنه مِن أجَلّ مقامات الإيمان ، وأعلىٰ طرق الخاصة ، وأنَّ « التسليم » هو مَحْضُ الصِّدِّيقية التي هي بعد درجة النبوة ، وأنَّ أكملَ الناس تسليمًا أكملُهم صِدِّيقية »[١].

أكملُ التسليمِ تسليمُ الخليلِ وولَدِهِ إسماعيل صلىٰ الله عليهما وسَلَّم :

قال اللهُ مُثنيًا علىٰ خليله إبراهيم ﷺ : ﴿ **إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الصافات : ٨٤] ، سليم ممّا سوىٰ الله عز وجل .. سلّم لربّه كلَّ شيءٍ .. يأمره الله عز وجل بوضْع ولده وزوجته في صحراء ، لا مكان فيها لقطرة ماء أو طعام أو إنسٍ ، فيُسَلِّم ، ويشبُّ ولده النجيب الذي أُعطيه علىٰ الكبر وهو الشيخ الطاعن في السن ، المهاجر من الأهل والقرابة والدار ، فيأمره بذبحه بإشارة في المنام ، وليس أمرًا صريحًا في اليقظة ، فيُسَلِّم ، حتىٰ ولو كان الأمر منامًا ، فكيفي أنه من الله ليسلّم ، ويريد إبراهيم أن يذوق ابنُه جَمَالَ التسليم وحلاوة الرضا ، فيقول لابنه : ﴿ **يا بُني إنّي أرىٰ في المنامِ أنّي أَذْبَحُكَ فانظرْ ماذا ترىٰ** ﴾ فماذا يكون من إسماعيل الحليم ابن الخليل ؟

وهل يُنبتُ الخطِّيَّ إلَّا وشيجُه ... ويُزرَعُ إلَّا فـي مَنَابِتِـهِ النخـلُ

﴿ **قالَ يا أبتِ افعلْ ما تُؤمرُ ستجدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصابرينَ فلمَّا أسلمَا وتلَّهُ للجبين ونادَيْناهُ أنْ يا إبراهيمُ قدْ صدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنَّا كذلكَ نَجزِي المحسنينَ إنَّ هذا لهو البلاءُ المبينُ وفدَيْناهُ بذبحٍ عظيمٍ وتركْنا عليه في الآخرينَ سلامٌ علىٰ إبراهيمَ** ﴾ [الصافات : ١٠٢ - ١٠٩] .

ويبقىٰ هذا الحادث الوحيد الفريد منارةً للتسليم وجماله ، والرضا

---

(١) تهذيب مدارج السالكين صـ ٣٤٨ - ٣٤٩ لعبد المنعم صالح العلي - مكتبة لينة .

ومذاقه الطيِّب ، استحقَّ به إبراهيمُ وولدُه سلامَ الله عز وجل ، يُرقم في السِّجلِّ الخالد ، وكتابهِ المرقوم .

ومن علوّ الهمّة في التسليم : « تسليمُ العلْم إلى الحال . ولا يُراد تحكيمُ الحال علىٰ العلم ، وإنما الانتقال من الوقوف عند صُوَر العلم الظاهرة ، إلى معانيها وحقائقها الباطنة ، وثمراتها المقصودة منها ، مثل الانتقال من محْض التقليد والخبر إلى العيان واليقين ، حتىٰ كأنّه يرىٰ ويشاهد ما أخبر به الرسول ﷺ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ويرىٰ الذينَ أُوتُوا العلمَ الذي أُنزلَ إليكَ من ربِّكَ هُوَ الحقّ** ﴾ [سبأ : ٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ **أفمنْ يعلمُ أنَّ مَا أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ الحقُّ كَمَنْ هوَ أعمىٰ** ﴾ [الرعد : ١٩] ، فينتقل من العلم إلى اليقين ، ومن اليقين إلى عين اليقين ، ومن علْم الإيمان إلى ذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته ، فإن هذا قدْرٌ زائد على مجرّد علمه ، ومن عِلْم التوكّل إلى حاله ، وأشباه ذلك . فيسلّم العلْمُ إلى الحال الصحيح ، فإنّ سلطان الحال أقوىٰ من سلطان العلم ، فإذا كان الحال مخالِفًا للعلم فهو مَلِكٌ ظالم ، فلْيخرج عليه بسيف العلْم وليُحكّمه فيه .

ومن أعلىٰ التسليم : تسليمُ ما دون الحقِّ إلى الحقّ ، مع السلامة من رؤية التسليم ، بمعاينة تسليم الحقِّ إيَّاك إليه ، أي : ينكشف لك - حين تسلّم ما دون الحقِّ إلى الحقِّ ، وتضمحلُّ الخلائق عند شهود الحقِّ - أنَّ الحقَّ تعالىٰ هو الذي سلّم إلى نفسه ما دونه ، فالحق تعالىٰ هو الذي سلّمك إليه ، فهو المسلِّم وهو المسلَّم إليه ، وأنت آلةُ التسليم ، فمن شهد هذا المشهد وجد ذاته مسلَّمة إلى الحقّ ، وما سلّمها إلى الحقّ غير الحقّ ، فقد سَلِمَ العبد من دعوىٰ التسليم »[١] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٢ .

لا تدبّــرْ لكَ أمــرًا　　　**فأُولو التدبير هلكىٰ**
سَـلِّمِ الأمـرَ تجدْنَـا　　　نحـنُ أوْلىٰ بِكَ مِنْكَـا

* * *



الفصْلُ السَّابِع

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ

في الرِّضَــا

« الرضا مِنْ أعْمَالِ القلوبِ ، نظيرُ الجهادِ مِن أعمالِ الجوارح ، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما ذروةُ سنَامِ الإيمان »

[ابن قيّم الجوزية] .



□ علوُّ الهِمَّة في الرِّضا □

الرضا ثمرةٌ من ثمار المحبّة ، وهو من أعلىٰ مقامات المقرّبين ، وحقيقته غامضة علىٰ الأكثرين . وهو باب الله الأعظم ، ومستراحُ العارفين ، وجنة الدنيا ، فجدير بمن نصح نفسه أنْ تشتدّ رغبتُه فيه ، وأن لا يستبدل بغيره منه .

ورضا الله عن العبد أكبرُ من الجنة وما فيها ؛ لأنَّ الرضا صفة الله والجنة خلقُه ، قال تعالىٰ : ﴿ **ورِضوانٌ مِنَ اللهِ أكبر** ﴾ [التوبة : ٧٢] ، بعد قوْله : ﴿ **وعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ عَدْنٍ ورضوان من الله أكبر * ذلكَ هُو الفوزُ العظيم** ﴾ . وهذا الرضا جزاءٌ علىٰ رضاهم عنه في الدنيا ، ولمّا كان هذا الجزاء أفضل الجزاء ، كان سببُه أفضل الأعمال .

والسخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن وشتات القلب ، وكَسْف البال ، وسُوء الحال، والظنّ بالله خلاف ما هو أهلُه ، والرضا يخلّصه من ذلك كلّه ، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة . فالرضا يُوجب له الطمأنينة وبَرد القلب وسكونه وقراره ، والسخط يُوجب اضطراب قلبه ، وريبته وانزعاجه ، وعدم قراره .

والسُّخط يُوجب تلوُّن العبد ، وعدم ثباته مع الله ، فإنه لا يرضىٰ إلّا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وما لا يلائمه ، وكلّما جرىٰ عليه منها ما لا يلائمه أسخطه ، فلا تثبُتْ له قدم علىٰ العبودية ، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات ، استقرَّت قدمُه في مقام العبودية ، فلا يُزيل التلوُّن عن العبد شيءٌ مثلُ الرضا .

والرضا يفرّغ القلب لله ، والسُّخط يُفرّغ القلب من الله ، فإنَّ مَن

ملأ قلبه من الرضا ، ملأ الله صدره غنًى وأمنًا وقناعة ، وفرّغ قلبه لمحبّته والإنابة إليه والتوكُّل عليه ، ومَن فاته حظُّه من الرضا امتلأ قلبه بضدِّ ذلك ، واشتغل عمّا فيه سعادته وفلاحه .

الرضا ذِرْوة سَنام أعمالِ القلوب :

والرضا مِن أَعمال القلوب ، نظير الجهاد من أعمال الجوارح ؛ فإنّ كلَّ واحد منهما ذروةُ سَنام الإيمان . قال أبو الدرداء : « ذروة سَنام الإيمان : الصبر للحكْم ، والرضا بالقدر »[١] .

وبداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة ، فأوَّله مقامٌ ونهايته حالٌ .

وقد مدح الله أهله وأثنىٰ عليهم وندبهم إليه ، فدلَّ ذلك علىٰ أنّه مقدور لهم . وقد قال رسول الله ﷺ: « ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ رسولًا »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « مَن قال حين يَسمع المؤذّن : وأنا أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وَحدَه لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسوله ، رضيتُ بالله ربًّا ، وبمحمد رسولًا ، وبالإسلام دينًا . غفر الله له ما تقدّم من ذنوبه »[٣] .

« وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين ، وإليهما ينتهي . وقد تضمّنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته ، والرضا برسوله ، والانقياد له .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢١٤ .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، عن العباس بن عبد المطلب .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن سعد .

والرضا بدينه ، والتسليم له . ومَن اجتمعت له هذه الأربعة ، فهو الصديق حقًّا ، وهي سهلة بالدعوىٰ واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادَها ، من ذلك تبيّن أن الرضا كان لسانه به ناطقًا ، فهو علىٰ لسانه لا علىٰ حاله .

فالرضا بإلهيته : يتضمن الرضا بمحبته وحده ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، والتبتُّل إليه ، وانجذاب قوىٰ الإرادة والحبّ كلها إليه . فعل الراضي بمحبوبه كلّ الرضا . وذلك يتضمّن عبادته والإخلاص له .

والرضا بربوبيّته : يتضمّن الرضا بتدبيره لعبده ، ويتضمّن إفراده بالتوكل عليه ، والاستعانة به ، والثقة به ، والاعتماد عليه . وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به .

فالأول : يتضمن رضاه بما يُؤْمر به ، والثاني : يتضمّن رضاه بما يُقدَّر عليه .

وأما الرضا بنبيّه رسولًا : فيتضمّن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولىٰ به من نفسه ، فلا يتلقّىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكّم عليه غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره ألبتة ، لا في شيء من أسماء الربّ وصفاته وأفعاله ، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيءٍ مِن أحكامِ ظاهره وباطنه ، لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره ، ولا يرضىٰ إلا بحكمه ، فإنْ عجز عنه كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاءِ المضطر إذا لم يجد ما يقيتُهُ إلا مِن الميتة والدم ، وأحسن أحواله : أن يكون من باب التراب ، الذي إنما يُتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور .

وأما الرضا بدينه : فإذا قال ، أو حكم ، أو أمر ، أو نهى : رضي كل الرضا ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه ، وسَلَّم له تسليمًا ، ولو كان

مخالفًا لمراد نفسه أو هواها ، أو قوْل مُقلِّده وشيخه وطائفته .

وهاهنا يوحشك الناسُ كلهم إلا الغرباء في العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرُّد ، فإنّه واللهِ عينُ العزّة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأنس به ، والرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، وبالإسلام دينًا .

بل الصادق كُلّما وجد مسَّ الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتَنَسَّمَ روحه ، قال : اللهمّ زدني اغترابًا ، ووحشة مِن العالم ، وأُنسًا بك ، وكلّما ذاقَ حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرُّد ، رأىٰ الوحشة عيْنَ الأنس بالناس ، والذلَّ عينَ العزِّ بهم ، والجهلَ عينَ الوقوفِ مع آرائهم ، وزِبالة أذهانهم ، والانقطاعَ عينَ التقيد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يُؤْثِر بنصيبهِ مِن الله أحدًا من الخلق ، ولم يَبِعْ حظَّه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان . وغايته : مودَّةَ بينهم في الحياة الدنيا ، فإذا انقطعتِ الأسباب . وَحَقَّتِ الحقائق ، وبُعثِر ما في القبور ، وَحُصِّلَ ما في الصدور ، وبُليتِ السرائر ، ولم يجد مِن دون مولاه الحقّ مِن قوة ولا ناصر : تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران ، وما الذي يَخِفُّ أو يرجح به الميزان ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان »[1].

« فالرضا كسْبيٌّ باعتبار سببه ، موهبيٌّ باعتبار حقيقته ، فيمكن أنْ يُقال بالكسب لأسبابه ، فإذا تمكّن من أسبابه وغرَس شجرتَه ، اجتنىٰ منها ثمرة الرضا ، فإن الرضا آخر التوكّل ، فمَن رسخ قدمه في التوكّل والتسليم والتفويض ، حصل له الرضا ولا بدّ ، ولكنْ لعزَّته وعدم إجابة أكثَر النفوس له ، وصعوبته عليها – لم يُوجبه الله على خلقه ، رحمة بهم ، وتخفيفًا عنهم ، لكنْ ندبهم إليه ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أنّ ثوابَه رضاه عنهم ،

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٧٢ - ١٧٣ .

الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجِنان وما فيها ، فمن رضي عن ربِّه رضي الله عنه ، بل رضا العبدِ عن الله من نتائج رضا الله عنه ، فهو محفوف بنوعيْن من رضاه عن عبده : رضًا قبله ، أوجب له أن يرضىٰ عنه ، ورضًا بعده ، هو ثمرة رضاه عنه . ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبّين ، ونعيم العابدين ، وقُرّة عيون المشتاقين .

ومن أعظم أسباب حصول الرضا : أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بدّ .

قيل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يُعامل به ربَّه ، فيقول : إن أعطيتَني قبلتُ ، وإنْ منعتَني رضيتُ ، وإنْ تركتني عبدتُ ، وإن دعوتَني أجبتُ .

وقال الجنيد : الرضا هو صحّة العلْم الواصل إلى القلب ، فإذا باشَر القلب حقيقة العلم ، أدّاه إلى الرضا .

وليس « الرضا والمحبة » كالرجاء والخوف ؛ فإنّ الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة ، لا يفارقان المتلبِّس بهما في الدنيا ، ولا في البرزخ ، ولا في الآخرة ، بخلاف الخوف والرجاء ، فإنّهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه ، وأمّنهم مما كانوا يخافونه ، وإن كان رجاؤهم لما ينالون مِن كرامته دائمًا لكنّه ليس رجاءً مشوبًا بشكٍّ ، بل هو رجاءٌ واثق بوعد صادق ، من حبيب قادر ، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون .

وقال ابن عطاء : الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنَّه اختار له الأفضل ، فيرضىٰ به .

قلت : وهذا رضًا بما منه ، وأما الرضا به : فأعلىٰ من هذا وأفضل ، ففرقٌ بينَ مَن هو راضٍ بمحبوبه ، وبين من هو راضٍ بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه . والله أعلم »[1].

الهمَّةُ العاليةُ شِيمَتُهَا الرِّضا :

قال ابن القيم رحمه الله : « وطريق الرضا طريق مختصرة ، قريبة جدًّا ، موصّلة إلى أجَلِّ غايةٍ ، ولكن فيها مشقّة ، ومع هذا فليست مشقَّتُها بأصعبَ من مشقةِ طريق المجاهدةِ ، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها ، وإنما عقبتها همّة عالية ، ونفسٌ زكيّة ، وتوطين النفس علىٰ كلّ ما يرِد عليها من الله .

ويسهِّل ذلك على العبد : علمُه بضعفه وعَجْزه ورحمته به ، وشفقته عليه ، وبرّه به ، فإذا شهد هذا وهذا ، ولم يطرحْ نفسَه بين يديه ، ويرضىٰ به وعنه ، وتنجذب دواعي حبِّه ورضاه كلها إليه ؛ فنفسه نفسٌ مطرودة عن الله ، بعيدة عنه ، ليست مؤهّلَةً لقرْبه وموالاته ، أو نفس ممتحَنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن .

فطريق الرضا والمحبة : تُسَيِّر العبدَ وهو مستلقٍ على فراشِهِ ، فيصبح أمام الرَّكْب بمراحل .

وثمرة الرضا : الفرح والسرور بالربّ تبارك وتعالىٰ .

ورأيتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية – قدَّس الله روحه – في المنام ، وكأني ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب ، وأخذت في تعظيمه ومنفعته – لا أَذْكرُه الآن – فقال : أمّا أنا فطريقتي : الفرح بالله ، والسرور به ، أو نحو هذا من العبارة .

(١) مدارج السالكين ١٧٤ – ١٧٥ .

وهكذا كانت حاله في الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، ويُنادي به عليه حالُه .

لكن قد قال الواسطي : استعمِلِ الرضا جهدَك ، ولا تدعِ الرضا يستعملك ، فتكون محجوبًا بلذّته ورؤيته عن حقيقة ما تُطالع .

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو عقبة عظيمة عند القوم ، ومقطع لهم ، فإنَّ مُساكنة الأحوال ، والسكون إليها ، والوقوف عندها ؛ استلذاذًا ومحبة : حجابٌ بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم ، وهي عقبة لا يجوزها إلَّا أولو العزائم .

وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة ، شديد التنبيهِ عليها . ومن كلامه : إياكم واستحلاء الطاعات ، فإنها سموم قاتلة .

فهذا معنىٰ قوله : « استعمِلِ الرضا جهدك ، ولا تدعِ الرضا يستعملك » . أي : لا يكون عملك لأجلِ حصول حلاوة الرضا ، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه ، بلِ اجعْله آلةً لك وسببًا موصِّلًا إلى قصدك ومطلوبك ، فتكون مستعملًا له ، لا أنه مستعملٌ لك .

وهذا لا يختصُّ بالرضا ، بل هو عامٌّ في جميع الأحوال والمقامات القلبية ، التي يسكن إليها القلب ، حتى إنه أيضًا لا يكون عاملًا على المحبّة لأجْل المحبة ، وما فيها من اللذة والسرور والنعيم به ، بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب ، لا يقف عندها ، فهذا من عِلل المحبة .

وقال ذو النون : ثلاثة من أعلام الرضا : تركُ الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحبّ في حشو البلاء .

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما : إنّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه يقول : الفقر أحبُّ إليَّ من الغنىٰ ، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة . فقال :

رحِمَ الله أبا ذر ، أمَّا أنا ، فأقول : مَن اتّكل على حُسْن اختيار الله له ، لم يتمنَّ غير ما اختار الله له .

وقال الفضيل بن عِياض لبشْر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنّٰى فوق منزلته .

وسئل أبو عثمان عن قوْل النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » . فقال : لأنَّ الرضا قبل القضاء عزمٌ على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وقيل : الرضا ارتفاع الجزَع في أيِّ حكمٍ كان .

وقيل : رفع الاختيار . وقيل : استقبال الأحكام بالفرح .

وقيل : سكونُ القلب تحت مجاري الأحكام .

وقيل : نظرُ القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، وهو ترك السخط .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسٰى رضي الله عنهما : « أما بعد ، فإنّ الخير كلّه في الرضا ، فإنِ استطعتَ أنْ ترضٰى ، وإلَّا فاصبر » .

وقال أبو عليّ الدقَّاق : الإنسان خزف ، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحقِّ تعالٰى .

وقال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حالٍ فكرهتُه ، وما نقلني إلى غيره فسخطتُه .

والرضا ثلاثة أقسام : رضا العوامِّ بما قسَمه الله وأعطاه . ورضا الخواصِّ بما قدّره وقضاه ، ورضا خواصِّ الخواصِّ به بدلًا من كلّ ما سواه »[1].

* * *

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٧٥ - ١٧٧ .

الرِّضا خروجٌ عن الحُظوظ ، ووُقوفٌ صادقٌ مع مُراد اللهِ :

قال تعالى : ﴿ **يَـٰأَيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فَادْخُلِي في عِبَادي وادْخلي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

اعلم يا أخي أنَّ أولَ الرضا خروجٌ عن الحظوظ ، والرضا هو الوقوف الصادق مع مراد الله تبارك وتعالى الديني حقيقةً ، من غير تردُّد في ذلك ولا معارضة ، وهـذا مطلوب القوم السابقـين ، وهو الوقوف الصادق مع محابِّ الربِّ تعالى ، من غير أنْ يشوبَ ذلك تردُّدٌ ، ولا يزاحمه مراد .

يقف العبد حيثما وقفه ربُّه ، لا يطلب تقدُّمًا ولا تأخُّرًا ، وهذا إنما يكون فيما يَقِفه فيه من مراده الكوني الذي لا يتعلَّق بالأمر والنهي ، وأمَّا إذا وقَفه في مراد ديني ، فكماله بطلب التقدُّم فيه دائمًا ، فإنّه إنْ لم تكن همّته التقدُّم إلى الله في كلِّ لحظة ، رجع من حيث لا يدري ، فلا وقوف في الطريق ألبتة ، ولكن إذا وقف في مقامٍ - من الغنى والفقر ، والراحة والتعب ، والعافية والسقم ، والاستيطان ومفارقة الأوطان - يقف حيث وقفه ، لا يطلب غير تلك الحالة التي أقامه الله فيها ، وهذا لتصحيح رضاه باختيار الله له ، والفناء به عن اختياره لنفسه .

أرفعُ الرِّضا : الرِّضا باللهِ ربًّا ، وهو أعلى مِنَ الرِّضَا عن الله :

الرضا بالله ربًّا ، وتسخّط عبادة ما دونه : قَطْبُ رحى الإسلام .

الرضا بالله ربًّا: أنْ لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره ، ويُنزل به حوائجه ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبغي رَبًّا وَهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : « سَيِّدًا وإلـهًا » . يعني : فكيف أطلب رَبًّا غيره ، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ ؟! وقال في أول السورة : ﴿ **قُلْ أَغيرَ اللهِ أتخذُ وليًّا فاطرِ السمـٰوات والأرضِ** ﴾ [الأنعام : ١٤] .

يعني معبودًا وناصرًا ومُعينًا ومَلجأً . وهو من الموالاة التي تتضمَّن الحبّ والطاعة . وقال في وسطها : ﴿ **أَفغيرَ اللهِ أَبتَغِي حَكَمًا وهو الذي أنزلَ إليكُمُ الكتابَ مُفَصَّلًا** ﴾ [الأنعام : ١١٤] . أي : أَفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم ، فنتحاكَمُ إليه فيما اختلفنا فيه ؟! وهذا كتابه سيّد الحكّام ، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه ، وقد أنزله مفصَّلًا ، مبينًا كافيًا شافيًا ؟!

وأنت إذا تأملتَ هذه الآيات الثلاث حقَّ التأمُّل ، رأيتَها هي نفس الرضا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، ورأيتَ الحديث يترجم عنها ، ومشتقٌّ منها ، فكثير من الناس يرضىٰ بالله ربًّا ، ولا يبغي ربًّا سواه ، لكنّه لا يرضىٰ به وحدَه وليًّا وناصرًا ، بل يُوالي من دونه أولياء ، ظنًّا منه أنهم يقرّبونه إلى الله ، وأنَّ موالاتهم كموالاة خواصّ الملك ، وهذا عيْنُ الشِّرْك . بل التوحيد : أن لا يتخذ من دونه أولياء ، والقرآن مملوء من وَصْف المشركين بأنهم اتخذوا مِن دونه أولياء .

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله ، وعباده المؤمنين فيه ؛ فإنَّ هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته ، فموالاة أوليائه لوْن ، واتخاذ الوليّ مِن دُونه لوْن ، ومَن لم يفهمِ **الفُرقان** بينهما ، فليطلبِ التوحيد من أساسه ، فإنّ هذه المسألة أصلُ التوحيد وأساسه .

وكثير من الناس يبتغي غيرَه حَكَمًا ، يتحاكم إليه ، ويخاصم إليه ، ويرضىٰ بحكمه ، وهذه المقامات الثلاث هي أركانُ التوحيد : أن لا يتخذ سواه رَبًّا ، ولا إلٰهًا ، ولا غيره حَكَمًا .

وتفسير الرضا بالله رَبًّا : أنْ يسخط عبادةَ ما دونه . هذا هو الرضا بالله إلٰهًا ، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا ، فمن أعطىٰ « الرضا به رَبًّا » حَقَّهُ ، سَخِطَ عبادةَ ما دونه قطعًا ؛ لأنَّ الرضا بتجريد ربوبيّته يستلزم تجريد عبادته ،

كما أنّ العلم بتوحيد الربوبيّة يستلزم العلم بتوحيد الإلـٰهية .

ومدارُ رحىٰ الإسلام علىٰ أنْ يرضىٰ العبد بعبادة ربِّه وحده ، وأن يسخطَ عبادة غيره .

قال الهروي : « وهو يصحُّ بثلاثة شروط : أنْ يكون الله عز وجل أحبَّ الأشياءِ إلى العبد ، وأوْلَى الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياءِ بالطاعة » .

قال ابن القيم : « يعني أنّ هذا النَوْعَ من الرضا إنما يصحُّ بثلاثة أشياء أيضًا :

أحدها : أن يكون الله عز وجلّ أحبَّ شيءٍ إلى العبد . وهذه تُعرف بثلاثةِ أشياء أيضًا :

أحدها : أن تَسبق محبَّتهُ إلى القلب كلَّ محبة ، فتتقدَّم محبّته المحابَّ كلّها .

الثاني : أن تَقْهر محبَّتُه كلَّ محبَّة . فتكون محبّته إلى القلب سابقة قاهرة ، ومحبّة غيره متخلّفة مقهورة مغلوبة منطوية في محبَّته .

الثالث : أن تكون محبّة غيره تابعةً لمحبته . فيكون هو المحبوب بالذات ، والقصد الأول ، وغيره محبوبًا تبعًا لحبه ، كما يُطاع تبعًا لطاعته ، فهو في الحقيقة المَطاع المحبوب .

وهذه الثلاثة في كونه أولىٰ الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضًا .

فالحاصل : أن يكون الله وحده المحبوب المعظّم المطاع ، فمن لم يحبَّه ، ولم يطعْه ، ولم يعظِّمه : فهو متكبِّر عليه . ومتىٰ أحبَّ معه سواه ، وعظَّم معه سواه ، وأطاع معه سواه : فهو مشرك . ومتىٰ أفرده وحده بالحبِّ والتعظيم والطاعة: فهو عبد موحِّد . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

والرضا بالله أعلىٰ شأنًا وأرفعُ قدرًا من الرضا عن الله في أحكامه

وأقضيته ؛ فإنّها مختصّة ، والرضا عن الله مشترك ، فإنّ الرضا بالقضاء يصحّ من المؤمن والكافر ، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره ، فأينَ هذا من الرضا به ربًّا وإلـٰهًا ومعبودًا ؟!

والرضا به ربًّا فرضٌ ، بل هو من آكَدِ الفروض باتِّفاق الأُمَّة ، فمن لم يرضَ به ربًّا ، لم يصحَّ له إسلامٌ ولا عملٌ ولا حال .

وأما الرضا بقضائه : فأكثر الناس على أنه مستحبٌّ وليس بواجب ، وقيل : بل هو واجب . وهما قولانِ في مذهب أحمد .

فالفرق بين الدرجتيْن فرقُ ما بيْن الفرضِ والنَّدْب . وفي الحديث الإلـٰهي الصحيح: « يقول الله عز وجل : ما تقرّب إلّي عبدِي بمثل أداء ما افترضتُ عليه » . فدلَّ علىٰ أنَّ التقرُّب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلىٰ من التقرُّب إليه بالنوافل .

وأيضًا : فإنّ الرضا به ربًّا يتضمَّن الرضا عنه ويستلزمه ؛ فإنّ الرضا بربوبيته : هو رضا العبد بما يأمره به وينهاه عنه ، ويقسّمه له وَيُقَدِّره عليه ، ويُعطيه إياه ويمنعه منه . فمتىٰ لم يرضَ بذلك كلّه ، لم يكن قد رضي بالله ربًّا من جميع الوجوه . وإن كان راضيًا به ربًّا من بعضها . فالرضا به ربًّا من كلّ وجهٍ : يستلزم الرضا عنه ، ويتضمَّنه بلا ريبٍ .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا متعلّق بذاته وصفاته وأسمائه ، وربوبيته العامّة والخاصّة . فهو الرضا به خالقًا ومدبِّرًا ، وآمرًا وناهيًا ، وملِكًا ومعطيًا ومانعًا ، وحكمًا ، ووكيلًا ووليًّا ، وناصرًا ومعينًا ، وكافيًا وحسيبًا ورقيبًا ، ومبتليًا ومعافيًا ، وقابضًا وباسطًا ، إلى غير ذلك من صفات ربوبيّته .

وأما الرضا عنه : فهو رضا العبد بما يفعله به ، ويُعطيه إياه . ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **يَـٰأَيَّتُهَا النفسُ المطمئنة** ﴾

ارجعي إلىٰ ربِّك راضيةً مَرْضيةً ﴾ [الفجر : ٢٧ ، ٢٨] . فهذا برضاها عنه لِمَا حصل لها من كرامته ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **خالدينَ فيهَا أبدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] .

والرضا به : أصل الرضا عنه ، والرضا عنه : ثمرة الرضا به .

وسرُّ المسألة : أنّ الرضا به متعلّق بأسمائه وصفاته ، والرضا عنه : متعلّق بثوابه وجزائه .

وأيضًا : فإنَّ النبي ﷺ علّق ذوْق طعْم الإيمان بمَن رضي بالله ربًّا ، ولم يعلِّقه بمَن رضي عنه ، كما قال ﷺ : « ذاقَ طعمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا » . فجعل الرضا به قرينَ الرضا بدينه ونبيّه ، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام ، التي لا يقوم إلا بها وعليها .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا يتضمَّن توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وخوفه ورجاءه ومحبته ، والصبر له وبه . والشكر على نعمه : يتضمَّن رؤية كلّ ما مِنْهُ نعمةً وإحسانًا ، وإن ساء عبدَهُ . فالرضا به يتضمَّن « شهادة أن لا إلٰـه إلا الله » ، والرضا بمحمد رسولًا يتضمَّن « شهادة أن محمدًا رسول الله » ، والرضا بالإسلام دينًا : يتضمَّن التزام عبوديته ، وطاعته وطاعة رسوله . فجمعت هذه الثلاثة الدين كلَّه .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا يتضمَّن اتخاذه معبودًا دون ما سواه ، واتخاذه وليًّا ومعبودًا ، وإبطال عبادة كل ما سواه . وقد قال تعالىٰ لرسوله : ﴿ **أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَمًا** ﴾ [الأنعام : ١١٤] . وقال : ﴿ **أغيرَ اللهِ أتخذُ وليًّا** ﴾ [الأنعام : ١٤] . وقال : ﴿ **قُلْ أغيرَ اللهِ أبغي ربًّا وهُو ربُّ كلِّ شيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] . فهذا هو عين الرضا به ربًّا .

وأيضًا : فإنَّه جعل حقيقة الرضا به رَبًّا : أن يسخط عبادة ما دونه . فمتىٰ سخط العبد عبادة ما سوىٰ الله من الآلهة الباطلة ، حبًّا وخوْفًا ، ورجاءً وتعظيمًا ، وإجلالًا - فقد تحقّق بالرضا به ربًّا ، الذي هو قطْب رحىٰ الإسلام .

وإنما كان قطبَ رحىٰ الدين ؛ لأنَّ جميع العقائد والأعمال ، والأحوال : إنما تنبني علىٰ توحيد الله عز وجل في العبادة ، وسخْط عبادة ما سواه ، فمَن لم يكنْ له هذا القطْب ، لم يكنْ له رَحَىٰ تدور عليه ، ومَن حصل له هٰذا القطْب ، ثبتتْ له الرحىٰ ، ودارت علىٰ ذلك القطب ، فيخرج حينئذ مِن دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام ، فتدور رحىٰ إسلامه وإيمانه على قطْبها الثابت اللازم .

وأيضًا : فإنّه جعل حصول هذه الدرجة مِن الرضا موقوفًا علىٰ كون المرضيّ به ربًّا - سبحانه - أحبَّ إلى العبد مِن كلّ شيء ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية ، وينتظم فروعها وشُعَبها .

ولمّا كانت المحبَّة التامّة ميلَ القلب بكلّيّته إلى المحبوب ، كان ذلك الميل حامِلًا على طاعته وتعظيمه ، وكلّما كان الميْلُ أقوىٰ ، كانت الطاعة أتمَّ ، والتعظيم أوفرَ . وهذا الميل يُلازم الإيمان ، بل هو رُوح الإيمان ولُبُّه ، فأي شيءٍ يكون أعلىٰ من أمرٍ يتضمَّن أنْ يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ؟!

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان ؛ كما في الصحيح عنه ﷺ ، أنه قال : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما ، ومَن كان يحبّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، ومَن كان يكره

أن يرجع إلى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقىٰ في النار » .

فعلّق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا ، وعلّق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ، ولا يتمّ إلا به ، وهو كونه سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد هو ورسولُه .

ولمّا كان هذا الحبُّ التامّ ، والإخلاص - الذي هو ثمرته - أعلىٰ من مجرَّد الرضا بربوبيته سبحانه ، كانت ثمرته أعلىٰ ، وهي وَجْد حلاوة الإيمان . وثمرة الرضا : ذوْق طعْم الإيمان ، فهذا وَجْدُ حلاوة ، وذلك ذوْق طعمٍ . والله المستعان .

وإنما ترتّب هذا وهذا علىٰ الرضا به وحده ربًّا ، والبراءة من عبودية ما سواه ، ومَيْل القلب بكلّيّتهِ إليه ، وانجذاب قُوَىٰ المحبِّ كلِّها إليه . ورضاه عن رَبِّه تابعٌ لهذا الرضا به . فمن رضي بالله ربًّا ، رضيه اللهُ له عبدًا . ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته ، لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه ، إن لم يرضَ به ربًّا ، وبنبيّه رسولًا ، وبالإسلام دينًا . فإن العبد قد يرضىٰ عن الله ربِّه فيما أعطاه وفيما منعه ، ولكن لا يرضىٰ به وحده معبودًا وإلـٰهًا . ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا . كما قال النبي ﷺ : « مَنْ قال كلَّ يوم : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ، إلّا كان حقًّا علىٰ الله أنْ يُرضيه يوم القيامة »[١] .

وبالرِّضا نَطَقَ التنزيل :

قال تعالىٰ : ﴿ **هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز**

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨١ - ١٨٧ .

العظيم ﴾ [المائدة : ١١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه** ﴾ [البينة : ٨] .

فتضمَّنتْ هذه الآياتُ جزاءَهم على صدقهم وإيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، ومجاهدة أعدائه ، وعَدَم ولايتهم ، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم ، فرضوا عنه . وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ، وبالإسلام دينًا .

الرضا بالله ، والرضا عن الله ، والرضا بقضاء الله :

الرضا به فَرْض ، والرضا عنه ، وإن كان من أجَلِّ الأمور وأشرف أنواعِ العبودية ، فلم يُطالب به العمومَ لعجزهم ومشقَّته عليهم ، وأوجبتْهُ طائفةٌ ، كما أوجبوا الرضا به . والرضا بالقضاء من مقامات الصِّدِّيقين ، وفيه تفصيلٌ ، فاختيار الرب تعالىٰ لعبده نوعان ؛ أحدهما : اختيار ديني شرعي . فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سَيِّدُه . قال تعالىٰ : ﴿ **وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضىٰ الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم** ... ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . فاختيار العبدِ خلافَ ذلك ، مُنافٍ لإيمانه وتسليمه ، ورضاه بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا . النوع الثاني : اختيارٌ كونيٌّ قَدَرِيّ ، لا يسخطه الرب ، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده ، فهذا لا يضرُّه فِراره منها إلى القَدَر الذي يرفعها عنه ، ويدفعها ويكشفها . وليس في ذلك مُنازَعة للربوبية ، وإن كان فيه

منازعة للقَدَر بالقَدَر . فهذا يكون تارةً واجبًا ، وتارةً يكون مستحبًّا ، وتارة يكون مباحًا مستوي الطرفيْن ، وتارة يكون مكروهًا ، وتارة يكون حرامًا . وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ، مثل قَدَر المعائب والذنوب ، فالعبد مأمور بسخطها ، ومنهيٌّ عن الرضا بها . وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء .

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابًا عظيمًا ، ونجا منه أصحاب الفَرْق والتفصيل .

والذي يكشف هذه الغمة ، ويُبصِّر من هذه العماية ، ويُنجِّي من هذه الورطة إنما هو التفريقُ بين ما فرَّق الله بينه ، وهو المشيئة والمحبة ، فإنهما ليسا واحدًا ، ولا هما متلازميْن ، بل قد يشاء ما لا يحبه ، ويحب ما لا يشاء كوْنه . فالأول : كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامّة لجميع ما في الكون ، مع بغضه لبعضه . والثاني : كمحبَّته إيمان الكفار ، وطاعات الفُجّار ، وعدْل الظالمين ، وتوبة الفاسقين . ولو شاء ذلك ، لوجِد كلُّه، وكان جميعُه ، فإنه ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكُن. فإذا تقرَّر هذا الأصل ، وأن الفِعْلَ غيرُ المفعول ، والقضاءَ غيرُ المقضيّ ، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه - زالت الشبهاتُ وانحلَّتِ الإشكالاتُ ، ولله الحمد . ولم يبق بين شَرْع الرَّبِّ وقَدَره تناقض ، بحيث يُظَنّ إبطالُ أحدهما للآخر ، بل القَدَر ينصرُ الشَّرْع ، والشرع يُصَدِّق القدر ، وكلٌّ منهما يُحقِّق الآخر . إذا عُرف هذا ، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجبٌ ، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان ، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرجٍ ولا منازعة ، ولا معارضةٍ ولا اعتراض . قال الله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلِّموا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكّموا رسوله ﷺ ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حُكمه ، وحتى يُسلّموا لحُكمه تسليمًا . وهذا حقيقة الرضا بحُكمه .

فالتحكيم : في مقام الإسلام . وانتفاء الحرج : في مقام الإيمان . والتسليم : في مقام الإحسان .

ومتىٰ خالطَ القلبَ بشاشةُ الإيمان ، واكتحلتْ بصيرتُه بحقيقة اليقين ، وحيي برُوح الوحي ، وتمهَّدتْ طبيعتُه ، وانقلبت النفسُ الأمَّارةُ مطمئنةً راضية وادعة ، وتلقَّى أحكام الرَّبِّ تعالىٰ بصدرٍ واسع منشرح مسلِّم - فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله . والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة ، والغنىٰ ، والعافية ، واللَّذَّة - أمرٌ لازم بمقتضىٰ الطبيعة ؛ لأنه ملائم للعبد ، محبوبٌ له ، فليس في الرضا به عبودية ، بل العبودية في مُقابلته بالشُّكر ، والاعتراف بالمنَّة ، ووضْع النعمة مواضعها التي يحب الله أن تُوضع فيها ، وأن لا يعصي المنعم بها ، وأن يرىٰ التقصير في جميع ذلك . والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ، مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره - مستحبٌّ . وهو من مقامات أهل الإيمان ، وفي وجوبه قولان . وهذا كالمرض والفقر ، وأذَى الخلْق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك . والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ، مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهىٰ عنه ، كأنواع الظلم والفسوق والعصيان - حرامٌ يُعاقب عليه ، وهو مخالفة لربه تعالىٰ ؛ فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟! فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء[1] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨٧ - ١٩٣ .

الرضا عن الله يصحُّ بثلاثة شروط :

الأول : استواء النعمة والبليَّة عند العبد ؛ لأنه يشاهد حُسن اختيار الله له .

الثاني : سقوط الخصومة عن الخلْق ، إلَّا فيما كان حقًّا لله ورسوله ، فالراضي لا يُخاصم ولا يُعاتب إلَّا فيما يتعلّق بحق الله ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ، فإنه لم يكن يخاصم أحدًا ولا يُعاتبه إلَّا فيما يتعلَّق بحق الله ، كما أنه كان لا يغضب لنفسه ، فإذا انتُهكتْ محارمُ الله لم يقُم لغضبه شيءٌ حتى ينتقم لله . فالمخاصمة لحظِّ النَّفْس تُطفئ نور الرضا وتُذهب بهجته ، وتُبدِّل بالمرارة حلاوته ، وتُكدِّر صَفْوه .

والشرط الثالث : الخلاص من المسألةِ للخلْق والإلحاح . قال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياءَ من التَّعفُّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] . قال ابن عباس : إذا كانَ عنده غداء لم يسأل عشاءً ، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداءً .

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : « يا حكيم ، إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلوة ، فمن أخذه بسخاوةِ نَفْسٍ ، بُورك له فيه . ومن أخذه بإشرافِ نفسٍ ، لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع . واليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفلى » . قال حكيم : فقلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا . وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء ، فيأبى أن يقبله منه . ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه ، فأبى أن يقبل منه شيئًا ، فقال عمر : إني أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم : أني أعرضُ عليه حقَّه من هذا الفيء ، فيأبى أن يأخذه .

فلم يَرْزأ حكيم - رضي الله عنه - أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي . متفق على صحته .

وعن أبي مسلم الخَوْلاني رضي الله عنه قال : حدَّثني الحبيب الأمين - أمّا هو : فحبيب إليَّ ، وأمّا هو عندي : فأمين ؛ عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . وكنا حديثي عهدٍ ببيعته ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . قال : فبسطنا أيدينا ، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلامَ نبايعكَ ؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا الله - وأسَرَّ كلمةً خفيَّة - ولا تسألوا الناس شيئًا ». فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوْط أحدهم ، فما يسأل أحدًا يناوله إيّاه » . رواه مسلم .

وعن ثوبانَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يتقبّل لي بواحدة ، وأتقبل له بالجنة ؟ » قلت : أنا . قال : « لا تسألِ الناس شيئًا » . فكان ثوبان يقعُ سوطه ، وهو راكب ، فلا يقول لأحد : ناولنيه . حتى ينزل هو فيتناوله . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

تَذْكِرة لعُلاة الهمَّة :

مراتب الرضا عن الله،والرحمة عند المصائب :

قد تنزل بالإنسان مصيبة كموت ولدٍ ، فيبكي رحمةً للصَّبِّي ، وهذا لا يُنافي مقام الرضا ، فقد بكى رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم ، وأخبر أن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلَّا ما يُرضي الرَّبّ .

والرسول ﷺ في أعلى مقامات الرضا . وأقل منه درجة الفضيل بن

عياض ، لما مات ابنه رُئِيَ في الجنازة ضاحكًا ، فقيل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال : إن الله قضىٰ بقضاءٍ ، فأحببت أن أرضىٰ بقضائه .

والتحقيق : أن قلب رسول الله ﷺ اتّسع لتكميل جميع المراتب ، من الرضا عن الله ، والبكاء رحمةً للصبي ، فكان له مقام الرضا ، ومقام الرحمة ورقّة القلب . والفضيل لم يتّسع قلبه لمقام الرضا ومقام الرحمة ، فلم يجتمع له الأمران . والناس في ذلك على أربع مراتب : أحدها : من اجتمع له الرضا بالقضاء ورحمة الطفل ، فدمعت عيناه رحمةً والقلب راضٍ . الثاني : من غَيَّبه الرضا عن الرحمة ، فلم يتّسِع للأمرين ، بل غيَّبه أحدُهما عن الآخر . والثالث : من غيَّبتْه الرحمة والرِّقّة عن الرضا فلم يشهدْه ، بل فني عن الرضا . الرابع : من لا رضا عنده ولا رحمة ، وإنما يكون حزنه لفوات حظِّه من الميِّت . وهذا حال أكثر الخلْق ، فلا إحسان ، ولا رضا عن الرحمـٰن . والله المستعان .

فالأول في أعلى مراتب الرضا . والثاني دونه . والثالث دون الثاني . والرابع هو الساخط .

يقول ابن القيم في مدارج السالكين ٢ / ٢١١ - ٢١٢ : « إن الرضا معقد نظام الدين ظاهره وباطنه ، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع ، فتنقسم قسمين : دينية ، وكونية . وهي مأمورات ، ومنهيات ، ومباحات ، ونعم مُلذَّة ، وبلايا مؤلمة . فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله ، فقد أخذ بالحظِّ الوافر من الإسلام وفاز بالقدح المُعَلَّى » .

الرضا مقام رفيع يليق بعالي الهمَّة :

إن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلىٰ المقامات ، فإن عجز العبد عنه ، حطَّهُ إلى المقام الوسط ، كما قال : « اعبد الله كأنك تراه » . فهذا مقام

المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . فحطَّهُ عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، وهو العلم باطِّلاع الله عليه ورؤيته له ، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء . وكذا الحديث الآخر : « إن استطعتَ أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل . فإن لم تستطع ، فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا » . فرفعه إلى أعلىٰ المقامات ، ثم ردَّه إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى . فالأول : مقام الإحسان . والذي حطَّه إليه : مقام الإيمان . وليس دون ذلك إلا مقام الخسران .

كما أنه ﷺ أثنىٰ على الراضين بمُرِّ القضاء ، بالحكم والعلم والفقه والقُرب من درجة النبوة ، كما في حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ . فقال « ما أنتم ؟ » . فقالوا : مؤمنون . فقال : « ما علامة إيمانكم ؟ » . فقالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمُرِّ القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء . فقال : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » . والرضا آخِذٌ بزمام مقامات الدِّين كلها ، وهو رُوحُها وحياتها ، فإنه روح التَّوكُّل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة ، وصحة المُحِبّ ، ودليل صدق المحبة ، وروح الشكر ودليله .

قال الربيع بن أنس : علامة حب الله : كثرة ذكره ؛ فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرتَ من ذِكْره . وعلامة الدِّين : الإخلاص لله في السر والعلانية. وعلامة الشكر : الرضا بقَدَرِ الله والتسليم لقضائه .

وقال أحمد بن أبي الحواري : ذاكرتُ أبا سليمان في الخبر المرويّ : « أول مَنْ يُدْعَىٰ إلى الجنة الحمَّادون » . فقال : ويحك ، ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصَّى عليك ، إذا كنت كذلك فارجع إلى

الصابرين ، إنما الحمد : أن تحمده وقلبك مسلِّم راضٍ .

فصار الرضا كالروح لهذه المقامات ، والأساس الذي تنبني عليه ، ولا يصحّ شيء منها بدونه ألبتة . والله أعلم .

والرضا يقوم مقام كثير من التَّعبُّدات التي تشقّ على البدن ، فيكون رضاه أسهل عليه ، وألذَّ له ، وأرفع في درجته . وقد ذُكر في أثر إسرائيلي : أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا ، فأُرِيَ في المنام : أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها ، إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة ، ويظلّ صائمًا وتظلّ مفطرة ، فقال لها : أما لك عمل غير ما رأيت ؟ قالت : ما هو والله غير ما رأيت - أو قالت : إلّا ما رأيت - لا أعرف غيره . فلم يَزَل يقول لها : تذكَّري . حتى قالت : خُصَيْلة واحدة هي فيَّ ، وذلك أني إن كنتُ في شدَّةٍ ، لم أتمنّ أني في رخاء . وإن كنتُ في مرضٍ ، لم أتمنّ أني في صحةٍ . وإن كنت في الشمس ، لم أتمنّ أني في الظِّل . قال : فوضع العابد يده على رأسه . وقال : أهذه خصيلة ؟! هذه والله خصلةٌ عظيمة يعجز عنها العُبَّاد .

وفي وصية لقمان لابنه : « أوصيك بخصالٍ تقرِّبك من الله ، وتُباعِدك من سخطه : أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا . وأن ترضىٰ بقدر الله فيما أحببت وكرهت » .

وقال بعض العارفين : مَنْ يتوكَّلْ على الله ، ويَرْضَ بقدر الله ، فقد أقام الإيمان ، وفرغ يديه ورجليْه لكسْب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره .

والرضا يفتح باب حُسن الخلق مع الله تعالىٰ ومع الناس ، فإن حُسن الخلق من الرضا ، وسوء الخلق من السخط . وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وسوء الخلق يأكُل الحسناتِ كما تأكل النار الحطب .

والرضا يُثمِر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وَطِيبَ النفس وسكونها في كلِّ حال ، وطُمأنينة القلب عند كل مفزعٍ مُهْلِع من أمور الدنيا ، وبرد القناعة ، واغتباط العبد بقَسْمه من ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلامه لمولاه في كل شيء ، ورضاه منه بما يُجريه عليه ، وتسليمه له الأحكام والقضايا ، واعتقاد حسن تدبيره ، وكمال حكمته ، ويُذهب عنه شكوى ربّه إلى غيره وتبرُّمه بأقْضِيَتِهِ ، ولهذا سمَّى بعضُ العارفين الرضا : حسن الخلق مع الله ؛ فإنه يُوجِب تَرْك الاعتراض عليه في ملكه ، وحذْف فضول الكلام التي تقدح في حُسن خُلقه ، فلا يقول : ما أحوج الناس إلى مطر . ولا يقول : هذا يومٌ شديد الحرّ ، أو شديد البرد . ولا يقول : الفقر بلاء ، والعيال هَمٌّ وَغَمّ . ولا يُسَمِّي شيئًا قضاه الله وقَدَّره باسمٍ مذمومٍ إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالىٰ ، فإن هذا كلَّه يُنافي رضاه .

قال ابن أبي الحواري - أو قيل له - : إن فلانًا قال : وددت أن الليل أطول مما هو . فقال : قد أحسن ، وقد أساء ؛ أحسن حيث تمنَّى طُولَهُ للعبادة والمناجاة ، وأساء حيث تمنَّى ما لم يُرِده الله ، وأحبَّ ما لم يحبّه الله .

« وقال عمر بن الخطاب يومًا لامرأته عاتكة - أُختِ سعيد بن زيد - وقد غضب عليها : والله لأَسُوأَنَّكِ . فقالت : أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام ، بعد إذ هداني الله له ؟ قال : لا . فقالت : فأي شيءٍ تسوءني به إذًا ؟! ». تريد أنها راضية بمواقع القدر ، لا يسوءها منه شيء إلَّا صَرْفها عن الإسلام . ولا سبيل له إليه .

وقال الثوري يومًا عند رابعةَ : اللهمَّ ارْضَ عنَّا . فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك ، وأنت غير راضٍ عنه ؟ فقال : أستغفر الله . ثم قال لها جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضيًا عن الله ؟ فقالت : إذا كان

سروره بالمصيبة مِثْل سروره بالنعمة .

ما لأولياء الله والهمّ بالدنيا ؟! إن الهمَّ بالدنيا يُذهب حلاوة المناجاة من قلوبهم . أولياء الله أرْضَىٰ عنه من أن يسألوه أن ينقلهم إلى معيشةٍ حتى يكون هو الذي يختار لهم .

والرغبةُ إلى الله عز وجل ولوازمُها : صفةُ أهل الهمَّة ، وهذه الرغبة ولوازمها لا تتمّ إلا باليقين والرضا عن الله ، ولهذا قال سهل : حظُّ الخلْق من اليقين على قدْر حظِّهم من الرضا ، وحظُّهم من الرضا على قدْر رغبتهم في الله .

ومما يدل على علوّ قدر الرضا ، وأنه بأهل الهمم العالية : « أن النبي ﷺ سأل الله الرضا بالقضاء ، كما في المسند والسنن : « اللهم بعِلْمِك الغيبَ ، وقُدْرَتِكَ على الخلْق ، أحْيِني إذا كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفَّنِي إذا كانت الوفاة خيرًا لي . وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة . وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا . وأسألك القصْد في الفقر والغنى . وأسألك نعيمًا لا ينفد . وأسألك قُرَّة عينٍ لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء . وأسألك بَرْد العيش بعد الموت . وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك الكريم . وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّة ، ولا فتنة مُضِلَّة . اللهم زَيِّنَا بزينة الإيمان . واجعلنا هُداةً مهتدين »[1] . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول : سأله الرضا بعد القضاء ؛ لأنه حينئذٍ تبيَّن حقيقة الرضا . وأمَّا الرضا قبله : فإنما هو عزْم على أنه يرضى إذا أصابه . وإنما يتحقَّق الرضا ....

(١) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٣٠١) .

بعــده »[١] .

يا عالي الهِمَّة ، ليس لأعمال القلوب نهاية :

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « إن أعمال الجوارح تُضاعَف إلى حدٍّ معلومٍ محسوبٍ ، وأمَّا أعمال القلوب ، فلا ينتهي تضعيفها ؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حَدٌّ تنتهي إليه وتقف عنده ، فيكون جزاؤها بِحَسَب حدِّها ، وأمَّا أعمال القلوب ، فهي دائمةٌ مُتَّصِلة ، وإنِ تَوَارَى شهود العبد لها . مثاله : أن المحبة والرضا حال المحبِّ الراضي ، لا تُفارقه أصلًا ، وإن توارَى حُكمها ، فصاحبها في مزيدٍ مُتَّصِل . فمزيد المحب الراضي : متّصل بدوام هذه الحال له ، فهو في مزيدٍ ، ولو فَترتْ جوارحه ، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيدِ كثيرٍ من أهل النَّوافل بما لا نِسْبَةَ بينهما ، ويبلُغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيدُه في حال نومه ، أكْثَر من مزيدِ كثيرٍ من أهل القيام ، وأكْلُه أكْثَر من مزيدِ كثيرٍ من أهل الصِّيام والجوع . فإن أنكرتَ هذا ، فتأمَّلْ مزيد نائمٍ بالله ، وقيام غافلٍ عن الله . فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم ، لا إلى صُوَر الأعمال . وقيمةُ العبد : همَّتُه وإرادته . فمن لا يُرضيه غير الله ، ولو أُعطي الدنيا بحذافيرها ، له شأنٌ . ومن يُرضيه أدنىٰ حظٍّ من حظوظها ، له شأن . وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة . وقد تكون أعمال المُلتفِت إلى الحظوظ أكثر وأشق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألةٍ ، وهي : هل للرضا حدٌّ ينتهي إليه ؟ فقال أبو سليمان الداراني : ثلاث مقاماتٍ لا حدَّ لها : الزهد ، والورع ، والرضا . وخالفه سليمانُ ابنُهُ – وكان عارفًا ، حتى إن من الناس من كان

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٣ .

يُقدِّمه على أبيه – فقال : بل مَنْ تورَّع في كل شيءٍ ، فقد بلغَ حدَّ الورع . ومَنْ زهد في غير الله ، فقد بلغَ حدَّ الزهد . ومن رضي عن الله في كل شيء ، فقد بلغَ حدَّ الرضا »[١].

أهل الرِّضا وعلوّ همَّتهم :

الخليل إبراهيم عليه السلام :

عن أبي رجاء محمد بن سيف قال : سمعت الحسن يقول في قوله : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ** ... ﴾ . قال : « ابتلاه بالكوكب فرضي عنه ، وابتلاه بذبح ابنه فرضي عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه ، وابتلاه بالنار فرضي عنه ، وابتلاه بالختان »[٢].

سعد بن أبي وَقَّاص :

« لمَّا قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كُفَّ بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه ، كلّ واحدٍ يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام ، فتعرَّفت عليه فعرفني وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم . فذكر قصةً قال في آخرها : فقلت له : يا عمّ ، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك ، فردَّ الله عليك بصرك ! فتبسَّم وقال : يا بُنيَّ ، قضاء الله سبحانه عندي أَحْسَنُ من بصري »[٣].

عمران بن حُصَين :

« عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : « أتيت عمران بن حصين

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٢) صحيح وإسناده حسن . انظر الرضا عن الله لابن أبي الدنيا .

(٣) الإحياء ٤ / ٣٦٨ ، ومدارج السالكين ٢ / ٢٢٧ .

يومًا ، فقلت له : إني لأدع إتيانك لِمَا أراك فيه ، ولما أراك تَلْقَىٰ . قال : فلا تفعل ، فوالله إن أَحَبَّهُ إليَّ أحبّه إلى الله »[1].

« كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنُه ، فبقي مُلقًى على ظهره ثلاثين سنةً ، لا يقوم ولا يقعد ، قد نُقِب له في سريرٍ من جريدٍ كان عليه - موضعٌ لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحالة العظيمة . قال : لا تبكِ ، فإن أَحَبَّهُ إلى الله تعالىٰ ، أحبّه إليَّ . ثم قال : أُحدِّثك حديثًا لعلَّ الله أن ينفعك به ، واكْتُمْ عليَّ حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فآنَسُ بها ، وتُسلِّم عليَّ فأسمع تسليمها ، فأعلمُ بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبةٍ ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا في بلائه ، كيف لا يكون راضيًا به ؟! »[2].

أبو الدرداء رضي الله عنه :

عن سعيد بن مرثد الهمداني ، أن أبا الدرداء قال : « ذروة الإيمان أربع خلالٍ : الصبر للحُكم ، والرضا بالقدر ، والإخلاص للتّوكُّل ، والاستسلام للرَّبِّ عزَّ وجل »[3].

* * *

(١) الرضا عن الله صـ ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) الإحياء .
(٣) إسناده صحيح : وأخرجه ابن المبارك ١٢٣ ، كما في زوائد نعيم بن حماد ، وزاد : « ولولا ثلاث خلالٍ ، صلُح الناس : شحٌّ مطاع ، وهوًى مُتَّبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .
انظر الرضا عن الله صـ ٩١ تحقيق مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .

عمر بن عبد العزيز :

عن يحيىٰ بن سعيد قال : قال عمر بن عبد العزيز : « ما لي في الأمور هوًى سوىٰ مواضع قضاء الله عز وجل فيها » . وفي رواية : « ما لي هوًى في شيءٍ سوىٰ ما قضىٰ الله عزّ وجل »(١).

وقال سليمان بن حبيب: «لمَّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز(٢)، دخل عليه سليمان بن الغاز فعزَّاه ، فقال عمر : وأنا أعوذ بالله أن يكون لي محبَّةٌ في شيءٍ من الأمور يخالف محبة الله ؛ فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي ، وإحسانه إلَّي »(٣).

وعن عبد العزيز بن سبرة عن أبيه عن جده قال : « لمَّا هلك عبدُ الملك ابن عمر بن عبد العزيز ، وسهلُ بن عبد العزيز ، ومزاحمٌ مولى عمر ، في أيامٍ متتابعة ، دخل عليه الربيع بن سبرة فقال : عظَّم الله أجرك يا أمير المؤمنين ، ما رأيت أحدًا أُصيب بأعظم من مصيبتك في أيامٍ متتابعة ، والله ما رأيت مِثْل ابنك ابنًا ، ولا مثْل أخيك أخًا ، ولا مثل مولاك مولًى قطُّ . فطأطأ رأسَهُ ، فقال لي رجل معه على الوساد : لقد هيَّجتَ عليه . قال : ثم رفع رأسه فقال : كيف قلتَ لي يا ربيع ؟ فأعدتُ عليه ما قلت أولًا ، فقال : لا ، والذي قضىٰ عليه – أو قال : عليهم – الموت ، ما أُحبّ أن شيئًا كان من ذلك لم يكن »(٤).

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : « لقد تركتني هؤلاء الدعوات ،

---

(١) إسناده صحيح ، والرواية الأخيرة للبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) كان من الزاهدين ، ومات قبل أبيه .

(٣) الرضا عن الله صـ ١١٢ .

(٤) إسناده لا بأس به .

وما لي شيءٍ من الأمور كلها أربٌ إلَّا في مواقع قَدَر الله . وكان كثيرًا ما يدعو : اللهم رضِّني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحبّ تعجيل شيءٍ أخَّرتَهُ ، ولا تأخير شيءٍ عجَّلتَهُ »[١].

أبـو العاليـة :

قال سيار بن سلامة : « دخل رجل على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه ، فقال : إن أحبَّه إليَّ ، أحبُّه إلى الله عزَّ وجل »[٢].

أبو معاوية الأسود :

قال عمرو بن أسلم العابد : « سمعت أبا معاوية الأسود يقول في قوله : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً** ﴾ [النحل : ٩٧] . قال : الرضا والقناعة »[٣].

الربيع بن خثيم :

عن الأعمش بن عمرو بن مرة قال : « كان الربيع بن خثيم قد أصابه فالج ، قال : فسال من فيه ماء فجرى على لحيته ، فرفع يده فلم يستطع أن يمسحه ، فقام إليه بكر بن ماعز فمسحه عنه ، فلحظَهُ ربيعٌ ثم قال : يا بكر ، والله ما أُحبُّ أن هذا الذي بي بأعتى الدَّيْلم[٤] على الله »[٥].

وكان الربيع - رحمه الله - يقول في شدَّة مرضه : ما أُحبّ أن الله نقصني منه قُلامة ظفر .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٥ .

(٢) الرضا عن الله صـ ٧٤ .

(٣) إسناده حسن . وبنفس القول قال علي بن أبي طالب وابن عباس وعكرمة ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظي .

(٤) أي بأشد الأعداء . وفي الحلية : « بأغنى الديلم » . الرضا عن الله صـ ١٠٧ .

(٥) الرضا عن الله صـ ١٠٦ ، ١٠٧ .

سويد بن مثعبة :

عن أبي حيّان التيمي قال : « دخلوا على سويد بن مثعبة ، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله وأهله ، يقول له : نفسي فداؤك ، أما نُطعمك ؟ أما نسقيك ؟ قال : فأجابه بصوتٍ له ضعيف : دَبِرَت الحراقفُ وطالت الضَّجعة ، والله ما يسرُّني أن الله نقصني منه قَدْر قُلامة »(١).

أم الأسود بن يزيد :

عن إبراهيم النَّخَعيّ : « أن أم الأسود قُعدت من رجليها ، فجزعتْ ابنة لها ، فقالت : لا تجزعي ، اللهم إن كان خيرًا فزِدْ »(٢).

محمد الباقر :

عن سفيان بن عيينة ، عن رجل ، عن محمد بن علي بن الحسين أبي جعفر الباقر : « أن بعض أهله اشتكى فوجد عليه ، ثم أخبر بموته فسُرِّي عنه ، فقيل له ، فقال : ندعو الله فيما نُحبُّ ، فإذا وقع ما نكره ، لم نُخالف الله فيما أحبَّ »(٣).

الحسن البصري :

قال سفيان : قال الحسن : « من رضي بما قسم الله له ، وَسِعَهُ ، وبارك الله له فيه ، ومن لم يرضَ لم يَسَعْهُ ، ولم يبارك له فيه »(٤).

* * *

(١) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ١٠٨ .
(٢) إسناده صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) صحيح . الرضا عن الله صـ ١١٦ .
(٤) إسناده حسن . الرضا عن الله صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .

سفـيان :

عن الحسن ، عن سفيان قال : « سمعت المفسِّرين من كل جانب يقولون في قوله : ﴿ أغنىٰ ﴾ [النجم : ٤٨] : أرضىٰ . قال سفيان : لا يكون غنيًّا أبدًا حتى يرضىٰ بما قسم الله له ، فذلك الغِنَىٰ »(١).

وعن مصعب بن ماهان ، عن سفيان ، في قوله : ﴿ وبشّر المخبتين ﴾ [الحج : ٣٤] قال : المطمئنّين ، الراضين بقضائه ، المستسلمين له .

الفضيل بن عياض :

قال الفضيل : « إن لم تصبر على تقدير الله ، لم تصبر على تقدير نفسك »(٢) .

قال الفضيل بن عياض لبشرٍ الحافي : « الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته »(٣) .

قال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول : « الراضي لا يتمنّى فوق منزلته » .

وهيب بن الورد :

اجتمع وهيب بن الورد ، وسفيان الثوريّ ، ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري : قد كنت أكره موت الفُجَاءَة قبل اليوم ، وأمَّا اليوم فوددتُ أني مَيِّتٌ . فقال له يوسف بن أسباط : وَلِمَ ؟ فقال : لِمَا أتخوَّف من الفتنة . فقال يوسف : لكني لا أكره طُول البقاء . فقال الثوري : ولِمَ تكره الموت ؟

---

(١) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ١٢٣ .
(٢) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٣) مدارج السالكين ٢ / ١٧٧ .

قال : لعلّي أصادِفُ يومًا أتوب فيه وأعملِ صالحًا . فقيل لوهيب : أيّ شيءٍ تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئًا ، أَحَبُّ ذلك إلَيَّ أَحَبُّهُ إلى الله . فقبَّل الثوريُّ بين عينيْه . وقال : روحانيةٌ وربِّ الكعبة[١].

وكان وهيب - رحمه الله - له المقام العالي من الرضا وغيره .

عبد اللّـه بن المبـارك :

عن حفص بن حميد قال : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة ، حين ماتت امرأتُه ، فسألتُه : ما الرضا ؟ قال : « الرضا : لا يتمنَّى خلاف حاله »[٢].

مالك بن دينار ومحمد بن واسع :

قال ابن شوذب : « اجتمع مالك بن دينار ، ومحمد بن واسع فتذاكرا العيش ، فقال مالكٌ : ما شيءٌ أفضل من أن يكون للرجل غلَّة يعيش فيها . وقال محمد : طوبى لمن وجد غداءً ولم يجد عشاء ، ووجد عشاء ولم يجد غداءً ، وهو عن الله - عز وجل - راضٍ . أو فقال : والله عنه راضٍ »[٣]. وزاد أبو نعيم : فانصرف القوم وهم يَرَوْن أن محمدًا أقوى الرجلين .

ونظر رجل إلى قرحة في رِجْل محمد بن واسع ، فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة . فقال : « إني لأشكرها منذ خرجتْ إذ لم تخرج في عيني »[٤].

* * *

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢١٥ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٢ ، ٥٣ ، والحلية .
(٤) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .

بشـير الطـبريّ :

عن أبي عمرو الكِنْدِي قال : « أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري نحوًا من أربعمائة جاموس . قال : فاستركبني ، فركبت معه أنا وابنٌ له . قال : فَلَقِيَنَا عبيده الذين كانوا مع الجواميس ، معهم عِصِيّهم ، قالوا : يا مولانا ، ذهبتِ الجواميسُ . فقال : وأنتم أيضًا فاذهبوا معها ، فأنتم أحرارٌ لوجه الله . فقال له ابنه : يا أباه ، أَفْقَرْتَنا ؟ فقال : اسكت يا بُنَيَّ ، إن ربي عز وجل اختبرني ، فأحببتُ[1] أن أزيده »[2] .

يبكي مع استشهاد ابنه :

قال أبو عبد الرحمـٰن حاتم الجرجاني : بلغني : « إن لله تبارك وتعالى عبادًا ، إلا أن بعضهم أرفع من بعض ، ذهبت أُعزِّي رجلًا ، وقد قتلتِ التُّركُ ابنَهُ ، فبكىٰ حيثُ رآني ، فقلت : ما يبكيك ، وقد قُتل ابنك في سبيل الله ؟ قال : يا أبا عبد الرحمـٰن ، أنت تظنُّ أني أبكي لقتله ؟! إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حيث أخذته السيوف »[3] .

أبو عبد الله البراثي :

عن حكيم بن جعفر قال : سمعت أبا عبد الله البراثي يقول : « لن يَرِدَ الآخرة أرْفَع درجاتٍ من الرَّاضِين عن الله عزَّ وجل على كلِّ حال » .

وزاد أبو نعيم في حلية الأولياء وابن الجوزي في صفة الصفوة : « ومن وُهب له الرضا ، فقد بلغَ أفضلَ الدرجات ، ومن زهد على حقيقة كانت

---

(١) في صفة الصفوة : « فأردت » مكان « فأحببت » .

(٢) الرضا عن الله صـ ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) الرضا عن الله صـ ١٠٤ .

مُؤْنَتُه خفيفة ، ومن لم يعرف ثواب الأعمال ثَقُلتْ عليه في جميع الأحوال »[(١)].

أبو عبد الله النِّباجيّ :

قال أبو عبد الله النباجيّ : « إن في خلْق الله خلقًا يستحيون من الصبر ، لو يعلمون أقداره تلقَّفُوها تلقُّفًا »[(٢)].

ميمون بن مِهْران :

قال ميمون بن مهران : « من لم يرضَ بالقضاء ، فليس لحُمقه دواء »[(٣)].

عبد العزيز بن أبي روَّاد :

قال عبد العزيز بن أبي روّاد : « ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخلّ ، ولا في لُبس الصوف والشعر ، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عز وجل »[(٤)].

أعــرابي :

قال الحسن بن علي البصري : أصبح أعرابيٌّ وقد مات له أباعر[(٥)] كثير ، فقال :

لا والذي أنا عَبْدٌ في عبادته ... لولا شماتةُ أعادِيهِ أظنِ
ما سرَّني أنَّ إبْلي في مباركها ... وأنَّ شيئًا قضاه الله لم يكُنِ[(٦)]

---

(١) الرضا عن الله صـ ٦٠ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٧٢ .
(٣) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٤) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٥) جمع بعير .
(٦) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ٤٨ .

شقيق البلخيّ :

قال شقيق البلخيّ : « من يرى ثوابَ الشِّدَّة ، لا يشتهي الخروج منها »[١].

يونس بن عبيد :

قال يونس بن عبيد : ما تمنَّيت شيئًا قطُّ[٢].

غيلان بن جرير :

قال سعيد الراسبي : قال غيلان بن جرير : « من أُعطي الرضا ، والتَّوكُّل ، والتفويض ، فقد كُفي »[٣].

الربيع بن أنس :

قال الربيع بن أنس : « علامة حُبِّ الله : كثرةُ ذكْره ؛ فإنك لا تحبّ شيئًا إلَّا أكثرتَ من ذكْره . وعلامة الدِّين : الإخلاص لله في السِّرِّ والعلانية . وعلامة الشكر : الرضا بقدَر الله والتسليم لقضائه »[٤].

أبو سليمان الدارانيّ :

عن أحمد بن أبي الحواريّ قال : سمعتُ أبا سليمان الدارانيّ قال : « أرجو أن أكون قد رُزقت من الرضا طرفًا ، لو أدخلني النار لكنتُ بذلك راضيًا »[٥] .

---

(١) الإحياء ٤ / ٣٦٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٥ .

(٣) إسناده صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ١٢٦ .

(٤) مدارج السالكين ٢ / ٢١٨ .

(٥) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٠ .

وعنه أيضًا قال : سمعت أبا سليمان يقول : « إذا سلا العبدُ عن الشهوات ، فهو راضٍ »[(١)].

وقال أبو سليمان الداراني : « قد نلت من كل مقامٍ حالًا ، إلَّا الرضا فما لي منه إلَّا مَشامّ الرّيح . وعلى ذلك لو أدخل الخلائقَ كلَّهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنتُ بذلك راضيًا »[(٢)]. قال ابن تيمية : هذا عَزْمٌ منه على الرضا .

عن الحسن قال : « كان رجل بالمصيصة ذاهب النِّصف الأسفل ، لم يبقَ منه إلَّا روحه في بعض جسده ، ضريرٌ على سرير مثقوب ، فدخل عليه داخل فقال له : كيف أصبحتَ يا أبا محمد ؟ قال : مَلِك الدنيا ، منقطعٌ إلى الله ، ما لي إليه من حاجةٍ إلَّا أن يتوفَّاني على الإسلام »[(٣)].

قال محمد بن أبي القاسم مولى بني هاشم : « وعظَ عابدٌ جبّارًا ، فأمر به فقُطعت يداه ورِجْلاه ، وحُمل إلى متعبَّده ، فجاءه إخوانُه يُعَزُّونه فقال : لا تُعَزُّوني ، ولكن هَنِّئوني بما ساق الله إليَّ . ثم قال : إلـٰهي ، أصبحتُ في منزل الرَّغائِب ، أنظرُ إلى العجائب . إلـٰهي ، أنت تودَّد بنعمتك إلى مَنْ يُؤذيك ، فكيف تودُّدك إلى من يُؤذَى فيك ؟! »[(٤)].

وهب بن مُنَبِّه :

عن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه قال : « وجدتُ في زبور داود : يا داود هل تدري مَنْ أسْرَعُ الناس مرًّا على الصراط ؟ الذين

---

(١) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٤ .

(٢) الإحياء ٤ / ٣٦٨ .

(٣) الرضا عن الله صـ ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) الرضا عن الله صـ ٩٧ ، ٩٨ .

يرضَون بحُكمي ، وألسنتهم رطبةٌ من ذكْري »[١].

فتح الموصليّ :

عن الحسين بن عليّ بن يزيد قال : قال رجلٌ لفتح الموصليّ : ادْعُ الله . فقال : « اللهمَّ هِبْنا عطاءَك ، ولا تكشف عنَّا غطاءَك ، وأرضنا بقضائك »[٢].

قال أبو العباس بن عطاء : الفرح في تدبير الله لنا ، والشقاء كله في تدبيرنا .

وقال سفيان بن عيينة : من لم يصلُح على تقدير الله ، لم يصلح على تقدير نفسه .

وقال بعض العارفين : أصل العبادة ثلاثة : لا تَرُدّ من أحكامه شيئًا ، ولا تسأل غيره حاجةً ، ولا تدَّخِر عنه شيئًا .

وسُئل ابن شمعون عن الرضا ؟ فقال : أن ترضى به مُدبِّرًا ومختارًا ، وترضى عنه قاسِمًا ومُعطيًا ومانعًا ، وترضاه إلـٰهًا ومعبودًا وربًّا .

وقيل : الرَّاضي من لم يندم على فائتٍ من الدنيا ، ولم يتأسَّف عليها .

ولله در القائل :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والرَّبُّ ذو قدرٍ ... والدَّهْرُ ذو دُوَلٍ والرِّزقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ في ما اختار خالقُنَا ... وفي اختيارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ والشُّومُ

* * *

(١) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ٧٣ .
(٢) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ١١٥ .

لوْم المقادير لومٌ لمُقدِّرها ، وهو مُنافٍ للعبودية :

فمن لم يرضَ بالقدر ، وقع في لوم المقادير ومقدِّرها ، إما بقالبه وإمَّا بقلبه وحاله .

عن أنس رضي الله عنه : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيءٍ فعلتُه : لِمَ فعلتَهُ ؟ ولا لشيءٍ لك أفْعَلْه : ألا فعلتَهُ ؟ ولا قال لي لشيءٍ كان : ليته لم يكن ، ولا لشيءٍ لم يكن : ليته كان . وكان بعض أهله إذا لامني يقول : « دعوه ، فلو قُضي شيءٌ ، لكان » . فهذا كمال المُوافقة ، يرضى ما رضيه له ربُّه في الحالين .

قال بعض العارفين : ذنبٌ أذنبْتُه ، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة . قيل : وما هو ؟ قال : قلت لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يَقْضِهِ . أو : ليته لم يكُن .

وقال بعض السلف : لو قُرض لحمي بالمقاريض ، كان أحبَّ إليَّ من أن أقول لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يقضه .

احذر أن تكون معاملتك مدخولة :

وقيل لعبد الواحد بن زيد : هاهنا رجل قد تعبَّد خمسين سنة . فقصده فقال له : حبيبي ، أخبرني عنك ، هل قنعتَ به ؟ قال : لا . قال : فهل أنستَ به ؟ قال : لا . قال : فهل رضيتَ عنه ؟ قال : لا . قال : فإنما مزيدُك منه الصوم والصلاة ؟ قال : نعم . قال : لولا أني أستحي منك ، لأخبرتك أنَّ معاملَتَك خمسين سنة : مدخولةٌ .

يعني أنه لم يُقَرِّبه فيجعله في مقام المقرَّبين ، فيوجده مواجيد العارفين ، بحيث يكون مزيده لديه أعمال القلوب ، التي يستعمل بها كلَّ محبوب مطلوب ؛ لأن القناعة حالُ الموفَّق ، والأُنسَ به مقامُ المحبِّ ، والرضا وَصْفُ المتوكِّل . يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين ، فمزيدُك عنده مزيدُ العموم

من أعمال الجوارح .

وقوله : « إن معاملته مدخولة » ، يحتمل وجهين ؛ أحدهما : أنها ناقصة عن معاملة المقرَّبين التي أوجبت لهم هذه الأحوال . الثاني : أنها لو كانت صحيحة سالمة ، لا علَّة فيها ولا غشَّ ، لأثمرتْ له الأُنس والرضا والمحبَّة ، والأحوال العَلِيَّة . فإن الرب تعالىٰ شكور ، إذا وصل إليه عمل عبده جَمَّل به ظاهره وباطنه ، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحَسَب عمله . فحيث لم يجد له أثرًا في قلبه ، من الأُنس والرضا والمحبة ، استدلَّ على أنه مدخول ، غير سالم من الآفات .

لله دَرُّك يا سفيان :

قال سفيان الثوري : « مَنْعُهُ عَطَاءٌ » . وذلك أنه لم يمنع عن بخلٍ ولا عُدْم . وإنما نظر في خير عبده المؤمن ، فمنعه اختيارًا وحُسن نظر . وهذا كما قال ؛ فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً ، إلا كان خيرًا له ، ساءه ذلك القضاءُ أو سرَّه . فقضاؤه لعبده المؤمن المَنْعَ عطاءٌ ، وإن كان في صورة المنع ، ونعمةٌ وإن كانت في صورة محنة ، وبلاؤه عافيةٌ وإن كان في صورة بليَّة . ولكنْ لجهل العبد وظُلمه ، لا يعدّ العطاء والنعمة والعافية ، إلَّا ما التذَّ به في العاجل وكان ملائمًا لطَبْعِه ، ولو رُزق من المعرفة حظًّا وافرًا ، لعَدَّ المنع نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذَّذ بالبلاء أكثر من لذّته بالعافية ، وتلذَّذ بالفقر أكثر من لذّته بالغِنَى ، وكان في حال القلَّة أعْظَم شُكرًا من حال الكثرة . وهذه كانت حال السلف[1].

سُسْنا كيفَ شئتَ يا إلٰهي :

نختم بما قال ذو النون المصري :

---

(١) أغلب النقل في الرضا عن كتاب : مدارج السالكين « مقام الرضا » .

إذا ارتحل الكرامُ إليك يومًا ... لِيَلْتَمِسُوكَ حالًا بعد حالِ
فإنَّ رحالنا حطتْ لترضَى ... بحلمكَ عن حلولٍ وارتحالِ
أنَخْنَا في فِنائك يا إلٰهي ... إليك مُعَرَّضِينَ بلا اعتلالِ
فَسُسْنَا كَيفَ شئتَ ولا تَكِلْنا ... إلى تدبيرنا يا ذا المعالي[1]

* * *

(١) الحلية ٩ / ٣٤٤ - ٣٤٥ .

الفصْلُ الثَّامن

عُلُوُّ الهِمَّـةِ في مُحَاسَبَةِ النفْسِ والمُجَاهَدَةِ والمُعَاتَبَةِ

« احذرْ نفْسَك علىٰ نفسِك »

[ضَيْغَمُ بن مالك]



□ علوُّ الهمَّةِ في مُحَاسَبَةِ النفسِ □ والمجاهَدَةِ والمُعَاتَبَة

اعلم يا أخي أنَّ « اللهَ قائمٌ علىٰ كلّ نفسٍ بما كسبتْ ، محاسبٌ علىٰ النقيرِ والقِطْمِير ، والقليل والكثير من الأعمال ، وإنْ خَفيَتْ .

وأربابُ البصائر عرفوا أنّ الله تعالىٰ لهم بالمرصاد ، وأنهم سيُناقَشون في الحساب ، ويُطالبون بمثاقيل الذَّرِّ من الخَطَرَات واللّحَظَات ، وتحقَّقوا أنه لا يُنجيهم إلَّا لُزوم المحاسبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات .

فَمَن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب ، خفَّ في القيامة حسابُه ، وحضر عند السؤال جوابُه ، وحسن منقلبه ومآبُه ، ومَن لم يحاسب نفسه دامتْ حسراتُه ، وطالت في عَرَصات القيامةِ وَقَفَاته ، وقادتْه إلى الخِزْي والمَقْتِ سيِّئاته .

دَرَجَـاتُ المُرَابَطَـة :

فلمّا انكشف لهم ذلك عَلِمُوا أنه لا يُنجيهم منه إلَّا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة ، فقال عزّ مِن قائل : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذين آمنُوا اصبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا ...** ﴾ الآية [آل عمران : ٢٠٠] ، فرابطوا أنفسهم أوَّلًا : بالمشَارَطة ، ثُمّ بالمراقَبَة ، ثم بالمحاسَبة ، ثم بالمعاقَبَة ، ثم بالمجاهَدَة ، ثمّ بالمعاتَبَة . فكانت لهم في المرابطة ستُّ مقاماتٍ »[١].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٤١٧ - ٤١٨ .

المقام الأوَّل من المرابطة : المُشارَطَة :

العقل هو التاجر في طريق الآخرة ، ومَطْلبه وربْحُه : تزكية النفس ؛ لأنَّ بذلك فلاحَها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] ، وفلاحُها إنّما يكون بالأعمال الصالحة ، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ، إذْ يستعملها ويستسخرها فيما يزكِّيها ، كما يستعين التاجر بشريكه وغُلامه الذي يتَّجِر في ماله ، وكما أنّ الشريك يَصير خصْمًا منازِعًا يُجاذبه في الرِّبح ، فيحتاج إلى أنْ يُشارِطه أولًا ، ويراقبه ثانيًا ، ويحاسبه ثالثًا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارَطة النفس أوَّلًا ؛ فيوظف عليها الوظائف ، ويشترط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ويحزم الأمر بسلوك تلك الطُرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها ، لم يَر منها إلَّا الخيانة ، وتضييع رأس المال كالعبد الخائن . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإنّ هذه تجارة ربحها بالفردوس الأعلىٰ وبلوغ سِدرة المنتهىٰ مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس : أهمُّ كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها مُحْتَقَرَة ، ومصيرها إلى التصرُّم والانقضاء ، ولا خيرَ في خيرٍ لا يدوم .

فَحتْمٌ على كلّ ذي حَزْم أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسَكَناتها ، وخطراتها وخطواتها ، فإنّ كلّ نَفَس من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسة يمكن أن يشتري بها كَنْزٌ من الكنوز لا يتناهىٰ نعيمُه أبدَ الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعةً خسرانٌ عظيم لا تسمح به نفْس عاقل .

فإذا أصبح العبد وفرغ من صلاة الصبح ، ينبغي أنْ يفرّغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس ، كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرّغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلّا العمر ، ومهما فني فني

رأسُ المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلَبِ الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأنسأ في أَجَلي وأنعم عليَّ به ، ولو توفاني لكنتُ أتمنّىٰ أنْ يُرجعني إلى الدنيا يومًا واحـدًا حتىٰ أعمل فيه صالحًا ، فاحسَبي أنّك قد تُوُفِّيتِ ، ثم قد رُدِدتِ ، فإيّاك ثم إيَّاكِ أن تضيّعي هذا اليوم ، اجتهدي اليوم في أنْ تُعمـري خزانتك ، ولا تدعيها فارغةً من كنوزك ، ولا تميلي إلى الكسل والدَّعَة والاستراحة ، فيفوتكِ من درجات عِلِّيين ما يدركه غيرُك ، وتبقى عندك حسـرةٌ لا تفارقكِ وإنْ دخلتِ الجنة ، فألَمُ الغبْن وحسرتُه لا يُطاق ، وإن كان دُون ألم النار ، وقد قال بعضهم : هَبْ أنَّ المسيء قد عُفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟! أشار به إلى الغبْن والحسـرة ، وقال الله تعـالىٰ : ﴿ **يومَ يجمعُكُمْ لِيومِ الجَمْعِ ذٰلِكَ يومُ التغابُن** ... ﴾ الآية [التغابن : ٩] . فهذه وصيّته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنفْ لها وصية في أعضائه السبعة ، وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إليها ، فإنها رَعَايا خادمة لنفسه في هذه التجارة .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الأعضاء التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة ، ثم النوافل التي يقدر عليها ، ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتّب لها تفصيلها ، وكيفيّتها ، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كلّ يوم ، ولكنْ إذا تعوّد الإنسان شرْطَ ذٰلك على نفسه أيامًا ، وطاوعتْه نفسه في الوفاء بجميعها ، استغنىٰ عن المشارطة فيها ، وإن أطاعتْ في بعضها بقيتْ الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ، وعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيما يمرّ به ، والانقياد للحقّ في مجاريها ، ويحذّرها مَغبَّة الإهمال ويعظها ، فإن النفْسَ بالطبع متمرّدة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكنّ الوعْظ يؤثر فيها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وذكِّرْ فإنَّ الذكْرىٰ تنفعُ**

المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] ، فهذه محاسبةٌ قبل العمل ، كما قال تعالىٰ : **﴿ واعلموا أنَّ اللهَ يَعلمُ ما في أنفسكم فاحذرُوه ﴾** [البقرة : ٢٣٥] ، وهذا للمستقبل .

المرابطة الثانية : المراقبة :

وهذه سنُفرد لها الفصل التالي .

سُئل ذو النونِ : بِمَ ينال العبدُ الجنة ؟ قال : بخمسٍ : استقامة ليس فيها زَوَغَان ، واجتهادٌ ليس معه سَهْوٌ ، ومراقبة الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهُّب له ، ومحاسبة نفسك قبل أنْ تُحاسَب .

المرابطة الثالثة : مُحَاسَبَةُ النفس :

قال تعالىٰ : **﴿ يَٰأَيُّهَا الذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ ولْتَنظرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾** [الحشر : ١٨] .

قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٤٢) : « قوله : **﴿ ولْتنظرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ ﴾** ، أي : حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وانظروا ماذا ادّخَرْتُم لأنفسكم مِن الأعمال الصالحة ليوم معادكم ، وعرْضكم على ربّكم » .

« فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسَبًا على كلّ شيء ، حتىٰ على سمعه وبصره وقلبه ، كما قال تعالىٰ : **﴿ إنَّ السمْعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئِك كَانَ عنهُ مَسئولًا ﴾** [الإسراء : ٣٦] – فهو حقيقٌ أنْ يحاسِب نفسَه قبل أن يُناقَش الحساب »[1].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١٠١ .

تُحاسَبوا ، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، فإنه أهونُ عليكم في الحساب غدًا أن تحاسِبوا أنفسكم اليوم ، وتزيّنوا للعرض الأكبر ، يومئذٍ تُعرضون لا تخفىٰ منكم خافية »[1].

حَاسِبْ نَفْسَكَ لنفسك ؛ فإن غيرها من الأَنْفُس عليها حسيب غيرك .

ويحدثك عالي الهمة ، والحادي لمعارج القمّة ابن قيم الجوزية عن المحاسبة في أعلىٰ صورها فيقول : وجماع ذلك أن يحاسب نفسه على الفرائض ، فإنْ تذكَّر فيها نقصًا تداركه ؛ إما بقضاءٍ أو إصلاح .

ثم يحاسبها على المناهي ، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه ؛ بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .

ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فإنْ كان قد غفل عما خُلِق له ، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى .

ثم يحاسبها بما تكلّم به ، أو مشت إليه رجلاه ، أو بطشتْ يداه ، أو سمعتْه أذناه ، ماذا أردت بهذا ؟ ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجهٍ فعلته ؟ ويعلم أنه لا بدّ أن ينشر لكلّ حركة وكلمةٍ منه ديوانين : لمن فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول : سؤال عن الإخلاص ، والثاني : سؤال عن المتابعة .

طريقة محاسبة النفس :

يقول ابن القيم : « محاسبة النفس : نوعان : نوعٌ قبل العمل ، ونوعٌ بعده :

---

(١) إسناده صحيح موقوف ؛ أخرجه أحمد في الزهد ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن الجوزي في صفة الصفوة .

النوع الأول :

هو أنْ يقف عند أول همِّه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبيّن له رجحانه على تركه .

قال الحسن رحمه الله : رحم اللهُ عبدًا وقف عند همّه ، فإن كان لله : مضىٰ ، وإن كان لغيره : تأخَّر .

وشرح هذا بعضهم ، فقال : إذا تحرّكتِ النفس لعمل من الأعمال وهمّ به العبد ، وقف أولًا ، ونظر : هل ذلك العمل مقدور له ، أو غير مقدورٍ ولا مستطاع ؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يُقدم عليه ، وإن كان مقدورًا ، وقف وقفةً أُخرىٰ ونظر : هل فعْله خيرٌ له من ترْكه ، أو تركه خيرٌ له من فعْله ؟ فإن كان الثاني : تَرَكَه ولم يقدم عليه ، وإنْ كان الأول ، وقفَ وقفة ثالثة ونظر : هل الباعث عليه إرادةُ وجْه الله عز وجلّ وثوابه ، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ؟ فإن كان الثاني لم يُقدم ، وإن أفضىٰ به إلى مطلوبه ، لئلَّا تعتاد النفس الشرك . وإن كان الأول ، وقف وقفة أُخرىٰ ، ونظر : هل هو معان عليه ، أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوانٌ أمسك عنه ، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار . وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور .

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل .

النوع الثاني :

محاسبة النفس بعد العمل ، وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حقّ الله تعالىٰ ، فلم تُوقِعْها على الوجه الذي ينبغي .

وحقُّ الله في الطاعة ستةُ أمور ، وهي : الإخلاص في العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول فيه ، وشهود مشهد الإحسان فيه ، وشهود منّة الله عليه ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله .

الثاني : أن يحاسب نفسه على كلّ عمل تركُه خيرٌ له من فعْله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمْرٍ مباح ، أو معتاد : لِمَ فعَله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة ، فيكون رابحًا ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ، فيخسر ذلك الربح ، ويفوته الظفر به ؟ انتهى »[1] .

يا عاليَ الهمَّة ، هذه أركانُ المحاسبة :

وللمحاسبة ثلاثة أركان :

أحدها : أن تقايس بين نعمة الله وجنايتك :

حين تقايس بين ما مِنَ الله وما منك ، فحينئذ يظهر لك التفاوت ، وتعلم أنه ليس إلّا عفوه ورحمته ، أو الهلاك والعطْب .

وبهذه المقايسة تعلم حقيقة النفس وصفاتها ، وعظمة جلال الربوبية ، وتفرُّد الربِّ بالكمال والإفضال ، وأنت قبل هذه المقايسة جاهلٌ بنفسك ، وبربوبية فاطرِها وخالقها ، فإذا قايستَ ظهر لك أنها منبعُ كلّ شرٍّ ، وأساس كل نَقْصٍ ، وأن حدّها : الجاهلة الظالمة ، وأنه لولا فضلُ الله ورحمته بتزكيته لها ، ما زكتْ أبدًا ، فكما أنها ليس لها مِن ذاتها وجود ، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود ، فليس لها من ذاتها إلّا العدم ؛ عدم الذات وعدم الكمال ، فهناك تقول حقًّا : « أَبوءُ لك بنعمتك عليَّ ، وأَبُوءُ بذنبي » .

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات ؛ فتعلمْ بهذه المقايسة : أنهما أكبر

(١) إغاثة اللهفان [١ / ٩٧ - ٩٨] .. بتصرُّف .

وأرجح قدرًا وصِفةً . وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما مِنْك خاصّة .

وهذه المقايسة تشقُّ علىٰ مَن ليس له ثلاثة أشياء :

الأول : نُور الحكمة الذي نّور الله به قلوب أتباع الرسل ؛ فبقدْره ترىٰ التفاوت ، وهو العلْم الذي يميّز العبد به بين الحقّ والباطل ، والكامل والناقص ، ومراتب الأعمال ؛ راجحها ومرجوحها ، ومقبولها ومردودها ، وكلّما كان حظُّه من هذا النور أقوىٰ ، كان حظُّه من المحاسبة أكملَ وأتمَّ .

الثاني : سوء الظنّ بالنفس ؛ فحسن الظنِّ بالنفس يمنع من كمال التفتيش ، ويلبّس عليه ، فيرىٰ المساوئ محاسن ، والعيوب كمالًا .

فَعَيْنُ الرضا عن كلّ عيْبٍ كليلةٌ كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي المَسَاوِيَا

مَن أحسن ظنَّه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه .

الثالث: تمييز النعمة من الفتنة؛ فليفرّق بين النعمة التي يرىٰ بها الإحسان واللطف ، وبين النعمة التي يرىٰ بها الاستدراج ، فكم مِن مُستدرَج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه .

فإذا كملتْ هذه الثلاثة فيه ، عرَف حينئذٍ أنّ ما كان من نعم الله عليه يجمعُه على الله فهو نعمةٌ حقيقيّة ، وما فرّقه وأخذه عنه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة ، فلْيحذرْ .

فكلّ علْم صَحِبَه عمل يُرضي اللهَ سبحانه فهو مِنّة ، وإلَّا فهو حُجَّة ؛ وكلّ قوّةٍ ظاهرةٍ وباطنة صحبها تنفيذٌ لمرضاته وأوامره فهو مِنّة ، وإلَّا فهو حجّة .

وكلّ حال صَحِبَه تأثير في نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منّة ، وإلَّا فهو حجّة .

وكلّ مالٍ اقترن به إنفاقٌ في سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء والشكور ، فهو منّة ، وإلَّا فهو حجَّة .

وكل فراغٍ اقترن به اشتغال بما يريد الربُّ مِن عبده فهو مِنّة عليه ، وإلَّا فهو حجة .

وكلّ قبول في الناس ، وتعظيمٍ ومحبةٍ له ، اتصل به خضوع للربِّ وذلٌّ وانكسارٌ ، ومعرفة بعيْب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق ؛ فهو منّة ، وإلَّا فهو حجَّة .

وكلّ بصيرة وموعظةٍ وتذكير وتعريف من تعريفات الحقّ سبحانه إلى العبد اتصل به عِبرةٌ ، ومزيدٌ في العقل ، ومعرفةٌ في الإيمان ؛ فهي منّة ، وإلَّا فهي حجة .

وكلّ حال مع الله تعالى ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ؛ فهو منّة من الله ، وإنْ صحبَه الوقوف عندَه والرضا به ، وإيثار مقتضاه ، من لذّة النفس به ، وطمأنينتها وركونها إليه ؛ فهو حجّة .

فليتأمَّل العبد هذا الموضع العظيم الخطير ، ويميّز بين مواقع المنن والمِحن ، والحُجَجِ والنعم ، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواصّ الناس وأرباب السلوك .

الرُّكن الثاني مِن أركان المُحَاسَبة :

أنْ تميّز ما للحقّ عليك ؛ من وجوب العبودية والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية ، وبين ما لك وما عليك . فالذي لك : هو المباح الشرعي . فعليك

حق ، ولك حقٌّ . فأدِّ ما عليك يؤتِكَ ما لك .

الركن الثالث :

« أن تعرف أنَّ كلَّ طاعة رضيتَها منك فهي عليك ، وكلّ معصية عيّرتَ بها أخاك فهي إليك » .

فرضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنِّه بنفسه ؛ وجهله بحقوق العبودية .

فجهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله ، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به ؛ يتولّد منهما رضاه بطاعته ، وإحسان ظنّه بها ، ويتولّد من ذلك - من العجب والكبر والآفات - ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة ؛ من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف .

فالرضا بالطاعة من رُعونات النفس وحماقتها ، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عُقَيْبَ الطاعات ، لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه .

فبعد الصلاة لأرباب العزائم استغفارٌ ؛ ففي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفرَ ثلاثًا ، ثم قال : « اللهمَّ أنت السلامُ ، ومنك السلامُ ، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام » .

وبعد صلاة الليل استغفار ؛ قال تعالى : ﴿ **والمستغفرينَ بالأسْحار** ﴾ الآية [آل عمران : ١٧] .

وبعد إفاضتهم مِن عرَفاتٍ استغفارٌ ؛ قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا أفضْتُمْ مِن عرَفَاتٍ فاذكُروا اللهَ عندَ المَشْعَرِ الحرامِ واذْكُروهُ كمَا هداكُمْ وإنْ كنتُمْ مِن قبلهِ لَمِنَ الضالِّينَ * ثمَّ أفيضُوا مِن حيثُ أفاضَ الناسُ واستغفرُوا اللهَ**

إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ [البقرة : ١٩٨ - ١٩٩] .

وخاتمة الوضوء استغفار ؛ « سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، اللهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » .

وبعد أداء الرسالة والقيام بأعبائها أمر الله رسولنا ﷺ بالاستغفار ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [النصر : ١ - ٣] .

فهذا شأن مَن عرف ما ينبغي لله ، ويليق بجلاله من العبودية وشرائطها ، لا جهلَ أصحاب الدعاوي وشطحاتهم .

وقال بعض العارفين : متىٰ رضيتَ نَفْسَكَ وعملَكَ لله ، فاعلمْ أنه غير راضٍ به ، ومَن عرف أن نفسه مأوىٰ كلِّ عيب وشرٍّ ، وعمله عُرْضة لكلّ آفة ونقْص ، فكيف يرضىٰ لله نَفْسه وعمله ؟!

ولله دَرُّ الشيخ أبي مَدْيَنَ حيث يقول : مَنْ تحقّق بالعبودية نظر أفعاله بعيْن الرياء ، وأحواله بعيْن الدعوىٰ ، وأقواله بعين الافتراء .

وكلّما عظم المطلوب في قلبك ، صغُرَتْ نفسك عندك ، وتضاءَلَتْ القيمة التي تبذلها في تحصيله ، وكلّما شهدتَ حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفتَ الله وعرفت النفسَ ، وتبيَّن لك أن ما معك مِن البضاعة لا يصلح للمَلِك الحقّ ، ولو جئتَ بعمل الثقلَيْن خشيتَ عاقبته ، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله ، ويُثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله .

قال ابن القيم : « التوبة بين محاسبتَيْن ، محاسبةٍ قبلها تقتضي وجوبها ،

ومحاسبةٍ بعدها تقتضي حفْظها »[١].

صفحاتٌ عَطِرَة في أقوال السلف عن المحاسَبَة وعلوِّ همَّتهم فيها :

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وخرجتُ معه ، حتى دخل حائطًا ، فسمعتُه يقول - وبيني وبينه جدار ، وهو في جوف الحائط - : عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين ! بَخٍ[٢] ! واللهِ لَتتقينّ اللهَ ابنَ الخطّاب ، أو لَيعذبنّكَ[٣].

أبو الدرْدَاء رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « لا يفقه الرجل كلّ الفقهِ حتى يمقُتَ الناس في جَنْب الله ، ثم يرجع إلى نفسه ، فيكون لها أشدَّ مقتًا »[٤].

وفي الزهد لأحمد : قال أبو الدرداء : « إنك لا تفقهُ كلَّ الفقه حتى ترىٰ للقرآن وجوهًا ، وإنك لا تفقه كلّ الفقه حتى تمقُتَ الناسَ في جنبِ الله ، ثم ترجع إلى نفسك ، فتكون لها أشدَّ مقتًا منك للناس » .

الأَحْنَفُ بنُ قَيْس :

عن سلمة بن منصور ، عن مولًى لهم ، كان يصحب الأحنف بن قيس ، قال : « كنتُ أصحبه ، فكان عامّة صلاته الدعاء ، وكان يجيء

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٦٩ - ١٧٦ بتصرف .

(٢) اسمُ فعل يُقال عند الرضا بالشيء .

(٣) إسناده صحيح متصل ، موقوف على عمر رضي الله عنه ، أخرجه أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس .

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا صـ ٤٦ ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .

بالمصباح ، فيضع أصبعه فيه ، ثم يقول : حَسْ . ثم يقول : يا حنيف ، ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا ؛ ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا ؟ »[١].

رحمك الله أبا بحر ، ولله دَرّ مَن قال فيك : ما رأيتُ أحدًا أعظم سلطانًا على نفسه منه .

الحَسَـن البَصْـريّ :

قال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوّامَة** ﴾ [القيامة : ٢] : « لا تَلقَىٰ المؤمنَ إلّا يُعاتب نفسه : ماذا أردتُ بكلمتي ؟ ماذا أردتُ بأكْلتي ؟ ماذا أردتُ بشرْبتي ؟ والعاجز يمضي قُدُمًا ، لا يعاتب نفسه » .

وقال رحمه الله : رحمَ اللهُ عبدًا وقَفَ عند همِّه ؛ فإنْ كان لله مضىٰ ، وإن كان لغيره تأخَّرَ .

وقال رحمه الله : « المؤمن قوّام على نفسه ، يُحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسَبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر مِن غير محاسَبَة .

إنّ المؤمن يفجأه[٢] الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لَمِن حاجتي ، ولكن واللهِ ما من صلة إليك ، هيهاتَ ! حِيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : هيهات ! ما أردتُ إلى هذا ، وما لي ولهذا ؟! ما أردتُ إلى هذا ، وما لي ولهذا ؟! والله ما أُعْذَر بهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلَكَتهم . إنّ المؤمن

---

(١) صفة الصفوة ٣ / ١٩٩ ، والإحياء ٥ / ٣٩٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٦ .
(٢) يفجأه الشيء : يأتيه على بَغْتة وغفلة .

أسير في الدنيا ، يسعى في فِكَاك رقبته ، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كلّه »[1].

وقال رحمه الله : « حادثوا هذه القلوب ؛ فإنها سريعة الذنوب ، واقرعوا هذه الأنفُس ؛ فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شرِّ غايةٍ ، وإنكم إن تعاونوها لا تُبقي لكم من أعمالكم شيئًا ، فَتَصَبَّرُوا وتَشَدَّدُوا ؛ فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم رَكْب وُقُوف ، يوشك أن يُدعَى الرجل منكم فيجيب ولا يَلْتَفُّ، فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم »[2].

وقال : « ابنَ آدم ، عن نفسك فكايسْ ؛ فإنك إنْ دخلتَ النار لم تَنْجَبِرْ بعدها أبدًا » .

وقال : المؤمن في الدنيا كالغريب ، لا ينافس في عزّها ، ولا يجزَع مِن ذلِّها ، للناس حال وله حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل .

وقال : إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله تبارك وتعالى[3].

قَتَادَةُ رحمه الله :

قال قتادة في قول الله تعالىٰ : ﴿ **وكانَ أمرُهُ فُرُطًا** ﴾ الآية [الكهف : ٢٨] : « أضاع أكبر الضيعة ، أضاع نفسه ، وعسىٰ مع ذلك أن تجده

---

(١) محاسبة النفس صـ ٣٨ - ٣٩ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٣٤ ، والإحياء ٥ / ٩٣٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٥ ، والحلية ٢ / ١٥٧ .

(٢) الحلية ٢ / ١٤٤ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٣٦ ، ومحاسبة النفس صـ ٦٢ .

(٣) الحلية ٢ / ١٥٧ .

حافظًا لماله ، مُضَيِّعًا لدينه »[١].

مَيْمُون بنُ مهْران :

قال رحمه الله : « لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً مِن الشريك لشريكه »[٢].

وقال رحمه الله : « التقيُّ أشدُّ محاسبة لنفسه من سلطانٍ عاصٍ ، ومن شريك شحيح »[٣].

مالِكُ بنُ دِينار :

قال رحمه الله : « رحم اللهُ عبدًا قال لنفسه النفيسة : ألستِ صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمّها ، ثم خطَمها ، ثم ألزمها كتاب الله ، فكان لها قائدًا »[٤] .

« وكان – رحمه الله – يقول لنفسه : إني والله ما أريدُ بك إلّا الخير. مرتين »[٥].

إبراهيمُ التيْمي :

« أنت في الأمنية فاعملي » :

« قال سفيان بن عُيينة : قال إبراهيم التيمي : مثّلتُ نفسي في الجنة

(١) محاسبة النفس ٢ / ٣٢ .
(٢) الحلية ٤ / ٨٩ ، ومحاسبة النفس ٣٣ .
(٣) محاسبة النفس صـ ٣٤ ، والإحياء ٥ / ٣٩٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٥ .
(٤) الإحياء ٥ / ٣٩٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٦ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٤ .
وخطَمَها : أي قادها بكتاب الله ، فالخطام : هو الحبل الذي يُقاد به البعير .
(٥) محاسبة النفس صـ ٦٣ .

آكلُ مِن ثمارها ، وأشرب مِن أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثلتُ نفسي في النار آكل من زقّومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلتُ لنفسي : أي نفسي ، أيَّ شيءٍ تريدين ؟ قالت : أريد أن أُردّ إلى الدنيا ، فأعملُ صالحًا . قال : فقلتُ : فأنتِ في الأمنية فاعملي »[١] .

الحجّاج الثقفي :

« ما زال يقول : امرءًا . حتى أبكاني » :

قال مالك بن دينار : « سمعتُ الحجّاج يخطبُ ويقول : امرءًا وزَن نفسه ، امرءًا اتخذ نفسه عدوًّا ، رحم الله امرءًا حاسَب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، امرءًا آخذٌ بعنان عمله ، فنظر أين يريد ؟! امرءًا نظر في مكياله ، امرءًا نظر في ميزانه . فما زال يقول : امرءًا . حتى أبكاني » .

ويا ليت الحجّاج عمل بهذا .. فقد مضى إلى لحْده وإلى ربّه سفَّاكًا غشومًا جبّارًا ظالمًا ، لو تخابثتِ الأمم ، فجاءت كلّ أمّة بخبيثها وجئنا به ، لَفُقْناهم .

خطب الحجّاج يومًا فقال : « يَٰأَيُّهَا الرجل ، وكلُّكم ذلكَ الرجل ، ذمُّوا أنفسكم واخطموها ، وخذوا بأزمَّتها إلى طاعة الله ، وكفوها بخطمها عن معصية الله » .

وقال : « رجل خطَم نفسه وذمّها ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعنجها[٢] بزمامها عن معاصي الله » .

---

(١) الزهد لأحمد ٤٣٤ ، والحلية ٤ / ٢١١ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٤ .

(٢) أي : جذبها وشدّها إلى طاعة الله ، بعيدًا عن المعاصي ، انظر : محاسبة النفس صـ ٣٧ .

وَحِكْمة مِن آل داود :

« وساعةٍ يُحاسِب فيها نفْسَه » :

عن وهب بن منبّهٍ قال : « مكتوب في حكمة آل داود : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربعِ ساعاتٍ : ساعةٍ يُناجي فيها ربّه ، وساعةٍ يحاسب فيها نفسه ، وساعةٍ يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويَصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه ، وبين لذّاتها ، فيما يحلّ ويحمد ، فإنّ في هذه الساعة عوْنًا على تلك الساعات ، وإجمامًا للقلوب[1].

وحقٌّ على العاقل أن لا يُرَىٰ ظاعِنًا[2] إلا في ثلاث : زادٍ لميعاد ، أو مرمةٍ لمعاش[3] ، أو لذّة في غير محرّم .

وحقٌّ على العاقل أنْ يكون عارفًا بزمانه ، حافظًا للسانه ، مقبلًا على شأنه »[4].

الأسْود بنُ كُلثوم :

قال حميد بن هلال : كان الأسود بن كلثوم إذا مشى نظر إلى قدميْه . قال : ودور النساء إذ ذاك فيها تواضع ، فعسىٰ أن يفجأ النسوة ، فيقول بعضُهن لبعض : كلّا ، إنه الأسود بن كلثوم ، إنه لا ينظر ، فلما قرب غازيًا ، قال : اللهم إن هذه النفس تزعم في الرخاء أنها تحبّ لقاءك ، فإن كانت صادقةً فارزقْها ذاك ، وإن كانت كاذبة فاحملها عليه ، وإن كرهتْ فاجعلْ ذلك

---

(١) إجمامًا للقلوب : يعني ترويحًا وتخفيفًا لها .

(٢) ظاعنًا : يعني مسافرًا ومرتحلًا .

(٣) يعني : جلب ما يقتات به ، ويعيش عليه من طعام وشراب وملبس .

(٤) محاسبة النفس صـ ٣٦ .

قتلًا في سبيلك ، وأطعمْ لحمي سباعًا وطيرًا . قال : فانطلق في طائفة مِن ذلك الجيش الذي خرج فيه ، حتى دخلوا حائطًا فيه ثلْمة[١]، وجاء العدو حتى قام على الثلمة ، فنزل عن فرسه ، وضرب وجهه فانطلق غايرًا ، ثم عمد إلى ماء في الحائط ، فتوضأ منه وصلّى . قال : تقول العجم : هكذا استسلام العرب . فلما قضى صلاته قاتلهم حتى قُتل ، وعظم الجيش ذلك على الحائط ، وفيهم أخوه ، فقيل لأخيه : ألا تدخل الحائط ، فتنظر ما أصبتَ من عظام أخيك ، فتجبه[٢] ؟ قال : ما أنا بفاعل شيئًا دعا به أخي[٣] ، فاستجيب له[٤] .

ورجلٌ من الصالحين يقول لنفسه : لَأَعرضنَّكِ على اللهِ : أخذَك أو تركَكِ :

قال عبد الله بن قيس أبو أمية الغفاري : « كنا في غزوة لنا ، فحضر عدوُّهم ، فصيح في الناس ، فهم يثوبون إلى مَصَافِّهم ، وفي يومٍ شديدِ الريح ، إذا رجل أمامي ، رأس فرسي عند عجز فرسه ، وهو يخاطب نفسه ، فيقول : أي نفسُ ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ؟ فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، وأطعتُكِ فرجعتُ ؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلك وعيالك . فأطعتُكِ فرجعتُ ؟ والله لأعرضنَّك اليوم على الله عزَّ وجل ، أخذكِ أو تركَكِ . فقلتُ : لأرمقنّه اليوم ، فرمقتُه ، فحمل الناسُ على عدوّهم ، فكان في أوائلهم ، ثم إنَّ العدو حَمَل على الناس ، فانكشفوا ، وكان في حُمَاتهم ، ثم حملوا على عدوهم ، فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدو ، وانكشف الناس ، فكان في حُمَاتهم . قال : فوالله ، ما زال ذلك دأبه حتى رأيتُه صريعًا ،

---

(١) يعني : ثغرة .
(٢) يعني : تحضر ما بقي من جسده .
(٣) وهو أن يطعم الله لحمه للسباع والطير .
(٤) الزهد لأحمد ٢٥٦ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٩١ ، ومحاسبة النفس صـ ٤٦ .

فعددتُ به وبدابّتِهِ ستين ، أو أكثر من ستين طعنةً »[1].

ابنُ رَوَاحَة وشدَّةُ محاسبته لنفسه :

لما قُتِلَ جعفر بن أبي طالب ، دعا الناسُ : يا عبد الله بن رواحة ، يا عبد الله بن رواحة . وهو في جانب العسكر ، ومعه ضِلْع جملٍ منهشة[2] ، ولم يكن ذاق طعامًا قبل ذلك بثلاث ، فرمىٰ بالضِّلع ، ثم قال : وأنت مع الدنيا ؟! ثم تقدّم فقاتل ، فأصيبت أصبعه ، فارتجز ، فجعل يقول :

هَـلْ أنت إلَّا أصبعٌ دميتِ ... وفي سبيلِ اللهِ ما لقِـيتِ

يا نفسُ إلَّا تُقْتلي تموتي ... هذا حياضُ الموتِ قد صليتِ

ومـا تمنيتِ فقـد لقـيتِ ... إنْ تفعلي فِعْلها هـديتِ

وإن تأخـرتي فقـدْ شقيـتي

ثم قال : يا نفسي ، إلى أي شيءٍ تتشوقين ؟ إلى فلانة ، فهي طالق ثلاثًا ، وإلى فلان وفلان - غلمان له - وإلى معجف - حائط له - فهو لله ولرسوله .

يا نفسُ مالك تكرهينَ الجنَّهْ ... أُقْسِـمُ باللَّـه لَتنـزِلنَّهْ

طائعـةً أو لَتُكْـرهِنَّـهْ ... فطالَ ما قدْ كُنْتِ مطمئنَّهْ

هَلْ أنتِ إلَّا نطفةٌ في شَنَّهْ ... قد أجلبَ النَّاسُ وشدُّوا الرنَّهْ[3]

عابدةٌ لا ترىٰ قدمَيْها أهلًا للطَّوافِ حوْلَ الكعبة :

قال وهيب بن الورد : « بينما امرأةٌ في الطواف ذاتَ يوم وهي تقول :

---

(١) محاسبة النفس صـ ٤٥ .

(٢) يعني : جمل قليل اللحم ، والضلع من الحيوان : هي عظام الجنبَين .

(٣) محاسبة النفس صـ ٤٣ ، والحلية ١ / ١٢٠ - ١٢١ .

يا رب ، ذهبتِ اللذات وبقيت التبِعات . يا رب ، سبحانك وعزَّتك إنَّك لأرحمُ الراحمين . يا ربّ ، ما لك عقوبة إلا النار ! فقالت صاحبة لها كانت معها : يا أُخيَّة ، دخلتِ بيتَ ربِّكِ اليوم . قالت : والله ما أرىٰ هاتَين القدمَين – وأشارت إلى قدميها – أهلًا للطواف حول بيت ربي ، فكيف أراهما أهلًا أطأُ بهما بيتَ ربي ، وقد علمتُ حيث مشيَتَا ، وإلى أين مشيتا »[١] .

عطـاء السـليمي :

عن إبراهيم بن أدهم قال : « كان عطاء السليمي إذا استيقظ قال : ويحك يا عطاء ، ويحك يا عطاء ، وأبيك يا عطاء ، وأمك يا عطاء . حتَّى يصبح »[٢] .

ضَيْغَم بن مالك :

« احذر نفسَك على نفسِك » :

قال أبو أيوب مولى ضيغم بن مالك : « قال لي أبو مالك يومًا : يا أبا أيوب ، احذر نفسَك على نفسِك ؛ فإني رأيتُ هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي ، وايمُ الله ، لئنْ لم تأتِ الآخرة المؤمن بالسرور ، لقد اجتمع عليه الأمران ؛ همُّ الدنيا ، وشقاءُ الآخرة . قال : قلتُ : بأبي أنت وأمِّي ، وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور ، وهو ينصب لله في دار الدنيا ويدأب ؟! قال : يا أبا أيوب ، فكيف بالقبول ؟ وكيف بالسلامة ؟ قال : ثم قال : كم من رجل يرىٰ أنه قد أصلح شأنه ، وقد أصلح قُربانه ، قد أصلح همته ، قد أصلح عملَهُ ؛ يُجمع ذلك يوم القيامة ثم يُضرب به وجهُه »[٣] .

---

(١) الحلية ٨ / ١٥٠ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٠ .

(٢) محاسبة النفس صـ ٦٨ .

(٣) صفة الصفوة (٣ / ٣٦٠) ، ومحاسبة النفس صـ ٦٨ - ٦٩ .

وهْـب بن منبّـه :

عن وهب بن منبّه قال : الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس بينهما حرون[1] ، فإذا قاد القائد و لم يسُقِ السائق ، لم يُغنِ ذلك شيئًا . وإذا ساق السائق و لم يقدِ القائد ، لم يغنِ ذلك شيئًا . فإذا قاد القائد وساق السائق ، اتبعته النفس طوعًا وكرهًا وطابَ العمل[2] .

قال عبد الرحمٰن بن زامرد الأزرق العدني - وكان عابدًا - :

ويلي وويحي مِن تَتابُعِ جُرْمي ... لو قد دعاني للحسابِ حسيبي
والويـلُ لي ويـلٌ أليمٌ دائمٌ ... إنْ كنتُ في الدنيا أخذتُ نصيبي
واستيقِظي يا نفسُ ويحكِ واحذري ... حذرًا يُهيِّجُ عَبْرَتي ونحيبي[3]

وقال الفُضَيْل بنُ عِياض في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ... ﴾ الآية [النساء : ٢٩] : لا تغفلوا عن أنفسكم ، ثم قال : مَن غفل عن نفسه فقد قتلها .

عمرُ بنُ عبد العزيز :

عن عطاء قال : دخلتُ على فاطمة بنت عبد الملك ، بعد وفاة عمر ابن عبد العزيز ، فقلت لها : يا بنت عبد الملك ، أخبريني عن أمير المؤمنين . قالت : أفعل ، ولو كان حيًّا ما فعلت ، إنَّ عمر رحمه الله كان قد فرَّغ نفسه وبدنه للناس ؛ كان يقعد لهم يومه ، فإن أمسىٰ وعليه بقيّة من حوائج يومه وصله بليله ، إلى أنْ أمسىٰ مساء وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان يُسرج له من ماله ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم .....

---

(١) أي : واقفةٌ بينهما .
(٢) حلية الأولياء ٤ / ٣٠ ، وصفة الصفوة ٢ / ٢٩٥ .
(٣) محاسبة النفس صـ ٧٢ - ٧٣ .

أقعى[(١)] واضعًا رأسه على يده ، تسايل دموعُه على خدّه ، يشهق الشهقة ، فأقول : قد خرجتْ نفسه ، وانصدعتْ كبدُه . فلم يزل كذلك ليلتَه ، حتى برق له الصبح ، ثم أصبح صائمًا . قالت : فدنوتُ منه فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لشيءٍ ما كان قبل الليلة ما كان منك ؟ قال : أجل ، فدعيني وشأني وعليك بشأنك . قالت : فقلت له :إني أرجو أن أتّعِظ . قال : إذًا أخبرُكِ ؛ إني نظرتُ إليّ ، فوجدتُني قد وُلّيتُ أمر هذه الأمة ؛ صغيرها وكبيرها وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرتُ الغريب الضايع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمتُ أن الله مسائلي عنهم ، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم ، فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر ، ولا يقوم لي مع رسول الله ﷺ حجّة ، فخفتُ على نفسي خوفًا دمعتْ له عيني ، ووجِلَ له قلبي ، فأنا كلما ازددتُ لها ذكرًا ازددتُ لهذا وَجَلًا ، وقد أخبرتكِ فاتعظِي الآن أو دعي[(٢)].

عامرُ بنُ عبدِ قيْسٍ :

« قومي يا مأوىٰ كلِّ سُوءٍ » :

كان عامر بن عبد قيسٍ إذا صلّى العصر جلس ، وقد انتفخت ساقاه من طول القيام ، فيقول : يا نفسُ ، بهذا أُمرتِ ، ولهذا خُلِقتِ ، يوشك أن تذهب الغيابق[(٣)].

وكان يقول لنفسه : قومي يا مأوى كلّ سوء ، فوعزّة ربي لأزحفنَّ بكِ زَحْفَ البعير ، وإن استطعتُ أن لا يمسَّ الأرض من ....

(١) تساند إلى ما وراءه .
(٢) محاسبة النفس صـ ٧٤ - ٧٥ .
(٣) في صفة الصفوة : يوشك أن يذهب العناء .

زهمك[١] ، لأفعلنَّ . ثم يتلوّى كما يتلوى الحبُّ على المقلىٰ ، ثم يقوم ، فينادي : اللهمَّ إن النار قد منعتني من النوم ، فاغفر لي[٢] .

وتعبّد رجل ببيت شعرٍ سمِعَه :

لِنفسي أبكي لستُ أبكي لغيرِهَا لنفسي في نفسي عنِ الناسِ شاغلُ

مسروق بن عبد الرحمٰن :

قيل لمسروق : لو أنك قصّرت عن بعض ما تصنع . أي : من العبادة ، فقال : « والله لو أتاني آتٍ من ربي ، فأخبرني أن الله لا يعْذبني ، لاجتهدتُ في العبادة . قيلَ : وكيف ذاك ؟ قال : حتى تعذرني نفسي ، إنْ دخلتُ جهنم لا ألومها ، أمَا بلغكَ في قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ **ولا أُقسمُ بالنَّفْسِ اللّوّامةِ** ﴾ [القيامة : ٢] ، إنما لاموا أنفسهم ، حتى صاروا إلى جهنم واعتنقتْهم الزبانية ، وحِيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأماني ، ورُفعت عنهم الرحمة ، وأقبل كلُّ امرئ منهم يلوم نفسه »[٣].

يزيدُ الرقّاشي :

قال يزيد الرقاشي : « ابنَ آدم ، إنك رقيقٌ على الناس ، غليظٌ بعضُك على بعض لو نُعي إليك بعضُ أهلك بكيتَ ، وأنت كلَّ يومٍ تُنعَىٰ إليك نفسُك لا تبكيها » .

ولله دَرُّ القائل :

فيبكي على مَيْتٍ ويغفلُ نفسَهُ كأنَّ بكفَّـيْه أمـانًا مِـن الرَّدَىٰ

---

(١) الزّهم : يطلق على الشحم من الجسم .

(٢) الحلية ٢ / ٨٩ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٠٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٧٧ .

(٣) صفة الصفوة ٣ / ٢٥ ومحاسبة النفس صـ ٨٠ - ٨١ .

وما الميّتُ المقبورُ في صَدْرِ يومِهِ　　أحقُّ بأنْ يَبكِيهِ مِن مَيّتٍ غدَا

قال أبو الحجاج المهدي : مَن جعل شهوته تحتَ قدمَيْه ، فَرِق الشيطانُ من ظِلِّهِ .

عابدٌ يحتسب غفلتَه في نفسه وتقصيره في حظّه :

قال كلاب بن جري رأيتُ شابًّا ببيت المقدس ، قد عَمِشَ من طول البكاء ، فقلت له : يا فتى ، كم تكون العين سليمة على هذا البكاء ؟ قال : فبكى ، ثم قال : كم شاءَ ربي فلتكن ، وإذا شاء سيدي فلْتذهبْ ، فليستْ بأكرمَ عليّ من بدني ، إنما أبكي رجاء السرور والفرح في الآخرة ، وإن تكن الأُخرى ، فهو والله شقاء الدهر ، وحزن الأبد ، والأمر الذي كنتُ أخافه وأحذره على نفسي ، وإني أحتسب على الله غفلتي في نفسي ، وتقصيري في حظّي . ثم غُشي عليه .

إني أرقتُ وذكرُ الموتِ أرّقني　　فقلتُ للدمعِ أَسعدْني فأسعدَني
إنْ لم أبكِ لنفسي مشعرًا حزنًا　　قبلَ المماتِ ولمْ أرقَّ لها فَمَنِ
يا مَنْ يموتُ ولم تحزِنْهُ ميتتُهُ　　ومَنْ يموتُ فمَا أولاهُ بالحَزَنِ
إني لأرْقعُ أثوابي ويخلِقُها　　جدبُ الزمانِ لها بالوَهْنِ والعَفَنِ
لِمَنْ أثمِّرُ أموالي وأجمعُهَا　　لمن أروحُ لِمَنْ أَغدو لِمَنْ لِمَنِ
لمنْ سيوقِعُ بي لَحْدي ويتركُني　　تحتَ الثرى تَرِبَ الخَدَّيْنِ والذَّقْنِ

وقال سوّار أبو عبيدة : قالتْ لي امرأة عطاء السليمي : عاتِبْ عطاء في كثرة البكاء . فعاتبتُه ، فقال لي : يا سوار ، كيف تعاتبني في شيء ليس هو إليَّ ، إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله عز وجل وعقابه ، تمثّلتْ لي نفسي بهم ، فكيف لنفسٍ تغلّ يدَها إلى عنقها ، وتسحب في النار ؛ أن لا تصيح وتبكي ؟! وكيف لنفسٍ تُعذَّب أن لا تبكي ؟! ويحك

يا سوار ! ما أقلّ عناء البكاء عن أهله ، إن لم يرحمهم الله عز وجل .

وقال أبو سليمان الداراني : وصفتُ لأختي « عبدة » قنطرةً من قناطر جهنم ، فأقامت ليلة ويومًا في صيحةٍ واحدةٍ ، ما تسكت ، ثم انقطع عنها بعدُ ، فكلما ذكرتُ لها صاحتْ صيحة واحدة ، ثم سكتت ، قلت : مِن أيّ شيءٍ كان صياحها ؟ قال : مثّلت نفسها على القنطرة وهي تكفأ بها .

وكتب أبو الأبيض العابد إلى بعض إخوانه : أمّا بعد ، فإنك لم تُكلّف من الدنيا إلّا نَفْسًا واحدة ، فإن أنت أصلحتَهَا ، لم يضرّك فساد من فسد بصلاحها ، وإن أنت أفسدتها لم ينفعْك صلاح مَن صلح بفسادها ، واعلم أنك لا تسْلَم من الدنيا حتى لا تبالي من أكْلها ، من أحمَر أو أسود .

أخي ، إنَّ النفوس رهائن يُكسبونها ، فاعملْ ؛ فإن **فكاكَهنَّ الدَّأبُ**.

زياد بن أبي زيادٍ يُخَاصِمُ نَفْسَه :

قال محمد بن المنكدر : « إنِّي خلَّفتُ زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش ، وهو يخاصم نفسه في المسجد ، يقول : اجلسي ، أين تُريدين ؟ أين تذْهبين ؟! أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟! انظري إلى ما فيه ، تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان ؟ قال : وكان يقول لنفسه : وما لك من الطعام يا نفس إلا هذا الخبز والزيت ، وما لك من الثياب إلَّا هذان الثوبان ، وما لك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبّين أن تموتي ؟ فقالت : أنا أصبر على هذا العيش »[1].

توبةُ بنُ الصمّة يحاسب نفسه ، فيُغْشَى عليه ويموت :

« كان توبة بن الصمّة بالرقة ، وكان محاسبًا لنفسه ، فحسب فإذا

---

(١) محاسبة النفس ٩٣ - ٩٤ .

هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتى ، ألقى الملك بواحِدٍ وعشرين ألف ذنب ، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟! ثم خرَّ مغشيًّا عليه ، فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلًا يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى »[1].

لله دَرُّه !! ما أعلى همته !!

أُثَامِنُ بالنفسِ النفيسةِ ربَّها   وليس لها في الخَلْقِ كلِّهم ثمنْ
بها تُمْلَكُ الدنيا فإنْ أنا بِعْتُها   بشيءٍ مِنَ الدنيا فذلكمُ الغبنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيا أصبتُها   لقدْ ذهبتْ نفسي وذهب الثمنْ

قال الحسن رحمه الله : « أيسرُ الناس حسابًا يوم القيامة ، الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم ؛ فإن كان الذي همّوا به لهم مَضَوْا ، وإن كان عليهم أَمسكوا . قال : وإنما ثقُلَ الأمرُ يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا ؛ أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عزّ وجلّ قد أحصى عليهم مثاقيلَ الذَّرّ ، وقرأ ﴿ **مَا لِهَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إِلَّا أحْصَاهَا** ﴾ »[2].

أخي ، كيف لا يُحاسِبُ عالي الهمّة العاقل نفسَه ، فيما يتعلّق به خطَرُ الشقاوة والسعادة أبدَ الآباد .

وينبغي أنْ يتقي غبينةَ النَّفْسِ ومكرَها ؛ فإنها خدّاعةٌ مُلبّسةٌ مكّارة ، فليطالبها أولًا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلّم به طول نهاره ، وليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكْله وشربه ونومه ، حتى عن

---

(١) محاسبة النفس صـ ٦٧ .

(٢) محاسبة النفس صـ ٩٤ .

سكوته أنه لِمَ سكت ؟ وعن سكونه لم سكَن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصحّ عنده قدر ، أدىٰ الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبًا له ، فيظهر له الباقي على نفسه ، فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه ، كما يكتب الباقي الذي علىٰ شريكه على قلبه ، وفي جريدة حسابه .

ثم النفْسُ غريمٌ يمكن أن يستوفى منه الديون ؛ أمَّا بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها بردّ عيْنه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلَّا بعد تحقيق الحساب ؛ وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ، ثم ينبغي أن يحاسب النفْس على جميع العمر ؛ يومًا يومًا ، وساعةً ساعة،في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نُقِلَ عن توبة بن الصمة ، فهكذا ينبغي أنْ يُحَاسِبَ نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمىٰ العبدُ بكلِّ معصية حجرًا في داره ، لامتلأتْ دارُه في مدَّة يسيرة قريبةٍ مِن عمره ، ولكنَّه يتساهل في حفْظ المعاصي ، والملَكَان يحفظان عليه ذلك ، ﴿ **أحْصَاهُ اللهُ ونَسُوه** ... ﴾ الآية [المجادلة : ٦] .

إزراؤهم علىٰ أنفسهم :

إذا ما اشتدَّ الصالحون في محاسبة أنفسهم ؛ مقتوا أنفسَهم ، ونظروا إليها بعين النقص .

قال مطرّف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهمّ لا تردّ الجميع من أجلي .

وقال بكر بن عبد الله المزني بعرفة : ما أحلىٰ هذا الجمع ، لولا أني فيهم .

وكان بكر رحمه الله إذا رأىٰ شيخًا قال : هذا خير مني ، هذا عبد الله قبلي . وإذا رأىٰ شابًّا قال : هذا خير مني ، ارتكبتُ مِن الذنوب أكثر مما ارتكب .

وقال مالك بن دينار : إذا ذُكر الصالحون ، فأُفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال أيوب السختياني : إذا ذكر الصالحون ، كنتُ عنهم بمعزِل .

وقال سفيانُ الثوري : جلست ذات يوم أحدّث ومعنا سعيدُ بن السائب الطائفي ، فجعل سعيد يبكي حتى رحمتُه ؛ فقلت : يا سعيد ، ما يُبكيك وأنت تسمعني أذْكُر أهلَ الخيرِ وفعالهم ؟ قال : يا سفيان ، وما يمنعني من البكاء ، وإذا ذكر مناقبُ أهل الخير ، كنتُ منهم بمعزِلٍ . قال سفيان : حُقَّ له أن يبكي .

وقال يونس بن عبيد : إني لأعدّ مائة خصلة من خصال الخير ، ما أعلم أن في نفسي واحدة منها .

وقال صلةُ بنُ أشيم : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ، أوَ مثلي يجترىء أنْ يسألك الجنَّة ؟!.

وقال محمد بن واسع : لو كان للذنوب ريحٌ ، ما قدر أحد أن يجلسَ إليَّ ، أو لو كانت للذنوب رائحة ، ما استطاع أحد أن يجالسني من نَتَن رائحتي . ورأى رحمه الله ابنًا له وهو يخطر بيده ، فقال : ويحك ! تعالَ ، أتدري مَن أنت ؟ أُمُّك اشتريتُها بمائتي درهم ، وأبوك ! فلا أكثر الله في المسلمين ضرْبَه . أو قال نحوه .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بطيئًا بطينًا . متلوِّثًا مِنَ الخطايا ، أتمنَّى على الله الأماني[1] .

ولقي مالك بن دينار ثابتًا البناني ، فقال له ثابت : يا أبا يحيى ، كيف بك ؟ قال : كيف بمن هو ظاهرُ العيوب كثيرُ الذنوب ، مستورٌ على

---

(١) الحلية ٥ / ٢٨٧ .

غير استحقاق ، فكيف بك يا أبا محمد ؟ قال : فكتف ثابت يده ، ومدَّ عنقه ، وخفض رأسه ، وقال : هذا عذرُ الخطَّائين الأشراء[١]. وأقبلا يبكيان حتى سقطا[٢].

المرابطة الرابعة : معاقبةُ النفسِ علىٰ تقصيرها :

مهما حاسَب نفسه ، فلم تسلم عن مُقَارفة معصية ، وارتكاب تقصير في حقّ الله تعالىٰ ، فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه إنْ أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأَنِسَت بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سببَ هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوةِ نَفْسٍ ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير مَحْرم ينبغي أن يعاقب العين بمنْع النظر ، وكذلك يعاقب كلَّ طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته ، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة .

حَسَّان بن أبي سنان :

عن عبد الجبار بن النضر السلمي قال : مرَّ حسان بن أبي سنان بغرفة فقال : متىٰ بُنيتْ هذه ؟ ثم أقبل على نفسه ، فقال : تسألين عمّا لا يَعنيك ؟! لأعاقبنَّك بصوم سنةٍ . فصامها[٣].

رياح القيْسي :

« قال مالك بن ضيْغم : جاء رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ،

---

(١) الأشراء جمع شرير كأشرار .
(٢) محاسبة النفوس صـ ٥٤ – ٥٥ .
(٣) حلية الأولياء ٣ / ١١٥ ، ومحاسبة النفس صـ ٤٢ ، وصفة الصفوة ٣ / ٣٣٩ ، والإحياء ٥ / ٣٩٣ .

فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة؟! أهذا وقت نوم؟! ثم ولّى منصرفًا، فأتبعناه رسولًا ، فقلنا : قل له : ألا نوقظه لك ؟ قال : فأبطأ علينا الرسول ، ثم **جاء وقد غربتِ** الشمس ، فقلنا : أبطأتَ جدًّا ، فهل قلت له ؟ قال : هو أشغل من أن يفهم عني شيئًا ؛ أدركتُه وهو يدخل المقابر ، وهو يعاتب نفسه ، وهو يقول : أقلتِ : أنومٌ هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليكِ ؟ ينام الرجل متى **يشاء . وقلتِ : هذا وقت نوم ؟ وما يُدريكِ أنَّ هذا ليس** وقت نوم ؟ تسألين عما لا يعنيك ، وتَكلَّمين بما لا يَعنيك ؟! أمَا إن لله عليَّ عهدًا لا أنقضه أبدًا ؛ لا أُوسدُكِ الأرض لنوم حَوْلًا ، إلا لمرضٍ جاء بكِ ، أو لذهاب عقل زائلٍ ، سوءةً لك ، **سوءةً لك ، أما تستحين ، كم** توبِّخين ؟! وعن غيّك لا تنتهين ! قال : وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني ، فلما رأيتُ ذلك ، انصرفتُ وتركتُه »[(١)].

وعن **محمد** بن المنكدر ، عن أبيه أنّ تميمًا الداريّ نام ليلة ، لم يقمْ يتهجد فيها حتى أصبح ، فقام سنة لم ينم فيها ، عقوبةً للذي صنع[(٢)].

عَابِدٌ يحلفُ أنْ لا ينامَ علىٰ فراشٍ أبدًا :

قالَ طلق بن معاوية : قدِم رجل منّا - يُقال له : هند بن عوف - من سفر ، فمهّدتْ له امرأتُه فراشًا ، وكانت له ساعة من الليل يقومُها ، فنام عنها حتى أصبح ، فحلف أن لا ينام علىٰ فراش أبدًا .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفسٌ أبغضُ إليَّ منها ، فكيف أعطيها شهواتها ؟!

---

(١) الحلية ٦ / ١٩٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٧ - ٥٨ ، وصفة الصفوة ٣ / ٣٦٨ .

(٢) صفة الصفوة ١ / ٧٣٩ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٨ .

داود الطائي : سَجَن نفسَه قبلَ أنْ يُسجن :

« دخل ابن السماك على داود الطائيّ حين مات ، وهو في بيتٍ على التراب ، فقال داود : سجنتَ نفسك قبل أن تُسجن ، وعذّبتَ نفسك قبل أن تُعذَّب ، فاليومَ ترىٰ ثواب مَن كنتَ له تعمل »(١).

هذا الطائيُ الصالح الذي قال : « إنما نتبلّغ بستره بين خلقه ، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ، ما ذَلَّ لنا لسانٌ أن نُذْكَر بخيرٍ أبدًا » .

وقال : تركتْنا الذنوب ، وإنا لنستحيي من كثير من مجالسة الناس .

« وقال : ما نعوّل إلَّا على حُسن الظنّ بالله تعالىٰ ، فأما التفريط فهو المستولي على الأبدان » .

وقال : « اليأس سبيل أعمالنا هذه ، ولكنّ القلوب تحنُّ إلى الرجاء » .

هذا حال الصادق الذي لو كان في الأمم الغابرة لقصّ الله علينا من أنبائه وخَبَره ، فكيف بالكذابين من أمثالنا ؟!

مجمــع :

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا(٢).

فكذا كانت عقوبة أولي الحزْم لأنفسهم ، والعجب أنك تعاقب عبدك وأَمَتَك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلُق وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزتَ عنهم ، لخرج أمرُهم عن الاختيار وبغوا عليك ،

---

(١) محاسبة النفس صـ ٦٠ ، والإحياء ٤ / ٤٣١ .
(٢) الإحياء ٤ / ٤٣٢ .

ثم تُهمل نفسك ، وهي أعظم عدوٍّ لك وأشدَّ طغيانًا عليك ، وضررُك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإنّ غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلتَ لَعلمتَ أن العيش عيش الآخرة ، وأنّ فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغّص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقَبَة أولىٰ من غيرها .

فإذا حاسَب المرءُ نفسه فرآها قد فارقتْ معصية ، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو وِرْد من الأوراد ، فينبغي أن يؤدِّبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويُلزمها فنونًا من الوظائف ، جبرًا لِمَا فات منه وتداركًا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عُمّال الله تعالىٰ ، فقد عاقَب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة . بأن تصدّق بأرضٍ كانت له ، قيمتُها مائتا ألف درهم .

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة جماعة أحيا تلك الليلة . وأخّر ليلةً صلاةَ المغربِ حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتَين .

وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة .

عن فضالة بن عُبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهدُ مَن جاهد نفسه في الله »[1].

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلمُ مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر مَن هجَر ما نهىٰ الله عنه »[2].

---

(١) صحيح ؛ رواه الترمذي ، وابن حبان ، وأحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٧٩ .

(٢) رواه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، والدارمي ، والطيالسي .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلُ الأعمال ما أُكرِهتْ عليه النفوس .

إنَّ فتنةَ النَّفس والشهوة ، وجاذبية الأرض والدَّعَة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوّقات والمُثبِّطات في أعماق النفس - هي الفتنة الكبرىٰ .

والنفس تَصْهرها المجاهدة ، فتنفي عنها الخَبَث ، وتستجيش كامِنَ قواها المذخورة فتستيقظ . ويكفي قول الله عز وجل : ﴿ **والذينَ جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قال أبو يزيد البسطامي : « إن في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون معه إلى أن تطلبوا المعاصي .

وقال : عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئًا أشدّ عليَّ من العلم ومتابعته .

وقال : عالجتُ كلَّ شيءٍ ، فما عالجتُ أصعب من معالجة نفسي ، ما شَيءٌ أهون عليَّ منها .

وقال : دعوتُ نفسي إلى الله ، فأبتْ عليّ **واستصعبت** ، فتركتُها ومضيتُ إلى الله »[١].

المرابطة الخامسة : مجاهدة النفس :

ومجاهدة النفس قد تشقّ ، ولكنها طريقٌ أكيدٌ وفريدٌ لعلوِّ النفس وشرفها ، وقد يطول بك الأمر فاصبرْ ، وسبيلُك في ذلك كَأَنْ تُسمعها ما ورد في الأخبار من فضْل المجتهدين .

---

(١) الحلية ١٠ / ٣٦ .

ومن أنفع أسباب العلاج : أن تطلب صُحبة عبدٍ من عباد الله مجتهِد في العبادة ، فتلاحظَ أقوالَهُ وتقتدي به .

وكان بعضُهم يقول : كنتُ إذا اعترتْني فترة في العبادة ، نظرتُ إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملتُ على ذلك أسبوعًا ، إلَّا أنَّ هذا العلاج قد تُعُذِّب ، إذْ قد فُقِدَ في هذا الزمان مَن يجتهد في العبادة اجتهاد الأوَّلين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضىٰ تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم ، وما أشدَّ حسرة من لا يقتدي بهم ، فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدّرة ، ثم يأتيه الموت ، ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالىٰ من ذلك .

قيل لفتح الموصليّ : بالله يا فتح ، لِمَ بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنَّك حلّفْتَني بالله ما أخبرتك ؛ بكيتُ الدموع على تخلُّفي عن واجب حقِّ الله تعالىٰ ، وبكيتُ الدمَ على الدموع ؛ لئلَّا يكون ما صحَّت لَي الدموع .

والعينُ لها دَمٌ وَدَمْعٌ سَحٌّ ذا يكتبُ شجوَهُ وهذا يَمْحو

كان الثوري يقول : عند الصباح يحمدُ القوم السُّرىٰ ، وعند الممات يحمدُ القوم التُّقىٰ .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها ، فمهما تمرّدتْ نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ؛ فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عزّ الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب ، وأبعث على الاقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزْتَ عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء . فإن

لم تكن إبلًا فمعزى ، وخيِّر نفسَك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم - وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين - وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترضَ لها أن تنخرط في سلك الحمقَىٰ ، وتقنعَ بالتشبُّه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء . فإن حدَّثَتْكَ نفسُك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يُطاق الاقتداء بهم ، فطالِعْ أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها : يا نفسُ ، لا تستنكفي أن تكوني أقلَّ من امرأة ، فأَخْسِسْ برجل يقصر عن امرأة في أمْرِ دينها ودنياها !

فعليك - إنْ كنتَ من المرابطين المراقبين لنفسك - أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ؛ لينبعث نشاطك ويزيد حرصك ، وإيّاك أنْ تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إنْ تطع أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله .

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردتَ مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب : « حلية الأولياء » ؛ فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم ، وبالوقوف عليه ؛ يستبين لك بُعْدُك وبُعْدُ أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدّثَتْكَ نفسُكَ بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسَّر الخير في ذلك الزمان ؛ لكثرة الأعوان ، والآن : فإنْ خالفتَ أهلَ زمانِك ، رأَوْكَ مجنونًا وسَخِروا بك ، فوافِقْهم فيما هم فيه وعليه ؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم ، والمصيبة إذا عمَّت طابت . فإياكَ أن تتدلَّى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقلْ لها : أرأيتِ لو هجم سيْل جارف يُغرقُ أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم ، ولم يأخذوا حِذْرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرتِ أنتِ على أن تفارقيهم ، وتركبي في سفينة تتخلَّصين بها من الغرق ، فهل يختلجُ في نفسِكِ أن المصيبة إذا عمَّت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم في صنيعهم ،

وتأخذين حِذرك مما دَهاكِ ، فإذا كنتِ تتركين موافقتهم ؛ خوفًا من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد ، وأنت متعرِّضَةٌ له في كلّ حال ؟! ومن أن تطيب المصيبةُ إذا عمَّت ، ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم ؛ حيث قالوا : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٢] . فعليك إذا اشتغلتَ بمعاتبة نفسك وحمْلها على الاجتهاد فاستعصتْ ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجِر عن طغيانها .

المرابطة السادسة : توبيخ النفس ومعاتبتها :

اعلمْ أنَّ أعدىٰ عدوِّك : نفسك التي بين جنبيك ، وقد خُلِقت أمَّارةً بالسوء ، ميَّالةً إلى الشرِّ ، فرَّارةً من الخير ، وأُمِرتَ بتزكيتها وتقويمها ، وقَوْدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذَّاتها ، فإن أهملتَها جمحتْ وشردتْ ، ولم تظفرْ بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذْل والملامة ؛ كانت نفسك هي النفس اللّوامة التي أقسم الله بها ، ورجوتَ أن تصير النفسَ المطمئنةَ ، المدعوةَ إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضيةً مرضيةً ، فلا تغفلنَّ ساعةً عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلنَّ بوعظ غيرك ، ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسِك ، فعظْ نفسَك ، فإنِ اتعظت فعظِ الناس ، وإلَّا فاستحي من الله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الذاريات : ٥٥] . وسبيلُك أن تُقبل عليها فتقرّر عندها جهْلها وغباوتها ، وأنَّها أبدًا تتعزَّز بفطنتِها وهدايتها ، ويشتدُّ أنَفُها واستنكافها إذا نُسِبَتْ إلى الحمق ، فتقول لها :

« **يا نفسُ ، ما أعظمَ جَهْلَكِ !** » :

تدّعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشدَّ الناس غباوة وحمقًا!

أمَا تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟! فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخَطْب الجسيم ؟! وعساكِ اليوم تُختَطَفين أو غدًا ، فأراكِ ترين الموتَ بعيدًا ، ويراه الله قريبًا ! أمَا تعلمين أنّ كلّ ما هو آتٍ قريب ، وأنَّ البعيد ما ليس بآت ؟! أمَا تعلمين أن الموت يأتي بغتةً من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ؟ وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصِّبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كلّ نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة ، فيكون المرض فجأة ، ثم يفضي إلى الموت ، فما لك لا تستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟! أما تتدبرين قوله تعالىٰ : ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنبياء : ١ - ٣] ؟!

ويحكِ يا نفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ! فما أعظم كفرَك ؟! وإن كان مع علْمك باطلاعه عليك ، فما أشدَّ وقاحتَك ! وأقلَّ حياءك ! ويحكِ يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخٌ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه ، وشديد عقابه ؟ أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟! هيهات هيهات ! جرّبي نفسك ! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمام ، أو قرّبي أصبعك من النار ليتبين قدرُ طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ؟ فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالىٰ في مهمّات دنياك ؟!

فإذا قصدك عدوٌّ لِمَ تستنبطين الحِيل في دفعه ، ولا تَكِلينه إلى كرم الله تعالىٰ ؟! وإذا أرهقتْكِ حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم ، فما لك تنزعين الروْحَ في طلبها ، وتحصيلها من وجوه الحِيَل ، فلا تعوّلين على كرم الله تعالىٰ ، حتى يعثر بك على كَنْز ، أو يسخّر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟! أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفتِ أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ .

ويحك يا نفس ! ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة ! فإنك تدّعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٦] ؟! وقال في أمر الآخرة : ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٩] ، فقد تكفّل لك بأمر الدنيا خاصَّة ، وصرَفك عن السعي فيها فكذّبتهِ بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالُب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ، لو كان الإيمان باللسان فَلِمَ كان المنافقون في الدرْك الأسفل من النار ؟!

ويحك يا نفس ! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلَّصتِ ، وهيهات ! أتحسبين أنك تُتركين سُدًى ! ألم تكوني نطفة من مَنيٍّ يُمنىٰ ، ثم كنتِ علَقة فخلق فسوىٰ ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتىٰ ؟! فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك وأجهلك ! أما تتفكَّرين أنه ممَّاذا خَلَقَكِ ؛ من نطفة خلقكِ فقدّرك ، ثم السبيل يسركِ ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذّبينه في قوله ؟! ثم إذا شاء أنشركِ . فإن لم تكوني مكذّبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهوديًّا أخبرك في ألذّ أطعمَتِكِ بأنه يضرك في مرضك ، لَصبرت عنه وتركتِهِ وجاهدتِ نفسكِ فيه ، أفكان

قول الأنبياء المؤيَّدين بالمعجزات ، وقول الله تعالىٰ في كتبه المنزلة أقلّ عندكِ تأثيرًا من قول يهوديٍّ يخبرك عن حدْسٍ وتخمينٍ وظنٍّ ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟! والعجب أنه لو أخبركِ طفل بأن في ثوبك عقربًا ، لرميتِ ثوبَك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافّة الأولياء أقلّ عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ! أم صار حَرُّ جهنم وأغلالها وأنكالها ، وزقومها ومقامعها وصديدها ، وسمومها وأفاعيها وعقاربها ، أحقرَ عندك من عقربٍ لا تُحسِّين بألمِها إلّا يومًا أو أقلَّ منه ! ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالُك لضحِكوا منك وسخروا من عقلك ، فإن كنتِ يا نفس قد عرفتِ جميع ذلك وآمنتِ به ، فما لكِ تُسوّفين العمل ، والموتُ لك بالمرصاد ؟! ولعلّه يختطفك من غير مهلة ، فبماذا أمِنْتِ استعجال الأجل ؟! وهبكِ أنك وُعِدتِ بالإمهال مائة سنة ، أفتظنّين أن من يطعم الدابّة في حضيض العقبة يُفلح ويقدر على قطّع العقبة بها ؟! إن ظننتِ ذلك فما أعظم جهلك !

أرأيتِ لو سافر رجل ليتفقّه في الغربة ، فأقام فيها سنين متعطِّلًا بطّالًا ، يعد نفسَه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنتِ تضحكين من عقله ، وظنِّه أن تفقيهَ النفسِ مما يُطْمَع فيه بمدّة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تُنال من غير تفقُّه ، اعتمادًا على كرم الله سبحانه وتعالى ! ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصّل إلى الدرجات العلا فلعلّ اليومَ آخرُ عمركِ ، فَلِمَ تشتغلين فيه بذلك ؟! فإنْ أوحىٰ إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادَرة ؟ وما الباعث لك على التسويف ؟ هل له سبب إلا عجْزك عن مخالفة شهواتك ، لِمَا فيها من التعب والمشقة ؟! أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قطّ إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكارة

قطّ خفيفة على النفوس ، وهذا مُحَالٌ وجوده ، أما تتأمّلين مذ كم تَعدين نفسَكِ وتقولين : غدًا غدًا ؟ فقد جاء الغد وصار يومًا ، فكيف وجدتِهِ ؟ أما علمتِ أن الغد الذي جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس ، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبّد العبد بقلْعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخّرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شابٌّ قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قطُّ في المشيب ، بل من العَناء : رياضةُ الهَرم ، ومن التعذيب : تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جفَّ وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنتِ أيتُّها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليّة وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدّعين الحكمة ؟ وأيّة حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟!

ولعلَّكِ تقولين : ما يمنعني عن الاستقامة إلَّا حرصي على لذَّة الشهوات ، وقلَّة صبري على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتكِ وأقبحَ اعتذارك ! إنْ كنتِ صادقة في ذلك ، فاطلبي التنعُّم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبدَ الآباد ، ولا مطمَعَ في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنتِ ناظرة لشهوتكِ ، **فالنظر لها في مخالفتها، فَرُبَّ أَكْلة تمنع أكلات** ، وما قولكِ في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ، ليصحَّ ويهنأ بشُرْبِهِ طول عمره ، وأخبره أنه إنْ شرب ذلك مَرِضَ مرضًا مزمنًا ، وامتنع عليه شربُه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حقّ الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ، أم يقضي شهوته في الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد – الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة ، وعذاب

أهل النار - أقلُّ من ثلاثة أيام ، بالإضافة إلى جميع العمر ، وإن طالتْ مدّته . وليتَ شِعْرِي ! ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟! ما أراكِ تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خَفِيٍّ ، أو لحمق جَلِيّ .

أما الكفر الخفي : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلّة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحمق الجلي : فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفاتٍ إلى مَكْره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصّلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقّين لقب الحماقة . فالأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني .

ويحكِ يا نفس ! لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ، ولا يغرّنّك بالله الغرور ، فانظري لنفسك ؛ فما أمْرُك بمهمٍّ لغيرك ، ولا تضيّعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفَس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدّي للآخرة على قدر بقائك فيها .

يا نفس ، أما تستعدّين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جُبّةٍ ولبدٍ وحطبٍ وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيّتها النفس أن زمهرير جهنم أخفُّ بَرْدًا

وأقصر مدّةً من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟! كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدَّة والبرودة ؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيهات ! كما لا يندفع بردُ الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب ، فلا يندفع حَرّ النار وبردُها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرمُ الله تعالىٰ في أن عرَّفكِ طريق التحصُّن ، ويسّر لك أسبابه ، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ؛ كما أن كرم الله تعالىٰ في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك ، وإنما تشترينه لنفسك ؛ إذْ خَلَقَه سببًا لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضًا هو مستغنٍ عنها ، وإنما هي طريق إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، والله غنيٌّ عن العالمين .

ويحك يا نفس ! انزعي عن جهلك ، وقيسي آخرتك بدنياك ، ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [لقمان : ٢٨] ، و﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، و﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وسنة الله تعالىٰ لا تجدين لها تبديلًا ولا تحويلًا .

ويحكِ يا نفس ! ما أراك إلا ألفتِ الدنيا وأنستِ بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكّدين في نفسك مودّتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنتِ مؤمنة بالموت المفرِّق بينك وبين محابّك ، أفترين أن مَن يدخل دار مَلِك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر - لا محالة - إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء ، أم من الحمقىٰ ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لمِلك الملوك ، وما لك فيها إلا مجاز ،

وكلّ ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ؟ ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « أتاني جبريل فقال لي : يا محمد ، عِشْ ما شئتَ ، فإنك ميّت ، وأحببْ من شئتَ ، فإنك مفارِقه ... » الحديث .

ويحك يا نفس ! أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذّ الدنيا ويأنس بها ، مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السُّمِّ المهلك وهو لا يدري ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا ، كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ؟ وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤمّلون ما لا يُدركون ؟ يبني كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقرّه قبر محفور تحت الأرض ، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا ! أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقىٰ على حماقتهم ، واحسبي أنك لستِ ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبُّه والاقتداء ، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبّين على الدنيا ، واقتدي من الفريقين بمن هو أعْقل عندك ، إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ، ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك ! عجبًا لك ! كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلّكِ يا نفس أسكَرَكِ حبُّ الجاه وأدهشكِ عن فهمها ، أو ما تتفكّرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أنَّ كل مَنْ على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحدٌ ممن على وجه الأرض ، ممَّن عَبَدَكِ وسجد لكِ ، وسيأتي زمان لا يبقى ذِكْرُكِ ولا ذكْرُ مَنْ ذَكَرَكِ ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ،

فـ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٦٨] . فكيف تبيعين يا نفسُ ما يبقىٰ أبدَ الآباد ، بما لا يبقى أكثر من خمسين سنةً ، إن بقي ؟! هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنتْ لك الرقاب ، وانتظمتْ لك الأسباب ، كيف ويأبىٰ إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلّتك ، بل أمر دارك فضلًا عن محلّتك ؟ فإن كنتِ يا نفس لا تتركين الدنيا رغبةً في الآخرة ، لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفُّعًا عن خسّة شركائها ، وتنزُّهًا عن كثرة عنائها ، وتوقِّيًا من سرعة فنائها ؟! أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدَ فيكِ كثيرُها ؟! وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتْكِ فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأفٍّ لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخِسَّاء ! فما أجهلَكِ وأخسَّ همَّتَك وأسْقَطَ رأيَكِ ؛ إذْ رغبتِ عن أن تكوني في زُمْرة المقرَّبين ، من النبيّين والصِّدّيقين في جِوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صفّ النِّعال من جملة الحمقىٰ الجاهلين أيامًا قلائل !! فيا حسرة عليك إن خسرتِ الدنيا والدين ! فبادري ويحك يا نفس ، فقد أشرفتِ على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمَن ذا يصلّي عنك بعد الموت ، ومَن ذا يصوم عنك بعد الموت ، ومن ذا يترضّىٰ عنك ربَّك بعد الموت ؟!

ويحك يا نفس ! ما لك إلا أيام معدودة ، هي بضاعتك إن اتَّجرتِ فيها ، وقد ضيَّعْتِ أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيّعتِ منها ، لكنتِ مقصِّرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيَّعتِ البقية وأصررتِ على عادتك ؟! أما تعلمين يا نفس ، أنَّ الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟! أما علمت يا نفس ، أنَّ عسكر الموتىٰ عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلَوْا على أنفسهم

كلهم بالأيمان المغلَّظة ، أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟! أما تعلمين يا نفس ، أنهم يتمنّون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارُك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيَّتهم ، ويوم من عمرك لو بِيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروْه لو قدروا عليه ، وأنت تضيِّعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟!

ويحك يا نفس ، أما تستحيين ؛ تُزيِّنين ظاهرك للخلْق ، وتُبارزين الله في السر بالعظائم ، أفتستحيين من الخلْق ولا تستحيين من الخالق ؟! ويحك ، أهو أهون الناظرين عليك ؟! أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطِّخة بالرذائل ، تَدْعِين إلى الله وأنت عنه فارَّة ، وتُذكِّرين بالله وأنت له ناسية ؟! أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أنْتَنُ من العذرة ، وأن العذرة لا تطهِّر غيرها ؟! فَلِمَ تطمعين في تطهير غيرك ، وأنت غير طَيِّبةٍ في نفسك ؟! ويحك يا نفس ، لو عرفت نفسك حقَّ المعرفة ، لظننتِ أن الناس ما يُصيبهم بلاء إلا بِشُؤْمِك ! ويحك يا نفس ، قد جعلتِ نفسك حمارًا لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك ، وفيه من الآفات ما لو نجوتِ منه رأسًا برأس لكان الربح في يديكِ ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئةٍ واحدة بعد أن عَبَدَهُ مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيِّه وصفيِّه ؟!

ويحك يا نفس ، ما أغْدَرَكِ ! ويحك يا نفس ، ما أوْقَحَكِ ! ويحك يا نفس ، ما أجْهَلَكِ وما أجْرَأكِ على المعاصي !! ويحك ، كم تعقِدين فتنقُضين ! ويحك ، كم تعهدين فتغدرين ! ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك ، كأنك غير مرتحلة عنها ؟! أما تنظرين إلى أهل القبور ، كيف كانوا جمعوا كثيرًا ، وَبَنوْا مَشِيدًا ، وأمَّلُوا بعيدًا ، فأصبح

جمْعهم بورًا ، وبنيانهم قبورًا ، وأملُهم غرورًا ؟! ويحك يا نفس ، أما لكِ بهم عِبْرة ! أما لك إليهم نظرة ! أتظُنِّين أنهم دُعُوا إلى الآخرة ، وأنت من المُخلَّدين ؟! هيهات هيهات ساء ما تتوهَّمين ! ما أنت إلا في هدْم عمركِ منذ سقطتِ من بطن أُمِّك ، فابني على وجه الأرض قصركِ ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التَّراقي ، أن تبدو رُسُل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبُشرى بالعذاب ؟! فهل ينفعكِ حينئذٍ الندم ، أو يُقبل منك الحزن ، أو يُرحم منك البكاء ؟! والعَجَب كلّ العجب منك يا نفس ، أنك مع هذا تدَّعِين البصيرة والفِطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مالٍ يزيد وعمرٌ ينقص ؟! ويحك يا نفس ، تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلةٌ عليك ، وتُقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله ، وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسُّرهم عند الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟!

فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمَرَهُ في الدنيا ونهاهُ ، حتى يسأله عن عمله دقيقهِ وجليلهِ سرِّه وعلانيتِهِ ، فانظري يا نفس بأي بدنٍ تَقِفين بين يدي الله ، وبأي لسانٍ تُجيبين ، وأعِدِّي للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملي بقية عمرك في أيامٍ قصار لأيامٍ طوال ، وفي دار زوالٍ لدار مقامةٍ ، وفي دار حزنٍ ونَصَبٍ لدار نعيمٍ وخلودٍ ، اعملي قبل أن لا تعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروجَ الأحرار ، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فربّ مسرورٍ مغبون ، ورب مغبونٍ لا يشعر ، فويلٌ لمن له الويلُ ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل

ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نَظَرُكِ يا نفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسَعْيُك لها اضطرارًا ، ورفْضُك لها اختيارًا ، وطَلَبُك للآخرة ابتِدارًا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شُكر ما أُتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي ، واعلمي يا نفس أنه ليس للدِّين عِوَض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيَّته الليل والنهار ، فإنه يُسار به وإن لم يَسِر .

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإنّ من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التَّهجُّد والقيام ، فإن لم تزل ، فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم يُزِل ، فبقِلَّة المُخالطة والكلام ، فإن لم تُزِل ، فَبِصِلَةِ الأرحام واللُّطف بالأيتام ، فإن لم تُزِل ، فاعلمي أنّ الله قد طَبَعَ على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطِّني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلًا ، وخلق النار وخلق لها أهلًا ، فكلٌّ ميَسَّر لما خُلِقَ له ، فإن لم يبقَ فيك مجالٌ للوعظ ، فاقنطي من نفسك - والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك - فلا سبيل لك إلا القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طُرُق الخير عليك ، فإن ذلك اغترارٌ وليس برجاء ، فانظري الآن ، هل يأخُذُكِ حزنٌ على هذه المصيبة التي ابتُلِيتِ بها ، وهل تسمح عينُك بدمعةٍ رحمةً منكِ على نفسكِ ، فإن سمحت - فمُستَقَى الدَّمْعِ من بحرِ الرحمة - فقد بقي فيك موضعٌ للرجاء ، فواظبي على النِّياحة والبكاء ، واستعيني بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثة ، ولا تملِّي طُول الشِّكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويُغيثك ، فإن مصيبتك قد عظُمت ، وبليَّتك قد تفاقمتْ ،

وتَمَادِيك قد طال ، وقد انقطعتْ منك الحِيَل ، وراحت عنك العِلَل ، فلا مذهب ولا مَطْلَب ، ولا مُستغاث ولا مَهْرب ، ولا ملجأ ولا منجا ، إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتَّضرُّع ، واخشعي في تضرُّعك على قَدْرِ عِظَم جهلك وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذليل ، ويُغيث الطالب المتلهِّف ، ويجيب دعوة المضطرّ ، وقد أصبحتِ إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقتْ بكِ السُّبُل ، وانسدَّت عليك الطرق ، وانقطعتْ منك الحِيَل ، ولم تنجعْ فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمستغاث به برٌّ رءُوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولي : يا أرحم الراحمين، يا رحمٰن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم يا كريم ، أنا المذنِبُ المُصِرُّ ، أنا الجريء الذي لا أُقلع ، أنا المُتمادِي الذي لا أستحي ، هذا مقام المتضرِّع المسكين والبائس الفقير ، والضعيف الحقير والهالك الغريق ، فعجِّل إغاثتي وفَرَجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذِقْنِي بَردَ عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوّة عظمتك ، يا أرحم الراحمين . اقتداءً بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبِّه : لمَّا أهبطَ الله آدمَ من الجنة إلى الأرض ، مكث لا ترفأ له دمعةٌ ، فاطَّلَع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكّسٌ رأسه ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : يا آدم ، ما هذا الجهد الذي أرىٰ بك ؟ قال : يا ربّ ، عظُمتْ مصيبتي ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأُخرجتُ من ملكوت ربي ، فصرتُ في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة ، وفي دار النَّصَب بعد الراحة ، وفي دار البلاء بعد العافية ، وفي دار الزَّوال بعد القرار ، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : يا آدم ، ألم أصْطَفِكَ لنفسي ، وأحللتُك داري ، وخَصَصْتُكَ بكرامتي ، وحذَّرتُك سخطي ، ألم أخلقك بيدي ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدتُ لك ملائكتي ، فعصيتَ أمري ،

ونسيتَ عهدي ، وتعرَّضتَ لسخطي ، فوعزَّتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالًا كلّهم مِثْلك يعبدونني ويسبِّحونني ، ثم عصوْني ، لأنزلتُهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء ، يقول في بكائه طول ليله : إلٰهي ، أنا الذي كلَّما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الذي كلما هممتُ بترْك خطيئةٍ عرضت لي شهوةٌ أُخرىٰ . واعبيداه ! خطيئةٌ لم تَبْلَ وصاحبها في طَلَب أُخرىٰ ! واعبيداه ! إن كانت النار لك مقيلًا ومأوىٰ ! واعبيداه !! إن كانت المقامع لرأسك تُهَيّأ ! واعبيداه ! قضيت حوائج الطالبين ولعلَّ حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمَّار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدًا يناجي ربه ، وهو يقول : يا ربّ ، وعزَّتك ما أريد بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتُك - إذ عصيتُك - وأنا بمكانك جاهلٌ ، ولا لعقوبتك متعرِّض ، ولا لنظرك مستخفّ ، ولكنْ سوَّلتْ لي نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرَّني سَتْرُكَ المُرخى عليَّ ، فعصيتك بجهلي وخالفتُك بفعْلي ؛ فمِنْ عذابك الآن مَنْ يستنقذني ، أو بحبلِ مَنْ أعتصم إن قطعتَ حبلَكَ عني ؟! واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا ، إذا قيل للمخفّين : جوزوا ، وقيل للمثقلين : حطّوا ، أمع المخفِّين أجُوزُ ، أم مع المثقلين أحطّ ؟ ويلي ، كلما كَبرتْ سِنِّي كثُرت ذنوبي ! ويلي ، كلما طال عمري كثرت معاصيّ ! فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟! أما آن لي أن أستحي من ربي ؟!

معاتبة نفْس ونَفَثات صدر :

هذي معاتبة نفس ... نفثات صدر ، وأشجان قلبٍ يمَّم وجهه شطر الدار الآخرة مستراح العابدين ، يبثُّها في خشوعٍ وصدْقٍ تابعيٌّ جليل ، من القرون الخيريَّة ، من تلامذة الصحابة ، تربَّى وصُنع على أعينهم .. شرب

من سلسبيل القرآن والسنة ، وكحَّل أجفان قلبه بهما . فانظر إليه كيف يستمطر الدمع حين يقول في مناجاته . يقول عون بن عبد الله بن عُتبة :

« ويحي ، بأي شيءٍ لم أعْصِ ربي .. ويحي ، إنما عصيته بنعمته عندي .. ويحي من خطيئةٍ ذهبت شهوتُها وبقيت تبعتُها عندي ، في كتابٍ كتبَهُ كُتَّابٌ لم يغيبوا عني .. واسوأتاه ، لم أستحيهم ولم أُراقب ربي .. ويحي ، نسيت ما لم ينسوا مني .. ويحي ، غفلت ولم يغفلوا عني ، لم أستحيهم ولم أراقب .. واسوأتاه ، ويحي ، حفظوا ما ضيّعتُ مني .. ويحي ، طاوعت نفسي وهي لا تطاوعني .. ويحي ، طاوعتها فيما يضرُّها ويضرّني .. ويحها ، ألا تطاوعني فيما ينفعها وينفعني .. أريد إصلاحها وتريد أن تفسدني .. ويحها ، إني لأُنصفها وما تُنصفني ، أدعوها لأُرشدها وتدعوني لتُغويني .. ويحها ، إنها لعدوٌّ لو أنزلتها تلك المنزلة مني .. ويحها ، تريد اليوم أن تُردِيني ، وغدا تُخاصمني .

ويحي ، كيف أفرّ من الموت وقد وكّل بي .. ويحي ، كيف أنساه ولا ينساني ؟! ويحي ، إنه يقصُّ أثري ، فإن فررتُ لقيني ، وإن أقمتُ أدركني .. ويحي ، هل عسى أن يكون قد أظلَّني فمسّاني وصبّحني ، أو طَرَقني فَبَغَتَني .. ويحي ، أزعم أن خطيئتي قد أقرحتْ قلبي ، ولا يتجافى جنبي ولا تدمع عيني ولا تسهر لي ، ولا يسهر ليلي.. ويحي ، كيف أنام على مثلها ليلي .. ويحي ، هل ينام على مثلها مثلي .. ويحي ، لقد خشيت ألا يكون هذا الصدق مني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .

ويحي ، كيف لا توهن قوتي ولا تعطش هامتي ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، كيف لا أنشط فيما يطفيها عني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، كيف لا يُذهِبُ ذِكْرُ خطيئتي كسلي ، ولا يبعثني إلى ما يُذهبها عني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، لا تناهى

الأُولى من خطيئتي عن الآخرة ، ولا تذكِّرني الآخرة من خطيئتي بسوء ما ركبتُ من الأُولى ، فويلي ثم ويلي إن لم يتم عفو ربي .. ويحي ، لقد كان لي فيما استوعبتُ من لساني وسمعي وقلبي وبصري اشتغال .. فويل لي إن لم يرحمني ربي .

ويحي إن حُجِبتُ يوم القيامة عن ربي ، فلم يزكِّني ، ولم ينظر إليَّ ، ولم يكلِّمني ، فأعوذ بنور وجهه من خطيئتي ، وأعوذ به أن أُعطىٰ كتابي بشمالي أو وراء ظهري ، فيسود به وجهي ، وتَزْرَق به مع العمىٰ عيني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، بأي شيء أستقبل ربي ؟! بلساني أم بيدي أم بسمعي أم بقلبي أم ببصري ، ففي كل هذا له الحُجَّة والطِّلْبةُ عندي ، فويل لي إن لم يرحمني ربي .. كيف لا يشغلني ذكْر خطيئتي عما لا يعنيني ؟! ويحك يا نفسُ ، ما لكِ تنسين ما لا يُنسى ؟! وقد أُوتيتِ ما لا يُؤتَى ، وكل ذلك عند ربي يُحصىٰ ، في كتابٍ لا يَبيد ولا يَبْلىٰ .. ويحك ، لا تخافين أن تُجْزَيْ فيمنْ يُجْزَىٰ ، يوم تُجزىٰ كل نفسٍ بما تسعىٰ ، وقد آثرتِ ما يفنىٰ على ما يبقىٰ .

يا نفس ويحك ، ألا تستفيقين مما أنت فيه ، إن سقمتِ تندمين ، وإن صححت تأثمين ، ما لك إن افتقرتِ تحزنين ، وإن استغنيت تُفتنين ، ما لك إن نشطتِ تزهدين ، فَلِمَ إن دُعِيتِ تكسلين ؟! أراك ترغبين قبل أن تنصبي ، فلم لا تنصبين فيما ترغبين .. يا نفس ويحك ، لِمَ تُخالفين ؟! تقولين في الدنيا قَوْلَ الزاهدين ، وتعملين فيها عمل الراغبين .. ويحك ، لِمَ تكرهين الموت ؟! يا نفس ويحك ، أترجين أن تَرْضَيْ ولا تُراضين ، وتُجَانبين وتَعْصين .. ما لك إن سألتِ تُكثرين ، فلم إن أنفقت تُقتِّرين ؟! أتريدين الحياة ، تعظمين في الرهبة حين تسألين ، وتقصرين في الرغبة حين تعملين ، تريدين الآخرة بغير عمل ، وتُؤَخِّرين التوبة لطُول الأمل .. لا تكوني

كَمَنْ يقال : هو في القول مُدِلّ ، ويستعصب عليه الفعل .

ويح لنا ما أغَرَّنا ، ويح لنا ما أغفلنا ، ويح لنا ما أجْهَلَنا .. ويح لنا لأيّ شيءٍ خُلقنا ، أللجنة أم للنار .. ويح لنا أيّ خطرٍ خَطَرْنا ، ويح لنا من أعمال قد أخطرتْنا .. ويح لنا ممّا يراد بنا ، ويح لنا كأنما يعني غيرنا .. ويح لنا إن خُتم على أفواهنا ، وتكلَّمتْ أيدينا ، وشهدتْ أرْجُلنا .. ويح لنا حين تفتش سرائرنا ، ويح لنا حين تشهد أجسادنا .. ويح لنا مما قصَّرنا ، لا براءة لنا ولا عُذر عندنا ، ويح لنا ما أطْوَلَ أملنا .. ويح لنا حيث نمضي إلى خالقنا ، ويح لنا ولنا الويل الطويل إن لم يرحمنا ربنا ، فارحمنا يا ربنا .

ويحي ، كيف أغفل ولا يُغفل عني ، أم كيف تَهْنَؤُنِي معيشتي واليوم الثقيل ورائي ؟! أم كيف لا يطول حزني ولا أدري ما يُفعل بي ؟! أم كيف تَهْنَؤُنِي الحياة ولا أدري ما أجلي ، أم كيف تعظُم فيها رغبتي والقليل منها يكفيني ؟! أم كيف آمن ولا يدوم فيها حالي ؟! أم كيف يشتدّ حبي لدارٍ ليست بداري ؟! أم كيف أجمع لها وفي غيرها قراري ؟! أم كيف يشتدّ عليها حرصي ولا ينفعني ما تركت فيها بعدي ؟! أم كيف أوثرها وقد أضرَّتْ بمن آثرها قبلي ؟! أم كيف لا أبادر بعملي قبل أن يغلق باب توبتي .. أم كيف يشتدّ إعجابي بما يزايلني وينقطع عني ؟! أم كيف أغفل عن أمر حسابي وقد أظلَّني واقترب مني ؟! أم كيف أجعل شغلي فيما قد تُكفِّل به لي ؟!

أم كيف أعاود ذنوبي وأنا معروضٌ علي عملي ؟! أم كيف لا أعمل بطاعة ربي وفيها المنجاة مما أحذر على نفسي ؟! أم كيف لا يكثر بكائي ولا أدري ما يُراد بي ؟ أم كيف تقرّ عيني مع ذِكْر ما سلف مني ؟! أم كيف أعرِّض نفسي لما لا يقوىٰ له هوائي ؟! أم كيف لا يشتدّ هَوْلي

مما يشتدّ منه جزعي ؟! أم كيف تطيب نفسي مع ذكْر ما هو أمامي ؟! أم كيف يطول أملي والموت في أثري ؟! أم كيف لا أراقب ربي وقد أحسن طلبي ؟! ويحي ، فهل ضرَّت غفلتي أحدًا سوائي ؟! أم هل يعمل لي غيري إن ضيَّعت حظِّي ؟! أم هل يكون عملي إلا لنفسي ؟ فَلِمَ أدَّخِر عن نفسي ما يكون نفعه لي ؟!

ويحي ، كأنه قد تَصرَّم أجلي ثم أعاد ربي خلْقي كما بدأني ، ثم أوقفني وسألني وسأل عني وهو أعلم بي ، ثم أُشهِدتُ الأمر الذي أذهلني عن أحبابي وأهلي ، وشُغلت بنفسي عن غيري ، وبُدِّلَتِ السمٰوات والأرض ، وكانت تطيعان وكنت أعصي .. وسُيِّرت الجبال وليس لها مثل خطيئتي .. وجُمِع الشمس والقمر وليس عليهما مثل حسابي .. وانكدرت النجوم وليست تُطلب بما عندي .. وحُشرت الوحوش ولم تعمل بمثل عملي .. وشاب الوليد وهو أقل ذنبًا مني .. ويحي ، ما أشدَّ حالي وأعظم خطري ، فاغفر لي » .

ومُعاتَبَة أُخرىٰ أعْطَر من أريج الزهور :

يا نفس ، ما لي أراك مطمئنّة ، والغالب عليك الفرح والسرور ، وشواهد المقت باديةٌ عليك ، ودلائل الغضب بيِّنة فيك في كثيرٍ من أحوالك ؟! قد اطمأنَنْتِ وسكنتِ ، وكثيرًا ما يغلب عليك الفرح والسرور في أكثر الأحوال ، وأنت ترين فيك من الله دلائل الغضب ، وشواهد المقت ، ثم لا تبكين ، ولا لذلك تكترثين .. كأنك لغضب الله تطيقين ، ولعذابه تجهلين .. هيٰهات هيٰهات .. إنك عن دون الله لتضعفين .. ومِنْ أَقَلِّ أذى الدنيا تجزعين .. فكيف بشدَّة غضب الله وأليم عذابه ؟! ولكن عقوبات الله منعتْك من أن تجزعي .. فكيف يصنع الله بمن لا يجزع من غضبه ، ولا يتوجَّع من أليم عذابه ، ولا يصلح على آدابه ، ولا يُقبل عليه بالإقلاع ، شكرًا

لدوام نعمائه ، ولا ينحاش ولا يهرب إليه لما يرى من سوءِ آثار عقوباته في الدنيا خاصَّة دون معاشه في نفسه وعياله .

ويحك يا نفس ، ألم تري أن مولاك قد أبعدك عمَّا كان يتعاهد به قلبك من هيجان التَّيقُّظ ، وقوَّة التَّنبُّه والدَّوام على ذكْره ، والجَزَع من نسيانه ، وشدّة عذابه ؟! لقد رغَّب الله قلبك في أوَّل أمرك .. وتأديبًا كانت بليَّة الله فيك .. وتقريبًا منه إليك .. وتحنُّنًا منه عليك .. فنبَّهَ قلبَكِ عن الغفلات .. ومنَّ عليك بجُود الحلاوة عند الطاعات .. وشدّة التّلذُّذ بالمناجاة .. فأصبحتِ وأمسيتِ مُباعَدَةً من الله .. مطرودةً عن بابه .. منحَّاةً من قُربه .. قد حلَّ بك منه الخذلان .. تتمادين في الغفلات فلا يوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا يُنبِّهك ، وتكون منك الزَّلَّة بعد الزّلّة ، فلا يدوم لك الحزن ، ولا يطول بك الغَمُّ ، بل قد قَلَبَ التَّنبُّهَ فيك ، فصار لا ينبِّهك ولا يذكِّرك .. ثم يحجبك بالعقوبة عن استعمال التَّذكُّر وطاعة التَّنبُّه .. فصرت في شرِّ حال ، ويليه منزلتان : طُول الغفلة ودوام النسيان لنظر الجليل العظيم ، ثم شهوتك لترْك استعمال التَّذكُّر وطاعة التَّنبُّه .. فالحال الأُولى : طول غفلة لِقلَّة المُبالاة بأن يطَّلع وينظر . والحال الثانية : جُرأَةٌ وإقدام عليه ، مع التَّذكير والتَّنبيه ، إلى أن صار ذلك يُباعِد منه ، ويحرم الخلودَ في جواره .

فهل سمع السامعون بأَسوأَ منك حالًا ؟! وهل عرف العارفون بأَشَرَّ من منزلتك ؟ ثم مع ذلك الحزن عنك زائل ، والغَمُّ لك مُباين ، والتَّوجُّع لك غيرُ لازِم ، وقد رآك مولاك في أسباب الدنيا بأَضداد ذلك كله ، شُغلك بطَلَبها دائم .. لا تملّين .. تنشطين وتقوين إذا رأَيتِ الزيادات في معاشك .. وتنكسرين إذا رأيت النقصان فيه .. ولا يكون ذلك فيما بينك وبين ربِّك إلَّا في أقلّ الأوقات .. فقد أصبحتِ عند الله مُفتَضَحة .. ومن البعد منه غير مكترثة .. لقد أصبحتِ وأمسيتِ وهو عليك غير مُقبِل ، ولك غيرُ

مُقرِّب ، مُقصَاةٌ منه مُباعدَةٌ عنه ، ولولا تفضُّله عليك بالعفو ، لَسَلَبَكِ نعمةَ الدِّين كلّها ، ولكنّه يُبقي من العقوبة تفضُّلًا وإحسانًا .. مِنْ أجْلِ ذلك ، وجب حُبُّه على المطيعين والعاصين جميعًا .

ويحك ، ما لك في الجهل مفعمة مغموسة .. وفي البلايا متلوِّثة .. ويحك ، هل عقلتِ مَنْ تعصين ؟! بل هل عقلت من تعوقين ؟! ويحك .. تتمادين في الغفلات فلا يُوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا يُنبِّهك .. فكيف لا يغلب ذلك عليك ، وأنت كل يوم في نقصان ، وكلّ يوم لا تفرّين من العصيان ؟! إن تُبت لم تلبثي أن ترجعي عن توبتك ، وعاودت في تخبُّطك ، وإن عزمتِ لم تُقلعي ، وإن فعلت ما عزمت عليه فمن الآفات لم تسلمي ؛ عن حبِّ محمدةٍ أو عُجْب بما عملتِ .. تُعاهدين فتغدُرين ، وتعدين فتُخلفين ، وتحلفين بالله ثم لا تَفِين ، فلو كنت جاهلة كان أخَفَّ للحُجَّة عليك ، وكان أبْعَد لك عن الجُرأة على مولاك .. ولكن عظُمت عليك الحُجّة ، ودامت منك الجرأة ، إذ كنت للآثار طالبة ، وللقرآن حافظة ، وفي الدقائق من الحكمة مُناظِرة ، وبِحُسْن العظات ناطقة ، تدعين إلى الله وأنت منه فارَّة ، وتذكِّرين بالله وأنت له ناسية ، تُعظِّمين الله بالقول وأنت بالفِعْل غير معظِّمة .

ويحك ، أنت اليوم مهملة .. والله لك مُنْظِر .. وعن قليلٍ تنقطع المدّة ، وتزول النَّظِرة .. ولو قد تغشَّاكِ الموت وسياقه ، فلقد حضركِ العدم ، فأَعطيتِ النّيّةَ الصحيحةَ حيث لا يُقبل .. ويحك ، أتدرين عمَّا ينكشف الغطاءُ ؟! أما تخافين لو بلغت منك النفس التَّراقي ، أن تبدو رسل الله منحدرة من السماء بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبُشرىٰ العذاب ، فهل ينفعك حينئذٍ الندم ، أو يُقبل منك الحزن ، أو يُرحم منك البكاءُ ؟! ويحك ، بادري حلول الأجل بالتوبة .. واغتنمي عيش كل ساعة ..

فإنك في السَّيْر مُجِدَّة .. وفي كل وقت من لقاءِ الله تقربين .

ويحك ، تكلَّفي الحزن واطلبيه ؛ لعلَّك من الحزن الأكبر تنجين .. ويحك ، كدِّري الفِكر فيما سلف منك من الذنوب ، وعوِّدي البكاءَ عينًا بالدموع ، قبل سيلها في نار جهنم .. ويحك ؛ استعيني بأرحم الراحمين .. واشتكي إلى أكرم الأكرمين .. وأديمي الاستغاثة ، ولا تملِّي طُول الشِّكاية ، لعلّه أن يرحم ضعفك ويُغيثك .. فإن مصيبتك قد عظُمت .. وبليَّتك قد تفاقمت .. وتماديك قد طال .. قد انقطعت منك الحِيَل ، وانزاحتْ إليك العِلَل ، فلا مَهْرب ولا مَطْلب ، ولا استغاثة ولا ملجأ ولا منجا ، إلَّا إلى مولاك .. فاضرعي إليه .. واخشعي في تضرُّعك على قدْرِ عظيمِ جُرمِك ، وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذَّليل ، ويُغيث الطالب المتلهِّف ، ويُجيب دعوة المضطرّ ، فقد - والله - أصبحتِ إليه مضطرَّة ، وإلى رحمته محتاجة ، فألِحِّي بالطلب للفَرج ، واشتكي لعِظَم المصيبة ، فإن المطلوب إليه كريم ، والمسئول إليه جواد ، والمستغاث به رءُوف .

فأديمي الاستغاثة فإنه يُغيثك .. وإن من إغاثته لك أن منَّ عليك بالاستغاثة ، فإن أدَمْتِ ، أتمَّ ما منَّ به عليك ، وأجاب الدعوة ، وعجَّل الإغاثة ، فقد - والله - ضاقت بك السُّبُل ، وانسدَّتِ الطرق ، وانقطع منك الحبل ، ولم تنفع فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ .. فليَرَك مولاك في مقام المضطرّين الحيارىٰ الملهوفين ، لأنه إن آخَذَكِ بعظيمِ جُرمِك ، لم يُغِثك ، وإن صفحَ بجُوده - أن يُؤاخذك - أسْرَعَ إجابتَكِ .

فادعي دعاء من لا يستأهل أن يُجاب ولا يُغاث ، طامِع من الجواد ألَّا يُناقَش بالسيئات ، ولا يُؤاخَذ بالخطايا ، ويُغيث من يدعو ، وهو عند نفسه لا يستأهل أن يُجاب ، ولكن حَمَلَه على التَّضرُّع ، معرفتُه بكرم المسئول وجُودِ المطلوب ورحمةِ المستغاث .

فاعقلي ما فاتك من طاعة ربك ، وما أفنيتِ من عمرك في غير التَّقرُّب إليه .. فيا أسفاه على طاعته .. ويا حُزناه على رضاه .. ويا خَجَلاه ممَّا اطَّلع عليه .. ويا طُول كمدِك إنِ حَرَمَك جِوارَهُ في الآخرة .. كما حرمك صدْق معاملته في دنياك .. ويا تَقَلْقُلَك في حرِّ جهنم إن لم يعفُ عنك .. ويحك ، اذكري ما يحلّ بأهل عذابه من اشتعال النار في جميع أجسامهم ، ووصولها إلى أحداقهم ، ودخولها في أجوافهم .. ويحك ، كيف ترين وجعَ قلبِ عبدٍ دخلت النار في عينه ، ونفذت إلى جميع بدنه ؟! بل كيف بنارٍ تأكل أمعاءَه وكبدَهُ ؟! بل كيف بلسانٍ من نار يدخل في جوف قلبه ، ثم يلتهب في جميع أعضاءِ جسده ؟!

ويحك ، أتأمنين أن يكون هذا - غدًا - نَعْتَكِ وَصِفَتَكِ ، وهذه حالك ؟! ويحك ، ارحمي ضعف جسمك ، ولا تُخاطري به ، ورِقّي لقلَّة صبرك ، ولا تغترّي .. إذا لم ترحمي بَدَنَكِ من النار ، فمن ترحمين ؟! وإذا لم ترِقّي له فعلى من تَرِقِّين ؟! والله لو تُبتِ وأَنَبْتِ وأطعت ، لم آمن عليك أن يَرُدّك ولا يُقيلك ، فاستقيليه عسىٰ أَلَّا يرُدَّك ، ولا تنالين ذلك إلَّا به ، فافزعي إليه فَزَع الهالك ، وتضرَّعي إليه تضرُّع الغريق ، واستغيثي به استغاثة العَطِب ؛ فإن المستغيث مأذونٌ له في الاستغاثة ، والله الداعي موفِّق للدعاء .. فما كان الكريم يَمُنُّ بالاستغاثة ، ويُهيِّج على الطَّلَب ، وهو لا يريد ممن فعل به ذلك أَلَّا يُجيبه .. ولكن ليُكثر المتفضَّل عليه بالدعاء على مقدار نقمته ، وليُلحّ بالطلب على قدْر مسكنته ، فلتقصيرٍ في ذلك ردّ أكْثَر المستغيثين .

فأَمَّا مَنْ فتحَ الله عليه بابَ الاستغاثة ، ومَنَّ عليه بالتَّضرُّع إليه ؛ فعظَّم مِنَّتَهُ بذلك ؛ وعلم أنه أُعطي ما لم يستأهله ، ثم داومَ وواظبَ على الطَّلَب ، فلن يخيِّب الله دَعوتَهُ ، ولن يُمسك إجابته .. أبىٰ الجوادُ بكرمه وجوده ،

أن يَرُدّ مَنْ أراده فاشتكِي إليه .. فداومي ولا تملّي ، فمن كان في مِثْل حالك لا يملّ دوام التَّضرُّع ، لشدَّة مسكنته .. ولعظيم مصيبته .

ويحك ، إن لم تخافي العذاب ، ولم ترحمي جسدك ، أما تشتاقين أن يحلّ بك من الله الرضا ، وينظر إليك بالحظوة ؟!! ويحك ، أما تحِنِّين إلى طِيب جوار الله في جنته ، في روحٍ لا يزول ، ونعيمٍ لا يبيد ، وقرَّة عينٍ لا تنقطع ، فوق الأماني ممَّا تشتهيه الأَنفس ، مع البقاء واليقين بالرضوان ؟!! وأعظم من ذلك تشتاقين إلى أن تزوري مولاك ، وتسمعي كلامه لك بالترحيب ، ويكشف الحجاب فتنظري إلى من لا يشبهه شيءٌ في جلاله ؟

ويحك ، في هذه الدار وَجَبَ ذلك كلُّه للعُمَّال ، وفي هذه حلَّ الحرمانُ كلُّه على الجُهَّالْ ، فعيشُك غنيمة ، وبقيَّة عمرك إقالة ، فافرحي واشكري مولاك أن يكون الموت عاجَلَكِ ، فحال بينكِ وبين الرجوع ، وقطعَ بك عن النُّزوع ، وفاتك طيب جِوار الله الجليل العظيم .

ويحك لا تزهدي في القرب من النار ، ولا تستهيني بطيب الجوار ، ولا تُعرضي عن الرغبة في رضوان الله ، إني لأَقول لك هذا ، ولا أدري أيّ حال عند الله حالُك ؟ بماذا ينظر إليك في ساعتك هذه ؟ بالمحبة والرضوان ؟ أم بالغضب والسخط والحرمان ؟ وأيُّ الدارَيْن دارُك ؟ وأيُّ القرارَيْن قرارك ؟ وأيُّ العيش عيشُك ؟ فَكِلا الدارَيْن قد امتلأ بسكّانها ، ووصل كل واحدة منها أهلها ، فأطلع بقلب فارغ إلى الجنة ، وقد ثوى فيها سُكّانها ، إلى انفساح سعتها ، وبَرْد طيب نسيمها ، وإلى طيب ما يفوح من روائحها ، وإلى حُسْن بناءِ قصورها ، وبهجة حليها وحريرها ، وتلألؤ نورها على أَسِرَّتها وحجالها ، وحسن وجوه أهلها ، ونَضْرة أثر النعيم في وجوههم ، وقربهم من مليكهم ، ويقينهم برضا الله عز وجل

عنهم ، واختلاف الملائكة رُسُلًا من الله إليهم ، وتردُّد الولدان كاللؤلؤ في لذّاتهم ، واضطرار أنهارها على جنادل ياقوتها ، وقد تضمَّنت من أصناف البهجة في عَرَصاتها .

ثم أشرفي بوجهكِ على دار الهون والخزي ، فانظري ببصر قلبك إلى شدة ضيقها ، وتكاثُف ظلمتها ، وانطباق أبوابها ، مسودّة بالعمد عليهم ، **ووهج النيران فيها ، ثم انظري إلى قبيح صُوَر المعذبين فيها ، وإلى** شِدّة نتَن دارهم ، وتهتُّك أجسامهم ، ونتَن مقطعات ما بهم ، وإلى النيران ملتهبة من فوق رؤوسهم وأسافل أقدامهم ، وإلى حِياض الحميم تفور ، معدّة بشدّة عطشهم ، وتجاوُب أصواتهم بالويل والثبور ، وإلى تضرُّعهم إلى « مالك » والخزنة ، وندائِهم الأقرباء بالاستغاثة ، ثم دعائهم إلى ربّهم فأخسأهم ، فانقطعت أصواتهم ، والتحمت أفواههم ، وحُبِست أنفاسهم ، وبقوا بالغمِّ والكرب لا يتنفّسون إلى حلول غضب الله عليهم ، وانقطاع رجائِهم منه ، وتوهَّمي ما تضمنتْه حواشيها من صنوف الهوان والألوان من العذاب ؛ فإنك إنْ نظرتِ في ساعتك هذه إلى كلّ واحدة منها وعظيم ما فيها ، ثم لم تأمني حرمان جوار الله ، والخلود في دار عذابه - أشفقْتِ ، وإن أشفقتِ حذرتِ ، وإن حذرتِ أيقنتِ بكلّ ما يتوعّد به ، فتبتِ وأنَبْتِ ، ومِن كلّ ما يُكْرَه تطهّرتِ . فانظري وتوهمي إلى عواقب من أطاع واتقىٰ ، وعواقب من عصىٰ الله وأساءَ ، ولا ترضي بأن تخاطري فيما إنْ وقعتِ فيه لم تُقلي ، ولا إلى الدنيا تُرَدِّين .

ويحك إنّ الدنيا دار نجاة الآخرة ، بقدر ما تحملين فيها من المكروه لله تُعَوَّضِين ، وبقدر ما تتركين من ملاذِّها تُجْزَين .

إن الجامعين بذلوا الأحزان في الدنيا ، فورثوها في الآخرة دوامَ السرور ، أطالوا البكاءَ في الدنيا ، فدام في الآخرة فرحُهم ، تَعِبُوا ونصبوا ،

فورثوا راحة الأبد ، رفضوا لله الشهوات ، فرجوا الجواري القاصرات ، وتنادموا بالخمور ، وصاروا إلى منية وغاية من اللّذّات ، ويحك ، فلا تدَعي معاملة مولاك في دار العمل ، فتخسري الدنيا والآخرة .

ويحك يا نفس ، ابكي علىٰ ما مضىٰ من سوالف الذنوب ؛ فإن المنقطع به يستعين بالبكاءِ إلى من يستغيث به ، رجاءَ أن يُرحم ، فخذي في البكاء والعويل ، والنوْح والضجيج ، لعلّه أن يرحم منك العَبْرة ، فيقيلك العَثْرة ، ويعجل لك النقلة ؛ فإنْ رَحِم اللهُ بكاءَك ، وسمع شكواك ، وعلم منك النوح والعويل - إذْ عرف عظيمَ سيئك - رجوتِ أن يعجّل لك الفرج ، وينقلك إلى مقام من تولَّاه ، ورحم تضرُّعه وشكواه ؛ فخذي في النوح والعويل ، والشكوىٰ والتعديد ، طلبًا لجَبْرِ المصيبة .

أنا العاصي في دنياي ، وأنا المفلس المسلوب ، بل الموقر بالخطايا والذنوب ، بل أنا العليل الدائم علىٰ ميل للسقوط ، كأني مقيم علىٰ أسباب مهلكتي ، فالويل لي إن كان قد سخِط عليّ ربي ، والخيبة لي إن مقتُ اللهِ حلّ بِي ، والحسرة لي إن كان الله أوجب ألَّا أجاوره في جنته ، والويل والعويل إن كان أغلق الباب عني ، فلا ترفع لي السماء دعوة ، ولا يصعد لي عمل .

فيا طولَ حزني وغمّي ! ويا طول جهدي وكمدي إن كان الله قد قطع ما بيني وبينه ، فلو محىٰ جميع أهل السماوات والأرض لعظيم مصيبتي ، لكانت أعظم من محْي ربهم رحمةً لي .

ويحي وتأويلي ! لعلي من أعداء الله وأنا لا أدري ، ولعلّه أوجب علىٰ نفسه أن لا يقيلني دون أن يجعل النار من الدنيا مُنْقلبي ، فما بيني وبين الهوان والذلّ الطويل والحزن إن لم يعفُ عني ؟ إلى أن تنقطع أيام

أجلي ، فيحضر وقت منيتي ، ويكشف لي عن الغطاءِ ، ويأتيني الخبر اليقين .

فيا جهدي وضعفي ، ويا ذلّ استحيائي ، ويا شدّة حسرتي وعظم ندامتي ، لقد خبتُ إذْ ردّ دعائي ولم يرحم شكواي ، فكيف يُغيث مَن غَضِب عليه ؟! وكيف يرحم من سخط عليه ؟! فأَنا الجريء الذي لا يقلع ، وأنا المتمادي الذي لا يستحي .

ويحك يا نفس ، أين تلاوة القرآن ؟ وأين معاني الآثار ، وأين الشكر لمن لا تعرفين منه إلّا الإحسان ؟ رضيتِ بأحوال الجاهلين ، ومنازل الغافلين ، وأعمال الفاسقين ؟! ويحك يا نفس ، أليس قد انقطع عنك كلّ لذة ، وزالت عنك كلّ رفاهية ، وانقضت الساعات والأيام ، وما كان فيها من التخليط والذنوب ، وبقيَتْ عليك الأوزار ؟! هذا ما قد قضىٰ وذهب .. وبقي السؤال !! فهكذا تستقبلي أيامك ، ما يكون منها وما يبقىٰ عليك من التَّبِعات ، فتحوّلي عمَّا ينقضي ويبقىٰ سوء عاقبته ، والله فما ينفعك معه رزق ولا أجل ، ولا يفارقك حسن عاقبتك في دنياك وآخرتك .

ويحك ، فنادي ربَّك بصوت محزون من قلب محتدمٍ مغموم ، واسبلي الدموع واستغيثي استغاثةَ المكروب ، فقولي : يا ربّ ، هذا مقام المتضرّع المسكين ، البائس الفقير ، الهالك الغريق ، فعجِّلْ إغاثتي وفرجي ، وأَرني آثار رحمتك ، وأَذْقني بَرْد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عظمتك ولذَّة إقبالك عليَّ ، وترويح زوال عقوبتك ، وسرور القلب منك ، وأُنْس الحبِّ لك ، فبدّل أحوالي ، واقلبْ همّتي ، وحوِّلْ لذَّتي ، حتىٰ يصير ذلك في صدق معاملتك ، وحلاوة مناجاتك ، وراحة الثقة بك .

يا نفس ، فادعيه وأنت منه مستحية ، فقد طال قلَّة حيائك منه ،

ويحك ؛ تستحين من الخلق من المؤمنين والكافرين أن يروا فيك ما يعيبونك به ، ولا تستحين ممن يطّلع علىٰ كثرة ما عندك من ذنوبٍ وسوءِ ضميرك ؟!

ويحك ، إذ حملتِ وِعاءً من أوعية الشرّ ، فإنك ترتعدين خوفًا أن يبدو للناس شيء ممَّا فيه من الشر ، فمتىٰ تُصلحي ما بينك وبين الله ؟ هٰيهات ! اذكري الموت كالعبد السوءِ الذي لا يستحيي من مولاه ، ولا يرجع عن مساوئه ، ولا يعرف إحسانه إليه إلَّا عند الحساب والعقاب ، واذكري الموت وما بعد الموت ، ما ظنُّك بمن يكره أن يطّلع الناس منه علىٰ ما يكره الله ، ولا يستحيي أن يطّلع الله منه علىٰ ما يكره ، سوءَة لك .. وعجبًا لك !! حيث تتركي وتضيّعي الفرض ، وتركبي من الأشياء ما كره الله ، ثم تتقرّبي إلى الله بما لم يفرضه عليك ، وتتعاطي النوافل ، وتأمري وتنهي ، وتدعي الناس – بزعمك – إلى الله ، وتأبقي منه ، وتأمري ولا تعملي ، وتنهي ولا تنتهي ، سوءَة لك ! فمِن ذلك ينبغي أن تستحي .

فادعي علىٰ تفقُّد لُطْف مولاك ، لعلك أن تستحي منه ؛ فإن لطفه باطن وظاهر مع إساءَةٍ منك باطنةٍ وظاهرةٍ ، فهو يُديم إحسانه بأضعاف الإحسان ، مع دوامك علىٰ الإساءَة بصنوف من الإساءَة .

ويحك ، أَوَ كافرةٌ أَنتِ ؟! أما شاكَّة في الله أنت ؟! ويلك ، والويل لك ، ما أسوأَ حالك ! مهلكة وأنت تعلمين ! مع ذلك في السرور تتقلَّبين ، وبالله لا تبالين ! من خلقه تستحين ومنه لا تستحين !! ويلك ، علىٰ الغضب منه تستقدرين !! أما تستدلّين ؟ فأَنت لا تكترثين ولا تحزنين ، كل ذلك غرّة بالله وجرأَة عليه ؟! فقد تحيَّرتُ يا نفس في أمرِكِ !! وتبدّلتُ في التأني لكي ؛ أُعاتبك ولا تغيثيني ، وأعظك ولا تتعظين ولا تنكسرين ، وأعيّرك فلا تستحين ، وأشكوك إلى من علمك فلا تداني أهلًا للجواب ، وأَستغيث منك فلا تغيثيني !! فما أَدري !! كيف حيلتي ؟! ولمن أستغيث ؟! وممن

أستعين ؟! علىٰ ربي ؛ لعلَّه له عنده جاهًا فيطلب لي فيشفعه ويفرج عني ، فما أجد حيلة إن لم يُجب دعوتي : مولاي ؛ ولا مطلب للفرج إلَّا بتكرار الإغاثة ودوام الشكوىٰ ، لعله يرحم ضعفي ، ويكشف ضرّي ، ويزيل سقمي ، وينعش صرعتي ، وينقذني من غرقي ، فأنا - واللهِ - الكذّاب المستور عند العباد ، وأنا الهالك الفَرِح ، وأنا الغريق المسرور .

ويحك يا نفس ، كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنّين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلَّصتِ ، وهيهات ، أتحسبين أنك تُتْركين سدًى ؟! ألم تكوني نطفة من منيٍّ يُمْنَىٰ ، ثم علقة فخلق فسوَّى ، أليس ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ ؟! فإن كان هذا من إظهارك ، فما أكفرَكِ وأجهلَكِ !! أمَا تتفكّرين أنه ممّاذا خلقكِ ؟ مِن نطفةٍ خَلَقكِ فقدّرك ، ثم السبيلَ يسَّرك ، ثم أماتكِ فأقبرك ، أفتكذّبينه في قوله : ﴿ **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَه** ﴾ ؟! فإن لم تكوني مكذّبة ، فما لكِ لا تأخذين حِذْركِ ؟! ولو أن يهوديًّا أخبرك في ألذّ أطعمتك بأنه يضرُّك في مرضك ، لَصبرتِ عنه وتركتِه ، وجاهدتِ نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء عندك أقلَّ تأثيرًا من قول يهودي ؟!

أمَا تعلمين يا نفسُ أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزَع الأكبر بين يديْك ؟! فاحذري يا نفسُ يومًا آلىٰ الله منه علىٰ نفسه أن لا يترك عبدًا في الدنيا أمَره ونهاه حتىٰ يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سرّه وعلانيته .

فانظري يا نفس بأي بدنٍ تقفين بين يدي الله ، وبأيّ لسان تجيبين ، وأعِدّي للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملي بقيّة عمرك في أيام قِصار لأيام طِوال ، وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصَب لدار نعيم وخلود ، اعملي قبل أن تُعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروجَ الأحرار ، قبل أن تخرجي منها علىٰ الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات

الدنيا ، فرُبّ مسرور مغبون ، ورُبَّ مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، قد حقَّ له في كتاب الله أنه من وقود النار .

فلْيكن نظرُك يا نفس إلى الدنيا اعتبارًا ، وسعيُك لها اضطرارًا ، وفضلك لها اختيارًا ، وطلبك للآخرة ابتدارًا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي .

ويحك عما بداخلك غدًا بين يدي مولاك ، فلا تغربي عنه صَفْحًا ، ولا تشاغلي عن ذكره ، ولا تَدَعي العُدَّة بتهيئة الجواب له بصدق ما كنتِ عليه في الدنيا ، فلأن تجيبي بالصدق أرْفَهُ لقلبك من أن تجيبي بالكذب .

والله ما قامت العقول من الصادقين عند جوابه حتى ذهلتْ ، ثم ردّها إليهم لإقامة الحجّة على المسخوط عليهم أن يدخلهم في عذابه ، وهم له عاذِرون ، ولأنفسهم لائمون ، إذْ قدرهم بما ضيَّعوا من حقّه ، واجترءوا عليه في ركوب نهْيه ، وليستخرج من الصادقين صدق الجواب فيقبله منهم ، ويؤمّنهم ما كانوا به خائفين ، ويسرهم بقبوله منهم عوضًا مما كانوا في الدنيا من رَدِّه مشفقين ، ولكن لا بدّ - إذا أرادوا أن يقرءوا كتبهم ، ويبتدئ الله في مساءلتهم - أن ترهقهم الهيبة العظمى ، والمخافة الكبرى .

هذا ابن مريم عليه السلام ، يقول له الجليل يوم القيامة : ﴿ ... **أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ** ... ﴾ الآية [المائدة : ١١٦] . فرُوي في الحديث أنه يزول كل معضل منه على حبالة ، ومما يدلّ على صدق الحديث في ذلك قوله : ﴿ **إِنْ كُنتُ قلتُهُ فقدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ، هذا جواب ذاهل ، لا يدري ما يجيب ، قال أبو ميسرة : لم يدرِ لعلَّه قاله ، فقال : ﴿ **إن كنتُ قلتُهُ فقدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ، ثم بدا إليه عقله ، فقال : ﴿ **مَا قلتُ لهمْ إلَّا مَا**

أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ .

وهذه جماعة الرسل يقول الله لهم : ﴿ **ماذا أُجِبْتُمْ** ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أنت عَلَّامُ الغيوبِ** ﴾ . [المائدة : ١٠٩] .

فيا نفس ويحك ، اعملي علىٰ أنه قد رحم شكواك ، فيقللكِ عن بلائك ، أين توارين - ما دمتِ في الدنيا - من نظره ، مع ما يَعلم من قبائحك التي سلفتْ منك ؟! وأين تزوغين ، وأين تحيدين غدًا عن العرض عليه ، وتراه جميع مساوئك ، واستماع كلامك بذكر فضائحك ؟

ويحك ، فلا تعيشي في الدنيا إلا بحمده ، ولا تتقلّبي في أَحوالك إلَّا حسرة ، ولا تصبحي ولا تمسي إلا خَجِلة من توقُّعك للمتقلّب إلى الوقوف بين يديه ، والسؤال منه إليك مع - والله - أَحوالك قبل السؤال منه في يوم النشور . فأَين قلبك حينئذ يا جاهل ؟ وأَين فؤادك يا غافل ؟ لو يقع المنىٰ أن لا تكوني من المخلوقين ، أَو إذا كنتِ خُلقتِ أن لا تكوني من المبعوثين ، لَكنتِ إلى ذلك تروحين ، وإليه تفزعين .

أخي ، مَن كرُمَتْ نفسه عليه ، لم يكن للدنيا عنده قدْر .

إنَّ الله جعل الجنة بمثابة لأنفسنا فلا نبيعها بغيرها ، وأعظم الناس قدرًا مَن لم يرِد الدنيا كلها لنفسه خطرًا .

قال مسعر بن كِدام : مَن أهمّته نفسه ، تبيَّن ذلك عليه .

يا نفسُ ويحكِ طالَ ما ... أبصـرتِ موعظـةً ومَـا
نفعتكِ فاخشَي وانتهـي ... وعلـيكِ بالتقـوىٰ كمـا
فعَـل الأُناسُ الصالحـو ... ن وبـادري فلربَّمـا
سَلِمَ المبادِرُ واحـذري ... يا نفسُ مِـن سـوفَ فمَا
خُـدِعَ الشـقيُّ بمثلِهَا ... إيّـاكِ منهـا كلمـا

ناجتْ مكايدُها ضميـ ـرَكِ إنَّما هي إنَّما
خطرتْ وكمْ قتَلَتْ وأهْـ ـلَكَتِ النفوسَ وقلَّما
تُغني أمانيها إذَا حضَرَ الردٰى فكأنَّما
لم يحَيَ مَنْ لاقىٰ مَنِيَّتَهُ فيَا عجبًا أمَا
في ذاكَ مُعْتَبَرٌ ولا شافٍ يُبَصِّرُ مِن عَمَىٰ
يا ذَا المُنَىٰ يا ذَا المُنَىٰ عشْ ما بدا لكَ ثمَّ مَا

يا سكرانَ الهوىٰ ، أمَا آن الصحو ؟ يا ساطرًا قبحَ الخلاف ، أمَا حان المحو ؟ وقلْ : يا نفس ، الهوىٰ عليّ وليس لي ، فَلِمَ أريد حياتكِ وتريدين مقتلي ؟!

ما حَظِي الدينارُ بِنقْشِ اسمِ الملِك ، حتىٰ صَبرتْ سبيكتُه علىٰ التردُّد إلى النار ، فنفتْ عنها كلّ كَدَر ، ثم صَبرتْ علىٰ تقطيعها دنانيرَ ، ثم صبرتْ علىٰ ضربها على السِّكّة ، فحينئذ ظهرَ عليها رقم النقش ﴿ **كَتَبَ فِي قلوبِهِمُ الإيمانَ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

كَمْ أحملُ في هواكَ ذلًّا وعَنَا كَمْ أصبرُ فيكَ تحتَ سقَمٍ وضَنَا
لا تطردني فليسَ لي عنكَ غِنَا هٰذِي نفسي إذا أردتَ الثمنا

من طلب الأنْفَسَ هجر الألَذَّ ، مَنِ اهتمَّ بالجوهر نسي العَرض ، يا صفراء يا بيضاء ، غُرّي غيري .

مِن أجلِ هواكمْ عشقتُ العِشْقَا قلبي كَلِفٌ ودمعتي ما تَرْقا
في حُبِّكم يهونُ ما قدْ ألقىٰ ما يحصلُ بالنعيمِ مَن لا يشقىٰ

أخي ، حالتْ غمايمُ الهوىٰ بيننا وبين شمس الهدىٰ ، وغدا ما في يومنا يُنسينا غدًا ، حتىٰ كأنّ الرحيل حديث خُرافة ، أو كأَنَّ الزاد يفضل عن المسافة .

اسمع يا مقهورًا بغلبة النفس ، صلِّ عليها بسوْط العزْم ؛ فإنها إنْ علمتْ جدَّك استأثرتْ لك ، امنعْها ملذوذ مباحها ، ليقع الصلح علىٰ ترْك الحرام ، فإذا ضجّت لطلب المباح ﴿ **فإمَّا منًّا بَعْدُ وَإمَّا فداءً** ﴾ [محمد : ٤] ، الدنيا والشيطان خارجيّان : خارجان عليك ، خارجان عنك ، فالنفس عدوٌّ مباطن .

ومن آداب الجهاد : ﴿ **قاتِلُوا الذينَ يَلُونَكم** ﴾ [التوبة : ١٢٣] ... ليس مَن بارَز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ ، ما دامت النفس حيّةً تسعىٰ ، فهي حيّةٌ تسعىٰ ، أقلُّ فعلٍ لها تمزيق العمر بكفّ التبذير ، كالخرقاء وجدتْ صوفًا ... اخْلُ بها في بيت الفكر ساعة ، وانظر : هل هي معك أو عليك ؟... نادِها بلسان التذكرة : يا نفسُ ، ذهب عرش بلقيس ، وبلي جمال شيرين ، وتمزّق فرش بوران ، وبقي نسكُ رابعة ؛ يا نفسُ ، صابري عطشَ الهجير ؛ يحصل الصوم ، وتحزَّمي تحزُّم الأجير ؛ فإنما هو يوم .

جدّ في الجدّ قدْ تولّىٰ العمرُ　　　كمْ ذَا التفريطُ قدْ تدانَىٰ الأَمْرُ
أقبلْ فعسىٰ يُقبَلُ منكَ العذرُ　　　كمْ تبني كمْ تنقُضُ كمْ ذَا الغَدْرُ

أخي ، الشهوات تغرّ وتعرّ ، وتمرّ عيشَ العواقب وتَمُرّ ، وتبكي عين الندم أضعاف ما تسرّ ، ألَا يقظٌ ؟ أَلَا حَذِرٌ ؟ أَلَا حرٌّ ؟

يا صبيانَ التوبة ، الطفل لا يصبر عن الرضاع ساعة ، فإذا صار رجلًا صبَر عن الطعام يوميْن .

يا هذا ، إذا صُبّ في القنديل ماء ، ثم صُبَّ عليه زيتٌ ، صَعِدَ الزيتُ فوق الماء ، فيقول الماء : أنا ربّيتُ شجرتَك ، فأين الأدب ؟ لِمَ ترتفع عليّ ؟ فيقول الزيت : أنت في رضراض الأنهار ، تجري علىٰ طريق السلامة ، وأنا صبرتُ علىٰ العصْر ، وطحْن الرَّحَىٰ ، وبالصبر يرتفع القدْر . فيقول الماء : إلَّا أني أنا

الأصل . فيقول الزيت : استُر عيبك ؛ فإنك لو قارنتَ المصباحَ انطفأ .

يا بعيدًا عن المجاهدة ، قد اقتسم الرعيل الأول النفل ، أما ترىٰ أسلاب الهوىٰ ، كيف يبيعها أربابُها في سوق الافتخار بالنضّ ؟[1] ﴿ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِي لَمْ أَخُنْهُ بِالغيبِ ﴾ [يوسف : ٥٢] .

وفؤادي كلّما عاتبتُهُ في مدىٰ الهجرانِ يبغي تَعَبي
ما أراهُ الدهرَ إلّا لاهيًا في تماديهِ فقدْ برّحَ بي
يا قرينَ السُّوءِ ما هذَا الصِّبا فني العمرُ كذا في اللّهِ
نفسي ما كنتِ ولا كانَ الهوىٰ راقبي اللّهَ وخافي وارْهَبي

أيّتها النفس ، أقلعي عن الجُنَاح وتوبي ، وارجعي إلى الصلاح وأوبي . أيتها النفس ، قد شان شاني عيوبي . أيّتها الجاهلة ، تكفيني ذنوبي .

يا ويحَ نفسي مِن تتابُعِ حَوْبتي لو قد دعاني للحسابِ حسيبي
فاستيقظي يا نفسُ ويحَكِ واحذري حذرًا يهيّجُ عَبْرتي ونحيبي
واستدرِكي ما فاتَ منكِ وسابقي سطَواتِ موتٍ للنفوسِ طَلُوبِ
وابكي بكاءَ المستغيثِ وأَعْولي إعوالَ عانٍ في الوَثاقِ غريبِ
هذا الشبابُ قدِ اعتللتُ بلهوِهِ أفليسَ ذا يا نفسُ حينَ مشيبي
هذا النهارُ يكرُّ ويحكِ دائبًا يجري بصرْفِ حوادثٍ وخُطوبِ
هذا رقيبٌ ليسَ عني غافلًا يُحصي عليّ ولو غفلتُ ذنوبي
أوَ ليسَ مِن جَهْلٍ بأني نائمٌ نومَ السفيهِ وما ينامُ رَقيبي

قال أبو يزيد : رأيتُ الحقَّ في المنام ، فقلت : يا ربّ ، كيف أجدك ؟ قال : فارِقْ نفسك وتعالَ .

جاء رجل إلى أبي عليّ الدقّاق ، فقال : قد قطعتُ إليك مسافة .

---

(١) القليل .

فقال : ليس هذا الأمر بقطع المسافات ؛ فارِق نفسَك بخطوة ، وقد حصل لك مقصودك ، لو عرفتْ منك نفسُك التحقيق لَسارتْ معك في أصعب مضيق ، لكنها ألفت التفاتَك ، فلما طلبتَ قهرَها فاتَك ، هلّا شددتَ الحيازم ، وقمتَ قيام حازم ، وفعلتَ فِعْلَ عازم ، وقطعتَ علىٰ أمر جازم ، تقصد الخير ، ولكن ما تلازم .

ويعرفُ أخلاقَ الجبانِ جوادُهُ　　　فيجهـدُهُ كَرًّا ويُرهِبُـهُ ذُعْـرَا
ومَن يحل تطلابَ المعالي بصدرِهِ　　　يجدْ حُلْوَ ما يُعطاهُ مِنْ غيرِهَا مُرًّا

حريم العزم الصادق حرامٌ على المتردّد ... متىٰ تحزم العزم هزم ، لو رأيتَ صاحب العزم وقد سرىٰ - حين رقدتِ السراحِينُ - بهمّةٍ تحلّ فوق الفرقد ، فلنفسه نفاسة ، ولأنفه أنفة ... سهمُ الشهمِ **مُفوَّقٌ** فوق عرضة الغَرَض .

كان « الفضيل » ميّتًا بالذنوب ، و« ابن أدهم » مقتولًا بالكبْرِ ، و« السبتيُّ » هالكًا بالملْك ، و« الجُنَيْد » من جيّد الجنْد ، فنُفِخ في صور المواعظ ، فدبَّتْ أرواح الهدىٰ في موْتىٰ الهوىٰ ، فانشقّتْ عنهم قبور الغفْلة ، وصاح إسرافيل الاعتبار : ﴿ **كَذٰلِكَ يُحيي اللهُ الموتىٰ** ﴾ ، إنما سمع **الفضيل آية ، فذلَّتْ نفسُه لها واستكانت ، وهي : (كانت) ، إنما زُجِر** ابن أدهم بكلمة كلَمَتْ قلبَه فانقلبَ ، هايفٌ[١] عاتَبه ولَام ، أخرجه من بلخ إلى الشام ، كانت عقدة قلوبهم بأنشوطةٍ ومَسَد[٢] ، قلبك كله عقد ، **لاحَت** للقوم جادّة السلوك ، فقالوا : ﴿ **ربُّنا اللهُ ثم استقامُوا** ﴾ ، **هٰيهات** منك غبارُ ذاك الموكب ، ركبوا سفين العزم ، فهبّت لهم رياحُ العوْن ،

---

(١) العطشان الذي لم يصبر علىٰ العطش .
(٢) حبل من ليف .

فقطعوا بالعلم لُجَجَ الجهل ، فوصلوا إلى إقليم أرض الفَهْم ، فأرسلوا علىٰ ساحل بلد الوصل . إذا استصلح القدَر أرضَ قَلْبٍ ، قَلَبها بمحراث الخوف ، وبذر فيها حَبّ المحبّة ، وأدار لها دولاب العين ، وأقام ناطور المراقبة ، فتربّى زرع التقَىٰ علىٰ سُوقه ؛ أصفهم لمن ؟! أصفهم عند من ؟ أنثُر الدرّ علىٰ من ؟!

بلّغْ سلامي بالغويرِ جيرةً ... قلبي وإنْ حالُوا إليهمْ تائِقْ
فارقتُهم كَرْهًا وليتَ انني ... للروحِ منْ دُونهمُ مُفارِقْ
ولستُ أنساهمْ وإنْ تقطَّعَتْ ... بالبعدِ فيما بيننا عَلايِقْ

يا نفس ، عند ذكر الصالحين تبكين ، وعند شرح جدّهم تئنِّين ، وإذا تصوَّرت طيبَ عيشهم تحنّين ، فإذا عرفتِ قيامَهم بالخدمة تنكّبين !

أمِن خُفوق البرْقِ تُرزمينا ... حنّي فمَا أمنعُكِ الحنينَا
سيري يمينًا وسراك شامةٌ ... فضلة ما تتلفّتينا
نعمْ تشتاقينَ وأشتاقُ لَهُ ... ونُعلنُ الوجدَ وتكتُمِينا
فأينَ منّا اليومَ أو منكِ الهوىٰ ... وأينَ نجدٌ والمغورينا

لقي بعض الجند إبراهيم بن أدهم في البريَة ، فقال له : أين العمران ؟ فأومأ بيده إلى المقابر ، فضربه فشجَّ رأسَه ، فقيل له : هذا ابن أدهم . فرجع يعتذر إليه ، فقال له إبراهيم : الرأسُ التي يحتاج إلى اعتذارك تركتُه ببلخ .

ومرّ رجل بابن أدهم وهو ينطر[1] كُرْمًا ، فقال : ناولني من هذا العنب . فقال : ما أذِنَ لي صاحبه . فقلب السوط وضرب رأسه ، فجعل يطأطئ رأسه ويقول : اضرب رأسًا طالَمَا عصىٰ الله .

---

(١) أي : يحرس أشجار عنب .

وأسفاه من حيوةٍ علىٰ غرور ، وموت علىٰ غفلة ، ومنقلَب إلى حسرة ، ووقوف يوم الحساب بلا حجّة .

يا هذا ، مثّلْ نفسَكَ في زاوية من زوايا جهنم ، وأنت تبكي أبدًا ، وأبوابها مغلَقة ، وسقوفها مطبَقَة ، وهي سوداء مظلمة ، لا رفيق تأنس به ، ولا صديق تشكو إليه ، ولا نوم يريح ، ولا نفس .

يا هذا ، استوطأتَ مهاد الكسل ، وإبَرَ النحل دون العسل ؟

قيل لبعض أهل الرياضة : كيف غلبتَ نفسك ؟ فقال : قمتُ في صفّ حربها بسلاح الجد ، فخرج مرحب الهوىٰ يدافع ، فعلاه عليُّ العزْم بصارم الحزم ، فلم تمضِ ساعة حتى ملكتُ خَيْبَر .

وقيل لآخر : كيف قدرتَ علىٰ هواك ؟ فقال : خدعتُه حتىٰ أسرته ، واستلبتُ عُوده فكسرتُه ، وقيدتُه بقيْد العزْلة ، وحفرتُ له مطمور الخمول في بيت التواضع ، وضربتُه بسياط الجُوع فَلَانَ ، يا فلانُ ، ألك في مجاهدة النفس نيّة ، أم النيّة نيّة ؟ أتعبتَني وأنت أنت .. إلى متىٰ تجول في طلب هجول[1] ؟! ما عزّ يوسف إلا بترك ما ذلّ به « ماعِز » .

أخي ، الهوىٰ مطمورة ضيقة في حبس وَعِر ، ومذْ خُلق الهوىٰ خُلق الهوان ... لا يتصرف الهوىٰ إلا برَبْعِ قلبٍ فارغ من العلم . الجهلُ خندق يحول بين الطالب والمطلوب ، والعلمُ يدلّ علىٰ القنطرة ... كتابة العلم في ليلِ الجهل تفتقر إلى مصباح فطنة ، ودُهْن الذّهنِ غالٍ ... ما قدر لصٌّ قطُّ علىٰ فَطِن ... ومتىٰ نام حارس الفكْر انتبه لصُّ الهوىٰ ... مَن ثبت قلبه في حرْب الشهوات ، لم يتزلزل قدمه ... أولُ ما ينهزم من المهزوم عقله ...

---

(١) جمع هجل : وهي المفازة الواسعة .

ما دمتَ في حرب العدو فلا تبالِ بالجراح ؛ فإنه قد يصاب الشجاع ، إنما المهادنة دليل الذلّ .

أين عزيمة توبة « ماعِز » ، لا عزيمة « توبة »[(١)] ؟! وأين همّ « أويس » من غمّ « قيس »[(١)] ؟!

يا أطيار القلوب ، إلى كم في مزبلة الحبس ؟ اكسري بالعزم قفصَ الحِرْص ، واخرجي إلى فضاء القدس ، روحي خماصًا من الهوىٰ تعودي بِطانًا من الهـدىٰ ... بين أبي الحركة وأُمِّ القصد : ينتج ولد الظفر ... لا يُنال الجسيمُ بالهُوَيْنَىٰ ... حمْل النفس علىٰ حمْل المشاقّ مدرجة إلى الشرف ... واعجبًا مِن توقُّف الكسالىٰ والدرُّ يُنثر ، أشهودٌ كغيابٍ ؟! أَكانونُ في آب ؟! الحرب خصام قائم ، وأنت غلام نائم ، ادخلْ بسلامتك ، لابسَ لامتِك ... ليس في سلاح المحارب أحد من نبلة عزم ... أجرأ الليوث أجرُّها للصيود ...

ليسَ عزمًا ما مرضَ العزمُ فيهِ ليسَ همًّا ما عاقَ عنهُ الظلامُ

مَن أراد من العمال أنْ يعرف قدره عند السلطان ، فلينظر ماذا يُوليه من العمل ، وبأيّ شغل يشغله ... الأرواح في الأشباح ، كالأطيار في الأبراج ، وليس ما أعد للاستفراخ ، كما هي للسباق ... ما أظنُّ الضعف إلَّا في الوضع ... ضعف عيْن الخفّاش ليس برمَد ، وحِدّة ناظر الهدهد خلقة ... مصابيح القلوب الطاهرة – في أصل الفطرة – منيرة قبل الشرائع ، يكـاد زيتُها يضيء ... وحّد قُسٌّ ولم يَر الرسول ، وكفر ابن أُبيّ وقد صلّىٰ معه ... مع الصبّ ريٌّ يكفيه ولا ماء ، وكم من عطشان في الموجة ...

---

(١) هو : توبة الحميري صاحب ليلىٰ الأخيلية ، وهذا قيس بن الملوّح صاحب ليلىٰ العامرية .

إذا سبق الإنعام في القِدم ، فذلك غِنَىٰ الأبد ... ارحموا مَن طلوعُ الشمس عنده ليلٌ ...

إخواني ، ذُودوا هممكم عن مرعىٰ المنىٰ ؛ فإنه يزيدها عجفًا ، ولا تُولّوا الهوىٰ علىٰ ميدان الأبدان ؛ ﴿ **إني أخافُ أن يبدِّلَ دينَكُمْ أَوْ أنْ يُظْهِرَ في الأرضِ الفَسَادَ** ﴾ [غافر : ٢٦] . الهوىٰ وثن ينصب في جاهلية الشباب ، فإن صحَّ إيمان العزم ، جعل أصنام الشهوات جُذَاذًا .

يا معشر الشباب ، زنوا حُلوَ المشتهىٰ بمُرِّ العقاب ، يَبِينُ لكم التفاوُت .

كمِ اصْطبارٌ علىٰ ضَيْم ومنقَصَة ... وكَمْ علىٰ الذلِّ إقرارٌ وإذعانُ
ثوروا لها ولْتَهُن فيها نفوسُكُمُ ... إنَّ المنــاقبَ للأرواحِ أثمــانُ

لّما عرَف القوم قدْر الحياة ، أماتوا فيها الهوىٰ فعاشوا ، انتهبوا بأكفّ الجدّ من الزمن ما نثره زمن البطالة .

وركْبٍ سَرَوْا والليلُ فلَقُ رواقِهِ ... علىٰ كلّ مغبرٍّ الطوالِعِ قاتمِ
حَدَوْا عَزَمَاتٍ ضاقتِ الأرضُ بينها ... فصَارَ سراهُمْ في ظهورِ العزائمِ
تُريهِمْ نجومُ الليلِ ما يبتغونَهُ ... علىٰ عاتقِ الشّعْرِ وهامِ النعائمِ
إذا طرَّدوا في معْركِ الجدّ قصَّفُوا ... رماحَ العطايا في صدورِ المكارِمِ

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصد ، وحلَتْ لهم مرارات البِلىٰ حبًّا لعواقب السلامة ، فيا بشراهم يوم ﴿ **هـٰذَا يومُكُمْ** ﴾ .

قِفْ بالديارِ فهــذي آثارُهُــمْ ... تبكي الأحبَّةَ حَسْرةً وتشــوُّقَا
كمْ قدْ وقفْتُ بها أُسائل مخبِرًا ... عن أهلِها أو صادِقًا أو مُشْفِقَا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسْمها ... فارقتَ مَن تهوىٰ فعَزَّ الملتَقَىٰ

يا رُبوع الأحباب ، أين سُكَّانُك ؟ يا موطن الألباب ، أين قُطّانُك ؟ يا جواهر الآداب ، أين خزَّانُك ؟ وأأسف المتقاعد عنهم ، واحسرة البعيد منهم !

أول قدم في الطريق ، بذْل الروح ، هذه الجادّة فأين السالِك ؟ هذا قميص يوسف ، فأين يعقوب ؟ هذا طور سيناء ، فأين موسىٰ ؟ يا جنيد ، احضر ، يا شبليُّ ، اسمع .

بِدَمِ المُحِبِّ يُباعُ وَصْلُهُمُ فمـنِ الذي يَبْتَـاعُ بالثمـنِ

يا مَنْ نيّتك في الخير نيّة ، لو أنضجتْها نيرانُ خوف أو شوق ، لَانتفعتَ بها ، لو قد طلعتْ شمسُ العزيمة في نهار اليقظة ، لانبعث عالم النشاط في صحراء المجاهَدة ، واعجبًا لهمّتك ! أَيُسأل عن الهلال ابنُ أمّ مكتوم ؟! ويُستملَىٰ الفصاحة من باقل ؟! وينتظر الوفاء من عرقوب ؟!

يا مَن أخذ الهوىٰ بأزمّته ، وأمسك الردىٰ بلمّتِهِ ، يا رهينَ ديونٍ تعلّقتْ بذمّته ، هذا أوانُ جدّك إنْ كنتَ مجدًّا ، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعِدًّا ، رُضْ مُهْرَ النفس ، يتأتَّ ركوبُه ، تلمّحْ فجر الأَجْر ، يَهُن ظلامُ التكليف . رحلْتَ رحلة ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ ، ومطرودُ النوم في حَبْس الرقاد ، فما فكّ عنه السجّان قيد الكَرَىٰ ، حتىٰ استقرّ بالقوم المنزل ، فقام يتلمّحُ الآثار بباب الكوفة ، والأحباب قد وصلوا إلى الكعبة .

مـن يَطَّـلعْ شَـرفًا هـل روّح الرعـيانُ بالإبلِ
أمْ قَعْقَعتْ عمُدُ الخيامِ أمِ ارْ تفعـتْ قبـابُهُمُ علىٰ البـذْلِ
أمْ غـرَّدَ الحـادي بقـافيةٍ منهـا غُـرابُ البيْنِ يَستمـلي
ما مرّ ذو شجـنٍ يُكَتّمُـهُ إلَّا أقـولُ متـيّمٌ مِثْـلي

أخي ، يا مَنْ قدْ أخذ الهوىٰ بأزمّته ، وأمسك الردىٰ بلمّتِهِ ، يا رهين ديونٍ تعلّقتْ في ذمّته ، هـذا أوان جدّك إنْ كنت مُجدًّا ، هـذا زمان استعدادِك إنْ كنتَ مستعدًّا .

يا نفسُ قَدْ عزّ المرادُ فخُذي إنْ كنتِ يومًا تأخذينَ أوْ ذَري

نهزة مجدٍ كنتِ في طِلابِها لمثلِها ينصفُ ساقِي مِئْزَرِي
عمرُ الفتىٰ شبابُهُ وإنّما آونةُ الشيبِ انقضاءُ العُمْرِ

رُضْ مُهْرَ النفسِ يتأتَّ زكوبُه ، أمِتْ زئبقَ الطبع يمكن استعماله .

ويحك ، إنما يكون الجهاد بين الأمثال ، ولذلك منع من قتْل النساء والصبيان ، فأيّ قدْر للدنيا ، حتىٰ يحتاج قلبك إلى محاربةٍ لها ؟! أما علمتَ أن شهواتها جِيَفٌ ملقاة ؟! أفيحسن بباشق الملك أن يطير عن كفّه إلى ميتةٍ ؟! مهلًا ، ﴿ **لا تمدَّنَّ عينيْكَ** ﴾ ... لو علمتَ أن لذَّة قهْر الهوىٰ أطيبُ من نيْله ، لَمَا غلَبَكَ ، أما ترىٰ الهرّة تتلاعب بالفأرة ولا تقتلها ، ليبين أثر اقتدارِها ؟! وربّما تغافلتْ عنها ، فتُمْعن الفأرة في الهرب ، فتثبُ ، فتدركها ولا تقتلها ، إيثارًا للذَّة القهْر علىٰ لذَّة الأكل ... مَن ذبح حنجرةَ الطمع بخنجر اليأس ، أعتق القلب من أسر الرِّقّ ... مَن ردَم خندق الحرص بسكر القناعة ، ظفر بكيمياء السعادة ... مَن تدرّع بدرْع الصدق علىٰ بدن الصبر ، هزم عسكر الباطل ... من حصَد عشب الذنوب بمنجل الورَع ، طابتْ له روضة الاستقامة ... من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت ، وجد عذوبة الراحة في القلب ... مَن ركب مركب الحذر ، مرّت به رخاء الهدىٰ إلى رجاء النجاة ... مَن أرسىٰ علىٰ ساحل الخوف ، لاحتْ له بلاد الأمن ... ألَا عزيمة عُمَرية ؟! ألا هجرة سلمانية ؟!

ولي قوادمُ لو أني جُذِبتُ بها لأنهضتْني ولكنْ أفرُخي زَغبُ

غمّضْ عينَيْك علىٰ الدواء يعمل ، وافتحْها لرؤية الهدىٰ تُبصر ... حجّرْ المعصية تطحطح إناء القلب ... وضبة التوبة شعاب ... يا مَن عزمُه في الإنابة جزر بلا مدٍّ ، وقفتْ سفينة نجاتك ... ليلُ كَسَلِكَ قد طبقَ آفاق التردُّد ، وقد طلبتْ فيه أطيار الهمّة أوكارَ الدعة ، فلو قد طلعت شمس العزيمة

في نهار اليقظة ، لانبثّ عالم النشاط في صحراء المجاهدة ... يا صبيان التوبة ، تزوَّدوا للبادية ، تأهَّبوا لحاجر ، انعلوا الإبل قبل زرود ، ولا تنسوا - وقتَ تناوُل الزادِ - جِمالَكم .

والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهمِلْهُ شبّ علىٰ   حبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تفطِمْهُ يَنْفَطِمِ

أخي ، اتركِ الهوىٰ محمودًا قبل أن يتركك مذمومًا .

مرّ الجنيدُ برجلٍ يقول :

منازلٌ كنتَ تَهْواهَا وتألَفُهَا   أيّامَ أنتَ علىٰ الأيامِ مَنصورُ

فبكىٰ الجنيدُ بكاءً شديدًا ، وقال : « ما أطيبَ منازلَ الأُلفة والأُنْس ، وأوحشَ مقاماتِ المخالفة ، لا أزال أحنُّ إلىٰ أول بدْء إرادتي وجدّة سعْيي » .

فلو شريتُ بعمري ساعةً سَلَفَتْ   مِنْ عيشتي معكُمْ ما كانَ بالغالي

يا هذا ، مرعىٰ المشتهىٰ هشيمٌ ، والعجْز شريك الحرمان ، والتفريط مضارب الكسل ، ديجورُ الجهل مُعْتِمٌ ، وسُؤْر الهوىٰ مغرق ، روْضُ اللهو وَبِيٌّ ، وغديرُ اللذات غدْر .

يا هذا ، المجاهدة حرب ، لا يصلح لها إلّا بطل .

مـوْتُ النفـوسِ حياتُهَـا   مَـنْ شـاءَ أَنْ يَحْـيَا يمـوتْ

يا هذا ، إذا هممتَ بخير فبادرْ ؛ لئلّا تُغلب ، وإذا هممتَ بشرٍّ فسوِّفْ هواك ؛ لعلّك تَغْلِب ، ثَقِّفْ نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك ؛ فإن سياسة الأخلاق مراقي المعالي .

يا أطفالَ الهوىٰ ، أين أنتم والرجال ؟! .

قال أبو يزيد : كنتُ اثنتي عشرة سنةً حدّادَ نفسي ، وخمسين سنة مرآةَ قلبي ، ولقد أحببتُ الله حتىٰ أبغضتُ نفسي .

وقال : ما زلتُ أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي ، حتى سقتُها وهي تضحك .

ما زلتُ أُضحك إبْلي كُلَّما نظرتْ ... إلى مَنِ اختُضِبَتْ أخفافُها بدمِ
من اقتضى بسوى الهنديّ حاجتَهُ ... أجابَ كلَّ سؤالٍ عن هلْ بِلَمِ

يا بعيدًا عنهم ... يا مَن ليس منهم ، ألكَ نيّة في لحاقهم ؟ اسرجْ كميتَك ، واجرر زمامَك ، يقف بك على المرعى ، يا من يستهول أحوال القوم ، تنقّل في المراقي تَعْلُ .

بانُوا وخُلِّفتُ أبكي في ديارِهِمْ ... قُلْ للديارِ سقاكِ الرائحُ الغادي
وقلْ لأظعانِهِمْ حُيِّيتِ من ظَعْنٍ ... وقلْ لَوادِيهم حيّيتَ من وَادِ
أنا العبدُ الذي كَسَبَ الذُّنُوبَا ... وَصَدَّتْهُ الأماني أنْ يَتُوبَا
أنا العبدُ الذي أضحى حزينًا ... على زلّاتِهِ قَلِقًا كَئِيبَا
أنا العبدُ الذي سُطِرَتْ عليهِ ... صحائِفُ لم يَخَفْ فيها الرَّقِيبا
أنا العبدُ المسيءُ عصيتُ سِرًّا ... فما لي الآنَ لا أُبدي النحيبا
أنا العبدُ المفرِّطُ ضاعَ عُمْرِي ... فلمْ أرْعَ الشبيبةَ والمَشِيبَا
أنا العبدُ الغريقُ بِلُجِّ بحرٍ ... أصيحُ لَرُبَّما ألقى مُجيبَا
أنا العبدُ السقيمُ مِنَ الخطايا ... وقدْ أقبلتُ ألتمسُ الطبيبا
أنا العبدُ المُخلَّفُ عن أناسٍ ... حَوَوْا من كلّ معروفٍ نصيبَا
أنا العبدُ الفقيرُ مَدَدْتُ كفّي ... إليكمْ فادفَعُوا عني الخُطُوبا
أنا الغدّارُ كمْ عاهدتُ عهدًا ... وكنتُ على الوفاء بهِ كَذوبَا
أنا المقطوعُ فارحمْني وصِلْني ... ويَسِّرْ منكَ لي فَرَجًا قريبًا
أنا المضطرُ أرجو منكَ عَفْوًا ... ومَن يرجُو رضاكَ فلنْ يَخِيبَا
فيا أسفى على عُمرٍ تَقضَّى ... ولمْ أكسبْ بهِ إلّا الذُّنُوبَا
وأحذرُ أنْ يعاجلني مَمَاتٌ ... يحيّر هَوْلُ مصرَعِهِ اللَّبِيبَا

ويا حزناهُ مِن حشْري ونشْري ... بيومٍ يجعلُ الولدانَ شِيبًا
تفطَّرَتِ السماءُ بهِ ومارَتْ ... وأصبحتِ الجبالُ بهِ كَثِيبَا
إذا ما قمتُ حَيْرانًا ظَمِيئًا ... حَسيرَ الطرْفِ عُريَانًا سَليبَا
ويا خَجَلاهُ مِن قُبْحِ اكتسابي ... إذَا مَا أبدَتِ الصُّحُفُ العُيُوبَا
وَذِلَّة موقِفٍ وحساب عَدْلٍ ... أكونُ بهِ علىٰ نفسي حَسيبَا
ويا حذَراهُ من نارٍ تلظَّىٰ ... إذَا زفرتْ وأقلقتِ القُلوبَا
تكادُ إذَا بدتْ تنشقُّ غَيْظًا ... علىٰ مَن كان ظلَّامًا مُريبَا
فيا مَنْ مَدّ في كَسْبِ الخطايا ... خُطاهُ أمَا آنَ الأوان لِأَن تتوبَا

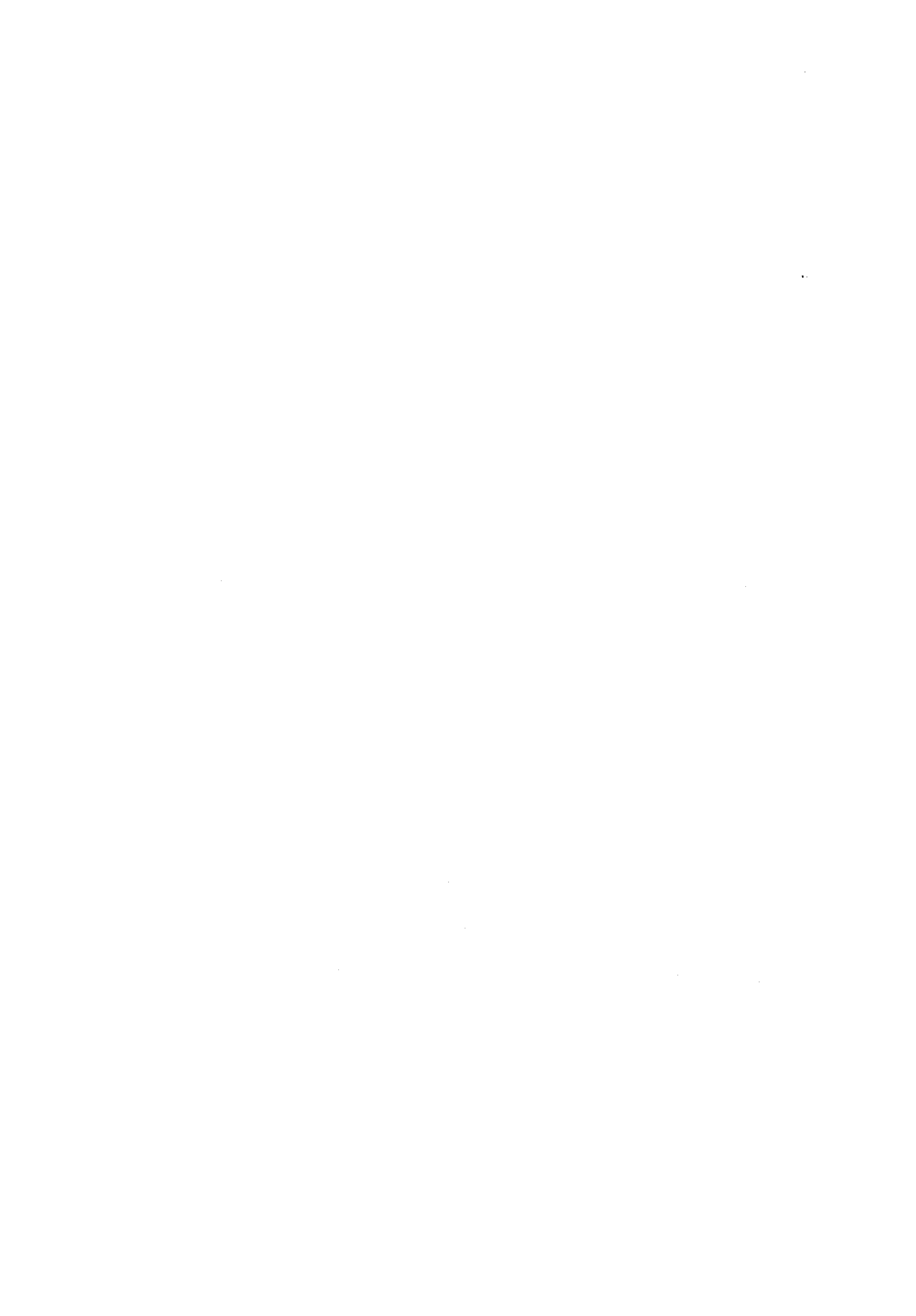
❊ ❊ ❊

الفصْلُ التَّاسِع

علوّ الهمَّة

في تحرِّي الحقِّ والثَّبات عليه

« إن الحق ما زالَ مصونًا عزيزًا ، نفيسًا كريمًا ، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه وعدم التشـوُّف والتشـوُّق إلى سببه » . [السيد مرتضى اليماني]



□ علوّ الهمَّة في تحرِّي الحقِّ والثَّبات عليه □

طلب الحق أحلى في النفوس الأبيَّة من الشمس في رائعة النهار ، وقطب تدور عليه همم الأخيار ، وعبابٌ تنصبّ منه جداول شمائل الأطهار ، ومتى علتِ الهمَّة في طلب الحق ، حملتْ على مفارقة العوائد وطلب الأوابد ، « فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلَّما يعرفه إلَّا واحد ، وإذا عظُم المطلوب قل المساعد ، فإن البدع قد كثُرت ، وكثرت الدُّعاة إليها ، والتعويل عليها ، وطالب الحق - اليوم - شبيهٌ بطُلَّابه في أيام الفَتْرة ، وهم سلمان الفارسي وزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابهما ، رحمهما الله تعالى ، فإنهم قدوة للطالب الحق ، وفيهم له أعظم أُسوة ، فإنهم لمَّا حرصوا على الحق ، وبذلوا الجهد في طلبه ، بلغهم الله إليه ، وأوقفهم عليه ، وفازوا من بين العوالم الجمَّة ، فكم أدرك الحقَّ طالبُهُ في زمن الفترة ! وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النُّبوَّة ! فاعتبرْ بذلك ، واقْتَدِ بأولئك ، فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا ، نفيسًا كريمًا ، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه ، وعدم التشوُّف والتشوّق إلى سببه ، ولا يهجم على المُبطلين المُعرضين ، ولا يُفاجىء أشباه الأنعام الغافلين ، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مُبطل ولا جاهل ، ولا بطَّال ولا غافل »[1] .

زيد بن عمرو بن نفيل الذي يُبعَث أُمَّة وحده ، أنموذج جليل لتحرِّي الحق :

قال الذهبي : « كان زيد بن عمرو ممن فرّ إلى الله من عبادة الأصنام ، وساح في أرض الشام يتطلب الدين القيِّم ، فرأى النصارى واليهود فكَرِه

(١) إيثار الحق على الخلق . للسيد مرتضى اليماني صـ ٢٤. مطبعة الآداب والمؤيد .

دينهم وقال : اللهم إني على دين إبراهيم . ولكن لم يظفر بشريعة إبراهيم عليه السلام كما ينبغي ، ولا رأى من يُوقفه عليها . وهو من أهل النجاة ، فقد شهد له النبي ﷺ بأنه يُبعث أُمّةً وحده ، وهو ابن عم الإمام عمر ابن الخطاب ، رأى النبيَّ ﷺ ، ولم يعش حتى بُعث ، فنقل يُونس بن بكير ، وهو من أوعية العلم بالسير ، عن محمد بن إسحاق قال : قد كان نفر من قريش : زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحارث بن أسد ، وعُبيد الله بن جحش ، وأُميمة ابنة عبد المطلب حضروا قريشًا عند وثنٍ لهم، كانوا يذبحون عنده لعيدٍ من أعيادهم، فلمَّا اجتمعوا، خلا أولئك النفر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : تصادقوا وتكاتموا . فقال قائلهم: تعلمنَّ والله، ما قومكم على شيءٍ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه، فما وثن يُعبد ولا يضرّ ولا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم . قال : فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض ، يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلّها يتطلّبون الحنيفية ، فأمَّا ورقة فتنصَّر ، واستحكم في النصرانية ، وحصّل الكتب ، وعلم علمًا كثيرًا ، ولم يكن فيهم أعْدَل شأنًا من زيد ، اعتزل الأوثان والملل إلّا دين إبراهيم ، يوحِّد الله تعالى ، ولا يأكل من ذبائح قومه ، وكان الخطاب عمه قد آذاه ، فنزح عنه إلى أعلى مكة ، فنزل حراء، فوكَّل به الخطاب شبابًا سفهاء لا يَدَعونه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلّا سرًّا ، وكان الخطاب أخاه أيضًا من أُمّه ، فكان يلومه على فراق دينه ، فسار زيد إلى الشام والجزيرة والموصل يسأل عن الدين »[(١)] .

قال ابن عمر : إن زيد بن عمرو بن نُفيل خرج إلى الشام ، يسأل عن الدين ويتّبعه ، فلقي عالمًا من اليهود ، فسأله عن دينهم فقال : إني لعلّي أن أدين دينكم، فأخبرني. فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ١٢٦ - ١٢٧ .

من غضب الله . قال زيد : وما أفرّ إلَّا من غضب الله تعالى ، ولا أحمل من غضب الله شيئًا ، ولا أستطيعه ، فهل تدلّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلَّا أن تكون حنيفًا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم عليه السلام ، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد ، فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . فقال زيد : وما أفرّ إلَّا من لعنة الله ، فهل تدلّني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفًا. قال: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله . فلمَّا رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج ، فلمَّا برز رفع يديه فقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . قال الليث : كتب إليَّ هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مُسنِدًا ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يُحيي الموءُودة ، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها . فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئتَ دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتُك مؤنتها . انتهى ما ذكره البخاري .

وقد قال النبي ﷺ قبل البعثة لزيد لمَّا رآه : « ما لي أرى قومك قد شَنفوا لك ؟ » أي أبغضوك . قال : أما والله إن ذلك مني لغير نائلةٍ كانت مني إليهم ، ولكني أراهم على ضلالةٍ ، فخرجتُ أبتغي الدين ، حتى قدمت على أحبار أيلة ، فوجدتهم يعبدون الله ويُشركون به ، فدُلِلتُ على شيخٍ بالجزيرة ، فقدمت عليه ، فأخبرتُه ، فقال : إن كلَّ من رأيت في ضلالةٍ ، إنك لتسأل عن دينٍ هو دين الله وملائكته ، وقد خرج في أرضك نبيٌّ ، أو هو خارجٌ ، ارجع إليه واتَّبعه . فرجعتُ ، فلم أُحسّ شيئًا .

ومات زيد قبل المبعث، فقال رسول الله ﷺ: «يأتي أُمَّةً وحده»[١] .
ولمَّا علم بخبر رسول الله ﷺ أقبل يريده ، فقتلَه أهلُ ميفعة بالشام.
وقال ابن إسحاق : قُتل ببلاد لخم .
قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٢٤ : « مات بأرض البلقاء من الشام ، لمَّا عدا عليه قومٌ من بني لخم ، فقتلوه بمكان يقال له:ميفعة . والله أعلم » .

عن جابر قال : سُئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نُفيل ، أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول : إلهي إلهُ إبراهيم ، وديني دينُ إبراهيم . ويسجد ، فقال رسول الله ﷺ : « يُحشر ذاك وَحْدَهُ بيني وبين عيسى بن مريم »[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « دخلتُ الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين »[٣] .

أورد له ابن إسحاق من شعره في خلق السماء والأرض والشمس والقمر :

إلى الله أُهدي مِدْحَتِي وثنائيَا ... وقولًا رَضِيًّا لا يَنِي الدَّهْرَ باقيا
إلى المَلِك الأعلى الذي ليس فوقَهُ ... إلهٌ ولا ربّ يكـون مُـدانِيـا

---

(١) إسناده حسن : ذكره الحافظ في « المطالب العالية » ونسبه إلى أبي يعلى . وذكره الهيثمي في المجمع ونسبه إلى أبي يعلى والبزار والطبراني ، وقال : أحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة ، وهو حسن الحديث .
(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٢٤ : إسناده جيد حسن .
(٣) إسناده جيد ، ذكره ابن الباغندة ، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢٢٤ : إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب .

ألا أيّها الإنسان إيّاك والرَّدى ... فإنّك لا تُخفي من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيرَهُ ... فإن سبيل الرُّشدِ أصبح بادِيا
حنانَيْكَ إن الجنَّ كانت رجاءهم ... وأنـت إلهـي ربُّـنـا ورجـائيـا
رضيتُ بك اللَّهمَّ ربًّا فلن أُرَى ... أدِيـنُ إلهـًا غيـرك الله ثانيـا
وأنت الذي منْ فضل مَنٍّ ورحمةٍ ... بعثتَ إلى موسى رسولًا مُنادِيا
فقُلْتَ له يا اذهبْ وهَارونَ فادْعُوَا ... إلى الله فرعونَ الذي كان طاغيا
وقـولا لـه آأنـت سـوَّيْتَ هـذهِ ... بلا وَتِدٍ حتى اطمأنَّتْ كما هِيا
وقـولا له آأنـت رفَّعـتَ هـذهِ ... بلا عمدٍ أرْفِقْ إذَنْ بـك بانِيا
وقـولا له آأنت سوّيتَ وَسْطها ... منيـرًا إذا ما جنَّهُ الله هـاديَا
وقولا له مَنْ يرسلُ الشمس غُدْوَةً ... فيُصبحَ مَا مسَّتْ من الأرض ضاحِيا
وقولا له مَنْ يُنبتُ الحبَّ في الثَّرى ... فيُصبحَ منه البَقْلُ يهتزُّ رَابيا
ويُخرج منه حبَّهُ في رؤوسهِ ... وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نَجَّيْتَ يُونُسًا ... وقد بات في أضعافِ حوتٍ لياليا
وإنِّي لو سبَّحتُ باسمك ربَّنا ... لَأُكثـرُ إلّا مـا غفـرتَ خطـائيا
فَربَّ العبادِ ألْقِ سَيْبًا ورحمةً ... عليَّ وبـارِك فـي بَنِيَّ ومـاليـا[1]

وقال رحمه الله :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحمل صَخْرًا ثِقالَا
دحاها فلمَّا استوتْ شدَّها ... سواءً وأرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المُزْنُ تحملُ عَذْبًا زُلالا
إذا هي سِيقتْ إلى بَلْدَةٍ ... أطاعتْ فصبَّتْ عليها سِجالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الرِّيحُ تُصرفُ حالًا فحالَا

(١) البداية والنهاية ١ / ٣٢ - ٣٣ .

وقال رحمه الله :

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ أدِينُ إذا تقسَّمَتِ الأمورُ
عزلتُ اللّاتَ والعُزّى جميعًا كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
عزلتُ الجِنَّ والجِنَّانَ عني كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ
فلا العُزّى أدينُ ولا ابنتَيْها ولا صنمَيْ بني طَسْمٍ أدِيرُ[1]
ولا غَنْمًا أدينُ ....[2] لنا في الدَّهر إذْ حِلْمِي يسيرُ
عجِبْتُ وفي الليالي مُعْجَبَاتٌ وفي الأيام يعرفها البصيرُ
بأن الله قد أفْنَى رجالًا كثيرًا كان شأنهُمُ الفجورُ
وأبْقَى آخرين ببرِّ قومٍ فَيَرْبُل[3] منهم الطِّفْلُ الصغيرُ
وبَيْنَا المرءُ يعثُرُ ثابَ يومًا كما يتروَّحُ الغُصْنُ النَّضِيرُ
ولكنْ أعبدُ الرحمن ربي ليغفرَ ذنبيَ الرَّبُّ الغفورُ
فتقْوَى الله ربِّكمُ احفظوها متى ما تحفظوها لا تبوروا
تَرَى الأبرارَ دارُهمُ جِنانٌ وللكُفارِ حاميةٌ سعيرُ
وخِزْيٌ في الحياة وإنْ يموتوا يُلاقوا ما تضيق به الصدورُ

فرضي الله عن الرجل ، بل الرجال ، بل الأُمَّة زيد بن عمرو ، الذي قال فيه ورقة :

رَشدتَ وأنْعَمْتَ ابن عمرو وإنَّما تجنَّبتَ تَنُّورًا من النارِ حامِيًا
لدِينِكَ ربًّا ليس ربٌّ كمِثْلِهِ وتَرْكِكَ جِنَّانَ الجبال كما هِيَا

---

(١) وعند ابن إسحاق :

فلا العُزّى أدينُ ولا ابنتيْها ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزُورُ

(٢) عند البغوي :

.... وكان رَبًّا .... إذ حلمي صغيرُ

(٣) أي يربو . وهي عند البغوي : فيربو .

سلمان ابن الإسلام سابِقُ الفرس ، المنارة الشامخة لطَلَب الحق :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : عليٍّ ، وعمّار ، وسلمان »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ، لتناوَلَهُ رجالٌ من فارس »[٢] .

وعند مسلم من رواية أبي هريرة : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ، لذَهَبَ به رجلٌ من أبناء فارس ، حتى يتناوله » .

ومن أولى بذلك من سلمان !

سئل علي عن سلمان فقال : « أدرك العلم الأول ، والعلم الآخر ، بحرٌ لا يُدرَك قعره ، وهو منَّا أهل البيت »[٣] .

وقصة إسلام سابق الفرس وتحرِّيه وطَلَبه للحق ، آفاقٌ ومنارةٌ لا يُدرك شأوُها ، لسانُ حاله يقول :

تـركْنا البحـارَ الزاخـراتِ وراءنـا ... فمن أين يدري الناسُ أَنَّى توجَّهْنا

عن ابن عباس قال: حدثني سلمانُ الفارسيُّ قال: كنتُ رجلًا فارسيًّا من أهل أصبهَانَ، مِن أهلِ قرية منها يُقال لها : «جيّ»[٤]، وكان أَبي دِهْقانَها، وكنتُ أحبَّ خلق الله إليه ، فلم يزل بي حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبسُ الجارية ، فاجتهدتُ في المجوسية ، حتى كنت قاطِنَ النار الذي يُوقدها ، لا يتركها تخبو ساعةً . وكانت لأبي ضَيْعَةٌ عظيمةٌ ، فشُغِلَ في بنيانٍ

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٥٩٨) والمشكاة (رقم ٦٢٢٥) .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) رجاله ثقات .

(٤) جَيّ ، بالفتح والتشديد: مدينة ناحية أصبهان القديمة .

له يومًا، فقال لي: يا بُنيَّ، إني قد شُغِلْتُ في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطْلَعْها . وأمرني ببعض ما يُريد ، فخرجت ، ثم قال : لا تحتبس عليَّ ، فإنك إن احتبستَ عليَّ ، كنت أَهمَّ إلي من ضيعتي ، وشغلتَني عن كل شيءٍ من أمري . فخرجتُ أريد ضيعته ، فمررتُ بكنيسةٍ من كنائس النصارى ، فسمعتُ أصواتَهم فيها وهم يُصلّون ، وكنتُ لا أدري ما أَمْرُ الناسِ بحبس أبي إياي في بيته ، فلمَّا مررتُ بهم ، وسمعتُ أصواتهم ، دخلتُ إليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتُهم أعجبتْني صلواتُهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هذا والله خيرٌ من الدين الذي نحن عليه . فوالله ما تركتُهم حتى غربت الشمسُ ، وتركت ضيعةَ أَبي ولم آتِها ، فقلت لهم : أين أَصْلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . قال : ثم رجعتُ إلى أبي ، وقد بعثَ في طلبي وشغلتُه عن عمله كلِّه ، فلمَّا جئتُه قال : أيْ بُنَيَّ ، أين كنتَ ؟ أَلم أَكن عهدتُ إليك ما عهدت ؟ قلت : يا أبتِ ، مررتُ بناسٍ يُصلّون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيتُ من دينهم ، فوالله ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمسُ . قال : أيْ بُني ، ليس في ذلك الدين خير ، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه . قلت : كلا والله ! إنه لخيرٌ من ديننا . قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيدًا ، ثم حبسني في بيته . قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت : إذا قَدِمَ عليكم ركبٌ من الشام تُجَّارٌ من النصارى ، فأخبروني بهم . فقدم عليهم ركب من الشام . قال : فأَخبروني بهم ، فقلت : إذا قضوا حوائجهم، وأَرادوا الرجْعة، فأَخبروني. قال : ففعلوا . فألقيتُ الحديد من رِجلي ، ثم خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام ، فلمَّا قدمتُها ، قلت : مَنْ أَفضلُ أهلِ هذا الدِّين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة . فجئتُه ، فقلت : إني قد رغبتُ في هذا الدين، وأَحببتُ أن أَكون معك أخدمك في كنيستك، وأَتعلَّم منك ، وأُصلّي معك . قال : فادخل . فدخلتُ معه ، فكان رجلَ سوءٍ يأمُرهم بالصدقة ويُرغِّبهم فيها ، فإذا جمعُوا إليه منها شيئًا اكتنزه

لنفسه ، ولم يُعطه المساكين ، حتى جمع سبعَ قِلالٍ من ذهبٍ ووَرِقٍ ، فأبغضتُه بغضًا شديدًا ؛ لِمَا رأيتُه يصنع . ثم مات ، فاجتمعتْ إليه النصارى ليدفنوه ، فقلتُ لهم : إن هذا رجل سوءٍ ، يأمركم بالصدقة ، ويُرغِّبكم فيها ، فإذا جئتم بها ، كنزها لنفسه ، ولم يُعط المساكين . وأريتُهم موضعَ كنزه سبع قِلال مملوءةً ، فلمَّا رأوْها قالوا : والله لا ندفِنُه أبدًا . فصلبُوه ثم رَمَوْه بالحجارة ، ثم جاءوا برجلٍ جعلوه مكانه ، فما رأيتُ رجلًا - يعني لا يُصلِّي الخمس - أرى أنه أفْضَلُ منه ، أَزْهَد في الدنيا ، ولا أَرْغَب في الآخرة ، ولا أَدْأَب ليلًا ونهارًا ، ما أَعلمني أحببتُ شيئًا قطُّ قَبْلَه حُبَّه ، فلم أَزل معه حتى حضرتْه الوفاةُ ، فقلت : يا فلان ، قد حضرك ما ترى مِن أَمر الله ، وإني والله ما أَحببت شيئًا قطّ حُبَّك ، فماذا تأمرني وإلى مَنْ توصيني ؟ قال لي : يا بُنَيَّ والله ما أَعلمه إلا رجلًا بالمَوْصِلِ ، فأْتِهِ ، فإنك ستجده على مثل حالي . فلمَّا مات وغُيِّبَ ، لحقت بالموصل ، فأتيتُ صاحبها ، فوجدتُه على مثل حاله من الاجتهاد والزهد ، فقلت له : إن فلانًا أَوصاني إليك أَن آتيَك وأَكونَ معك . قال : فأقم أيْ بُنَيَّ . فأَقمت عنده على مثْل أَمر صاحبه حتى حضرتْه الوفاة ، فقلت له : إن فلانًا أوصى بي إليك ،وقد حضرك من أَمر الله ما ترى ، فإلى من تُوصي بي ، وما تأْمرني به ؟ قال : والله ما أَعلم ، أي بُنَي ، إلا رجلًا بنصيبين . فلمَّا دفنّاه ، لحقت بالآخر ، فأَقمتُ عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت ، فأَوصى بي إلى رجلٍ من أَهل عَمُّورِيَّة بالروم، فأَتيتُه فوجدتُه على مثْل حالهم، واكتسبتُ حتى كان لي غُنيمة وبُقيرات . ثم احْتُضِرَ ، فكلَّمتُه ؛ إلى مَنْ يوصي بي ؟ قال : أيْ بُنَيَّ ، والله ما أَعلمُه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمركَ أَن تأتيه ، ولكن قد أظلَّك زمانُ نبيٍّ يُبعث من الحرم ، مهاجرهُ بين حرَّتيْن إلى أرض سبخة ذاتِ نخلٍ ، وإنَّ فيه علامات لا تَخْفَى ، بينَ كتفيْه خاتَمُ النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكُل الصدقة ، فإن استطعت أن تخلُصَ إلى تلك

البلاد فافعل ، فإنه قد أظَلَّك زمانُه . فلمَّا واريناه ، أَقمتُ حتى مرَّ بي رجالٌ من تُجَّار العرب من كلب ، فقلت لهم : تحملوني إلى أرض العرب ، وأعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه ؟ قالوا : نعم . فأعطيتُهم إياها وحملوني ، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى ، ظلموني ، فباعوني عبدًا من رجلٍ يهودي بوادي القرى ، فوالله لقد رأيتُ النخل ، وطمعتُ أن يكون البلد الذي نَعَتَ لي صاحبي . وما حقَّت عندي حتى قَدِمَ رجلٌ من بني قُريظة واديَ القرى ، فابتاعني مِن صاحبي ، فخرج بي حتى قَدِمْنا المدينةَ ، فوالله ما هو إلا أَن رأَيتُها، فعرفتُ نَعْتَها. فأقمتُ في رِقِّي، وبعث الله نبيه ﷺ بمكة، لا يُذكر لي شيءٌ من أَمره مع ما أنا فيه من الرِّقِّ ، حتى قَدِمَ رسولُ الله ﷺ قُباء ، وأنا أَعمل لِصاحبي في نخلة له ، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابنُ عمٍّ له ، فقال : يا فلان ، قاتلَ الله بني قَيْلة ، والله إنهم الآن لفي قُباء ، مجتمعون على رجلٍ جاء من مكة ، يزعمون أنه نبي . فوالله ما هو إلا أَن سمعتُها ، فأَخذتْني العُرَواء - يقول : الرِّعدة - حتى ظننتُ لأسقطنّ على صاحبي ، ونزلتُ أقول : ما هذا الخبر ؟ فرفع مولاي يده فلكمني لكمةً شديدة ، وقال : ما لك ولهذا ، أَقْبِلْ على عملك . فقلتُ : لا شيء ، إنما سمعتُ خبرًا ، فأَحببتُ أَن أَعلمه . فلمَّا أمسيتُ ، وكان عندي شيء من طعام ، فحملتُه وذهبتُ إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فقلتُ له : بلغني أَنك رجل صالح، وأن معك أَصحابًا لك غرباء ، وقد كان عندي شيءٌ من الصدقة فرأيتُكم أَحقَّ مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فَكُلْ منه. قال: فأمسك، وقال لأصحابه: « كُلُوا ». فقلت في نفسي : هذه خَلَّةٌ ممّا وَصَفَ لي صاحبي.ثم رجعتُ ، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فجمعتُ شيئًا كان عندي ثم جئتُه به فقلتُ : إني قد رأيتُك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية . فأكل رسول الله ﷺ وأكل أَصحابُه ، فقلت : هذه خلتان . ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعلي شملتان لي وهو في أصحابه ، فاستدرت أَنظر إلى

ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف، فلمَّا رآني استدبرتُه، عرفَ أنّي أَستثبتُ في شيءٍ وُصِف لي ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فانكببتُ عليه أقبِّله وأبكي ، فقال لي : « تحوَّلْ ». فتحوَّلتُ ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتُك يا ابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمعَ ذلك أصحابُه .

ثم شغل سلمانَ الرِّقُّ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُد . ثم قال رسول الله ﷺ: «كاتِبْ يا سلمان». فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحييها له بالفَقِير وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَعينوا أَخاكم ». فأعانوني بالنخل : الرَّجُلُ بثلاثين وَديَّة[1]، والرجُل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاثمائة وديَّة، فقال: «اذهب يا سلمان، ففقِّرْ لها ، فإذا فرغتَ فَأْتِني أَكون أَنا أضعُها بيدي ». ففقَّرتُ لها وأَعانني أَصحابي ، حتى إذا فرغت منها ، جئتُه وأَخبرته ، فخرج معي إليها نقرِّب له الوَدِيّ ، ويضعه بيده ، فوالذي نفسُ سلمانَ بيده ، ما ماتت منها وديَّةٌ واحدة ، فأدَّيتُ النخل ، وبقي عليَّ المال . فأُتي رسول الله ﷺ بمثل بيضةِ دجاجةٍ من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فَعَلَ الفارسيُّ المُكاتَب » ؟ فدُعِيتُ له ، فقال : « خُذها فأدِّ بها ما عليك ». قلت : وأين تقع هذه يارسول الله مما عليَّ ؟ قال : « خذها ، فإن الله سيؤدِّي بها عنك ». فأَخذتُها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية ، وأَوفيتُهم حقَّهم وعَتَقْتُ ، فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخندق حُرًّا ، ثم لم يَفُتْني معه مشهدٌ[2] .

---

(١) الوَدِيَّة : صغار الفَسِيل . الجمع : وَدِيّ .

(٢) رجاله ثقات ، وإسناده قوي ، فقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث عند أحمد وابن هشام وابن سعد، وأخرجه أحمد وابن سعد، والجزري ، وابن هشام ، والطبراني في الكبير والخطيب في التاريخ .

وروى الحاكم عن زيد بن صوحان ، أَن رجُلَيْن مِن أَهل الكوفة كانا له صديقيْن ، فأتياه ليكلِّم لهما سلمان ، ليحدِّثهما حديثه ، فأقبلا معه ، فلقوا سلمان بالمدائن أَميرًا ، وإذا هو على كرسيٍّ ، وإذا خُوصٌ بين يديه وهو يرتُقه . قالا : فسلَّمْنا عليه وقعدْنا ، فقال له زيد : يا أَبا عبد الله ، كيف كان بَدْءُ إسلامك؟ قال: كنت يتيمًا مِن رَامَهُرْمُزَ، وكان ابنُ دِهقانها يختلِف إلى معلِّمٍ يعلِّمه ، فلَزِمْتُه لأكون في كَنَفه ، وكان لي أَخ أَكبر مني ، وكان مستغنيًا بنفسه ، وكنتُ غلامًا ، وكان إذا قام مِن مجلسه تفرَّق من يحفِّظهم ، فإذا تفرَّقوا ، خرج فقنع رأسه بثوبه ، ثم صَعِد الجبلَ . كان يفعل ذلك غير مرَّةٍ متنكِّرًا ، فقلت له : إنك تفعل كذا وكذا ، فلم لا تذهبُ بي معك ؟ قال : أَنت غلامٌ ، وأَخاف أَن يظهرَ منك شيء . قلتُ : لا تخف . قال : فإن في هذا الجبلِ قومًا في بِرطِيل[1]، لهم عبادة وصلاح، يزعمون أَنَّا عبدةُ النيران وعبدةُ الأوثان ، وأَنَّا على غير دينهم . قلت : فاذهب بي معك إليهم . قال : لا أَقدِرُ على ذلك حتى أَستأمِرَهم ، أَخافُ أَن يظهر منك شيء ، فيُعلم ، أَو فيُقتل القومُ ، فيكون هلاكُهم على يدي . قلت : لن يظهر مني ذلك ، فاستأمْرهم . فقال : غلامٌ عندي يتيم أحبّ أن يأتِيكم ويسمَعَ كلَامكم . قالوا : إن كنت تثق به . قال : أَرجو . قال : فقال لي : ائتني في الساعة التي رأيتني أُخرج فيها ، ولا يعلم بك أَحد . فلمَّا كانت الساعة تبعتُه ، فصعِد الجبل ، فانتهينا إليهم . قال علي بن عاصم : أَراه قال : وهم ستة أَو سبعة . قال : وكأَنَّ الروح قد خرج منهم مِن العبادة ، يصومون النهار ، ويقومون الليل ، ويأكلون عند السَّحَر ما وجدوا . فقعدْنا إليهم ، فتكلَّموا ، فحمدوا الله ، وذكروا مَنْ مضى مِن الأنبياء والرسل ، حتى خلصوا إلى ذكْر عيسى ، فقالوا : بعث الله عيسى رسولًا ، وسخَّر له ما

---

(١) القلَّة والصومعة ، وهي سريانية معربة .

كان يفعل من إحياء الموتى ، وخَلْقِ الطير ، وإبراء الأكْمَهِ والأبرص . وكَفَر به قوم ، وتبعه قوم ، وإنما كان عَبْدَ الله ورسولَهُ ابتَلَى به خلْقَه . وقالوا قبل ذلك : يا غلامُ، إن لك لَرَبًّا ، وإن لك لَمَعادًا ، وإن بينَ يديك جنَّةً ونارًا إليها تصيرُ ، وإنَّ هؤلاء الذين يعبدون النيرانَ ، أَهلُ كفرٍ وضلالة ، ليسوا على دين. فلما حَضَرَت الساعة التي ينصرف فيها المُعلِّم ، انصرفتُ معه ، ثم غدونا إليهم، فقالوا مثل ذلك وأَحسن، ولزمتُهم. فقالوا لي: يا سلمان، إنك غلام، وإنك لا تستطيع أَن تصنع كما نصنع، فصلِّ ونَمْ وكُلْ واشربْ . فاطّلع الملكُ على صنيع ابنه ، فركب في الخيل حتى أَتاهم في برطيلهم فقال: يا هؤلاء، قد جاورتموني، فأحسنتُ جوارَكم، ولم تَرَوْا مني سوءًا ، فعمدتُم إلى ابني ، فأفسدتموه عليَّ ، قد أَجَّلْتكم ثلاثًا ، فإن قدرت بعدها عليكم ، أحرقتُ عليكم برطيلكم . قالوا : نعم . وكفَّ ابنه عن إتيانهم ، فقلت له : اتَّقِ الله ، فإنك تعرف أن هذا الدينَ دينُ الله ، وأَن أَباك على غيرِ دينٍ ، فلا تَبعْ آخرتك بدُنْيا غيرك . قال : هو كما تقول ، وإنما أَتخلَّفُ عن القوم بُقْيًا عليهم . قال : فأتيتهم في اليوم الذي أَرادوا أَن يرتحِلوا ، فقالوا : يا سلمان ، قد كُنَّا نَحْذَر ما رأيت ، فاتَّق الله ، واعلم أَن الدين ما أوصيناك به ، فلا يخدعنَّك أَحدٌ عن دينك . قلت : ما أنا بمفارقكم . قالوا : فخُذ شيئًا تأكله ؛ فإنك لا تستطيع ما نستطيع نحن . ففعلتُ ، ولقيتُ أَخي ، فعرضتُ عليه بأَني أمشي معهم ، فرزق الله السلامة حتى قدمنا الموْصِلَ ، فأتينا بيعةً ، فلمَّا دخلوا أُحفوا بهم وقالوا : أينَ كنتم ؟ قالوا : كنا في بلادٍ لا يذكرون الله تعالى ، بها عَبَدَة النيران ، فطُردنا ، فقدمنا عليكم . فلمَّا كان بعدُ ، قالوا : يا سلمان ، إن هاهنا قومًا في هذه الجبال هم أَهلُ دين ، وإنا نُريدُ لقاءهم ، فكن أنتَ هاهنا . قلت : ما أَنا بمفارقكم . فخرجوا وأَنا معهم ، فأَصبحوا بين جبال ، وإذا ماءٌ كثير وخبزٌ كثير ، وإذا صخرة ، فقعدنا عندها ، فلمَّا طلعت الشمسُ ، خرجوا

مِن بين تلك الجبال ، يخرج رجُلٌ رجلٌ مِن مكانه ، كأن الأرواحَ قد انتُزِعَتْ منهم ، حتى كثُروا فرحَّبوا بهم وحفّوا ، وقالوا : أَين كنتم ؟ قالوا : كنا في بلاد فيها عَبَدَةُ نيران . فقالوا : ما هذا الغلامُ ؟ وطفقوا يُثنون عليَّ ، وقالوا : صَحِبَنا من تلك البلاد . فوالله إنهم لكذلك إذ طلعَ عليهم رجل من كهف، فجاء فسلم، فحفُّوا به، وعظَّمه أصحابي، وقال: أَينَ كنتم ؟ فأَخبروه ، فقال : ما هذا الغلامُ ؟ فأَثنوا عليَّ . فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر رسله ، وذكر مولدَ عيسى ابن مريم ، وأَنه وُلِد بغير ذكر ، فبعثه الله رسولًا ، وأَجرى على يديه إحياء الموتى ، وأَنه يخلُق مِن الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه ، فيكون طيرًا بإذن الله ، وأُنزل عليه الإِنجيل ، وعلَّمه التوراة ، وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل ، فكفر به قوم ، وآمن به قوم . إلى أَن قال : فالزموا ما جاء به عيسى ، ولا تُخالِفوا ، فيُخالَف بكم . ثم قال : من أَراد أَن يأخذ مِن هذا شيئًا ، فليأْخُذ . فجعل الرجل يقومُ فيأْخذ الجرَّة مِن الماء والطعام والشيء ، فقام إليه أَصحابي الذين جئتُ معهم ، فسلَّموا عليه ، وعظَّموه ، وقال لهم : الزموا هذا الدين وإياكم أن تفرَّقوا ، واستوصُوا بهذا الغلام خيرًا. وقال لي: يا غلام، هذا دينُ الله الذي تسمعني أقوله ، وما سواه الكفر . قلت : ما أَنا بمفارقك . قال : إنك لا تستطيعُ أَن تكون معي ، إني ما أَخرج من كهفي هذا إلا كُلَّ يومِ أَحد . قلت : ما أنا بمفارقك . قال له أصحابه : يا أَبا فلان ، إن هذا لَغلامٌ ويُخاف عليه . قال لي : أَنت أَعلم . قلتُ : فإني لا أفارقك . فبكى أصحابي لفراقي ، فقال : يا غلامُ ، خُذ من هذا الطعام ما يكفيك للأحد الآخر ، وخذ من الماء ما تكتفي به . ففعلتُه ، فما رأيته نائمًا ولا طاعمًا إلا راكعًا وساجدًا إلى الأحد الآخر . فلمَّا أصبحْنا قال : خذ جرَّتك هذه وانطلق . فخرجت أَتَّبعه حتى انتهينا إلى الصخرة ، وإذا هم قد خرجوا مِن تلك الجبال ينتظرون خروجه ، فَعَدَوْا ، وعاد في حديثه وقال : الزموا هذا الدينَ ، ولا تفرَّقوا ،

واذكروا الله ، واعلموا أن عيسى كان عبدًا لله أنعم عليه . فقالوا : كيف وجدتَ هذا الغلام ؟ فأثنى عليَّ . وإذا خبْز كثير وماء كثير ، فأخذوا ما يكفيهم وفعلتُ . فتفرَّقوا في تلك الجبال ، ورجعْنا إلى الكهف ، فلَبِثْنا ما شاء الله، يخرج كُلَّ أحدٍ ويحفُّون به. فخرج يومًا فحمد الله تعالى ووعظَهم، ثم قال : يا هؤلاء ، إنه قد كَبَرَ سِنِّي ، ورقَّ عَظْمي ، واقترب أَجَلِي، وإنه لا عهدَ لي بهذا البيت مُنْذ كذا وكذا ، ولا بُدَّ من إتيانه ، فاستوصوا بهذا الغلام خيرًا ، فإني رأيتُه لا بأس به . فجزع القومُ ، وقالوا : أنت كبير ، وأنت وحدَك ، فلا نأمن أَن يُصيبك الشيء ولسنا عندك ، ما أَحْوَجَ ما كنا إليك . قال : لا تُراجعوني . فقلت : ما أَنا بمفارقك . قال : يا سلمان ، قد رأيتَ حالي وما كنت عليه، وليس هذا كذلك، أَنا أَمشي أَصوم النهار، وأَقوم الليل ولا أَستطيع أن أحمل معي زادًا ولا غيره ، وأنت لا تقدرُ على هذا . قلتُ : ما أَنا بمفارقك . قال : أَنت أَعلم . وبكوا وودَّعوه ، واتبعتُه يذكر الله ولا يلتفتُ ، ولا يقفُ على شيءٍ ، حتى إذا أَمسينا قال : صَلِّ أَنت ، ونَمْ ، وقُم ، وكُلْ ، واشربْ ، ثم قام يُصلِّي حتى إذا انتهينا إلى بيت المقدس ، وكان لا يرفع طرفَه إلى السماء ، فإذا على باب المسجد مُقعد ، فقال : يا عبد الله ، قد ترى حالي ، فتصدَّقْ عليَّ بشيءٍ. فلم يلتفت إليه ، ودخل المسجد ، فجعل يتبع أَمكنةً يُصلي فيها ، ثم قال : يا سلمان ، لم أَنَمْ مُذ كذا وكذا ، فإن أَنت جعلت أَن توقظني إذا بلغ الظِّلّ مكان كذا وكذا ، نمتُ ، فإني أحب أن أنام في هذا المسجد ، وإلا لم أَنَمْ . قلت : فإني أَفعل . فنام . فقلت في نفسي : هذا لم ينم منذ كذا وكذا ، لأدعنَّه ينام . وكان لمَّا يمشي وأنا معه ، يُقبل عليَّ فيعظني ويخبرني أَنّ لي ربًّا ، وأن بين يديّ جنةً ونارًا وحسابًا ، ويُذكرني نحو ما كان يذكِّر القوم يوم الأحد ، حتى قال : يا سلمان ، إن الله سوف يبعث رسولًا اسمُه أحمد يخرج بِتهامة - وكان رجلًا أَعجميًّا لا يُحسن أَن يقول « محمد » -

علامته أنه يأكُلُ الهدية ، ولا يأكُلُ الصدقة ، بينَ كتفيه خاتم النبوة ، وهذا زمانُه الذي يخرج فيه قد تقارب ، فأمَّا أَنا فإني شيخٌ كبير ، ولا أُحسبني أدركه ، فإن أَنت أَدركتَهُ ، فصدِّقْه واتَّبعْه . قلت : وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه . قال : نعم ، فإنَّ رضا الرحمنِ فيما قال . فلم يمض إلا يسير حتى استيقظ فزعًا يذكُر الله تعالى، فقال : يا سلمان ، مضى الفْيءُ من هذا المكان ولم أَذكر الله ، أَين ما كنتَ جعلتَ على نَفْسِك ، قلت : لأنك لم تَنَمْ منذ كذا وكذا ، فأحببتُ أَن تستوفيَ من النوم . فحمد الله وقام وخرج ، فتبعتُه فمرَّ بالمُقْعَدِ ، فقال : يا عَبدَ الله ، دخلتَ وسألْتُك فلم تُعطني ، وخرجتَ فسألْتُك فلم تُعطني . فقام ينظر هل يرى أَحدًا ، فلم يَرَ ، فدنا منه ، وقال له : ناوِلْني يَدك . فناوله ، فقال : باسم الله . فقام كأنه نشطَ من عقالٍ ، صحيحًا لا عيبَ فيه . فانطلق ذاهبًا ، فكان لا يلوي على أحدٍ ، ولا يقومُ عليه . فقال لي المُقعد : يا غلام ، احمِلْ عليَّ ثيابي حتى أنطلق وأُبشِّر أهلي . فحملت عليه ثيابَهُ ، وانطلق لا يلوي عليَّ ، فخرجتُ في أَثره أَطلبه ، فكلَّما سألتُ عنه ، قالوا : أمامك . حتى لقيني ركْب من كلب فسألْتُهم، فلما سمعوا لغتي أناخ رجلٌ منهم بعيره، فجعلني خلفه حتى أَتَوْا بي بلادهم ، فباعوني ، واشترتْني امرأةٌ من الأنصار فجعلتني في حائطٍ لها . وقدم رسول الله ﷺ فأُخْبِرتُ به ، فأخذتُ شيئًا مِن تمر حائطي وأتيتُه فوجدتُ عنده ناسًا ، وإذا أبو بكر أقربُ الناس إليه ، فوضعتُه بين يديه ، فقال : ما هذا ؟ قلتُ : صدقة . فقال : « كُلُوا » . ولم يأكل . ثم لبثتُ ما شاء الله ، ثم أَخذتُ مثل ذلك وأَتيتُه به ، فوجدتُ عنده ناسًا ، فوضعتُه بين يديه ، فقال : ما هذا ؟ قلت : هدية . فقال : « باسمِ الله » . وأَكَلَ ، وأكلَ القومُ . فقلت في نفسي : هذه من آياته .

كان صاحبي رجلًا أعجميا ، لم يُحسن أَن يقول:تهامة ، فقال : تهمة . قال : فدُرتُ مِن خلفه ، ففطن لي فأَرخى ثوبَهُ ، فإذا الخاتم في

ناحية كتفه الأيسر ، فتبيّنْتُه ، ثم درتُ حتى جلستُ بينَ يديه ، فقلتُ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسولُ الله . قال : « من أنتَ ؟ ». قلت : مملوكٌ . وحدَّثته حديثي ، وحديث الذي كنت معه ، وما أمرني به . قال : « لمن أنت ؟ » . قلت : لامرأةٍ من الأنصار جعلتْني في حائطٍ لها . قال : « يا أبا بكر » . قال : لبَّيك . قال : « اشتَرِهِ » . فاشتراني أبو بكر ، فأعتقني ، فلبثتُ ما شاء الله ، ثم أتيتُه ، فسلَّمتُ عليه ، وقعدتُ بين يديه فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في دين النصارى ؟ قال : « لا خَيْرَ فيهم ولا في دِينِهِمْ». فدَخَلَنِي أمرٌ عظيم، وقلت في نفسي: الذي أقام المُقْعَد، لا خير في هؤلاء ولا في دينهم !! فانصرفتُ وفي نفسي ما شاء الله، وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ **ذلك بأَنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهْبَانًا وأَنَّهم لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٢]. فقال النبيُّ ﷺ: «عليَّ بسلمان». فأتاني الرسول وأنا خائف ، فجئته فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ذلك بأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسينَ** ﴾ » . ثم قال : « يا سلمانُ ، إنَّ الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى ، إنما كانُوا مسلمين » . فقلتُ : والذي بعثك بالحق ، لهو الذي أمرني باتِّباعك ، فقلت له : وإن أمرني بترك دينك وما أنتَ عليه ؟ قال : نعم ، فاتركه فإنه الحق[1] .

قال الذهبي : هذا حديث جيد الإسناد ، حكمَ الحاكمُ بصحته .

لَمَّا قُضيتْ في القِدَم سلامةُ سلمان ، أقبل يُناظر أباه ، في دينٍ قد أباه ، فلم يعرف أبوه جوابا إلا القيد ، وهذا الجواب المرذول ، قديم من يوم ﴿ **حرِّقوه** ﴾، فنزل به ضيف ﴿ **ولنبلونَّكم** ﴾، فنال بإكرامه مرتبةَ

---

(١) أخرجه الحاكم وقال : حديث صحيح عالٍ ولم يخرجاه . وأخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ، وهو عند الذهبي في تاريخ الإسلام وقال : إسناده جيد . سير أعلام النبلاء ١ / ٥٠٦ - ٥١١ ، ٥٢٥ - ٥٣٣ .

« سلمان منَّا »، سمع أن ركْبًا على نيَّة السَّفَر ، فسرق نفسه من حِرز أبيه ، ولا قطع، فوقف نفسه على خدمة الأدِلَّاء ، وقوفَ الأذِلَّاء ، فلمَّا أحسّ الرُّهبان بانقطاع دولتهم ، سلموا إليه أعلام الإعلام على علامات نبيِّنا ، وقالوا : إن زمنه قد أظَلّ ، فاحْذَر أن تَضِلّ ، وإنه يخرج بأرض العرب ، ثم يهاجر إلى أرضٍ بين حرَّتين ، فلو رأيتموه قد فلى الفلا ، والدليل شَوْقُه ، وخلَّى الوطن خلا ، يُزعجه تَوْقُه .

وأبغضتُ فيك النَّخْلَ والنخلُ يانعٌ ... وأعجبني من حَبِّك الطَّلْحُ والضّالُ
وأهوى لجراك السماوةَ والغَضَا ... ولـو أنَّ ضيفيْهِ وُشـاةٌ وعُـذَّالُ

رحل مع رفقةٍ لم يرفُقوا ﴿ فشروه بثمنٍ بخسٍ ﴾ فابتاعه يهودي بالمدينة ، فلمَّا رأى الحرَّتيْن ، توقد حرُّ شـوقه ، وما علمَ المنزل ، بوجْدِ النازل .

أيدري الـرَّبْعُ أيّ دمٍ أراقا ... وأي قلوبِ هذا الرَّكْبِ شاقَى
لنـا ولأهْـلِهِ أبـدًا قلـوبٌ ... تُلاقي في جسـومٍ ما تَلاقَى

فبينا هو يُكابِدُ ساعاتِ الانتظار ، قَدِم البشير ، بقدوم البشير ، وسلمان في رأس نخلة ، فكاد القَلَق يُلقيه ، لولا أنّ الحزْم أمسكه ، كما جرى يوم ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ ، ثم عجل النزول ، ليلقَى رَكْبَ السَّيَّارة .

خليليَّ من نجدٍ قِفا بي على الرُّبَى ... فقد هبَّ من تلك الرُّسومِ نسيمُ

فصاح به المالك : ما لك ولهذا ؟ انصرف إلى شغلك . فأجاب لسان وجْدِه :

* كيف انصرافي ولي في داركُمْ شُغُلُ *

فأَخَذَ يضربه ، فأخذ لسان حاله يترنَّم - لو سمعَ الأطروش -:

خـليليَّ لا والله مـا أنـا منكمـا ... إذا عَلَـمٌ مِنْ آلِ ليلى بـدا ليا

فلما لقي الرسول ، عرضَ نُسخة الرهبان ، بكتاب الأصْل ، فوافق ووافق . يا محمد ، أنت تريد أبا طالب ، ونحن نريد سلمان . أبو طالب إذا

سُئل عن اسمه ، قال : عبد مناف ، وإذا انتسب افتخر بالآباء ، وإذا ذُكِرت الأموالُ عَدَّ الإبل . وسلمان إذا سئل عن اسمه ، قال : عبد الله . وعن نسبه ، قال : ابن الإسلام . وعن لباسه ، قال : التواضع . وعن طعامه ، قال : الجوع. وعن شرابه ، قال : الدموع . وعن وساده ، قال : السهر . وعن فخره ، قال : « سلمان منا » . وعن قصْده ، قال : ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ .

إن بيتـًا أنت ساكِنُـه ... غيرُ محتاجٍ إلى السُّـرُجِ
وعليـلًا أنت زائـرهُ ... قـد أتاه الله بالفَـرَجِ
وَجْهُك المأمولُ حُجَّتُنا ... يومَ يَأتي الناس بالحُجَجِ

وأبو ذرّ ، ثالث الربَّانيِّين على الطريق :

« عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما بلغ أبا ذرٍّ مبْعثُ النبي ﷺ بمكة ، قال لأخيه أُنيس : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي عِلْم هذا الرجل ، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتني ، فانطلق أنيس حتى قدم مكَّة وسَمِع من قوله ، ثم رجَع إلى أبي ذر ، فقال : رأيته يأمُر بمكارم الأخلاق ، وسمعته يقول كلامًا ما هو بالشعر . فقال أبو ذرّ : ما شفيتني فيما أردت . فَتزوَّد أبو ذرّ وحَمَل شنَّةً له فيها ماء ، حتى قدِم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبيّ ﷺ ، وهو لا يعرفه ، وكره أنْ يسأل عنه ، حتى أدركه الليل فاضطجع ، فرآه علي بن أبي طالب فعرف أنه غريب ، ودعاه إلى منزله فتبعه ، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيءٍ حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظَلَّ ذلك اليوم ولا يرى النبيّ ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرَّ به عليٌّ فقال : ما آن للرجل أنْ يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيءٍ ، حتى إذا كان يوم الثالث فَعَل مثل ذلك ، فأقامه علي معه ، ثم قال : ألا تحدِّثني ما الذي أقْدمك ؟ قال : إنْ أعطيتني عهدًا وميثاقًا لَتُرشدني فعلتُ . ففعل ، فأخبره ، فقال : فإنه حقٌّ وهو رسول الله ﷺ ،

فإذا أصبحت فاتبعني ، فإن رأيتُ شيئًا أخاف عليك ، قمتُ كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي . ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه »[١] .

وفي حديث أبي ذرّ ، الذي رواه مسلم من طريق عبد الله بن الصامت الغفاري – ابن أخي أبي ذرّ –: « قد صلَّيت يا ابن أخي قبل أنْ ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين . قلتُ : لمن ؟ قال:لله . قلتُ : فأين توجَّهُ ؟ قال : أتوجَّهُ حيث يوجِّهني ربِّي ، أصلّي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ، أُلقيت كأني خِفاء[٢] . حتى تعلوني الشمس . فقال أُنَيْس : إن لي حاجة بمكة فاكْفِني . فانطلق أنيس حتى أتى مكة ، فراثَ[٣] عليّ ، ثم جاء فقلتُ : ما صنعت ؟ قال : لقيتُ رجلًا بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرْسلَه . قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قوْل الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء[٤] الشعر ، فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون . قال : قلت : فاكْفِني حتى أذهب فأنظُر . قال : فأتيتُ مكة فتضعَّفْتُ رجلًا منهم ، فقلت : أين هذا الذي تدعونه الصابئ ؟ فأشار إليّ فقال : الصابئ. فمال عليَّ أهل الوادي بكل مَدَرَةٍ[٥] وعَظْمٍ ، حتى خررتُ مغشيًّا عليّ . قال : فارتفعتُ حين ارتفعتُ ، كأني على نُصُب أحمر . قال : فأتيتُ زمزم ، فغسلتُ عني الدماء وشربتُ من مائها ، ولقد لبثتُ يا ابن أخي

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحه واللفظ له .

(٢) هو الكساء ، وجمعه أخفية .

(٣) أي : أبطأ عليّ .

(٤) طرقه وأنواعه .

(٥) المَدَر : هو الطين المتلبِّد .

ثلاثين بين ليلة ويوم ، ما كان لي طعام إلَّا ماء زمزم ، فسمنتُ حتى تكسَّرتْ عُكَنُ بطني ، وما وجدتُ على كبدي سَخْفةَ جوع . قال : فبينا أهل مكة في ليلة قمراء إضحِيان[1] ، إذ ضُرِب على أسمِخَتهم ، فما يطوف بالبيت أحد ، وامرأتان منهم تدعوان إسافًا ونائلة . قال : فأتتا عليّ في طوافهما ، فقلتُ : أنكحا أحدَهما الأخرى . قال : فما تناهتا عن قولهما . قال : فأتتا عليّ ، فقلت : هَنٌ مثل الخشبة ، غير أني لا أكْني . فانطلقتا تُولولان وتقولان : لو كان ها هنا أحد من أنفارنا . قال : فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وهما هابطان ، قال : « ما لكما ؟» قالتا : الصابئ بين الكعبة وأستارها . قال : « ما قال لكما ؟ » قالتا : إنه قال لنا كلمة تملأ الفَمَّ . وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ، وطاف بالبيت هو وصاحبُه ، ثم صلَّى ، فلما قضى صلاته ؛ قال أبو ذر : فكنتُ أول من حيَّاه تحيَّة الإسلام ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله . فقال : « وعليك ورحمة الله » . ثم قال : « من أنت ؟ » قال : قلتُ : من غفار . قال : فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته . فقلت في نفسي: كره أن انتميتُ إلى غفار . فذهبتُ آخذ بيده ، فَقَدَعَني صاحبُه - وكان أعلم به مني - ثم رفع رأسه ، ثم قال : « متى كنت ها هنا ؟ » قال : قلت : قد كنتُ ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم . قال : « فمن كان يطعمك ؟ » قال : قلت : ما كان لي طعام إلَّا ماء زمزم ، فسمنتُ حتى تكسَّرت عُكَن بطني ، وما أجد على كبدي سخفة جوع ، قال : « إنها مباركة ، إنها طعامُ طُعم » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ائذن لي في طعامه الليلة . فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر وانطلقتُ معهما ، ففتح أبو بكر بابًا فجعل يقْبض لنا من زبيب الطائف ، وكان ذلك أول طعام أكَلْته بها » .

---

(١) الإضحيان : هي المضيئة . ليلة أضحيان ، وأضحيانه وضحياء ، ويوم ضحيان .

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط : أول مَن هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبيّ ﷺ :

لله درُّها ، أبوها شيطان من شياطين الإنس ، وهي رضي الله عنها كانت ممَّن أسلم قديمًا وبايعتْ وخرجت إلى المدينة مُهاجرة تمشي ، فتبعها أخواها عمارة والوليد ليردَّاها ، فلم ترجع .

قال ابن سعد : « هي أول مَن هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ ، ولا نَعْلم قرشيَّة خرجتْ من بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله ورسوله إلَّا أمّ كلثوم . خرجتْ من مكة وحدها ، وصاحبت رجلا من خزاعة حتى قدمتْ في الهدنة ، فخرج في أثرها أخواها ، فقدما ثاني يوم قدومها ، فقالا : يا محمد ، شرطنا أَوْف به . فقالت أمّ كلثوم : يا رسول الله - ﷺ - أنا امرأة ، وحال النساء إلى الضعف ، فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صَبْر لي . فنقض الله العهد في النساء ، وأنزل آية الامتحان ، وحكم في ذلك بحُكم رضوا به كلُّهم ، فامتحنها رسول الله ﷺ ، والنساءَ بعدها : « ما أخرجكنّ إلَّا حبُّ الله ورسوله والإسلام ، لا حبَّ زوج ولا مال ؟ » فإذا قلن ذلك لم يُرددن .

هاجرت رضي الله عنها ولم يكن لها زوج بمكة ، فتزوجها زيد ثم الزبير ، ثم عبد الرحمن بن عوف ، ثم عمرو بن العاص فماتت عنده »[1].

فانظر كيف تصنع العقيدة وطلَبُ الحقّ بامرأةٍ عظيمة ، كان والدها شيطان قريش ، فتخرج ماشية إلى رسول الله ﷺ ... والله إن هذا الموقف تعجز عن تصويره الكلمات ... امرأة ليس لها زوج ، تعاني حرَّ هجير جبال مكة الكالح ووحشتها ، تفرُّ بدينها ، ويلحقها أخواها فلا ترجع ، وينزل الله رحمتها من السماء .

أمّا الثباتُ على الحق : فآسِية زوْج فرعون مثالٌ عالٍ وغالٍ لكلِّ جِيل :

فالأنموذج المثالي يقصُّه الله علينا في القرآن الكريم : ﴿ **وضَرَب الله مثلًا**

---

(١) الطبقات لابن سعد ٠ / ٢٣٠ .

للذين آمنوا امرأةَ فرعون إذ قالتْ ربِّ ابن لي عندك بيتًا في الجنَّة ونجِّني من فِرعون وعَملِه ونجِّني مِنَ القومِ الظالمين ﴾ [التحريم : ١١] .

قال الحافظ : ومن فضائل آسية امرأة فرعون : اختارت القَتْل على المُلْك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه .

وروى ابن جرير بسنده ، عن سليمان التيمي : كانت امرأة فرعون تُعذَّب في الشمس ، فإذا انصرفَ عنها أظلَّتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتَها في الجنة .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمُل من النساء إلّا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإنَّ فضْل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . رواه البخاري .

قال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تسأل : مَن غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت بربِّ موسى وهارون . فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضتْ على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي . فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتُزعت روحُها .

انظر رحمك الله ، ها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون ، عن طَلَب النجاة وحدها ، وقد تبرَّأت من قصر فرعون ، طالبة إلى ربِّها بيتًا في الجنَّة . وتبرَّأت من صِلتها بفرعون ، فسألت ربَّها النجاة منه . وتبرَّأت من عمله ؛ مخافة أن يلحقَها من عمله شيءٌ ، وهي ألصق الناس به . وتبرَّأت من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم .

موقف آسية ، مَثَلٌ للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره ؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأةٌ ما تشتهي ، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تُعْرِض عن هذا العَرَض فحسب ، بل اعْتبرته شرًّا ودَنَسًا وبلاءً ؛ تستعيذ بالله منه ، وتتفلَّت

من عقابيله ، وتطْلُب النجاة منه ، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قويَّة ، وهذا فَضْلٌ آخر عظيم ؛ فالمرأة أشدُّ شعورًا وحساسيةً بوطأة المجتمع وتصوُّراته ، ولكنَّ هذه المرأة وحدها ، في وَسَط ضَغْط المجتمع،وضغْط القصر ، وضَغْط المِلك ، وضغْط الحاشية ، والمقام الملوكي ، في وَسَط هذا كلِّه ، رفعتْ رأسها إلى السماء وحدها في خِضمّ هذا الكفر الطاغي ، وهي نموذج عالٍ في التجرُّد لله من كل هذه المؤثِّرات ، وكل هذه الأواصر ، وكلِّ هذه المعوِّقات ، وكلِّ هذه الهواتف ؛ ومنْ ثمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد ، الذي تتردَّد كلماته في جَنَبات الكون ، وهي تتنزَّل من الملأ الأعلى .

وإفراد امراة فرعون بالذِّكْر مع مريم ابنة عمران ، يدلُّ على المكانة العالية ، التي جعلتها قرينة مريم في الذِّكْر ، بسبب ملابسات حياتها .

ذو النُّوريْن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه : قمَّةٌ شامخةٌ في الثَّبات على الحقِّ حتى القَتْل :

لله درُّه وهو الشيخُ الطاعنُ في السنِّ ، يريده المنافقون على خلْع قميص ألبسه الله إيَّاه ، فلا ينزعُه ، ويصبر تنفيذًا لوصيَّة رسول الله ﷺ ، ويُضَحِّي بنفسه ثمنًا لثباته حتى يُسال دمُه الطاهر . فلله دَرُّ أُمٍّ أَوْحَدَتْ به !

ابن المسيِّب سيِّدُ التابعين ؛ يصْدع بالحقِّ ، ويُضْرب ، ويُطاف به في الطرقات :

وهذا سيِّد التابعين يصْدَع بالحق ولا يأبه ، ويُطاف به ويُضرب . فلله درُّه من سيد !

ومحمدُ بن أسْلَم الطوسيّ ، أمْرُه سماوي :

« قال محمد بن قاسم : سمعتُ إسحاق بن راهويْه ذات يوم ، روى في ترجيع[1] الأذان أحاديث كثيرة ، ثم روى حديث عبد الله بن زيد

(١) الترجيع : هو العَوْد إلى الشهادتين مرتين مرتين برفع الصوت ، بعد قولها مرتين مرتين بخْفض الصوت ، وهو ثابت في حديث أبي محذورة عند مسلم ، وأحمد ، وأبي داود ، والدارقطني ، والبيهقي ، وابن حبان ، وابن خزيمة .

الأنصاري[١] ، ثم قال : يا قوم ، قد حدَّثتُكم بهذه الأحاديث في الترجيع ، وليس في غير الترجيع إلَّا حديث واحد : حديث عبد الله بن زيد ، وقد أمَرَ محمدُ بن أسلم الناسَ بالترجيع ، فقلتم : هذا مبتدع ، عامة أهل بلده بالكورة غوغاء . ثم قال : احذروا الغوغاء ، فإنهم قتلة الأنبياء . فلما كان الليل ، دخلت عليه ، فقلت : يا أبا يعقوب ، حدَّثتَ بهذه الأحاديث بالترجيع ، فما لك لا تأمر مؤذِّنك بالترجيع ؟ فقال : يا مغفَّل ، ألم تسمع ما قُلت في الغوغاء ، إنما أخافُ الغوغاء ، فأمَّا أمْر محمد بن أسلم ، فإنه سماوي ، كلما أخَذ في شيء تمَّ له ، ونحن عبيدُ بطوننا ، لا يتمُّ لنا أمْرٌ نأْخُذ فيه ، نحن عند محمد بن أسلم مثل السُّرَّاق » .

إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : أعزَّ الله به الإسلام يوم الفتنة :

لولا سياطٌ على ظهْر ابن حنبل ، ما كان إمامَ أهل السُّنَّة ؛ ثَبَـتَ ابن حنبل في محنة خَلْق القرآن ، فثبَّت الله بثباته الأمة بأسْرها .. ويذكُر التاريخ بأحْرفٍ من نور وشذا عطر أرقَّ من الورود هذا الموقف الفذّ لشيخ الإسلام الفذّ حين تزلزلتْ وتضعضعت الجبالُ الرواسي .

وشيخه أبو نعيم الفَضْل بن دُكَيْن ، جَبَل شامخ :

يقول أبو نعيم للوالي – لمَّا امتحنه في خلق القرآن –: « أدركتُ الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ؛ الأعمش فَمَن دونه،يقولون : القرآن كلام الله . وعنقي أهون من زِرِّي هذا . فقام إليه أحمد بن يونس ، فقبَّل رأسه – وكان بينهما شحناء – وقال : جزاك الله من شيخ خيرًا »[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود ، وأحمد ، وابن ماجه ، والبيهقي ، وإسناده صحيح ، وصحَّحه ابن حبان وابن خزيمة والبخاري فيما نقله عنه الترمذي في العلل الكبير .

(٢) السير ١٠ / ١٤٩ ، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ ٤٨١ .

ونعيم بن حماد أوْصى أن يُدفن في قيوده ، وقال : إني مخاصِم :

« أُخِذَ رحمه الله في أيام المحنة سنة ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين ، وألقوه في السجن بسامراء فلم يزل محبوسًا بها ، حتى مات في السجن سنة ثمان وعشرين ومائتين ، فجُرَّ بأقياده وأُلقي في حفرة ، ولم يُكفن ولم يُصلَّ عليه ، وكان رحمه الله أوْصى أن يُدفن في قيوده وقال : إني مخاصم »[1] .

وشيخ الإسلام الأنصاري ، طوْدٌ أشمٌّ في السُّنة :

« كان شيخ الإسلام الهروي طودًا راسيًا في السُّنّة ، لا يتزلزل ولا يلين ، وقد امْتُحن مرات ، وأُوذِيَ ، ونُفي من بلده .

قال ابن طاهر : سمعته يقول : عُرِضْتُ على السيف خمس مرات ، لا يُقال لي : ارجع عن مذهبك . لكن يقال لي : اسكت عمن خالفك . فأقول : لا أسكت »[2] .

أولئك آبائي فَجِئني بمثلهم ... إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامعُ

* * *

انتهى المُجلَّد الرابع ويليه المُجلَّد الخامس

إن شاء الله تعالى

---

(١) السير ١٠ / ٦١٠ ، ومناقب الإمام أحمد صـ ٤٨٣ .

(٢) السير ١٨ / ٥٠٩ .

□ فهرس المجلد الرابع □

الموضـوع | الصفحة

